



صُورٌ مِنْ حَيَاةِ النَّابِعِينَ

٣٧ صُورَةٌ

«طَبْعَةٌ مَزِيدَةٌ وَمُنْقَحَةٌ»

الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ رَأْفَتُ الْبَاشَا



صُورٌ مِنْ حَيَاةِ النَّابِعِينَ

صُورٌ مِنْ حَيَاةِ النَّابِعِينَ

٣٧ صُورَةٌ

الدكتور عبد الرحمن رأف الباشا

الطبعة الخامسة عشرة
«طبعة مزيّدة ومُنقحة»

١٩٩٧م - ١٤١٨هـ

دارُ الأملِ الإسلاميَّة
للنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ إِنِّي أَهْبَيْتُ الصُّفُوءَ الْمُخْتَارَةَ مِنْ ثَقَاتِ التَّابِعِينَ

هَبًّا لَا يَفُوقُهُ إِلَّا هُبِّي لِصَحَابَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ

صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ

اللَّهُمَّ فَزِّبْنِي يَوْمَ الْفَرَجِ الْأَكْبَرِ الَّذِي مِنْ هَوْلِهِ أَوْهَلُ الدَّاءِ

فَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَيُّ مَا أَهْبَيْتُهُمْ إِلَّا فِيكَ يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ

عبد الله

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين ، والصَّلَاة والسَّلَام على سيد المرسلين وخاتم النبيين ، وآله وأصحابه ، والذين اتبعوهم واقتدوا بهم قولاً ، وفِعْلاً ، وعدلاً ، وإحساناً ، وبعد ...

فها نحن ندخل في رحاب كتاب « صور من حياة التابعين » الذين عاشوا قريباً من عصر النبوة ، وتعلمذوا على أيدي رجال المدرسة المحمدية الأولى ... فإذا هم صورة لصحابة رسول الله ﷺ في رسوخ الإيمان ، والتعالي عن عَرَض الدنيا ، والتفاني في مرضاة الله ...

وكانوا حلقة مُحكمة مؤثرة بين جيل الصحابة رضوان الله عليهم وجيل أئمة المذاهب وَمَنْ جاء بعدهم .

وقد قسمهم علماء الحديث إلى طبقات ، أولهم مَنْ لَحِقَ العشرة المبشرين بالجنة ، وآخرهم مَنْ لَقِيَ صغار الصَّحابة أو مَنْ تأخرت وفاتهم .

إن هذا الكتاب بطبعته الجديدة ؛ جُمعت به الكتب الستة التي سبق نشرها متضمنةً إضافاتٍ ، وتنقيحاتٍ ، تركها المؤلف - رحمه الله - وتنشر للمرة الأولى ... آمين من العليّ القدير أن يعيننا على إصدار بقية ما تركه المؤلف - رحمه الله - من صورٍ جديدةٍ تنشر للمرة الأولى .

ولا يفوتنا أن ننبّه القارئ الكريم إلى أننا أصحاب الحقّ الوحيدون لنشر ، وطباعة ، وتوزيع جميع كتب الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا .

كما نشكر قارئنا الكريم على اختيار أحد منشوراتنا ونطلب منه العون في
إبداء الرأي والإشارة لأي خطأ قد يرد لكي تعم الفائدة ...
والله من وراء القصد .

الناشر

دار الأدب الإسلامي

يمان عبد الرحمن رأفت الباشا

رضوان عبد الرحمن رأفت الباشا

عَطَاؤُ بْنُ أَبِي رَسَاحٍ

« مَا رَأَيْتُ أَحَدًا يُرِيدُ بِالْعِلْمِ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
غَيْرَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ : عَطَاءٌ ... وَطَاوُسٌ ... وَمُجَاهِدٌ »

[سَلَمَةُ بْنُ كَهَيْلٍ]

هَذَا نَحْنُ أَوْلَاءُ فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْ شَهْرِ « ذِي الْحِجَّةِ » سَنَةِ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ
لِلْهِجْرَةِ ... وَهَذَا الْبَيْتُ الْعَتِيقُ يَمْوُجُ بِالْوَافِدِينَ عَلَى اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ (١).
مُشَاءً وَرُكْبَانًا .

وَشُيُوخًا وَشُبَّانًا ، وَرِجَالًا وَنِسَاءً .

فِيهِمُ الْأَسْوَدُ وَالْأَبْيَضُ .

وَالْعَرَبِيُّ وَالْعَجَمِيُّ .

وَالسَّيِّدُ وَالْمَسْهُودُ ...

لَقَدْ قَدِمُوا جَمِيعًا عَلَى مَلِكِ النَّاسِ مُحِبِّينَ (٢) مُلْبِّينَ ، رَاجِينَ مُؤْمِلِينَ .

وَهَذَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ (٣) خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَعْظَمُ مُلُوكِ الْأَرْضِ

يَطُوفُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ حَاسِرَ (٤) الرَّأْسِ حَافِي الْقَدَمَيْنِ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا إِزَارٌ وَرِدَاءٌ ...

شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ كَشَّانٍ بَقِيَّةَ رَعَايَاهُ مِنْ إِخْوَتِهِ فِي اللَّهِ .

وَكَانَ مِنْ خَلْفِهِ وَلَدَاهُ .

(١) من كل فج : من كل طريق .

(٢) مُحِبِّينَ : متخشين لله .

(٣) سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : أحد كبار خلفاء بني أُمَيَّةَ ، أخرج الخلافة من أولاده وعهد بها للخليفة الزاهد عُمر ابن عبد العزيز .

(٤) حاسر الرأس : مكشوف الرأس .

وَهُمَا غُلَامَانِ كَطَلْعَةِ الْبَدْرِ بَهَاءً وَرُوءًا، وَكَأَكْمَامٍ^(١) الْوَرْدِ نَضَارَةً وَطِبَاءً.

وَمَا أَنْ اِنْتَهَى مِنْ طَوَافِهِ حَتَّى مَالَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ خَاصَّتِيهِ وَقَالَ :
أَيْنَ صَاحِبُكُمْ ؟ .

فَقَالَ : إِنَّهُ هُنَاكَ قَائِمٌ يُصَلِّي ...

وَأَشَارَ إِلَى النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .

فَاتَّبَعَهُ الْخَلِيفَةُ وَمِنْ وَرَائِهِ وَلَدَاهُ إِلَى حَيْثُ أُشِيرَ إِلَيْهِ ...

وَهُمْ رِجَالُ الْحَاشِيَةِ^(٢) بِأَنْ يَتَّبِعُوا الْخَلِيفَةَ لِيَفْسَحُوا لَهُ الطَّرِيقَ ، وَيَدْفَعُوا عَنْهُ أَدَى الزَّحَامِ ؛ فَتَنَاهُمْ^(٣) عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ :

هَذَا مَقَامٌ يَسْتَوِي فِيهِ الْمُلُوكُ وَالشُّوْقَةُ ...

وَلَا يُفْضَلُ فِيهِ أَحَدٌ أَحَدًا إِلَّا بِالْقَبُولِ وَالتَّقْوَى ...

وَرُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرٍ^(٤) قَدِمَ عَلَى اللَّهِ ؛ فَتَقَبَّلَهُ بِمَا لَمْ يَتَقَبَّلْ بِهِ الْمُلُوكُ .

ثُمَّ مَضَى نَحْوَ الرَّجُلِ ؛ فَوَجَدَهُ مَا يَزَالُ دَاخِلًا فِي صَلَاتِهِ ، غَارِقًا فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ .

وَالنَّاسُ جُلُوسٌ وَرَاءَهُ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ...

فَجَلَسَ حَيْثُ اِنْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ ...

وَأَجْلَسَ مَعَهُ وَلَدَيْهِ ...

(١) أكمام الورد : ما يُغْلَفُ الْوَرْدُ مِنْ أَوْرَاقِ خَضِرٍ أَوَّلَ تَفْتَحِهِ .

(٢) حاشية الخليفة : خَاصَّتُهُ وَمَعَاوِنُهُ .

(٣) تناهم عن ذلك : رَدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ . (٤) الأشعث : المتلبد الشعر ، والأغبر : الذي تكاثر عليه الغبار .

وَطَفَقَ الْفَتَيَانِ « الْقَرَشِيَّانِ » يَتَأَمَّلَانِ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي قَصَدَهُ أَمِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ ، وَجَلَسَ مَعَ عَامَّةِ النَّاسِ يَنْتَظِرُ فَرَاغَهُ مِنْ صَلَاتِهِ .

فَإِذَا هُوَ شَيْخٌ « حَبَشِيٌّ » ، أَسْوَدُ الْبَشَرَةِ ، مُقْلَقٌ^(١) الشَّعْرِ ، أَفْطَسُ^(٢)
الْأَنْفِ ، إِذَا جَلَسَ بَدَأَ كَالْغُرَابِ الْأَسْوَدِ .

* * *

وَلَمَّا انْتَهَى الرَّجُلُ مِنْ صَلَاتِهِ ؛ مَالَ بِشِقِّهِ^(٣) عَلَى الْجِهَةِ الَّتِي فِيهَا
الْخَلِيفَةُ فَحَيَّاهُ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَرَدَّ التَّحِيَّةَ بِمِثْلِهَا .

وَهُنَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ الْخَلِيفَةُ ، وَجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ مَنَاسِكِ^(٤) الْحَجِّ مَنْسَكًا
مَنْسَكًا وَهُوَ يَفِيضُ بِالْإِجَابَةِ عَنْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ ...

وَيُفْصِّلُ الْقَوْلَ فِيهَا تَفْصِيلاً لَا يَدْعُ سَبِيلاً لِمُسْتَرِيدٍ ...

وَيُسْنِدُ كُلَّ قَوْلٍ يَقُولُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَلَمَّا انْتَهَى الْخَلِيفَةُ مِنْ مُسَاءَلَتِهِ جَزَّاهُ^(٥) خَيْرًا ، وَقَالَ لَوْلَدَيْهِ :

قَوْمًا ، فَقَامَا ... وَمَضَى الثَّلَاثَةُ نَحْوَ الْمَسْعَى .

وَفِيمَا هُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ؛ سَمِعَ الْفَتَيَانِ
الْمُنَادِينَ يَنَادُونَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

لَا يُفْتِي النَّاسَ فِي هَذَا الْمَقَامِ إِلَّا عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ...

فَإِنْ لَمْ يُوجَدْ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي نَجِيحٍ .

فَالْتَقَتَ أَحَدُ الْغُلَامَيْنِ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ :

(١) مقلق الشعر : شديد تجعيد الشعر .

(٢) أفطس الأنف : شديد انخفاض قَصْبَةِ الأنف .

(٣) مال بشقه : مال بطرفه .

(٤) مناسك الحج : عبادات الحج .

(٥) جزَّاه خيراً : قَالَ لَهُ : جزاك الله خيراً .

كَتَيْفَ يَأْمُرُ عَامِلٌ^(١) أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ النَّاسَ بِأَلَّا يَسْتَفْتُوا أَحَدًا غَيْرَ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَصَاحِبِهِ ...

ثُمَّ جِئْنَا نَحْنُ نَسْتَفْتِي هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي لَمْ يَأْبَهُ^(٢) لِلْخَلِيفَةِ ، وَلَمْ يُؤْفِهِ حَقَّهُ مِنَ التَّعْظِيمِ !! .

فَقَالَ سُلَيْمَانُ لَوْلَدِهِ :

هَذَا الَّذِي رَأَيْتَهُ - يَا بُنَيَّ - وَرَأَيْتَ دُلْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ هُوَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ صَاحِبُ الْفُتْيَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ...

وَوَارِثُ « عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ » فِي هَذَا الْمَنْصِبِ الْكَبِيرِ .

ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ : يَا بُنَيَّ ... تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ...

فَبِالْعِلْمِ يَشْرَفُ الْوَضِيعُ ...

وَيَنْبُتُ الْخَامِلُ ...

وَيَعْلُو الْأَرْقَاءُ عَلَى مَرَاتِبِ الْمُلُوكِ ...

* * *

لَمْ يَكُنْ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مُبَالِغًا فِيمَا قَالَهُ لِإِنِّيهِ فِي شَأْنِ الْعِلْمِ .

فَقَدْ كَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ فِي صِغَرِهِ عَبْدًا مَمْلُوكًا لِامْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ .

غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ أَكْرَمَ الْعُلَامَ « الْحَبَشِيِّ » بِأَنْ وَضَعَ قَدَمَيْهِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَطْفَارِهِ^(٣) فِي طَرِيقِ الْعِلْمِ ، فَتَقَسَّمَ وَقْتُهُ أَفْصَامًا ثَلَاثَةً :

(١) عامل الخليفة : من يلي له عملاً كالوالي ونحوه .

(٢) لم يأبه للخليفة : لم يهتم به .

(٣) نعومة أظفاره : أي منذ طفولته .

فَقَسَّمْ جَعَلَهُ لِسَيِّدَتِهِ ؛ يَخْدُمُهَا فِيهِ أَحْسَنَ مَا تَكُونُ الْخِدْمَةُ ، وَيُؤَدِّي لَهَا
حُقُوقَهَا عَلَيْهِ أَكْمَلَ مَا تُؤَدَّى الْحُقُوقُ .

وَقَسَّمْ جَعَلَهُ لِرَبِّهِ ؛ يَفْرُغُ فِيهِ لِعِبَادَتِهِ أَصْفَى مَا تَكُونُ الْعِبَادَةُ وَأَخْلَصَهَا لِلَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ .

وَقَسَّمْ جَعَلَهُ لِطَلَبِ الْعِلْمِ ؛ حَيْثُ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ بَقِيَ حَيًّا مِنْ صَحَابَةِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَطَفِقَ يَنْهَلُ مِنْ مَنَاهِلِهِمُ الثَّرَّةَ ^(١) الصَّافِيَةَ .

فَأَخَذَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ الزُّبَيْرِ ^(٢) ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى امْتَلَأَ
صَدْرُهُ عِلْمًا وَفَقْهًا وَرِوَايَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

وَلَمَّا رَأَتْ السَّيِّدَةُ الْمَكِّيَّةُ أَنَّ غُلَامَهَا قَدْ بَاعَ نَفْسَهُ لِلَّهِ ... وَوَقَفَ حَيَاتُهُ
عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ...

تَحَلَّتْ عَنْ حَقِّهَا فِيهِ ، وَأَعْتَقَتْ رَقَبَتَهُ تَقَرُّبًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ لَعَلَّ اللَّهَ يَنْفَعُ بِهِ
الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ ...

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ اتَّخَذَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَجَاحٍ الْبَيْتَ الْحَرَامَ مَقَامًا لَهُ ...

فَجَعَلَهُ دَارَهُ الَّتِي يَأْوِي إِلَيْهَا ...

وَمَدْرَسَتَهُ الَّتِي يَتَعَلَّمُ فِيهَا ...

وَمُصَلَّاهُ الَّذِي يَتَقَرَّبُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ بِالتَّقْوَى وَالطَّاعَةِ .

(١) الثَّرَّةُ : الغزيرة .

(٢) انظرهم في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

حَتَّى قَالَ الْمُؤَرِّخُونَ : كَانَ الْمَسْجِدُ فِرَاشَ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ نَحْواً مِنْ عَشْرِينَ عَاماً ...

* * *

وَقَدْ بَلَغَ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ مَنَزَلَةً فِي الْعِلْمِ ؛ فَاقَتْ كُلَّ تَقْدِيرٍ ...

وَسَمَّا إِلَى مَرْتَبَةٍ لَمْ يَنْلُهَا إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ مِنْ مُعَاَصِرِيهِ ...
فَقَدْ رُوي أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ ، أَمَّ « مَكَّةَ »
مُعْتَمِراً^(١) ...

فَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ يَسْأَلُونَهُ وَيَسْتَفْتُونَهُ ، فَقَالَ :
إِنِّي لِأَعْجَبُ لَكُمْ يَا أَهْلَ « مَكَّةَ » ...
أَتَجْمَعُونَ لِي الْمَسَائِلَ لِتَسْأَلُونِي عَنْهَا وَفِيكُمْ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ؟ !

* * *

وَقَدْ وَصَلَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ دَرَجَةٍ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ
بِخَصْلَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ :

أَوَّلَاهُمَا : أَنَّهُ أَحْكَمَ سُلْطَانَهُ عَلَى نَفْسِهِ ؛ فَلَمْ يَدْعَ لَهَا سَبِيلاً لِتَرْتَعَ^(٢) فِيمَا
لَا يَنْفَعُ ...

وَتَانِيَتُهُمَا : أَنَّهُ أَحْكَمَ سُلْطَانَهُ عَلَى وَقْتِهِ ؛ فَلَمْ يَهْدِرْهُ فِي فُضُولِ^(٣) الْكَلَامِ
وَالْعَمَلِ ...

حَدَّثَ مُحَمَّدُ بْنُ سُوقَةَ^(٤) جَمَاعَةً مِنْ زُوَارِهِ قَالَ :

(١) أُمَّ مَكَّةَ مُعْتَمِراً : جَاءَ مَكَّةَ لأداء العمرة .

(٢) لَتَرْتَعَ : لِتَلْذُذْ وَتَتَنَمَّ .

(٣) فُضُولُ الْكَلَامِ : الزَّائِدُ عَنِ الْحَاجَةِ مِنَ الْكَلَامِ .

(٤) مُحَمَّدُ بْنُ سُوقَةَ : أَحَدُ عُلَمَاءِ الْكُوفَةِ وَغُبَّادِهَا .

أَلَا أَسْمِعُكُمْ حَدِيثًا لَعَلَّهُ يَنْفَعُكُمْ كَمَا نَفَعَنِي ؟ .

قَالُوا : بَلَى .

قَالَ : نَصَحَنِي عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَجَاحٍ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَقَالَ : يَا بَنَ أَخِي ...

إِنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا كَانُوا يَكْرَهُونَ فُضُولَ الْكَلَامِ .

فَقُلْتُ : وَمَا فُضُولُ الْكَلَامِ عِنْدَهُمْ ؟ .

فَقَالَ : كَانُوا يَعُدُّونَ كُلَّ كَلَامٍ فُضُولًا مَا عَدَا كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُقْرَأَ

وَيُفْهَمَ ...

وَحَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُزَوَّى وَيُذَرَّى^(١) ...

أَوْ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ ...

أَوْ عِلْمًا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ...

أَوْ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِحَاجَتِكَ وَمَعِيشَتِكَ الَّتِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْهَا .

ثُمَّ حَدَّقَ^(٢) إِلَى وَجْهِهِ وَقَالَ :

أَتُنْكِرُونَ ﴿١﴾ إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿٣﴾ ﴿٤﴾ ...

وَأَنَّ مَعَ كُلِّ مِنْكُمْ مَلَائِكَةٌ ﴿٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿٥﴾ * مَا يَلْفِظُ

مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿٦﴾ ﴿٧﴾ .

(١) يُذَرَّى : يفهم .

(٢) حَدَّقَ إِلَى وَجْهِهِ : حَدَّدَ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِهِ .

(٣) الْحَافِظُونَ الْكَاتِبُونَ : الْوُقَبَاءُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَنَا وَيَكْتُبُونَ أَقْوَالَنَا .

(٤) سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ : مِنَ الْآيَةِ ١٠ - ١١ .

(٥) قَعِيدٌ : قَاعِدَانِ .

(٦) رَقِيبٌ عَتِيدٌ : رَقِيبٌ حَاضِرٌ .

(٧) سُورَةُ ق : مِنَ الْآيَةِ ١٧ - ١٨ .

ثُمَّ قَالَ : أَمَا يَسْتَحْيِ أَحَدُنَا لَوْ نُشِرَتْ عَلَيْهِ صَحِيفَتُهُ الَّتِي أَمْلَاهَا صَدْرُ^(١)
نَهَارِهِ ؛ فَوَجَدَ أَكْثَرَ مَا فِيهَا لَيْسَ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ ، وَلَا أَمْرِ دُنْيَاهُ ...

* * *

وَلَقَدْ نَفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعِلْمِ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ طَوَائِفَ كَثِيرَةٍ مِنَ النَّاسِ :
مِنْهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ الْمُتَخَصِّصُونَ .
وَمِنْهُمْ أَرْبَابُ الصَّنَاعَاتِ الْمُخْتَرِفُونَ .
وَمِنْهُمْ غَيْرُ ذَلِكَ ...

حَدَّثَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ^(٢) عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :
أَخْطَأْتُ فِي خَمْسَةِ أَبْوَابٍ مِنَ الْمَنَاسِكِ بِمَكَّةَ فَعَلَمَنِيهَا حَجَّامٌ^(٣) ...
وَذَلِكَ أَنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَحْلِقَ لِأَخْرُجَ مِنَ الْإِحْرَامِ ، فَأَتَيْتُ حَلَّاقًا ، وَقُلْتُ :
بِكُمْ تَحْلِقُ لِي رَأْسِي ؟ .

فَقَالَ : هَذَاكَ اللَّهُ ...

الثُّسْكُ^(٤) لَا يُشَارِطُ فِيهِ ، إِنْ جَلَسَ وَأَعْطَى مَا يَتَيَسَّرُ لَكَ .
فَخَجَلْتُ وَجَلَسْتُ .
غَيْرَ أَنِّي جَلَسْتُ مُنْحَرِفًا عَنِ الْقِبْلَةِ .
فَأَوَّمَا إِلَيَّ بِأَنْ أَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ ؛ فَفَعَلْتُ ، وَارْدَدْتُ خَجَلًا عَلَى خَجَلِي .
ثُمَّ أَعْطَيْتُهُ رَأْسِي مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ لِيَحْلِقَهُ ، فَقَالَ :
أَدِرْ شِقْلَكَ الْأَيْمَنَ ؛ فَأَذَرْتُهُ .

(٣) المراد بالحجام هنا الحلاق .

(٤) الثُّسْكُ : العبادة .

(١) صدر نهاره : أول نهاره .

(٢) أبو حنيفة النعمان : انظره ص ٤٨٤ ، ٤٩٤ .

وَجَعَلَ يَخْلُقُ رَأْسِي وَأَنَا سَاكِتٌ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَأَعْجَبُ مِنْهُ ، فَقَالَ لِي :
مَا لِي أَرَاكَ سَاكِتًا ؟ ...

كَبُرَ ...

فَجَعَلْتُ أَكْبُرُ حَتَّى قُمْتُ لِأَذْهَبَ .

فَقَالَ : أَتَيْنَ تُرِيدُ ؟ .

فَقُلْتُ : أُرِيدُ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى رَحْلِي .

فَقَالَ : صَلِّ رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ امْضِ إِلَى حَيْثُ تَشَاءُ .

فَصَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ مِثْلُ هَذَا مِنْ حَجَامٍ إِلَّا إِذَا كَانَ ذَا عِلْمٍ .

فَقُلْتُ لَهُ :

مِنْ أَتَيْنَ لَكَ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنَ الْمَنَاسِكِ ؟ .

فَقَالَ : لِلَّهِ أَنْتَ ...

لَقَدْ رَأَيْتُ عَطَاءَ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ يَفْعَلُهُ ، فَأَخَذْتُهُ عَنْهُ ، وَوَجَّهْتُ إِلَيْهِ النَّاسَ .

* * *

وَلَقَدْ أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَى عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ فَأَعْرَضَ (١) عَنْهَا أَشَدَّ
الْإِعْرَاضِ ، وَأَبَاهَا أَعْظَمَ الْإِبَاءِ ... وَعَاشَ عُمرُهُ كُلَّهُ يَلْبَسُ قَمِيصًا لَا يَزِيدُ ثَمَنُهُ
عَلَى خَمْسَةِ دَرَاهِمٍ .

وَلَقَدْ دَعَاهُ الْخُلَفَاءُ إِلَى مُصَاحَبَتِهِمْ ... فَلَمْ يُجِبْ دَعْوَتَهُمْ ؛ لِخَشْيَتِهِ

(١) أَعْرَضَ عَنْهَا : صَدَّ عَنْهَا ، وَلَمْ يَبْغُ بِهَا .

عَلَى دِينِهِ مِنْ دُنْيَاهُمْ ، لَكِنَّهُ - مَعَ ذَلِكَ - كَانَ يَفِدُ عَلَيْهِمْ ؛ إِذَا وَجَدَ فِي ذَلِكَ
فَائِدَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، أَوْ خَيْرًا لِلْإِسْلَامِ .

مِنْ ذَلِكَ مَا حَدَّثَ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيُّ قَالَ :

انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي نُرَيْدٍ هِشَامَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَلَمَّا غَدَوْنَا قَرِيبًا مِنْ
« دِمَشْقٍ » ؛ إِذَا نَحْنُ بِشَيْخٍ عَلَى حِمَارٍ أَسْوَدَ عَلَيْهِ قَمِيصٌ صَفِيقٌ ^(١) وَجُبَّةٌ بَالِيَةٌ ،
وَقَلَنْسُوءَةٌ ^(٢) لَا زِقَّةَ بِرَأْسِهِ ، وَرِكَابَاهُ مِنْ خَشَبٍ .

فَصَحَحْتُ مِنْهُ ، وَقُلْتُ لِأَبِي :

مَنْ هَذَا ؟ .

فَقَالَ : اسْكُتْ ، هَذَا سَيِّدُ فَقَهَاءِ الْحِجَارِ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ...

فَلَمَّا قَرُبَ مِنَّا نَزَلَ أَبِي عَنْ بَعْلَتِهِ ، وَنَزَلَ هُوَ عَنْ حِمَارِهِ ، فَأَعْتَنَقَا
وَتَسَاءَلَا ^(٣) ، ثُمَّ عَادَا فَرَكَبَا ، وَانْطَلَقَا حَتَّى وَقَفَا عَلَى بَابِ قَصْرِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ
الْمَلِكِ .

فَمَا أَنْ اسْتَقَرَّ بِهِمَا الْجُلُوسُ حَتَّى أُذِنَ لَهُمَا ، فَلَمَّا خَرَجَ أَبِي قُلْتُ لَهُ :

حَدَّثَنِي بِمَا كَانَ مِنْكُمَا ، فَقَالَ :

لَمَّا عَلِمَ هِشَامٌ أَنَّ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ بِالْبَابِ ؛ بَادَرَ ^(٤) فَأُذِنَ لَهُ - وَوَاللَّهِ
مَا دَخَلْتُ إِلَّا بِسَبَبِهِ - فَلَمَّا رَأَاهُ هِشَامٌ قَالَ :

مَرْحَبًا مَرْحَبًا ...

هَهُنَا هَهُنَا ... وَلَا زَالَ يَقُولُ لَهُ :

(١) قَمِيصٌ صَفِيقٌ : قَمِيصٌ خَفِيفٌ كَتِيفُ النَّسْجِ .

(٢) الْقَلَنْسُوءَةُ : غِطَاءُ الرَّأْسِ .

(٣) تَسَاءَلَا : جَعَلَ كُلُّ مِنْهُمَا يَسْأَلُ صَاحِبَهُ .

(٤) بَادَرَ : سَارَعَ .

هَهُنَا هَهُنَا ...

حَتَّى أَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ ، وَمَسَّ بِرُكْبَتِهِ رُكْبَتَهُ ...
وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ أَشْرَافُ النَّاسِ ، وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فَسَكَتُوا .
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ هِشَامٌ وَقَالَ :
مَا حَاجَتُكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ .

قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَهْلُ الْحَرَمَيْنِ ... أَهْلُ اللَّهِ وَجِيرَانُ رَسُولِهِ ؛ تُقَسِّمُ
عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ وَأَعْطِيائِهِمْ ...
فَقَالَ : نَعَمْ ...

يَا غُلَامُ اكْتُبْ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ بَعْطَايَاهُمْ وَأَرْزَاقَهُمْ لِسَنَةِ .
ثُمَّ قَالَ : هَلْ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرِهَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ .
فَقَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَهْلُ الْحِجَازِ وَأَهْلُ « نَجْدٍ » أَصْلُ الْعَرَبِ ،
وَقَادَةُ الْإِسْلَامِ ؛ تَرُدُّ فِيهِمْ فُضُولَ صَدَقَاتِهِمْ ...
فَقَالَ : نَعَمْ ... يَا غُلَامُ اكْتُبْ بِأَنْ تَرُدَّ فِيهِمْ فُضُولَ صَدَقَاتِهِمْ .
هَلْ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرِ ذَلِكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ .
قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

أَهْلُ الثُّغُورِ ^(١) يَقْفُونَ فِي وُجُوهِ عَدُوِّكُمْ ، وَيَقْتُلُونَ مَنْ رَامَ ^(٢) الْمُسْلِمِينَ
بِشَرٍّ ؛ تُجْرِي عَلَيْهِمْ أَرْزَاقًا تُدِيرُهَا عَلَيْهِمْ ...
فَإِنَّهُمْ إِنْ هَلَكُوا ضَاعَتِ الثُّغُورُ ...

(١) أهل الثُّغُورِ : المابطون عَلَى تخوم البلاد في مواجهة العدو .

(٢) رامَ المسلمِينَ بِشَرٍّ : قَصَدَهُمْ بِشَرٍّ .

فَقَالَ : نَعَمْ ... يَا غُلَامُ اكْتُبْ بِحَمْلِ أَرْزَاقِهِمْ إِلَيْهِمْ ...

هَلْ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرِهَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ .

قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَهْلُ ذِمَّتِكُمْ ^(١) لَا يُكَلَّفُونَ مَا لَا يُطِيقُونَ ، فَإِنَّ مَا تَجِبُونَهُ مِنْهُمْ مَعُونَةٌ لَكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ .

فَقَالَ : يَا غُلَامُ اكْتُبْ لِأَهْلِ الذِّمَّةِ بِأَلَّا يُكَلَّفُوا مَا لَا يُطِيقُونَ .

هَلْ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرِهَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ .

قَالَ :

نَعَمْ ... اتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَاعْلَمْ أَنَّكَ خُلِقْتَ وَحْدَكَ ...

وَتَمُوتُ وَحْدَكَ ...

وَتُحْشَرُ وَحْدَكَ ...

وَتُحَاسَبُ وَحْدَكَ ... وَلَا وَاللَّهِ مَا مَعَكَ مِمَّنْ تَرَى أَحَدًا .

فَأَكَبَّ هِشَامٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ يَبْكِي ...

فَقَامَ عَطَاءٌ ، فَقُمْتُ مَعَهُ .

فَلَمَّا صِرْنَا عِنْدَ الْبَابِ ، إِذَا رَجُلٌ قَدْ تَبِعَهُ بَكِيسٌ لَا أَذْرِي مَا فِيهِ وَقَالَ لَهُ :

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَعَثَ لَكَ بِهِذَا ...

فَقَالَ : هِيَهَاتَ ^(٢) ...

(١) أهل الذِّمَّة : من عاهدهم المسلمون من اليهود والنصارى ونحوهم على حمايتهم .

(٢) هيهات : اسم فعل بمعنى بُعِدَ [أي إن قبول ذلك بعيد] .

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

فَوَاللَّهِ إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى الْخَلِيفَةِ ... وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ ... وَلَمْ يَشْرَبْ قَطْرَةً

مَاءٍ ...

* * *

وَبَعْدُ ، فَقَدْ عُمِّرَ^(٢) عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ حَتَّى بَلَغَ مِائَةَ عَامٍ ...

مَلَأَهَا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ...

وَأَثَرَعَهَا^(٣) بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ...

وَزَكَّاهَا بِالزَّهَادَةِ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَالرَّغْبَةِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ ...

فَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ^(٤) وَجَدَهُ خَفِيفَ الْحِمْلِ مِنْ أَثْقَالِ الدُّنْيَا ...

كَثِيرَ الزَّادِ مِنْ عَمَلِ الْآخِرَةِ ...

وَمَعَهُ فَوْقَ ذَلِكَ ...

سَبْعُونَ حَبَّةً ...

وَقَفَ خِلَالَهَا سَبْعِينَ مَرَّةً عَلَى «عَرَفَاتٍ» ...

وَهُوَ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى رِضَاءَهُ وَالْجَنَّةَ ...

وَيَسْتَعِيدُّ بِهِ مِنْ سَخَطِهِ وَالتَّارِ (*) ...

(١) سورة الشعراء : ١٠٩ .

(٢) عُمِّرَ : طال عمره .

(٣) أَثَرَعَهَا : ملأها .

(٤) الْيَقِينُ : الموت .

(*) للاستزادة من أخبار عطاء بن أبي رباح انظر : ٦ - طبقات الشيرازي : الورقة ١٧ .

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/٣٨٦ .

٢ - حلية الأولياء لأبي نعيم : ٣/٣١٠ .

٣ - صفة الصفوة لابن الجوزي : ٢/٢١١ .

٤ - وفيات الأعيان لابن خلكان : ٣/٢٦١ .

٥ - غرر الخصائص : ١١٧ .

١٠ - تهذيب التهذيب : ٧/١٩٩ .

١١ - نزهة الخاطر : ١/٨٥ .

عَامِرُ بْنُ عَمْرٍاءَ التَّمِيمِي

« انْتَهَى الزُّهْدُ إِلَى ثَمَانِيَةِ فِي مُقَدِّمَتِهِمْ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِي »
[عُلُقَمَةُ بْنُ مَرْثَدٍ]

نَحْنُ الْآنَ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ .
وَهَا هُمْ أَوْلَاءُ الْهُدَاةِ الْبَنَاءُ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ ؛ يَخْتَطُّونَ ^(١)
مَدِينَةَ « الْبَصْرَةِ » بِأَمْرِ مِنْ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
وَأَرْضَاهُ .

فَلَقَدْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يَجْعَلُوا مِنَ الْمَدِينَةِ الْجَدِيدَةِ مُعَسَّكَراً لِجُيُوشِ
الْمُسْلِمِينَ الْغَازِيَةِ فِي بِلَادِ « فَارِسَ » ...
وَقَاعِدَةً ^(٢) لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...
وَمَنَارَةً لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ فِي الْأَرْضِ ...
وَهَا هِيَ ذِي جُمُوعِ الْمُسْلِمِينَ ؛ تَوَحَّلُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْفَتِيَّةِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ :

مِنْ نَجْدٍ ... مِنْ الْحِجَازِ ... مِنَ الْيَمَنِ ...
لِيَكُونُوا عَلَى ثَغْرِ ^(٣) مِنْ ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ .
وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَيْهَا مِنْ « نَجْدٍ » فَتَى مِنْ بَنِي « تَمِيمٍ » يُدْعَى
عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيِّ الْعَنْبَرِيِّ .

* * *

(١) يَخْتَطُّونَ مَدِينَةَ الْبَصْرَةِ : يَرْسُمُونَ حُدُودَهَا .

(٢) قَاعِدَةٌ لِلدَّعْوَةِ : مَنَاطِقٌ لِلدَّعْوَةِ .

(٣) الثَّغَرُ : الْمَكَانُ الَّذِي يَخَافُ أَنْ يَهْجَمَ مِنْهُ الْعَدُو .

كَانَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَوْمئِذٍ فَتًى فِي بَوَاكِيرِ^(١) الصَّبَا ، غَضُّ الْإِهَابِ^(٢)
رَيَّانَ الشَّبَابِ ، وَضِيءَ الْوَجْهِ ، زَكِيَّ النَّفْسِ ، تَقِيَّ الْقَلْبِ ...
وَكَانَتْ « الْبَصْرَةُ » عَلَى حَدَائِثِهَا مِنْ أَغْنَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ غِنًى ، وَأَوْفَرِهَا
ثَرَوَةً ؛ لِمَا كَانَ يَتَدَفَّقُ عَلَيْهَا مِنْ غَنَائِمِ الْحَرْبِ ، وَيَنْصَبُ فِيهَا مِنَ الذَّهَبِ
النُّضَارِ^(٣) ...

لَكِنَّ الْفَتَى التَّمِيمِيَّ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَرَبٌ^(٤) فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ...
فَلَقَدْ كَانَ زَهَاداً بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، رَغَاباً بِمَا عِنْدَ اللَّهِ ...
مُعْرِضاً عَنِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ، مُقْبِلاً عَلَى اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ ...

* * *

وَكَانَ رَجُلٌ « الْبَصْرَةُ » وَمُقَدَّمَهَا يَوْمئِذٍ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ أَبُو مُوسَى
الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَنَضَّرَ فِي الْجَنَّةِ وَجْهَهُ .
فَهُوَ وَالِي الْمَدِينَةِ الزَّاهِرَةِ ...

وَهُوَ قَائِدُ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْمُنْطَلِقَةِ مِنْهَا فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ ...
وَهُوَ إِمَامُ أَهْلِهَا ، وَمُعَلِّمُهُمْ ، وَمُرْشِدُهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

* * *

لَزِمَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ فِي سِلْمِهِ وَحَرْبِهِ ...
وَصَحِبَهُ فِي حِلِّهِ وَتَرْحَالِهِ ...

فَأَخَذَ عَنْهُ كِتَابَ اللَّهِ رَطْباً طَرِيّاً كَمَا نَزَلَ عَلَى فُؤَادِ مُحَمَّدٍ ...
وَرَوَى عَنْهُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَحِيحاً مُؤْضِلاً بِالنَّبِيِّ الْكَرِيمِ ...

(١) بواكير الصبا : أوائل الصبا . (٣) الذهب النضار : الذهب الخالص .

(٢) غض الإهاب : طري الجلد [كناية عن صباه] . (٤) الأرب : الغاية والحاجة .

وَتَفَقَّهَ عَلَى يَدَيْهِ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

فَلَمَّا اكْتَمَلَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنَ الْعِلْمِ ؛ جَعَلَ حَيَاتَهُ أَقْسَاماً ثَلَاثَةً :

فَشَطَرٌ^(١) فِي خَلَقَاتِ الذِّكْرِ ؛ يُقْرَأُ فِيهِ النَّاسُ الْقُرْآنَ فِي مَسْجِدِ

« البَصْرَةِ » ...

وَشَطَرٌ فِي خَلَوَاتِ الْعِبَادَةِ ؛ يَنْتَصِبُ فِيهِ قَائِماً بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ حَتَّى تَكِلَ

قَدَمَاهُ ...

وَشَطَرٌ فِي سَاحَاتِ الْجِهَادِ ؛ يَسْلُ فِيهِ سَيْفَهُ غَارِباً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

وَلَمْ يَتْرُكْ فِي حَيَاتِهِ مَوْضِعاً لِشَيْءٍ غَيْرِ ذَلِكَ أَبَداً ... حَتَّى دُعِيَ بِعَابِدِ

« البَصْرَةِ » وَزَاهِدَهَا ...

* * *

وَكَانَ مِنْ أَحْبَابِ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ مَا حَدَّثَ بِهِ أَحَدُ أَتْنَاءِ « البَصْرَةِ » قَالَ :

سَافَرْتُ فِي قَافِلَةٍ فِيهَا عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيْنَا اللَّيْلُ ؛ نَزَلْنَا

بِغَيْضَةٍ^(٢) ...

فَجَمَعَ عَامِرٌ مَتَاعَهُ ، وَرَبَطَ فَرَسَهُ بِشَجَرَةٍ ، وَطَوَّلَ لَهُ زِمَامَهُ^(٣) ، وَجَمَعَ لَهُ

مِنْ حَشَائِشِ الْأَرْضِ مَا يُشْبِعُهُ وَطَرَحَهُ أَمَامَهُ ... ثُمَّ دَخَلَ الْغَيْضَةَ وَأَوَّغَلَ^(٤) فِيهَا

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

وَاللَّهِ لَا تُبْعَثُهُ ، وَلَا تُنْظَرَنَّ مَا يَصْنَعُ فِي أَعْمَاقِ الْغَيْضَةِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ .

فَمَضَى حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَابِئَةٍ مُلْتَقَّةِ الشَّجَرِ ، مَسْتَوْرَةٍ عَنِ الْأَعْيُنِ ...

(١) الشطر : القسم .

(٢) الغيضة : مجتمع الشجر في مفيض الماء .

(٣) الزمام : الرسن ، وهو الحبل الذي تقاد به الدابة . (٤) أوغل فيها : أبعد وتوازى .

فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ، وَانْتَصَبَ قَائِمًا يُصَلِّي ...
فَمَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ مِنْ صَلَاتِهِ وَلَا أَكْمَلَ وَلَا أَخْشَعَ .
فَلَمَّا صَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّي ، طَفِقَ ^(١) يَدْعُو اللَّهَ وَيُنَاجِيهِ ، فَكَانَ مِمَّا
قَالَهُ :

« إِلَهِي لَقَدْ خَلَقْتَنِي بِأَمْرِكَ ، وَأَقَمْتَنِي فِي بَلَايَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِمَشِيئَتِكَ ، ثُمَّ
قُلْتَ لِي : اسْتَمْسِكْ ^(٢) ...

فَكَيْفَ اسْتَمْسِكُ إِنْ لَمْ تُمَسِّكْنِي بِلُطْفِكَ يَا قَوِي يَا مَتِينُ ؟ .
إِلَهِي إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ لِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا ، ثُمَّ طَلَبْتَ مِنِّي
مَرْضَاةً لَكَ ؛ لَوْ هَبْتُهَا لِطَالِبِهَا ...

فَهَبْ لِي نَفْسِي يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ...
إِلَهِي إِنِّي أَحْبَبْتُكَ حُبًّا سَهَّلَ عَلَيَّ كُلَّ مُصِيبَةٍ ، وَرَضَّانِي بِكُلِّ قَضَاءٍ ...
فَمَا أَبَالِي مَعَ حُبِّي لَكَ مَا أَصْبَحْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا أَمْسَيْتُ فِيهِ ...

* * *

قَالَ الرَّجُلُ الْبَصْرِيُّ :

ثُمَّ إِنَّهُ غَلَبَنِي النَّعَاسُ ، فَأَسْلَمْتُ جَفْنِي إِلَى الْكَرَى ^(٣) ...
ثُمَّ مَارِلْتُ أَنَامُ وَأَسْتَيْقِظُ ، وَعَامِرٌ مُنْتَصِبٌ فِي مَوْقِفِهِ ، مَاضٍ فِي صَلَاتِهِ
وَمُنَاجَاتِهِ ، حَتَّى تَنْفَسَ ^(٤) الصُّبْحُ .

فَلَمَّا بَدَأَ لَهُ الْفَجْرُ أَدَّى الْمَكْتُوبَةَ ^(٥) ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَدْعُو فَقَالَ :

(١) طفق يدعو : أخذ يدعو .

(٢) استمسك : اضبط نفسك .

(٣) الكرَى : النوم .

(٤) تنفس الصبح : تَبَلَّج الصبح وظهر .

(٥) المكتوبة : الصلاة .

اللَّهُمَّ هَا قَدْ أَصْبَحَ الصُّبْحُ ، وَطَفِقَ النَّاسُ يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ ؛ يَسْتَعُونُ مِنْ
فَضْلِكَ ...

وَإِنَّ لِكُلِّ مِنْهُمْ حَاجَةً ...

وَإِنَّ حَاجَةَ عَامِرٍ عِنْدَكَ أَنْ تَغْفِرَ لَهُ ...

اللَّهُمَّ فَاقْضِ حَاجَتِي وَحَاجَاتِهِمْ يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ ...

اللَّهُمَّ إِنِّي سَأَلْتُكَ ثَلَاثًا ؛ فَأَعْطَيْتَنِي اثْنَتَيْنِ ، وَمَنْعْتَنِي وَاحِدَةً ...

اللَّهُمَّ فَأَعْطِينِيهَا حَتَّى أَعْبُدَكَ كَمَا أَحِبُّ وَأُرِيدُ ...

ثُمَّ نَهَضَ مِنْ مَجْلِسِهِ ، فَوَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيَّ ... فَعَلِمَ بِمَكَانِي مِنْهُ فِي تِلْكَ
الَّيْلَةِ ، فَجَزِعَ ^(١) لِذَلِكَ أَشَدَّ الْجَزَعِ ، وَقَالَ لِي فِي أَسَى ^(٢) :

أَرَأَيْكَ كُنْتُ تَرْقُبُنِي اللَّيْلَةَ يَا أَخَا « الْبَصْرَةِ » ؟ ! .

فَقُلْتُ : نَعَمْ .

فَقَالَ : اسْتُرْ مَا رَأَيْتَ مِنِّي سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَتُحَدِّثَنِي بِهِذِهِ الثَّلَاثِ الَّتِي سَأَلْتُهَا رَبَّكَ ، أَوْ لِأُخْبِرَنَّ النَّاسَ
بِمَا رَأَيْتُهُ مِنْكَ .

فَقَالَ :

وَيَحَكَ ^(٣) لَا تَفْعَلْ .

فَقُلْتُ : هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ ...

فَلَمَّا رَأَى إِصْرَارِي قَالَ :

(١) جزع : خاف واغتم .

(٢) في أسى : في حزن .

(٣) ويح : كلمة ترجم وتوابع .

أَحَدُكَ عَلَى أَنْ تُعْطِيَنِي عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ أَلَّا تُخْبِرَ بِذَلِكَ أَحَدًا .
فَقُلْتُ : لَكَ عَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ أَلَّا أُفْشِيَ لَكَ سِرًّا مَا دُمْتُ حَيًّا .
فَقَالَ :

لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَخُوفٌ عَلَيَّ فِي دِينِي مِنَ النِّسَاءِ ، فَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَنْزِعَ مِنْ
قَلْبِي حُبَّهُنَّ ، فَاسْتَجَابَ لِي حَتَّى صِرْتُ مَا أَبَالِي ^(١) امْرَأَةً رَأَيْتُ أُمَّ جِدَارًا ...
فَقُلْتُ : هَذِهِ وَاحِدَةٌ ؛ فَمَا الثَّانِيَةُ ؟ .

فَقَالَ : الثَّانِيَةُ أَنِّي سَأَلْتُ رَبِّي أَلَّا أَخَافَ أَحَدًا غَيْرَهُ ، فَاسْتَجَابَ لِي حَتَّى
أَنِّي وَاللَّهِ مَا أَرْهَبُ شَيْئًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ سِوَاهُ .
قُلْتُ : فَمَا الثَّالِثَةُ ؟ .

فَقَالَ : سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُذْهِبَ عَنِّي النَّوْمَ حَتَّى أَعْبُدَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَمَا
أُرِيدُ فَمَنْعَنِي هَذِهِ الثَّالِثَةُ ...
فَلَمَّا سَمِعْتُ مِنْهُ ذَلِكَ قُلْتُ لَهُ :

رَفَقًا بِنَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي لَيْلَكَ قَائِمًا ، وَتَقْطَعُ نَهَارَكَ صَائِمًا ...
وَأِنَّ الْجَنَّةَ تُدْرِكُ بِأَقْلٍ مِمَّا تَصْنَعُ ...
وَأِنَّ النَّارَ تُتَقَالَى بِأَقْلٍ مِمَّا تُعَانِي .
فَقَالَ :

إِنِّي لَأَخْشَى أَنْ أُنْذَمَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ ...
وَاللَّهِ لَأَجْتَهِدَنَّ فِي الْعِبَادَةِ مَا وَجَدْتُ إِلَى الْإِجْتِهَادِ سَبِيلًا ...

(١) ما أبالي : ما أهتم وما أكرث .

فَإِنْ نَجَوْتُ ؛ فَبِرَحْمَةِ اللَّهِ ...

وَإِنْ دَخَلْتُ النَّارَ ؛ فَبِتَقْصِيرِي ...

* * *

غَيْرَ أَنَّ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ رَاهِباً مِنْ رُهْبَانِ^(١) اللَّيْلِ فَحَسِبْتُ ، وَإِنَّمَا
كَانَ فَارِساً مِنْ فُرْسَانِ النَّهَارِ أَيْضاً ...

فَمَا أَذِنَ مُؤَدِّنُ لِلْجِهَادِ^(٢) فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا كَانَ فِي طَلِيعَةِ مَنْ يُجِيبُ
نِدَاءَهُ .

وَكَانَ إِذَا نَهَدَ^(٣) لِعَزْوَةٍ مِنَ الْعَزَوَاتِ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ ، وَقَفَ يَتَوَسَّمُ^(٤)
النَّاسَ لِيُخْتَارَ رِفَاقُهُ .

فَإِذَا وَقَعَ عَلَى رِفْقَةٍ تُوَافِقُهُ ؛ قَالَ لَهُمْ :
يَا هَؤُلَاءِ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَصْحَبَكُمْ عَلَى أَنْ تُعْطُونِي مِنْ أَنْفُسِكُمْ ثَلَاثَ
خِلَالٍ^(٥) ...

فَيَقُولُونَ : مَا هُنَّ ؟ .
فَيَقُولُ : أُولَاهُنَّ أَنْ أَكُونَ لَكُمْ خَادِماً ؛ فَلَا يُنَازِعُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ فِي
الْخِدْمَةِ أَبَداً .

وَالثَّانِيَةُ أَنْ أَكُونَ لَكُمْ مُؤَدِّناً ؛ فَلَا يُنَازِعُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ النِّدَاءَ لِلصَّلَاةِ .

وَالثَّالِثَةُ أَنْ أَنْفِقَ عَلَيْكُمْ بِقَدْرِ طَاقَتِي ...

فَإِنْ قَالُوا : نَعَمْ ، انْضَمَّ إِلَيْهِمْ ...

(١) الراهب : من يهرب الله وينقطع لعبادته .

(٢) أذن مؤذن الجهاد : دعا داعي الجهاد .

(٣) نهد لغزوة : أشرع لغزوة .

(٤) يتوسم الناس : يتفرس الناس ويتعرفهم .

(٥) خلال : خصال .

وَإِذَا نَازَعَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ رَحَلَ عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ عَامِرٌ مِنْ أَوْلِيكَ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ يَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ^(١)،
وَيَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ^(٢)...

فَهُوَ يَغْشَى^(٣) الْوَعَى كَمَا لَا يَغْشَاهَا أَحَدٌ سِوَاهُ ...

وَلَكِنَّهُ يَعْفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ كَمَا لَا يَعْفُ عَنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ .

* * *

فَهَذَا « سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ »^(٤) يُنْزِلُ بَعْدَ « الْقَادِسِيَّةِ »^(٥) فِي إِيْوَانِ^(٦)
« كِسْرَى » :

وَيَأْمُرُ « عَمْرُو بْنُ مُقَرَّرٍ » بِأَنْ يَجْمَعَ الْعَنَائِمَ وَيُخْصِيَهَا ؛ لِإِزْسِلَ خُمْسَهَا
إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَقْسِمَ بِأَقِيهَا عَلَى الْمُجَاهِدِينَ ... فَاجْتَمَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ
مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَعْلَاقِ^(٧) وَالنَّفَائِسِ مَا يَفُوقُ الْوَصْفَ ، وَيَعِزُّ عَلَى الْحَضَرِ ...
فَهُنَا سِلَالٌ كَبِيرَةٌ مُحْتَمَّةٌ بِالرَّصَاصِ مَمْلُوءَةٌ بِأَيَّةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ كَانَ
يَأْكُلُ بِهَا مُلُوكُ فَارِسَ ...

وَهُنَاكَ صَنَادِيقُ مِنْ نَفِيسِ الْخَشَبِ كُدِّسَتْ فِيهَا ثِيَابُ « كِسْرَى »
وَأَوْشِحَتْهُ^(٨) وَذُرُوعُهُ الْمُحَلَّلَةُ بِالْجَوْهَرِ وَالْدُرِّ ...

(١) عند الفزع : عند الخوف والحاجة إلى النجدة .

(٢) عند الطمع : عند اقتسام المغنم .

(٣) يَغْشَى الْوَعَى : يخوض الحرب .

(٤) سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ : أحد العشرة المبشرين بالجنة من الصحابة وقائد المسلمين في القادسية ، انظره في كتاب
« صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٥) القادسية : ناحية في العراق وقعت فيها معركة القادسية التي انتصر فيها المسلمون على الفرس نصراً مؤزراً .

(٦) إِيْوَانُ كِسْرَى : قصر كِسْرَى .

(٧) العلوق : بكسر العين كل شيء ثمين نفيس ، وجمعه أَعْلَاقُ .

(٨) أَوْشِحَتْهُ : بضم الواو ، شبه قلادة من نسيج عريض يُرْصَع بالجواهر .

وَهَذِهِ أَسْفَاطُ^(١) مَمْلُوءَةٌ بِنَفَائِسِ الْخُلِيِّ وَرَوَائِعِ الْمُقْتَنِيَاتِ ...

وَتِلْكَ أَعْمَادُ فِيهَا سُيُوفُ مُلُوكِ الْفُزْرِ مِلْكَاً بَعْدَ مَلِكٍ ...

وَسُيُوفُ الْمُلُوكِ وَالْقَوَادِ الَّذِينَ خَضَعُوا لِلْفُزْرِ خِلَالَ التَّارِيخِ ...

* * *

وَفِيمَا كَانَ الْعُمَالُ يُحْصُونَ هَذِهِ الْعَنَائِمَ عَلَى مَرَأَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ
وَمَسْمَعٍ ... أَقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ رَجُلٌ أَشْعَثُ أَغْبَرُ^(٢)، وَمَعَهُ حُقٌّ^(٣) كَبِيرُ الْحَجْمِ
ثَقِيلُ الْوِزْنِ؛ حَمَلَهُ بِيَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا ...

فَتَأَمَّلُوهُ؛ فَإِذَا هُوَ حُقٌّ لَمْ تَقَعْ عُيُونُهُمْ عَلَى مِثْلِهِ قَطُّ، وَلَا وَجَدُوا فِيهَا
جَمْعُوهُ شَيْئاً يَغْدِلُهُ أَوْ يُقَارِبُهُ

فَنَظَرُوا فِي دَاخِلِهِ؛ فَإِذَا هُوَ قَدْ مُلِئَ بِرَوَائِعِ الدُّرِّ وَالْجَوْهَرِ ...

فَقَالُوا لِلرَّجُلِ :

أَيْنَ أَصَبْتَ هَذَا الْكَثْرَ الثَّمِينِ؟! .

فَقَالَ : غَنِمْتُهُ فِي مَعْرَكَةٍ كَذَا ... فِي مَكَانٍ كَذَا ...

فَقَالُوا : وَهَلْ أَخَذْتَ مِنْهُ شَيْئاً ؟ .

فَقَالَ : هَذَا كُمْ اللَّهُ ...

وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَقَّ، وَجَمِيعَ مَا مَلَكَتُهُ مُلُوكُ « فَارِسَ » لَا يَغْدِلُ عِنْدِي
قَلَامَةً ظَفَرٍ^(٤) ...

(١) السفط : وعاء يوضع فيه الطيب ، وما أشبه من زينة النساء وحليتهن .

(٢) الأشعث : الملبَّد الشعر ، والأغبر : الذي علاه الغبار .

(٣) الحُقُّ : وعاء الطيب ونحوه من النفائس .

(٤) قلامَة الظفر : ما سقط من طرفه ، ويضرب بها المثل في الشيء الخسيس الحقير .

وَلَوْلَا حَقُّ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ^(١) فِيهِ مَا رَفَعْتُهُ مِنْ أَرْضِهِ ...
وَلَا أَتَيْتُكُمْ بِهِ .

فَقَالُوا : مَنْ أَنْتَ أَكْرَمَكَ اللَّهُ !؟ .

فَقَالَ :

لَا وَاللَّهِ لَا أُخْبِرُكُمْ لِتَحْمَدُونِي ، وَلَا أُخْبِرُ غَيْرَكُمْ لِيَقْرَظُونِي^(٢) ...
وَلَكِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَرْجُو ثَوَابَهُ .
ثُمَّ تَرَكَهُمْ ، وَمَضَى ...

فَأَمَرُوا رَجُلًا مِنْهُمْ أَنْ يَتَّبِعَهُ ، وَأَنْ يَأْتِيَهُمْ بِخَبَرِهِ .
فَمَا زَالَ الرَّجُلُ يَمْضِي وَرَاءَهُ - وَهُوَ لَا يَعْلَمُ بِهِ - حَتَّى بَلَغَ أَصْحَابَهُ ، فَلَمَّا
سَأَلَهُمْ عَنْهُ قَالُوا :
أَلَا تَعْرِفُهُ !؟ .

إِنَّهُ زَاهِدٌ « الْبَصْرَةُ » ... عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ .

* * *

لَكِنَّ حَيَاةَ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا عَرَفَتْ مِنْ أَمْرِهِ - لَمْ تَحُلْ
مِنَ الْمُتَغَصَّاتِ^(٣) ، وَلَمْ تَسْلَمْ مِنْ أَذَى النَّاسِ ...
فَلَقَدْ تَعَرَّضَ لِمَا يَلْقَاهُ الصَّادِعُونَ^(٤) بِكَلِمَةِ الْحَقِّ ، الْمُنْكَرُونَ لِلْمُنْكَرِ ،
الْعَامِلُونَ عَلَى إِزَالَتِهِ ...

وَكَانَ السَّبَبُ الْمُبَاشِرُ فِيَمَا لَحِقَ بِهِ مِنْ أَذَى ... أَنَّهُ أَبْصَرَ رَجُلًا مِنْ أَعْوَانِ

(١) جعل الإسلام خمس غنائم الحرب لبيت مال المسلمين والباقي للمجاهدين .

(٢) ليقرظوني : لينثوا علي .

(٣) المتغصات : المكدرات .

(٤) الصادعون بكلمة الحق : المجاهرون بكلمة الحق .

صَاحِبِ شُرْطٍ^(١) « الْبَصْرَةِ » وَقَدْ أَمْسَكَ بِخِنَاقٍ^(٢) رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ^(٣)،
وَجَعَلَ يَجْرُهُ جَرًّا ...

وَالذِّمِّيُّ يَسْتَغِيثُ النَّاسَ وَيَقُولُ :

أَجِيرُونِي أَجَارَكُمْ اللَّهُ ...

أَجِيرُوا ذِمَّةَ نَبِيِّكُمْ^(٤) يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

فَأَقْبَلَ عَامِرٌ عَلَيْهِ وَقَالَ :

هَلْ أَدَيْتَ جَزْيَتَكَ ؟

فَقَالَ : نَعَمْ ، أَدَيْتُهَا .

فَالْتَفَتَ إِلَى الرَّجُلِ الْمُمْسِكِ بِخِنَاقِهِ وَقَالَ :

مَا تُرِيدُ مِنْهُ ؟ !

فَقَالَ : أُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ مَعِيَ لِيَكْسَحَ^(٥) حَدِيقَةَ صَاحِبِ الشَّرْطِ ...

فَقَالَ لِلذِّمِّيِّ : أَتَطِيبُ نَفْسَكَ بِهَذَا الْعَمَلِ ؟

فَقَالَ : كَلَّا ...

فَذَلِكَ يَهْدُ قُورَيَّ ، وَيَشْغَلُنِي عَنْ كَسْبِ قُوتِ عِيَالِي ...

فَالْتَفَتَ عَامِرٌ إِلَى الرَّجُلِ وَقَالَ : دَعُهُ^(٦) ...

فَقَالَ : لَا أَدْعُهُ ...

(١) صاحب الشرط : مدير الشرط ، والشرط جمع مفردة شرطة وشرطي .

(٢) الخناق : العنق .

(٣) أهل الذمة : من دخل في عهد المسلمين وحمايتهم من اليهود والنصارى وغيرهم .

(٤) أجبروا ذمة نبيكم : احموا من دخل في ذمة نبيكم .

(٦) دعه : اتركه .

(٥) يكسح الحديقة : ينظفها .

فَمَا كَانَ مِنْ عَامِرٍ إِلَّا أَنْ أَلْقَى رِذَاءَهُ عَلَى الذَّمِّ وَقَالَ :
وَاللَّهِ ، لَا تُخْفَرُ^(١) ذِمَّةُ مُحَمَّدٍ وَأَنَا حَيٌّ ...
ثُمَّ تَجَمَّعَ النَّاسُ ، وَأَعَانُوا عَامِرًا عَلَى الرَّجُلِ ، وَخَلَصُوا الذَّمَّ بِالْقُوَّةِ ...
فَمَا كَانَ مِنْ أَعْوَانٍ صَاحِبِ الشَّرْطِ إِلَّا أَنْ أَتَاهُمَا عَامِرًا يَنْبِذُ^(٢) الطَّاعَةَ ...
وَرَمَوْهُ بِالْخُرُوجِ عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ...
وَقَالُوا : إِنَّهُ امْرُؤٌ لَا يَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ...
وَلَا يَأْكُلُ لَحْمَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْأَبْنَاهَا ...
وَيَتَعَالَى عَلَى غُشْيَانٍ^(٣) مَجَالِسِ الْوَلَاةِ ...
وَرَفَعُوا أَمْرَهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ « عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ »^(٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

* * *

أَمَرَ الْخَلِيفَةُ وَالْيَهُ عَلَى « الْبَصْرَةِ » بِأَنْ يَدْعُوا عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى مَجْلِسِهِ ،
وَأَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ ...
وَأَنْ يَرَفَعَ لَهُ خَبْرَهُ ...
فَاسْتَدْعَى وَالِي « الْبَصْرَةِ » عَامِرًا وَقَالَ :
إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - أَمَرَنِي أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ أُمُورٍ نُسِبَتْ
إِلَيْكَ ...

(١) لَا تُخْفَرُ ذِمَّةُ مُحَمَّدٍ : لَا يُنْقَضُ عَهْدُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

(٢) نَبَذَ الطَّاعَةَ : تَرَكَ الطَّاعَةَ .

(٣) غُشْيَانٍ مَجَالِسِ الْوَلَاةِ : شُهُودُ مَجَالِسِ الْوَلَاةِ .

(٤) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ : انْظُرْهُ فِي كِتَابِ « صُورُ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ » لِلْمُؤَلِّفِ ، النَّاشِرُ دَارَ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ ، الطَّبَعَةُ الْمَشْرُوعَةُ .

فَقَالَ : سَلْ عَمَّا أَمَرَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : مَا لَكَ تَعْرِفُ^(١) عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَتَأْتِي أَنْ تَتَزَوَّجَ !؟ .

فَقَالَ : مَا تَرَكْتُ الزَّوْاجَ غُرُوفاً عَنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

فَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ لَا رَهْبَانِيَّةَ^(٢) فِي الْإِسْلَامِ ...

وإِنَّمَا أَنَا أَمْرٌ رَأَيْتُ أَنَّ لَهُ نَفْساً وَاحِدةً ، فَجَعَلَهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَخَشِيتُ أَنْ تَغْلِبَهُ الرُّوحَةُ عَلَيْهَا ...

فَقَالَ : مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ اللَّحْمَ !؟ .

فَقَالَ : بَلْ أَكُلُهُ إِذَا اسْتَهَيْتُهُ وَوَجَدْتُهُ ...

أَمَّا إِذَا لَمْ أَشْتَهِهِ ، أَوْ اسْتَهَيْتُهُ وَلَمْ أَجِدْهُ فَإِنِّي لَا أَكُلُهُ ...

فَقَالَ : مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ الْجُبْنَ !؟ .

فَقَالَ : إِنَّا بِمِنْطَقَةٍ فِيهَا « مَجُوسٌ »^(٣) يَصْنَعُونَ الْجُبْنَ ...

وَهُمْ قَوْمٌ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَيْتَةِ وَالْمَذْبُوحَةِ ...

وإِنِّي لِأَخْشَى أَنْ تَكُونَ الْمِنْفَعَةَ^(٤) الَّتِي صُنِعَ بِهَا الْجُبْنُ مِنْ شَاةٍ غَيْرِ

مَذْكَاةٍ^(٥) ، فَمَا شَهِدَ شَاهِدَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّهُ جُبْنٌ صُنِعَ بِمِنْفَعَةٍ شَاةٍ

مَذْبُوحَةٍ أَكَلْتُهُ ...

فَقَالَ : وَمَا يَمْنَعُكَ مِنْ أَنْ تَأْتِيَ الْوَلَاةَ ، وَتَشْهَدَ مَجَالِسَهُمْ !؟ .

(١) تعرف : ترهد وتميل .

(٢) لا رهبانية : لا امتناع عن الزواج .

(٣) المجوس : طائفة تعبد الشمس أو النار .

(٤) المنفعة : مادة تُسْتَخْرَج من بطن الجدي الصغير وتوضع في الحليب فيصير جبناً .

(٥) غير مذكاة : غير مذبوحة .

فَقَالَ : إِنَّ فِي أُنْوَابِكُمْ كَثِيرًا مِنْ طُلَّابِ الْحَاجَاتِ ؛ فَادْعُوهُمْ إِلَيْكُمْ ...
وَأَقْضُوا حَوَائِجَهُمْ لَدَيْكُمْ ...

وَاتْرُكُوا مَنْ لَا حَاجَةَ لَهُ عِنْدَكُمْ ...

* * *

رُفِعَتْ أَقْوَالُ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ «عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ» ؛ فَلَمْ
يَجِدْ فِيهَا نَبْذًا لِلطَّاعَةِ ... أَوْ خُرُوجًا عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ...
غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُطْفِئِ نَارَ الشَّرِّ ...

وَكَثُرَ الْقِيلُ وَالْقَالَ حَوْلَ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ...

وَكَادَتْ تَكُونُ فِتْنَةً بَيْنَ أَنْصَارِ الرَّجُلِ وَخُصُومِهِ ...

فَأَمَرَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِتَسْيِيرِهِ ^(١) إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ، وَاتَّخَذَهَا دَارَ إِقَامَةٍ
لَهُ ... وَأَوْصَى وَإِلَيْهِ عَلَى الشَّامِ «مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ» أَنَّ يُحْسِنَ اسْتِقْبَالَهُ ،
وَأَنْ يَزْعِمَ حُزْمَتَهُ .

* * *

وَفِي الْيَوْمِ الَّذِي عَزَمَ فِيهِ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى الرَّجِيلِ عَنِ «الْبَصْرَةِ»
خَرَجَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ إِخْوَانِهِ وَتَلَامِيذِهِ ؛ لِيُودَاعِهِ .

وَشَيْعُوهُ ^(٢) حَتَّى بَلَغُوا مَعَهُ ظَاهِرَ «الْمَرْبِدِ» ^(٣) ...

وَهُنَاكَ قَالَ لَهُمْ : إِنِّي ذَاعٍ فَأَمُّنُوا عَلَيَّ دُعَائِي ...

فَأَشْرَأْتُ ^(٤) إِلَيْهِ أَعْنَاقُ النَّاسِ ، وَسَكَنْتُ حَرَكَتَهُمْ ، وَتَعَلَّقْتُ بِهِ عُيُونُهُمْ .
فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ :

(١) أمر بتسييره : أمر بترحيله .

(٢) شيعوه : خرجوا معه لوداعه .

(٣) المرید : محلة في ظاهر البصرة .

(٤) اشرأئت إليه الأعناق : امتدت إليه الأعناق لتراه .

اللَّهُمَّ مَنْ وَشَىٰ بِي وَكَذَّبَ عَلَيَّ ، وَكَانَ سَبَبًا فِي إِخْرَاجِي مِنْ بَلَدِي ،
وَالْتَفْرِيقِ بَيْنِي وَبَيْنَ صَحْبِي ... اللَّهُمَّ إِنِّي صَفَحْتُ عَنْهُ فَأَصْفَحْ عَنْهُ ...
وَهَبْهُ الْعَافِيَةَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ...

وَتَعَمَّدَنِي وَإِيَّاهُ وَسَائِرَ الْمُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ وَعَفْوِكَ وَإِحْسَانِكَ يَا أَرْحَمَ
الرَّاحِمِينَ .

ثُمَّ وَجَّهَ مَطِيلَتَهُ^(١) نَحْوَ دِيَارِ الشَّامِ ، وَمَضَىٰ لِسَبِيلِهِ ...

* * *

قَضَىٰ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ فِي بِلَادِ الشَّامِ .
وَاخْتَارَ « بَيْتَ الْمُقَدَّسِ » دَارًا لِإِقَامَتِهِ ... وَنَالَ مِنْ بَرِّ أَمِيرِ الشَّامِ « مُعَاوِيَةَ
ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ » وَإِجْلَالِهِ وَتَكْرِيمِهِ مَا هُوَ جَدِيدٌ بِهِ .

فَلَمَّا مَرَضَ مَرَضَ الْمَوْتِ دَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ ؛ فَوَجَدُوهُ يَبْكِي .

فَقَالُوا : مَا يُبْكِيكَ ، وَقَدْ كُنْتَ ... وَكُنْتَ^(٢) !؟ ...

فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَبْكِي حِرْصًا عَلَى الدُّنْيَا ... أَوْ جَزَعًا^(٣) مِنَ الْمَوْتِ .

وَإِنَّمَا أَبْكِي لِطُولِ السَّفَرِ وَقِلَّةِ الزَّادِ .

وَلَقَدْ أَمْسَيْتُ بَيْنَ صُعُودٍ وَهَبُوطٍ ...

إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ ... وَإِمَّا إِلَى النَّارِ ...

فَلَا أَذْري إِلَى أَيِّهِمَا أَصِيرُ ...

ثُمَّ لَفَظَ أَنْفَاسَهُ ، وَلِسَانُهُ رَطْبٌ بِذِكْرِ اللَّهِ ...

(١) مطيلته : راحلته .

(٢) وقد كنت وكنت : إشارة إلى ما كان عليه من التقى والصلاح . (٣) جزعاً : خوفاً .

وَهُنَاكَ ...

هُنَاكَ ... فِي أُولَى الْقِبْلَتَيْنِ (١) ...

وَتَالِثِ الْحَرَمَيْنِ (٢) ...

وَمَسْرَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

ثَوَى (٣) عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ ...

* * *

نَوَّرَ اللَّهُ لِعَامِرٍ فِي قَبْرِهِ ...

وَنَصَّرَ فِي جَنَاتِ الْخُلْدِ وَجْهَهُ (*) ...

(١) أُولَى الْقِبْلَتَيْنِ: كناية عن بيت المقدس، لأنَّ المُسْلِمِينَ كانوا يستقبلونه في الصلاة قبل أن يؤمروا بالتوجه إلى الكعبة المعظمة.

(٢) ثالث الحرمين: كناية عن بيت المقدس أيضاً.

(٣) ثوى: أقام في المكان.

(*) للاستزادة من أخبار عامر بن عبد الله التميمي انظر:

- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٠٣/٧ - ١١٢ (وانظر الفهارس في المجلد الأخير).
- ٢ - صفة الصفوة لابن الجوزي (طبعة حلب): ٢٠١/٣ - ٢١١.
- ٣ - حلية الأولياء للأصبهاني: ٨٧ - ٩٥.
- ٤ - تاريخ الطبري لمحمد بن جرير الطبري: ١٩/٤، ٨٥، ٣٠٢، ٣٢٧، ٣٣٣.
- ٥ - البيان والتبيين للجاحظ: ٨٣/١، ٢٣١ - ٢٣٧، ٣٥٩ - ٣٦٣ و ١٩٦/٢ و ١٤٣/٣، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٩، ١٧٠، ١٩٣ و ٢٩٩/٤.
- ٦ - العقد الفريد لابن عبد ربه (تحقيق الريان): ٨٦/٣، ١٠٥، ١٠٧، ٢٦٤، ٣٢٧ و ٣٣/٥.
- ٧ - المعارف لابن قتيبة: ٤٣٨.
- ٨ - تهذيب التهذيب لابن حجر: ٧٧/٥.
- ٩ - رغبة الأمل في شرح الكامل للمرصفي: ٣٧/٢.
- ١٠ - كرامات الأولياء: ٥١/٢.

عُرْوَةُ بْنُ الرَّبِيعِ

« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى عُرْوَةَ بْنِ الرَّبِيعِ »

[عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ]

مَا كَادَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ ^(١) تُلْمِلُمْ خُيُوطَهَا الذَّهَبِيَّةَ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَتَأْذُنُ لِلنَّسَمَاتِ النَّدِيَّةِ بِأَنْ تَتَرَدَّدَ فِي رِحَابِهِ الطَّاهِرَةِ ... حَتَّى شَرَعَ الطَّائِفُونَ بِالْبَيْتِ مِنْ بَقَايَا صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ ؛ يُعْطِرُونَ الْأَجْوَاءَ بِالتَّهْلِيلِ ^(٢) وَالتَّكْبِيرِ ، وَيُتْرَعُونَ ^(٣) الْأَرْجَاءَ بِصَالِحِ الدُّعَاءِ .

وَحَتَّى أَخَذَ النَّاسُ يَتَحَلَّقُونَ ^(٤) زُمْرًا زُمْرًا حَوْلَ الْكَعْبَةِ الْمُعْظَمَةِ ، الرَّابِضَةِ ^(٥) وَسَطَ الْبَيْتِ فِي مَهَابَةِ وَجَلَالِ .

وَيَمْلَأُونَ عُيُونَهُمْ مِنْ بَهَائِهَا الْأَسْنَى ، وَيُدِيرُونَ بَيْنَهُمْ أَحَادِيثَ لَا لَعْوَ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَهُمْ .

وَبِالْقُرْبِ مِنَ الرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ ^(٦) جَلَسَ أَرْبَعَةُ فِتْيَانٍ صِبَاغِ الْوُجُوهِ ، كِرَامِ الْأَحْسَابِ ^(٧) ، مُعْطَرِي الْأُرْدَانِ ^(٨) ... كَأَنَّهُمْ بَعْضُ حَمَامَاتِ الْمَسْجِدِ نَصَاعَةً أَثْوَابِ ، وَأُلْفَةً قُلُوبِ .

هُمُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّبِيعِ ، وَأَخُوهُ مُضْعَبُ بْنُ الرَّبِيعِ ، وَأَخُوهُمَا عُرْوَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ .

* * *

(١) الأصيل : بين العصر والمغرب .

(٢) التهليل : قول لا إله إلا الله .

(٣) يترعون : يملأون .

(٤) يتحلقون : يجلسون على هيئة الحلقة .

(٥) الرابضة : المستقرة .

(٦) الركن اليماني : أحد أركان الكعبة المعظمة .

(٧) الأحساب : الأنساب .

(٨) الردن : طرف الكم الواسع ، وجمعه أردان .

وَدَارَ الْحَدِيثِ رَهْوَ^(١) بَيْنَ الْفِتْيَةِ الْأَبْرَارِ ، ثُمَّ مَا لَيْتَ أَنْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ :
لِيَتَمَنَّ كُلُّ مِنَّا عَلَى اللَّهِ مَا يُحِبُّ ...

فَانْطَلَقَتْ أَخْبِلَتْهُمْ تُحَلِّقُ فِي عَالَمِ الْعَيْبِ الرَّحْبِ ، وَمَضَتْ أَحْلَامُهُمْ
تَطُوفُ فِي رِيَاضِ الْأَمَانِيِّ الْخُضْرِ ، ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ :
« أُمْنِيَّتِي أَنْ أَمْلِكَ » الْحِجَازَ ، وَأَنْ أُنَالَ الْخِلَافَةَ ...
وَقَالَ أَخُوهُ مُضْعَبٌ :

أَمَّا أَنَا فَاتَمَنَّيْتُ أَنْ أَمْلِكَ « الْعِرَاقِينَ »^(٢) ، فَلَا يُنَازِعُنِي فِيهِمَا مُنَازِعٌ .
وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ :

إِذَا كُنْتُمَا تَقْتَعَانِ بِذَاكَ ، فَأَنَا لَا أَقْنَعُ إِلَّا بِأَنْ أَمْلِكَ الْأَرْضَ كُلَّهَا ... وَأَنْ
أُنَالَ الْخِلَافَةَ بَعْدَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ...
وَسَكَتْ عُزْرَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ... فَالْتَفَتُوا إِلَيْهِ ، وَقَالُوا :
وَأَنْتَ مَاذَا تَتَمَنَّيَ يَا عُزْرَةُ ؟

فَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكُمْ فِيمَا تَمَنَيْتُمْ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ ...
أَمَّا أَنَا فَاتَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ عَالِمًا عَامِلًا ؛ يَأْخُذُ النَّاسُ عَنِّي كِتَابَ رَبِّهِمْ وَسُنَّةَ
نَبِيِّهِمْ ، وَأَحْكَامَ دِينِهِمْ ... وَأَنْ أَفُوزَ فِي الْآخِرَةِ بِرِضَى اللَّهِ ، وَأَحْظَى بِجَنَّتِهِ ...

* * *

ثُمَّ دَارَتِ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا ؛ فَإِذَا بَعْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ يُبَايِعُ لَهُ بِالْخِلَافَةِ عَقِبَ
مَوْتِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ^(٣) فَيَحْكُمُ الْحِجَازَ ، وَمِصْرَ ، وَالْيَمَنَ ، وَخُرَاسَانَ ،
وَالْعِرَاقَ ...

(١) رهواً : ليناً هادئاً . (٢) العراقيين : الكوفة والبصرة . (٣) يزيد بن معاوية : ثاني خلفاء بني أمية .

ثُمَّ يُقْتَلُ عِنْدَ الْكَعْبَةِ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي تَمَنَّى فِيهِ مَا تَمَنَّى .
وَإِذَا بِمُضْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ يَتَوَلَّى إِمْرَةً « الْعِرَاقِ » مِنْ قَبْلِ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ ،
وَيُقْتَلُ هُوَ الْآخَرُ دُونَ^(١) وَلَا يَبْقَى أَيْضاً .

وَإِذَا بِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ تَوُولُ^(٢) إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ،
وَتَجْتَمِعُ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ مَقْتَلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَأَخِيهِ مُضْعَبٍ عَلَى
أَيْدِي جُنُودِهِ ... ثُمَّ يَغْدُو^(٣) أَعْظَمَ مُلُوكِ الدُّنْيَا فِي زَمَانِهِ .

فَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ عُزْرَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ؟ ...

تَعَالَوْا نَبْدَأْ قِصَّتَهُ مِنْ أَوَّلِهَا .

* * *

وُلِدَ عُزْرَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ لِسَنَةِ وَاحِدَةٍ بَقِيَتْ مِنْ خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ
فِي بَيْتٍ مِنْ أَعَزِّ بَيْتَاتِ الْمُسْلِمِينَ شَأْناً ، وَأَرْفَعَهَا مَقَاماً .

فَأَبُوهُ ، هُوَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَامِ حَوَارِيُّ^(٤) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَوَّلُ مَنْ سَلَّ
سَيْفاً فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَخَذَ الْعَشْرَةَ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ .

وَأُمُّهُ ، هِيَ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الْمَلْقَبَةُ بِذَاتِ النُّطَاقِينَ^(٥) .

وَجَدُّهُ لِأُمِّهِ ، هُوَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَصَاحِبُهُ فِي

الْغَارِ .

وَجَدَّتُهُ لِأَبِيهِ ، هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ^(٦) عَمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

(١) يقتل دون ولايته : يقتل دفاعاً عن ولايته .

(٢) تَوُولُ إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ : تصير إليه الخلافة .

(٣) يغدو : يصبح .

(٤) حواريو الرُّسُلِ : الخاصّة من أصحابهم .

(٥) ذَاتِ النُّطَاقِينَ : لقبت بذلك لأنها شقت نطاقها يوم الهجرة شقين لتربط بأحدهما مزود رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

وبالثاني سقاءه ... انظرها في كتاب « صور من حياة الصحايات » للمؤلف .

(٦) صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : انظرها في كتاب « صور من حياة الصحايات » للمؤلف .

وَحَالَتْهُ ، هِيَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ عَلَيْهَا رِضْوَانُ اللَّهِ .
فَقَدْ نَزَلَ إِلَى قَبْرِهَا حِينَ دُفِنَتْ بِنَفْسِهِ ، وَسَوَّى عَلَيْهَا لَحْدَهَا بِيَدَيْهِ .
أَفْتَضُّنَّ أَنْ بَعْدَ هَذَا الْحَسَبِ حَسَباً ...
وَأَنَّ فَوْقَ هَذَا الشَّرَفِ شَرَفٌ غَيْرُ شَرَفِ الْإِيمَانِ وَعِزَّةِ الْإِسْلَامِ ؟ .

* * *

وَلِكُنِّي يُحَقِّقُ غُرُوزَهُ أُمْنِيَّتَهُ الَّتِي تَمَنَّاها عَلَى اللَّهِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ الْمُعْظَمَةِ
أَكَبَ^(١) عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَانْقَطَعَ لَهُ ، وَاعْتَمَمَ الْبَقِيَّةَ الْبَاقِيَّةَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ ... فَطَفِقَ يَوْمُ^(٢) بَيُوتَهُمْ ، وَيُصَلِّي خَلْفَهُمْ ، وَيَسْتَبْعُ مَجَالِسَهُمْ ، حَتَّى
رَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَأَبِي
أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ...

وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، وَسَعِيدَ بْنِ زَيْدٍ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ،
وَالنُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ ...

وَأَخَذَ كَثِيراً عَنْ خَالَتِهِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، حَتَّى غَدَا أَحَدَ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ
السَّبْعَةِ الَّذِينَ يَفْرَعُ^(٣) إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فِي دِينِهِمْ .

وَيَسْتَعِينُ بِهِمُ الْوَلَاةُ الصَّالِحُونَ عَلَى مَا اسْتَرْعَاهُمُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ مِنْ أَمْرِ
الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(٤) حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَالْيَا عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِ
الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ جَاءَهُ النَّاسُ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ... فَلَمَّا صَلَّى الظُّهْرَ دَعَا عَشْرَةَ
مِنْ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ غُرُوزَهُ بَنُ الزُّبَيْرِ ...

(١) أكب على طلب العلم : عكف على طلب العلم ، وانقطع له .

(٢) يوم بيوتهم : يأتي بيوتهم .

(٣) يفرع إليه المسلمون : يلجأون إليه ، ويلوذون به . (٤) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ .

فَلَمَّا صَارُوا عِنْدَهُ رَحَّبَ بِهِمْ ، وَأَكْرَمَ مَجَالِسَهُمْ ، ثُمَّ حَمِدَ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ
وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قَالَ :

إِنِّي دَعَوْتُكُمْ لِأَمْرِ تُوجِرُونَ عَلَيْهِ وَتَكُونُونَ لِي فِيهِ أَعْوَانًا عَلَى الْحَقِّ ...
فَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَ أَمْرًا إِلَّا بِرَأْيِكُمْ ، أَوْ بِرَأْيِ مَنْ حَضَرَ مِنْكُمْ .
فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَحَدًا يَتَعَدَّى عَلَى أَحَدٍ ، أَوْ بَلَعَكُمْ عَنْ عَامِلٍ لِي مَظْلَمَةً
فَأَسْأَلُكُمْ بِاللَّهِ أَنْ تُبَلِّغُونِي ذَلِكَ .

فَدَعَا لَهُ عُزْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ بِخَيْرٍ ، وَرَجَا لَهُ مِنَ اللَّهِ السَّدَادَ^(١) وَالرَّسَادَ .

* * *

وَقَدْ جَمَعَ عُزْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ الْعِلْمَ إِلَى الْعَمَلِ ، فَقَدْ كَانَ صَوَامًا فِي
الْهَوَاجِرِ^(٢) ... قَوَامًا فِي الْعَمَاتِ ، رَطَبَ اللِّسَانِ دَائِمًا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ حَدِيثًا^(٣) لِكِتَابِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ، عَاكِفًا عَلَى تِلَاوَتِهِ ...
فَكَانَ يَقْرَأُ رُبْعَ الْقُرْآنِ كُلِّ نَهَارٍ نَظْرًا فِي الْمُصْحَفِ ...

ثُمَّ يَقُومُ بِهِ اللَّيْلَ تِلَاوَةً عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ ...

وَلَمْ يُعْرِفْ عَنْهُ أَنَّهُ تَرَكَ ذَلِكَ مُنْذُ صَدْرِ^(٤) شَبَابِهِ إِلَى يَوْمِ وَفَاتِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ
وَاحِدَةٍ لِحَظَبِ نَزَلٍ بِهِ سَيِّئَتِكَ نَبْؤُهُ بَعْدَ قَلِيلٍ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ عُزْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ يَجِدُ فِي الصَّلَاةِ رَاحَةً نَفْسِيَّةً ، وَقُرَّةَ عَيْنِيهِ ، وَجَسَّتُهُ
عَلَى الْأَرْضِ ، فَيَحْسِنُهَا كُلَّ الْإِحْسَانِ ، وَيُتَقِنُ شَعَائِرَهَا أَتَمَّ الْإِتْقَانِ ، وَيُطِيلُهَا
غَايَةَ الطُّولِ ...

(١) السداد : الصواب والاستقامة .

(٢) الهاجرة : شدة القيظ ، والجمع هواجر .

(٣) حديثاً : مصاحباً .

(٤) صدر شبابه : أول شبابه .

رُويَ عَنْهُ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يُصَلِّي صَلَاةً خَفِيفَةً ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ دَعَاهُ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : يَا بَنَ أَخِي ، أَمَا كَانَتْ لَكَ عِنْدَ رَبِّكَ جَلٌّ وَعَزٌّ حَاجَةً ؟ ...
وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي صَلَاتِي كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْمَلَحَ .

* * *

وَقَدْ كَانَ عُزْرَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ سَخِيَّ الْيَدِ سَمُحاً جَوَاداً ...
وَمِمَّا أَثَرٌ عَنْ جُودِهِ أَنَّهُ كَانَ لَهُ بُسْتَانٌ مِنْ أَعْظَمِ بَسَاتِينِ الْمَدِينَةِ ...
عَذْبُ الْمِيَاهِ ، ظَلِيلُ الْأَشْجَارِ ، بَاسِقُ النَّخِيلِ ...

وَكَانَ يُسَوِّرُ^(١) بُسْتَانَهُ طَوَالَ الْعَامِ ؛ لِحِمَايَةِ أَشْجَارِهِ مِنْ أَذَى الْمَاشِيَةِ
وَعَبَثِ الصَّبْيَةِ ، حَتَّى إِذَا آتَى أَوَانُ الرُّطَبِ^(٢) وَأَتَيْنَتِ الثَّمَارُ وَطَابَتْ ، وَاشْتَهَتْهَا
النُّفُوسُ ... كَسَرَ حَائِطَ بُسْتَانِهِ فِي أَكْثَرِ مِنْ جِهَةٍ لِيَجِيزَ لِلنَّاسِ دُخُولَهُ ...
فَكَانُوا يُلْمُونَ^(٣) بِهِ ذَاهِبِينَ آيِبِينَ ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَرِهِ مَا لَذَّ لَهُمُ الْأَكْلُ ،
وَيَحْمِلُونَ مِنْهُ مَا طَابَ لَهُمُ الْحَمْلُ .

وَكَانَ كُلَّمَا دَخَلَ بُسْتَانَهُ هَذَا رَدَّدَ قَوْلَهُ جَلٌّ وَعَزٌّ :

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾^(٤) .

* * *

وَفِي ذَاتِ سَنَةٍ مِنْ خِلَافَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ^(٥) شَاءَ اللَّهُ جَلٌّ وَعَزٌّ أَنْ
يَمْتَحِنَ عُزْرَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ امْتِحَاناً لَا يَنْبُتُ لَهُ إِلَّا ذُؤُ الْأَفْقِدَةِ الَّتِي عَمَرَهَا الْإِيمَانُ
وَأَثَرَعَهَا^(٦) الْيَقِينُ .

(١) يسور بستانه : يجعل لبستانه سوراً .

(٢) الرطب : ثمر النخيل قِيلَ أَنْ يَصِيرَ ثَمراً .

(٣) يُلْمُونَ به : يدخلونه .

(٤) سورة الكهف : آية ٣٩ .

(٥) الوليد بن عبد الملك : سادس خلفاء بني أمية

وقد بلغت دولة الإسلام في عهده أوج عزها .

(٦) أثرعها : ملأها .

فَلَقَدْ دَعَا خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ عُزُورَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ لِزِيَارَتِهِ فِي « دِمَشْق » ؛ فَلَبَّى
دَعْوَتَهُ ، وَصَحِبَ مَعَهُ أَكْبَرَ بَنِيهِ ... وَلَمَّا قَدِمَ عَلَى الْخَلِيفَةِ رَحَّبَ بِمَقْدَمِهِ أَعْظَمَ
التَّوْحِيْبِ ، وَأَكْرَمَ وَفَادَتَهُ أَوْفَى الْإِكْرَامِ ، وَبَالَغَ فِي الْحَفَاوَةِ بِهِ .
ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْ تَجْرِيَ الرِّيَاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي الشُّفُنُ .
ذَلِكَ أَنَّ ابْنَ عُزُورَةَ دَخَلَ عَلَى إِصْطَبِلٍ ^(١) الْوَلِيدِ لِيَتَفَرَّجَ عَلَى جِيَادِهِ
الصَّافِنَاتِ ^(٢) ، فَرَمَحَتْهُ ^(٣) دَابَّةٌ رَمْحَةً قَاضِيَةً أَوْدَتْ بِحَيَاتِهِ .
وَلَمْ يَكِدِ الْأَبُ الْمَفْجُوعُ يَنْفُضُ يَدَيْهِ مِنْ تُرَابِ قَبْرِ وَلَدِهِ ، حَتَّى أَصَابَتْ
إِخْدَى قَدَمَيْهِ « الْآكِلَةُ » ^(٤) .

فَتَوَرَّمتْ سَافُهُ ، وَجَعَلَ الْوَرَمُ يَشْتَدُّ وَيَمْتَدُّ بِسُرْعَةٍ مُذْهَلَةٍ .
فَاسْتَدْعَى الْخَلِيفَةُ لِصَيفِهِ الْأَطْبَاءَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ...
وَحَضَّهُمْ عَلَى مُعَالَجَتِهِ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ ...
لَكِنَّ الْأَطْبَاءَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ لَا مَنْدُوحَةَ ^(٥) مِنْ بَثْرِ سَنَاقِ عُزُورَةَ قَبْلَ أَنْ
يَسِيرِيَ الْوَرَمُ إِلَى جَسَدِهِ كُلِّهِ ، وَيَكُونَ سَبَبًا فِي الْقَضَاءِ عَلَيْهِ ...
فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنَ الْإِذْعَانِ لِذَلِكَ .
وَلَمَّا حَضَرَ الْجَرَاحُ لِبَثْرِ السَّنَاقِ ، وَأَخْضَرَ مَعَهُ مَبَاضِعُهُ ^(٦) لِيَشُقَّ اللَّحْمُ ،
وَمَنَاشِيرُهُ لِيَنْشُرَ الْعَظْمَ ، قَالَ الطَّبِيبُ لِعُزُورَةَ :
أَرَأَيْتَ أَنْ تُسْقِيكَ جُرُوعَةً مِنْ مُسْكِرٍ لِكَيْ لَا تَشْعُرَ بِالْآلَمِ الْبَثْرِ الْمُبَرِّحَةِ .

(١) الإصطبل : مربوط الخيل ونحوها من الدواب .

(٢) الجياد الصافنات : الجياد التي تقف على ثلاث وترفع الرابعة ، وهي صفة من صفات الجياد الكريمة .

(٣) رمحته : رفسته . (٥) لا مندوحة : لا بُدَّ وَلَا مَفْرَ .

(٤) الآكلة : داءٌ يصيب العضو فيأكل منه . (٦) الموضع : آلة يشق بها الطبيب الجلد .

فَقَالَ : هَيْهَاتَ ^(١) ... لَا أَسْتَعِينُ بِحَرَامٍ عَلَى مَا أَرْجُوهُ مِنَ الْعَافِيَةِ .

فَقَالَ لَهُ : إِذَنْ نَسْقِيكَ الْمُخَدَّرَ ، فَقَالَ :

مَا أَحِبُّ أَنْ أُسَلِّبَ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِي دُونَ أَنْ أَشْعُرَ بِأَلَمِهِ ، وَأُحْتَسِبَ ^(٢) ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ .

وَلَمَّا هَمَّ الْجِرَاحُ بِقَطْعِ السَّاقِ ، تَقَدَّمَ نَحْوَ عَزْوَةِ طَائِفَةٍ مِنَ الرِّجَالِ فَقَالَ :
مَا هَؤُلَاءِ ؟! ... فَقِيلَ لَهُ :

لَقَدْ جِيءَ بِهِمْ لِيُمْسِكُوكَ ، فَلَرَبَّمَا اسْتَدَّ عَلَيْكَ الْأَلَمُ ؛ فَجَذَبْتَ قَدَمَكَ
جَذْبَةً أَضَرَّتْ بِكَ .

فَقَالَ : رُدُّوهُمْ ...

لَا حَاجَةَ لِي بِهِمْ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكْفِيَكُمْ ^(٣) ذَلِكَ بِالذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ ...
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الطَّبِيبُ ؛ فَقَطَعَ اللَّحْمَ بِالْمِبْضَعِ ... وَلَمَّا بَلَغَ الْعَظْمَ ، وَضَعَ
عَلَيْهِ الْمِنْشَارَ وَطَفِقَ يَنْشُرُهُ بِهِ ، وَعَزْوَةٌ يَقُولُ :
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ .

وَمَا فَتِيَ الْجِرَاحُ يَنْشُرُ ، وَعَزْوَةٌ يُهْلَلُ وَيُكَبَّرُ حَتَّى يُتَرَتِ السَّاقُ بَتْرًا .
ثُمَّ أُغْلِيَ ^(٤) الزَّيْتُ فِي مَغَارِفِ الْحَدِيدِ ، وَغُمِسَتْ بِهِ سَاقُ عَزْوَةِ لِإِيقَافِ
تَدْفُقِ الدَّمَاءِ ، وَحَسَمَ الْجِرَاحُ ، فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ إِعْمَاءَةٌ طَوِيلَةٌ حَالَتْ دُونَهُ وَدُونَ أَنْ
يَقْرَأَ حِصَّتَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ...

وَكَانَتْ الْمَرَّةُ الْوَحِيدَةَ الَّتِي فَاتَهُ فِيهَا ذَلِكَ الْخَيْرُ مُنْذُ صَدَرَ شَبَابِهِ .

(١) هيهات : اسم فعل بمعنى بَعْدَ ، [أَي لَا أَفْعَل] . (٣) أَكْفِيكُمْ ذَلِكَ : أَغْنِيَكُمْ عَنْ ذَلِكَ .

(٢) اُحْتَسِبَ الشَّيْءُ : تَوَلَّى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ . (٤) أُغْلِيَ الزَّيْتُ : حُمِيَ الزَّيْتُ عَلَى النَّارِ .

وَلَمَّا صَحَا عُرْوَةً ، دَعَا بِقَدَمِهِ الْمَبْتُورَةَ ، فَنَاولُوهُ إِيَّاهَا ...
 فَجَعَلَ يُقَلِّبُهَا بِيَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ : أَمَّا وَالَّذِي حَمَلَنِي عَلَيْكَ فِي عَتَمَاتِ اللَّيْلِ
 إِلَى الْمَسَاجِدِ ؛ إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّي مَا مَشَيْتُ بِكَ إِلَى حَرَامٍ قَطُّ ...
 ثُمَّ تَمَثَّلَ بِأَيَّاتِ « لِمَعْنِ بْنِ أَوْسٍ » ^(١) يَقُولُ فِيهَا :

لَعَمْرُكَ مَا أَهْوَيْتُ كَفِّي لِرَبِيبَةٍ ^(٢) وَلَا حَمَلْتَنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي
 وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصْرِي لَهَا وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي
 وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ تُصِيبْنِي مُصِيبَةٌ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ فَتَى قَبْلِي

* * *

وَقَدْ شَقَّ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ مَا نَزَلَ بِضَيْفِهِ الْكَبِيرِ مِنَ التَّوَارِلِ ...
 فَقَدْ احْتَسَبَ ابْنَهُ ، وَقَدْ سَافَهُ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ؛ فَجَعَلَ يَحْتَالُ لِتَعْرِيبِهِ
 وَتَضْيِيرِهِ عَلَى مَا أَصَابَهُ .

وَصَادَفَ أَنْ نَزَلَ بِدَارِ الْخِلَافَةِ جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي « عَبْسٍ » فِيهِمْ رَجُلٌ
 ضَرِيرٌ ، فَسَأَلَهُ الْوَلِيدُ عَنْ سَبَبِ كَفِّ بَصَرِهِ ، فَقَالَ :
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَكُنْ فِي بَنِي « عَبْسٍ » رَجُلٌ أَوْفَرُ مِنِّي مَالًا ، وَلَا أَكْثَرُ
 أَهْلًا وَوَلَدًا .

فَنَزَلْتُ مَعَ مَالِي وَعِيَالِي فِي بَطْنٍ وَادٍ مِنْ مَنَازِلِ قَوْمِي ، فَطَرَقَنَا سَيْلٌ لَمْ نَرِ
 مِثْلَهُ قَطُّ ...

فَدَهَبَ السَّيْلُ بِمَا كَانَ لِي مِنْ مَالٍ ، وَأَهْلٍ ، وَوَلَدٍ ...
 وَلَمْ يَتْرُكْ لِي غَيْرَ بَعِيرٍ وَاحِدٍ ، وَطِفْلٍ صَغِيرٍ حَدِيثِ الْوِلَادَةِ .

(١) مَعْنِ بْنِ أَوْسٍ : شَاعِرٌ مُحَضَّرٌ مِنْ بَنِي مَزِينَةَ . (٢) الرِّبَاةُ : الشُّكُّ وَالتُّهْمَةُ .

وَكَانَ الْبَعِيرُ صَغْبًا^(١) فَتَدَّ^(٢) مِنِّي ...

فَتَرَكْتُ الصَّبِيَّ عَلَى الْأَرْضِ وَلَحِقْتُ بِالْبَعِيرِ ...

فَلَمْ أَجَاوِزْ مَكَانِي قَلِيلًا حَتَّى سَمِعْتُ صَيْحَةَ الطُّفْلِ ...

فَالْتَفَتُ ... فَإِذَا رَأْسُهُ فِي فَمِ الذُّئْبِ وَهُوَ يَأْكُلُهُ ...

فَبَادَرْتُ إِلَيْهِ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْتَطِيعَ إِنْقَاذَهُ إِذْ كَانَ قَدْ أَتَى عَلَيْهِ ...

فَلَحِقْتُ بِالْبَعِيرِ فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ ؛ رَمَانِي بِرِجْلِهِ عَلَى وَجْهِ رَمِيَّةٍ حَطَمْتُ

جَبِينِي ، وَذَهَبَتْ بِبَصَرِي ...

وَهَكَذَا وَجَدْتُ نَفْسِي قَدْ عَدَوْتُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ ، وَلَا وَلَدٍ ،

وَلَا مَالٍ ، وَلَا بَصِيرٍ ... فَقَالَ الْوَلِيدُ لِحَاجَبِهِ :

انْطَلِقْ بِهَذَا الرَّجُلِ إِلَى صَنِيفِنَا غُرُورَةَ بْنِ الرَّبِيرِ ، وَلِيَقْصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ ؛ لِيَعْلَمَ

أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ بَلَاءً .

* * *

وَلَمَّا حُمِلَ غُرُورَةُ بْنُ الرَّبِيرِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأُذْخِلَ عَلَى أَهْلِهِ ، بَادَرَهُمْ قَائِلًا :

لَا يَهْوِلَنَّكُمْ مَا تَرَوْنَ ... فَلَقَدْ وَهَبَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْبَعَةً مِنَ الْبَيْنِ ، ثُمَّ

أَخَذَ مِنْهُمْ وَاحِدًا وَأَبْقَى لِي ثَلَاثَةً ...

فَلَهُ الْحَمْدُ .

وَأَعْطَانِي أَرْبَعَةً مِنَ الْأَطْرَافِ ، ثُمَّ أَخَذَ مِنْهَا وَاحِدًا وَأَبْقَى لِي ثَلَاثَةً ...

فَلَهُ الْحَمْدُ ...

وَأَيُّمُ^(٣) اللَّهُ ، لَئِنْ أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي قَلِيلًا ، فَلَقَدْ أَبْقَى لِي كَثِيرًا ...

(٣) أُمُّ اللَّهِ : أَحْلَفَ بِاللَّهِ .

(٢) تَدَّ : شَرَدَ .

(١) الْبَعِيرُ الصَّغْبُ : الْجَمَلُ الْعَبِيرُ .

وَلَعِنِ ابْتِلَانِي مَرَّةً ، فَلَطَّالَمَا عَافَانِي مَرَّاتٍ ...

* * *

وَلَمَّا عَرَفَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ بَوُصُولَ إِمَامِهِمْ وَعَالِمِهِمْ عُزْرَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ
تَسَايَلُوا^(١) عَلَى بَيْتِهِ لِيُؤَاسُوا وَيُعْزُوا ...

فَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ مَا عُزِّي بِهِ كَلِمَةُ «إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ طَلْحَةَ» ، حَيْثُ
قَالَ لَهُ :

أَبْشُرْ - يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ - فَقَدْ سَبَقَكَ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَائِكَ ، وَوَلَدٌ مِنْ أَبْنَائِكَ
إِلَى الْجَنَّةِ ...

وَالْكُلُّ يَتَّبِعُ الْبَعْضَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ...

وَلَقَدْ أَتَقَى اللَّهُ لَنَا مِنْكَ مَا نَحْنُ إِلَيْهِ فُقَرَاءُ وَعَنْهُ غَيْرُ أَغْنِيَاءَ مِنْ عِلْمِكَ ،
وَفَقْهِكَ ، وَرَأْيِكَ ... نَفَعَكَ اللَّهُ وَإِيَّانَا بِهِ ...

وَاللَّهُ وَلِيُّ نَوَابِكَ ، وَالصَّامِينَ يُحْسِنُ حِسَابِكَ .

* * *

ظَلَّ عُزْرَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ لِلْمُسْلِمِينَ مَنَارَةً هُدًى ، وَدَلِيلَ فَلَاحٍ ، وَدَاعِيَةَ خَيْرٍ
طَوَالَ حَيَاتِهِ ...

وَلَقَدْ اهْتَمَّ أَكْثَرُ مَا اهْتَمَّ بِتَرْبِيَةِ أَوْلَادِهِ خَاصَّةً ، وَسَائِرِ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ
عَامَّةً ؛ فَلَمْ يَتْرُكْ فُرْصَةً لَتَوْجِيهِهِمْ إِلَّا اعْتَنَمَهَا ، وَلَمْ يَدَعْ سَانِحَةً^(٢) لِنُضْحِهِمْ
إِلَّا أَفَادَ مِنْهَا .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ دَأَّبَ عَلَى حَضِّ^(٣) بَنِيهِ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ، إِذْ كَانَ يَقُولُ
لَهُمْ :

(١) تسايلاوا على بيته : تواردوا عليه من كل جهة .

(٢) لم يدع سانحة : لم يترك فرصة .

(٣) حض بنيه : حث أولاده .

يَا بَنِي تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ، وَابْذُلُوا لَهُ حَقَّهُ ...
فَإِنَّكُمْ إِنْ تَكُونُوا صِغَارَ قَوْمٍ ؛ فَعَسَى أَنْ يَجْعَلَ كُمْ اللَّهُ بِالْعِلْمِ كِبَرَاءَهُمْ .
ثُمَّ يَقُولُ : وَاسْأَلْتَاهُ^(١) ، هَلْ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ أَفْبَحُ مِنْ شَيْخٍ جَاهِلٍ ؟!! .

* * *

وَكَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَدِّ الصَّدَقَةِ هَدِيَّةً تُهْدَى لِلَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ، فَيَقُولُ :
يَا بَنِي ، لَا يُهْدِيَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَى رَبِّهِ مَا يَسْتَحْيِي أَنْ يُهْدِيَهُ إِلَى عَزِيزِ قَوْمِهِ ...
فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعَزُّ الْأَعْزَاءِ ، وَأَكْرَمُ الْكَرَمَاءِ ، وَأَحَقُّ مَنْ يُخْتَارُ لَهُ .

* * *

وَكَانَ يُبَصِّرُهُم بِالنَّاسِ ، وَيَنْفُذُ بِهِمْ إِلَى جَوْهَرِهِمْ فَيَقُولُ :
يَا بَنِي إِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ رَجُلٍ فَعَلَّةٌ خَيْرٌ رَائِعَةٌ فَأَمْلُوا بِهِ خَيْرًا ، وَلَوْ كَانَ فِي نَظَرِ
النَّاسِ رَجُلٌ سُوءٍ ؛ فَإِنَّ لَهَا عِنْدَهُ أَخَوَاتٍ ...
وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ رَجُلٍ فَعَلَّةٌ شَرٌّ فَطَبِيعَةٌ فَاحْذَرُوهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي نَظَرِ النَّاسِ
رَجُلٌ خَيْرٍ ؛ فَإِنَّ لَهَا عِنْدَهُ أَخَوَاتٍ أَيْضًا .
وَاعْلَمُوا أَنَّ الْحَسَنَةَ تَدُلُّ عَلَى أَخَوَاتِهَا ...
وَأَنَّ السَّيِّئَةَ تَدُلُّ عَلَى أَخَوَاتِهَا أَيْضًا .

* * *

وَكَانَ يُوصِيهِمْ بِلَيْنِ^(٢) الْجَانِبِ ، وَطِيبِ الْكَلَامِ ، وَبِشْرِ^(٣) الْوَجْهِ
فَيَقُولُ :

يَا بَنِي ، مَكْتُوبٌ فِي الْحِكْمَةِ ، « لَتَكُنْ كَلِمَتُكَ طَيِّبَةً ، وَلْيَكُنْ وَجْهُكَ

(١) واسألتاه : أسلوب يستعمل لإستقباح الأمر .

(٢) لين الجانب : طلاقة الوجه ، وبشاشته .

(٣) بشر الوجه : سهولة المعاشرة .

طَلَقًا ، تَكُنْ أَحَبَّ إِلَى النَّاسِ مِمَّنْ يَبْذُلُ لَهُمُ الْعَطَاءَ » .

* * *

وَكَانَ إِذَا رَأَى النَّاسَ يَجْنَحُونَ^(١) إِلَى التَّرَفِ ، وَيَسْتَمِرُّونَ^(٢) النَّعِيمَ يُذَكِّرُهُمْ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ شَطَفِ الْعَيْشِ ، وَخُشُونَةِ الْحَيَاةِ .

مِنْ ذَلِكَ مَا حَكَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُكَدِرِ^(٣) قَالَ :

لَقِيتُ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ فَأَخَذَ بِيَدِي وَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ .
فَقُلْتُ : لَبَيْكَ .

فَقَالَ : دَخَلْتُ عَلَى أُمِّي عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ :

يَا بُنَيَّ ...

فَقُلْتُ : لَبَيْكَ .

فَقَالَتْ : وَاللَّهِ إِنْ كُنَّا^(٤) لَنَمُكُّتُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً مَا نُوقِدُ فِي بَيْتِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ نَارًا مُضْبَاحًا وَلَا غَيْرَهُ .

فَقُلْتُ : يَا أُمَّه ، فِيمَ كُنْتُمْ تَعِيشُونَ ؟ !

فَقَالَتْ : بِالْأَسْوَدَيْنِ ... الثَّمَرِ وَالْمَاءِ .

* * *

وَبَعْدُ ... فَقَدْ عَاشَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَاحِدًا وَسَبْعِينَ عَامًا مُتْرَعَةً^(٥) بِالْخَيْرِ ،
حَافِلَةً بِالْبَرِّ ، مُكَلَّلَةً بِالثَّقَلَى .

فَلَمَّا جَاءَهُ الْأَجَلُ الْمَحْتُمُ أَدْرَكَهُ وَهُوَ صَائِمٌ ...

(١) يجنحون : يميلون .

(٢) يستمرئون النعيم : يستطيبون النعيم .

(٣) مُحَمَّدُ بْنُ الْمُكَدِرِ : تابعي من أهل المدينة تُوْفِيَ سنة ١٣٠ هـ .

(٥) مترعة : مملوءة .

وَلَقَدْ أَلَحَّ عَلَيْهِ أَهْلُهُ أَنْ يُفْطِرَ فَأَبَى ...
لَقَدْ أَبَى ، لِأَنَّهُ كَانَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ فِطْرُهُ عَلَى شُرْبَةِ مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ^(١) ...
فِي قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ ...
بِأَيْدِي الْحُورِ الْعِينِ (*) ...

(١) نَهْرُ الْكَوْثَرِ : نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ .

- (*) للاستزادة من أخبار عُذْرَةَ بِنِ الزَّيْتَرِ انظر :
- ١ - الطبقات الكبرى لأبْنِ سَعْدٍ : ٤٠٦/١ و ٣٨٢/٢ ، ٣٨٧ و ١٠٠/٣ و ١٦٧/٤ و ٣٣٤/٥ و ١٠٢/٨ .
 - ٢ - حُلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ لِأَبِي نَعِيمٍ : ١٧٦/٢ .
 - ٣ - صِفَةُ الصَّفْوَةِ لِأَبْنِ الْجَوْزِيِّ : ٨٧/٢ .
 - ٤ - وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ لِأَبْنِ خُلِكَانٍ : ٢٥٥/٣ .
 - ٥ - أَنْسَابُ الْأَشْرَافِ لِلْبَلَاذَرِيِّ : (انظر الفهارس) .
 - ٦ - جَمَهْرَةُ أَنْسَابِ الْعَرَبِ لِأَبْنِ حَزَمٍ : (انظر الفهارس) .

الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ

« يَا أَبَا يَزِيدَ ؛ لَوْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَأَحَبَّكَ »

[عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ]

قَالَ هِلَالٌ^(١) بْنُ إِسَافٍ لِضَيْفِهِ مُنْذِرٌ^(٢) الثَّوْرِيُّ :

أَلَا أَمْضِي بِكَ يَا مُنْذِرُ إِلَى الشَّيْخِ لَعَلَّنَا نُؤْمِنُ سَاعَةً^(٣) ؟ !

فَقَالَ مُنْذِرٌ : بَلَى ...

فَوَاللَّهِ مَا أَقْدَمَنِي « الْكُوفَةَ » إِلَّا الرَّغْبَةُ فِي لِقَاءِ شَيْخِكَ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ ،
وَالْحَيْنُ لِلْعَيْشِ سَاعَةً فِي رَحَابِ إِيْمَانِهِ .

وَلَكِنْ هَلْ اسْتَأْذَنْتَ لَنَا عَلَيْهِ ؟ ...

فَقَدْ قِيلَ لِي : إِنَّهُ مُنْذُ أُصِيبَ بِالْفَالِجِ^(٤) لَزِمَ بَيْتَهُ ، وَانْصَرَفَ إِلَى رَبِّهِ ...
وَعَزَفَ^(٥) عَنْ لِقَاءِ النَّاسِ .

فَقَالَ هِلَالٌ : إِنَّهُ لَكَذَلِكَ مُنْذُ عَرَفْتُهُ « الْكُوفَةَ » ، وَإِنَّ الْمَرَضَ لَمْ يُعَيِّرْ مِنْهُ
شَيْئًا .

فَقَالَ مُنْذِرٌ : لَا بَأْسَ ...

وَلَكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ الْأَشْيَاخِ^(٦) أَمْرَجَةً^(٧) رَقِيقَةً ؛ فَهَلْ تَرَى أَنَّ نُبَادِرَ
الشَّيْخِ فَتَسْأَلُهُ عَمَّا نُرِيدُ ؟ ...

(١) هِلَالُ بْنُ إِسَافٍ : هُوَ هِلَالُ بْنُ إِسَافٍ « بِالْبَاءِ » أَوْ هِلَالُ بْنُ إِسَافٍ « بِالْهَمْزَةِ » الْأَشْجَعِيُّ ، أَحَدُ ثَقَاتِ التَّابِعِينَ
وَمُتَقَدِّمِهِمْ .

(٢) مُنْذِرُ الثَّوْرِيُّ : هُوَ الْمُنْذِرُ بْنُ يَغْلَى الثَّوْرِيُّ أَحَدُ مُتَأَخَّرِي التَّابِعِينَ .

(٣) لَعَلَّنَا نُؤْمِنُ سَاعَةً : لَعَلَّنَا نَتَعَطَّى فَلَا نَشْغَلُ أَنْفُسَنَا إِلَّا بِالْإِيْمَانِ .

(٤) الْفَالِجُ : مَرَضٌ ، هُوَ مَا يُعْرِفُ الْآنَ بِالْشَّلَلِ النَّصْفِيِّ . (٦) الْأَشْيَاخُ : جَمْعُ مُفْرَدِهِ شَيْخٌ .

(٥) عَزَفَ عَنْ لِقَاءِ النَّاسِ : زَهَدَ فِي لِقَاءِ النَّاسِ وَمَلَّ مِنْهُ . (٧) أَمْرَجَةٌ : طَبَائِعُ وَأَحْوَالٌ .

أَمْ نَلْتَزِمَ الصَّمْتَ فَتَسْمَعَ مِنْهُ مَا يُرِيدُ ؟ ...
فَقَالَ هِلَالٌ : لَوْ جَلَسْتَ مَعَ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ عَاماً بِأَكْمَلِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُكَلِّمُكَ
إِذَا لَمْ تُكَلِّمَهُ ...

وَلَا يُبَادِرُكَ إِذَا لَمْ تَسْأَلْهُ ...
فَهُوَ قَدْ جَعَلَ كَلَامَهُ ذِكْراً ، وَصَمْتَهُ فِكْراً .
فَقَالَ مُنْذِرٌ : فَلْتَمَضِ إِلَيْهِ إِذَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ .
ثُمَّ مَضَى إِلَى الشَّيْخِ ... فَلَمَّا صَارَا عِنْدَهُ سَلَمَا وَقَالَا :
كَيْفَ أَصْبَحَ الشَّيْخُ ؟ .

فَقَالَ : أَصْبَحَ ضَعِيفاً مُذْنِياً ، يَأْكُلُ رِزْقَهُ ...
وَيَنْتَظِرُ أَجَلَهُ .
فَقَالَ لَهُ هِلَالٌ :

لَقَدْ أَمَّ^(١) « الْكُوفَةَ » طَيْبُ حَازِقٍ ، أَفْتَأْذُنُ بَأْنٍ أَدْعُوهُ لَكَ ؟ .
فَقَالَ : يَا هِلَالُ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ الدَّوَاءَ حَقٌّ ...
وَلَكِنِّي تَأَمَّلْتُ عَاداً وَثُمُودَ وَأَصْحَابَ الرُّسِّ^(٢) وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ...
وَنَظَرْتُ فِي حِرْصِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا ، وَرَغْبَتِهِمْ فِي مَتَاعِهَا ...
وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ مِنَّا بَأْساً^(٣) ، وَأَعْظَمَ قُدْرَةً ...
وَقَدْ كَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءٌ ...

(١) أَمَّ الْكُوفَةَ : جَاءَ الْكُوفَةُ .

(٢) عَادَ ، وَثُمُودَ ، وَأَصْحَابَ الرُّسِّ : مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ الَّتِي كَانَ لَهَا شَأْنٌ .

(٣) بَأْساً : قُوَّةٌ .

وَفِيهِمْ مَرَضَى ...

فَلَا الْمُدَاوِي بَقِيَ وَلَا الْمُدَاوَى !! .

ثُمَّ تَنَهَّدَ تَنَهُّدًا عَمِيقًا وَقَالَ :

وَلَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الدَّاءُ لَتَدَاوَيْنَا مِنْهُ .

فَاسْتَأْذَنَ مُنْذِرٌ وَقَالَ :

فَمَا الدَّاءُ إِذَا يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ !؟ .

فَقَالَ : الدَّاءُ الذُّنُوبُ ...

فَقَالَ مُنْذِرٌ : وَمَا الدَّوَاءُ !؟ .

فَقَالَ : الدَّوَاءُ الِاسْتِغْفَارُ .

فَقَالَ مُنْذِرٌ : وَكَيْفَ يَكُونُ الشُّفَاءُ ؟ .

فَقَالَ : بِأَنْ تَتُوبَ ثُمَّ لَا تَعُودَ ...

ثُمَّ حَدَّقَ فِيْنَا وَقَالَ : السَّرَائِرُ ... السَّرَائِرُ ...

عَلَيْكُمْ بِالسَّرَائِرِ اللَّاتِي تَخْفَى عَلَى النَّاسِ ؛ وَهُنَّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى

بَوَائِدُ^(١) ...

الْتَمِسُوا دَوَاءَهُنَّ .

فَقَالَ مُنْذِرٌ : وَمَا دَوَائُهُنَّ ؟ .

فَقَالَ الشَّيْخُ : التَّوْبَةُ النَّصُوحُ^(٢) ...

(١) بوايد : ظاهرة .

(٢) التوبة النصوح : التوبة الصادقة المقترنة بالعزم على عدم العودة .

ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَغَتْ دُمُوعُهُ لِحْيَتَهُ .

فَقَالَ لَهُ مُنْذِرٌ : أَتَبْكِي وَأَنْتَ أَنْتَ (١) ؟ !

فَقَالَ : هَيْهَاتَ (٢) ...

لِمَ لَا أَبْكِي ؟ ... وَقَدْ أَذْرَكْتُ قَوْمًا نَحْنُ فِي جَنْبِهِمْ (٣) لُصُوصٌ [يُرِيدُ
الصَّحَابَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ] .

قَالَ هَلَالٌ :

وَفِيمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا ابْنُ الشَّيْخِ ، فَحَيَّا وَقَالَ :

يَا أَبَتِ إِنَّ أُمِّي قَدْ صَنَعَتْ لَكَ خَبِيبًا (٤) وَجَوْدَنَةً ...

وَأِنَّهُ لَيَجْبُرُ قَلْبَهَا أَنْ تَأْكُلَ مِنْهُ ، فَهَلْ آتَيْكَ بِهِ ؟ .

فَقَالَ : هَاتِيهِ .

فَلَمَّا خَرَجَ لِيُحْضِرَهُ ... طَرَقَ الْبَابَ سَائِلٌ ، فَقَالَ : أَذْخِلُوهُ .

فَلَمَّا صَارَ فِي صَحْنِ (٥) الدَّارِ نَظَرْتُ إِلَيْهِ ؛ فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ كَهْلٌ مُمَزَّقُ
الثِّيَابِ قَدْ سَالَ لُعَابُهُ عَلَى ذَقْنِهِ ، وَبَدَأَ مِنْ مَلَامِحِ وَجْهِهِ أَنَّهُ مَعْتُوَةٌ .

فَمَا كِدْتُ أَرْفَعُ بَصْرِي عَنْهُ حَتَّى أَقْبَلَ ابْنُ الشَّيْخِ بِصُحْفَةٍ (٦) الْحَبِيبِ ؛
فَأَشَارَ إِلَيْهِ أَبُوهُ : أَنْ ضَعْهَا بَيْنَ يَدَيِ السَّائِلِ .

فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ... فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا الرَّجُلُ ، وَجَعَلَ يَلْتَهُمْ مَا فِيهَا التَّيْهَامَ ...

(١) وأنت أنت : إشارة إلى ما عُرف من صلاحه وعبادته وزهادته .

(٢) هيهات : اسم فعل معناه لقد أُنْعِدْتُ .

(٣) نحن في جنبهم : نحن بالنسبة إليهم . (٥) صحن الدار : بالتحته .

(٤) الخبيص : لون من الخلوى . (٦) الصُحْفَةُ : وعاء منبسط يشبع الخمسة ، وجمعه صِحَاف .

وَلَعَابُهُ يَسِيلُ فَوْقَهَا ...

فَمَا زَالَ يَأْكُلُ حَتَّى أَتَى عَلَى مَا فِي الصَّحْفَةِ كُلِّهِ .

فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ :

رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَتِ ، لَقَدْ تَكَلَّفْتُ أُمِّي وَصَنَعْتُ لَكَ هَذَا الْحَبِيبَ ...

وَكُنَّا نَشْتَهِي أَنْ تَأْكُلَ مِنْهُ ...

فَأَطَعَمْتُهُ لِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَاذَا أَكَلَ .

فَقَالَ : يَا بُنَيَّ ...

إِذَا كَانَ هُوَ لَا يَدْرِي ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَدْرِي ... ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ

بِهِ عَلِيمٌ﴾^(١) .

وَفِيمَا هُوَ كَذَلِكَ ؛ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ ذَوِي قُرْبَاهُ وَقَالَ :

يَا أَبَا يَزِيدَ ، قُتِلَ الْحُسَيْنُ^(٢) بِنُ فَاطِمَةَ^(٣) عَلَيْهِ وَعَلَى أُمِّهِ السَّلَامِ .

فَقَالَ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ...

ثُمَّ تَلَا قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ^(٤) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ

(١) سورة آل عمران : آية ٩٢ .

(٢) هو الحسين بن علي بن أبي طالب سبط الرسول صلوات الله عليه ، قتله جنود بني أمية وهو في طريقه إلى الكوفة .

(٣) فاطمة الزهراء : ابنة الرسول ﷺ ، وزوج علي بن أبي طالب ... انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابييات » ، للمؤلف .

(٤) فاطر السموات والأرض : مُبدع السموات والأرض .

تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١﴾

لَكِنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَشْفِهِ كَلَامُهُ ، فَقَالَ لَهُ :

مَا تَقُولُ فِي قَتْلِهِ ؟

فَقَالَ : أَقُولُ إِلَى اللَّهِ إِيَابُهُمْ ، وَعَلَى اللَّهِ حِسَابُهُمْ .

قَالَ هَلَالٌ :

ثُمَّ إِنِّي رَأَيْتُ وَقْتَ الظُّهْرِ قَدْ اقْتَرَبَ ، فَقُلْتُ لِلشَّيْخِ : أَوْصِنِي .

فَقَالَ : لَا يَعْزُوكَ - يَا هَلَالٌ - كَثْرَةُ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْكَ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ مِنْكَ إِلَّا ظَاهِرَكَ ...

وَاعْلَمْ أَنَّكَ صَائِرٌ إِلَى عَمَلِكَ ...

وَأَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لَا يُتَتَغَى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ يَضْمَحِلُّ (٢) .

فَقَالَ لَهُ مُنْذِرٌ : وَأَوْصِنِي أَنَا أَيْضاً جُزَيْتَ خَيْراً .

فَقَالَ : يَا مُنْذِرُ ، أَتَقِي اللَّهَ فِيمَا عَلِمْتَ ... وَمَا اسْتَوْثِرَ (٣) عَلَيْكَ بِعِلْمِهِ ؛ فَكَلِّهِ إِلَى عَالِمِهِ ...

يَا مُنْذِرُ ، لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ ، ثُمَّ لَا يَتُوبُ ، فَتَكُونَ كِذْبَةً ...

وَلَكِنْ لِيَقُلْ : اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيَّ ، فَيَكُونَ دُعَاءً .

وَاعْلَمْ يَا مُنْذِرُ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي كَلَامٍ إِلَّا فِي تَهْلِيلِ اللَّهِ (٤) ...

(١) سورة الزُّمَر : آية ٤٦ .

(٢) يَضْمَحِلُّ : يَتَلَاشَى .

(٣) مَا اسْتَوْثِرَ عَلَيْكَ بِعِلْمِهِ : مَا أَخْفَى عَنْكَ عِلْمُهُ . (٤) تَهْلِيلُ اللَّهِ : قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

وَتَحْمِيدِ اللَّهِ ...

وَتَكْبِيرِ اللَّهِ ...

وَتَسْبِيحِ اللَّهِ ...

وَسُؤَالِكَ مِنَ الْخَيْرِ ...

وَتَعَوُّذِكَ مِنَ الشَّرِّ ...

وَأَمْرِكَ بِالْمَعْرُوفِ ...

وَنَهْيِكَ عَنِ الْمُنْكَرِ ...

وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ...

فَقَالَ لَهُ مُنْذِرٌ : لَقَدْ جَالَسْنَاكَ فَمَا سَمِعْنَاكَ تَتَمَثَّلُ بِالشَّعْرِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا بَعْضَ أَصْحَابِكَ يَتَمَثَّلُونَ بِهِ .

فَقَالَ : مَا مِنْ شَيْءٍ تَقُولُهُ هُنَا إِلَّا كُتِبَ وَقُرِئَ عَلَيْكَ هُنَاكَ ^(١) ...

وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أَجِدَ فِي كِتَابِي بَيْتَ شِعْرِ يُقْرَأُ عَلَيَّ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ .

ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْنَا جَمِيعاً وَقَالَ :

أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ ؛ فَهُوَ غَائِبُكُمْ الْمُرْتَقِبُ ...

وَلِإِنَّ الْغَائِبَ إِذَا طَالَتْ غَيْبَتُهُ أَوْشَكَتْ ^(٢) أَوْبَتُهُ ، وَتَرَقَّبَهُ ذُووُهُ .

ثُمَّ اسْتَعْبَرَ ^(٣) وَقَالَ :

(١) هنا : إشارة إلى الدنيا ، وهناك : إشارة إلى الآخرة .

(٢) أَوْشَكَتْ أَوْبَتُهُ : قَرَبَتْ عَوْدَتُهُ .

(٣) اسْتَعْبَرَ : بَكَى وَسَالَتْ عِبْرَاتِهِ .

مَاذَا نَصْنَعُ عَدَاً ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (١)...

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا...

وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴿٢﴾ ١٩.

قَالَ هَلَلُ :

وَمَا كَادَ الرَّبُّ يُتِّهِي مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى أَدْنَى لِلظُّهْرِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى ابْنِهِ وَقَالَ :
هَيَّا نَحْبِ دَاعِيِ اللَّهِ ...

فَقَالَ لَنَا ابْنُهُ :

أَعِينُونِي عَلَى حَمْلِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ جُزَيْتُمْ خَيْرًا .

فَرَفَعْنَاهُ ، فَوَضَعَ يُمْنَاهُ عَلَى كَتِفِ ابْنِهِ وَيُسْرَاهُ عَلَى كَتِفِي ، وَجَعَلَ
يَتَهَادَى (٣) بَيْنَنَا ، وَرِجْلَاهُ تَخْطَانِ عَلَى الْأَرْضِ خَطًّا .

فَقَالَ لَهُ مُنْذِرٌ : يَا أَبَا يَزِيدَ ، لَقَدْ رَخَّصَ اللَّهُ لَكَ فَلَوْ صَلَّيْتَ فِي بَيْتِكَ !! .
فَقَالَ : إِنَّهُ كَمَا تَقُولُ ...

وَلَكِنِّي سَمِعْتُ الْمُنَادِيَ يُنَادِي : حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ (٤) ...

حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ ...

فَمَنْ سَمِعَ مِنْكُمْ الْمُنَادِيَ يَدْعُوهُ إِلَى الْفَلَاحِ ؛ فَلْيُجِبْهُ وَلَوْ حَبْوًا (٥) .

* * *

وَبَعْدُ ... فَمَنْ الرَّبِّيعُ بُنْ حُثَيْمٍ هَذَا ١٩ .

(١) دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا : زلزلت الأرض وانهدم كل بناء عليها .

(٢) سورة الفجر : من الآية ٢١ - ٢٣ .

(٣) يتهادى : يُقَالُ جَاءَ فُلَانٌ يَتَهَادَى بَيْنَ اثْنَيْنِ أَي مَشَى وَهُوَ يَتَمَدَّدُ عَلَيْهِمَا فِي مَشْيِهِ .

(٤) حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ : أَقْبِلُوا عَلَى الْقُوزِ وَالنَّجَاةِ . (٥) حَبْوًا : زَحْفًا عَلَى الْيَدَيْنِ وَالْبَطْنِ .

إِنَّهُ عَلَّمَ مِنْ أَعْلَامِ التَّائِعِينَ ...

وَأَحَدُ الثَّمَانِيَةِ الَّذِينَ انْتَهَى إِلَيْهِمُ الزُّهْدُ فِي عَصْرِهِمْ .

عَرَبِيُّ الْأَصْلِ ...

مُضَرِّي الْأُرُومَةِ^(١) ...

يَلْتَقِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي جَدِّهِ الْيَاسِ وَمُضَرَ .

نَشَأَ مِنْذُ نُعُومَةِ أَطْفَارِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ...

وَقَطَمَ نَفْسَهُ مِنْذُ حَدَائِثِهَا عَلَى تَقْوَاهُ ...

كَانَتْ أُمُّهُ تَنَامُ فِي اللَّيْلِ ثُمَّ تَصْحُو ، فَتَجِدُ ابْنَهَا الْيَافِعَ^(٢) مَا زَالَ صَافًا فِي

مِحْرَابِهِ ...

سَابِحًا فِي مُنَاجَاتِهِ ...

مُسْتَعْرِقًا فِي صَلَاتِهِ ...

فَتَنَادِيهِ وَتَقُولُ :

يَا بُنَيَّ - يَا رَبِيعُ - أَلَا تَنَامُ ؟!

فَيَقُولُ : كَيْفَ يَسْتَطِيعُ النَّوْمَ مَنْ جَنَّ^(٣) عَلَيْهِ اللَّيْلُ ، وَهُوَ يَخْشَى

الْبَيَاتَ^(٤) ؟!

فَتَحَدِّثُ الدُّمُوعَ عَلَى خَدَّي الشَّيْخَةِ الْعُجُوزِ وَتَدْعُو لَهُ بِالْخَيْرِ .

وَلَمَّا شَبَّ الرَّبِيعُ وَنَمَا ؛ شَبَّ مَعَهُ وَرَعُهُ وَنَمَتْ بِنُمُوِّهِ خَشْيَتُهُ مِنَ اللَّهِ ...

(١) الأرومة : الأصل ، ومضري الأرومة : أي إن أصله ينتهي إلى مضر أحد أجداد رسول الله ﷺ .

(٢) اليافع : من قارب البلوغ .

(٣) جَنَّ عليه الليل : غشاه الليل وأظلم عليه .

(٤) البيات : هجوم الخصوم .

وَلَقَدْ أَرَقَ أُمُّهُ كَثْرَةَ تَضَرُّعِهِ ، وَشِدَّةَ نَحْبِهِ فِي عَتَمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامٍ
حَتَّى ظَنَّتْ بِهِ الظُّنُونُ ...

فَصَارَتْ تُنَادِيهِ قَائِلَةً :

مَا الَّذِي أَصَابَكَ يَا بُنَيَّ ؟ ...

لَعَلَّكَ أَتَيْتَ جُزْماً ...

لَعَلَّكَ قَتَلْتَ نَفْساً .

فَقَالَ : نَعَمْ يَا أُمُّهُ ، لَقَدْ قَتَلْتُ نَفْساً .

فَقَالَتْ فِي لَهْفَةٍ : وَمَنْ هَذَا الْقَتِيلُ - يَا بُنَيَّ - حَتَّى نَجْعَلَ النَّاسَ يَسْعَوْنَ إِلَى
أَهْلِهِ لَعَلَّهُمْ يَغْفُونَ عَنْكَ ؟ ...

وَاللَّهِ لَوْ عَلِمَ أَهْلُ الْقَتِيلِ مَا تُعَانِي مِنَ الْبَكَاءِ ، وَمَا تُكَابِدُ مِنَ الشَّهْرِ
لَرَجِمُوكَ .

فَقَالَ : لَا تُكَلِّمِي أَحَداً ...

فَإِنَّمَا قَتَلْتُ نَفْسِي ...

لَقَدْ قَتَلْتُهَا بِالذُّنُوبِ ...

* * *

وَلَقَدْ تَتَلَمَذَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ^(١) صَاحِبِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ وَأَقْرَبِ الصَّحَابَةِ هَدِيًّا وَسَمْتًا ^(٢) مِنَ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَقَدْ تَعَلَّقَ الرَّبِيعُ بِأُسْتَاذِهِ تَعَلُّقَ الْوَلِيدِ بِأُمِّهِ ...

وَأَحَبَّ الْأُسْتَاذُ تَلْمِيذَهُ حُبَّ الْأَبِ لِوَحِيدِهِ .

(١) انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) سمتاً : هيئة .

فَكَانَ الرَّيِّعُ يَدْخُلُ عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ ، فَإِذَا صَارَ عِنْدَهُ لَمْ يُؤْذَنْ
لِأَحَدٍ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّيِّعُ .

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَرَى مِنْ صَفَاءِ نَفْسِ الرَّيِّعِ ، وَإِخْلَاصِ قَلْبِهِ ، وَإِحْسَانِ
عِبَادَتِهِ مَا يَمْلَأُ فُؤَادَهُ أَسَى عَلَى تَأْخِيرِ زَمَانِهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَحِزْمَانِهِ
مِنْ صُحْبَتِهِ ...

وَكَانَ يَقُولُ لَهُ :

يَا أَبَا يَزِيدَ ، لَوْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَأَحَبَّكَ .

كَمَا كَانَ يَقُولُ لَهُ :

مَا رَأَيْتُكَ مَرَّةً إِلَّا ذَكَرْتُ الْمُخْبِتِينَ^(١) ...

* * *

وَلَمْ يَكُنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ مُغَالِيًا فِي ذَلِكَ .

فَقَدْ بَلَغَ الرَّيِّعُ بْنُ حُثَيْمٍ مِنَ الْحَشْيَةِ ، وَالْوَرَعِ ، وَالتَّقْوَى مَبْلَغًا قَلَّمَا سَمَا
إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ طَبَقَتِهِ .

وَأَثَرَتْ عَنْهُ فِي ذَلِكَ أَخْبَارٌ مَا تَزَالُ تَرْهُو بِهَا صَفَحَاتُ التَّارِيخِ ...

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ قَالَ :

صَحِبْتُ الرَّيِّعَ بْنَ حُثَيْمٍ عَشْرِينَ سَنَةً ؛ فَمَا سَمِعْتُهُ يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِكَلِمَةٍ
تَضَعُ ... وَتَلَا قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿إِلَيْهِ يَضَعُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٢) .

وَأَخْبَرَ عَنْهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَجَلَانَ قَالَ :

(١) المخبتون : الخاشعون .

(٢) سورة فاطر : آية ١٠ .

بِثَّ عِنْدَ الرَّبِّيعِ لَيْلَةً ؛ فَلَمَّا أَتَقَنَ أَنِّي دَخَلْتُ فِي النَّوْمِ قَامَ يُصَلِّي ، فَقَرَأَ قَوْلَهُ
جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا ^(١) السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ^(٢) .

فَمَكَثَ لَيْلَتُهُ يُصَلِّي بِهَا ...

يَتَذَوُّهَا وَيُعِيدُهَا حَتَّى طَلَعَ عَلَيْهِ الْفَجْرُ ...

وَعَيْنَاهُ تَسْحَانِ الدُّمُوعَ سَحًا .

* * *

وَلِلرَّبِّيعِ فِي خَوْفِ اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ...

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ قَالُوا :

خَرَجْنَا يَوْمًا بِصُحْبَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَمَعَنَا الرَّبِّيعُ بْنُ خُثَيْمٍ ، فَلَمَّا صِرْنَا
عَلَى شَاطِئِ « الْفُرَاتِ » ... مَرَزْنَا بِأَثُونٍ ^(٣) كَبِيرٍ قَدْ سَعَرَتْ نَارُهُ ...

فَتَطَايَرَ شَرُّهَا ...

وَتَصَاعَدَتْ أَلْسِنَةُ لَهَبِهَا ...

وَسَمِعَ زَفِيرُهَا ...

وَقَدْ أُلْقِيَتْ فِي الْأَثُونِ الْحِجَارَةُ لِتَحْتَرِقَ حَتَّى تُصْبِحَ كِلْسًا .

فَلَمَّا رَأَى الرَّبِّيعُ النَّارَ تَوَقَّفَ فِي مَكَانِهِ ...

وَعَزَّتْهُ ^(٤) رَعْدَةٌ شَدِيدَةٌ ...

(٣) الأثون : موقد تحرق فيه الحجارة حتى تصبح كِلْسًا .

(٤) عزَّتْهُ : أصابته .

(١) اجتروحوا : ارتكبوا واكتسبوا .

(٢) سورة الجاثية : آية ٢١ .

وَتَلَا قَوْلُهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ^(١) مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا^(٢) وَزَفِيرًا^(٣)﴾ *
وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا صَبِيحًا مُقَرَّنِينَ^(٤) دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا^(٥) ﴿٥﴾ *
ثُمَّ سَقَطَ مَعْشِيًا عَلَيْهِ .

فَرَابَطْنَا مَعَهُ حَتَّى أَفَاقَ مِنْ غَشِيَّتِهِ ، وَمَضَيْنَا بِهِ إِلَى بَيْتِهِ .

* * *

وَبَعْدُ ...

فَقَدْ ظَلَّ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ حَيَاتَهُ كُلَّهَا يَتَرَقَّبُ الْمَوْتَ وَيَسْتَعِدُّ لِلِقَائِهِ .

فَلَمَّا احْتَضِرَ ؛ جَعَلَتْ بَنَتُهُ تَبْكِي ، فَقَالَ :

مَا يُبْكِيكِ يَا بُنَيَّةُ وَقَدْ أَقْبَلَ عَلَى أَبِيكَ الْخَيْرُ ؟ ! ...

ثُمَّ أَسْلَمَ رُوحَهُ إِلَى بَارِيَّهَا (*) ...

(١) إِذَا رَأَتْهُمْ : الضمير في رأَتْهم يعود عَلَى نار السعير .

(٢) تَغَيُّظًا : غلياناً كغليان صدر الغضبان .

(٣) زَفِيرًا : صوتاً شديداً .

(٤) مَقَرَّنِينَ : مُصْقَّدِينَ [أي جمعت أيديهم إِلَى أعناقهم بالأغلال] .

(٥) ثُبُورًا : هلاكاً .

(٦) سورة الفرقان : من الآية ١٢ - ١٣ .

(*) للاستزادة من أخبار الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ انظر :

١ - تهذيب التهذيب لابن حجر : ٢٤٣/٣ .

٢ - حلية الأولياء لأبي نعيم : ١٠٥/٢ - ١١٨ .

٣ - صفة الصفوة : ٥٩/٣ - ٦٨ .

٤ - كتاب الزهد لأحمد بن حنبل : ٣٣٦ وما بعدها .

٥ - العقد الفريد : (انظر الفهارس في الثامن) .

٦ - المعارف لابن قتيبة طبعة دار المعارف : (انظر الفهارس) .

٧ - جمهرة أنساب العرب : ٢٠١ .

٨ - الطبقات الكبرى : ١٠/٦ (وانظر الفهرس) .

إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْمُرْنِيُّ

«إِقْدَامُ عُمَرُو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ»

فِي حِلْمٍ أَخْنَفَ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسٍ

[أَبُو تَمَّام]

بَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ^(١) لَيْلَتَهُ تِلْكَ أَرْقَا ^(٢) مُسْهَدًا لَمْ
يَعْتَمِضَ لَهُ جَفْنٌ ، وَلَمْ يَطْمَئِنَّ لَهُ جَنْبٌ ^(٣) .

فَلَقَدْ كَانَ يَشْغَلُهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ مِنْ لَيْالِي «دِمَشْقَ» أَمْرُ اخْتِيَارِ
قَاضٍ «لِلْبَصْرَةِ» ^(٤) يُقِيمُ بَيْنَ النَّاسِ مَوَازِينَ الْعَدْلِ ، وَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ،
وَلَا تَأْخُذُهُ فِي الْحَقِّ رَهْبَةٌ وَلَا رَغْبَةٌ .

وَلَقَدْ وَقَعَ اخْتِيَارُهُ عَلَى رَجُلَيْنِ اثْنَيْنِ كَانَا كَفَرَسِي ^(٥) رِهَانٍ :

فَفَهَّمَا فِي الدِّينِ ، وَصَلَابَةً فِي الْحَقِّ ...

وَوَضَاءَةً ^(٦) فِي الْفِكْرِ ...

وَتُقُوبًا فِي النَّظَرِ ^(٧) ...

وَكَانَ كُلُّمَا وَجَدَ فِي أَحَدِهِمَا مَزِيَّةً تُرْجِّحُهُ عَلَى صَاحِبِهِ ، أَلْفَلَى ^(٨) فِي

الْآخِرِ مَا يُقَابِلُ هَذِهِ الْمَزِيَّةَ .

(١) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ .

(٢) أَرْقَا مُسْهَدًا : أَي دَهَبَ عَنْهُ التَّوَمُ .

(٣) لَمْ يَطْمَئِنَّ لَهُ جَنْبٌ : كَنَاءَةٌ عَنْ الْقَلْقُ وَشُغْلُ الْبَالِ .

(٤) الْبَصْرَةُ : مَدِينَةُ اخْتِطَطَهَا الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ فَتْحِ الْعِرَاقِ .

(٥) كَفَرَسِي رِهَانٍ : مَثَلٌ يَضْرِبُ لِلْمُتَسَاوِينَ الْمُتْقَارِينَ فِي الْفَضْلِ وَغَيْرِهِ ، أَوِ لِلْمُتَسَابِقِينَ فِي الْمَجَارَةِ .

(٦) وَضَاءَةٌ فِي الْفِكْرِ : نُورًا فِي الْفِكْرِ .

(٧) تُقُوبًا فِي النَّظَرِ : حِدَّةً فِي النَّظَرِ ، وَعُمُقًا فِي الْفَهْمِ .

(٨) أَلْفَلَى فِي الْآخِرِ : وَجَدَ فِي الْآخِرِ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ دَعَا وَإِلَيْهِ عَلَى « الْعِرَاقِ » عَدِيَّ بْنُ أَرْطَاةَ - وَكَانَ يُؤَمِّدُ عِنْدَهُ فِي « دِمَشَقَ » - وَقَالَ لَهُ :

يَا عَدِيُّ ...

اجْمَعْ بَيْنَ إِيَّاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْمُزَنِيِّ ، وَالْقَاسِمِ بْنِ رِبِيعَةَ الْحَارِثِيِّ ...
وَكَلِّمَهُمَا فِي أَمْرِ قَضَاءِ « الْبَصْرَةِ » ، وَوَلِّ أَحَدَهُمَا عَلَيْهِ .

فَقَالَ : سَمِعَا وَطَاعَةً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

* * *

جَمَعَ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ بَيْنَ « إِيَّاسِ » وَ« الْقَاسِمِ » وَقَالَ :
إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - أَمَرَنِي أَنْ أُولِّي أَحَدَكُمَا قَضَاءَ
« الْبَصْرَةِ » ...

فَمَاذَا تَرَيَانِ ؟ .

فَقَالَ كُلُّ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ : أَنَّهُ أَوْلَى مِنْهُ بِهَذَا الْمَنْصِبِ ...
وَذَكَرَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَعَلَمِهِ ، وَفَقْهِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْكُرَ .
فَقَالَ عَدِيُّ : لَنْ تَخْرُجَا مِنْ مَجْلِسِي هَذَا حَتَّى تَحْسِمَا ^(١) هَذَا الْأَمْرَ .
فَقَالَ لَهُ إِيَّاسُ :

أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، سَلْ عَنِّي وَعَنِ « الْقَاسِمِ » فَقِيهِي « الْعِرَاقِ » : الْحَسَنَ
الْبَصْرِيَّ ^(٢) ، وَمُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ ^(٣) ... فَهُمَا أَقْدَرُ النَّاسِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَنَا .
وَكَانَ « الْقَاسِمُ » يَزُورُهُمَا وَيُزَوِّرَانِهِ ، وَ« إِيَّاسُ » لَا تَرْبِطُهُ بِهِمَا رَابِطَةٌ .

(١) حَسَمَ الْأَمْرَ : قَطَعَهُ .

(٢) الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : انظره ص ٩٥ .

(٣) مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ : انظره ص ١٢٤ .

فَعَلِمَ « الْقَاسِمُ » أَنَّ « إِيَّاسًا » أَرَادَ أَنْ يُورِطَهُ ...
وَأَنَّ الْأَمِيرَ إِذَا اسْتَشَارَهُمَا أَشَارَا بِهِ دُونَ صَاحِبِهِ ...
فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ التَفَّتْ إِلَى الْأَمِيرِ ، وَقَالَ :
لَا تَسَلْ أَحَدًا عَنِّي وَلَا عَنْهُ - أَيُّهَا الْأَمِيرُ - فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّ
« إِيَّاسًا » أَفْقَهُ مِنِّي فِي دِينِ اللَّهِ ...
وَأَعْلَمُ بِالْقَضَاءِ ...
فَإِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فِي قَسَمِي هَذَا ؛ فَمَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تُؤَلِّبَنِي الْقَضَاءَ وَأَنَا
أُقْتَرِفُ (١) الْكَذِبَ ...
وَإِنْ كُنْتُ صَادِقًا ؛ فَلَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَعْدِلَ (٢) عَنِ الْفَاضِلِ إِلَى
الْمَفْضُولِ (٣) ...
فَالْتَفَتَتْ « إِيَّاسُ » إِلَى الْأَمِيرِ ، وَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...
إِنَّكَ جِئْتَ بِرَجُلٍ وَدَعَوْتُهُ إِلَى الْقَضَاءِ ؛ فَأَوْفَقْتُهُ عَلَى شَفِيرِ (٤) جَهَنَّمَ ،
فَنَجَّى نَفْسَهُ مِنْهَا ، يَمِينِ كَاذِبَةٍ ؛ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ مِنْهَا ، وَيَنْجُو بِنَفْسِهِ
مِمَّا يَخَافُ .
فَقَالَ لَهُ عَدِيٌّ :
إِنَّ مَنْ يَفْهَمُ مِثْلَ فَهْمِكَ هَذَا لَجَدِيرٌ بِالْقَضَاءِ ، حَرِيٌّ (٥) بِهِ .
ثُمَّ وَلَّاهُ قَضَاءَ « الْبَصْرَةِ » .

* * *

(١) أُقْتَرِفَ الْكَذِبُ : أُخْتَلِقَ الْكَذِبُ . (٣) الْمَفْضُولُ : الْأَقْلُ فَضْلًا .
(٢) عَدَلَ عَنِ الْأَمْرِ : مَالَ عَنْهُ وَتَرَكَهُ . (٤) شَفِيرُ جَهَنَّمَ : حَافَةُ جَهَنَّمَ .
(٥) حَرِيٌّ بِهِ : أَهْلٌ لَهُ .

فَمَنْ هَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ الْخَلِيفَةُ الرَّاهِدُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَاضِياً لَهُ عَلَى
« الْبَصْرَةِ » ؟ .

مَنْ ذَلِكَ الَّذِي ضُرِبَتْ بِذَكَائِهِ وَفُطِنَتْهُ وَبَدِيهَتْهُ ^(١) الْأَمْثَالُ ؛ كَمَا ضُرِبَتْ
الْأَمْثَالُ بِجُودِ حَاتِمِ الطَّائِيِّ ...

وَحِلْمِ الْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ ^(٢) ...

وَإِقْدَامِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبٍ ^(٣) ...

حَتَّى قَالَ أَبُو تَمَّامٍ ^(٤) فِي مَدْحِ أَحْمَدَ بْنِ الْمُعْتَصِمِ :

إِقْدَامِ عَمْرِو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ أَخْنَفٍ فِي ذَكَاءِ إِيَّاسٍ

تَعَالِ نَبْدًا قِصَّةَ حَيَاةِ الرَّجُلِ مِنْ أَوَّلِهَا ...

فَلِلرَّجُلِ سِيرَةٌ مُثِيرَةٌ فَذَّةٌ ^(٥) مِنْ رَوَائِعِ السَّيْرِ .

* * *

وُلِدَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ الْمُرْنِيِّ سَنَةَ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ لِلْهِجْرَةِ فِي مَنطَقَةِ
« الْيَمَامَةِ » فِي « نَجْدٍ » .

وَأَنْتَقَلَ مَعَ أَسْرَتِهِ إِلَى « الْبَصْرَةِ » وَفِيهَا نَشَأَ وَتَعَلَّمَ ...

وَتَرَدَّدَ عَلَى « دِمَشْقٍ » فِي يَفَاعَتِهِ ^(٦) ، وَأَخَذَ عَمَّنْ أَدْرَكَهُ مِنْ بَقَايَا الصَّحَابَةِ
الْكِرَامِ ، وَجِلَّةٍ ^(٧) التَّابِعِينَ .

(١) البديهة : شُرُوعَةُ الْفَهْمِ .

(٢) الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ : تَابِعِي جَلِيل ، وَقَائِدٌ عَظِيم ، وَخَطِيبٌ مَفْرُوهٌ سَادَ قَوْمَهُ بَنِي تَمِيم ، وَضُرِبَ الْمَثَلُ بِحِلْمِهِ ، تُوفِيَ
سَنَةَ ٥٧٢ هـ ... انظره : ص ٤٥٧ ، ٤٦٨ .

(٣) عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبٍ : أَحَدُ شُجْعَانَ الْعَرَبِ الْمَشْهُورِينَ ، كَانَ يُقَالُ لِكُلِّ فَارِسٍ مِنَ الْعَرَبِ فَارِسُ بَنِي فَلَانٍ
إِلَّا هُوَ فَكَانَ يُقَالُ لَهُ فَارِسُ الْعَرَبِ جَمِيعاً ، تُوفِيَ فِي الْقَادِسِيَةِ عَطِشاً .

(٤) أَبُو تَمَّامٍ : هُوَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ الطَّائِي (٧٨٨ - ٨٤٥) شَاعِرٌ عَبَّاسِي ، اشتهر بمدح الخلفاء ، له ديوان مشهور .

(٥) فَذَّةٌ : فَرِيدَةٌ ، نَادِرَةٌ . (٦) الْيَفَاعَةُ : أَوَائِلُ الصُّبَا . (٧) جِلَّةُ التَّابِعِينَ : أَكَابِرُ التَّابِعِينَ .

وَلَقَدْ ظَهَرْتُ عَلَى الْغُلَامِ الْمُزْنِيِّ عَلَائِمَ النَّجَاةِ وَأَمَارَاتُ^(١) الذِّكَاةِ مُنْذُ
نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ^(٢) ...

وَجَعَلَ النَّاسُ يَتَنَاقَلُونَ أَحْبَابَهُ وَنَوَادِرَهُ وَهُوَ مَا زَالَ صَبِيًّا صَغِيرًا ...

* * *

رُويَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَلَّمُ الْحِسَابَ فِي كُتَّابٍ^(٣) لِرَجُلٍ يَهُودِيٍّ مِنْ أَهْلِ
الذِّمَّةِ^(٤) ... فَاجْتَمَعَ عِنْدَ الْمُعَلِّمِ أَصْحَابُهُ مِنَ الْيَهُودِ ، وَجَعَلُوا يَتَكَلَّمُونَ فِي أُمُورِ
الدِّينِ وَهُوَ يُنْصِتُ إِلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَذْرُونَ ...

فَقَالَ الْمُعَلِّمُ لِأَصْحَابِهِ :

أَلَا تَعْجَبُونَ لِلْمُسْلِمِينَ ، فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي الْجَنَّةِ
وَلَا يَتَغَوَّطُونَ^(٥) !! .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ إِيَّاسُ وَقَالَ :

أَتَأْذَنُ لِي يَا مُعَلِّمُ بِالْكَلَامِ فِيمَا تَخُوضُونَ^(٦) فِيهِ ؟ .

فَقَالَ الْمُعَلِّمُ : نَعَمْ .

فَقَالَ الْفَتَى : أَكُلُ مَا يُؤْكَلُ فِي الدُّنْيَا يَخْرُجُ غَائِطًا ؟ .

فَقَالَ الْمُعَلِّمُ : لَا .

فَقَالَ الْفَتَى : فَأَيْنَ يَذْهَبُ الَّذِي لَا يَخْرُجُ ؟ .

(١) أمارات الذكاء : علامات الذكاء .

(٢) منذ نعومة أظفاره : كناية عن صغر السن .

(٣) الكُتَّاب : مكان التعليم ، وجمعه كُتَاتِب .

(٤) أهل الذِّمَّة : من دَخَلَ فِي عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ وَحَمَايَتِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ .

(٥) لَا يَتَغَوَّطُونَ : لَا يَقْضُونَ الْحَاجَةَ وَلَا يَتَبَرَّزُونَ .

(٦) تخوضون فيه : تتناقشون فيه وتبادلون الآراء .

فَقَالَ الْمُعَلِّمُ : يَذْهَبُ فِي غِذَاءِ الْجِسْمِ .
فَقَالَ الْفَتَى : فَمَا وَجْهُ الِاسْتِنكَارِ مِنْكُمْ إِذَا كَانَ يَذْهَبُ بَعْضُ مَا نَأْكُلُهُ فِي
الدُّنْيَا غِذَاءً ، أَنْ يَذْهَبَ كُلُّهُ فِي الْجَنَّةِ فِي الْغِذَاءِ ؟ .
فَأَلْوَى الْمُعَلِّمُ يَدَهُ وَقَالَ لَهُ : قَاتَلَكِ اللَّهُ مِنْ فَتَى .

* * *

وَيَتَقَدَّمُ الْغُلَامُ فِي السَّنِّ سَنَةً فَسَنَةً ...
وَيَتَقَدَّمُ مَعَهُ أَخْبَارُ ذَكَائِهِ أَتَيْنَمَا حَلَّ .
فَقَدْ رُويَ أَنَّهُ دَخَلَ « دِمَشْقَ » وَهُوَ مَا يَزَالُ غُلَامًا ، فَاخْتَلَفَ مَعَ شَيْخٍ مِنْ
أَهْلِ « دِمَشْقَ » فِي حَقِّ مِنَ الْحُقُوقِ ، وَلَمَّا يَمَسَّ مِنْ إِقْنَاعِهِ بِالْحُجَّةِ ؛ دَعَاهُ إِلَى
الْقَضَاءِ ...

فَلَمَّا صَارَا بَيْنَ يَدَيِ الْقَاضِي ، اخْتَدَّ إِيَّاسُ وَرَفَعَ صَوْتَهُ عَلَى خَصْمِهِ ...
فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي : اخْفِضْ صَوْتَكَ يَا غُلَامُ ...
فَإِنَّ خَصْمَكَ شَيْخٌ كَبِيرُ السَّنِّ وَالْقَدْرِ .
فَقَالَ إِيَّاسُ : وَلَكِنَّ الْحَقَّ أَكْبَرُ مِنْهُ .
فَغَضِبَ الْقَاضِي وَقَالَ : اسْكُتْ ...
فَقَالَ الْفَتَى : وَمَنْ يَنْطِقُ بِحُجَّتِي إِذَا سَكَتُ ؟ ! .
فَارْدَادَ الْقَاضِي غَضَبًا وَقَالَ :
مَا أَرَاكَ تَقُولُ مُنْذُ دَخَلْتَ مَجْلِسَ الْقَضَاءِ إِلَّا بِاطِلَالٍ .
فَقَالَ إِيَّاسُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ...
أَحَقُّ هَذَا أَمْ بِاطِلٌ ؟ .

فَهَذَا الْقَاضِي وَقَالَ :

حَقٌّ ... وَرَبُّ الْكَعْبَةِ حَقٌّ ...

* * *

وَأَكَّبَ^(١) الْفَتَى الْمُزْنِي عَلَى الْعِلْمِ ، وَنَهَلَ^(٢) مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْهَلَ
حَتَّى بَلَغَ فِيهِ مَبْلَغًا جَعَلَ الشُّيُوخَ يَخْضَعُونَ لَهُ ، وَيَأْتُمُونَ بِهِ ، وَيَتَتَلَمَذُونَ عَلَى
يَدَيْهِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ صِغَرِ سِنِّهِ .

فَفِي ذَاتِ سَنَةٍ ، زَارَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ « الْبَصْرَةَ » قَبْلَ أَنْ يَلِيَ
الْخِلَافَةَ ، فَرَأَى إِيَّاسًا وَكَانَ يَوْمَئِذٍ فَتًى يَافِعًا^(٣) لَمْ يَطُرْ شَارِبُهُ^(٤) بَعْدُ ...
وَرَأَى خَلْفَهُ أَرْبَعَةً مِنَ الْقُرَاءِ مِنْ ذَوِي اللَّحَى فِي طَيَالِسِيهِمْ^(٥) الْخُضَرِ ،
وَهُوَ يَتَقَدَّمُهُمْ ...

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : أَفْ لِأَصْحَابِ هَذِهِ اللَّحَى ...

أَمَّا فِيهِمْ شَيْخٌ يَتَقَدَّمُهُمْ ؛ فَقَدَّمُوا هَذَا الْعَلَامَ ؟ !

ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى إِيَّاسٍ وَقَالَ : كَمْ سِنَّكَ يَا فَتَى ؟

فَقَالَ إِيَّاسٌ : سِنِّي - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْأَمِيرِ - كَسِنِ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ^(٦) حِينَ
وَلَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَيْشًا فِيهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ^(٧) .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : تَقَدَّمْ يَا فَتَى ... تَقَدَّمْ ...

(١) أَكَّبَ عَلَى الْعِلْمِ : عَكفَ عَلَيْهِ وَانْقَطَعَ لَهُ .

(٢) نَهَلَ مِنْهُ : شَرِبَ مِنْهُ .

(٣) فَتًى يَافِعًا : فَتًى فِي بَوَاكِرِ الصَّبَا .

(٤) لَمْ يَطُرْ شَارِبُهُ : لَمْ يَظْهَرْ شَعْرُ شَارِبِهِ [كَنَاءٌ عَنْ حَدَاثَةِ السِّنِّ] .

(٥) الطَيَالِسَانُ : كِسَاءٌ أَخْضَرُ يَلْبَسُهُ الْمَشَايخُ ، وَجَمْعُهُ : طَيَالِسَةٌ .

(٦) أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ : انْظُرْهُ فِي كِتَابِ « صُورٌ مِنْ حَيَاةِ الصُّحَابَةِ » لِلْمُؤَلِّفِ ، النَّاشِرُ دَارَ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ ، الطَّبَعَةُ الْمَشْرُوعَةُ .

(٧) كَانَتْ سِنُّ أَسَامَةَ يَوْمَئِذٍ دُونَ الْعِشْرِينَ .

بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ .

* * *

وَفِي ذَاتِ سَنَةٍ خَرَجَ النَّاسُ يَلْتَمِسُونَ^(١) هِلَالَ رَمَضَانَ ، وَعَلَى رَأْسِهِمُ
الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ^(٢) ...

وَكَانَ يَوْمَئِذٍ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ قَارَبَ الْمِائَةَ ...

فَنَظَرَ النَّاسُ إِلَى السَّمَاءِ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا .

لَكِنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ جَعَلَ يُحَدِّثُ فِي السَّمَاءِ وَيَقُولُ :

لَقَدْ رَأَيْتُ الْهِلَالَ ... هَا هُوَ ذَا ...

وَجَعَلَ يُشِيرُ إِلَيْهِ بِيَدِهِ ... فَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ .

عِنْدَ ذَلِكَ نَظَرَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَإِذَا شَعْرَةٌ طَوِيلَةٌ فِي حَاجِبِهِ
قَدْ انْتَشَتْ حَتَّى غَدَتْ قُبَالَةَ^(٣) عَيْنِهِ .

فَاسْتَأْذَنَهُ فِي آدَبٍ ، وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى الشَّعْرَةِ فَمَسَحَهَا وَسَوَّاهَا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :

أَتَرَى الْهِلَالَ الْآنَ أَيْضًا يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ؟ .

فَجَعَلَ أَنَسُ يَنْظُرُ وَيَقُولُ :

كَلَّا مَا أَرَاهُ ، كَلَّا مَا أَرَاهُ .

* * *

وَشَاعَتْ أَخْبَارُ ذِكَاةِ إِبْرَاهِيمَ وَذَاعَتْ ، وَصَارَ النَّاسُ يَأْتُونَهُ مِنْ كُلِّ

(١) يَلْتَمِسُونَ الْهِلَالَ : يَتَحَرَّوْنَ رُؤْيَاهُ .

(٢) أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ : انظره في كتاب « صور من حياة الصَّحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ،
الطبعة المشروعة .

(٣) قُبَالَةَ عَيْنِهِ : أَمَامَ عَيْنِهِ .

صَوَّبُ^(١) وَيُلْقُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا يَعْتَرِضُهُمْ مِنْ مُشْكِلَاتٍ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ ...
بَعْضُهُمْ يُرِيدُ الْمَعْرِفَةَ ...

وَبَعْضُهُمْ الْآخَرُ يَتَّبِعِي التَّعْجِيزَ وَالْمُمَارَاةَ^(٢) بِالْبَاطِلِ ...

مِنْ ذَلِكَ مَا رُوِيَ أَنَّ دُهَقَانَ^(٣) أَتَى مَجْلِسَهُ فَقَالَ :

يَا أَبَا وَائِلَةَ ... مَا تَقُولُ فِي الْمُسْكِرِ ؟ .

قَالَ : حَرَامٌ .

قَالَ : وَمَا وَجْهُ حُرْمَتِهِ ، وَهُوَ لَا يَرِيدُ عَنْ كَوْنِهِ ثَمَرًا وَمَاءً غُلِيًا عَلَى النَّارِ ،
وَكُلُّ ذَلِكَ مُبَاحٌ لَا شَيْءَ فِيهِ .

فَقَالَ : أَفَرَعْتَ مِنْ قَوْلِكَ يَا دُهَقَانُ أَمْ بَقِيَ لَدَيْكَ مَا تَقُولُهُ ؟ .

فَقَالَ : بَلْ فَرَعْتُ .

فَقَالَ : لَوْ أَخَذْتُ كَفًّا مِنْ مَاءٍ وَصَرَبْتُكَ بِهِ أَكَانَ يُوجِعُكَ ؟ .

قَالَ : لَا .

فَقَالَ : وَلَوْ أَخَذْتُ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَصَرَبْتُكَ بِهِ أَكَانَ يُوجِعُكَ ؟ .

قَالَ : لَا .

فَقَالَ : وَلَوْ أَخَذْتُ كَفًّا مِنْ تِبْنٍ فَصَرَبْتُكَ بِهِ أَكَانَ يُوجِعُكَ ؟ .

قَالَ : لَا .

فَقَالَ : فَلَوْ أَخَذْتُ الشَّرَابَ ثُمَّ طَرَحْتُ عَلَيْهِ التِّبْنَ ، وَصَبَبْتُ فَوْقَهُمَا الْمَاءَ

(١) الصَّوَّبُ : الجهة .

(٢) المُمَارَاةُ بِالْبَاطِلِ : المجادلة بالباطل .

(٣) الدُّهَقَانُ : كلمة فارسية معناها رئيس الإقليم وغيره .

ثُمَّ مَرَجْتُهَا مَرْجًا ، ثُمَّ جَعَلْتُ الْكُتْلَةَ فِي الشَّمْسِ ، حَتَّى يَبْسُتَ ، ثُمَّ ضَرَبْتُكَ بِهَا
أَكَانَتْ تُوجِعُكَ ؟ .

قَالَ : نَعَمْ ... وَقَدْ تَقْتُلْنِي .

فَقَالَ : هَكَذَا شَأْنُ الْخَمْرِ ، فَهُوَ حِينَ جُمِعَتْ أَجْزَاؤُهُ وَخُمِرَ ؛ حُرْمَ .

* * *

وَلَمَّا وَلِيَ إِيَّاسُ الْقَضَاءَ ظَهَرَتْ لَهُ فِيهِ مَوَاقِفُ تَدُلُّ عَلَى فَرْطِ ذَكَائِهِ ،
وَسَعَةِ حِيلَتِهِ ، وَقُدْرَتِهِ الْفَذَّةِ فِي الْكُشْفِ عَنِ الْحَقَائِقِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلَيْنِ تَقَاضَيَا عِنْدَهُ ، فَادَّعَى أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أَوْدَعَ لَدَى صَاحِبِهِ
مَالًا ، فَلَمَّا طَلَبَهُ مِنْهُ بَحَّهْدَهُ (١) .

فَسَأَلَ إِيَّاسُ الرَّجُلَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ عَنْ أَمْرِ الْوَدِيعَةِ ، فَأَنْكَرَهَا وَقَالَ :

إِنْ كَانَتْ لِصَاحِبِي بَيِّنَةٌ (٢) فَلْيَأْتِ بِهَا ...

وَالَا فَلَيْسَ لَهُ عَلَيَّ إِلَّا الْيَمِينُ .

فَلَمَّا خَافَ إِيَّاسُ أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ الْمَالَ يَمِينِيهِ ، التَفَتَ إِلَى الْمُودِعِ وَقَالَ
لَهُ : فِي أَيِّ مَكَانٍ أَوْدَعْتَهُ الْمَالَ ؟ .

قَالَ : فِي مَكَانٍ كَذَا ...

فَقَالَ : وَمَاذَا يُوجَدُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ؟ .

فَقَالَ : شَجَرَةٌ كَبِيرَةٌ جَلَسْنَا تَحْتَهَا ، وَتَنَاوَلْنَا الطَّعَامَ مَعًا فِي ظِلِّهَا ...

وَلَمَّا هَمَمْنَا بِالْإِنْصِرَافِ دَفَعْتُ إِلَيْهِ الْمَالَ .

فَقَالَ لَهُ إِيَّاسُ :

(٢) بَيِّنَةٌ : دَلِيلٌ وَحُجَّةٌ .

(١) بَحَّهْدَهُ : أَنْكَرَهُ .

انْطَلِقْ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ الشَّجَرَةُ ؛ فَلَعَلَّكَ إِذَا أَتَيْتَهَا ذَكَرْتُكَ أَيْنَ
وَضَعْتَ مَالَكَ ، وَنَبَّهْتُكَ إِلَى مَا فَعَلْتَهُ بِهِ ...

ثُمَّ عُدُّ إِلَيَّ لِتُخْبِرَنِي بِمَا رَأَيْتَ .

فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ إِلَى الْمَكَانِ ، وَقَالَ إِيَّاسُ لِلْمُدْعَى عَلَيْهِ :

اجْلِسْ إِلَيَّ أَنْ يَجِيءَ صَاحِبُكَ ... فَجَلَسَ .

ثُمَّ التَفَتَ إِيَّاسُ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَقَاضِينَ ، وَطَفِقَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ، وَهُوَ
يَرْقُبُ الرَّجُلَ بِطَرْفٍ خَفِيٍّ ...

حَتَّى إِذَا رَأَهُ قَدْ سَكَنَ وَاطْمَأَنَّ ، التَفَتَ إِلَيْهِ وَبَادَرَهُ^(١) قَائِلًا :

أَتَقْدِّرُ أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ بَلَغَ الْمَوْضِعَ الَّذِي أُوَدِّعُكَ فِيهِ الْمَالُ ؟ .

فَقَالَ الرَّجُلُ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ^(٢) : كَلَّا ...

إِنَّهُ بَعِيدٌ مِنْ هُنَا .

فَقَالَ لَهُ إِيَّاسُ :

يَا عَدُوَّ اللَّهِ تَجْحَدُ الْمَالَ ، وَتَعْرِفُ الْمَكَانَ الَّذِي أَخَذْتَهُ فِيهِ !؟ ...

وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَائِنٌ .

فَبُهِتَ^(٣) الرَّجُلُ ، وَأَقْرَبَ بِخِيَانَتِهِ ... فَحَبَسَهُ حَتَّى جَاءَ صَاحِبُهُ ، وَأَمَرَهُ بِرَدِّ

وَدِيعَتِهِ إِلَيْهِ .

* * *

(١) بادره : عاجله وفاجاه .

(٢) من غير رويّة : من غير تفكير .

(٣) فُهِتَ : دهش وسكت متحيرًا .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً مَا رَوَى مِنْ أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَيْهِ فِي قَطِيفَتَيْنِ (١) مِمَّا
يُوضَعُ عَلَى الرَّأْسِ وَيُسَدَّلُ عَلَى الْكَتِفَيْنِ ...

إِحْدَاهُمَا خَضِرَاءُ جَدِيدَةٌ ثَمِينَةٌ، وَالْأُخْرَى حُمْرَاءُ بَالِيَةٌ.

فَقَالَ الْمُدَّعِي: نَزَلْتُ إِلَى الْحَوْضِ لِأَعْتَسِلَ، وَوَضَعْتُ قَطِيفَتِي
الْخَضِرَاءَ مَعَ ثِيَابِي عَلَى حَافَةِ الْحَوْضِ، وَجَاءَ خَصْمِي فَوَضَعَ قَطِيفَتَهُ الْحُمْرَاءَ
إِلَى جَانِبِ قَطِيفَتِي، وَنَزَلَ إِلَى الْحَوْضِ، وَخَرَجَ قَبْلِي ... فَلَيْسَ ثِيَابُهُ وَأَخَذَ
قَطِيفَتِي، فَأَلْقَاهَا عَلَى رَأْسِهِ وَكَتِفَيْهِ وَمَضَى بِهَا.

فَخَرَجْتُ عَلَى إِثَرِهِ وَتَبِعْتُهُ، وَطَالَبْتُهُ بِقَطِيفَتِي، فَزَعَمَ أَنَّهَا لَهُ ...

فَقَالَ إِيَّاسٌ لِلرَّجُلِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ:

وَمَا تَقُولُ أَنْتَ؟! .

فَقَالَ: هِيَ قَطِيفَتِي وَفِي يَدِي.

فَقَالَ إِيَّاسٌ لِلرَّجُلِ الْمُدَّعَى: أَلَكِ بَيِّنَةٌ؟ .

فَقَالَ: كَلَّا.

فَقَالَ لِحَاجِبِهِ (٢): أَحْضِرْ لِي مِشْطًا، فَأَحْضِرَ لَهُ ...

فَمَشَطَ شَعْرَ رَأْسِ الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَ مِنْ رَأْسِ أَحَدِهِمَا زَعْبٌ (٣) أَحْمَرٌ مِنْ
نُثَارِ (٤) صُوفِ الْقَطِيفَةِ، وَخَرَجَ مِنْ رَأْسِ الْآخَرِ زَعْبٌ أَحْضَرٌ ... فَقَضَى

(١) القطيفة: قطعة من المخمل يلقيها المرء على نفسه.

(٢) الحاجب: الثوب الذي يقف بأبواب الخلفاء والوزراء ونحوهم.

(٣) الزغب: صغار الريش والشعر.

(٤) النثار: ما يتناثر من الشيء إذا تثروته.

بِالْقَطِيفَةِ الْحُمْرَاءِ لِصَاحِبِ الزَّعْبِ الْأَحْمَرِ ، وَبِالْقَطِيفَةِ الْخَضْرَاءِ لِصَاحِبِ
الزَّعْبِ الْأَخْضَرِ .

* * *

وَمِنْ أَخْبَارِ فِطْنَتِهِ وَذَكَائِهِ أَيْضاً أَنَّهُ كَانَ فِي « الْكُوفَةِ » رَجُلٌ يُظْهِرُ لِلنَّاسِ
الصَّلَاحَ ، وَيُنْذِرُ لَهُمُ الْوَرَعَ وَالتَّقَى ... حَتَّى كَثُرَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ ، وَاتَّخَذَهُ بَعْضُ
النَّاسِ أَمِيناً لَهُمْ يَأْتِمِنُونَهُ عَلَى مَالِهِمْ إِذَا سَافَرُوا ...

وَيَجْعَلُونَهُ وَصِيّاً عَلَى أَوْلَادِهِمْ إِذَا أَحْشَوْا بِدُنُوِّ الْأَجَلِ .
فَأَتَاهُ رَجُلٌ وَاسْتَوْدَعَهُ مَالاً ، وَلَمَّا احتَاجَ الرَّجُلُ إِلَى مَالِهِ طَلَبَهُ مِنْهُ فَأَنْكَرَهُ .
فَحَضَى إِلَى إِيَّاسٍ وَشَكَا لَهُ الرَّجُلُ ، فَقَالَ لِلْمُشْتَكِي :
أَعَلِمَ صَاحِبُكَ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَأْتِيَنِي ؟
قَالَ : كَلَّا .

فَقَالَ لَهُ : انصَرِفْ وَعُدْ إِلَيَّ غِداً ...
ثُمَّ أَرْسَلَ إِيَّاسٌ إِلَى الرَّجُلِ الْمُؤْتَمِنِ ، وَقَالَ لَهُ :
لَقَدْ اجْتَمَعَ لَدَيَّ مَالٌ كَثِيرٌ لِإِيْتَامِ لَا كَافِلَ لَهُمْ ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ أَوْدِعَهُ
لَدَيْكَ ، وَأَنْ أَجْعَلَكَ وَصِيّاً عَلَيْهِمْ ، فَهَلْ مَنْزِلُكَ حَصِينٌ وَوَقْتُكَ مُتَسِعٌ ؟
فَقَالَ : نَعَمْ أَيُّهَا الْقَاضِي .

فَقَالَ : تَعَالَ إِلَيَّ بَعْدَ غَدٍ ، وَأَعِدْ مَوْضِعاً لِلْمَالِ ...
وَأَحْضِرْ مَعَكَ حَمَالِينَ يَحْمِلُونَهُ ...
وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِي جَاءَ الرَّجُلُ الْمُشْتَكِي ؛ فَقَالَ لَهُ إِيَّاسٌ :
انْطَلِقْ إِلَى صَاحِبِكَ وَاطْلُبْ مِنْهُ الْمَالَ ، فَإِنْ أَنْكَرَهُ فَقُلْ لَهُ :

أَشْكُوكَ إِلَى الْقَاضِي .

فَأَتَاهُ الرَّجُلُ فَطَلَبَ مِنْهُ مَالَهُ ، فَاُمْتَنَعَ عَنْ إِعْطَائِهِ لَهُ وَجَحَدَهُ .

فَقَالَ لَهُ : إِذْنُ أَشْكُوكَ إِلَى الْقَاضِي .

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهُ دَفَعَ إِلَيْهِ الْمَالَ ، وَطَيَّبَ خَاطِرَهُ .

فَرَجَعَ الرَّجُلُ إِلَى إِيَّاسٍ وَقَالَ :

لَقَدْ أَعْطَانِي صَاحِبِي حَقِّي وَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا .

ثُمَّ جَاءَ الرَّجُلُ الْمُؤْتَمَنُ إِلَى إِيَّاسٍ فِي مَوْعِدِهِ وَمَعَهُ الْحَمَّالُونَ ، فَرَجَرَهُ وَأَشْهَرَهُ^(١) وَقَالَ لَهُ :

يُبْسَ الرَّجُلُ أَنْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، لَقَدْ جَعَلْتَ الدِّينَ مَضِيذَةً لِلدُّنْيَا ...

* * *

لَكِنَّ إِيَّاسًا عَلَى شِدَّةِ ذِكَايِهِ ، وَقُوَّةِ عَارِضَتِهِ^(٢) وَسُرْعَةِ بَدِيهِتِهِ ... رُبَّمَا صَادَفَ مَنْ يُقَارِعُهُ الْحُجَّةَ بِالْحُجَّةِ ، وَيَقْطَعُ عَلَيْهِ سُبُلَ الْكَلَامِ وَيُفْحِمُهُ^(٣) ...

حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

مَا عَلَيَّ أَحَدٌ قَطُّ سِوَى رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ « بِالْبَصْرَةِ » فَدَخَلَ عَلَيَّ رَجُلٌ ، فَشَهِدَ عِنْدِي أَنَّ الْبُسْتَانَ الْفُلَانِيَّ هُوَ مِلْكُ فُلَانٍ ، وَحَدَّدَهُ لِي ...

فَارَدْتُ أَنْ أُمْتَحِنَ شَهَادَتَهُ .

فَقُلْتُ لَهُ : وَكَمْ عَدَدُ شَجَرِ الْبُسْتَانِ ؟

فَأَطْرَقَ قَلِيلًا ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ :

(١) أَشْهَرَهُ : فَضَحَهُ . (٢) قُوَّةِ عَارِضَتِهِ : قُوَّةِ تَفْكِيرِهِ . (٣) يُفْحِمُهُ : يَسْكُتُهُ بِالْحُجَّةِ .

مُنْذُ كَمْ يَحْكُمُ سَيِّدُنَا الْقَاضِي فِي هَذَا الْمَجْلِسِ ؟ .
فَقُلْتُ : مُنْذُ كَذَا سَنَةً .

فَقَالَ : كَمْ عَدَدُ خَشَبِ سَقْفِ هَذَا الْمَجْلِسِ ؟ .
فَلَمْ أَعْرِفْ ، وَقُلْتُ : الْحَقُّ مَعَكَ ...
ثُمَّ أَجَزْتُ شَهَادَتَهُ ...

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ السَّادِسَةَ وَالسَّبْعِينَ مِنْ عُمرِهِ ، رَأَى نَفْسَهُ وَأَبَاهُ
فِي الْمَنَامِ رَاكِبَيْنِ عَلَى فَرَسَيْنِ ، فَجَرِيًّا مَعًا ... فَلَمْ يَسْبِقْ أَبَاهُ وَلَمْ يَسْبِقْهُ أَبُوهُ ،
وَكَانَ وَالِدُهُ قَدْ مَاتَ عَنْ سِتِّ وَسَبْعِينَ سَنَةً .

وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ أَوَى إِيَّاسُ إِلَى فِرَاشِهِ وَقَالَ لِأَهْلِهِ :
أَتَذُرُونِ أَيُّ لَيْلَةٍ هَذِهِ ؟ .
قَالُوا : كَلَّا .

قَالَ : فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ اسْتَكْمَلَ أَبِي عُمرَهُ .
فَلَمَّا أَصْبَحُوا ، وَجَدُوهُ مَيِّتًا .

* * *

رَحِمَ اللَّهُ إِيَّاسَ الْقَاضِيَّ ، فَقَدْ كَانَ نَادِرَةً مِنْ نَوَادِرِ الزَّمَانِ ، وَأُعْجُوبَةً مِنْ
أَعْجَابِ الدَّهْرِ فِي الْفِطْنَةِ وَالذِّكَاةِ ، وَابْتِحَ عَنِ الْحَقِّ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار إِيَّاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْمُزَنِيِّ انظر :

- ١ - وفیات الأعيان لابن خلكان : ٢٤٧/١ وما بعدها .
- ٢ - البيان والتبيين للجاحظ : ٥٦/١ (انظر الفهارس) .
- ٣ - شرح المقامات للشريشي : ١١٣/١ - ١١٥ .
- ٤ - العقد الفريد لابن عبد ربه : (انظر الفهارس) .
- ٥ - حلية الأولياء : ١٢٣/٣ وما بعدها .
- ٦ - أخبار القضاة لوكيع : ٣١٢ - ٣٧٤ .
- ٧ - ثمار القلوب للثعالبي : ٩٢ - ٩٤ .
- ٨ - تهذيب التهذيب : ٣٩٠/١ .

عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأَبْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ

« أَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ نَجِيًّا ... وَأَنَّ نَجِيبَ بَنِي أُمَيَّةَ
عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَأَنَّهُ يُنْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ »

[مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ]

مَا كَادَ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَنْفُضُ يَدَيْهِ مِنْ
تُرَابِ قَبْرِ سَلَفِهِ ^(١) سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، حَتَّى سَمِعَ لِلأَرْضِ - مِنْ حَوْلِهِ -
رَجَّةً .

فَقَالَ : مَا هَذِهِ !؟ .

فَقَالُوا : هَذِهِ مَرَائِبُ الْخِلَافَةِ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - قَدْ أُعِدَّتْ لَكَ
لِتَرْكِبَهَا ... فَنَظَرَ إِلَيْهَا عُمَرُ بِطَرْفِ عَيْنِهِ ، وَقَالَ بِصَوْتِهِ الْمُتَهَدِّجِ ^(٢) الَّذِي
نَهَكَهُ ^(٣) التَّعَبُ ، وَأَذْبَلَهُ الشَّهَرُ : مَا لِي وَلَهَا !؟ ...
نَحْوَهَا عَنِّي بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ...

وَقَرَّبُوا لِي بَغْلَتِي ؛ فَإِنَّ لِي فِيهَا بَلَاغاً ^(٤) .

ثُمَّ إِنَّهُ مَا كَادَ يَسْتَوِي عَلَى ظَهْرِ الْبَغْلَةِ حَتَّى جَاءَ صَاحِبُ الشَّرْطِ ^(٥) ؛
لِيَمْشِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ ... وَمَعَهُ ثَلَاثَةٌ ^(٦) مِنْ رِجَالِهِ اصْطَفَوْا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ .
وَفِي أَيْدِيهِمْ حِرَابُهُمُ اللَّامِعَةُ .

(١) سَلَفُهُ : الْخَلِيفَةُ الَّذِي قُتِلَهُ .

(٢) الْمُتَهَدِّجُ : الْمُرْتَعِشُ الْمُنْقَطِعُ .

(٣) نَهَكَهُ : أَضْنَاهُ .

(٤) بَلَاغاً : كَفَايَةً .

(٥) صَاحِبُ الشَّرْطِ : رَئِيسُ الشَّرْطِ وَمَدِيرُهُمْ .

(٦) ثَلَاثَةٌ : جَمَاعَةٌ .

فَلْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ : مَا لِي بِكَ وَبِهِمْ حَاجَةٌ ...
فَمَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ...
أَعْدُو كَمَا يَعْدُونَ ، وَأَزْوَاحٌ كَمَا يَزْوَاحُونَ .
ثُمَّ سَارَ وَسَارَ النَّاسُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، وَنُودِيَ فِي النَّاسِ :
الصَّلَاةَ جَامِعَةً ... الصَّلَاةَ جَامِعَةً ...
فَتَسَايَلَ النَّاسُ عَلَى الْمَسْجِدِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ .
فَلَمَّا اكْتَمَلَتْ جُمُوعُهُمْ ، قَامَ فِيهِمْ خَطِيباً .
فَحَمِدَ اللَّهَ وَاتَّئِنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ، ثُمَّ قَالَ :
أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ اثْبَلَيْتُ بِهَذَا الْأَمْرِ ^(١) عَلَى غَيْرِ رَأْيٍ ^(٢) مِنِّي فِيهِ ...
وَلَا طَلَبَ لَهُ ...
وَلَا مَشُورَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ^(٣) ...
وَإِنِّي خَلَعْتُ مَا فِي أَعْنَاقِكُمْ مِنْ بَيْعَتِي ^(٤) ...
فَاخْتَارُوا لِأَنْفُسِكُمْ خَلِيفَةً تَرْضُونَهُ ...
فَصَاحَ النَّاسُ صَوِيحَةً وَاحِدَةً :
قَدْ اخْتَرْنَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَضِينَا بِكَ ...
فَلِ ^(٥) أَمَرْنَا بِالْيَمْنِ وَالْبَرَكَاتِ .

(١) بهذا الأمر : أي بالخلافة .

(٢) عَلَى غَيْرِ رَأْيٍ مِنِّي : إشارة إلى أنه لم يكن طالباً للخلافة ، أو عارفاً بأن سلفه عهد بها إليه .

(٣) ولا مشورة المسلمين : إشارة إلى أن سلفه أخذ البيعة له دون أن يُسميه ... انظر خبر البيعة لعمر بن عبد العزيز

في رجاء بن حيوة ص ١٥٥ .

(٤) وإني خلعت ما في أعناقكم من بيعتي : جعلتكم في حلٍّ منها . (٥) قُلْ أَمَرْنَا : قَتُولُ أَمَرْنَا .

فَلَمَّا رَأَى أَنَّ الْأَصْوَاتَ قَدْ هَدَأَتْ ، وَالْقُلُوبَ قَدْ اطمَأَنَّتْ ، حَمِدَ اللَّهَ
كَرَّةً^(١) أُخْرَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى وَسَلَّم عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ .

وَطَفِقَ يَحْضُ النَّاسَ عَلَى التَّقْوَى ...

وَيُرْهِدُهُمْ فِي الدُّنْيَا ...

وَيُرْغِبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ...

وَيَذْكُرُهُمْ بِالْمَوْتِ بِلَهْجَةٍ تَسْتَلِينُ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ ، وَتَسْتَدِيرُ الدُّمُوعَ
الْعَاصِيَةَ ، وَتَخْرُجُ مِنْ فُؤَادِ صَاحِبِهَا فَتَسْتَقِرُّ فِي أَفْئِدَةِ السَّامِعِينَ .

ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ الْمُتَنَبِّحَ حَتَّى أَسْمَعَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَقَالَ :

أَيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَجَبَتْ طَاعَتُهُ ...

وَمَنْ عَصَى اللَّهَ فَلَا طَاعَةَ لَهُ عَلَى أَحَدٍ ...

أَيُّهَا النَّاسُ ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ فِيكُمْ ...

فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ .

ثُمَّ نَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ ، وَاتَّجَهَ إِلَى يَمِينِهِ ، وَأَوَّلَى إِلَى حُجْرَتِهِ .

فَقَدْ كَانَ يَتَنَبَّحِي أَنْ يُصِيبَ سَاعَةً مِنَ الرَّاحَةِ ؛ بَعْدَ ذَلِكَ الْجُهْدِ الْجَاهِدِ^(٢)
الَّذِي كَانَ فِيهِ مِنْذُ وِفَاةِ الْخَلِيفَةِ .

* * *

لِكِنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَا كَادَ يُسَلِّمُ جَنْبُهُ إِلَى مَضْجَعِهِ ، حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْهِ
ابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ - وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَتَّجِهُهُ نَحْوُ السَّابِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهِ - وَقَالَ :

مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !!؟ .

(١) كَرَّةٌ أُخْرَى : مَرَّةٌ ثَانِيَةٌ .

(٢) الْجُهْدُ الْجَاهِدُ : الْعَنَاءُ الشَّدِيدُ .

فَقَالَ : أَيُّ بُنَيَّ ^(١) ، أُرِيدُ أَنْ أُغْفُو ^(٢) قَلِيلًا ؛ فَلَمْ تَبْقَ فِي جَسَدِي طَاقَةٌ ^(٣) .
 فَقَالَ : أَتَغْفُو قَبْلَ أَنْ تَرُدَّ الْمَظَالِمَ ^(٤) إِلَى أَهْلِهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !! ؟ .
 فَقَالَ : أَيُّ بُنَيَّ ، إِنِّي قَدْ سَهَرْتُ الْبَارِحَةَ ^(٥) فِي عَمَلِكَ سُلَيْمَانَ ...
 وَإِنِّي إِذَا حَانَ الظُّهْرُ صَلَّيْتُ فِي النَّاسِ ، وَرَدَدْتُ الْمَظَالِمَ إِلَى أَهْلِهَا إِنْ شَاءَ
 اللَّهُ .

فَقَالَ : وَمَنْ لَكَ ^(٦) يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ تَعِيشَ إِلَى الظُّهْرِ ! ؟ .
 فَأَلْهَبْتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَزِيمَةً عُمَرَ ...
 وَأَطَارَتِ النَّوْمَ مِنْ عَيْنَيْهِ ...
 وَبَعَثَتِ الْقُوَّةَ وَالْعَزَمَ فِي جَسَدِهِ الْمُتْعَبِ ، وَقَالَ :
 أُذُنُ مِثِّي أَيُّ بُنَيَّ .

فَدَنَا مِنْهُ ، فَضَمَّمَهُ إِلَيْهِ وَقَبَّلَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ :
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَ مِنْ صُلْبِي ^(٧) مَنْ يُعِينُنِي عَلَى دِينِي .
 ثُمَّ قَامَ ، وَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى فِي النَّاسِ :
 أَلَا مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ ^(٨) فَلْيَرْفَعْهَا ...

* * *

فَمَنْ عَبْدُ الْمَلِكِ هَذَا ! ؟ .

(١) أَيُّ بُنَيَّ : يَا بُنَيَّ .
 (٢) أغفو : أنام نومة خفيفة .
 (٣) طاقة : قوَّة .
 (٤) المظالم : جمع مَظْلَمَةٍ ، وهي ما أُجِدَّ من مال النَّاسِ ظُلْمًا .
 (٥) البارحة : الليلة السابقة .
 (٦) ومن لك : ومن يَضُمُّنُ لك .
 (٧) من صُلْبِي : من نَسْلِي .
 (٨) المظلمة : ما أُجِدَّ ظُلْمًا .

مَا خَبِرَ هَذَا الْفَتَى الَّذِي قَالَ عَنْهُ النَّاسُ :

إِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَدْخَلَ أَبَاهُ فِي الْعِبَادَةِ ...

وَسَلَّكَهُ مَسَلَّكَ الزَّهَادَةِ ...

تَعَالَوْا نُلِمَّ بِقِصَّةِ هَذَا الْفَتَى الصَّالِحِ مِنْ أَوْلِيهَا ...

* * *

كَانَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ خَمْسَةَ عَشَرَ وَلَدًا فِيهِمْ ثَلَاثُ بَنَاتٍ ...
وَكَانُوا جَمِيعًا عَلَى حَظٍّ مَوْفُورٍ مِنَ الثَّقَلَى ، وَمَقَامٍ كَبِيرٍ مِنَ الصَّلَاحِ ...
لَكِنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ كَانَ وَاسِطَةً عِقْدٍ ^(١) إِخْوَتِهِ ، وَكَوَكَبَهُمُ الْمُتَأَلَّقَ ...
لَقَدْ كَانَ أَدِيبًا أَرِيئًا ^(٢) ... لَهُ سِتُّ الْفِتْيَانِ ، وَعَقْلُ الْكُهُولِ .

ثُمَّ إِنَّهُ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ مُنْذُ نُعُومَةِ أَطْفَارِهِ ؛ فَكَانَ أَقْرَبَ النَّاسِ
سَمْتًا ^(٣) إِلَى آلِ الْخُطَابِ عَامَّةً ، وَأَشَبَّهُهُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ خَاصَّةً فِي تَقْوَاهُ
لِلَّهِ ، وَتَخَوُّفِهِ مِنْ مَعَاصِيهِ ، وَتَقَرُّبِهِ إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ .

* * *

حَدَّثَ ابْنُ عَمِّي عَاصِمٌ ^(٤) قَالَ :

وَفَدْتُ عَلَى « دِمَشْقَ » ، فَتَزَلْتُ عَلَى ابْنِ عَمِّي عَبْدَ الْمَلِكِ وَهُوَ عَزَبٌ ^(٥)
فَصَلَّيْنَا الْعِشَاءَ ، وَأَوَى كُلُّ مِنَّا إِلَى فِرَاشِهِ .
فَقَامَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى الْمِصْبَاحِ فَأَطْفَأَهُ .
وَأَسْلَمَ كُلُّ مِنَّا جَفْنَيْهِ إِلَى الْكَرَى ^(٦) ...

(١) الْعِقْدُ : الْقِلَادَةُ . (٤) عَزَبَ : غَيْرَ مَتَزَوِّجٍ .

(٢) أَرِيئًا : مَاهِرًا فُطِنًا . (٥) هُوَ عَاصِمُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ وَهُوَ ابْنُ أَخِي عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

(٣) سَمْتًا : هَيْئَةً . (٦) الْكَرَى : النِّعَاسُ .

ثُمَّ إِنِّي اسْتَيْقَظْتُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، فَإِذَا عَبْدُ الْمَلِكِ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْعَتَمَةِ
وَهُوَ يَقْرَأُ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ (١).

فَمَا رَاعَنِي مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُرَدُّ الْآيَةَ وَيَنْشِجُ (٢) نَشِيجاً مَكْبُوتاً ؛ يُقَطِّعُ
نِيبَاتِ الْقُلُوبِ (٣) ...

وَكَانَ كُلَّمَا فَرَغَ مِنَ الْآيَةِ عَادَ إِلَيْهَا ، حَتَّى قُلْتُ : سَيَقْتُلُهُ الْبُكَاءُ .
فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُلْتُ :

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْتَيْقِظُ مِنَ النَّوْمِ ؛ لِأَقْطَعَ عَلَيْهِ الْبُكَاءَ .

فَلَمَّا سَمِعَنِي سَكَتَ ، فَلَمْ أَسْمَعْ لَهُ حِسًّا ...

* * *

وَقَدْ تَتَلَمَذَ الْفَتَى الْعُمَرِيُّ عَلَى أَكَابِرِ عُلَمَاءِ عَصْرِهِ حَتَّى تَمَلَّى (٤) مِنْ
كِتَابِ اللَّهِ ...

وَتَضَلَّعَ (٥) بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ ...

فَعَدَا عَلَى حَدَاثَةِ سِنِّهِ ؛ يُزَاحِمُ الطَّبَقَةَ الْأُولَى مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الشَّامِ فِي زَمَانِهِ .

(١) سورة الشعراء : من الآية ٢٠٥ - ٢٠٧ .

(٢) ينشج : يفضُّ بالبكاء من غير انتحاب .

(٣) نيباطُ القلوب : العروق التي تتعلَّقُ بها القلوب .

(٤) تملَّى من كتاب الله : استمع بالقرآن الكريم .

(٥) تَضَلَّعَ : امتلأُ شبعاً ورثاً ، وتَضَلَّعَ من العلوم : نال منها حظاً وافراً .

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ جَمَعَ قُرَاءَ الشَّامِ وَفُقَهَاءَهَا وَقَالَ :
إِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ لِأَمْرِ هَذِهِ الْمَظَالِمِ الَّتِي فِي أَيْدِي أَهْلِ بَيْتِي ؛ فَمَا تَرَوْنَ
فِيهَا ؟ .

فَقَالُوا :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ كَانَ فِي غَيْرِ وَلَايَتِكَ ...

وَأَنَّ وَزَرَ^(١) هَذِهِ الْمَظَالِمِ عَلَى مَنْ غَضَبَهَا .

فَلَمْ يَزَلْ يَتَوَخَّ إِلَى مَا قَالُوهُ ؟ ...

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ مِمَّنْ كَانَ يَرَى غَيْرَ رَأْيِهِمْ ، وَقَالَ :

ابْعَثْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِذُوْنٍ مِّنْ دَعْوَتِ عِلْمَاءَ ،
أَوْ فُقَهَاءَ ، أَوْ عَقْلَاءَ .

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ قَالَ لَهُ عُمَرُ :

مَا تَرَى فِي هَذِهِ الْأَمْوَالِ الَّتِي أَخَذَهَا بَنُو عَمَّنَا مِنَ النَّاسِ ظُلْمًا ؟ ...

وَقَدْ حَضَرَ أَصْحَابُهَا وَجَعَلُوا يَطْلُبُونَهَا ، وَقَدْ عَرَفْنَا حَقَّهُمْ فِيهَا ؟ ! .

فَقَالَ : أَرَى أَنْ تَرُدَّهَا إِلَى أَصْحَابِهَا مَا دُمْتَ قَدْ عَرَفْتَ أَمْرَهَا ...

وَأَنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ؛ كُنْتَ شَرِيكًا لِلَّذِينَ أَخَذُوهَا ظُلْمًا .

فَانْبَسَطَتْ^(٢) أَسَارِيرُ عُمَرَ ، وَارْتَاخَتْ نَفْسُهُ ، وَزَالَ عَنْهُ مَا أَهَمَّهُ .

* * *

(١) وزرها : إثمها .

(٢) انْبَسَطَتْ : انْشَرَحَتْ .

وَلَقَدْ أَثَرُ الْفَتَى الْعُمَرِيُّ الْمُرَابِطَةَ عَلَى الثُّغُورِ ^(١) وَالْإِقَامَةَ فِي إِحْدَى الْمُدُنِ
الْقَرِيبَةِ مِنْهَا عَلَى الْبَقَاءِ فِي بِلَادِ الشَّامِ .

فَمَضَى إِلَيْهَا ... وَخَلَفَ وَرَاءَهُ « دِمَشْق » ذَاتَ الرِّيَاضِ النَّصِيرَةِ ، وَالظُّلَالِ
الظِّلِيلَةِ ، وَالْأَنْهَارِ السَّبْعَةِ .

وَكَانَ أَبُوهُ - عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ مَا عَرَفَهُ مِنْ صَلَاحِهِ وَتُقَاهُ - شَدِيدَ
الْخَوْفِ عَلَيْهِ مِنْ نَزَعَاتِ ^(٢) الشَّيْطَانِ ، كَثِيرَ الْإِشْفَاقِ عَلَيْهِ مِنْ نَزَوَاتِ ^(٣)
الشَّبَابِ ، حَرِيصاً عَلَى أَنْ يَعْلَمَ مِنْ أَمْرِهِ كُلِّ مَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَعْلَمَ ...
وَكَانَ لَا يَغْفُلُ عَنْ ذَلِكَ أَبَداً ، وَلَا يُهْمِلُهُ .

* * *

حَدَّثَ مَيْمُونُ بْنُ مَهْرَانَ وَزِيرُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَقَاضِيهِ وَمُسْتَشَارُهُ ،
قَالَ :

دَخَلْتُ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَوَجَدْتُهُ يَكْتُبُ رِسَالَةً إِلَى ابْنِهِ عَبْدِ
الْمَلِكِ يَعْظُمُهُ فِيهَا وَيَنْصَحُهُ ، وَيُبَصِّرُهُ وَيُحَذِّرُهُ ، وَيُنذِرُهُ وَيُبَشِّرُهُ ...
وَكَانَ مِمَّا جَاءَ فِيهَا قَوْلُهُ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ وَعَى عَنِّي وَفَهِمَ قَوْلِي لَأَنْتَ .

وَإِنَّ اللَّهَ - وَلَهُ الْحَمْدُ - قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْنَا فِي صَغِيرِ الْأَمْرِ وَكَبِيرِهِ .

فَاذْكُرْ يَا بُنَيَّ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَيْكَ .

وَإِيَّاكَ وَالْكِبَرَ ^(٤) وَالْعِظَمَةَ ؛ فَإِنَّهَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .

(١) الثُّغُور : جَمْعُ ثَغْرٍ ، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَهْجُمُ مِنْهُ الْأَعْدَاءُ .

(٢) نَزَعَاتُ الشَّيْطَانِ : وَسَاوِسُهُ وَمَا يَحْمِلُ بِهِ الْإِنْسَانُ عَلَى الْمَعَاصِي .

(٣) نَزَوَاتُ الشَّبَابِ : وَثَبَاتُ الشَّبَابِ .

(٤) الْكِبَرُ : التَّجَرُّبُ .

وَهُوَ لِلْمُؤْمِنِينَ عَدُوٌّ مُبِينٌ ...

وَأَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ بِكِتَابِي هَذَا لِأَمْرِ بَلَّغَنِي عَنْكَ ؛ فَمَا عَرَفْتُ مِنْ
أَمْرِكَ إِلَّا خَيْرًا ...

غَيْرَ أَنَّهُ بَلَّغَنِي عَنْكَ شَيْءٌ مِنْ إِعْجَابِكَ بِنَفْسِكَ ...

وَلَوْ أَنَّ هَذَا الْإِعْجَابَ خَرَجَ بِكَ إِلَيَّ مَا أَكْرَهُ ، لَرَأَيْتَ مِنِّي مَا تَكْرَهُ .
قَالَ مَيْمُونُ :

ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ عُمَرُ وَقَالَ :

يَا مَيْمُونُ ، إِنَّ ابْنِي عَبْدَ الْمَلِكِ قَدْ زُيِّنَ فِي عَيْنِي ، وَإِنِّي أَتَهُمُ نَفْسِي فِي
ذَلِكَ ، وَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ حُبِّي لَهُ قَدْ غَلَبَ عَلَى عِلْمِي بِهِ ... وَأَذْرَكُنِي مَا يُدْرِكُ
الْآبَاءَ مِنَ الْعَمَى عَنْ غُيُوبِ أَوْلَادِهِمْ ...

فَسِرَ إِلَيْهِ ، وَاسْتَبْرَ غَوْرُهُ^(١) ، وَانْظُرْ هَلْ تَرَى فِيهِ مَا يُشْبِهُ الْكِبَرَ وَالْفَخْرَ ...
فَإِنَّهُ غُلَامٌ حَدَثٌ ، وَلَا أَمْنُ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ .

قَالَ مَيْمُونُ :

فَشَدَدْتُ الرَّحَالَ^(٢) إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَيْهِ ، فَاسْتَأْذَنْتُ
وَدَخَلْتُ ، فَإِذَا غُلَامٌ فِي مُقْتَبِلِ الْعُمْرِ ... رَيَّانُ الشَّبَابِ ، بَهِيَّةُ الطَّلَعَةِ ، جَمٌّ^(٣)
التَّوَاضِعِ ، قَدْ جَلَسَ عَلَى حَشِيَّةٍ^(٤) بَيَضَاءَ فَوْقَ بَسَاطٍ مِنْ شَعْرِ .

فَرَحَّبَ بِي ، ثُمَّ قَالَ :

(١) اسْتَبْرَ غَوْرُهُ : اخْتَبَرَ حَقِيقَتَهُ وَانْفَذَ إِلَى خَفَايَاهُ .

(٢) شَدَدْتُ الرَّحَالَ : سَافَرْتُ .

(٣) جَمٌّ التَّوَاضِعِ : شَدِيدُ التَّوَاضِعِ .

(٤) الْحَشِيَّةُ : الْفِرَاشُ الْمَحْشُوءُ .

لَقَدْ سَمِعْتُ أَبِي يَذْكُرُكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَنْفَعَ
اللَّهُ بِكَ .

فَقُلْتُ لَهُ : كَيْفَ تَجِدُ نَفْسَكَ ؟ .

فَقَالَ : بِخَيْرٍ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَنِعْمَةٍ ...

غَيْرَ أَنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ قَدْ غَرَّنِي حُسْنُ ظَنِّ وَالِدِي بِي ، وَأَنَا لَمْ أَبْلُغْ مِنَ
الْفَضْلِ كُلِّ مَا يَظُنُّ ...

وَإِنِّي لَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ حُبُّهُ لِي قَدْ غَلَبَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ بِي ...
فَأَكُونُ آفَةً عَلَيْهِ .

فَعَجِبْتُ مِنْ اتِّفَاقِهِمَا ... ثُمَّ قُلْتُ لَهُ :

أَعْلِمْنِي مِنْ أَيْنَ مَعِيشَتِكَ ؟ .

فَقَالَ : مِنْ غَلَّةِ أَرْضٍ اشْتَرَيْتُهَا مِنْ وَرَثَتِهَا عَنْ أَبِيهِ ، وَدَفَعْتُ ثَمَنَهَا مِنْ مَالٍ
لَا شُبْهَةَ^(١) فِيهِ ، فَاسْتَعْنَيْتُ بِذَلِكَ عَنْ فَيٍّ^(٢) الْمُسْلِمِينَ .

قُلْتُ : فَمَا طَعَامُكَ ؟ .

فَقَالَ : لَيْلَةٌ لَحْمٌ ... وَلَيْلَةٌ عَدَسٌ وَزَيْتٌ ... وَلَيْلَةٌ خَلٌّ وَزَيْتٌ ...

وَفِي هَذَا بَلَاغٌ^(٣) .

فَقُلْتُ لَهُ : أَفَمَا تُعْجِبُكَ نَفْسُكَ ؟ .

فَقَالَ : قَدْ كَانَ فِيَّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ...

(١) الشُّبْهَةُ : كُلُّ مَا يَلْتَبِسُ فِيهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ وَالْحَلَالُ بِالْحَرَامِ .

(٢) الْفَيِّءُ : الْخَرَجُ .

(٣) وَفِي هَذَا بَلَاغٌ : وَفِي هَذَا مَا يَكْفِي مِنَ الْعَيْشِ .

فَلَمَّا وَعَظَنِي أَبِي بَصَّرَنِي بِحَقِيقَةِ نَفْسِي ، وَصَغَّرَهَا عِنْدِي ، وَحَطَّ مِنْ
قَدْرِهَا فِي عَيْنِي ...

فَنَفَعَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ ، فَجَزَاهُ اللَّهُ مِنْ وَالِدٍ خَيْرًا .
فَقَعَدْتُ سَاعَةً أُحَدِّثُهُ ، وَأَسْتَمْتِعُ بِمَنْطِقِهِ ، فَلَمْ أَرْ فَتًى كَانَ أَجْمَلَ
وَجْهًا ...

وَلَا أَكْمَلَ عَقْلاً ...

وَلَا أَحْسَنَ أَدَبًا مِنْهُ عَلَى حَدَاثَةِ سِنِّهِ ، وَقِلَّةِ تَجَرِبَتِهِ .

فَلَمَّا كَانَ آخِرُ النَّهَارِ ، أَنَا هُوَ غُلَامٌ فَقَالَ :

أُضِلَّحَكَ اللَّهُ قَدْ فَرَعْنَا ...

فَسَكَتَ ...

فَقُلْتُ : مَا هَذَا الَّذِي فَرَعُوا مِنْهُ ؟!

قَالَ : الْحَمَامُ .

قُلْتُ : وَكَيْفَ ؟

قَالَ : أَخْلَوْهُ لِي مِنَ النَّاسِ .

فَقُلْتُ : لَقَدْ كُنْتُ وَقَعْتُ مِنْ نَفْسِي مَوْقِعًا عَظِيمًا حَتَّى سَمِعْتُ هَذَا ...

فَدُعِرَ^(١) وَاسْتَرْجَعَ^(٢) وَقَالَ :

وَمَا فِي ذَلِكَ يَا عَمُّ يَرْحَمُكَ اللَّهُ ؟!

قُلْتُ : الْحَمَامُ لَكَ ؟!

(٢) اسْتَرْجَعَ : قَالَ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

(١) دُعِرَ : خَافَ .

قَالَ : لَا ...

قُلْتُ : فَمَا دَعَاكَ إِلَى أَنْ تُخْرِجَ مِنْهُ النَّاسَ !؟ ...
كَأَنَّكَ تُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ تَرْفَعَ نَفْسَكَ فَوْقَهُمْ ، وَأَنْ تَجْعَلَ لَهَا قَدْرًا يَغْلُو عَلَى
أَقْدَارِهِمْ ...

ثُمَّ إِنَّكَ تُؤْذِي صَاحِبَ الْحَمَّامِ فِي غَلَّةٍ^(١) يَوْمِهِ ، وَتُرْجِعُ مَنْ أَتَى حَمَّامَهُ
خَائِبًا .

قَالَ : أَمَّا صَاحِبُ الْحَمَّامِ فَأَنَا أَرْضِيهِ وَأُعْطِيهِ غَلَّةَ يَوْمِهِ .

قُلْتُ : هَذِهِ نَفَقَةٌ سَرَفٍ خَالَطَهَا كِبَرٌ ...

وَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَمَّامَ مَعَ النَّاسِ ، وَأَنْتَ كَأَحَدِهِمْ !؟ .

قَالَ :

يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنَّ طَائِفَةً مِنْ رِعَاعِ النَّاسِ^(٢) يَدْخُلُونَ الْحَمَّامَ بِغَيْرِ
أُزْرِ^(٣) فَأَكْرَهُ رُؤْيَا عَوْرَاتِهِمْ ...

وَأَكْرَهُ أَنْ أُجْبِرَهُمْ عَلَى وَضْعِ الْأُزْرِ ، فَيَأْخُذُوا ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ اقْتِدَارٌ مِنِّي
عَلَيْهِمْ بِالسُّلْطَانِ الَّذِي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُخَلِّصَنَا مِنْهُ كَفَافًا لَا عَلَيْنَا وَلَا لَنَا ...

فِعْظُنِي رَحِمَكَ اللَّهُ عِظَةً أَنْتَفِعَ بِهَا ...

وَأَجْعَلَ لِي مَخْرَجًا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ .

فَقُلْتُ :

انْتَظِرْ حَتَّى يَخْرُجَ النَّاسُ مِنَ الْحَمَّامِ لَيْلًا وَيَعُودُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ ثُمَّ ادْخُلْهُ ...

(١) الْغَلَّةُ : الدُّخْلُ مِنْ كِرَاءِ دَارٍ وَفَائِدَةِ أَرْضٍ وَدَكَانَ وَغَيْرِهِمَا .
(٢) رِعَاعُ النَّاسِ : سَفَلَةُ النَّاسِ .
(٣) الْأُزْرُ : الْأُسْتَاذُ .

قَالَ : لَا جَزْمَ (١) ...

لَا أَدْخُلُهُ نَهَاراً أَبَداً بَعْدَ الْيَوْمِ ، وَلَوْلَا شِدَّةُ بَرْدِ هَذِهِ الْبِلَادِ مَا دَخَلْتُهُ أَبَداً .
وَأَطْرَقَ قَلِيلاً كَأَنَّمَا يُفَكِّرُ فِي أَمْرٍ .

ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ :

أَقَسَمْتُ عَلَيْكَ لَتَطْوِيَنَّ هَذَا الْحَبَرَ (٢) عَنْ أَبِي ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَظِلَّ سَاخِطاً

عَلَيَّ ...

وَإِنِّي لَأَخْشَى أَنْ يَحُولَ الْأَجَلُ دُونَ الرِّضَا مِنْهُ .

قَالَ مَيِّمُونُ :

فَأَرَدْتُ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ أُسَبِّرَ عَقْلَهُ ، فَقُلْتُ لَهُ :

إِنْ سَأَلَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : هَلْ رَأَيْتُ مِنْكَ شَيْئاً ؟ ... فَهَلْ تَرْضَى لِي أَنْ
أَكْذِبَ عَلَيْهِ ؟ ! .

فَقَالَ : لَا ... مَعَاذَ اللَّهِ ... وَلَكِنْ قُلْ لَهُ :

رَأَيْتُ مِنْهُ شَيْئاً فَوَعِظْتُهُ وَكَبَّرْتُهُ فِي عَيْنِهِ ، فَسَارَعَ إِلَى الرُّجُوعِ عَنْهُ ، فَإِنَّ
أَبِي لَا يَسْأَلُكَ عَنْ كَشْفِ مَا لَمْ تُظْهِرْهُ لَهُ .

لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ قَدْ أَعَاذَهُ مِنَ الْبَحْثِ عَمَّا اسْتَتَرَ .

قَالَ مَيِّمُونُ : فَلَمْ أَرْ وَالِدًا قَطُّ وَلَا وَلَداً مِثْلَهُمَا يَرْحَمُهُمَا اللَّهُ .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ خَامِسِ الْحُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأَرْضَاهُ ...

(١) لَا جَزْمَ : أَعَاهِدُ وَأُقِيمُ .

(٢) لَتَطْوِيَنَّ هَذَا الْحَبَرَ : لَتَكْتُمَنَّ هَذَا الْخَبَرَ .

وَنَصَّرَ ضَرِيحَهُ وَضَرِيحَ ابْنِهِ وَفَلَذَهُ كَيْدِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ ...
وَسَلَامٌ عَلَيْهِمَا يَوْمَ لَحَقَا بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى ...
وَسَلَامٌ عَلَيْهِمَا يَوْمَ يُتَعَنَّانِ مَعَ الْأَخْيَارِ الْأَبْرَارِ (*) ...

-
- (*) للاستزادة من أخبار عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْقَزِيزِ وولده عَبْدِ الْمَلِكِ انظر:
- ١ - سيرة عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْقَزِيزِ لابن الجوزي.
 - ٢ - سيرة عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْقَزِيزِ لابن عبد الحكم.
 - ٣ - الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلدات: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، وانظر المجلد الخاص بالفهارس للوقوف عَلَى أرقام الصفحات في كل مجلد.
 - ٤ - صفة الصفوة لابن الجوزي: ١١٣/٢ - ١٢٦، وفي ص ١٢٧ وما يليها ترجمة خاصة بابنه عبد الملك.
 - ٥ - حلية الأولياء للأصبهاني: ٣٠٢/٥ - ٣٥٣، وفي ص ٣٥٣ وما يليها ترجمة خاصة بابنه عبد الملك.
 - ٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان: المجلدات ٢، ٣، ٤، ٥، (وانظر المجلد الخاص بالفهارس).
 - ٧ - تاريخ الطبري: (انظر الفهارس بالجزء العاشر).
 - ٨ - العقد الفريد لابن عبد ربه: (انظر الفهارس بالجزء الثامن).
 - ٩ - البيان والتبيين للجاحظ: انظر فهارس الأجزاء ١، ٢، ٣، ٤.
 - ١٠ - تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ١١٥/٢ - ١٢٧.
 - ١١ - تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني: ٤٧٥/٧ - ٤٧٨.

الحسن البصري

« كَيْفَ يَضِلُّ قَوْمٌ فِيهِمْ مِثْلُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ؟ »

[مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ]

جَاءَ الْبَشِيرُ يُبَشِّرُ زَوْجَ النَّبِيِّ « أُمُّ سَلَمَةَ » ^(١) بِأَنَّ مَوْلَاتَهَا ^(٢) « خَيْرَةَ » قَدْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا وَوَلَدَتْ غُلَامًا .

فَعَمَرَتْ الْفَرْحَةَ فُوَادَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَطَفَحَ الْبَشَرُ ^(٣) عَلَى مُحَيَّاها ^(٤) النَّبِيلِ الْوَقُورِ .

وَبَادَرَتْ فَأَرْسَلَتْ رَسُولًا لِيَحْمِلَ إِلَيْهَا الْوَالِدَةَ وَمَوْلُودَهَا ، لِتَقْضِيَ فِتْرَةَ النَّفَاسِ فِي بَيْتِهَا .

فَقَدْ كَانَتْ « خَيْرَةُ » أَثِيرَةً ^(٥) لَدَى أُمِّ سَلَمَةَ ، حَبِيبَةً إِلَى قَلْبِهَا ... وَكَانَ بِهَا لَهْفَةٌ وَتَشَوُّقٌ ؛ لِرُؤْيَا وَلِيدِهَا الْبَكْرِ ...

* * *

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى جَاءَتْ « خَيْرَةُ » تَحْمِلُ طِفْلَهَا عَلَى يَدَيْهَا ... فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنَا أُمِّ سَلَمَةَ عَلَى الطُّفْلِ امْتَلَأَتْ نَفْسُهَا أَنْسَاءً بِهِ ، وَارْتِيحًا لَهُ ...

فَقَدْ كَانَ الْوَلِيدُ الصَّغِيرُ قَسِيمًا وَسِيمًا ^(٦) ، بَهِيَّ الطَّلَعَةِ ، تَامَّ الْخِلْقَةِ ؛ يَمْلَأُ عَيْنَ مُجْتَئِلِيهِ ^(٧) ، وَيَأْسِرُ فُوَادَ رَائِيهِ ^(٨) .

(١) أُمُّ سَلَمَةَ : انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابات » للمؤلف .

(٢) مولاتها : أمتها .

(٣) طفح البشر : فاض السرور .

(٤) المحيا : الوجه .

(٥) أثيرة : عزيزة مكرمة .

(٦) قسيماً وسيماً : جميلاً حسن الوجه .

(٧) يملأ عين مجتئليه : يسر الناظر إليه .

(٨) يأسر فؤاد رائيه : يملك قلب رائيه .

ثُمَّ التَفَتَتْ أُمُّ سَلَمَةَ إِلَى مَوْلَاتِهَا وَقَالَتْ :

أَسَمَّيْتُ غُلَامَكَ يَا « خَيْرَةُ » ؟ .

فَقَالَتْ : كَلَّا يَا أُمُّهُ ...

لَقَدْ تَرَكْتُ ذَلِكَ لَكَ ؛ لِتُخْتَارِيَ لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا تَشَائِينَ .

فَقَالَتْ : نُسَمِّيهِ - عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ - الْحَسَنَ .

ثُمَّ رَفَعَتْ يَدَيْهَا وَدَعَتْ لَهُ بِصَالِحِ الدُّعَاءِ .

* * *

لَكِنَّ الْفَرْحَةَ بِالْحَسَنِ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى بَيْتِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ رِضْوَانُ
اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا شَارَكَهَا فِيهَا بَيْتُ آخَرٍ مِنْ بُيُوتِ الْمَدِينَةِ .

هُوَ بَيْتُ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ^(١) كَاتِبِ وَحْيِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ .

ذَلِكَ أَنَّ « يَسَارًا » وَالِدَ الصَّبِيِّ كَانَ مَوْلَى لَهُ أَيْضًا ...

وَكَانَ مِنْ آثَرِ ^(٢) النَّاسِ عِنْدَهُ ، وَأَحَبَّهُمْ إِلَيْهِ .

* * *

دَرَجَ ^(٣) الْحَسَنُ بْنُ يَسَارٍ [الَّذِي عُرفَ فِيمَا بَعْدُ بِالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ] فِي
بَيْتِ مِنْ بُيُوتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَرُبِّي فِي حِجْرِ زَوْجَةٍ مِنْ زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ « هِنْدُ بِنْتُ سُهَيْلٍ »
الْمَعْرُوفَةُ بِأُمِّ سَلَمَةَ .

(١) زيد بن ثابت : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

(٢) من آثر الناس عنده : من أعز الناس وأكرمهم عنده . (٣) درج : نَشَأَ وترعرع .

وَأُمُّ سَلَمَةَ - إِنْ كُنْتُ لَا تَعْلَمُ - كَانَتْ مِنْ أَكْمَلِ نِسَاءِ الْعَرَبِ عَقْلاً،
وَأَوْفَرِهِنَّ^(١) فَضْلاً، وَأَشَدَّهُنَّ حَزْماً.

كَمَا كَانَتْ مِنْ أَوْسَعِ زَوَاجَاتِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ عِلْماً، وَأَكْثَرِهِنَّ
رَوَايَةً عَنْهُ ...

حَيْثُ رَوَتْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسَبْعَةٌ وَثَمَانِينَ حَدِيثاً ...
وَكَانَتْ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ النِّسَاءِ الْقَلِيلَاتِ النَّادِرَاتِ اللَّوَاتِي يَكْتُبْنَ فِي
الْجَاهِلِيَّةِ ...

وَلَمْ تَقِفْ صِلَةَ الصَّبِيِّ الْمَحْظُوظِ بِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ «أُمِّ سَلَمَةَ» عِنْدَ هَذَا
الْحَدِّ ...

وإِنَّمَا امْتَدَّتْ إِلَى أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ ...

فَكَثِيراً مَا كَانَتْ «خَيْرَةً» أُمُّ الْحَسَنِ تَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ لِقَضَاءِ بَعْضِ
حَاجَاتِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَانَ الطِّفْلُ الرَضِيعُ يَبْكِي مِنْ جُوعِهِ، وَيَشْتَدُّ بُكَاءُهُ
فَتَأْخُذُهُ أُمُّ سَلَمَةَ إِلَى حِجْرِهَا، وَتُلْقِمُهُ^(٢) ثَدْيِهَا؛ لِتُصْبِرَهُ بِهِ وَتُعَلِّلَهُ^(٣) عَنْ غِيَابِ
أُمِّهِ ...

فَكَانَتْ لِشِدَّةِ حُبِّهَا إِيَّاهُ يَدُرُّ ثَدْيُهَا لَبَنًا سَائِغًا فِي فَمِهِ فَيَرْضَعُهُ الصَّبِيُّ
وَيَسْكُتُ عَلَيْهِ .

وَبِذَلِكَ غَدَتْ أُمُّ سَلَمَةَ أُمًّا لِلْحَسَنِ مِنْ جِهَتَيْنِ :

فَهِيَ أُمُّهُ بِوَصْفِهِ أَحَدَ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَهِيَ أُمُّهُ مِنَ الرِّضَاعِ أَيْضاً ...

* * *

(١) أوفرهن: أكثرهن. (٢) تلقمها ثديها: تضع ثديها في فمه. (٣) تعلله: تشغله.

وَقَدْ أَتَاكَ الصَّلَاتُ الْوَاشِحَةُ^(١) بَيْنَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقُرْبُ بُيُوتِ
بَعْضِهِنَّ مِنْ بَعْضٍ لِلْغَلَامِ السَّعِيدِ أَنْ يَتَرَدَّدَ عَلَى هَذِهِ الْبُيُوتِ كُلِّهَا ...
وَأَنْ يَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ رَبَّائِهَا^(٢) جَمِيعاً ...
وَأَنْ يَهْتَدِيَ بِهَدْيِهِنَّ ...

وَقَدْ كَانَ - كَمَا يُحَدِّثُ عَنْ نَفْسِهِ - يَمْلَأُ هَذِهِ الْبُيُوتَ بِحَرَكَتِهِ الدَّائِبَةِ ،
وَيُثْرِعُهَا بِلَعْبِهِ النَّشِيطِ ...

حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَنَالُ سُقُوفَ بُيُوتِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِيَدَيْهِ وَهُوَ يَقْفِزُ فِيهَا
قَفْزاً .

* * *

ظَلَّ الْحَسَنُ يَتَقَلَّبُ فِي هَذِهِ الْأَجْوَاءِ الْعَبِقَةِ^(٣) بِطُيُوبِ الثُّبُورَةِ ، الْمُتَالِقَةِ^(٤) -
بَسَنَاهَا ...

وَيَنْهَلُ مِنْ تِلْكَ الْمَوَارِدِ الْعَذْبَةِ الَّتِي حَفَلَتْ بِهَا بُيُوتُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ...
وَيَتَنَلَّمُ عَلَى أَيْدِي كِبَارِ الصَّحَابَةِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
حَيْثُ رَوَى عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَبِي مُوسَى
الْأَشْعَرِيِّ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ...

وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ ، وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَغَيْرِهِمْ
وَغَيْرِهِمْ^(٥) ...

(١) الصلوات الواشحة : الصلوات الوثيقة المتينة .

(٢) ربائها : صاحباتها .

(٣) العبقة : العطرة .

(٤) المتألقة : المتمعة .

(٥) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ، وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : انظرهم في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

لَكِنَّهُ أَوْلَعَ أَكْثَرَ مَا أَوْلَعَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
فَقَدْ رَاعَهُ مِنْهُ صَلَابَتُهُ فِي دِينِهِ ، وَإِحْسَانُهُ لِعِبَادَتِهِ ، وَزَهَادَتُهُ بِرِيئَةِ الدُّنْيَا
وَزُخْرُفِهَا ...

وَحَلَبُهُ^(١) مِنْهُ بَيَانُهُ الْمُشْرِقُ ، وَحِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ ، وَأَقْوَالُهُ الْجَامِعَةُ ، وَعِظَاتُهُ
الَّتِي تَهْزُ الْقُلُوبَ هَزًّا .

فَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ فِي الثَّقَلَى وَالْعِبَادَةِ ...

وَنَسَجَ عَلَى مِنْوَالِهِ^(٢) فِي الْبَيَانِ وَالْفَصَاحَةِ ...

وَلَمَّا بَلَغَ الْحَسَنُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ ربيعاً مِنْ عُمُرِهِ ، وَدَخَلَ فِي مَذَاحِلِ الرِّجَالِ
انْتَقَلَ مَعَ أَبِيهِ إِلَى « الْبَصْرَةِ » وَاسْتَقَرَّ فِيهَا مَعَ أُسْرَتِهِ .

وَمِنْ هُنَا نُسِبَ الْحَسَنُ إِلَى « الْبَصْرَةِ » ...

وَعُرِفَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ...

* * *

كَانَتْ « الْبَصْرَةُ » يَوْمَ أُمَمِهَا الْحَسَنُ ؛ قَلْعَةً مِنْ أَكْبَرِ قِلَاعِ الْعِلْمِ فِي دَوْلَةِ
الْإِسْلَامِ ...

وَكَانَ مَسْجِدُهَا الْعَظِيمُ ؛ يَمْوُجُ بِمَنْ ارْتَحَلَ إِلَيْهَا مِنْ كِبَارِ الصُّحَابَةِ ،
وَجَلَّةِ التَّابِعِينَ ...

وَكَانَتْ حَلَقَاتُ الْعِلْمِ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا ؛ تَعْمُرُ بَاحَاتِ الْمَسْجِدِ
وَمُصَلَّاهُ .

وَقَدْ لَزِمَ الْحَسَنُ الْمَسْجِدَ ، وَانْقَطَعَ إِلَى حَلَقَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ حَبْرِ أُمَّةٍ

(١) حلبه : فتنه وسحره .

(٢) نسج على منواله : سار على طريقته .

مُحَمَّدٍ^(١)، وَأَخَذَ عَنْهُ التَّفْسِيرَ وَالْحَدِيثَ وَالْقِرَاءَاتِ .
 كَمَا أَخَذَ عَنْهُ وَعَنْ غَيْرِهِ الْفِقَّةَ ، وَاللُّغَةَ ، وَالْأَدَبَ ، وَغَيْرَهَا وَغَيْرَهَا ...
 حَتَّى غَدَا عَالِمًا جَامِعًا فَقِيهًا ثِقَةً^(٢) .
 فَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ يَنْهَلُونَ مِنْ عِلْمِهِ الْغَزِيرِ ...
 وَانْتَفُوا حَوْلَهُ يُصِيخُونَ^(٣) إِلَى مَوَاعِظِهِ الَّتِي تَسْتَلِينُ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ ،
 وَتَسْتَدِيرُ الدُّمُوعَ الْعَاصِيَةَ .
 وَيَعُونُ^(٤) حِكْمَتَهُ الَّتِي تَحْلِبُ الْأَلْبَابَ ...
 وَيَتَأَسَّوْنَ بِسِيرَتِهِ الَّتِي كَانَتْ أَطْيَبَ مِنْ نَشْرِ الْمِسْكِ^(٥) ...
 وَلَقَدْ انْتَشَرَ أَمْرُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي الْبِلَادِ وَفَشَا ذِكْرُهُ^(٦) بَيْنَ الْعِبَادِ ...
 فَجَعَلَ الْخُلَفَاءَ وَالْأَمْراءَ يَتَسَاءَلُونَ عَنْهُ وَيَتَسَقُّطُونَ^(٧) أَخْبَارَهُ ...

* * *

حَدَّثَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ^(٨) قَالَ :
 لَقِيتُ مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ^(٩) فِي « الْحِيرَةِ »^(١٠) فَقَالَ لِي :

-
- (١) حبر أئمة مُحمَّد : عالم أئمة مُحمَّد ﷺ وعابدها .
 (٢) الثقة : من يعتمد عليه ، ويوثق بدينه وعلمه .
 (٣) يصيخون : ينصتون .
 (٤) يعون حكيمته : يحفظون حكيمته ويتدبرونها .
 (٥) نشر المسك : ربح المسك .
 (٦) فشا ذكره : شاع ذكره وانتشر .
 (٧) يتسقطون أخباره : يتبعون أخباره .
 (٨) خالد بن صفوان : من فضحاء العرب ، جالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، وعاش حتى أدرك السفاح العباسي وحظي عنده .
 (٩) مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : أميرٌ قائدٌ من أبطال بني أمية ، غزا القسطنطينية ، وبنى فيها مسجد مَسْلَمَةَ .
 (١٠) الحيرة : بلدة قديمة في العراق على بعد ثلاثة أميال من الكوفة ، اندثرت ولم يبق لها وجود اليوم .

أَخْبِرْنِي يَا خَالِدُ عَنْ حَسَنِ الْبَصْرَةِ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ تَعْرِفُ مِنْ أَمْرِهِ
مَا لَا يَعْرِفُ سِوَاكَ .

فَقُلْتُ : أَضْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ...

أَنَا خَيْرُ مَنْ يُخْبِرُكَ عَنْهُ بِعِلْمٍ ...

فَأَنَا جَارُهُ فِي بَيْتِهِ ، وَجَلِيسُهُ فِي مَجْلِسِهِ ، وَأَعْلَمُ أَهْلَ « الْبَصْرَةِ » بِهِ .

فَقَالَ مَسْلَمَةُ : هَاتِ مَا عِنْدَكَ .

فَقُلْتُ : إِنَّهُ أَمْرٌ سَرِيرَتُهُ كَعَلَانِيَّتِهِ ...

وَقَوْلُهُ كَفَعْلِهِ ...

إِذَا أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ كَانَ أَعْمَلَ النَّاسِ بِهِ ...

وَإِذَا نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ كَانَ أَتْرَكَ النَّاسِ لَهُ ...

وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ مُسْتَعْنِيًا عَنِ النَّاسِ ؛ زَاهِدًا بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ ...

وَرَأَيْتُ النَّاسَ مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ ؛ طَالِبِينَ مَا عِنْدَهُ ...

فَقَالَ مَسْلَمَةُ : حَسْبُكَ ^(١) يَا خَالِدُ حَسْبُكَ !! .

كَيْفَ يَضِلُّ قَوْمٌ فِيهِمْ مِثْلُ هَذَا ؟ ! .

* * *

وَلَمَّا وَلِيَ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيَّ « الْعِرَاقَ » ، وَطَعَى فِي وَلَايَتِهِ

وَتَجَبَّرَ ...

كَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ أَحَدَ الرِّجَالِ الْقَلَائِلِ الَّذِينَ تَصَدَّقُوا لِطُغْيَانِهِ ^(٢) ،

(١) حَسْبُكَ : يَكْفِيكَ .

(٢) تَصَدَّقُوا لِطُغْيَانِهِ : نَاهَضُوا طُغْيَانَهُ وَعَارَضُوهُ .

وَجَهَرُوا بَيْنَ النَّاسِ بِسُوءِ أَعْقَالِهِ ، وَصَدَعُوا^(١) بِكَلِمَةِ الْحَقِّ فِي وَجْهِهِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْحَجَّاجَ بَنَى لِنَفْسِهِ بِنَاءً فِي « وَاسِطَ »^(٢) .

فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُ ، نَادَى فِي النَّاسِ أَنْ يَخْرُجُوا لِلْفُرْجَةِ عَلَيْهِ وَالِدُّعَاءِ لَهُ بِالْبَرَكَةِ .

فَلَمْ يَشَأْ الْحَسَنُ أَنْ يُفَوِّتَ عَلَى نَفْسِهِ فُرْصَةَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ هَذِهِ ...

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لِيُعِظَهُمْ وَيَذَكِّرَهُمْ ، وَيُرْهِدَهُمْ بِعَرَضِ الدُّنْيَا ، وَيُرْغِبَهُمْ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

وَلَمَّا بَلَغَ الْمَكَانَ ، وَنَظَرَ إِلَى جُمُوعِ النَّاسِ وَهِيَ تَطُوفُ بِالْقَصْرِ الْمُنِيفِ
مَأْخُودَةً بِرُوعَةِ بِنَائِهِ ، مَذْهُوشَةً بِسَعَةِ أَرْجَائِهِ^(٣) مَشْدُودَةً إِلَى بَرَاةِ زَخَارِفِهِ ...
وَقَفَ فِيهِمْ خَطِيبًا ، وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مَا قَالَهُ :

لَقَدْ نَظَرْنَا فِيمَا ابْتَنَى أَحَبُّتُ الْأَحْبَثِينَ ؛ فَوَجَدْنَا أَنَّ « فِرْعَوْنَ » شَيْدَ أَعْظَمَ
مِمَّا شَيْدَ ، وَبَنَى أَعْلَى مِمَّا بَنَى ...

ثُمَّ أَهْلَكَ اللَّهُ « فِرْعَوْنَ » ، وَأَتَى عَلَى مَا بَنَى^(٤) وَشَيْدَ ...

لَيْتَ الْحَجَّاجَ يَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ قَدْ مَقْتُوهُ ، وَأَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ قَدْ
عَرَّوْهُ^(٥) ...

وَمَضَى يَتَدَفَّقُ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ^(٦) حَتَّى أَشْفَقَ عَلَيْهِ أَحَدُ السَّامِعِينَ مِنْ
نِقْمَةِ الْحَجَّاجِ ، فَقَالَ لَهُ :

حَسْبُكَ يَا أَبَا سَعِيدٍ ... حَسْبُكَ .

فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ :

(١) صَدَعُوا بكلمة الحق : جهروا بكلمة الحق .

(٢) واسط : مدينة متوسطة بين البصرة والكوفة .

(٣) أرجائه : نواحيه .

(٤) أتى على ما بنى : دمر ما بنى .

(٥) قَدْ عَرَّوْهُ : خدعوه ، وناقضوه حتى امتلأ غروراً .

(٦) على هذا المنوال : على هذا الأسلوب .

لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ لِيُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ ...

* * *

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي دَخَلَ الْحَجَّاجُ إِلَى مَجْلِسِهِ وَهُوَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ^(١) وَقَالَ لِحُجَلَايِهِ :

تَبَّأَ لَكُمْ وَسُحْقًا^(٢) ...

يَقُومُ عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِ أَهْلِ « الْبَصْرَةِ » وَيَقُولُ فِينَا مَا شَاءَ أَنْ يَقُولَ ، ثُمَّ لَا يَجِدُ فِيكُمْ مَنْ يَرُدُّهُ أَوْ يُنْكِرُ عَلَيْهِ !! ...

وَاللَّهِ لَا سَقِيَّتَكُمْ مِنْ دَمِهِ يَا مَعْشَرَ الْجُبَنَاءِ .

ثُمَّ أَمَرَ بِالسَّيْفِ وَالنَّطْعِ^(٣) ... فَأُحْضِرَا ...

وَدَعَا بِالْجَلَادِ ؛ فَمَثَلَ وَاقِفًا بَيْنَ يَدَيْهِ .

ثُمَّ وَجَّهَ إِلَى الْحَسَنِ بَعْضَ شُرْطِهِ ...

وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْتُوهُ بِهِ ...

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى جَاءَ الْحَسَنُ ، فَشَخَصَتْ^(٤) نَحْوَهُ الْأَبْصَارُ ...

وَوَجِفَتْ^(٥) عَلَيْهِ الْقُلُوبُ .

فَلَمَّا رَأَى الْحَسَنُ السَّيْفَ وَالنَّطْعَ وَالْجَلَادَ ، حَرَّكَ شَفَتَيْهِ ...

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ وَعَلَيْهِ جَلَالُ الْمُؤْمِنِ ، وَعِزَّةُ الْمُسْلِمِ ، وَوَقَارُ الدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ .

(١) يتميز من الغيظ : يتقطع من الغضب .

(٢) تَبَّأَ لَكُمْ وَسُحْقًا : هلاكاً لكم وبُغْداً .

(٣) النطع : بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس .

(٤) شَخَصَتْ الْأَبْصَارُ : فتحت العيون .

(٥) وَجِفَتْ الْقُلُوبُ : خفقت القلوب .

فَلَمَّا رَأَاهُ الْحَجَّاجُ عَلَى حَالِهِ هَذِهِ ؛ هَابَهُ أَشَدُّ الْهَيْبَةِ وَقَالَ لَهُ :

هَآ هُنَا يَا أَبَا سَعِيدٍ ... هَآ هُنَا ...

ثُمَّ مَا زَالَ يُوسِّعُ لَهُ وَيَقُولُ :

هَآ هُنَا ... وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فِي دَهْشَةٍ وَاسْتِغْرَابٍ حَتَّى أَجْلَسَهُ عَلَى

فِرَاشِهِ .

وَلَمَّا أَخَذَ الْحَسَنُ مَجْلِسَهُ التَّفَتَّ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ ، وَجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ بَعْضِ
أُمُورِ الدِّينِ ، وَالْحَسَنُ يُجِيبُهُ عَنْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ بِجَنَانٍ ثَابِتٍ ، وَبَيَانٍ سَاجِرٍ ، وَعِلْمٍ
وَاسِعٍ .

فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ :

أَنْتَ سَيِّدُ الْعُلَمَاءِ يَا أَبَا سَعِيدٍ .

ثُمَّ دَعَا بِغَالِيَةِ^(١) وَطَيَّبَ لَهُ بِهَا لِحْيَتَهُ وَوَدَّعَهُ .

وَلَمَّا خَرَجَ الْحَسَنُ مِنْ عِنْدِهِ ، تَبِعَهُ حَاجِبُ^(٢) الْحَجَّاجِ وَقَالَ لَهُ :

يَا أَبَا سَعِيدٍ ، لَقَدْ دَعَاكَ الْحَجَّاجُ لِغَيْرِ مَا فَعَلَ بِكَ ، وَإِنِّي رَأَيْتُكَ عِنْدَمَا
أَقْبَلْتَ وَرَأَيْتَ السَّيْفَ وَالنَّطْعَ ؛ قَدْ حَرَّكَتَ شَفَتَيْكَ ، فَمَاذَا قُلْتَ ؟ .

فَقَالَ الْحَسَنُ :

لَقَدْ قُلْتُ : يَا وَلِيِّ نِعْمَتِي وَمَلَاذِي عِنْدَ كُرْبَتِي ؛ اجْعَلْ نِقْمَتَهُ بَرْدًا وَسَلَامًا
عَلَيَّ كَمَا جَعَلْتَ النَّارَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ .

* * *

(١) الغالية : أنواع من الطيب تُنَزَّجُ وَيُطَبَّبُ بِهَا .

(٢) حاجِبُ الحجَّاج : بَوَّابُ الحجَّاج .

وَلَقَدْ كَثُرَتْ مَوَاقِفُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ هَذِهِ مَعَ الْوَلَاةِ وَالْأَمْرَاءِ ، فَكَانَ يُخْرَجُ مِنْ كُلِّ مِنْهَا عَظِيماً فِي أَعْيُنِ ذَوِي السُّلْطَانِ ، عَزِيزاً بِاللَّهِ ، مَحْفُوظاً بِحِفْظِهِ ... مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ انْتَقَلَ الْخَلِيفَةُ الرَّاهِدُ عُمرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ^(١) إِلَى جَوَارِ رَبِّهِ وَآلَتِ ^(٢) الْخِلَافَةَ إِلَى يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَلَّى عَلَى « الْعِرَاقِ » عُمرُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيَّ ...

ثُمَّ زَادَهُ بَسْطَةً فِي السُّلْطَانِ فَأَضَافَ إِلَيْهِ « خُرَاسَانَ » أَيْضاً .

وَسَارَ يَزِيدُ فِي النَّاسِ سِيرَةً غَيْرَ سِيرَةِ سَلَفِهِ الْعَظِيمِ ...

فَكَانَ يُرْسِلُ إِلَى عُمرِ بْنِ هُبَيْرَةَ بِالْكِتَابِ تَلُوَ الْكِتَابَ ، وَيَأْمُرُهُ بِإِنْفَازِ ^(٣) مَا فِيهَا وَلَوْ كَانَ مُجَافِياً لِلْحَقِّ أحياناً ...

فَدَعَا عُمرُ بْنُ هُبَيْرَةَ كُلَّ مَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، وَعَامِرِ بْنِ شَرَاهِيلَ الْمَعْرُوفِ بِالشَّعْبِيِّ ^(٤) وَقَالَ لَهُمَا :

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ قَدْ اسْتَخْلَفَهُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَأَوْجَبَ طَاعَتَهُ عَلَى النَّاسِ .

وَقَدْ وَلَّانِي مَا تَرَوْنَ مِنْ أَمْرِ « الْعِرَاقِ » ثُمَّ زَادَنِي فَوَلَّانِي « فَارِسَ » .

وَهُوَ يُرْسِلُ إِلَيَّ أحياناً كُتُباً يَأْمُرُنِي فِيهَا بِإِنْفَازِ مَا لَا أَطْمَئِنُّ إِلَى عِدَالَتِهِ .

فَهَلْ تَجِدَانِ لِي فِي مُتَابَعَتِي إِيَّاهُ وَإِنْفَازِ أَوَامِرِهِ مَخْرَجاً فِي الدِّينِ ؟ .

فَأَجَابَ الشَّعْبِيُّ جَوَاباً فِيهِ مُلَاطَفَةٌ لِلْخَلِيفَةِ ، وَمُسَايَرَةٌ لِلْوَالِي ...

وَالْحَسَنُ سَاكِتٌ ...

(١) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ . (٣) إنفاذ ما فيها : إجراء ما فيها .

(٢) آلت : الخلافة إلى فلان : صارت إليه وتولاها . (٤) عامر بن شراحيل : انظره ص ١٧٢ .

فَالْتَفَتَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ إِلَى الْحَسَنِ وَقَالَ :
وَمَا تَقُولُ أَنْتَ يَا أَبَا سَعِيدٍ ؟ .

فَقَالَ : يَا بَنَ هُبَيْرَةَ خَفِ اللَّهَ فِي يَزِيدَ ؛ وَلَا تَخَفْ يَزِيدَ فِي اللَّهِ ...
وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ جَلٌّ وَعَزٌّ يَمْنَعُكَ ^(١) مِنْ يَزِيدَ ، وَأَنْ يَزِيدَ لَا يَمْنَعُكَ مِنْ
اللَّهِ ...

يَا بَنَ هُبَيْرَةَ إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ مَلَكٌ غَلِيظٌ شَدِيدٌ لَا يَعْصِي اللَّهَ
مَا أَمَرَهُ ، فَيُذِيقُكَ عَنْ سَرِيرِكَ هَذَا ، وَيُنْقِلُكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ إِلَى ضَيْقِ قَبْرِكَ ...
حَيْثُ لَا تَجِدُ هُنَاكَ يَزِيدَ ، وَإِنَّمَا تَجِدُ عَمَلَكَ الَّذِي خَالَفْتَ فِيهِ رَبَّ
يَزِيدَ ...

يَا بَنَ هُبَيْرَةَ إِنَّكَ إِنْ تَكُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَفِي طَاعَتِهِ ؛ يَكْفِكَ ^(٢) بَائِقَةُ يَزِيدَ
ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ...

وَإِنْ تَكُ مَعَ يَزِيدَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَكِلُكَ ^(٣) إِلَى يَزِيدَ .
وَاعْلَمْ يَا بَنَ هُبَيْرَةَ أَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ
عَزَّ وَجَلَّ .

فَبَكَى عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ حَتَّى بَلَّلَتْ دُمُوعُهُ لِحْيَتَهُ ...

وَمَالَ عَنِ الشَّعْبِيِّ إِلَى الْحَسَنِ ...

وَبَالَغَ فِي إِعْظَامِهِ وَإِكْرَامِهِ ...

فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ تَوَجَّهَ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمَا النَّاسُ ،
وَجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُمَا عَنْ خَبَرِهِمَا مَعَ أَمِيرِ « الْعِرَاقَيْنِ » ^(٤) .

(١) يَمْنَعُكَ مِنْ يَزِيدَ : يَحْمِيكَ مِنْ يَزِيدَ .

(٢) يَكْفِكَ : يَتْرَكُكَ .

(٣) الْعِرَاقَانِ : الْكُوفَةُ وَالْبَصْرَةُ .

(٤) يَكْفِيكَ بِأَثْقَةٍ يَزِيدَ : يَمْنَعُكَ أَكْثَرُ يَزِيدَ .

فَأَلْتَقَتِ الشَّعْبِيَّ إِلَيْهِمْ وَقَالَ :

أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُؤْثِرَ^(١) اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى خَلْقِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ فَلْيَفْعَلْ ...

فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا قَالَ الْحَسَنُ لِعُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ قَوْلًا أَجْهَلُهُ ...
وَلَكِنِّي أَرَدْتُ فِيمَا قُلْتُهُ وَجْهَ ابْنِ هُبَيْرَةَ ، وَأَرَادَ فِيمَا قَالَهُ وَجْهَ اللَّهِ ...
فَأَقْصَانِي اللَّهُ مِنْ ابْنِ هُبَيْرَةَ وَأَدْنَاهُ مِنْهُ وَحَبَّبَهُ إِلَيْهِ .

* * *

وَقَدْ عَاشَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيَّ نَحْوًا مِنْ ثَمَانِينَ عَامًا مَلَأَ الدُّنْيَا خِلَالَهَا عِلْمًا وَحِكْمَةً وَفَقْهًا .

وَكَانَ مِنْ أَجَلٍ مَا وَرَّثَهُ لِلْأَجْيَالِ رِقَائِقُهُ^(٢) الَّتِي ظَلَّتْ عَلَى الْأَيَّامِ رَيْعًا لِلْقُلُوبِ ...

وَمَوَاعِظُهُ الَّتِي هَزَّتْ وَمَا زَالَتْ تَهْزُ الْأَفْئِدَةَ ، وَتَسْتَدِيرُ الشُّنُونَ^(٣) ، وَتَدُلُّ التَّائِبِينَ عَلَى اللَّهِ ، وَتُبَيِّهُ الْعَارِينَ الْغَافِلِينَ^(٤) إِلَى حَقِيقَةِ الدُّنْيَا ، وَحَالِ النَّاسِ مَعَهَا .

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ لِسَائِلٍ سَأَلَتْهُ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا :

تَسْأَلُنِي عَنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ !! ...

إِنَّ مَثَلَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَثَلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ...

مَتَى أَزْدَدَتْ مِنْ أَحَدِهِمَا قُرْبًا أَزْدَدَتْ مِنَ الْآخَرِ بُعْدًا .

(١) يُؤْثِرُ : يَفْضُلُ .

(٢) الرِّقَائِقُ : الْمَوَاعِظُ وَالْوَصَايَا ، سَمِيَتْ كَذَلِكَ لِرَفْعِهَا أَوْ لِأَنَّهَا تَرَفِّقُ الْقُلُوبَ .

(٣) الشُّنُونَ : الْعُرُوقُ الَّتِي تَجْرِي مِنْهَا الدَّمُوعُ . (٤) الْغَارِينَ الْغَافِلِينَ : الْمَهْمِلِينَ .

وَتَقُولُ لِي صِفْ لِي هَذِهِ الدَّارَ!! ...
فَمَاذَا أَصِفُ لَكَ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ^(١) وَآخِرُهَا فَنَاءٌ ...
وَفِي حَلَالِهَا حِسَابٌ ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ ...
مَنْ اسْتَعْنَى فِيهَا فُتِنَ ، وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ ...
وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً قَوْلُهُ لِآخِرِ سَأَلِهِ عَنْ حَالِهِ وَحَالِ النَّاسِ :
وَيُحِنَّا مَاذَا فَعَلْنَا بِأَنْفُسِنَا!!؟ ...
لَقَدْ أَهْزَلْنَا دِينَنَا ، وَسَمَّيْنَا دُنْيَانَا ...
وَأَخْلَقْنَا^(٢) أَخْلَاقَنَا ، وَجَدَّدْنَا فُرُشَنَا وَثِيَابَنَا ...
يَتَكَيُّ أَحَدُنَا عَلَى شِمَالِهِ ، وَيَأْكُلُ مِنْ مَالٍ غَيْرِ مَالِهِ ...
طَعَامُهُ غَضِبٌ ...
وَيَخْدُمُهُ سُخْرَةٌ^(٣) ...
يَدْعُو بِحُلُوٍ بَعْدَ حَامِضٍ ...
وَبِحَارٍ بَعْدَ بَارِدٍ ...
وَبِرَطْبٍ بَعْدَ يَابِسٍ ...
حَتَّى إِذَا أَخَذَتْهُ الْكِظَةُ^(٤) تَجَشَّأُ^(٥) مِنَ الْبَشَمِ^(٦) ثُمَّ قَالَ :
يَا غُلَامُ ...

(١) عناء : تعب ونصب .

(٢) أَخْلَقْنَا أَخْلَاقَنَا : أَلْبَيْنَا أَخْلَاقَنَا .

(٣) السُّخْرَةُ : العمل قهراً وبلا أجره .

(٤) الكِظَةُ : ما يعتري الإنسان عند الامتلاء من الطعام من الضيق والألم .

(٥) تَجَشَّأُ : أخرج ريحاً من فمه مع صوت من شدة الشبع . (٦) الْبَشَمُ : الشُّخْمَةُ .

هَاتِ هَاضُوماً يَهْضِمُ الطَّعَامَ ...
يَا أُحْيِمُ^(١) - وَاللَّهِ - لَنْ تَهْضِمَ إِلَّا دِينَكَ ...
أَيْنَ جَارُكَ الْمُحْتَاجُ !!؟ .
أَيْنَ يَتِيمُ قَوْمِكَ الْجَائِعُ !!؟ .
أَيْنَ مَسْكِينُكَ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَيْكَ !!؟ .
أَيْنَ مَا وَصَّاكَ بِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ !!؟ .
لَيْتَكَ تَعْلَمُ أَنَّكَ عَدَدٌ ...
وَأَنَّهُ كُلَّمَا غَابَتْ عَنْكَ شَمْسُ يَوْمٍ نَقَصَ شَيْءٌ مِنْ عَدَدِكَ ...
وَمَضَى بَعْضُكَ مَعَهُ ...

* * *

وَفِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ مِنْ غُرَّةِ رَجَبٍ^(٢) سَنَةِ مِائَةِ وَعَشْرِ، لَبَّى الْحَسَنُ
الْبَصْرِيُّ نِدَاءَ رَبِّهِ ...
فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ وَشَاعَ فِيهِمْ نَعْيُهُ ؛ اِزْتَجَبَتْ « الْبَصْرَةُ » لِمَوْتِهِ رَجًّا ...
فَعُغِّلَ وَكُفِّنَ وَصُلِّيَ عَلَيْهِ بَعْدَ الْجُمُعَةِ فِي الْجَامِعِ الَّذِي قَضَى فِي رَحَابِهِ
جُلَّ حَيَاتِهِ عَالِمًا وَمُعَلِّمًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ .
ثُمَّ تَبَعَ النَّاسُ جَمِيعًا جَنَازَتَهُ ...
فَلَمْ تُقَمْ صَلَاةُ الْعَصْرِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي جَامِعِ « الْبَصْرَةِ » ...
لِأَنَّهُ لَمْ يَتَوَقَّ فِيهِ أَحَدٌ يُقِيمُ الصَّلَاةَ ...

(١) الأحييم: تصغير أحمق وهو القليل العقل الفاسد الرأي .

(٢) غرة رجب: الغرة من كل شيء أوله وطلعه، وغرة رجب: أول رجب .

وَلَا يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّ الصَّلَاةَ غُطِّلَتْ فِي جَامِعِ «البَصْرَةِ» مُنْذُ ابْتِنَائِهِ
الْمُسْلِمُونَ إِلَّا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ...

يَوْمَ انْتَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ إِلَى جَوَارِ رَبِّهِ (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار الحسن البصريّ انظر:

- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٥٦/٧، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٨، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٢، وغيرها من الصفحات (انظر فهرس الكتاب في المجلد الأخير).
- ٢ - صفة الصفوة لابن الجوزي: ٢٣٣/٣ - ٢٣٧ (طبعة دار الناشر بحلب).
- ٣ - حلية الأولياء للأصفهاني: ١٣١/٢ - ١٦١.
- ٤ - تاريخ خليفة بن خياط: ١٢٣، ١٨٩، ٢٨٧، ٣٣١، ٣٥٤.
- ٥ - وفیات الأعيان لابن خلكان: ٣٥٤/١ - ٣٥٦.
- ٦ - شذرات الذهب: ١٣٨/١ - ١٣٩.
- ٧ - ميزان الاعتدال: ٢٥٤/١ وما بعدها.
- ٨ - أمالي المرتضى: ١٥٢/١، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٠.
- ٩ - البيان والتبيين: ١٧٣/٢ و ١٤٤/٣.
- ١٠ - المحجر لمحمد بن حبيب: ٢٣٥، ٣٧٨.
- ١١ - كتاب الوفيات لأحمد بن حسن بن علي بن الخطيب: ١٠٨، ١٠٩.
- ١٢ - الحسن البصري لإحسان عباس.

شرح القاصي

« قِيلَ لِشُرَيْحٍ : بِأَيِّ شَيْءٍ أَصَبْتَ هَذَا الْعِلْمَ ؟ ... »

فَقَالَ : بِمُذَاكَرَةِ الْعُلَمَاءِ : أَخَذْتُ مِنْهُمْ وَأُعْطِيَهُمْ »

[سُفْيَانُ الْأَوْسِيُّ]

اِبْتِغَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَرَساً مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَعْرَابِ وَنَقَدَهُ^(١) ثَمَنَهُ ، ثُمَّ امْتَطَى^(٢) صَهْوَتَهُ وَمَضَى بِهِ .

لَكِنَّهُ مَا كَادَ يَنْتَعِدُ بِالْفَرَسِ طَوِيلاً حَتَّى ظَهَرَ فِيهِ عَطَبٌ عَاقَهُ عَنْ مُوَاصَلَةِ الْجَزْيِ ، فَأَنْشَى^(٣) بِهِ عَائِداً مِنْ حَيْثُ انْطَلَقَ ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ : خُذْ فَرَسَكَ فَإِنَّهُ مَعْطُوبٌ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : لَا أَخْذُهُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - وَقَدْ بَغْتُهُ مِنْكَ سَلِيماً صَحِيحاً . فَقَالَ عُمَرُ : اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ حَكْماً .

فَقَالَ الرَّجُلُ : يَحْكُمُ بَيْنَنَا شُرَيْحُ بْنُ الْحَارِثِ الْكِنْدِيُّ . فَقَالَ عُمَرُ : رَضِيتُ بِهِ .

* * *

اِخْتَكَمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَصَاحِبُ الْفَرَسِ إِلَى شُرَيْحٍ ، فَلَمَّا سَمِعَ شُرَيْحَ مَقَالََةَ الْأَعْرَابِيِّ ؛ التَفَتَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَقَالَ :

هَلْ أَخَذْتَ الْفَرَسَ سَلِيماً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ عُمَرُ : نَعَمْ .

(١) نقده ثمنه : دفع له ثمنه .

(٢) امتطى صهوته : ركب على ظهره ، والصهوة : مقعد الفارس من الفرس . (٣) أنشى : انعطف .

فَقَالَ شُرَيْحٌ : اَحْتَفِظْ بِمَا اسْتَرَيْتَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَوْ رُدَّ كَمَا أَخَذْتَ .

فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَى شُرَيْحٍ مُعْجَبًا ، وَقَالَ :

وَهَلِ الْقَضَاءُ إِلَّا هَكَذَا ؟ ...

قَوْلُ فَضْلٍ^(١) ، وَحُكْمُ عَدْلٍ .

سِرٌّ إِلَى « الْكُوفَةِ » فَقَدْ وَلَيْتُكَ قَضَاءَهَا .

* * *

لَمْ يَكُنْ شُرَيْحُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ وَلَاءِ عُمَرَ الْقَضَاءَ ، رَجُلًا مَجْهُولَ الْمَقَامِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْمَدَنِيِّ ، أَوْ امْرَأًا مَعْمُورًا^(٢) الْمَنْزِلَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَصْحَابِ الرَّأْيِ مِنْ جِلَّةِ^(٣) الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ .

فَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ الْفَضْلِ وَأَهْلُ السَّابِقَةِ^(٤) يُقَدِّرُونَ لِشُرَيْحٍ فُطْنَتَهُ الْحَادَّةَ وَذَكَاءَهُ الْقَدَّ ، وَخُلُقَهُ الرَّفِيعَ ، وَطُولَ تَجَرِبَتِهِ فِي الْحَيَاةِ وَعُمْقَهَا ...

فَهُوَ رَجُلٌ « يَمْنِي » الْمَوْطِنِ ، « كِنْدِي »^(٥) الْعَشِيرَةِ ، فَضْلِي شَطْرًا غَيْرَ يَسِيرٍ مِنْ حَيَاتِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

فَلَمَّا أَشْرَقَتِ الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ بِنُورِ الْهِدَايَةِ ، وَنَفَذَتْ أَشِعَّةَ الْإِسْلَامِ إِلَى أَرْضِ « الْيَمَنِ » ، كَانَ شُرَيْحٌ مِنْ أَوَائِلِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، الْمُسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَةِ الْهُدَى وَالْحَقِّ .

(١) قولُ فَضْلٍ : قَوْلٌ حَقٌّ لَا بَاطِلَ فِيهِ .

(٢) المَعْمُورُ : الْمَجْهُولُ الْخَائِلُ الذِّكْرُ .

(٣) جِلَّةُ الصَّحَابَةِ : سَادَةُ الصَّحَابَةِ وَعِظَمَاؤُهُمْ .

(٤) أَهْلُ السَّابِقَةِ : أَصْحَابُ التَّقَدُّمِ .

(٥) كِنْدِي الْعَشِيرَةُ : مَنْسُوبٌ إِلَى كِنْدَةَ [بِكَسْرِ الْكَافِ وَسُكُونِ النُّونِ] وَهِيَ قَبِيلَةٌ عَرَبِيَّةٌ عَظِيمَةٌ ظَهَرَ مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَالْعُلَمَاءِ .

وَكَانَ عَارِفُو فَضْلِهِ وَمُقَدِّرُو شَمَائِلِهِ ^(١) وَمَزَايَاهُ ؛ يَأْسُونَ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْأَسَى ،
وَيَتَمَنُّونَ أَنْ لَوْ أُتِيحَ ^(٢) لَهُ أَنْ يَفِدَ عَلَى الْمَدِينَةِ مُبَكَّرًا لِيَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ
أَنْ يَلْحَقَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، وَلِيَنْهَلَ مِنْ مَوَارِدِهِ ^(٣) الصَّافِيَةِ الْمُصَفَّاءِ مُبَاشَرَةً
لَا بِالْوَسَاطَةِ ...

وَلَكِنِّي يَحْظَلِي بِشَرَفِ الصُّحْبَةِ بَعْدَ أَنْ حَظَيْتُ بِنِعْمَةِ الْإِيمَانِ ...
وَبِذَلِكَ يَجْمَعُ الْحَيْرُ مِنْ أَطْرَافِهِ ...
وَلَكِنَّ مَا قُدِّرَ كَانَ ...

* * *

وَلَمْ يَكُنِ الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، مُتَعَجِّلاً حِينَ عَهْدَ بِمَنْصِبٍ مِنْ
مَنَاصِبِ الْقَضَاءِ الْكُبْرَى لِرَجُلٍ مِنَ التَّابِعِينَ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سَمَاءَ الْإِسْلَامِ
كَانَتْ يَوْمَئِذٍ مَا تَزَالُ تَتَأَلَّقُ بِالنُّجُومِ الزُّهْرِ ^(٤) مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... فَقَدْ
أَثْبَتَتِ الْأَيَّامُ صِدْقَ فِرَاسَةِ ^(٥) عُمَرَ ، وَصَوَابَ تَذْيِيرِهِ ...

إِذْ ظَلَّ شُرَيْحٌ يَقْضِي بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ نَحْوًا مِنْ سِتِينَ عَامًا مُتَتَابِعَةً مِنْ غَيْرِ
انْقِطَاعٍ ...

وَقَدْ تَعَاقَبَ عَلَى إِفْرَارِهِ فِي مَنْصِبِهِ كُلِّ مِنْ عُمَرَ ، وَعُثْمَانَ ^(٦) ، وَعَلِيٍّ ،
وَمُعَاوِيَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ...

(١) شمائله : أخلاقه ومزاياه .

(٢) أُتِيحَ لَهُ : قُدِّرَ لَهُ .

(٣) ينهل من موارده : يَرْتَوِي مِنْ بَنَائِعِهِ .

(٤) النجوم الزُّهْرُ : النجوم المضيئة المتألقة .

(٥) الفراسة : دِقَّةُ التَّوَقُّعِ .

(٦) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

كَمَا أَقَرَّهُ عَلَى ذَلِكَ مَنْ جَاءَ بَعْدَ مُعَاوِيَةَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » ، حَتَّى
طَلَبَ الرَّجُلُ إِغْفَاءَهُ مِنْ مَنْصِبِهِ إِثْبَانًا^(١) وَلَايَةِ الْحَجَّاجِ .

وَكَانَ قَدْ بَلَغَ السَّابِعَةَ بَعْدَ الْمِائَةِ مِنْ حَيَاتِهِ الْمَدِيدَةِ الرَّشِيدَةِ الْحَافِلَةِ
بِالْمَفَاجِرِ وَالْمَآثِرِ^(٢) .

وَلَقَدْ اِزْدَانَ تَارِيخُ الْقَضَاءِ فِي الْإِسْلَامِ بَيِّنَاتٍ مِنْ مَوَاقِفِ شُرَيْحٍ ، وَرَهَا
بِرَوَائِعِ مِنْ أَنْصِياعٍ^(٣) خَاصَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ لِشَرَعِ اللَّهِ الَّذِي يُمَثِّلُهُ شُرَيْحٌ ،
وَنُزُولِهِمْ عِنْدَ أَحْكَامِهِ ...

وَأَمْتَلَأَتْ بُطُونُ الْكُتُبِ بِطَرَائِفِ هَذَا الرَّجُلِ الْفَذِّ وَأَخْبَارِهِ ، وَأَقْوَالِهِ
وَأَفْعَالِهِ .

* * *

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ افْتَقَدَ دِرْعًا لَهُ كَانَتْ
أَثِيرَةً^(٤) عِنْدَهُ غَالِيَةً عَلَيْهِ ...

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ وَجَدَهَا فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ^(٥) يَبِيعُهَا فِي سُوقِ
« الْكُوفَةِ » ...

فَلَمَّا رَأَاهَا عَرَفَهَا وَقَالَ :

هَذِهِ دِرْعِي سَقَطَتْ عَنْ جَمَلٍ لِي فِي لَيْلَةٍ كَذَا ... وَفِي مَكَانٍ كَذَا ...
فَقَالَ الذِّمِّيُّ : بَلْ هِيَ دِرْعِي وَفِي يَدِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

(١) إِثْبَانٌ : حِينَ .

(٢) الْمَآثِرُ : الْأَفْعَالُ الْحَمِيدَةُ ذَوَاتُ الْأَثَارِ الْجَلِيلَةِ .

(٣) الْأَنْصِياعُ : الْإِتْبَاعُ .

(٤) أَثِيرَةٌ عِنْدَهُ : عَزِيزَةٌ عَلَيْهِ .

(٥) أَهْلُ الذِّمَّةِ : مَنْ يَعْشُونَ فِي دِيَارِ الْإِسْلَامِ مِنَ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ .

فَقَالَ عَلِيٌّ : إِنَّمَا هِيَ دِرْعِي لَمْ أَبْغَهَا مِنْ أَحَدٍ ، وَلَمْ أَهْبَهَا لِأَحَدٍ حَتَّى
تَصِيرَ إِلَيْكَ ...

فَقَالَ الذَّمِّيُّ : بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَاضِي الْمُسْلِمِينَ ...

فَقَالَ عَلِيٌّ : أَنْصَفْتَ ؛ فَهَلُمَّ إِلَيْهِ (١) ...

ثُمَّ إِنَّهُمَا ذَهَبَا إِلَى شُرَيْحِ الْقَاضِي ، فَلَمَّا صَارَا عِنْدَهُ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ ،
قَالَ شُرَيْحٌ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :
مَا تَقُولُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ : لَقَدْ وَجَدْتُ دِرْعِي هَذِهِ مَعَ هَذَا الرَّجُلِ ، وَقَدْ سَقَطَتْ مِنِّي فِي لَيْلَةٍ
كَذَا وَفِي مَكَانٍ كَذَا ، وَهِيَ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ لَا بِبَيْعٍ وَلَا هِبَةٍ .
فَقَالَ شُرَيْحٌ لِلذَّمِّيِّ : وَمَا تَقُولُ أَنْتَ أَتَيْهَا الرَّجُلُ ؟ .

فَقَالَ : الدَّرْعُ دِرْعِي وَهِيَ فِي يَدِي ...

وَلَا أَنْتُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَذِبِ ...

فَالْتَفَتَ شُرَيْحٌ إِلَى عَلِيٍّ وَقَالَ :

لَا رَيْبَ (٢) عِنْدِي فِي أَنَّكَ صَادِقٌ فِيمَا تَقُولُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّ الدَّرْعَ
دِرْعُكَ ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ شَاهِدَيْنِ يَشْهَدَانِ عَلَى صِحَّةِ مَا ادَّعَيْتَ .

فَقَالَ عَلِيٌّ : نَعَمْ ...

مَوْلَايَ (٣) « قَنْبَرٌ » ، وَوَلَدِي الْحَسَنُ يَشْهَدَانِ لِي ...

فَقَالَ شُرَيْحٌ :

(٣) مولاي : عدي .

(٢) لا ريب : لا شك .

(١) فهلم إلي : فبادر إليه .

وَلَكِنَّ شَهَادَةَ الْإِنِّ لِأَيِّهِ لَا تَجُوزُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ عَلِيٌّ : يَا سُبْحَانَ اللَّهِ !! ...

رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَا تَجُوزُ شَهَادَتُهُ !! ...

أَمَّا سَمِعْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

(الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ) .

فَقَالَ شُرَيْحٌ : بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

غَيْرَ أَنِّي لَا أُجِيزُ شَهَادَةَ الْوَلَدِ لِوَالِدِهِ .

عِنْدَ ذَلِكَ انْتَفَتَّ عَلَيَّ إِلَى الذُّمِّيِّ وَقَالَ :

خُذْهَا ، فَلَيْسَ عِنْدِي شَاهِدٌ غَيْرُهُمَا ...

فَقَالَ الذُّمِّيُّ :

وَلَكِنِّي أَشْهَدُ بِأَنَّ الدُّرْعَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

ثُمَّ أَرَدَفَ (١) قَائِلًا : يَا لِلَّهِ ...

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يُقَاضِيَنِي أَمَامَ قَاضِيهِ !! ...

وَقَاضِيهِ يَقْضِيَنِي لِي عَلَيْهِ !! ...

أَشْهَدُ أَنَّ الدِّينَ الَّذِي يَأْمُرُ بِهَذَا لَحَقٌّ ...

وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ...

اعْلَمْ أَيُّهَا الْقَاضِي أَنَّ الدُّرْعَ دِرْعُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّنِي اتَّبَعْتُ الْجَيْشَ

(١) أَرَدَفَ : أَضَافَ .

وَهُوَ مُنْطَلِقٌ إِلَى « صِفِّينَ »^(١)، فَسَقَطَتِ الدَّرْعُ عَنْ جَمَلِهِ الْأَوْزَقِ^(٢) فَأَخَذَتْهَا .

فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

أَمَّا وَإِنَّكَ قَدْ أَسْلَمْتَ فَإِنِّي وَهَبْتُهَا لَكَ ...

وَوَهَبْتُ لَكَ مَعَهَا هَذَا الْفَرَسَ أَيْضاً .

وَلَمْ يَمُضِ عَلَى هَذَا الْحَادِثِ زَمَنٌ طَوِيلٌ ، حَتَّى شُوهِدَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ
الْخَوَارِجَ^(٣) تَحْتَ رَايَةِ عَلِيٍّ فِي يَوْمِ « النَّهْرَوَانِ »^(٤) ، وَيُْمَعِنُ فِي الْقِتَالِ حَتَّى
كُتِبَتْ لَهُ الشَّهَادَةُ .

* * *

وَمِنْ رَوَائِعِ شُرَيْحٍ أَيْضاً أَنَّ ابْنَهُ قَالَ لَهُ يَوْمًا :

يَا أَبَتِ إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمٍ حُصُومَةً ، فَأَنْظُرْ فِيهَا ... فَإِنْ كَانَ الْحَقُّ لِي
قَاضِيَهُمْ^(٥) ، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ صَالِحُهُمْ ... ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ .

فَقَالَ لَهُ : انْطَلِقْ فَقَاضِيَهُمْ ...

فَمَضَى إِلَى حُصُومِهِ وَدَعَاهُمْ إِلَى الْمُقَاضَاةِ ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ .

وَلَمَّا مَثَلُوا^(٦) بَيْنَ يَدَيْ شُرَيْحٍ ، قَضَى لَهُمْ عَلَى وَلَدِهِ ...

فَلَمَّا رَجَعَ شُرَيْحٌ وَابْنُهُ إِلَى الْبَيْتِ قَالَ الْوَلَدُ لِأَبِيهِ :

فَضَحَّحْتَنِي يَا أَبَتِ ...

(١) صِفِّينَ : موضع بقرب الرِّقَّةِ من سوربة وقعت فيه وقعة كبيرة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما .

(٢) الْأَوْزَقُ : الذي لونه لون الزَّمَادِ .

(٣) الْخَوَارِجُ : كانوا من أتباع عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وخرجوا عليه لخلاف في الآراء ، وتطلق عَلَى من خرج على الخلفاء ، ونحوهم .

(٤) يوم النهروان : واقعة جرت بين الإمام عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبين الخوارج .

(٥) قَاضِيَهُمْ : رفعت أمرهم إلى القضاء .

(٦) مَثَلُوا : يُقَالُ مَثَلَ فُلَانٍ بَيْنَ يَدَيْ فُلَانٍ أَيِ قَامَ مُتَّصِباً بَيْنَ يَدَيْهِ .

وَاللَّهُ لَوْ لَمْ أَسْتَشِرْكَ مِنْ قَبْلُ لَمَا لُمْتُكَ .

فَقَالَ شُرَيْحُ :

يَا بُنَيَّ ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِنْ أَمْثَالِهِمْ ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْكَ ...

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَخْبِرَكَ بِأَنَّ الْحَقَّ لَهُمْ ؛ فَتَصَالِحَهُمْ صُلْحاً يُفَوِّتُ عَلَيْهِمْ
بَعْضَ حَقِّهِمْ ، فَقُلْتُ لَكَ مَا قُلْتُ .

* * *

وَقَدْ كَفَلَ وَلَدٌ لَشُرَيْحٍ رَجُلًا فَقَبِلَ كَفَالَتَهُ ، فَمَا كَانَ مِنَ الرَّجُلِ إِلَّا أَنْ فَرَّ
هَارِباً مِنْ يَدِ الْقَضَاءِ .

فَسَجَنَ شُرَيْحٌ وَلَدَهُ بِالرَّجُلِ الْفَارِّ ...

وَكَانَ يَثْقُلُ لَهُ طَعَامُهُ بِيَدِهِ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى السَّجَنِ .

* * *

وَكَانَتِ الشُّكُوكُ تُسَاوِرُ^(١) شُرَيْحاً - أحياناً - فِي بَعْضِ الشُّهُودِ ...

غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَجِدُ سَبِيلاً لِدَفْعِ شَهَادَتِهِمْ ؛ لِمَا تَوَافَرَ لَهُمْ مِنْ شُرُوطِ الْعَدَالَةِ ،
فَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْلُوا^(٢) بِشَهَادَتِهِمْ :

اسْمَعُوا مِنِّي هَذَا كُمْ اللَّهُ .

إِنَّمَا يَقْضِي عَلَى هَذَا الرَّجُلِ أَنْتُمْ ...

وَلِيَّيْ لَا تَقْبِي النَّارَ بِكُمْ ، وَأَنْتُمْ بِاتِّقَائِهَا أَوْلَى ...

وَإِنْ فِي وَسْعِكُمْ الْآنَ أَنْ تَدْعُوا الشَّهَادَةَ وَتَمْضُوا .

(١) تُسَاوِرُ شُرَيْحاً : تُلِمُّ بِشُرَيْحٍ وَتَسْتَوِلِي عَلَى فِكْرِهِ . (٢) يَدْلُونَ بِشَهَادَتِهِمْ : يَحْضُرُونَ شَهَادَتَهُمْ وَيُغْلَنُونَهَا .

فَإِذَا أَصْرُوا عَلَى الشُّهَادَةِ ، التَفَتَ إِلَى الَّذِي يَشْهَدُونَ لَهُ وَقَالَ :
 اعْلَمُ يَا هَذَا أَنَّنِي أَقْضِي لَكَ بِشَهَادَتِهِمْ ...
 وَإِنِّي لَأَرَى أَنَّكَ ظَالِمٌ ...
 وَلَكِنِّي لَسْتُ أَقْضِي بِالظَّنِّ ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بِشَهَادَةِ الشُّهُودِ ...
 وَإِنْ قَضَائِي مَا يُحِلُّ لَكَ شَيْئًا حَرَمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ .

* * *

وَكَانَ الشُّعَارُ^(١) الَّذِي يُرَدِّدُهُ شُرَيْخٌ فِي مَجَالِسِ قَضَائِهِ قَوْلَهُ :
 عَدَا سَيَعْلَمُ الظَّالِمُ مِنَ الْخَاسِرِ ؟ .
 إِنَّ الظَّالِمَ يَنْتَظِرُ الْعِقَابَ ...
 وَإِنَّ الْمَظْلُومَ يَنْتَظِرُ النِّصْفَةَ^(٢) ...
 وَإِنِّي أَخْلِفُ بِاللَّهِ ، أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ أَحْسَ
 بِفَقْدِهِ ...

* * *

وَلَمْ يَكُنْ شُرَيْخٌ نَاصِحًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ فَحَسِبْتُ ، وَإِنَّمَا كَانَ نَاصِحًا
 لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَخَاصَّتِهِمْ أَيْضًا .
 رَوَى أَحَدُهُمْ قَالَ :
 سَمِعَنِي شُرَيْخٌ وَأَنَا اسْتَكِي بَعْضَ مَا عَمَّنِي لِصَدِيقٍ ، فَأَخَذَنِي مِنْ يَدِي
 وَاتَّحَى^(٣) بِي جَانِبًا ، وَقَالَ :

(١) الشُّعَارُ : كلمة مخصوصة يعبر بها المرء عن فكره واعتقاده .

(٢) النصفه : الإنصاف والعدل .

(٣) اتتحى بي : مال بي .

يَا بَنَ أَخِي ... إِيَّاكَ وَالشُّكُوى لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...
فَإِنَّ مَنْ تَشْكُو إِلَيْهِ لَا يَحُلُو أَنْ يَكُونَ صَدِيقاً أَوْ عَدُوّاً ...
فَأَمَّا الصَّدِيقُ فَتُحْزِنُهُ ...
وَأَمَّا الْعَدُوُّ فَيَشْمَتُ بِكَ ...
ثُمَّ قَالَ :

انْظُرْ إِلَى عَيْنِي هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى إِحْدَى عَيْنَيْهِ - فَوَاللَّهِ مَا أَبْصَرْتُ بِهَا
شَخْصاً وَلَا طَرِيقاً مُنْذُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ...
وَلَكِنِّي مَا أَخْبَرْتُ أَحَدًا بِذَلِكَ إِلَّا أَنْتَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ ...
أَمَّا سَمِعْتَ قَوْلَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ ^(١) :
﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ^(٢) .
فَاجْعَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَشْكَاكَ ^(٣) وَمَحْزَنَكَ عِنْدَ كُلِّ نَائِبَةٍ ^(٤) تَتَوْبُكَ ...
فَإِنَّهُ أَكْرَمُ مَسْئُولٍ وَأَقْرَبُ مَدْعُوٍّ ...

* * *

وَقَدْ رَأَى ذَاتَ يَوْمٍ رَجُلًا يَسْأَلُ آخَرَ شَيْئًا فَقَالَ لَهُ :
يَا بَنَ أَخِي مَنْ سَأَلَ إِنْسَانًا حَاجَةً فَقَدْ عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى الرُّقِّ .
فَإِنْ قَضَاهَا لَهُ الْمَسْئُولُ فَقَدْ اسْتَعْبَدَهُ بِهَا ...
وَإِنْ رَدَّه عَنْهَا رَجَعَ كِلَاهُمَا ذَلِيلًا ...

(١) الْعَبْدُ الصَّالِحُ : هُوَ يَعْقُوبُ أَبُو يُوسُفَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .
(٢) سُورَةُ يُوسُفَ : ٨٦ . (٣) مَشْكَاكُكَ وَمَحْزَنُكَ : مَنْ تَشْكُو إِلَيْهِ وَتَحْزَنُ لَدَيْهِ . (٤) نَائِبَةٌ : مُصِيبَةٌ .

هَذَا يَذُلُّ الْبُخْلَ ...
وَذَاكَ يَذُلُّ الرَّدَّ ...
فَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ .
وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ .
وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ وَلَا عَوْنَ إِلَّا بِاللَّهِ .

* * *

وَقَدْ وَقَعَ « بِالْكُوفَةِ » طَاعُونٌ^(١) فَخَرَجَ صَدِيقٌ لِشُرَيْحٍ مِنْهَا إِلَى
« النَّجَفِ »^(٢) يَتَتَبَعِي الْمَهْرَبَ مِنَ الْوَبَاءِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ شُرَيْحٌ :
أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي تَرَكْتَهُ لَا يُقَرَّبُ حِمَامَكَ^(٣) ؛ وَلَا يَسْلُبُ
مِنْكَ أَيَّامَكَ ...

وَإِنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي صِرْتَ إِلَيْهِ فِي قَبْضَةٍ مَنْ لَا يُعْجِزُهُ طَلَبٌ ، وَلَا يَفُوتُهُ
هَرَبٌ ...

وَأَنَا وَإِيَّاكَ لَعَلَى بَسَاطِ مَلِكٍ وَاحِدٍ ...
وَإِنَّ « النَّجَفَ » مِنْ ذِي قُدْرَةٍ لَقَرِيبٌ ...

* * *

وَكَانَ شُرَيْحٌ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ شَاعِرًا قَرِيبَ الْمَأْخِذِ لِحُلُوِّ الْأَذَاءِ طَرِيفَ
الْمَوْضُوعَاتِ .

رُويَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَهُ صَبِيٌّ فِي نَحْوِ الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ ؛ وَكَانَ الصَّبِيُّ
مُؤَثِّرًا لِلْهَوَى ، مُولَعًا بِاللَّعِبِ .

(١) الطاعون : نَزْعٌ مِنَ الْوَبَاءِ . (٢) النجف : من أعمال العراق . (٣) حِمَامَكَ : موتك وميتك .

فَافْتَقَدَهُ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ تَرَكَ الْكُتَّابَ وَمَضَى يَتَفَرَّجُ عَلَى الْكِلَابِ .
 فَلَمَّا عَادَ إِلَى الْمَنْزِلِ سَأَلَهُ : أَصَلَّيْتَ ؟ .
 فَقَالَ : لَا .

فَدَعَا بِقِرطَاسٍ ^(١) وَقَلَمٍ ، وَكَتَبَ إِلَى مُؤَدِّبِهِ يَقُولُ :

تَرَكَ الصَّلَاةَ لِأَكْلِهَا ^(٢) يَسْعَى لَهَا يَفْغِي الْهَرَّاشَ ^(٣) مَعَ الْغَوَاةِ الرَّجْسِ ^(٤)
 فَلَيَأْتِيَنَّكَ غُدُوَّةٌ بِصَحِيفَةٍ كُتِبَتْ لَهُ كَصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ ^(٥)
 فَإِذَا أَتَاكَ فَدَاوَاهِ بِمَلَامَةٍ أَوْ عِظْهُ مَوْعِظَةَ الْأَدِيبِ الْكَيْسِ ^(٦)
 وَإِذَا هَمَمْتَ بِضَرْبِهِ فَبِدْرَةٍ ^(٧) وَإِذَا بَلَغْتَ ثَلَاثَةً لَكَ فَاحْبِسِ
 وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ - مَا أَتَيْتَ - فَتَنْفُسُهُ - مَعَ مَا يُجَرِّعُنِي - أَعَزُّ الْأَنْفُسِ

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْفَارُوقِ ، فَقَدْ زَانَ مَفْرَقَ ^(٨) الْقَضَاءِ فِي الْإِسْلَامِ بِلُؤْلُؤَةٍ
 كَرِيمَةٍ الْأَعْرَاقِ ^(٩) ...

صَافِيَةِ الْجَوْهَرِ ...

رَائِعَةِ الْمُجْتَلَى ...

(١) دعا بقِرطَاسٍ : طلب ورقاً .

(٢) الأكلب : الكلاب .

(٣) الهراش : مهارشة بعض الكلاب على بعض .

(٤) الرجس : مارسو الأعمال القبيحة .

(٥) صحيفة التلمس : يضرب بها المثل في الشؤم وكان مكتوباً فيها : « إذا جاءك حامل هذه الصحيفة فاقتله » .

(٦) الكيس : الذكي اللبق .

(٧) الدرة : ما يُضْرَبُ بِهِ .

(٨) المفرق : مفرد وجمعه مفارق ... ومفارق القضاء : وجوهه الواضحة .

(٩) الأعراق : الأصول .

وَحَبَا^(١) الْمُسْلِمِينَ مُصْبَحاً مُنِيراً؛ مَا زَالُوا حَتَّى الْيَوْمِ يَسْتَضِيئُونَ بِسَنَّا
فَقْهِهِ لِشَرْعِ اللَّهِ ...

وَيَهْتَدُونَ بِنُورِ فَهْمِهِ لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ...

وَيُبَاهُونَ بِهِ الْأُمَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَرَحِمَ اللَّهُ شُرَيْحاً الْقَاضِي ...

فَقَدْ أَقَامَ الْعَدْلَ بَيْنَ النَّاسِ سِتِّينَ عَاماً .

فَمَا حَافَ (٢) عَلَى أَحَدٍ .

وَلَا حَادَ (٣) عَنْ حَقٍّ .

وَلَا مَيَّرَ بَيْنَ مَلِكٍ وَسُوقَةٍ (٤) (*) ...

(١) حبا المسلمين : منح المسلمين .

(٢) حاف : جار وظلم .

(٣) حاد : مال .

(٤) السوقة : عاتمة الناس .

(*) للاستزادة من أخبار شُرَيْحِ الْقَاضِي انظر :

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ١١/٦ ، ٣٤ ، ٩٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٧٠ ، ٢٠٦ ، ٢٦٨ و ١٥١/٧ ، ١٩٤ ، ٤٥٣ و ٤٩٤/٨ .

٢ - صفة الصفوة لابن الجوزي (طبعة حلب) : ٣٨/٣ .

٣ - حلية الأولياء للأصفهاني : ٢٥٦/٤ - ٢٥٨ .

٤ - تاريخ الطبري لابن جرير الطبري : الأجزاء الرابع والخامس والسادس (انظر الفهارس في الجزء العاشر) .

٥ - تاريخ خليفة بن خياط : ١٢٩ ، ١٥٨ ، ١٨٤ ، ٢١٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ .

٦ - شذرات الذهب : ٨٥/١ - ٨٦ .

٧ - فوات الوفيات : ١٦٧/٢ - ١٦٩ .

٨ - كتاب الوفيات لأحمد بن حسن بن علي بن الخطيب : ٨٠ - ٨١ .

٩ - المحرر لمحمد بن حبيب : ٣٠٥ ، ٣٨٧ .

١٠ - دائرة المعارف لفريد وجمدي : ٣٧٣/٥ ، ٤٧٣ .

مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ

« مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَفْقَهَ فِي وَرَعِهِ ، وَلَا أَوْزَعَ فِي فِقْهِهِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ »

[مُورِقُ الْعَجَلِيّ]

عَزَمَ « سِيرِينَ » عَلَى أَنْ يَسْتَكْمِلَ شَطْرَ دِينِهِ ^(١) بَعْدَ أَنْ حَزَرَ أَنْتُسُ بْنُ مَالِكٍ ^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَقَبَتَهُ ، وَبَعْدَ أَنْ غَدَتْ حِرْفَتُهُ تُدِرُّ ^(٣) عَلَيْهِ الرَّبْحَ الْوَفِيرَ وَالْخَيْرَ الْكَثِيرَ ... فَقَدْ كَانَ نَحَاسًا مَاهِرًا يُتَّقِنُ صِنَاعَةَ الْقُدُورِ .

وَقَدْ وَقَعَ اخْتِيَارُهُ عَلَى مَوْلَاةٍ ^(٤) لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تُدْعَى « صَفِيَّةً » لِتَكُونَ زَوْجَةً لَهُ .

* * *

كَانَتْ « صَفِيَّةٌ » جَارِيَةً فِي بَوَاكِرِ ^(٥) الشَّبَابِ ، وَضِيئَةً الْوَجْهِ ، ذَكِيَّةَ الْفُؤَادِ ، كَرِيمَةَ السَّمَائِلِ ، نَبِيلَةَ الْخَصَائِلِ ، مُحَبَّبَةً إِلَى كُلِّ مَنْ عَرَفَهَا مِنْ نِسَاءِ الْمَدِينَةِ .

لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الشُّوَابِ ^(٦) اللَّوَاتِي تَرْبُطُهُنَّ بِهَا وَشَائِجُ الْيَفَاعَةِ ^(٧) ، وَبَيْنَ الْمُسِنَّاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ يَرِيئُهَا صِنُوعًا ^(٨) لَهُنَّ فِي رَجَاحَةِ الْعَقْلِ ، وَرِصَانَةِ السُّلُوكِ .

وَكَانَتْ أَشَدَّ النَّسَاءِ حُبًّا لَهَا زَوْجَاتُ الرُّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَلَا سِيَّمًا السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

* * *

(١) يستكمل شَطْرَ دِينِهِ : يَتَزَوَّجُ .

(٢) انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٣) تُدِرُّ عَلَيْهِ : تفيض عليه .

(٤) مَوْلَاةٌ : أَمَةٌ .

(٥) الشَّبَابُ : جمع شَابَةٍ وهي المرأة في مقتبل العمر .

(٦) شَائِجُ الْيَفَاعَةِ : روابط الفتوة .

(٧) مَوْلَاةٌ : أَمَةٌ .

(٨) صِنُوعًا : مثيلاً .

(٩) البَوَاكِرُ : جمع باكورة ، وهي أوَّلُ الشَّيْءِ .

تَقَدَّمَ « سِيرِينُ » إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَخَطَبَ مِنْهُ مَوْلَاتَهُ « صَفِيَّةَ » .
 فَبَادَرَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْبَحْثِ عَنْ دِينِ الْخَاطِبِ وَخُلُقِهِ ، كَمَا
 يُبَادِرُ الْأَبُ الشَّفِيقُ الْحَانِي لِلْبَحْثِ عَنْ حَالِ خَاطِبِ بَنْتِهِ ...
 وَلَا غَرَوْ^(١) ، فَقَدْ كَانَتْ « صَفِيَّةُ » تَحْتَلُّ مِنْ نَفْسِ أَبِي بَكْرٍ مَنْزِلَةَ الْوَلَدِ مِنْ
 أَبِيهِ ... ثُمَّ إِنَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَمَانَةٌ أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِي عُنُقِهِ .
 فَمَضَى يَسْتَقْصِي أَحْوَالَ « سِيرِينِ » أَشَدَّ الْإِسْتِقْصَاءِ ، وَيَتَّبِعُ سِيرَتَهُ أَدَقَّ
 التَّتَبُّعِ .

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ مَنْ سَأَلَهُمْ عَنْهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ
 أَنَسُ :

رَوَّجَهَا مِنْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَخْشَ عَلَيْهَا بَأْسًا ، فَمَا عَرَفْتُهُ إِلَّا صَحِيحَ
 الدِّينِ رَضِيَ الْخُلُقِ ، مَوْفُورَ الْمَرْوَةِ^(٢) ...

وَلَقَدْ ارْتَبَطَتْ أَسْبَابُهُ بِأَسْبَابِي مُنْذُ سَبَاهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي مَعْرَكَةِ « عَيْنِ
 التَّمْرِ »^(٣) مَعَ أَرْبَعِينَ غُلَامًا ، وَجَاءَ بِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ ...

فَكَانَ « سِيرِينُ » مِنْ نَصِيبِي ، وَكُنْتُ مَحْظُوظًا بِهِ ...

* * *

وَأَفَقَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى تَزْوِيجِ « صَفِيَّةَ » مِنْ « سِيرِينِ » .
 وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَبْرَهَا كَمَا يَبْرُ الْأَبُ الشَّفِيقُ ابْنَتَهُ الْأَثِيرَةَ^(٤) فَأَقَامَ
 لِإِمْلَاكِهَا^(٥) حَفْلًا قَلَمًا ظَهَرَتْ بِمِثْلِهِ فَتَاةٌ مِنْ فَتَيَاتِ الْمَدِينَةِ ...

(١) ولا غرو: ولا عجب .

(٢) موفور المروءة: تام النخوة كامل الرجولة .

(٤) الأثيرة: المفضلة المحببة .

(٣) عين التمر: بلدة غربي الكوفة، افتتحها خالد بن الوليد في خلافة الصديق .

(٥) إملاكيها: تزويجها .

فَقَدْ شَهِدَ إِمْلَاكُهَا طَائِفَةً كَبِيرَةً مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ .

وَكَانَ فِيهِمْ ثَمَانِيَّةَ عَشَرَ بَدْرِيًّا^(١)...

وَدَعَا لَهَا كَاتِبٌ وَحْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَبِي بَنْ كَعْبٍ ...

وَأَمَّنَ عَلَى دُعَائِهِ الْحَاضِرُونَ ...

وَطَيَّبَتْهَا وَرَيَّتُهَا ثَلَاثَ مِنْ أَمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِنَ حِينَ زُفَّتْ

إِلَى رَوْحِهَا ...

وَقَدْ كَانَ مِنْ ثَمَرَاتِ هَذَا الزَّوْاجِ الْمُبَارَكِ أَنْ رُزِقَ الْأَبْوَانِ غُلَامًا ؛ غَدَا بَعْدَ

عِقْدَيْنِ^(٢) مِنَ الزَّمَانِ عِلْمًا مِنْ أَعْلَامِ التَّابِعِينَ ، وَرَجُلًا مِنْ أَفْدَاذِ الْمُسْلِمِينَ هُوَ « مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ » .

فَتَعَالَوْا نَبْدَأْ قِصَّةَ حَيَاةِ هَذَا التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ مِنْ أَوَّلِهَا ...

* * *

وُلِدَ « مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ » لِسِنَتَيْنِ بَقِيَّتَا مِنْ خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ

عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَرُبِّي فِي بَيْتٍ يَتَضَوُّعُ^(٣) الْوَرَعُ وَالثَّقَلَى مِنْ كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهِ ...

وَلَمَّا أَفِغَعَ^(٤) الْغُلَامُ الْأَرِيْبُ اللَّيْبُ ، وَجَدَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

يَزْخَرُ^(٥) بِالْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ مِنْ أَمْثَالِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ،

وَأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ ، وَعُمَرَانِ بْنِ الْحُصَيْنِ ...

وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ .

(١) البدرى : من شهد يوم بدر مع رسول الله ﷺ .

(٢) العقد : عشر سنوات .

(٣) يتضوع : ينتشر انتشار المسك .

(٤) أفغع : يمتلئ .

(٥) يزخر : ينتشر انتشار المسك .

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ الطَّامِي عَلَى الْمَوْرِدِ الْعَذْبِ ...
وَنَهَلَ مِنْ عِلْمِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَفَقَّهِهِمْ بِدِينِ اللَّهِ ، وَرَوَايَتِهِمْ لِحَدِيثِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَفْعَمَ ^(١) عَقْلُهُ حِكْمَةً وَعِلْماً ، وَأَثَرَعَ نَفْسَهُ صِلَاحاً وَهَدِياً ...
ثُمَّ انْتَقَلَتِ الْأُسْرَةُ مَعَ فَتَاهَا الْفَذُّ ^(٢) إِلَى « الْبَصْرَةِ » وَاتَّخَذَتْهَا لَهَا
مَوْطِئاً ...

* * *

كَانَتْ « الْبَصْرَةُ » يَوْمَئِذٍ مَدِينَةً شَابَّةً بِكْرًا ...
فَقَدْ اخْتَطَّهَا الْمُسْلِمُونَ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
وَكَانَتْ تُمَثِّلُ جُلَّ ^(٣) خَصَائِصِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ .
فَهِيَ قَاعِدَةٌ عَسْكَرِيَّةٌ لِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْغَازِيَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...
وَهِيَ مَوْكَزٌ مِنْ مَوَازِيِرِ التَّعْلِيمِ وَالتَّوْجِيهِ لِلدَّاخِلِينَ فِي دِينِ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ
« الْعِرَاقِ » وَ« فَارِسَ » ...

وَهِيَ صُورَةٌ لِلْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَجَازِ الَّذِي يَعْمَلُ لِدُنْيَاهُ كَأَنَّهُ يَعْيشُ
أَبَدًا ، وَيَعْمَلُ لِأُخْرَاهُ كَأَنَّهُ يَمُوتُ غَدًا ...

* * *

سَلَكَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ فِي حَيَاتِهِ الْجَدِيدَةِ فِي « الْبَصْرَةِ » طَرِيقَيْنِ
مُتَوَازَيْنِ مُتَوَازَيْنِ :

فَجَعَلَ شَطْرًا مِنْ يَوْمِهِ لِلْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ ...
وَشَطْرًا آخَرَ لِلْكَسْبِ وَالتَّجَارَةِ .

(٣) جُلَّ : أَكْثَرُ .

(٢) الْفَذُّ : الْفَرِيدُ الْمُمَيَّزُ .

(١) أَفْعَمَ : مَلَأَ .

فَكَانَ إِذَا انْبَجَ فَجْرُ الْمَجَرِّ وَأَشْرَقَتِ الدُّنْيَا بِنُورِ رَبِّهَا؛ غَدَا إِلَى مَسْجِدِ
«البَصْرَةِ» يُعَلِّمُ وَيَتَعَلَّمُ .

حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ النَّهَارُ مَضَى مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَى الشُّوقِ يَبِيعُ وَيَشْتَرِي ...
فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ وَأَرْخَى عَلَى الْكَوْنِ سُدُولَهُ^(١) صَفَّ فِي مِحْرَابِ بَيْتِهِ ،
وَانْحَنَى عَلَى أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ بِصُلْبِهِ ، وَبَكَى مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بِدُمُوعِ عَيْنَيْهِ
وَقَلْبِهِ ...

حَتَّى يُشْفِقَ عَلَيْهِ أَهْلُهُ وَجِيرَانُهُ الْأَذْنُونَ^(٢) لِمَا يَسْمَعُونَهُ مِنْ نَحِيهِ الَّذِي
يُقَطِّعُ نِيَاطَ الْقُلُوبِ^(٣) .

* * *

وَكَانَ - وَهُوَ يَطُوفُ بِالشُّوقِ فِي النَّهَارِ لِلْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ - لَا يَفْتَأُ يَذْكُرُ النَّاسَ
بِالْآخِرَةِ ... وَيُبْصِرُهُمْ بِالدُّنْيَا ...

وَيُزِيدُهُمْ إِلَى مَا يُقَرُّهُمْ إِلَى اللَّهِ ...

وَيَفْصِلُ فِيمَا يَشْجُرُ^(٤) بَيْنَهُمْ مِنْ خِلَافٍ .

وَكَانَ يُطْرِفُهُمْ^(٥) بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ بِالمُلْحَةِ^(٦) الَّتِي تَمْسَحُ الْهَمَّ عَنْ
نُفُوسِهِمُ الْمَكْدُودَةِ ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ ذَلِكَ مِنْ هَيْبَتِهِ وَوَقَارِهِ عِنْدَهُمْ شَيْئًا .
فَقَدْ وَهَبَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ هَدِيًّا وَسَمَتَا^(٧) ، وَمَنَحَهُ قَبُولًا وَتَأْثِيرًا ...

(١) سُدُولُهُ : أَسْتَارُهُ .

(٢) جِيرَانُهُ الْأَذْنُونَ : جِيرَانُهُ الْأَقْرَبُونَ الْمَلَاصِقُونَ .

(٣) النِّيَاطُ : جَمْعٌ مِفْرَدُهُ نَوَاطٌ ، وَهُوَ عَرَقٌ مَعْلَقٌ بِالْقَلْبِ إِذَا انْقَطَعَ مَاتَ الْإِنْسَانُ .

(٤) فِيمَا يَشْجُرُ بَيْنَهُمْ : فِيمَا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ .

(٥) يَطْرِفُهُمْ : يَأْتِيهِمْ بِالْحَدِيثِ الْمُسْتَحْسَنِ .

(٦) المُلْحَةُ : مَا لَدُنَّ مِنَ الْأَحَادِيثِ .

(٧) السَّمَتَا : هَيْبَةُ أَهْلِ الْخَيْرِ .

فَكَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْهُ فِي الشُّوقِ - وَهُمْ غَارِقُونَ غَافِلُونَ - انْتَبَهُوا ؛ فَذَكَرُوا
اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهَلَّلُوا وَكَبَّرُوا ...

* * *

وَكَانَتْ سِيرَتُهُ الْعَمَلِيَّةُ خَيْرَ مُرْشِدٍ لِلنَّاسِ ... فَمَا عَرَضَ لَهُ أَمْرَانِ فِي
تِجَارَتِهِ إِلَّا أَحَذَ بِأَوْثَقِهِمَا فِي دِينِهِ ...

وَلَوْ كَانَ فِيهِ خَسَارَةٌ تُصِيبُ دُنْيَاهُ ...

* * *

وَكَانَتْ دِقَّةُ فَهْمِهِ لِأَسْرَارِ الدِّينِ ، وَصِحَّةُ نَظَرَتِهِ إِلَى مَا يَحِلُّ وَمَا لَا يَحِلُّ
تَدْفَعُهُ أَوْحِيَانًا إِلَى بَعْضِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي تَبْدُو غَرِيبَةً لِّلْعُيُونِ النَّاسِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا ادَّعَى عَلَيْهِ - كَذِبًا - أَنَّ لَهُ فِي ذِمَّتِهِ دِرْهَمَيْنِ ...
فَأَتَى أَنْ يُعْطِيَهُ إِثَّاهُمَا .

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : أَتَحْلِفُ ؟ ...

وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَحْلِفُ مِنْ أَجْلِ دِرْهَمَيْنِ .

فَقَالَ : نَعَمْ ، وَحَلَفَ لَهُ .

فَقَالَ لَهُ النَّاسُ : يَا أَبَا بَكْرٍ أَتَحْلِفُ مِنْ أَجْلِ دِرْهَمَيْنِ ؟ ! ...

وَأَنْتَ ، الَّذِي تَرَكْتَ أَمْسَ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ فِي شَيْءٍ رَابِكٍ ^(١)
مِمَّا لَا يَزْتَابُ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُكَ ...

فَقَالَ : نَعَمْ أَحْلِفُ ...

فَأِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أُطْعِمَهُ حَرَامًا ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ حَرَامٌ .

* * *

(١) رابك : شككت فيه .

وَكَانَ مَجْلِسُ ابْنِ سِيرِينَ ؛ مَجْلِسَ خَيْرٍ وَبَرٍّ وَمَوْعِظَةٍ ...
 فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ رَجُلٌ بِسَيِّئَةٍ ، بَادَرَ فَذَكَرَهُ بِأَحْسَنِ مَا يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِهِ .
 بَلْ إِنَّهُ سَمِعَ أَحَدَهُمْ يَسُبُّ الْحَجَّاجَ ^(١) بَعْدَ وَفَاتِهِ ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ :
 صَهْ ، يَا بَنَ أَخِي ...

فَإِنَّ الْحَجَّاجَ مَضَى إِلَى رَبِّهِ ...
 وَإِنَّكَ حِينَ تَقْدُمُ عَلَى اللَّهِ جَلًّا وَعَزًّا ؛ سَتَجِدُ أَنَّ أَحَقَرَ ذَنْبٍ ارْتَكَبْتَهُ فِي
 الدُّنْيَا أَشَدُّ عَلَى نَفْسِكَ مِنْ أَعْظَمِ ذَنْبٍ اجْتَرَحَهُ الْحَجَّاجُ ...
 فَلِكُلِّ مِنْكُمْ يَوْمٌ شَأْنٌ يُغْنِيهِ .

وَاعْلَمْ يَا بَنَ أَخِي أَنَّ اللَّهَ جَلٌّ وَعَزٌّ سَوْفَ يَفْتَضُّ مِنَ الْحَجَّاجِ لِمَنْ ظَلَمَهُمْ
 كَمَا سَيَفْتَضُّ لِلْحَجَّاجِ مِمَّنْ يَظْلِمُونَهُ ...

فَلَا تَشْغَلَنَّ نَفْسَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ بِسَبِّ أَحَدٍ ...

وَكَانَ إِذَا جَاءَهُ رَجُلٌ مُودِّعًا فِي سَفَرٍ لِيَتَجَارَةَ قَالَ لَهُ :
 يَا بَنَ أَخِي ، اتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ...

وَاطْلُبْ مَا قُدِّرَ لَكَ مِنْ طَرِيقٍ حَلَالٍ ... وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ تَطْلُبُهُ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ
 لَمْ تُصِبْ ^(٢) أَكْثَرَ مِمَّا قُدِّرَ لَكَ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَتْ لِمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ مَعَ وُلَاةِ بَنِي « أُمَيَّةَ » مَوَاقِفُ مَشْهُودَةٌ
 صَدَقَ ^(٣) فِيهَا بِكَلِمَةِ الْحَقِّ ، وَأَخْلَصَ النُّصْحَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ .

(١) الحجاج : هو الحجاج بن يوسف الثقفي أحد ولاة بني أمية الغتاة الأشداء ، أفاض المؤرخون في ذكر بطشه
 وقسوته وفكته .

(٢) صَدَقَ : بَجَهَرَ .

(٣) لم تصب : لم تل .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيَّ رَجُلَ بَنِي « أُمَيَّة » الْكَبِيرَ وَوَالِيَهُمْ عَلَى
« الْعِرَاقَيْنِ » بَعَثَ إِلَيْهِ يَدْعُوهُ إِلَى زِيَارَتِهِ ، فَمَضَى إِلَيْهِ وَمَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ .

فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ ، رَحَّبَ بِهِ الْوَالِي وَأَكْرَمَ وَفَادَتْهُ وَرَفَعَ مَجْلِسَهُ ، وَسَأَلَهُ عَنْ
كَثِيرٍ مِنْ شُئُونِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :

كَيْفَ تَرَكْتَ أَهْلَ مِصْرِكَ ^(١) يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ .

فَقَالَ : تَرَكْتُهُمْ وَالظُّلْمَ فِيهِمْ فَاشٍ ^(٢) وَأَنْتَ عَنْهُمْ لَا إِيَّاهُمْ ...

فَعَمَّرَهُ ابْنُ أَخِيهِ بِمَنْكِبِهِ ... فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ :

إِنَّكَ لَسْتَ الَّذِي تُسْأَلُ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا أَنَا الَّذِي أُسْأَلُ ...

وإِنَّمَا لَشَهَادَةٌ ... ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبُهُ ﴾ ^(٣) .

وَلَمَّا انْقَضَ الْمَجْلِسُ ، وَدَّعَاهُ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ بِمِثْلِ مَا اسْتَقْبَلَهُ بِهِ مِنْ حَفَاوَةٍ
وَإِجْلَالٍ ...

وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِكَيْسٍ فِيهِ ثَلَاثَةُ آلَافِ دِينَارٍ ، فَلَمْ يَأْخُذْهَا .

فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَخِيهِ : مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَقْبَلَ هِبَةَ الْأَمِيرِ ؟ !

فَقَالَ : إِنَّمَا أَعْطَانِي لِخَيْرِ ظَنِّهِ بِي ...

فَإِنْ كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ كَمَا ظَنَّ ، فَمَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَقْبَلَ ...

وَإِنْ لَمْ أَكُنْ كَمَا ظَنَّ ، فَأُحَرِّى ^(٤) بِي أَلَّا أُسْتَبِيحَ قَبُولَ ذَلِكَ ...

* * *

(١) أَهْلُ مِصْرِكَ : أَهْلُ بَلَدِكَ .

(٢) فَاشٍ : مُتَشَتِّرٌ .

(٣) سُورَةُ الْبَقَرَةِ : الْآيَةُ ٢٨٣ .

(٤) أُحَرِّى بِي : أَوْلَى بِي وَأَجْدَرُ .

وَلَقَدْ شَاءَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يَبْلُغَ صِدْقَ مُحَمَّدٍ بْنِ سِيرِينَ وَصَبْرَهُ ،
فَعَرَضَهُ^(١) لِمَا يَتَعَرَّضُ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْيَمْحَنِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ اشْتَرَى ذَاتَ مَرَّةٍ زَيْتًا بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا مُؤَجَّلَةً^(٢) ...

فَلَمَّا فَتَحَ أَحَدَ زِقَاقِ^(٣) الزَّيْتِ ؛ وَجَدَ فِيهِ فَأْرًا مَيِّتًا مُتَفَسِّخًا .

فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : إِنَّ الزَّيْتَ كُلَّهُ كَانَ فِي الْمَعْصَرَةِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ، وَإِنَّ
التَّجَاسَةَ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِهَذَا الزَّقِّ دُونَ سِوَاهُ ...

وَإِنِّي إِنْ رَدَدْتُهُ لِلْبَّائِعِ بِالْعَيْبِ^(٤) فَرُبَّمَا بَاعَهُ لِلنَّاسِ ...

ثُمَّ أَرَاكَ كُلَّهُ ...

وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي وَقْتٍ كَانَ يَشْكُو فِيهِ مِنْ خَسَارَةٍ كَبِيرَةٍ حَلَّتْ بِهِ .

فَرَكِبَهُ الدِّينُ ، وَطَالَبَهُ صَاحِبُ الزَّيْتِ بِمَالِهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ سَدَادُهُ ...

فَرَفَعَ أَمْرَهُ إِلَى الْوَالِي ، فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ حَتَّى يُسَدَّدَ مَا عَلَيْهِ .

فَلَمَّا صَارَ فِي السَّجْنِ وَطَالَ مُكُونُهُ^(٥) فِيهِ ، أَشْفَقَ عَلَيْهِ السَّجَّانُ لِمَا عَلِمَ
مِنْ أَمْرِ دِينِهِ ، وَمَا رَأَى مِنْ شِدَّةٍ وَرَعَةٍ وَطُولِ عِبَادَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ :

أَيُّهَا الشَّيْخُ ، إِذَا كَانَ اللَّيْلُ فَاذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ وَبِثْ مَعَهُمْ ...

فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَعُدْ إِلَيَّ ...

وَاسْتَمِرَّ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يُطْلَقَ سَرَاحُكَ .

(١) عَرَضَهُ لِلْيَحْتَةِ : جَعَلَهُ هَدَفًا لَهَا .

(٢) مُؤَجَّلَةٌ : مُؤَخَّرَةٌ الثَّمَنِ .

(٣) الزِقَاقُ : جَمْعُ زَقٍّ ، وَهُوَ وَعَاءٌ مِنْ جِلْدٍ يُوَضَعُ فِيهِ الْمَاءُ وَنَحْوُهُ مِنَ السَّوَائِلِ .

(٤) بِالْعَيْبِ : بِسَبَبِ الْعَيْبِ ، وَالرُّدُّ بِسَبَبِ الْعَيْبِ مِنْ حَقُوقِ الْمُشْتَرِي .

(٥) مُكُونُهُ : إِقَامَتُهُ .

فَقَالَ لَهُ : لَا وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ...

فَقَالَ السَّجَّانُ : وَلِمَ ، هَذَاكَ اللَّهُ ۱؟ .

فَقَالَ لَهُ : حَتَّى لَا أَعَاوَنَكَ عَلَى خِيَانَةِ وَلِيِّ الْأَمْرِ ...

* * *

وَلَمَّا اخْتُصِرَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَوْصَلَ بِأَنْ يَغْسِلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَيُصَلِّيَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ مَا يَزَالُ سَجِينًا .

فَلَمَّا تُوفِّيَ جَاءَ النَّاسُ إِلَى الْوَالِي وَأَخْبَرُوهُ بِوَصِيَّةِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ وَخَادِمِهِ ، وَاسْتَأْذَنُوهُ فِي أَنْ يُخْلِيَ سَبِيلَ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ لِإِنْفَازِ الْوَصِيَّةِ فَأَذِنَ لَهُ .

فَقَالَ لَهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ : لَا أَخْرُجُ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا صَاحِبَ الدِّينِ ؛ فَإِنَّمَا حُبِسْتُ بِمَا لَهُ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ ...
فَأَذِنَ لَهُ الدَّائِرُ أَيْضًا .

عِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَ مِنْ سِجْنِهِ فَغَسَلَ أَنَسًا ، وَكَفَّنَهُ ، وَصَلَّى عَلَيْهِ ...
ثُمَّ رَجَعَ إِلَى السَّجْنِ كَمَا هُوَ ...
وَلَمْ يَذْهَبْ لِرُؤْيَا أَهْلِهِ ...

* * *

عُمِّرَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ حَتَّى بَلَغَ السَّبَاعَةَ وَالسَّعِينَ ...
فَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ^(١) وَجَدَهُ خَفِيفَ الْحِمْلِ مِنْ أَعْبَاءِ الدُّنْيَا ... كَثِيرَ الزَّادِ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ...

(١) اليقين : الموت .

حَدَّثَتْ « حَفْصَةُ بِنْتُ رَاشِدٍ » ، وَكَانَتْ مِنَ الْعَابِدَاتِ فَقَالَتْ :
كَانَ « مَرْوَانُ الْمُحَمَّلِيُّ » لَنَا جَاراً ، وَكَانَ نَاصِباً^(١) فِي الْعِبَادَةِ مُجْتَهِداً
فِي الطَّاعَةِ ...

فَلَمَّا مَاتَ ؛ حَزِنَّا عَلَيْهِ حُزْناً شَدِيداً ، فَرَأَيْنَاهُ فِي الْمَنَامِ ... فَقُلْتُ :
يَا أَبَا عُبَيْدِ اللَّهِ ، مَا صَنَعَ بِكَ رُبُّكَ ؟ .
فَقَالَ : أَذْخَلَنِي الْجَنَّةَ .
قُلْتُ : ثُمَّ مَاذَا ؟ .
فَقَالَ : ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ .
قُلْتُ : ثُمَّ مَاذَا ؟ .
قَالَ : ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَى الْمُقَرَّرِينَ^(٢) .
قُلْتُ : فَمَنْ رَأَيْتَ هُنَاكَ ؟ .
قَالَ : الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ^(٣) ، وَمُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ (*) ...

(١) ناصباً في العبادة : جاداً في العبادة .

(٢) المقربون : السابقون .

(٣) الحسن البصري : انظره ص ٩٥ .

(*) للاستزادة من أخبار مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ انظر :

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ١٩٣/٧ و(انظر المجلد الخاص بالفهارس) .

٢ - صفة الصفوة لابن الجوزي : ٢٤١/٣ - ٢٤٨ .

٣ - حلية الأولياء للأصفهاني : ٢٦٣/٢ - ٢٨٢ .

٤ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ١٣١/٥ .

٥ - شذرات الذهب : ١٣٨/١ - ١٣٩ .

٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان : ١٨١/٤ .

٧ - تهذيب التهذيب : ٢١٤/٩ .

٨ - الوافي بالوفيات للصفدي : ١٤٦/٣ .

٩ - طبقات الحفاظ : ٩/٣ .

رَبِيعُ الرَّأْيِ

« مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْفَظَ لِلْسَّنَةِ مِنْ رَبِيعَةٍ »

[ابن المَاجَشُون]

« أ »

هَذَا نَحْنُ أَوْلَاءُ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَخَمْسِينَ لِلْهِجْرَةِ .
وَهَا هِيَ ذِي كَتَائِبُ ^(١) الْمُسْلِمِينَ تَضْرِبُ فِي فِجَاجِ ^(٢) الْأَرْضِ مُشْرِقَةً
مُعَرَّبَةً .

تَحْمِلُ لِلْبَشَرِيَّةِ الْعَقِيدَةَ الْبَانِيَّةَ ...
وَتَمُدُّ إِلَيْهَا الْيَدَ الْمُصْلِحَةَ الْحَانِيَّةَ ...
وَتَنْشُرُ فِي رُبُوعِهَا الشَّرْعَةَ الَّتِي تُحَرِّرُ الْإِنْسَانَ مِنْ عُبودِيَّةِ الْإِنْسَانِ ...
وَتَجْعَلُ وَلَاءَهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ...
وَهَذَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ « الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادِ الْحَارِثِيِّ » ^(٣) أَمِيرُ « خُرَاسَانَ » ،
وَفَاتِحُ « سِجِسْتَانَ » ، وَالْقَائِدُ الْمُظْفَرُ ؛ يَمْضِي عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ الْغَازِي فِي
سَبِيلِ اللَّهِ .

وَمَعَهُ غَلَامُهُ الشَّجَاعُ « فَرْوُخٌ » .
فَلَقَدْ عَزَمَ بَعْدَ أَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِفَتْحِ « سِجِسْتَانَ » وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَصْقَاعِ ^(٤)

(١) الكَتَائِبُ : جمع كَتِيبَةٍ ، وهي القطعة من الجيش .

(٢) فِجَاجُ الْأَرْضِ : مسالك الأرض الوعرة بين الجبال .

(٣) الربيع بن زياد الحارثي : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٤) الْأَصْقَاعُ : جمع صُقْع بضم الصاد ، الناحية من الأرض .

عَلَى أَنْ يَخْتِمَ حَيَاتُهُ الْحَافِلَةَ بِعُبُورِ نَهْرِ «سَيْحُون»^(١)، وَرَفَعَ رَايَاتِ التَّوْحِيدِ
فَوْقَ دُرَى^(٢) تِلْكَ الْأَصْقَاعِ الَّتِي كَانَتْ تُدْعَى بِلَادِ مَا وَرَاءِ النَّهْرِ.

* * *

أَعَدَّ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ لِلْمَعْرَكَةِ الْمَوْعُودَةِ عُدَّتَهَا، وَاتَّخَذَ لَهَا أَهْبَتَهَا...
وَفَرَضَ عَلَى عَدُوِّ اللَّهِ زَمَانَهَا وَمَكَانَهَا فَرَضاً...

وَلَمَّا نَشِبَ^(٣) الْقِتَالُ أَبْلَى فِيهِ الرَّبِيعُ وَجُنْدُهُ الْمَغَاوِيرُ بِلَاءً مَا يَزَالُ يَذْكُرُهُ
التَّارِيخُ بِلِسَانِ نِدْيٍ بِالْحَمْدِ، رَطِيبٍ بِالْإِكْبَارِ.

وَأَظْهَرَ عَلَامَتُهُ «فَرْوُخٌ» فِي سَاحَاتِ الْوَعْلِ^(٤) مِنْ ضُرُوبِ الْبَسَالَةِ
وَصُنُوفِ الْإِقْدَامِ مَا زَادَ الرَّبِيعَ إِعْجَاباً بِهِ، وَإِكْبَاراً لَهُ، وَتَقْدِيراً لِمَزَايَاهُ.

وَأَنْجَلَتِ الْمَعْرَكَةُ عَنْ نَصْرِ مُؤَزَّرٍ^(٥) لِلْمُسْلِمِينَ.

فَزَلَزُوا أَقْدَامَ عَدُوِّهِمْ، وَمَزَقُوا صُفُوفَهُ، وَفَرَّقُوا جُمُوعَهُ...

ثُمَّ عَبَّرُوا النَّهْرَ الَّذِي كَانَ يَحُولُ دُونَهُمْ وَدُونَ الْإِنْسِيَاكِ^(٦) فِي بِلَادِ
«الْتُّوكِ»...

وَيَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِنْدِفَاعِ نَحْوُ أَرْضِ «الصُّينِ»، وَالْإِيغَالِ^(٧) فِي مَمْلَكَةِ
«الصُّعْدِ»^(٨)...

وَمَا إِنَّ عَبْرَ الْقَائِدِ الْعَظِيمِ النَّهْرَ، وَاسْتَقَرَّتْ قَدَمَاهُ عَلَى ضَفَّتِهِ الثَّانِيَةِ حَتَّى
بَادَرَ فَتَوْضاً هُوَ وَجُنُودُهُ مِنْ مَائِهِ؛ فَأَحْسَنُوا الْوُضُوءَ...

(١) نهر سَيْحُون: نهر كبير بعد سمرقند في حدود تركستان.

(٢) الدُرَى: القمم، وذروة كل شيء: أعلاه.

(٣) نشب القتال: ثار القتال.

(٦) الانْسِيَاكِ في الأرض: الذهاب فيها في كل اتجاه.

(٧) الإيغال: الذهاب بعيداً.

(٤) ساحات الوعل: ساحات الحرب.

(٨) الصغد: منطقة في أواسط آسيا.

(٥) نصر مؤزر: نصر قوي شديد.

وَاسْتَقْبَلُوا الْقِبْلَةَ ، وَصَلُّوا رَكَعَتَيْنِ شُكْرًا لِلَّهِ وَاهِبِ النَّصْرِ ...
ثُمَّ كَافَأَ الْقَائِدُ الْكَبِيرُ غُلَامَهُ « فَرُّوْحًا » عَلَى حُسْنِ بَلَائِهِ^(١) :
فَأَعْتَقَ رَقَبَتَهُ ...

وَقَسَمَ لَهُ نَصِيبَهُ مِنَ الْغَنَائِمِ الْكَثِيرَةِ الْوَفِيرَةِ .
ثُمَّ زَادَهُ مِنْ عِنْدِهِ شَيْئًا كَثِيرًا ...

* * *

لَمْ تَطُلِ الْحَيَاةُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْأَبْلَجِ^(٢) الْأَغْرَ^(٣) بِالرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ
الْحَارِثِيِّ ...

حَيْثُ وَافَاهُ الْأَجَلَ الْمَحْتُمُ بَعْدَ سَنَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ مِنْ تَحْقِيقِ حُلْمِهِ الْكَبِيرِ ...
فَمَضَى إِلَى رَبِّهِ رَاضِيًا مَرْضِيًّا .

أَمَّا الْفَتَى الْبَاسِلُ الشُّجَاعُ « فَرُّوْحُ » فَقَدْ عَادَ إِلَى « الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ »
يَحْمِلُ مَعَهُ سَهْمَهُ الْكَبِيرَ مِنَ الْغَنَائِمِ ...

وَالِهَيْبَةَ السَّخِيَّةِ الَّتِي وَهَبَهَا لَهُ قَائِدُهُ الْعَظِيمُ ...
وَيَحْمِلُ فَوْقَ ذَلِكَ حُرِّيَّتَهُ الْعَالِيَةَ ...

وَذِكْرِيَّاتِهِ الْغَنِيَّةِ بِرَوَائِعِ الْبُطُولَاتِ ...
الْمُكَلَّلَةِ^(٤) بِغُبَارِ الْوَقَائِعِ ...

* * *

(١) حُسْنِ بَلَائِهِ : حُسْنِ فِعْلِهِ فِي الْقِتَالِ .

(٢) الْأَبْلَجُ : النَّاصِعُ الْوَاضِحُ الْمَتْلُقُ .

(٣) الْأَغْرُ : الْأَبْيَضُ .

(٤) الْمُكَلَّلَةُ : الْمَتَوَجَّةُ .

كَانَ «فَرُوحٌ» حِينَ هَبَطَ مَدِينَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَابًّا مَوْفُورَ الشَّبَابِ ،
دَفَاقَ الْحَيَوِيَّةِ ، مُمْتَلِئًا قُوَّةً وَفُرُوسِيَّةً ...

وَكَانَ يَخْطُو نَحْوَ الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمرِهِ ...

وَقَدْ عَزَمَ «فَرُوحٌ» عَلَى أَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ مَنْزِلًا يَسْتَقِرُّ فِيهِ ، وَزَوْجَةً يَسْكُنُ
إِلَيْهَا ...

فَابْتِاعَ دَارًا مِنْ أَوْسَطِ دُورِ الْمَدِينَةِ ...

وَاخْتَارَ امْرَأَةً رَاحِحَةَ الْعَقْلِ ، كَامِلَةَ الْفَضْلِ ، صَحِيحَةَ الدِّينِ ، ثِقَارِبُهُ فِي
السَّنِّ ... وَاقْتَرَنَ بِهَا .

* * *

نَعِمَ «فَرُوحٌ» بِدَارِهِ الَّتِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهَا .

وَلَقِيَ فِي صُحْبَةِ زَوْجَتِهِ مِنْ هَنَاءِ الْعَيْشِ وَطِيبِ الْعِشْرَةِ وَنَضَارَةِ الْحَيَاةِ
فَوْقَ مَا كَانَ يَرْجُو وَيَأْمُلُ .

لَكِنَّ تِلْكَ الدَّارَ الْعَامِرَةَ عَلَى كُلِّ مَا تَوَافَرَ لَهَا مِنَ الْمَزَايَا ...

وَتِلْكَ الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ عَلَى كُلِّ مَا حَبَّاهَا (١) اللَّهُ مِنْ كَرِيمِ السَّمَائِلِ (٢)
وَجَلِيلِ الْخَصَائِلِ ، لَمْ يَسْتَطِيعَا أَنْ يَتَغَلَّبَا عَلَى حَيْنِ الْفَارِسِ الْمُؤْمِنِ إِلَى خَوْضِ
الْمَعَارِكِ ...

وَشَوَّقِهِ إِلَى سَمَاعِ وَقَعِ النُّصَالِ عَلَى النُّصَالِ (٣) ...

وَوَلَّعِهِ بِاسْتِثْنَائِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

(١) حبَّاهَا اللَّهُ : منحها الله .

(٢) السَّمَائِلِ : الصفات الطيبة .

(٣) النُّصَالِ : جمع نصل ، ونصل السيف : حديدته .

فَكَانَ كُلَّمَا تَرَدَّدَتْ فِي الْمَدِينَةِ أَخْبَارُ انْتِصَارَاتِ الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ
الْغَازِيَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَأْجَجَتْ (١) أَشْوَاقُهُ إِلَى الْجِهَادِ ، وَاشْتَدَّ حَنِينُهُ إِلَى
الْإِسْتِشْهَادِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْجُمُعِ سَمِعَ « فَرُوحٌ » خَطِيبَ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ
يُزِفُ (٢) لِلْمُسْلِمِينَ بُشْرَى انْتِصَارَاتِ الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مِئْدَانٍ .
وَيَحْضُ (٣) النَّاسَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

وَيُرْعِبُهُمْ فِي الْإِسْتِشْهَادِ إِعْزَازاً لِدِينِهِ ، وَابْتِغَاءً (٤) لِمَرْضَاتِهِ ، فَهَادَ إِلَى بَيْتِهِ
وَقَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى الْإِنْصِوَاءِ تَحْتَ رَايَةٍ مِنْ رَايَاتِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَشِيرَةِ تَحْتَ
كُلِّ نَجْمٍ .

وَأَعْلَنَ عَزَمَهُ هَذَا لِزَوْجَتِهِ .

فَقَالَتْ لَهُ :

يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، لِمَنْ تَتْرُكُنِي وَتَتْرُكُ هَذَا الْجَنِينَ (٥) الَّذِي أَحْمِلُهُ بَيْنَ
جَوَانِحِي ؟ ... !

فَأَنْتَ رَجُلٌ غَرِيبٌ عَنِ الْمَدِينَةِ ، لَا أَهْلَ لَكَ فِيهَا وَلَا عَشِيرَةَ .

فَقَالَ : أَتُرْكُكَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ...

ثُمَّ إِنِّي خَلَفْتُ لَكَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ جَمَعْتُهَا مِنْ غَنَائِمِ الْحَرْبِ ...
فَضُونِيهَا ، وَتَمْرِيهَا (٦) ، وَأَنْفِقِي مِنْهَا عَلَى نَفْسِكَ وَوَلِيدِكَ بِالْمَعْرُوفِ حَتَّى أَعُودَ
إِلَيْكَ سَالِمًا غَانِمًا ...

(٥) الجنين : الولد ما دام في رحم أمه .

(٦) تَمْرِيهَا : كَثْرِيهَا بالتجارة ونحوها .

(١) تأججت : اشتعلت . (٣) يحض : يحث .

(٢) يزف البشرى : يسوقها ويهديها . (٤) ابتغاء : طلباً .

أَوْ يَزُوقُنِي اللَّهُ الشَّهَادَةَ الَّتِي أَتَمَنَّاهَا ...

ثُمَّ وَدَّعَهَا وَمَضَى إِلَى غَايَتِهِ ...

* * *

وَضَعَتِ السَّيِّدَةُ الرَّزَانَ^(١) حَمْلَهَا بَعْدَ رَحِيلِ زَوْجِهَا بِبِضْعَةِ أَشْهُرٍ ، فَإِذَا هُوَ غُلَامٌ مُشْرِقُ الْوَجْهِ ، حُلُوُ الْقَسَمَاتِ ، رَائِعُ الْمُجْتَلَى^(٢) ...

فَفَرِحَتْ بِهِ فَرَحًا عَظِيمًا كَأَدَى يُنْسِيهَا فِرَاقَ أَبِيهِ ...
وَأُطْلِقَتْ عَلَيْهِ اسْمُ « رَبِيعَةَ » .

* * *

بَدَتْ عَلَى الْغُلَامِ الصَّغِيرِ عَلَامَاتُ النَّجَابَةِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ ...
وَوَظَّهَرَتْ أَمَارَاتُ^(٣) الذِّكَا فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ .

فَأَسْلَمَتْهُ أُمُّهُ إِلَى الْمُعَلِّمِينَ ، وَأَوْصَتْهُمْ بِأَنْ يُحْسِنُوا تَعْلِيمَهُ ...
وَاسْتَدَعَتْ لَهُ الْمُؤَدِّينَ وَحَضَّتْهُمْ عَلَى أَنْ يُحْكِمُوا تَأْدِيَتَهُ .

فَمَا لَبِثَ كَثِيرًا حَتَّى أَتَقَنَّ الْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ ...

ثُمَّ حَفِظَ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَجَعَلَ يُرْتِّلُهُ نِدْيًا طَرِيًّا كَمَا أُنْزِلَ عَلَى فُؤَادِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَوَعَى مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَاسْتَظْهَرَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا يَحْسُنُ بِمِثْلِهِ أَنْ يَسْتَظْهَرَ ...
وَعَرَفَ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ .

* * *

(١) المرأة الرزانة : المرأة الرضيعة الرزينة .

(٢) رائع المجتلى : يروع عين رائيته .

(٣) الأمارات : الدلائل والعلامات .

وَقَدْ أَغْدَقْتُ (١) أُمُّ رَبِيعَةَ عَلَى مُعَلِّمِي وَلَدِهَا وَمُؤَدِّيهِ الْمَالِ وَالْجَوَائِزِ
إِغْدَاقًا .

فَكَانَتْ كُلَّمَا رَأَتْهُ يَزْدَادُ عِلْمًا ؛ تَزِيدُهُمْ بِرًّا وَإِكْرَامًا ...
وَكَانَتْ تَتَرَقَّبُ عَوْدَةَ أَبِيهِ الْغَائِبِ ، وَتَجْتَهِدُ فِي أَنْ تَجْعَلَهُ قُرَّةَ (٢) عَيْنٍ لَهَا
وَلَهُ .

لَكِنَّ « فَرُوحًا » طَالَتْ عَيْبَتُهُ .
ثُمَّ تَضَارَبَتِ الْأَقْوَالُ فِيهِ .
فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ وَقَعَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَعْدَاءِ .
وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّهُ مَا زَالَ طَلِيقًا يُوَاصِلُ الْجِهَادَ .
وَقَالَ فَرِيقٌ ثَالِثٌ عَائِدٌ مِنْ سَاحَاتِ الْقِتَالِ : إِنَّهُ نَالَ الشَّهَادَةَ الَّتِي تَمَنَّاهَا .
فَتَرَجَّحَ هَذَا الْقَوْلُ الْأَخِيرُ عِنْدَ أُمِّ رَبِيعَةَ لِانْقِطَاعِ أَخْبَارِهِ ، فَحَزِنَتْ عَلَيْهِ
حُزْنًا أَمْضَ (٣) فُؤَادَهَا .
ثُمَّ احْتَسَبَتْهُ عِنْدَ اللَّهِ (٤) .

* * *

كَانَ رَبِيعَةُ يَوْمئِذٍ قَدْ أَفْنَعَ (٥) وَكَادَ يَدْخُلُ فِي مَدَاخِلِ الشَّبَابِ .
فَقَالَ النَّاصِحُونَ لِأُمِّهِ :
هَا هُوَ ذَا رَبِيعَةُ قَدْ اسْتَكْمَلَ مَا يَنْبَغِي لِفَتَى مِثْلِهِ أَنْ يَسْتَكْمِلَهُ مِنَ الْقِرَاءَةِ
وَالكِتَابَةِ ...

(١) أغدقت : أكثرت وأجزلت .
(٢) قرة عين : مبعث فرح وسرور .
(٣) أمض فؤادها : أحزنه وأوجعه .
(٤) احتسبته عند الله : طلبت أجرها عليه من الله .
(٥) أفنع : قارب البلوغ .

وَرَادَ عَلَى أَقْرَانِهِ (١) فَحَفِظَ الْقُرْآنَ وَرَوَى الْحَدِيثَ .
 فَلَوْ تَخَيَّرَتْ لَهُ حِرْفَةً (٢) مِنَ الْحِرَفِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَلْبُثُ أَنْ يُتَّقِنَهَا ، وَيُنْفِقَ
 عَلَيْكَ وَعَلَى نَفْسِهِ مِمَّا تَذُرُّهُ مِنْ خَيْرٍ ، فَقَالَتْ :
 أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَخِيرَ (٣) لَهُ مَا فِيهِ صَلَاحٌ مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ (٤) ...
 إِنَّ رَبِيعَةَ قَدْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الْعِلْمَ ...
 وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَعِيشَ مُتَعَلِّمًا وَمُعَلِّمًا مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ .

* * *

مَضَى رَبِيعَةُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي اخْتَرَتْهَا لِنَفْسِهِ غَيْرَ وَإِنْ وَلَا مُقَصِّرٍ .
 وَأَقْبَلَ عَلَى حَلَقَاتِ الْعِلْمِ الَّتِي كَانَ يَرْخُرُ (٥) بِهَا مَسْجِدُ الْمَدِينَةِ كَمَا يُقْبَلُ
 الظُّمَاءُ (٦) عَلَى الْمَوَارِدِ الْعَذَابِ (٧) .
 وَلَزِمَ الْبَقِيَّةَ الْبَاقِيَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ (٨)
 خَادِمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
 وَأَخَذَ عَنِ الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ (٩) مِنَ التَّابِعِينَ وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ :
 سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ (١٠) ، وَمَكْحُولُ الشَّامِيُّ ، وَسَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ (١١) ...

-
- (١) أَقْرَانُهُ : نظرائه وأمثاله .
 (٢) الْحِرْفَةُ : الصنعة .
 (٣) يَخِيرُ لَهُ : يختار له .
 (٤) مَعَاشُهُ وَمَعَادُهُ : أي معاشه في الدنيا ، ومعاده في الآخرة .
 (٥) يَرْخُرُ بِهَا : يموج بها .
 (٦) الظُّمَاءُ : العطاش .
 (٧) الْعَذَابُ : العذبة الحلوة .
 (٨) أَنَسُ بْنُ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .
 (٩) الرَّعِيلُ الْأَوَّلُ : الفريق المتقدم .
 (١٠) سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : انظره ص ١٩٧ .
 (١١) سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ : انظره ص ١٨٥ .

وَوَاصَلَ كَلَالَ^(١) لَيْلِهِ بِكَالَالِ نَهَارِهِ حَتَّى أَنْهَكَ الْجُهْدُ .
فَإِذَا كَلَّمَهُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ وَدَعَاهُ إِلَى الرِّفْقِ بِنَفْسِهِ ، قَالَ :
سَمِعْنَا أَشْيَاخَنَا يَقُولُونَ :
« إِنَّ الْعِلْمَ لَا يُعْطِيكَ بَعْضُهُ إِلَّا إِذَا أُعْطِيَتْهُ نَفْسُكَ كُلُّهَا » ...
ثُمَّ مَا لَبِثَ^(٢) كَثِيراً حَتَّى اِرْتَفَعَ ذِكْرُهُ ، وَبَرَعَ نَجْمُهُ ، وَكَثُرَ إِخْوَانُهُ .
وَأُولَعَ بِهِ تَلَامِيذُهُ ، وَسَوَّدَهُ^(٣) قَوْمُهُ .
وَلَقَدْ سَارَتْ حَيَاةُ عَالِمِ الْمَدِينَةِ هَادِئَةً وَادِعَةً ...
فَشَطَرُ مِنْ يَوْمِهِ فِي دَارِهِ لِأَهْلِيهِ وَإِخْوَانِهِ ...
وَأَخْرَجَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَجَالِسِ الْعِلْمِ وَحَلَقَاتِهِ ...
وَلَقَدْ مَضَتْ حَيَاتُهُ مُتَشَابِهَةً حَتَّى وَقَعَ فِيهَا مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ ...

(١) الكلال : التعب والتَّصَبُّب .

(٢) ما لبث : ما أبطأ .

(٣) سَوَّدَهُ قَوْمُهُ : جعلوه سيّداً عليهم .

رَبِيعُ الرَّاي

« ب »

فِي ذَاتِ عَشِيَّةٍ مِنْ عَشِيَّاتِ الصَّيْفِ الْمُقْمِرَةِ ؛ بَلَغَ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ فَارِسَ
فِي أَوَاخِرِ الْعَقْدِ السَّادِسِ مِنْ عُمْرِهِ .

وَمَضَى فِي أَرْقَتِهَا رَاكِباً جَوَادُهُ قَاصِداً دَارَهُ .

وَهَوَّ لَا يَذْرِي إِنْ كَانَتْ دَارُهُ مَا تَزَالُ قَائِمَةً عَلَى عَهْدِهِ بِهَا ، أَمْ أَنَّ الْأَيَّامَ قَدْ
فَعَلَتْ بِهَا فِعْلَهَا ...

فَلَقَدْ مَضَى عَلَى غِيَابِهِ عَنْهَا ثَلَاثُونَ عَاماً أَوْ نَحْواً^(١) مِنْ ذَلِكَ .

وَكَانَ يُسَائِلُ نَفْسَهُ عَنْ زَوْجَتِهِ الشَّابَّةِ الَّتِي خَلَفَهَا فِي تِلْكَ الدَّارِ
مَا فَعَلَتْ ؟ ...

وَعَنْ جَنِينِهَا الَّذِي كَانَتْ تَحْمِلُهُ بَيْنَ جَوَانِحِهَا :

أَوْضَعْتَهُ ذَكَراً أَمْ أُنْثَى ؟ ... أَحْيَى هُوَ أَمْ مَيِّتٌ ؟ .

وَإِذَا كَانَ حَيًّا ؛ فَمَا شَأْنُهُ ؟ .

وَعَنْ ذَلِكَ الْمَبْلَغِ الْكَبِيرِ الَّذِي جَمَعَهُ مِنْ غَنَائِمِ الْجِهَادِ ، وَتَرَكَهُ وَدِيعَةً
عِنْدَهَا حِينَ مَضَى مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُتَوَجِّهَةِ لِفَتْحِ
« بُخَارَى » وَ« سَمَرْقَنْدَ » وَمَا جَاوَرَهُمَا ...

(١) نحواً من ذلك : قريباً من ذلك .

وَلَقَدْ كَانَتْ أَرْقَةُ الْمَدِينَةِ وَشَوَارِعُهَا مَا تَزَالُ عَامِرَةً بِالْغَادِينَ وَالرَّائِحِينَ ...
فَالنَّاسُ لَمْ يَفْرَعُوا مِنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِلَّا وَشِيكاً^(١)، لَكِنَّ أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ
النَّاسِ الَّذِينَ مَرَّ بِهِمْ لَمْ يَعْرِفْهُ، وَلَمْ يَأْتِ^(٢) لَهُ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى جَوَادِهِ الْمُطَهَّمِ،
وَلَا إِلَى سَيْفِهِ الْمُتَدَلِّي مِنْ عَاتِقِهِ ...

فَسُكَّانُ الْمُدُنِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَانُوا قَدْ أَلْفُوا مَنَظَرَ الْمُجَاهِدِينَ الْغَادِينَ إِلَى
الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ الْعَائِدِينَ مِنْهُ.

لَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ سَبَبًا فِي إِثَارَةِ حُزْنِ الْفَارِسِ وَازْدِيَادِ وَسَاوِسِهِ .
وَفِيمَا كَانَ الْفَارِسُ سَابِحًا فِي أَفْكَارِهِ هَذِهِ، مَاضِيًا يَتَلَمَّسُ طَرِيقَهُ فِي تِلْكَ
الْأَرْقَةِ الَّتِي عَرَاهَا^(٣) التَّغْيِيرُ ... وَجَدَ نَفْسَهُ فَجَاءَ أَمَامَ دَارِهِ ...
وَأَلْفَى^(٤) بَابَهَا مَشْقُوقًا، فَأَعْجَلَتْهُ الْفَوْحَةُ عَنِ الْإِسْتِغْدَانِ عَلَى أَهْلِهَا ...
وَوَلَجَ مِنَ الْبَابِ، وَأَوْغَلَ فِي صَحْنِ الدَّارِ ...

* * *

سَمِعَ رَبُّ الدَّارِ صَرِيرَ الْبَابِ، فَأَظْلَمَ مِنْ غُلْبَتِهِ^(٥) فَرَأَى فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ
رَجُلًا مُتَوَشِّحًا سَيْفَهُ مُتَقَلِّدًا رُمْحَهُ، يَفْتَحِمُ عَلَيْهِ فِي اللَّيْلِ دَارَهُ .
وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ الشَّابَّةُ تَقِفُ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْ مُرْمَى بَصَرِ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ .
فَهَبَّ مُغْضَبًا، وَنَزَلَ إِلَيْهِ حَافِيًا وَهُوَ يَقُولُ :
أَتَسْتَرُّ بِجُنْحِ اللَّيْلِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، وَتَفْتَحِمُ مَنْزِلِي، وَتَهْجِمُ عَلَى حَرِيمِي ؟!
وَأَنْدَفَعُ نَحْوَهُ كَمَا يَنْدَفِعُ الْأَسَدُ الضَّارِي إِذَا أُرِيدَ عَرِيَّتُهُ^(٦) بِسُوءٍ ...

(٤) أَلْفَى : وجد .

(٥) الْغُلْبَةُ : بيت في الطبقة الثانية من الدار .

(٦) الْعَرِين : بيت الأسد .

(١) وَشِيكًا : قريبًا .

(٢) لَمْ يَأْتِ لَهُ : لم يهتم به .

(٣) عَرَاهَا : أصابها .

وَلَمْ يَدْعُ لَهُ فُرْصَةً لِلْكَلامِ ...

وَتَوَاتَبَ كُلُّ مِنَ الرَّجُلَيْنِ عَلَى صَاحِبِهِ ؛ وَعَلَتْ جَلَبَتُهُمَا^(١) ، وَارْتَفَعَ
ضَجِيجُهُمَا ، وَتَدَفَّقَ الْجِيرَانُ عَلَى الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ .

فَأَحَاطُوا بِالرَّجُلِ الْغَرِيبِ إِحَاطَةً الْعُلِّ^(٢) بِالْعُنُقِ ، وَأَعَانُوا جَارَهُمْ عَلَيْهِ ...

فَأَمْسَكَ بِهِ صَاحِبُ الدَّارِ وَأَحْكَمَ قَبْضَتَهُ عَلَى خِنَاقِهِ^(٣) وَقَالَ :

وَاللَّهِ لَا أَطْلُقُكَ - يَا عَدُوَّ اللَّهِ - إِلَّا عِنْدَ الْوَالِي .

فَقَالَ الرَّجُلُ : مَا أَنَا بِعَدُوِّ اللَّهِ ... وَلَمْ ارْتَكِبْ ذَنْباً ...

وإِنَّمَا هُوَ يَبْتَلِي ، وَمِلْكُ يَمِينِي ، وَجَدْتُ أَبَاهُ مَفْتُوحاً فَدَخَلْتُهُ ...

ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى النَّاسِ وَقَالَ :

يَا قَوْمُ ... اسْمَعُوا مِنِّي ...

هَذَا الْبَيْتُ يَبْتَلِي ... شَرِّئْتُهُ بِمَالِي ...

يَا قَوْمُ ... أَنَا « فَرُوحٌ » .

أَلَمْ يَتَّقَ فِي الْجِيرَانِ أَحَدٌ يَعْرِفُ « فَرُوحاً » الَّذِي عَدَا^(٤) مُنْذُ ثَلَاثِينَ عَاماً
مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ !؟ .

وَكَانَتْ وَالِدَةُ صَاحِبِ الدَّارِ نَائِمَةً ، فَاسْتَيْقَظَتْ عَلَى الضَّجِيجِ ، وَأَطْلَتْ
مِنْ نَافِذَةٍ عَلَيْهَا ؛ فَرَأَتْ زَوْجَهَا بِشَحْمِهِ وَلَحْمِهِ .

(١) جَلَبَتُهُمَا : ضَوْأُهُمَا .

(٢) الْعُلُّ : طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ يَجْعَلُ فِي الْعُنُقِ أَوْ الْبَدَنِ ، وَجُمُعُهُ أَغْلَالٌ .

(٣) خِنَاقُهُ : رَقَبَتُهُ .

(٤) عَدَا : مَضَى وَذَهَبَ .

فَكَادَتْ تَفْقِدُ الدَّهْشَةَ لِسَانَهَا ...

لَكِنَّهَا مَا لَبِثَتْ أَنْ قَالَتْ :

دَعُوهُ ...

دَعُهُ يَا رَبِيعَةُ ...

دَعُهُ يَا وَلَدِي ... إِنَّهُ أَبُوكَ ...

انصَرِفُوا عَنْهُ يَا قَوْمُ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .

حَذَارِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ...

إِنَّ هَذَا الَّذِي تَتَصَدَّى لَهُ وَلَدُكَ وَفَلَذَةُ كَبِدِكَ^(١) .

فَمَا كَادَتْ كَلِمَاتُهَا تُلَامِسُ الْآذَانَ حَتَّى أَقْبَلَ « فَرْوُخٌ » عَلَى رَبِيعَةَ ،
وَجَعَلَ يَضُمُّهُ وَيُعَانِقُهُ ..

وَأَقْبَلَ رَبِيعَةَ عَلَى « فَرْوُخٍ » ، وَطَفِقَ يُقَبِّلُ يَدَيْهِ وَعُنُقَهُ وَرَأْسَهُ ...

وَانْفَضَّ عَنْهُمَا النَّاسُ ...

وَنَزَلَتْ أُمُّ رَبِيعَةَ تُسَلِّمُ عَلَى زَوْجِهَا الَّذِي مَا كَانَتْ تَظُنُّ ظَنًّا أَنَّهَا سَتَلْقَاهُ
عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ مُدَّةً تُقَارِبُ ثُلْثَ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ .

* * *

جَلَسَ « فَرْوُخٌ » إِلَى زَوْجَتِهِ ، وَطَفِقَ يُحَدِّثُهَا عَنْ أَحْوَالِهِ ...

وَيَكْشِفُ لَهَا عَنْ أَسْبَابِ انْقِطَاعِ أَخْبَارِهِ ...

وَلَكِنَّهَا كَانَتْ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَقُولُ ، فَلَقَدْ نَغَصَ^(٢) عَلَيْهَا

(١) فَلَذَةُ كَبِدِكَ : قطعة كَبِدِكَ .

(٢) نَغَصَ : كَدَّرَ .

فَرَحَتْهَا بِلِقَائِهِ وَاجْتِمَاعِ شَمْلِهِ بِوَلَدِهِ ؛ خَوْفُهَا مِنْ غَضَبَتِهِ عَلَى إِصَاعَةِ كُلِّ
مَا أَوْدَعَهُ لَدَيْهَا مِنْ مَالٍ ...

كَأَنْتَ تَقُولُ فِي نَفْسِهَا :

مَاذَا لَوْ سَأَلَنِي الْآنَ عَنْ ذَلِكَ الْمَبْلَغِ الْكَبِيرِ الَّذِي تَرَكَهُ أَمَانَةً عِنْدِي ،
وَأَوْصَانِي أَنْ أَنْفِقَ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ !؟ ...

مَاذَا سَيَكُونُ مِنْهُ لَوْ أَخْبَرْتُهُ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ !؟ ...

أَيَقْنِعُهُ قَوْلِي لَهُ :

إِنِّي أَنْفَقْتُ مَا تَرَكَهُ عِنْدِي عَلَى تَرْبِيَةِ ابْنِهِ وَتَعْلِيمِهِ ؟ ...

وَهَلْ تَبْلُغُ نَفَقَةُ وَلَدٍ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ !؟ .

أَيُصَدِّقُ أَنَّ يَدَ ابْنِهِ أُنْدَى مِنَ السَّحَابِ ^(١) ، وَأَنَّهُ لَا يُبْقِي عَلَى دِينَارٍ
وَلَا دِرْهَمٍ ، وَأَنَّ الْمَدِينَةَ كُلَّهَا تَعْلَمُ أَنَّهُ أَنْفَقَ عَلَى إِخْوَانِهِ الْآلَافَ الْمُؤَلَّفَةَ ؟ .

وَفِيمَا كَانَتْ أُمُّ رَبِيعَةَ غَارِقَةً فِي هَوَاجِسِهَا ^(٢) هَذِهِ ، التَفَتَ إِلَيْهَا زَوْجُهَا

وَقَالَ :

لَقَدْ جِئْتُكَ - يَا أُمُّ رَبِيعَةَ - بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِينَارٍ ...

فَأَخْرَجِي الْمَالَ الَّذِي أَوْدَعْتُهُ عِنْدَكَ لِنُضْمِ هَذَا إِلَيْهِ ، وَنَشْتَرِي بِالْمَالِ كُلَّهُ
بُسْتَانًا أَوْ عَقَارًا ^(٣) نَعِيشُ مِنْ غَلَّتِهِ مَا امْتَدَّتْ بِنَا الْحَيَاةُ .

فَتَشَاعَلَتْ عَنْهُ ، وَلَمْ تُجِبْهُ بِشَيْءٍ .

فَاعَادَ عَلَيْهَا الطَّلَبَ وَقَالَ :

(١) أُنْدَى مِنَ السَّحَابِ : أَكْرَمَ مِنَ الْغَيْمِ الْمَطَرِ .

(٢) هَوَاجِسُهَا : خَوَاطِرُهَا .

(٣) الْعَقَارُ : الدَّارُ وَالضَّيْعَةُ وَنَحْوُهُمَا .

هَيَّا ... أَتَيْنَ الْمَالَ حَتَّى أَضْمَّ إِلَيْهِ مَا مَعِيَ ؟ .
 فَقَالَتْ : لَقَدْ وَضَعْتُهُ حَيْثُ يَجِبُ أَنْ يُوَضَعَ ...
 وَسَأُخْرِجُهُ لَكَ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
 وَقَطَعَ صَوْتُ الْمُؤَذِّنِ عَلَيْهِمَا الْحَدِيثَ ... فَهَبَّ « فَرُوحٌ » إِلَى إِبْرِيْقِهِ
 فَتَوَضَّأَ .

ثُمَّ مَضَى مُسْرِعاً نَحْوَ الْبَابِ وَهُوَ يَقُولُ : أَتَيْنَ رَبِيعَةً ؟ .
 فَقَالُوا : سَبَقَكَ إِلَى الْمَسْجِدِ مُنْذُ النَّدَاءِ الْأَوَّلِ .
 وَلَا نَحْسَبُ أَنَّكَ تُدْرِكُ الْجَمَاعَةَ .

* * *

بَلَغَ « فَرُوحٌ » الْمَسْجِدَ ؛ فَوَجَدَ أَنَّ الْإِمَامَ قَدْ فَرَّغَ وَشَيْكاً مِنَ الصَّلَاةِ ،
 فَأَدَّى الْمَكْتُوبَةَ .

ثُمَّ مَضَى نَحْوَ الضَّرِيحِ الشَّرِيفِ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ
 وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

ثُمَّ انْتَهَى نَحْوَ الرُّوضَةِ ^(١) الْمُطَهَّرَةِ ، فَقَدْ كَانَتْ فِي فُؤَادِهِ أَشْوَاقٌ إِلَيْهَا ،
 وَحَنِينَ إِلَى الصَّلَاةِ فِيهَا .

فَتَخَيَّرَ لِنَفْسِهِ مَكَاناً فِي رِحَابِهَا النَّصْرَةِ .

ثُمَّ جَعَلَ يَتَنَقَّلُ ^(٢) ، فَصَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّيَ ، ثُمَّ دَعَا بِمَا أَلْهِمَ أَنْ
 يَدْعُو .

(١) الروضة : ما بين قبر الرسول ﷺ ومنبره .

(٢) يتنقل : يصلي نفلاً ، والنفل : ما زاد على الفرائض .

وَلَمَّا هَمَّ بِمُعَادَرَةِ الْمَسْجِدِ ؛ وَجَدَ بَاحْتَهُ قَدْ غُصَّتْ عَلَى رَحْبِهَا بِمَجْلِسٍ
مِنْ مَجَالِسِ الْعِلْمِ لَمْ يَشْهَدْ لَهُ نَظِيرًا مِنْ قَبْلُ .

وَرَأَى النَّاسَ قَدْ تَحَلَّقُوا حَوْلَ شَيْخِ الْمَجْلِسِ حَلَقَةً إِثْرَ حَلَقَةٍ ، حَتَّى لَمْ
يَبْقَ فِي السَّاحَةِ مَوْطِئًا لِقَدَمٍ .

وَأَجَالَ بَصَرَهُ فِي النَّاسِ ؛ فَإِذَا فِيهِمْ شُيُوخٌ مُعَمَّمُونَ ذَوُو أَسْنَانٍ (١) ...

وَرِجَالٌ مُتَوَقِّرُونَ (٢) تَدُلُّ هَيْئَاتُهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ ذَوُو أَقْدَارٍ (٣) ...

وَشُبَّانٌ كَثِيرُونَ قَدْ جَثَوْا عَلَى رُكَبِهِمْ ، وَأَخَذُوا أَفْلَامَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ، وَجَعَلُوا
يَلْتَقِطُونَ مَا يَقُولُهُ الشَّيْخُ كَمَا تُلْتَقَطُ الدَّرَرُ ...

وَيَحْفَظُونَهُ فِي دِفَاتِرِهِمْ كَمَا تُحْفَظُ الْأَعْلَاقُ (٤) النَّفِيسَةُ .

وَكَانَ النَّاسُ مُتَجِهِينَ بِأَبْصَارِهِمْ إِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ الشَّيْخُ ، مُنْصِتِينَ إِلَى
كُلِّ مَا يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ حَتَّى لَكَانَ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ (٥) ...

وَكَانَ الْمُبَلِّغُونَ يَتَقَلَّبُونَ مَا يَقُولُهُ الشَّيْخُ فِقْرَةً فِقْرَةً ، فَلَا يَفُوتُ أَحَدًا شَيْءٌ
مِنْ كَلَامِهِ مَهْمَا كَانَ بَعِيدًا .

وَحَاوَلَ « قَرُوحٌ » أَنْ يَتَبَيَّنَ صُورَةَ الشَّيْخِ ... فَلَمْ يُلَاحِظْ لِمَوْقِعِهِ مِنْهُ ، وَبُعْدِهِ
عَنْهُ .

لَقَدْ رَاعَهُ مِنْهُ بَيَانُهُ الْمَشْرِقُ ، وَعِلْمُهُ الْمُتَدَفِّقُ ، وَحَافِظَتُهُ الْعَجِيبَةُ .

وَأَذْهَبَتْهُ خُضُوعُ النَّاسِ بَيْنَ يَدَيْهِ .

(١) ذوو أسنان : ذوو أعمار ، [أي كبار السن] .

(٢) متوقرون : مظهرون الوقار .

(٣) ذوو أقدار : لهم منزلة وشأن .

(٥) كأن على رؤوسهم الطير : كناية عن سكوتهم ، وصمتهم .

(٤) الأعلاق : النفائس التي تُقْتَلَى .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى خَتَمَ الشَّيْخُ مَجْلِسَهُ وَنَهَضَ وَاقِفًا ...
فَهَبَ النَّاسُ مُتَجِهِينَ نَحْوَهُ ، وَتَزَاحَمُوا عَلَيْهِ ، وَأَحَاطُوا بِهِ ، وَانْدَفَعُوا وَرَاءَهُ
يُشَيِّعُونَهُ^(١) إِلَى خَارِجِ الْمَسْجِدِ .

وَهُنَا التَّفَتَ « فَرُوخٌ » إِلَى رَجُلٍ كَانَ يَجْلِسُ بِجَانِبِهِ وَقَالَ :
قُلْ لِي - بِرَبِّكَ - مِنَ الشَّيْخِ !؟ .

فَقَالَ الرَّجُلُ بِاسْتِعْرَابٍ : أَوَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ؟ .
فَقَالَ « فَرُوخٌ » : بَلَى .

فَقَالَ الرَّجُلُ : وَهَلْ فِي الْمَدِينَةِ رَجُلٌ وَاحِدٌ لَا يَعْرِفُ الشَّيْخَ !؟ .
فَقَالَ « فَرُوخٌ » : اعْذُرْنِي إِذَا كُنْتُ لَا أَعْرِفُهُ .

فَلَقَدْ أَمْضَيْتُ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ عَامًا بَعِيدًا عَنِ الْمَدِينَةِ ، وَلَمْ أَعُدْ إِلَيْهَا
إِلَّا أَمْسٍ ... فَقَالَ الرَّجُلُ :

لَا بَأْسَ ... اجْلِسْ إِلَيَّ قَلِيلًا أُحَدِّثُكَ عَنِ الشَّيْخِ .
ثُمَّ قَالَ :

إِنَّ الشَّيْخَ الَّذِي اسْتَمَعْتَ إِلَيْهِ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ التَّابِعِينَ ، وَعَلِمَ مِنْ أَغْلَامِ
الْمُسْلِمِينَ .

وَهُوَ مُحَدِّثُ الْمَدِينَةِ ، وَفَقِيهٌهَا ، وَإِمَامُهَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ .

فَقَالَ « فَرُوخٌ » : مَا شَاءَ اللَّهُ ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ...

فَاتَّبَعَ الرَّجُلُ يَقُولُ :

(١) يشيعونه : يودعونه .

وَإِنَّ مَجْلِسَهُ يَضُمُّ - كَمَا رَأَيْتَ - مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ^(١)، وَأَبَا حَنِيفَةَ النُّعْمَانَ ،
وَيَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيَّ ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَمْرِو
الْأَوْزَاعِيِّ ، وَاللَّيْثَ بْنَ سَعِيدٍ ، وَغَيْرَهُمْ وَغَيْرُهُمْ .

فَقَالَ « فَرُوحٌ » :

غَيْرَ أَنَّكَ ...

فَلَمْ يُتَيْخَ لَهُ الرَّجُلُ فُرْصَةً لِإِثْمَامِ كَلَامِهِ ، وَأَزْدَفَ^(٢) يَقُولُ :
وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ سَيِّدُ كَرِيمِ السَّمَائِلِ ، مُوَطَّأُ الْأَكْنَافِ^(٣) ، سَخِيٌّ
الْيَدِ ...

فَمَا عَرَفَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَحَدًا أَوْفَرَ مِنْهُ جُودًا لِصَدِيقٍ وَابِنٍ صَدِيقٍ ...
وَلَا أَرْهَدَ مِنْهُ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا ، وَلَا أَرْغَبَ مِنْهُ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ .

فَقَالَ « فَرُوحٌ » : وَلَكِنَّكَ لَمْ تَذْكُرْ لِي اسْمَهُ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنَّهُ رَبِيعَةُ الرَّأْيِ .

فَقَالَ « فَرُوحٌ » : رَبِيعَةُ الرَّأْيِ !! .

نَعَمْ ، إِنَّ اسْمَهُ رَبِيعَةُ ...

لَكِنَّ عُلَمَاءَ الْمَدِينَةِ وَشُبُوحَهَا دَعَوْهُ رَبِيعَةَ الرَّأْيِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا لَمْ يَجِدُوا
لِقَضِيَّةٍ نَصًّا فِي كِتَابِ اللَّهِ أَوْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَجَّؤُوا إِلَيْهِ ...
فَيَجْتَهِدُ فِي الْأَمْرِ ...

وَيَقْيِسُ مَا لَمْ يَرِدْ فِيهِ نَصٌّ عَلَى مَا وَرَدَ فِيهِ نَصٌّ ...

(١) مالك بن أنس : صاحب المذهب المعروف وكذلك أبو حنيفة النعمان ... انظره ص ٤٨٤ ، ٤٩٤ .

(٢) أردف : أتبع .
(٣) موطأ الأكناف : متواضع رضي الخلق .

وَيَأْتِيهِمْ بِالْحُكْمِ فِيمَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ عَلَى وَجْهِ تَرْكُنْ^(١) إِلَيْهِ النَّفُوسُ
وَتَطْمَئِنُّ لَهُ الْقُلُوبُ .

فَقَالَ « فَرْوُخُ » فِي لَهْفَةٍ : وَلَكِنَّكَ لَمْ تَنْسِبْهُ لِي ...
فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنَّهُ « رَبِيعَةُ بْنُ فَرْوُخِ » الْمُكَنَّى بِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ...
لَقَدْ وُلِدَ بَعْدَ أَنْ غَادَرَ أَبُوهُ الْمَدِينَةَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... فَتَوَلَّتْ أُمُّهُ
تَرْبِيَّتَهُ وَتَنْشِئَتَهُ ...

وَلَقَدْ سَمِعْتُ النَّاسَ قُبِيلَ الصَّلَاةِ يَقُولُونَ :
إِنَّ أَبَاهُ عَادَ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ .
عِنْدَ ذَلِكَ تَحَدَّرْتُ مِنْ عَيْنِي « فَرْوُخُ » دَمْعَتَانِ كَبِيرَتَانِ لَمْ يَعْرِفْ لَهُمَا
الرَّجُلُ سَبَبًا ...

وَمَضَى يَحُثُّ^(٢) الْخَطِيئَةَ نَحْوَ يَتِيهِ ...
فَلَمَّا رَأَتْهُ أُمُّ رَبِيعَةَ وَالْدُّمُوعُ تَمَلَأُ عَيْنَيْهِ قَالَتْ :
مَا بِكَ يَا أَبَا رَبِيعَةَ ؟
فَقَالَ : مَا بِي إِلَّا الْخَيْرُ ...
لَقَدْ رَأَيْتُ وَلَدَنَا رَبِيعَةَ فِي مَقَامٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالشَّرَفِ وَالْمَجْدِ مَا رَأَيْتُهُ لِأَحَدٍ
مِنْ قَبْلُ .

فَاعْتَنَمْتُ أُمُّ رَبِيعَةَ الْفُرْصَةَ وَقَالَتْ : أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ ...
ثَلَاثُونَ أَلْفَ دِينَارٍ أَمْ هَذَا الَّذِي بَلَغَهُ وَلَدُكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالشَّرَفِ ؟ .

(١) تركن إليه : تراح إليه وتطمئن .

(٢) يحث الخطيئ : يُشرع الخطيئ .

فَقَالَ : بَلْ - وَاللَّهِ - هَذَا أَحَبُّ إِلَيَّ ، وَآثَرُ^(١) عِنْدِي مِنْ مَالِ الدُّنْيَا كُلِّهِ .

فَقَالَتْ : لَقَدْ انْقَضَتْ مَا تَرَكْتُهُ عِنْدِي عَلَيْهِ ...

فَهَلْ طَابَتْ نَفْسُكَ بِمَا فَعَلْتُ ؟ !

فَقَالَ : نَعَمْ ...

وَجُرِيتِ عَنِّي وَعَنْهُ وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ ... (*) .

(١) آثَرُ : أَفْضَلُ وَأَحَبُّ .

(*) . للاستيزادة من أخبار ربيعة الرأي انظر :

- ١ - تذكرة الحفاظ : ١ / ١٤٨ .
- ٢ - حلية الأولياء : ٣ / ٢٥٩ .
- ٣ - صفة الصفوة : ٢ / ٨٣ .
- ٤ - ذيل الذيل : ١٠١ .
- ٥ - تاريخ بغداد : ٨ / ٤٢٠ .
- ٦ - ميزان الاعتدال : ١ / ١٣٦ .
- ٧ - التاج : ١٠ / ١٤١ .
- ٨ - وفيات الأعيان : ٢ / ٢٨٨ .
- ٩ - تاريخ الطبري : (انظر الفهارس في العاشر) .

رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ

« إِنَّ فِي كِنْدَةَ لثَلَاثَةَ رِجَالٍ يُنَزِّلُ اللَّهُ بِهِمُ الْغَيْثَ ...
وَيَنْصُرُ بِهِمُ عَلَى الْأَعْدَاءِ ... أَحَدُهُمْ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ »

[مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ]

كَانَ فِي قَوْنٍ ^(١) التَّابِعِينَ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ مَا عَرَفَ أَهْلُ زَمَانِهِمْ لَهُمْ مِثِيلاً ،
وَلَا رَأَوْا لَهُمْ ضَرِيئاً .

كَانَهُمُ اتَّقَوْا عَلَى مِيعَادٍ ؛ فَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ ...
وَتَعَاهَدُوا عَلَى الْخَيْرِ وَالْبِرِّ .

وَوَقَّفُوا حَيَاتَهُمْ عَلَى التَّقَى وَالْعِلْمِ .

وَجَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ فِي خِدْمَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَعَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ
وَخَاصَّتِهِمْ ، هُمْ :

مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ ^(٢) بِالْعِرَاقِ .

وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ^(٣) بِالْحِجَازِ .

وَرَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ بِالشَّامِ .

فَتَعَالَوْا نَقْضِ هَذِهِ اللَّحْظَاتِ الْمُبَارَكَاتِ فِي رِحَابِ ثَالِثِ هَؤُلَاءِ الْأَخْيَارِ
الْأَبْرَارِ رَجَاءِ بْنِ حَيَّوَةَ .

* * *

وُلِدَ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ فِي « بَيْسَانَ » مِنْ أَرْضِ « فِلَسْطِينَ » ...

(١) القرن : مدة من الزمان قدرها مائة سنة ، والمراد هنا جيل التابعين .

(٢) محمد بن سيرين : انظره ص ١٢٤ . (٣) القاسم بن محمد بن أبي بكر : انظره ص ٣٠٠ .

وَكَاثَتْ وَلَادَتُهُ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ «عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ» (١) أَوْ نَحْوِ مِنْ ذَلِكَ ...

وَكَانَ يَنْتَمِي إِلَى قَبِيلَةِ «كِنْدَةَ» الْعَرَبِيَّةِ .
وَعَلَى هَذَا فَرَجَاءُ «فِلَسْطِينِي» الْوَطَنِ ...
عَرَبِيَّ الْأُرُومَةِ (٢) ...
«كِنْدِي» الْعَشِيرَةِ .

* * *

وَقَدْ نَشَأَ الْفَتَى الْكِنْدِيُّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ مُنْذُ حَدَاثَةِ سِنِّهِ ؛ فَأَحَبَّهُ اللَّهُ وَحَبَّبَهُ إِلَيْهِ خَلْقَهُ .

وَأَقْبَلَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ مِنْ نُعُومَةِ أَطْفَارِهِ (٣) فَوَجَدَ الْعِلْمَ فُوَادَهُ غَضًّا طَرِيًّا خَالِيًّا ، فَتَمَكَّنَ مِنْهُ ، وَاسْتَقَرَّ فِيهِ .

وَجَعَلَ هَمَّهُ الْأَكْبَرَ التَّضَلُّعَ (٤) مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، وَالتَّرَوُّدَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَاسْتِضَاءَ فِكْرُهُ بِنُورِ الْقُرْآنِ ...

وَاسْتِنَارَتْ بَصِيرَتُهُ بِهَدْيِ النُّبُوَّةِ ...

وَامْتَلَأَ صَدْرُهُ بِالْمَوْعِظَةِ وَالْحِكْمَةِ ... وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ...

(١) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) الأرومة : الأصل .

(٣) نُعُومَةُ أَطْفَارِهِ : كناية عن صغر سنِّه .

(٤) التَّضَلُّعُ : يُقَالُ تَضَلَّعَ مِنَ الْعِلْمِ أَيُّ شَبَّعَ مِنْهُ وَزَوَّى .

وَقَدْ أُتِيحَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَنْ طَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ مِنْ أَمْثَالِ : أَبِي
سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ^(١) ، وَأَبِي أُمَامَةَ ، وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ...
وَمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ، وَالثَّوَّاسِ بْنِ
سَمْعَانَ ، وَغَيْرِهِمْ .

فَكَانُوا لَهُ مَصَابِيحَ هِدَايَةٍ ، وَمَشَاعِلَ عِرْفَانٍ .

* * *

وَقَدْ وَضَعَ الْفَتَى الْمَحْظُوظُ لِنَفْسِهِ دُسْتُورًا ظَلَّ يَلْتَزِمُ بِهِ وَيُرَدِّدُهُ مَا امْتَدَّتْ
بِهِ الْحَيَاةُ ، حَيْثُ كَانَ يَقُولُ :

مَا أَحْسَنَ الْإِسْلَامَ يَزِينُهُ الْإِيمَانُ ...

وَمَا أَحْسَنَ الْإِيمَانَ يَزِينُهُ الثَّقَلَى ...

وَمَا أَحْسَنَ الثَّقَلَى يَزِينُهُ الْعِلْمُ ...

وَمَا أَحْسَنَ الْعِلْمَ يَزِينُهُ الْعَمَلُ ...

وَمَا أَحْسَنَ الْعَمَلَ يَزِينُهُ الرَّفْقُ ...

* * *

وَقَدْ وَزَرَ^(٢) رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ لِطَائِفَةٍ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » ابْتِدَاءً مِنْ عَبْدِ
الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَانْتِهَاءً بِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(٣) .

لَكِنَّ صَلَاتَهُ بِسُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَاقَتْ صَلَاتِهِ
بِمَنْ سَبَقَهُمَا مِنَ الْخُلَفَاءِ .

* * *

(١) أبو الدرداء : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

(٣) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ .

(٢) وَزَرَ : صار وزيراً .

وَقَدْ أَذْنَاهُ مِنْ قُلُوبِ خُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » رَجَاحَةٌ فِي رَأْيِهِ ...
وَصِدْقٌ فِي لَهْجَتِهِ ...

وإِخْلَاصٌ فِي نِيَّتِهِ ...
وَحِكْمَةٌ فِي مُعَالَجَتِهِ الْأُمُورَ ...

ثُمَّ تَوَجَّحَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِزُهْدِهِ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا مِمَّا كَانَ يَتَزَاوَرُ
عَلَيْهِ الْمُتَزَاوِرُونَ .

* * *

وَقَدْ كَانَ اتِّصَالُهُ بِخُلَفَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » مِنْ عَظِيمِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِهِمْ ، وَجَزِيلِ
إِكْرَامِهِ لَهُمْ .

فَلَقَدْ دَعَاهُمْ إِلَى الْخَيْرِ ، وَذَلَّلَهُمْ عَلَى طُرُقِهِ ...

وَنَنَاهَهُمْ ^(١) عَنِ الشَّرِّ ، وَأَوْصَدَ دُونَهُمْ أَبْوَابَهُ ...

وَأَرَاهُمُ الْحَقَّ وَزَيَّنَ لَهُمْ اتِّبَاعَهُ ...

وَبَصَّرَهُمْ بِالْبَاطِلِ وَكَرَّرَهُ إِلَيْهِمْ إِتْيَانَهُ ...

فَنَصَحَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَلِأُمَمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ .

وَلَقَدْ وَقَعَتْ لِرَجَاءِ قِصَّةِ أَنْارَتْ لَهُ طَرِيقَهُ فِي مُحَالَطَةِ الْخُلَفَاءِ ، وَحَدَّثَتْ
لَهُ مُهِمَّتُهُ مَعَهُمْ رَوَاهَا بِنَفْسِهِ فَقَالَ :

إِنِّي لَوَاقِفٌ مَعَ سُلَيْمَانَ ^(٢) بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي جُمُوعٍ مِنَ النَّاسِ ؛ إِذْ رَأَيْتُ
رَجُلًا يَتَّبِعُهُ نَحُونًا وَسَطَ الرُّحَامِ ...

(١) ثناهم عن الشر : صَرَفَهُمْ عَنِ الشَّرِّ .

(٢) سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : من أكابر خلفاء بني أمية ، أسس مدينة « الرملة » بفلسطين ، حارب البيزنطيين

وحاصر « القسطنطينية » .

وَكَانَ حَسَنَ الصُّورَةِ جَلِيلَ الْهَيْئَةِ ، فَمَا زَالَ يَشُقُّ الصُّفُوفَ وَأَنَا مَا أَشْكُ
أَنَّهُ يَزُومُ^(١) الْخَلِيفَةَ حَتَّى حَاذَانِي^(٢) ، وَوَقَفَ إِلَيَّ جَانِبِي ، ثُمَّ حَيَّانِي وَقَالَ :

يَا رَجَاءُ ...

إِنَّكَ قَدْ ابْتُلِيتَ بِهَذَا الرَّجُلِ .

وَأَشَارَ إِلَيَّ الْخَلِيفَةَ .

وَأَنَّ فِي الْقُرْبِ مِنْهُ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ ، أَوِ الشَّرَّ الْكَثِيرَ ...

فَاجْعَلْ قُرْبَكَ مِنْهُ خَيْرًا لَكَ وَلَهُ وَلِلنَّاسِ ...

وَأَعْلَمَ يَا رَجَاءُ أَنَّهُ مَنْ كَانَتْ لَهُ مَنْزِلَةٌ مِنَ السُّلْطَانِ ؛ فَرَفَعَ إِلَيْهِ حَاجَةً امْرِيٍّ
ضَعِيفٍ لَا يَسْتَطِيعُ رَفْعَهَا ؛ لَقِيَ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَقَدْ ثَبَّتَ قَدَمَيْهِ
لِلْحِسَابِ^(٣) ...

وَأَذْكُرُ يَا رَجَاءُ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ .

وَأَعْلَمَ يَا رَجَاءُ أَنَّ مِنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ؛ إِذْخَالَ الْفَرْحَ عَلَى
قَلْبِ امْرِيٍّ مُسْلِمٍ .

وَفِيمَا كُنْتُ أَتَأَمَّلُ كَلَامَهُ وَأَتَرَقَّبُ أَنْ يَزِيدَنِي مِنْهُ ، نَادَى الْخَلِيفَةُ قَائِلًا :

أَيْنَ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ ؟ .

فَانْعَطَفْتُ^(٤) نَحْوَهُ وَقُلْتُ :

هَآنَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

(١) يزوم الخليفة : يريد الخليفة .

(٢) حاذاني : صار إزائي .

(٣) ثَبَّتَ قَدَمَيْهِ لِلْحِسَابِ : أَمَكَّنَهُ مِنَ الْحِسَابِ وَبَسَّرَهُ لَهُ .

(٤) انعطفت : ملئت .

فَسَأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ ؛ فَمَا كِدْتُ أَفْرُغُ مِنْ جَوَابِهِ حَتَّى التَفْتُ إِلَى صَاحِبِي
فَلَمْ أَجِدْهُ ...

فَنَفَضْتُ الْمَكَانَ عَنْهُ نَفْضاً^(١) ؛ فَلَمْ أَقْعُ لَهُ عَلَى أَثَرٍ بَيْنَ النَّاسِ ...

* * *

وَلَقَدْ كَانَتْ لِرَجَاءِ بْنِ حَيَوَةَ مَعَ خُلَفَاءِ بَنِي «أُمَيَّة» مَوَاقِفُ صِدْقٍ مَا زَالَ
يُكِنُّهَا^(٢) التَّارِيخُ فِي أَزْهَى صَفَحَاتِهِ ، وَيَزَوِيهَا الْخَلْفُ عَنِ السَّلَفِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي مَجْلِسِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَوُصِفَ
لِلْخَلِيفَةِ رَجُلٌ بِسُوءِ طَوِيلَتِهِ^(٣) عَلَى بَنِي «أُمَيَّة» ، وَقِيلَ لَهُ :

إِنَّهُ يُشَايِعُ ابْنَ الزُّبَيْرِ^(٤) ، وَيَنْتَصِرُ لَهُ ... وَذَكَرَ الْوَاشِي لَهُ مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ
مَا أَثَارَ حَفِيزَتَهُ^(٥) فَقَالَ :

وَاللَّهِ لَئِنْ أَمَكَّنَنِي اللَّهُ مِنْهُ لَأَفْعَلَنَّ ، وَلَأَفْعَلَنَّ ...

وَلَأَضَعَنَّ السَّيْفَ فِي عُنُقِهِ .

وَلَمْ يَمُضِ طَوِيلٌ وَقَتٍ حَتَّى أَمَكَّنَهُ اللَّهُ مِنَ الرَّجُلِ ، وَسَبَقَ إِلَيْهِ سَوْقاً ...

فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَيْهِ ، كَادَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ، وَهَمَّ بِأَنْ يُنْفَذَ وَعِيدُهُ بِهِ ...

فَقَامَ إِلَيْهِ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ وَقَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ قَدْ صَنَعَ لَكَ مَا تُحِبُّهُ مِنَ الْقُدْرَةِ ، فَاصْنَعْ لِلَّهِ مَا يُحِبُّهُ مِنْ

الْعَفْوِ ...

(١) نفَضْتُ المكانَ عنه : تحرَّيتُ المكانَ بحثاً عنه .

(٢) يَكِنُّهَا : يحفظها .

(٣) طَوِيلَتُهُ : ما يطويه في صدره من نية .

(٤) ابن الزبير : هو عبد الله بن الزبير منافس عبد الملك بن مروان على الخلافة . (٥) الحَفِيزَةُ : القَصَبُ .

فَسَكَتَ نَفْسَ الْخَلِيفَةِ ، وَسَكَتَ عَنْهُ غَضَبُهُ ...
وَعَفَا عَنِ الرَّجُلِ ، وَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ...

* * *

وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ حَجَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبِصُحْبَتِهِ رَجَاءُ بْنُ
حَيَوَةَ .

فَلَمَّا بَلَغَا الْمَدِينَةَ زَارَا مَسْجِدَهَا النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ يُرَافِقُهُمَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

وَقَدْ رَغِبَ الْخَلِيفَةُ فِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْحَرَمِ النَّبَوِيِّ نَظْرَةً أُنَاةً وَرَوِيَّةً .

إِذْ كَانَ قَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى تَوْسِعَتِهِ حَتَّى يَكُونَ مِائَتِي ذِرَاعٍ .

فَأُخْرِجَ النَّاسُ مِنَ الْمَسْجِدِ لِيَتِمَّ كَنْ الْخَلِيفَةُ مِنْ تَأْمُلِهِ .

وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ غَيْرُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ^(١) ، إِذْ لَمْ يَجْزُوا الْحَرَسَ عَلَى
إِخْرَاجِهِ .

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ - وَكَانَ يَوْمَئِذٍ وَالِيًا عَلَى الْمَدِينَةِ - رَسُولًا
يَقُولُ لَهُ :

لَوْ خَرَجْتَ مِنَ الْمَسْجِدِ كَمَا خَرَجَ النَّاسُ .

فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : لَا أُغَادِرُ الْمَسْجِدَ إِلَّا فِي الْوَقْتِ الَّذِي اعْتَدْتُ
أَنْ أُغَادِرَهُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ .

فَقِيلَ لَهُ : لَوْ قُتِمَتْ فَسَلَّمْتَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : إِنَّمَا جِئْتُ إِلَى هُنَا لِأَقُومَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

(١) سعيد بن المسيب : انظره ص ١٩٧ .

فَلَمَّا عَرَفَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَا دَارَ بَيْنَ رَسُولِهِ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ،
جَعَلَ يَعْدِلُ^(١) بِالْخَلِيفَةِ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ سَعِيدٌ ...

وَأَخَذَ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ يُشَاغِلُهُ بِالْكَلامِ ، لِمَا كَانَا يَعْلَمَانِ مِنْ شِدَّةِ
عُنْفُوانِ^(٢) الْخَلِيفَةِ .

فَقَالَ لَهُمَا الْوَلِيدُ :

مَنْ ذَلِكَ الشَّيْخُ ؟ ...

أَلَيْسَ هُوَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ؟ .

فَقَالَا : بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَطَفِقَا يَصِفَانِ مِنْ دِينِهِ وَعِلْمِهِ ، وَفَضْلِهِ وَتَقْوَاهُ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ .

ثُمَّ قَالَا :

وَلَوْ عَلِمَ الشَّيْخُ بِمَكَانِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَقَامَ إِلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ؛ وَلَكِنَّهُ ضَعِيفُ
الْبَصَرِ .

فَقَالَ الْوَلِيدُ : إِنِّي لَأَعْلَمُ مِنْ حَالِهِ مِثْلَمَا تَذْكُرَانِ ...

وَهُوَ أَحَقُّ أَنْ نَأْتِيَهُ وَنُسَلِّمَ عَلَيْهِ .

ثُمَّ دَارَ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى أَتَاهُ ، وَوَقَفَ عَلَيْهِ ، وَحَيَّاهُ وَقَالَ :

كَيْفَ الشَّيْخُ ؟ .

فَلَمْ يَنْهَضْ مِنْ مَكَانِهِ ، وَقَالَ :

بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ...

(١) جعل يعدل بالخليفة: أخذ يميل بالخليفة ويعدده . (٢) العنفوان: الشدة .

فَكَيْفَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَفَقَهُ اللَّهَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ...

فَانْصَرَفَ الْوَلِيدُ وَهُوَ يَقُولُ :

هَذَا بَقِيَّةُ النَّاسِ ...

هَذَا بَقِيَّةُ سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ...

* * *

وَلَمَّا أَفْضَتْ ^(١) الْخِلَافَةُ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ كَانَ لِرَجَاءِ بْنِ حَيَّوَةَ عِنْدَهُ شَأْنٌ ^(٢) يَفُوقُ شَأْنَهُ عِنْدَ سَابِقِيهِ .

فَقَدْ كَانَ سُلَيْمَانُ عَظِيمَ الثَّقَةِ بِهِ ، شَدِيدَ الْإِعْتِمَادِ عَلَيْهِ ، حَرِيصاً عَلَى أَنْ يَأْخُذَ بِرَأْيِهِ فِي صَغِيرِ الْأُمُورِ وَكَبِيرِهَا ...

وَمَوَاقِفَ رَجَاءِ بْنِ حَيَّوَةَ مَعَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ كَثِيرَةٌ مُثِيرَةٌ .

يَبْدَأُ ^(٣) أَنْ أَكْبَرَهَا شَأْنًا وَأَعْظَمَهَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَطَرًا ؛ مَوْقِفُهُ مِنْ أَمْرِ وَلَايَةِ الْعَهْدِ ، وَآثَرُهُ فِي الْبَيْعَةِ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

* * *

حَدَّثَ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ قَالَ :

لَمَّا كَانَ أَوَّلُ يَوْمِ جُمُعَةٍ مِنْ شَهْرِ صَفَرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ كُنَّا مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ « بِدَائِقِ » ^(٤) .

وَكَانَ قَدْ أُرْسِلَ جَيْشًا لِحِجَابٍ ^(٥) إِلَى « الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ » بِقِيَادَةِ أَخِيهِ مَسْلَمَةَ

(١) أفضت الخلافة إلى فلان : آلت إليه وصارت له .

(٢) الشأن : ما عَظُمَ من الأمور والأحوال .

(٣) يبدأ : غير أن .

(٤) دابق : قرية قرب حلب في سورية كان ينزلها بنو أمية إذا غزوا بلاد الروم ، وبها قبر سليمان بن عبد الملك .

(٥) جيشاً لحباً : جيشاً كبيراً ذا جلبة .

ابنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَمَعَهُ ابْنُهُ دَاوُدُ ، وَطَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ آلِ بَيْتِهِ .
وَقَدْ آلَى ^(١) عَلَى أَلَا يَبْرَحَ « مَرْجَ دَابِقَ » حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ
« الْقُسْطَ طَبِيبِيَّةً » أَوْ يَمُوتَ .

فَلَمَّا اقْتَرَبَ مَوْعِدُ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ؛ تَوَضَّأَ الْخَلِيفَةُ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ،
ثُمَّ لَبَسَ حُلَّةَ خَضِرَاءَ ، وَاعْتَمَّ بِعِمَامَةِ خَضِرَاءَ .

وَنَظَرَ فِي الْمِرْآةِ نَظْرَةً مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ ، مَزْهُوٌّ بِشَبَابِهِ .

وَكَانَ فِي نَحْوِ الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمرِهِ ...

ثُمَّ خَرَجَ لِيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ الْجُمُعَةَ ؛ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَّا وَهُوَ
مَوْعُوكٌ ^(٢) ...

ثُمَّ أَخَذَ يَنْقُلُ عَلَيْهِ الْمَرَضُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .

وَقَدْ سَأَلَنِي أَنْ أَظْلَّ قَرِيبًا مِنْهُ ...

فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ذَاتَ مَرَّةٍ فَوَجَدْتُهُ يَكْتُبُ كِتَابًا .

فَقُلْتُ : مَا تَصْنَعُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟

فَقَالَ : أَكْتُبُ كِتَابًا أَعْهَدُ ^(٣) بِهِ إِلَيَّ ابْنِي أُثِيبَ .

فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

إِنَّ مِمَّا يَحْفَظُ الْخَلِيفَةُ فِي قَبْرِهِ ، وَيُبْرِئُ ذِمَّتَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ؛ أَنْ يَسْتَخْلِفَ عَلَى
النَّاسِ الرَّجُلَ الصَّالِحَ .

(١) آلَى : خَلَفَ .

(٢) الموعوك : من أصابته الحمى .

(٣) أعهد به لابني : أي أعهد له بالخلافة .

وَإِنَّ ابْنَكَ أَيُّوبَ غُلَامٌ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ بَعْدُ ، وَلَمْ يَتَّبِعْ لَكَ صَلَاحَهُ مِنْ
طَلَاحِهِ (١) ...

فَتَرَاجَعَ وَقَالَ : إِنَّهُ كِتَابٌ كَتَبْتُهُ ...

وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسْتَحْيِرَ اللَّهَ فِيهِ ...

وَلَمْ أُعْزِمَ عَلَيْهِ ...

ثُمَّ مَرَّقَ الْكِتَابَ ...

وَمَكَتَ بَعْدَ ذَلِكَ يَوْماً أَوْ يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ دَعَانِي وَقَالَ :

مَا رَأَيْتُكَ فِي وَلَدِي دَاوُدَ يَا أَبَا الْمُقْدَامِ ؟ .

فَقُلْتُ : هُوَ غَائِبٌ مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ فِي « الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ » ...

وَأَنْتَ لَا تَدْرِي الْآنَ أَحْيٍ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ ؟ .

فَقَالَ : فَمَنْ تَرَى إِذَنْ يَا رَجَاءُ ؟ .

فَقُلْتُ : الرَّأْيَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَنْظُرَ فِيمَنْ يَذْكُرُهُمْ لِكَيْ أَسْتَبْعِدَهُمْ وَاحِداً وَاحِداً ؛ حَتَّى

أَصِلَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

فَقَالَ : كَيْفَ تَرَى عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؟ .

فَقُلْتُ : مَا عَلِمْتُهُ - وَاللَّهِ - إِلَّا فَاضِلاً ، كَامِلاً ، عَاقِلاً ، دِيناً ...

فَقَالَ : صَدَقْتَ ...

إِنَّهُ - وَاللَّهِ - لَكَذَلِكَ ...

(١) الطلاح : ضدُّ الصلاح .

وَلَكِنِّي إِنْ وَلَّيْتُهُ وَأَغْفَلْتُ أَوْلَادَ عَبْدِ الْمَلِكِ (١) لَتَكُونَنَّ فِتْنَةً ، وَلَا يَتْرُكُونَهُ
يَلِي عَلَيْهِمْ أَبَدًا ...

فَقُلْتُ : أَشْرِكُ وَاحِدًا مِنْهُمْ وَاجْعَلْهُ بَعْدَهُ .

فَقَالَ : أَصَبْتَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُسَكِّنُهُمْ ، وَيَجْعَلُهُمْ يَرْضَوْنَهُ ...
ثُمَّ أَخَذَ الْكِتَابَ وَكَتَبَ بِيَدِهِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا كِتَابٌ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِعُمَرَ بْنِ
عَبْدِ الْعَزِيزِ ، إِنِّي وَلَّيْتُهُ الْخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِي ، وَجَعَلْتُهَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَزِيدَ بْنِ عَبْدِ
الْمَلِكِ .

فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَلَا تَخْتَلِفُوا فَيَطْمَعَ الطَّامِعُونَ فِيكُمْ ...
ثُمَّ خَتَمَ الْكِتَابَ ، وَنَاوَلَنِي إِيَّاهُ ...

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيَّ « كَعْبُ بْنُ حَامِرٍ » صَاحِبِ الشُّرْطَةِ (٢) وَقَالَ لَهُ :
ادْعُ آلَ يَتِي فليَجْتَمِعُوا ...

وَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي فِي يَدِ رَجَاءِ بْنِ حَيَّوَةَ هُوَ كِتَابِي ... وَمُرُهُمْ
بِأَنْ يُبَايِعُوا لِمَنْ فِيهِ .

قَالَ رَجَاءُ :

فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قُلْتُ لَهُمْ : هَذَا كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَهِدَ فِيهِ لِلْخَلِيفَةِ
مِنْ بَعْدِهِ ، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَخَذَ مِنْكُمْ الْبَيْعَةَ لِمَنْ وَلَّاهُ ، فَقَالُوا :

(١) أولاد عبد الملك : يعني إخوته .

(٢) صاحب الشُّرْطَةِ : مدير الشُّرْطَةِ .

سَمِعَا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَطَاعَةً لِخَلِيفَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ ...
وَطَلَبُوا أَنْ أَسْتَأْذِنَ لَهُمْ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ .
فَقُلْتُ : نَعَمْ .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ :

إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي فِي يَدِ رَجَاءِ بْنِ خَيْثَمَةَ هُوَ كِتَابِي ، وَفِيهِ عَهْدِي
لِلْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِي ، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا لِمَنْ وَلَّيْتُ ، وَتَابِعُوا لِمَنْ سَمَّيْتُ فِي هَذَا
الْكِتَابِ .

فَطَفِقُوا يُتَابِعُونَ رَجُلًا رَجُلًا ...

ثُمَّ خَرَجْتُ بِالْكِتَابِ مَحْتُمًا ... لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ مَا فِيهِ غَيْرِي
وَعِزُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ ، جَاءَنِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَالَ :
يَا أَبَا الْمِقْدَامِ ...

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلٌ حَسَنُ الظَّنِّ بِي ، وَكَانَ يُؤَلِّينِي ^(١) مِنْ كَرِيمِ بَرِّهِ
وَصَافِي وَدَادِهِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ ...

وَأَنَا أَخْشَى أَنْ يَكُونَ قَدْ أَسْنَدَ إِلَيَّ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ شَيْئًا ، فَأَنْشُدُكَ اللَّهَ ^(٢)
وَأَسْأَلُكَ بِحُرْمَتِي وَمَوَدَّتِي أَنْ تُعَلِّمَنِي إِنْ كَانَ فِي كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ شَيْءٌ
يَخْصُنِي حَتَّى أَسْتَعْفِيَهُ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ فَوَاتِ الْفُرْصَةِ .
فَقُلْتُ لَهُ :

لَا وَاللَّهِ مَا أَنَا بِمُخْبِرِكَ خَوْفًا وَاحِدًا مِمَّا سَأَلْتَ عَنْهُ ...

(٢) أَنْشُدُكَ اللَّهَ : أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ .

(١) يُؤَلِّينِي : يَمْنَحُنِي .

فَتَوَلَّى عَنِّي وَهُوَ غَضَبَانُ .

ثُمَّ مَا لَيْتَ أَنْ جَاءَنِي هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَالَ :
يَا أَبَا الْمِقْدَامِ ، إِنَّ لِي عِنْدَكَ حُزْمَةً وَمَوَدَّةً قَدِيمَةً ، وَإِنَّ لَكَ عِنْدِي شُكْرًا
جَزِيلًا ؛ فَأَعْلِمْنِي بِمَا فِي كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .
فَإِنْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ ^(١) إِلَيَّ سَكَتٌ ...
وَإِنْ كَانَ لِعَیْرِي تَكَلَّمْتُ ... فَلَيْسَ مِثْلِي مَنْ يُنَحِّي عَنْ هَذَا الْأَمْرِ .
وَلَكَ عَهْدُ اللَّهِ أَلَّا أَذْكَرَ اسْمَكَ أَبَدًا .
فَقُلْتُ لَهُ :

لَا وَاللَّهِ لَا أَخْبِرُكَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ مِمَّا أَسَرَّ بِهِ إِلَيَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ .
فَانْصَرَفَ وَهُوَ يَضْرِبُ كَفًّا بِكَفٍّ وَيَقُولُ :
لِمَنْ يَكُونُ هَذَا الْأَمْرُ إِذَا أَنَا نُحِيتُ عَنْهُ ؟ ! ...
أَتَخْرُجُ الْخِلَافَةَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمَلِكِ ؟ ! ...
وَاللَّهِ إِنِّي لَعَيْنُ ^(٢) أَوْلَادِ عَبْدِ الْمَلِكِ .
ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَإِذَا هُوَ يَجُودُ بِرُوحِهِ ، فَجَعَلْتُ
إِذَا أَخَذَتْهُ السَّكْرَةُ مِنْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ أَحْرَفُهُ نَحْوَ الْقِبْلَةِ ، فَكَانَ يَقُولُ لِي وَهُوَ
يَشْهَقُ :
لَمْ يَأْنِ ^(٣) ذَلِكَ بَعْدُ يَا رَجَاءُ .

حَتَّى فَعَلْتُ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ ؛ فَلَمَّا كَانَتِ الثَّالِثَةُ قَالَ :

(١) هذا الأمر : أي الخلافة .

(٢) عين أولاد عبد الملك : سيّد أولاد عبد الملك وأفضلهم . (٣) لم يأن : لم يحن .

الآن يَا رَجَاءُ ... إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا فَافْعَلْهُ ...
أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .
فَحَرَفْتُهُ نَحْوَ الْقِبْلَةِ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ أَسْلَمَ رُوحَهُ .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ أَعْمَضْتُ عَيْنَيْهِ ، وَسَجَّيْتُهُ^(١) بِقَطِيفَةٍ خَضْرَاءَ ، وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ
عَلَيْهِ ، وَخَرَجْتُ .

فَأَرْسَلْتُ إِلَيَّ زَوْجَتَهُ تَسْأَلُنِي عَنْهُ ، وَتَطْلُبُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ .
فَشَقَقْتُ عَنْهُ الْبَابَ وَقُلْتُ لِرَسُولِهَا :

انْظُرْ إِلَيْهِ ، لَقَدْ نَامَ السَّاعَةَ بَعْدَ سَهَرٍ طَوِيلٍ ، فَدَعُوهُ .
فَرَجَعَ فَأَخْبَرَهَا ، فَقَبِلْتُ ذَلِكَ ، وَأَيَقَنْتُ أَنَّهُ نَائِمٌ .

ثُمَّ أَحْكَمْتُ إِغْلَاقَ الْبَابِ ، وَأَجْلَسْتُ عِنْدَهُ حَارِسًا أَتَقَى بِهِ ، وَأَوْصَيْتُهُ
أَلَّا يَتَزَحَّزَحَ عَنْ مَكَانِهِ حَتَّى أَعُودَ ، وَأَلَّا يَدْخُلَ عَلَى الْخَلِيفَةِ أَحَدًا أَبَدًا كَائِنًا مَنْ
كَانَ ...

وَمَضَيْتُ ، فَلَقَيْتَنِي النَّاسُ وَقَالُوا : كَيْفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟
فَقُلْتُ : لَمْ يَكُنْ مُنْذُ مَرِضَ أَسْكَنَ مِنْهُ الْآنَ وَلَا أَهْدَأَ .
فَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ .

ثُمَّ أَرْسَلْتُ إِلَيَّ « كَعْبُ بْنُ حَامِزٍ » صَاحِبِ الشُّرْطَةِ ؛ فَجَمَعَ أَهْلَ بَيْتِ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا فِي مَسْجِدِ « دَابِق » .
فَقُلْتُ : بَايَعُوا لِمَنْ فِي كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

(١) سَجَّيْتُهُ : غَطَيْتُهُ .

فَقَالُوا : قَدْ بَايَعْنَا مَرَّةً وَنُبَايِعُ أُخْرَى !؟ .

فَقُلْتُ : هَذَا أَمْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ...

بَايَعُوا عَلِيَّ مَا أَمَرَ بِهِ ...

وَلَمَنْ سَمَى فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمَحْتُومِ .

فَبَايَعُوا رَجُلًا رَجُلًا .

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنِّي قَدْ أَحْكَمْتُ الْأَمْرَ ... قُلْتُ :

إِنَّ صَاحِبَكُمْ قَدْ مَاتَ ، وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

وَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى ذِكْرِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؛ نَادَى
هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ :

لَا نُبَايِعُهُ أَبَدًا ... فَقُلْتُ :

إِذَنْ - وَاللَّهِ - أَضْرِبْ عُنُقَكَ ...

قُمْ فَبَايِعْ .

فَقَامَ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ ... فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى عُمَرَ قَالَ :

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [وَهُوَ يَسْتَرْجِعُ ^(١) لِمَصِيرِ الْخِلَافَةِ إِلَى عُمَرَ دُونَهُ
وَدُونَ إِخْوَتِهِ مِنْ أَوْلَادِ عَبْدِ الْمَلِكِ] .

وَقَالَ عُمَرُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [وَكَانَ يَسْتَرْجِعُ لِمَصِيرِ الْخِلَافَةِ إِلَيْهِ
عَلَى كُرْهِ مِنْهُ] .

(١) يسترجع : يقول إنا لله وإنا إليه راجعون .

فَكَانَتْ بَيْعَةً جَدَّدَ اللَّهُ فِيهَا لِلْإِسْلَامِ شَبَابَهُ ، وَرَفَعَ لِلدِّينِ مَنَارَهُ .

* * *

فَطُوْبِي (١) لِخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ...

فَقَدْ أَتَبْرَأَ ذِمَّتُهُ أَمَامَ اللَّهِ بِتَوَلِّيَّتِهِ الرَّجُلَ الصَّالِحَ

وَهَنِيئًا لِرَؤُوسِ الصَّدِّيقِ رَجَاءِ بْنِ حَيَّوَةَ ...

فَقَدْ نَصَحَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ .

وَجَزَى اللَّهُ الْبِطَانَةَ (٢) الصَّالِحَةَ الْخَيْرَ ...

وَلَقَّاهَا الْأَجْرَ ...

فَبَسَنَّا (٣) رَأْيَهَا يَهْتَدِي الْأَخْيَارُ الْمَحْظُوظُونَ الْمُؤَفَّقُونَ مِنْ ذَوِي

الْشُّلْطَانِ (*) .

(١) طوبى : الجنة والسعادة .

(٢) بطانة الرجل : خاصته ومستشاروه .

(٣) بسنا رأياها : بنور رأياها .

(*) للاستزادة من أخبار رجاء بن حيوة انظر :

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٣٣٥/٥ - ٣٣٩ ، ٣٩٥ ، ٤٠٧ .

٢ - صفة الصفوة لابن الجوزي : ٢١٣/٤ .

٣ - حلية الأولياء للأصفهاني : ١٧٠/٥ .

٤ - البيان والتبيين للجاحظ : ٣٩٧/١ و ١٠٧/٢ ، ٣٢٢ .

٥ - تهذيب التهذيب لابن حجر : ٢٦٥/٣ .

٦ - تاريخ الطبري لابن جرير الطبري : ٣٦٥/٦ - ٣٧٠ .

٧ - وفیات الأعيان لابن خلكان : ٤٣٠/١ و ٣٠١/٢ و ٣٠٣ و ٣١٦/٧ .

٨ - تاريخ خليفة بن خياط : ٣٥٧ .

٩ - العقد الفريد لابن عبد ربه : ٥٠/٢ ، ٨٢ ، ٢٣٥ و ٨٦/٣ ، ١٠٥ ، ٣٠٦ و ١٥٦/٤ ، ٢١٩ و ١٣٩/٥ ،

١٦٦ و ٩٦/٧ .

١٠ - تهذيب التهذيب : ٢٦٥/٣ .

عامر بن شراحيل

المعروف بالشعبي

« كَانَ الشَّعْبِيُّ وَاسِعَ الْعِلْمِ ، عَظِيمَ الْحِلْمِ ...
وَأَنَّهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِمَكَانٍ ... »

[الْحَسَنُ الْبُضْرِيُّ]

لِسِتِّ سَنَوَاتٍ خَلَتْ مِنْ خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلِدَ لِلْمُسْلِمِينَ
مَوْلُودٌ نَحِيلُ الْجِسْمِ ، ضَيْلُ الْجِزْمِ^(١) .

ذَلِكَ لِأَنَّ أَخَاهُ زَاحِمَهُ عَلَى رَجِمِ أُمِّهِ ؛ فَلَمْ يَدْعَ لَهُ مَجَالاً لِلثُّمُورِ ...
لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُزَاحِمَهُ لَا هُوَ وَلَا غَيْرُهُ فِي مَجَالَاتِ الْعِلْمِ ،
وَالْحِلْمِ ، وَالْحِفْظِ ، وَالْفَهْمِ ، وَالْعَبْقَرِيَّةِ^(٢) .

ذَلِكُمْ هُوَ عَامِرُ بْنُ شُرَاحِيلَ الْحِمَيْرِيِّ الْمَعْرُوفُ بِالشَّعْبِيِّ ...
نَابِغَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي عَصْرِهِ .

* * *

وُلِدَ الشَّعْبِيُّ فِي « الْكُوفَةِ » وَفِيهَا نَشَأَ .

لَكِنَّ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ كَانَتْ مَهْوًى^(٣) فُؤَادِهِ وَمَطْمَحَ نَفْسِهِ ، فَكَانَ
يُؤْمُهَا^(٤) مِنْ حِينَ لَا خَرَ لِيَلْقَى صَحَابَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلِيَأْخُذَ عَنْهُمْ ، كَمَا
كَانَ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ يُؤْمُونَ « الْكُوفَةَ » لِيَتَّخِذُوهَا مُنْطَلِقاً لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
أَوْ دَاراً لِإِقَامَتِهِمْ .

(٣) مَهْوًى فُؤَادِهِ : مُسْتَهْزِئٌ نَفْسَهُ .

(٤) يَوْمُهَا : يَقْصِدُهَا وَيَمِضِي إِلَيْهَا .

(١) ضَيْلُ الْجِزْمِ : صَغِيرُ الْجَسَدِ .

(٢) الْعَبْقَرِيَّةُ : قُوَّةُ الْإِبْدَاعِ .

فَأُتِيحَ^(١) لَهُ أَنْ يَلْقَى نَحْواً مِنْ خَمْسِمِائَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ، وَأَنْ يَزُورِيَ
عَنْ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ جِلَّتِهِمْ مِنْ أَمْثَالِ : عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ،
وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ...

وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ، وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، وَأَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ...
وَالنُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ...
وَعَدِيَّ بْنِ حَاتِمٍ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَائِشَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ .

* * *

وَقَدْ كَانَ الشَّعْبِيُّ فَتًى مَتَوَقِّدَ الذِّكَا^(٢) ، يَقِظَ الْفُؤَادِ^(٣) ، مُزَهِّفَ
الذَّهْنِ^(٤) ، دَقِيقَ الْفَهْمِ ، آيَةً فِي قُوَّةِ الْحَافِظَةِ وَالذَّاكِرَةِ ...
فَقَدْ رُويَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ :

مَا كَتَبْتُ سَوْدَاءَ فِي بَيْضَاءَ^(٥) قَطُّ ، وَلَا حَدَّثَنِي رَجُلٌ بِحَدِيثٍ
إِلَّا حَفِظْتُهُ ، وَلَا سَمِعْتُ مِنْ امْرِئٍ كَلَاماً ثُمَّ أَحْبَبْتُ أَنْ يُعِيدَهُ عَلَيَّ .
وَقَدْ كَانَ الْفَتَى مُولِعاً بِالْعِلْمِ ، مَشْغُوفاً^(٦) بِالْمَعْرِفَةِ ، يَبْذُلُ فِي سَبِيلِهِمَا
النَّفْسَ وَالنَّفِيسَ ، وَيَسْتَسْهِلُ مِنْ أَجْلِهِمَا الْمَصَاعِبَ ... إِذْ كَانَ يَقُولُ :
لَوْ أَنَّ رَجُلًا سَافَرَ مِنْ أَقْصَى الشَّامِ إِلَى أَقْصَى الْيَمَنِ ؛ فَحَفِظَ كَلِمَةً وَاحِدَةً
تَنْفَعُهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ مِنْ عُمْرِهِ ، لَرَأَيْتُ أَنَّ سَفَرَهُ لَمْ يَضِعْ .
وَقَدْ بَلَغَ مِنْ عِلْمِهِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ :
أَقَلُّ شَيْءٍ تَعَلَّمْتُهُ الشُّعْرُ ...

(١) أُتِيحَ لَهُ : يُسَّرَ لَهُ .

(٢) متوقد الذكاء : مشتعل الذكاء .

(٣) مرهف الذهن : دقيق الذهن .

(٤) ما كتبت سوداء في بيضاء : ما سجلت كلاماً في ورق .

(٥) مشغولاً بالمعرفة : مجباً للمعرفة مولعاً بها .

(٦) يقظ الفؤاد : متنبه الفؤاد ، قَظِنَ الْقَلْبِ .

وَلَوْ شِئْتُ لَأَنْشَدْتُكُمْ مِنْهُ شَهْرًا دُونَ أَنْ أُعِيدَ شَيْئًا مِمَّا أَنْشَدْتُهُ .

* * *

وَكَاثَتْ تُغَقَّدُ لَهُ حَلَقَةٌ فِي جَامِعِ « الْكُوفَةِ » ، فَيَلْتَفُّ النَّاسُ حَوْلَهُ زُمْرًا زُمْرًا ، وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْيَاءُ يَزُورُونَ وَيَعْدُونَ بَيْنَ أَظْهَرِ النَّاسِ .

بَلْ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ يَقْصُصُ عَلَى النَّاسِ أَخْبَارَ الْمَغَارِي (١) بِحَفَايَاهَا وَدَقَائِقِهَا ، فَأَرْهَفَ إِلَيْهِ سَمْعَهُ وَقَالَ :

لَقَدْ شَهِدْتُ بَعْضَ مَا يَقْصُصُهُ بَعْثِي وَسَمِعْتُهُ بِأُذُنِي ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ أَرْوَى (٢) لَهُ مِنِّي .

وَشَوَاهِدُ سَعَةِ عِلْمِ الشَّعْبِيِّ وَخُضُورِ ذَهْنِهِ ، غَزِيرَةٌ وَفِيرَةٌ .

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

أَتَانِي رَجُلَانِ يَتَفَاخِرَانِ ، أَحَدُهُمَا مِنْ بَنِي « عَامِرٍ » ، وَالْآخَرُ مِنْ بَنِي « أَسَدٍ » ، وَقَدْ غَلَبَ الْعَامِرِيُّ صَاحِبَهُ وَعَلَا عَلَيْهِ ... وَأَخَذَهُ مِنْ ثَوْبِهِ وَجَعَلَ يَجْرُهُ نَحْوِي جَرًّا ، وَالْأَسَدِيُّ مَحْذُولٌ أَمَامَهُ يَقُولُ لَهُ :

دَعْنِي دَعْنِي .

وَالْعَامِرِيُّ يَقُولُ لَهُ :

وَاللَّهِ لَا أَدْعُكَ حَتَّى يَحْكُمَ الشَّعْبِيُّ لِي عَلَيْكَ ...

فَالْتَفَتُ إِلَى الْعَامِرِيِّ وَقُلْتُ لَهُ :

دَعْ صَاحِبَكَ حَتَّى أَحْكُمَ بَيْنَكُمَا .

ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى الْأَسَدِيِّ وَقُلْتُ :

(٢) أَرَوَى مِنِّي : أَحْسَنُ رِوَايَةٍ مِنِّي .

(١) الْمَغَارِي : الْغُرُوتُ الْإِسْلَامِيَّةُ .

مَا لِي أَرَاكَ تَتَخَاذَلُ لَهُ (١) ؟ .

وَلَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ مَفَاخِرُ سِتٍّ لَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ :

أَوَّلُهَا : أَنَّهُ كَانَتْ مِنْكُمْ امْرَأَةٌ خَطَبَهَا سَيِّدُ الْخَلْقِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ
فَزَوَّجَهُ اللَّهُ إِيَّاهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ ...

وَكَانَ السِّفِيرُ بَيْنَهُمَا « جَبْرِيلُ » عَلَيْهِ السَّلَامُ ...

إِنَّهَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ .

فَكَانَتْ هَذِهِ الْمَأْتَرَةُ (٢) لِقَوْمِكَ ، وَلَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ غَيْرِكُمْ .

وَالثَّانِيَةُ : أَنَّهُ كَانَ مِنْكُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ ، هُوَ
« عَكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ » (٣) .

وَكَانَتْ هَذِهِ لَكُمْ يَا بَنِي « أَسَدٍ » وَلَمْ تَكُنْ لِسِوَاكُمْ مِنَ النَّاسِ .

وَالثَّالِثَةُ : أَنَّ أَوَّلَ لَوَاءٍ عُقِدَ فِي الْإِسْلَامِ كَانَ لِرَجُلٍ مِنْكُمْ ، هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
جَحْشٍ (٤) .

وَالرَّابِعَةُ : أَنَّ أَوَّلَ مَعْتَمٍ قُسِمَ فِي الْإِسْلَامِ كَانَ مَعْتَمُهُ .

وَالْخَامِسَةُ : أَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ (٥) كَانَ مِنْكُمْ ؛ فَقَدْ جَاءَ
صَاحِبُكُمْ أَبُو سَيْنَانَ بْنِ وَهْبٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، ابْسُطْ يَدَكَ أَبَايَعُكَ .

(١) تتخاذل له : تَضَعُفُ أَمَانَهُ وَتَفْتَل .

(٢) المأثرة : المَكْرَمَةُ الْمَتَوَارِثَةُ ، وَالْفِعْلُ الْحَمِيدُ .

(٣) عكاشة بن محصن : صحابي شَهِدَ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا ، وَاسْتَشْهَدَ فِي حَرْبِ الرُّدَّةِ .

(٤) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ : صحابي من أمراء السرايا ، وَهُوَ صَهِرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... انظره في كتاب « صور من

حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٥) بيعة الرضوان : كانت في آخر سنة سِتٍّ لِلْهِجْرَةِ .

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (عَلَى مَاذَا؟).

قَالَ: عَلَى مَا فِي نَفْسِكَ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَمَا فِي نَفْسِي؟).

قَالَ: فَتَحْ، أَوْ شَهَادَةٌ؟.

قَالَ: (نَعَمْ)، فَبَايَعَهُ...

فَجَعَلَ النَّاسُ يُبَايِعُونَ عَلَى بَيْعَةِ أَبِي سِنَانٍ.

وَالسَّادِسَةُ: أَنَّ قَوْمَكَ بَنِي «أَسَدٍ» كَانُوا سُبُعَ الْمُهَاجِرِينَ يَوْمَ «بَذْرِ».

فَبِهِتَ الْعَامِرِيُّ وَسَكَتَ.

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الشَّعْبِيَّ أَرَادَ أَنْ يَنْصُرَ الضَّعِيفَ الْمَغْلُوبَ عَلَى الْقَوِيِّ
الغالب.

وَلَوْ كَانَ الْعَامِرِيُّ هُوَ الْمَخْذُولُ؛ لَذَكَرَ لَهُ مِنْ مَآثِرِ قَوْمِهِ مَا لَمْ يُحِطْ بِهِ
خُبْرًا.

* * *

وَلَمَّا آلتِ ^(١) الْخِلَافَةَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، كَتَبَتْ إِلَى الْحَجَّاجِ
عَامِلِهِ ^(٢) عَلَى «الْعِرَاقِ»:

أَنِ ابْعَثْ إِلَيَّ رَجُلًا يَصْلُحُ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا؛ أَتَّخِذْهُ سَمِيرًا وَجَلِيسًا...
فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِالشَّعْبِيِّ، فَجَعَلَهُ مِنْ خَاصَّتِهِ ^(٣)، وَأَخَذَ يَفْزَعُ إِلَى عِلْمِهِ فِي

(١) آلت الخِلافة إلى فلان: صارت إليه.

(٢) عامله: واليه.

(٣) خاصة الخليفة: المقربون إليه.

المُعْضَلَاتِ^(١)، وَيُعَوِّلُ عَلَى رَأْيِهِ^(٢) فِي الْمِلَمَّاتِ، وَيَبْعَثُهُ سَفِيرًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُلُوكِ.

* * *

أَرْسَلَهُ مَرَّةً فِي مُهِمَّةٍ إِلَى «جِسْتِنْيَان» مَلِكِ «الرُّومِ» ... فَلَمَّا وَقَدَ عَلَيْهِ وَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ، أُخِذَ بِذَكَائِهِ^(٣)، وَدُهِشَ مِنْ دَهَائِهِ، وَأَعْجَبَ بِسَعَةِ اطِّلَاعِهِ وَقُوَّةِ عَارِضَتِهِ^(٤).

فَاسْتَبْقَاهُ عِنْدَهُ أَيَّامًا كَثِيرَةً عَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ مَعَ الشُّفَرَاءِ.
فَلَمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِ بِأَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِالْعُودَةِ إِلَى «دِمَشْقَ» سَأَلَهُ الْمَلِكُ الرُّومِيُّ:
أَمِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمُلِكِ أَنْتَ؟
فَقَالَ: لَا، وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْ جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ.
فَلَمَّا أَدِنَ لَهُ بِالرَّحِيلِ قَالَ لَهُ:

إِذَا رَجَعْتَ إِلَى صَاحِبِكَ [يَعْنِي عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ] وَأَبْلَغْتَهُ جَمِيعَ مَا يُرِيدُ مَعْرِفَتَهُ، فَادْفَعْ إِلَيْهِ هَذِهِ الرُّقْعَةَ^(٥).
فَلَمَّا عَادَ الشَّعْبِيُّ إِلَى «دِمَشْقَ» بَادَرَ إِلَى لِقَاءِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا رَأَاهُ وَسَمِعَهُ، وَأَجَابَهُ عَنْ جَمِيعِ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ.
وَلَمَّا نَهَضَ لِيَتَصَرَّفَ قَالَ:
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ مَلِكَ «الرُّومِ» حَمَلَنِي لَكَ هَذِهِ الرُّقْعَةَ ... وَدَفَعَهَا إِلَيْهِ وَانْصَرَفَ.

(١) يفزع إلى علمه في المعضلات: يلجأ إلى علمه في الأمور الصعبة.

(٢) يعوِّل على رأيه: يعتمد على فكره.

(٣) أخذ بذكائه: سَجَرَ بِفِطْنَتِهِ وَتَوَقَّؤُ دَهْنِهِ.

(٤) قُوَّةُ عَارِضَتِهِ: قُوَّةُ بَيَانِهِ وَسُرْعَةُ بَدِيهِتِهِ.

(٥) الرقعة: الخطاب والرَّسَالَةُ.

فَلَمَّا قَرَأَهَا عَبْدُ الْمَلِكِ قَالَ لِغُلَامَيْهِ : رُدُّوهُ عَلَيَّ ؛ فَرَدُّوهُ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِلشَّعْبِيِّ :

أَعْلِمْتَ مَا فِي هَذِهِ الرُّقْعَةِ ؟ .

فَقَالَ : لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : لَقَدْ كَتَبَ إِلَيَّ مَلِكُ « الرُّومِ » يَقُولُ :

عَجِبْتُ لِلْعَرَبِ كَيْفَ مَلَكَتْ عَلَيْهَا رَجُلًا غَيْرَ هَذَا الْفَتَى ؟ .

فَبَادَرَهُ ^(١) الشَّعْبِيُّ قَائِلًا :

إِنَّمَا قَالَ هَذَا لِأَنَّهُ لَمْ يَرَكَ ، وَلَوْ رَأَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَا قَالَهُ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : أَفَتَدْرِي لِمَ كَتَبَ إِلَيَّ مَلِكُ « الرُّومِ » بِهَذَا ؟ .

فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ :

إِنَّمَا كَتَبَ إِلَيَّ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ حَسَدَنِي عَلَيْكَ ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَرِّبَنِي ^(٢) بِقَتْلِكَ
وَالْتَّحْلُصَ مِنْكَ .

فَبَلَغَ ذَلِكَ مَلِكُ « الرُّومِ » فَقَالَ : لِلَّهِ أَبُوهُ ...

وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ غَيْرَ ذَلِكَ ...

* * *

وَلَقَدْ بَلَغَ الشَّعْبِيُّ فِي الْعِلْمِ مَنْزِلَةً جَعَلَتْهُ رَابِعَ ثَلَاثَةِ فِي عَصْرِهِ .

فَقَدْ كَانَ الرُّهْرِيُّ يَقُولُ : الْعُلَمَاءُ أَرْبَعَةٌ ...

(٢) يغربني : يحضني .

(١) بادره : عاجله وأسرع إليه .

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ (١) فِي الْمَدِينَةِ .

وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ فِي الْكُوفَةِ .

وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ (٢) فِي الْبَصْرَةِ .

وَمَكْحُولٌ فِي الشَّامِ .

لَكِنَّ الشَّعْبِيَّ كَانَ - لِتَوَاضُعِهِ - يَخْجَلُ إِذَا خَلَعَ (٣) عَلَيْهِ أَحَدٌ لَقَبَ
« الْعَالِمِ » ... فَقَدْ خَاطَبَهُ أَحَدُهُمْ قَائِلًا :

أَجْنَبِي أَيُّهَا الْفَقِيهُ الْعَالِمُ .

فَقَالَ : وَيْحَكَ (٤) ...

لَا تُطْرِنَا (٥) بِمَا لَيْسَ فِينَا ...

الْفَقِيهُ مِنْ تَوَرَّعَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، وَالْعَالِمُ مِنْ خَشِيَ اللَّهَ ، وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ
ذَلِكَ ؟ !

وَلَقَدْ سَأَلَهُ آخَرُ عَنْ مَسْأَلَةٍ ، فَأَجَابَ :

قَالَ فِيهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كَذًا ...

وَقَالَ فِيهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَذًا ...

فَقَالَ لَهُ السَّائِلُ : وَأَنْتَ مَاذَا تَقُولُ يَا أَبَا عَمْرٍو ؟ .

فَابْتَسَمَ - فِي اسْتِحْيَاءٍ - وَقَالَ :

(١) سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : انظره ص ١٩٧ .

(٢) الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : انظره ص ٩٥ .

(٣) خَلَعَ عَلَيْهِ : أَلْفَى عَلَيْهِ .

(٤) وَيْحَكَ : كَلِمَةٌ تَرْحُمُ وَتَوْجَعُ ، وَالْمَعْنَى : أَرْحَمُ عَلَيْكَ وَأَتَوَجَّعُ لَكَ .

(٥) لَا تُطْرِنَا : لَا تَبَالِغْ فِي مَدْحِنَا وَإِكْبَارِنَا .

وَمَا تَصْنَعُ بِقَوْلِي بَعْدَ أَنْ سَمِعْتَ مَقَالَهَ عُمَرَ وَعَلِيٍّ .

* * *

وَقَدْ كَانَ الشَّعْبِيُّ يَتَحَلَّى بِكَرِيمِ الشَّمَائِلِ^(١) وَجَلِيلِ الْخَصَائِلِ^(٢) ...
مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ الْمِرَاءَ^(٣) وَيَتَصَاوَنُ^(٤) مِنَ الْخَوْضِ فِيمَا لَا يَغْنِيهِ .
فَلَقَدْ كَلَّمَهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ :

يَا أَبَا عَمْرٍو ...

فَقَالَ : لَبَّيْكَ .

فَقَالَ : مَا تَقُولُ فِيمَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ النَّاسُ مِنْ أَمْرِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ؟

فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : أَيُّ رَجُلَيْنِ تَعْنِي ؟

فَقَالَ : عُثْمَانُ وَعَلِيٌّ .

فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : إِنِّي - وَاللَّهِ - لَفِي غِنَى عَنْ أَنْ أُجِيبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَصِيماً^(٥)
لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ أَوْ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

* * *

وَلَقَدْ جَمَعَ الشَّعْبِيُّ إِلَى الْعِلْمِ الْحِلْمَ .

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَهُ أَقْبَحَ الشَّتَمِ ، وَأَسْمَعَهُ أَقْدَعَ^(٦) الْكَلَامِ ، فَلَمْ يَزِدْ
عَلَى أَنْ قَالَ لَهُ :

إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا تَزْمِينِي بِهِ غَفَرَ اللَّهُ لِي ...

(١) تَصَاوَنَ مِنَ الْأَمْرِ : حَفِظَ نَفْسَهُ مِنْهُ .

(٢) خَصِيماً : مُخَاصِماً .

(٣) الْمِرَاءُ : الْجَدَلُ .

(٤) أَقْدَعَ الْكَلَامِ : أَفْحَشَ الْكَلَامَ .

(١) كَرِيمُ الشَّمَائِلِ : سَامِي الطَّبَاعِ .

(٢) جَلِيلُ الْخَصَائِلِ : عَالِي الصِّفَاتِ .

(٣) الْمِرَاءُ : الْجَدَلُ .

وَلِإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا غَفَرَ اللَّهُ لَكَ .

* * *

وَلَمْ يَكُنِ الشَّعْبِيُّ عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِهِ وَجْزَالَةِ^(١) فَضْلِهِ يَأْنِفُ أَنْ يَأْخُذَ
الْمَعْرِفَةَ ، أَوْ يَتَلَقَّى الْحِكْمَةَ عَنْ أَهْوَنِ النَّاسِ شَأْنًا ...

فَلَقَدْ دَابَّ أَعْرَابِيٌّ عَلَى حُضُورِ مَجَالِسِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يُلَوِّدُ^(٢) بِالصَّمْتِ
دَائِمًا ، فَقَالَ لَهُ الشَّعْبِيُّ :

أَلَا تَتَكَلَّمُ ؟ !

فَقَالَ : أَسْكُتُ فَأَسْلَمَ ، وَأَسْمَعُ فَأَعْلَمُ ...

وَلِإِنْ حَظَّ الْمَرْءُ مِنْ أَذْنِهِ يَعُودُ عَلَيْهِ ...

أَمَّا حَظُّهُ مِنْ لِسَانِهِ فَيَعُودُ عَلَى غَيْرِهِ ...

فَظَلَّ الشَّعْبِيُّ يُرَدِّدُ كَلِمَةَ الْأَعْرَابِيِّ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ .

* * *

وَلَقَدْ أُوتِيَ الشَّعْبِيُّ مِنْ بَلَاغَةِ الْكَلَامِ ، وَحُسْنِ التَّصَرُّفِ فِيهِ مَا لَمْ يُؤْتَهُ
إِلَّا الْقِلَّةُ النَّادِرَةُ مِنَ الْفُصَحَاءِ الْأَبْنَاءِ^(٣) ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَلَّمَ أَمِيرَ « الْعِرَاقَيْنِ » عُمَرَ بْنَ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيَّ فِي جَمَاعَةٍ
حَبَسَهُمْ فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...

إِنْ كُنْتَ حَبَسْتَهُمْ بِالْبَاطِلِ ؛ فَالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ ...

وَلِإِنْ كُنْتَ حَبَسْتَهُمْ بِالْحَقِّ ؛ فَالْعَفْوُ يَسْعُهُمْ .

(١) جْزَالَةُ فَضْلِهِ : سَمُو فَضْلُهُ ، وَعَظْمَةُ مَقَامِهِ .

(٢) يُلَوِّدُ بِالصَّمْتِ : يَقْتَضِمُ بِهِ .

(٣) الْأَبْنَاءُ : الَّذِينَ يَبِينُونَ مَا يَقُولُونَ بِأَوْضَحِ مَا يَكُونُ .

فَأَعْجَبَ بِقَوْلِهِ ، وَأَطْلَقَهُمْ كَرَامَةً لَهُ .

* * *

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَمَالِ مُرُوءَةِ الشَّعْبِيِّ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ ، فَقَدْ كَانَ عَذَبَ الرُّوحِ حُلُوَ الْمُفَاكَهَةِ ، لَا يُفَوِّتُ الثُّكُتَةَ إِذَا لَاحَتْ لَهُ .

فَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ :

أَيُّكُمَا الشَّعْبِيُّ ؟ .

فَقَالَ : هَذِهِ ، وَأَشَارَ إِلَى امْرَأَتِهِ .

وَسَأَلَهُ آخَرُ :

مَاذَا كَانَتْ تُسَمَّى زَوْجَتُكَ إِبْلِيسَ ؟ .

فَقَالَ : ذَلِكَ عُزْسٌ لَمْ نَشْهَدْهُ .

وَلَعَلَّ خَيْرَ مَا يُصَوِّرُ خِلَالَ الشَّعْبِيِّ مَا حَكَاهُ عَنْ نَفْسِهِ حَيْثُ قَالَ :

مَا حَلَلْتُ حَبَوْتِي ^(١) إِلَى شَيْءٍ مِمَّا يُنْظَرُ إِلَيْهِ النَّاسُ ...

وَلَا ضَرَبْتُ غُلَامًا لِي قَطُّ ...

وَمَا مَاتَ ذُو قَرَابَةٍ لِي وَعَلَيْهِ دَيْنٌ ، إِلَّا قَضَيْتُهُ عَنْهُ .

* * *

وَبَعْدُ ، فَقَدْ عُمِّرَ الشَّعْبِيُّ حَتَّى نَيْفَ ^(٢) عَلَى الثَّمَانِينَ .

فَلَمَّا لَبَّى نِدَاءَ رَبِّهِ ، وَنُعِيَ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ :

« يَوْحُمُهُ اللَّهُ فَلَقَدْ كَانَ وَاسِعَ الْعِلْمِ ... »

(١) مَا حَلَلْتُ حَبَوْتِي : مَا قَمْتُ مِنْ مَكَانِي .

(٢) نَيْفٌ : زَادٌ .

عَظِيمِ الْجَلْمِ ...
وَإِنَّهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِمَكَانٍ «(*)» .

-
- (*) للاستزادة من أخبار الشَّيْخِ انظر :
١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢٤٧/٦ .
٢ - تاريخ بغداد : ٢٢٧/١٢ .
٣ - تهذيب التهذيب : ٦٥/٥ .
٤ - حلية الأولياء : ٣١٠/٤ .
٥ - صفة الصفوة : ٧٥/٣ .
٦ - وفيات الأعيان : ١٢/٣ .
٧ - شرح المقامات للشريشي : ٢٤٥/٢ .
٨ - المعارف لابن قتيبة : ٤٤٩ .
٩ - التهذيب لابن عساكر : ١٣٨/٧ .
١٠ - سمط الآلئ : ٧٥١ .

سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ

المَعْرُوفُ بِأَبِي حَازِمٍ الْأَعْرَجِ

« مَا رَأَيْتُ أَحَدًا الْحِكْمَةَ أَقْرَبُ إِلَى فَمِهِ مِنْ أَبِي حَازِمٍ »

[عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ]

فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ وَالتَّسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ ، شَدَّ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الرَّحَالِ إِلَى الدِّيَارِ الْمُقَدَّسَةِ ؛ مُلَبِّيًا نِدَاءَ أَبِي الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ... وَمَضَتْ رَكَائِبُهُ^(١) تَحْتَ الْخُطَى^(٢) مِنْ « دِمَشْق » عَاصِمَةِ « الْأُمَوِيِّينَ » إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .

فَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِهِ شَوْقٌ إِلَى الصَّلَاةِ فِي الرُّوَضَةِ الْمُطَهَّرَةِ ... وَتَوَقَّ^(٣) إِلَى السَّلَامِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ . وَقَدْ حَفِلَ مَوْكِبُ الْخَلِيفَةِ بِالْقُرَّاءِ ، وَالْمُحَدِّثِينَ ، وَالْفُقَهَاءِ ، وَالْعُلَمَاءِ ، وَالْأُمَرَاءِ ، وَالْقَادَةِ .

فَلَمَّا بَلَغَ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ ، وَحَطَّ رِحَالُهُ فِيهَا ، أَقْبَلَ وَجْهُهُ النَّاسَ وَذَوُو الْأَقْدَارِ^(٤) لِلْسَّلَامِ عَلَيْهِ وَالتَّوْحِيْبِ بِهِ .

لَكِنَّ سَلَمَةَ بْنَ دِينَارٍ قَاضِيَ الْمَدِينَةِ وَعَالِمَهَا الْحُجَّةَ^(٥) ، وَإِمَامَهَا الثَّقَةَ^(٦) ؛ لَمْ يَكُنْ فِي عِدَادِ مَنْ زَارُوا الْخَلِيفَةَ مُرَحِّبِينَ مُسَلِّمِينَ .

* * *

(٤) ذَوُو الْأَقْدَارِ : أَصْحَابُ الْحَرَمَةِ وَالْمَكَانَةِ .

(٥) الْحُجَّةُ : الْعَالِمُ الَّذِي يُخْتَلَجُ بِعِلْمِهِ .

(٦) الثَّقَةُ : الَّذِي يَنْقُ النَّاسُ بِرَأْيِهِ وَفِكَرِهِ .

(١) رَكَائِبُهُ : إِبْلُهُ .

(٢) تَحْتَ الْخُطَى : تَمْضِي مَسْرَعَةً .

(٣) تَوَقَّ : شَوْقٌ .

وَلَمَّا فَرَغَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنَ اسْتِقْبَالِ الْمُرَحِّبِينَ بِهِ ، قَالَ لِبَعْضِ
مُجْلِسَائِهِ :

إِنَّ النَّفُوسَ لَتَصْدَأُ كَمَا تَصْدَأُ الْمَعَادِينُ إِذَا لَمْ تَجِدْ مَنْ يُذَكِّرُهَا الْفِتْنَةَ بَعْدَ
الْفِتْنَةِ^(١) ، وَيَجْلُو عَنْهَا صَدَأُهَا .

فَقَالُوا : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : أَمَا فِي الْمَدِينَةِ رَجُلٌ أَذْرَكَ طَائِفَةً مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
يُذَكِّرُنَا^(٢) ؟ .

فَقَالُوا : بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

هَآ هُنَا أَبُو حَازِمٍ الْأَعْرَجُ .

فَقَالَ : وَمَنْ أَبُو حَازِمٍ الْأَعْرَجُ ؟ .

فَقَالُوا : سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ عَالِمُ الْمَدِينَةِ وَإِمَامُهَا ، وَأَحَدُ التَّابِعِينَ الَّذِينَ أَذْرَكُوا
عَدَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ .

فَقَالَ : اذْعُوهُ لَنَا ، وَتَلَطَّفُوا فِي دَعْوَتِهِ .

فَدَهَبُوا إِلَيْهِ وَدَعَوْهُ .

فَلَمَّا أَتَاهُ ... رَحَّبَ بِهِ وَأَذْنَى مَجْلِسَهُ^(٣) وَقَالَ لَهُ مُعَاتِبًا :

مَا هَذَا الْجَفَاءُ^(٤) يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ : وَأَيُّ جَفَاءٍ رَأَيْتَ مِنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ : زَارَنِي وَجُوهُ النَّاسِ وَلَمْ تَزُرْنِي !! .

(٣) أَدْنَى مَجْلِسُهُ : قَرِيبَ مَجْلِسِهِ .

(٤) الْجَفَاءُ : الْإِعْرَاضُ .

(١) الْفِتْنَةُ بَعْدَ الْفِتْنَةِ : مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرٍ .

(٢) يُذَكِّرُنَا : يَعْطِنَا .

فَقَالَ : إِنَّمَا يَكُونُ الْجَفَاءُ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ ...
وَأَنْتَ مَا عَرَفْتَنِي قَبْلَ الْيَوْمِ ، وَلَا أَنَا رَأَيْتُكَ ، فَأَيُّ جَفَاءٍ وَقَعَ مِنِّي ؟ .
فَقَالَ الْخَلِيفَةُ لِجَلَسَائِهِ : أَصَابَ الشَّيْخُ فِي اعْتِذَارِهِ ، وَأَخْطَأَ الْخَلِيفَةُ فِي
عَثْبِهِ عَلَيْهِ .

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى أَبِي حَازِمٍ وَقَالَ :
إِنَّ فِي النَّفْسِ شُغُونًا^(١) أَحْبَبْتُ أَنْ أَفْضِي^(٢) بِهَا إِلَيْكَ يَا أَبَا حَازِمٍ .
فَقَالَ : هَاتِيهَا - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ .
فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : يَا أَبَا حَازِمٍ ، مَا لَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ ؟ !
فَقَالَ : لِأَنَّا عَمَّرْنَا دُنْيَانَا ، وَخَرَّبْنَا آخِرَتَنَا ...
فَنَكْرَهُ الْخُرُوجَ مِنَ الْعَمَارِ إِلَى الْخَرَابِ .
فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : صَدَقْتَ ... ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا :
يَا أَبَا حَازِمٍ - لَيْتَ شِعْرِي^(٣) - مَا لَنَا عِنْدَ اللَّهِ غَدًا ؟ .
فَقَالَ : اعْرِضْ عَمَلَكَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ تَجِدْ ذَلِكَ .
قَالَ : وَأَيْنَ أَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ؟ .
قَالَ : تَجِدُهُ فِي قَوْلِهِ - عَلَتْ كَلِمَتُهُ - :
﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾^(٤) .
فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : إِذَنْ فَأَيْنَ رَحْمَةُ اللَّهِ ؟ .

(٣) ليت شعري : ليتني أعلم .
(٤) سورة الانفطار : ١٣ - ١٤ .

(١) شغونا : أمورا هائلة .
(٢) أفضي بها : أغلبها .

فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) .
فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : لَيْتَ شِعْرِي ، كَيْفَ الْقُدُومُ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ غَدًا ؟ .
فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : أَمَّا الْمُحْسِنُ ؛ فَكَالْغَائِبِ يَقْدَمُ عَلَى أَهْلِهِ ...
وَأَمَّا الْمُسِيءُ ؛ فَكَالْعَبْدِ الْآبِقِ^(٢) يُسَاقُ إِلَى مَوْلَاهُ سَوْقًا .
فَبَكَى الْخَلِيفَةُ حَتَّى عَلَا نَحِيبُهُ ، وَاشْتَدَّ بُكَاءُهُ .
ثُمَّ قَالَ : يَا أَبَا حَازِمٍ ، كَيْفَ لَنَا أَنْ نَصْلُحَ ؟ .
فَقَالَ : تَدْعُونَ عَنْكُمْ الصَّلَفَ^(٣) ، وَتَتَحَلَّوْنَ بِالْمُرُوءَةِ .
فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : وَهَذَا الْمَالُ ، مَا السَّبِيلُ إِلَى تَقْوَى اللَّهِ فِيهِ ؟ .
فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ :
إِذَا أَخَذْتُمُوهُ بِحَقِّهِ ...
وَوَضَعْتُمُوهُ فِي أَهْلِهِ ...
وَقَسَمْتُمُوهُ بِالسُّوِيَّةِ ...
وَعَدَلْتُمْ فِيهِ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ .
فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : يَا أَبَا حَازِمٍ ، أَخْبِرْنِي مَنْ أَفْضَلُ النَّاسِ ؟ .
فَقَالَ : أُولُو الْمُرُوءَةِ^(٤) وَالتَّقَى .
فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : وَمَا أَعْدَلُ الْقَوْلِ يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .
فَقَالَ : كَلِمَةُ حَقٍّ يَقُولُهَا الْمَرْءُ عِنْدَ مَنْ يَخَافُهُ ، وَعِنْدَ مَنْ يَرْجُوهُ .

(٣) الصلف : التكبر .

(٤) المروءة : النخوة والالتزام .

(١) سورة الأعراف : ٥٦ .

(٢) الآبق : الهارب .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : فَمَا أَسْرُعُ الدُّعَاءِ إِجَابَةً يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ : دُعَاءُ الْمُحْسِنِ لِلْمُحْسِنِينَ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : وَمَا أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ ؟ .

فَقَالَ : جُهْدُ الْمُقِلِّ^(١) يَضَعُهُ فِي يَدِ الْبَائِسِ الْفَقِيرِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَّبَعَهُ مَنْ وَلَا أَدَى .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : مَنْ أَكْبَسُ النَّاسِ^(٢) يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ : رَجُلٌ ظَفِرَ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَعَمِلَ بِهَا ، ثُمَّ دَلَّ النَّاسَ عَلَيْهَا .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : فَمَنْ أَحْمَقُ النَّاسِ^(٣) ؟ .

فَقَالَ : رَجُلٌ انْسَاقَ مَعَ هَوَى صَاحِبِهِ ، وَصَاحِبُهُ ظَالِمٌ ، فَبَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : هَلْ لَكَ أَنْ تَصْحَبَنَا - يَا أَبَا حَازِمٍ - فَتُصِيبَ مِنَّا وَنُصِيبَ مِنْكَ^(٤) ؟ .

فَقَالَ : كَلَّا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : وَلِمَ ؟ !

فَقَالَ : أَحْشَى أَنْ أُرْكَنَ^(٥) إِلَيْكُمْ قَلِيلًا ؛ فَيُذَيِّقَنِي اللَّهُ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ^(٦) .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : ارْفَعْ إِلَيْنَا حَاجَتَكَ يَا أَبَا حَازِمٍ .

(١) المقل : القليل المال .

(٢) أكبس الناس : أكثر الناس فطنة وتعقلاً .

(٥) أركن إليكم : أعتمد عليكم .

(٣) أحمق الناس : أفسد الناس فكراً وعقلاً .

(٦) ضعف الحياة وضعف الممات : عناء الدنيا ،

وعذاب الآخرة .

(٤) تصيب منا ونصيب منك : تأخذ منا وتعطينا .

فَسَكَتَ وَلَمْ يُجِبْ ...

فَأَعَادَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ : اِرْفَعْ إِلَيْنَا حَاجَتَكَ يَا أَبَا حَازِمٍ نَقْضُهَا لَكَ مَهْمَا كَانَتْ .

فَقَالَ : حَاجَتِي أَنْ تُنْقِذَنِي مِنَ النَّارِ ، وَتُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ ...

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِي ^(١) يَا أَبَا حَازِمٍ .

فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : مَالِي مِنْ حَاجَةٍ سِوَاهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : ادْعُ لِي يَا أَبَا حَازِمٍ .

فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ سُلَيْمَانُ مِنْ أَوْلِيَائِكَ ؛ فَيَسِّرْهُ إِلَيَّ خَيْرِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ ...

وَإِنْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ ؛ فَأَصْلِحْهُ وَاهْدِهِ إِلَيَّ مَا تُحِبُّ وَتَرْضَى .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ :

يَسْ ^(٢) مَا قُلْتَ مُنْذُ دَخَلْتَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ...

فَلَقَدْ جَعَلْتَ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَآذِنْتُهُ .

فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : بَلْ يَسْ مَا قُلْتَ أَنْتَ ، فَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ

الْمِيثَاقَ ^(٣) بِأَنْ يَقُولُوا كَلِمَةَ الْحَقِّ ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿لَتَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ ^(٤) .

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الْخَلِيفَةِ وَقَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ الَّذِينَ مَضَوْا قَبْلَنَا مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ظَلُّوا فِي خَيْرٍ

وَعَافِيَةٍ مَا دَامَ أُمَرَاؤُهُمْ يَأْتُونَ عُلَمَاءَهُمْ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَهُمْ ...

(٣) الميثاق : العهد .

(٤) سورة آل عمران : ١٨٧ .

(١) من شأني : من فعلي .

(٢) يس : ما قلت : ما أسوأ ما قلت .

ثُمَّ وَجَدَ قَوْمٌ مِنْ أَرَاذِلِ^(١) النَّاسِ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَأَتَوْا بِهِ الْأُمَرَاءَ؛ يُرِيدُونَ أَنْ يَنَالُوا بِهِ شَيْئًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا...

فَاسْتَعْنَتِ الْأُمَرَاءُ عَنِ الْعُلَمَاءِ...

فَتَعَسَوْا وَنُكِسُوا^(٢)، وَسَقَطُوا مِنْ عَيْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَلَوْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ زَهَدُوا فِيمَا عِنْدَ الْأُمَرَاءِ؛ لَرَغِبَ الْأُمَرَاءُ فِي عِلْمِهِمْ...

وَلَكِنَّهُمْ رَغَبُوا فِيمَا عِنْدَ الْأُمَرَاءِ؛ فَزَهَدُوا فِيهِمْ...

وَهَانُوا عَلَيْهِمْ^(٣).

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: صَدَقْتَ...

زِدْنِي مِنْ مَوْعِظَتِكَ يَا أَبَا حَازِمٍ؛ فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا الْحِكْمَةَ أَقْرَبُ إِلَيَّ فَمِ مِنْكَ.

فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْتِجَابَةِ^(٤)؛ فَقَدْ قُلْتُ لَكَ مَا فِيهِ الْكِفَايَةُ...

وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا؛ فَمَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَرْمِي عَنْ قَوْسٍ لَيْسَ لَهَا وَتَرٌ^(٥)...

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: عَزَمْتُ^(٦) عَلَيْكَ أَنْ تُوصِيَنِي يَا أَبَا حَازِمٍ.

فَقَالَ: نَعَمْ... سَوْفَ أُوصِيكَ وَأُوجِزُ...

عَظُمَ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ وَنَزَّهَهُ أَنْ يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ...

وَأَنْ يَفْقِدَكَ حَيْثُ أَمَرَكَ.

(١) أَرَاذِلُ النَّاسِ: سَفَهَاءُ النَّاسِ.

(٢) نُكِسُوا: عَجَزُوا.

(٣) هَانُوا عَلَيْهِمْ: اسْتَخَفُّوهُمْ.

(٤) الْإِسْتِجَابَةُ: قَبُولُ الطَّلَبِ وَتَنْفِيزُهُ.

(٥) الْوَتَرُ: شُرُوعَةُ الْقَوْسِ.

(٦) عَزَمْتُ عَلَيْكَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ.

ثُمَّ سَلَّمَ وَأَنْصَرَفَ .

فَقَالَ لَهُ الْحَلِيفَةُ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْ عَالِمٍ نَاصِحٍ .

* * *

مَا كَادَ أَبُو حَازِمٍ يَبْلُغُ بَيْتَهُ ، حَتَّى وَجَدَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ بِصُورَةٍ
مُلِئَتْ دَنَانِيرَ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

أَنْفِقْهَا ، وَلَكَ مِثْلُهَا كَثِيرٌ عِنْدِي .

فَرَدَّهَا وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ يَكُونَ سُؤْلُكَ
إِيَّايَ هَزْلاً ، وَرَدِّي عَلَيْكَ بَاطِلاً .

فَوَاللَّهِ مَا أَرْضَى ذَلِكَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - لَكَ ...

فَكَيْفَ أَرْضَاهُ لِنَفْسِي ؟ !

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الدَّنَانِيرُ لِقَاءَ حَدِيثِي الَّذِي حَدَّثْتُكَ بِهِ ،
فَالْمِيتَةُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ فِي حَالِ الْاضْطِرَارِ أَحَلُّ مِنْهَا ...

وَإِنْ كَانَتْ حَقَّالِي فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، فَهَلْ سَوَّيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ
جَمِيعاً فِي هَذَا الْحَقِّ ؟ !

* * *

وَلَقَدْ كَانَ مَنْزِلُ سَلَمَةَ بْنِ دِينَارٍ مُورِداً عَذْباً^(١) لِطُلَّابِ الْعِلْمِ ، وَرَغَابِ
الصَّلَاحِ ...

لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ إِخْوَانِهِ وَطُلَّابِهِ ...

فَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ ذَاتَ مَرَّةٍ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جَرِيرٍ » وَمَعَهُ ابْنُهُ ، وَأَخَذَا
مَجْلِسَيْهِمَا عِنْدَهُ ، وَسَلَّمَا عَلَيْهِ وَدَعَوَا لَهُ بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

(١) مُورِداً عَذْباً : يَنْبُوعاً حُلُو الْمَاءِ .

فَرَدَّ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، وَرَحَّبَ بِهِمَا ، ثُمَّ دَارَ بَيْنَهُمَا الْحَدِيثُ ؛ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جَرِيرٍ :

كَيْفَ نَحْطَلِي بِالْفُتُوحِ ^(١) يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ : عِنْدَ تَصْحِيحِ الضَّمَائِرِ تُغْفَرُ الْكَبَائِرُ ...

وَإِذَا عَزَمَ الْعَبْدُ عَلَى تَرْكِ الْإِثَامِ أَمُّهُ ^(٢) الْفُتُوحُ ...

وَلَا تَنْسَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَنَّ يَسِيرَ الدُّنْيَا يَشْغَلُنَا عَنْ كَثِيرِ الْآخِرَةِ ...

وَكُلُّ نِعْمَةٍ لَا تُقَرِّبُكَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهِيَ نِقْمَةٌ .

فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ : إِنَّ أَشْيَاخَنَا ^(٣) كَثِيرُونَ ؛ فَبِمَنْ نَقْتَدِي مِنْهُمْ ؟ .

فَقَالَ : يَا بُنَيَّ ، اقْتَدِ بِمَنْ يَخَافُ اللَّهَ فِي ظَهْرِ الْعَيْبِ ، وَيَعْفُو عَنِ التَّلَاسِ

بِالْعَيْبِ ...

وَيُصْلِحُ نَفْسَهُ فِي أَوَانِ الصُّبَا ، وَلَا يُرْجِئُ ذَلِكَ إِلَى عَهْدِ الشَّيْبِ .

وَأَعْلَمَ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ مَا مِنْ يَوْمٍ تَطْلُعَ فِيهِ الشَّمْسُ إِلَّا وَيُقْبَلُ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ هَوَاهُ ^(٤) وَعِلْمُهُ ، ثُمَّ يَتَغَالَبَانِ ^(٥) فِي صَدْرِهِ تَغَالِبَ الْمُتَخَاصِمِينَ .

فَإِذَا غَلَبَ عِلْمُهُ هَوَاهُ كَانَ يَوْمُهُ يَوْمَ غُنْمٍ لَهُ ...

وَإِذَا غَلَبَ هَوَاهُ عِلْمُهُ كَانَ يَوْمُهُ يَوْمَ خُسْرَانٍ عَلَيْهِ .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جَرِيرٍ : كَثِيرًا مَا حَضَضْتَنَا عَلَى الشُّكْرِ يَا أَبَا حَازِمٍ ، فَمَا حَقِيقَةُ الشُّكْرِ ؟ .

فَقَالَ لِكُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِنَا حَقٌّ عَلَيْنَا مِنَ الشُّكْرِ .

(١) الفتوح : يقظة القلب . (٣) أشياخنا : شيوخنا وموجهينا .

(٢) أمه الفتوح : فتح عليه . (٤) هواه : شهواته . (٥) يتغالبان : يتصارعان .

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : مَا شُكْرُ الْعَيْنَيْنِ ؟ .
 فَقَالَ : إِنْ رَأَيْتَ بِهِمَا خَيْرًا أَعْلَنْتَهُ ، وَإِنْ رَأَيْتَ بِهِمَا شَرًّا سَتَرْتَهُ .
 فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : فَمَا شُكْرُ الْأُذُنَيْنِ ؟ .
 فَقَالَ : إِنْ سَمِعْتَ بِهِمَا خَيْرًا وَعَقَيْتَهُ ، وَإِنْ سَمِعْتَ بِهِمَا شَرًّا دَفَنْتَهُ .
 فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : فَمَا شُكْرُ الْيَدَيْنِ ؟ .
 فَقَالَ : أَنْ لَا تَأْخُذَ بِهِمَا مَا لَيْسَ لَكَ ...
 وَأَنْ لَا تَمْنَعَ بِهِمَا حَقًّا مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ ...
 وَلَا يُفْتِكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَنْ مَنْ يَقْصِرَ شُكْرَهُ عَلَى لِسَانِهِ ، وَلَا يُشْرِكْ مَعَهُ
 جَمِيعَ أَعْضَائِهِ وَجَنَانِهِ ^(١) ... فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ كِسَاءٌ غَيْرُ أَنَّهُ أَخَذَ بِطَرَفِهِ ،
 وَلَمْ يَلْبِسْهُ ...

فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَبْقِيهِ مِنَ الْحَرِّ وَلَا يَصُونُهُ مِنَ الْبَرْدِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ سَنَةِ نَفَرَ ^(٢) سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَّجِهَةِ إِلَى
 بِلَادِ « الرُّومِ » يَتَّبِعِي الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ ...
 فَلَمَّا بَلَغَ الْجَيْشُ آخِرَ مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاكِحِ السَّفَرِ ، آثَرَ ^(٣) الرَّاحَةَ
 وَالِاسْتِحْجَامَ ^(٤) قَبْلَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ ، وَخَوُضِ الْمَعَارِكِ .
 وَقَدْ كَانَ فِي الْجَيْشِ أَمِيرٌ مِنْ أُمَرَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » .
 فَأَرْسَلَ رَسُولًا إِلَى أَبِي حَازِمٍ يَقُولُ لَهُ :

(٣) آثر: اختار وفضل .

(٤) الاستجمام: الاستراحة .

(١) جنانه: قلبه .

(٢) نفر: مضى وذهب .

إِنَّ الْأَمِيرَ يَدْعُوكَ إِلَيْهِ لِتُحَدِّثَهُ وَتُفَقِّهَهُ .
 فَكَتَبَ إِلَى الْأَمِيرِ يَقُولُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَهُمْ
 لَا يَحْمِلُونَ الدِّينَ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا .
 وَلَا أَحْسَبُكَ تُرِيدُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ...
 فَإِنْ كَانَتْ لَكَ بِنَا حَاجَةٌ فَأَتِنَا ...
 وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَعَلَى مَنْ مَعَكَ .
 فَلَمَّا قَرَأَ الْأَمِيرُ رِسَالَتَهُ مَضَى إِلَيْهِ ، وَحَيَّاهُ وَبَيَّاهُ ^(١) وَقَالَ :
 يَا أَبَا حَازِمٍ ، لَقَدْ وَقَفْنَا عَلَى مَا كَتَبْتَهُ لَنَا ؛ فَازْدَدْتُ بِهِ كَرَامَةً ^(٢) عِنْدَنَا ،
 وَعِزَّةً لَدَيْنَا ...
 فَذَكَّرْنَا وَعِظْنَا ، جُزِيتَ عَنَّا خَيْرَ الْجَزَاءِ .
 فَطَلَّقَ أَبُو حَازِمٍ يَعْظُمُهُ وَيُذَكِّرُهُ ، وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مَا قَالَهُ لَهُ :
 انْظُرْ مَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ فِي الْآخِرَةِ ؛ فَاحْرِصْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ...
 وَانْظُرْ مَا تَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ هُنَاكَ ؛ فَازْهَدْ فِيهِ هُنَا ...
 وَاعْلَمْ - أَيُّهَا الْأَمِيرُ - أَنَّهُ إِنْ نَفَقَ ^(٣) الْبَاطِلُ عِنْدَكَ وَزَاجَ ؛ أَقْبَلَ عَلَيْكَ
 الْمُبْطِلُونَ الْمُتَافِقُونَ ، وَالتَّفُّوا حَوْلَكَ ...
 وَإِنْ نَفَقَ عِنْدَكَ الْحَقُّ وَزَاجَ ؛ التَّفَّ حَوْلَكَ أَهْلُ الْخَيْرِ ، وَأَعَانُوكَ عَلَيْهِ ...
 فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا يَحُلُو .

* * *

(٣) نفق : رُغب فيه .

(٢) كرامة : عِزًّا ومكانة .

(١) بياه : دعا له برفعة المقام .

وَلَمَّا أَقْبَلَ الْمَوْتُ عَلَى أَبِي حَازِمٍ الْأَعْرَجِ ، قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ :
كَيْفَ تَجِدُكَ ^(١) يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقَالَ :

لَيْسَ نَجُونَا مِنْ شَرِّ مَا أَصَبْنَاهُ مِنَ الدُّنْيَا ؛ فَمَا يَضُرُّنَا مَا زَوَىٰ عَنَّا ^(٢) مِنْهَا .
ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ
وُدًّا ^(٣)﴾ ^(٤) ...

وَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ ^(*) .

(١) كيف تجدك : كيف تَرَىٰ نفسك .

(٢) زَوَىٰ عَنَّا : صُرِفَ عَنَّا وَطُوي .

(٣) وُدًّا : حُبًّا ومودَّة .

(٤) سورة مريم : ٩٦ .

(*) للاستزادة من أخبار سَلَمَةَ بْنِ دِينَارٍ انظر :

١ - طبقات خليفة : ٢٦٤ .

٢ - تاريخ البخاري : ٧٨ / ٢ .

٣ - التاريخ الصغير : ٤٧ / ٢ .

٤ - الجرح والتعديل : ١٥٩ / ٤ .

٥ - حلية الأولياء : ٢٢٩ / ٣ .

٦ - تهذيب التهذيب : ١٤٣ / ٤ .

٧ - تهذيب ابن عساكر : ٢١٦ / ٦ ، ٢٢٨ .

٨ - خلاصة تذهيب الكمال : ١٤٧ .

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ

« كَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ يُفْتِي وَالصَّحَابَةُ أَحْيَاءُ »

[الْمُؤَرَّخُونَ]

عَقَدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدُ الْمَلِكُ بْنُ مَرْوَانَ الْعَزَمَ عَلَى حَجِّ بَيْتِ اللَّهِ
الْحَرَامِ ...

وَزِيَارَةِ ثَانِي الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ .

وَالسَّلَامَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا أَقْبَلَ شَهْرُ ذِي الْقَعْدَةِ ، زَمَّ الْخَلِيفَةُ الْعَظِيمُ رَكَائِبَهُ^(١) ، وَتَوَجَّهَ إِلَى
أَرْضِ الْحِجَازِ يَصْحَبُهُ الشَّادَةُ الْأَمَاجِدُ مِنْ أُمَرَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » ...
وَنَفَرٌ مِنْ كِبَارِ رِجَالِ دَوْلَتِهِ ... وَبَعْضُ أَوْلَادِهِ ...

وَمَضَى الرَّكْبُ فِي طَرِيقِهِ مِنْ « دِمَشْقَ » إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مِنْ غَيْرِ
رَيْثٍ^(٢) وَلَا عَجَلٍ ...

فَكَانُوا كُلَّمَا نَزَلُوا مَنْزِلًا نُصِبَتْ لَهُمُ الْخِيَامُ ، وَفُرِشَتْ لَهُمُ الْفُرُشُ ،
وَعُقِدَتْ لَهُمُ مَجَالِسُ الْعِلْمِ وَالتَّذْكِيرَةِ ؛ لِيَزْدَادُوا تَفْقُّهًا فِي الدِّينِ .
وَيَتَعَهَّدُوا قُلُوبَهُمْ وَتُقَوِّسَهُمْ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ الْخَلِيفَةُ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ ، أَمَّ حَرَمَهَا الشَّرِيفَ ...
وَتَشَرَّفَ بِالسَّلَامِ عَلَى سَاكِنَيْهَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى

(١) زَمَ رَكَائِبَهُ : أَعَدَ نَوْقَهُ لِلرَّحِيلِ .

(٢) رَيْثٌ : بَطْنٌ .

التَّسْلِيمِ ، وَسَعِدَ بِالصَّلَاةِ فِي الرُّوضَةِ الْمُطَهَّرَةِ الْغَرَاءِ .
 فَذَاقَ مِنْ بَرْدِ الرَّاحَةِ^(١) ، وَسَلَامِ النَّفْسِ مَا لَمْ يَذُقْ مِثْلَهُمَا مِنْ قَبْلُ ...
 وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يُطِيلَ إِقَامَتَهُ فِي مَدِينَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا وَجَدَ
 إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا .

* * *

وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ مَا اسْتَأْثَرَ^(٢) بِاهْتِمَامِهِ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ حَلَقَاتُ الْعِلْمِ
 الَّتِي كَانَتْ تَعْمُرُ الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ .
 وَيَتَأَلَّقُ فِيهَا الْعُلَمَاءُ الْأَفْذَادُ مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ كَمَا تَتَأَلَّقُ النُّجُومُ الزُّهْرُ^(٣)
 فِي كَيْدِ السَّمَاءِ ... فَهَذِهِ حَلَقَةُ عُزْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ^(٤) ...
 وَتِلْكَ حَلَقَةُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ...
 وَهُنَاكَ حَلَقَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ^(٥) ...

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ صَحَا الْخَلِيفَةُ مِنْ قَيْلُولَتِهِ^(٦) فِي وَقْتٍ كَانَ لَا يَضْحَوُ فِيهِ
 عَادَةً ، فَنَادَى حَاجِبَهُ وَقَالَ : يَا مَيْسَرَةَ .
 قَالَ : لَبَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .
 قَالَ : امْضِ إِلَى مَسْجِدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَاذْعُ لَنَا أَحَدَ
 الْعُلَمَاءِ لِيَحْدِثَنَا ...

* * *

مَضَى مَيْسَرَةُ إِلَى الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ، وَأَجَالَ تَنْظَرُهُ فِيهِ فَلَمْ يَرَ غَيْرَ

(٤) عروة بن الزبير : انظره ص ٣٨ .

(٥) عبد الله بن عتبة : أخذ كبار التابعين .

(٦) القيلولة : نومة الضحى .

(١) برود الراحة : سعادة الطمأنينة .

(٢) استأثر : سيطر واستبد .

(٣) الزهر : المتألقة .

حَلَقَةٍ وَاحِدَةٍ تَوَسَّطَهَا شَيْخٌ نَيْفٌ ^(١) عَلَى السَّيِّئِينَ مِنْ عُمْرِهِ فِيهِ بَسَاطَةُ الْعُلَمَاءِ ...

وَعَلَيْهِ هَيِّئَتُهُمْ وَوَقَّارُهُمْ ...

فَوَقَّفَ غَيْرَ بَعِيدٍ مِنَ الْحَلَقَةِ ، وَأَشَارَ لِلشَّيْخِ بِإِصْبَعِهِ ...

فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ الشَّيْخُ ، وَلَمْ يَأْبَهُ لَهُ ^(٢) .

فَافْتَرَبَ مِنْهُ وَقَالَ : أَلَمْ تَرَ أَنِّي أُشِيرُ إِلَيْكَ !؟ .

قَالَ : إِلَيَّ أَنَا !؟ .

قَالَ : نَعَمْ ...

قَالَ : وَمَا حَاجَتُكَ ؟ .

قَالَ : اسْتَيْقِظَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَ : اِمْضِ إِلَى الْمَسْجِدِ وَاَنْظُرْ هَلْ تَرَى أَحَدًا مِنْ حُدَاثِي ^(٣) ، فَأَتْنِي بِهِ .

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : مَا أَنَا مِنْ حُدَاثِهِ .

فَقَالَ لَهُ مَيْسَرَةٌ : وَلَكِنَّهُ يَنْغِي مُحَدَّثًا يُحَدِّثُهُ .

فَقَالَ الشَّيْخُ : إِنَّ مَنْ يَنْغِي شَيْئًا يَأْتِي إِلَيْهِ ...

وَأَنَّ فِي حَلَقَةِ الْمَسْجِدِ مُتَسَعًا لَهُ إِذَا كَانَ رَاغِبًا فِي ذَلِكَ .

وَالْحَدِيثُ يُؤْتَى إِلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَأْتِي ...

فَعَادَ الْحَاجِبُ أَذْرَاجَهُ وَقَالَ لِلْخَلِيفَةِ : مَا وَجَدْتُ أَحَدًا فِي الْمَسْجِدِ غَيْرَ شَيْخٍ أَشْرَفَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَقُمْ ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اسْتَيْقِظَ فِي هَذَا الْوَقْتِ وَقَالَ لِي : اَنْظُرْ هَلْ تَرَى أَحَدًا مِنْ حُدَاثِي فِي الْمَسْجِدِ فَأَدْعُهُ لِي ...

(١) نيف : زاد . (٢) لم يأبه له : لم يلتفت إليه ولم يهتم به . (٣) حُدَاثِي : الذين يحدثنني .

فَقَالَ لِي فِي هُدُوءٍ وَحَزْمٍ : إِنِّي لَسْتُ مِنْ حُدَاثِهِ ...
وَأَنَّ فِي حَلَقَةِ الْمَسْجِدِ مُتَّسِعاً لَهُ إِذَا كَانَ رَاغِباً فِي الْحَدِيثِ .
فَتَنَهَّدَ (١) عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ ...
وَهَبَّ قَائِماً ، وَاتَّجَهَ إِلَى دَاخِلِ الْمَنْزِلِ وَهُوَ يَقُولُ :
ذَلِكَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ...
لَيْتَكَ لَمْ تَأْتِهِ ، وَلَمْ تُكَلِّمَهُ ...
فَلَمَّا ابْتَعَدَ عَنِ الْمَجْلِسِ وَصَارَ فِي الدَّاخِلِ ، التَفَتَ أَصْغَرُ أَوْلَادِ عَبْدِ
الْمَلِكِ إِلَى أَخٍ لَهُ أَكْبَرَ مِنْهُ وَقَالَ :
مَنْ هَذَا الَّذِي يَمْتَنِعُ (٢) عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَسْتَكْبِرُ عَلَى الْمُثُولِ (٣) بَيْنَ
يَدَيْهِ ، وَخُضُورِ مَجْلِسِهِ ...
وَقَدْ دَانَتْ (٤) لَهُ الدُّنْيَا ، وَخَضَعَتْ لِهَيْبَتِهِ ، مُلُوكُ « الرُّومِ » .
فَقَالَ الْأَخُ الْأَكْبَرُ : ذَاكَ الَّذِي خَطَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِنْتَهُ لِأَخِيكَ الْوَلِيدِ ؛
فَأَتَى أَنْ يُزَوِّجَهَا مِنْهُ .
فَقَالَ الْأَخُ الْأَصْغَرُ : أَيْ أَنْ يُزَوِّجَهَا مِنَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ !!؟ .
وَهَلْ كَانَ يَزُومُ لَهَا بَعْلًا (٥) أَسْمَى (٦) مِنْ وَلِيِّ عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ !!؟ ...
وَحَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ .
فَسَكَتَ الْأَخُ الْأَكْبَرُ وَلَمْ يُجِبْهُ بِشَيْءٍ ...

(١) تَنَهَّدَ : أَخْرَجَ نَفْسَهُ بَعْدَ مَدَّةٍ حَزَنًا وَأَلَمًا .
(٢) يَمْتَنِعُ : يَتَعَالَى .
(٣) الْمُثُولُ : الْوُقُوفُ .
(٤) دَانَتْ : خَضَعَتْ .
(٥) بَعْلًا : زَوْجًا .
(٦) أَسْمَى : أَعَزُّ وَأَكْرَمُ .

فَقَالَ الْأَخُ الْأَصْغَرُ : إِذَا كَانَ قَدْ صَنَّ بِابْنَتِهِ عَلَى وَلِيِّ عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
فَهَلْ وَجَدَ لَهَا الْكُفَّ (١) الَّذِي يَلِيقُ بِهَا ؟ ...

أَمْ إِنَّهُ حَالٌ دُونَهَا وَدُونَ الزَّوْاجِ كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ النَّاسِ ...
وَتَرَكَهَا قَعِيدَةً بَيْتَ (٢) .

فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ الْأَكْبَرُ :

الْحَقُّ أَنِّي لَا أَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ خَبَرِهَا ، وَخَبَرِهِ مَعَهَا ...

فَالْتَقَتَ إِلَيْهِمَا أَحَدُ الْجُلَّاسِ مِنْ أَهْنَاءِ الْمَدِينَةِ وَقَالَ :

إِذَا أَدِنَ لِي الْأَمِيرُ قَصَصْتُ عَلَيْهِ خَبَرَهَا كُلَّهُ ...

فَقَدْ تَزَوَّجَتْ فَتًى مِنْ فِتْيَانِ حَيَّنَا يُقَالُ لَهُ : « أَبُو وَدَاعَةَ » .

وَهُوَ جَارُنَا بَيْتَ بَيْتَ (٣) ...

وَلِزَوَاجِهِ مِنْهَا قِصَّةٌ طَرِيفَةٌ رَوَاهَا لِي بِنَفْسِهِ .

فَقَالَ لَهُ الْأَخَوَانِ : هَاتِيهَا ...

فَقَالَ الرَّجُلُ : حَدَّثَنِي أَبُو وَدَاعَةَ قَالَ :

كُنْتُ - كَمَا تَعْلَمُ - أَلَا زِمُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَلَبًا لِلْعِلْمِ .

وَكُنْتُ أَدَاوِمُ عَلَى حَلْقَةِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ، وَأَزَاحِمُ النَّاسَ عَلَيْهَا

بِالْمَنَاقِبِ ... فَتَغَيَّبْتُ عَنْ حَلْقَةِ الشَّيْخِ أَيَّامًا ، فَتَفَقَّدَنِي ، وَظَنَّ أَنَّ بِي مَرَضًا ،

أَوْ عَرَضَ لِي عَارِضٌ ...

فَسَأَلَ عَنِّي مَنْ حَوْلَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ خَبْرًا .

(١) الكفء: المثل والنظير.

(٢) قعيدة بيت: ملازمة للبيت.

(٣) جارنا بيت بيت: ملاصق لنا.

فَلَمَّا عُدْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَيَّامٍ حَيَّانِي ، وَرَحَّبَ بِي وَقَالَ :
أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا وَدَاعَةَ ؟ .

فَقُلْتُ : تُوَفِّيتُ زَوْجَتِي ، فَاسْتَعَلْتُ بِأَمْرِهَا .
فَقَالَ : هَلَّا أَخْبَرْتَنَا يَا أَبَا وَدَاعَةَ فَنُوَاسِيكَ ^(١) ، وَنَشْهَدَ جَنَازَتَهَا مَعَكَ ،
وَنُعِينَكَ عَلَى مَا أَنْتَ فِيهِ .

فَقُلْتُ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ... وَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ ...
فَاسْتَبَقَانِي حَتَّى انْصَرَفَ جَمِيعٌ مَنِ كَانَ فِي الْمَجْلِسِ ، ثُمَّ قَالَ لِي :
أَمَا فَكَّرْتَ فِي اسْتِحْدَاثِ زَوْجَةٍ ^(٢) لَكَ يَا أَبَا وَدَاعَةَ ؟ .
فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ...

وَمَنْ يُزَوِّجْنِي ابْنَتَهُ وَأَنَا شَابٌّ نَشَأَ يَتِيمًا ، وَعَاشَ فَقِيرًا ...
فَأَنَا لَا أَمْلِكُ غَيْرَ دِرْهَمَيْنِ ، أَوْ ثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ .
فَقَالَ : أَنَا أَزَوِّجُكَ ابْنَتِي .

فَانْعَقَدَ ^(٣) لِسَانِي وَقُلْتُ : أَنْتَ !؟ ...
أَتَزَوِّجُنِي ابْنَتَكَ بَعْدَ أَنْ عَرَفْتَ مِنْ أَمْرِي مَا عَرَفْتَ !؟ .
فَقَالَ : نَعَمْ ...

فَنَحْنُ إِذَا جَاءَنَا مَنْ نَرْضَى دِينَهُ وَخُلُقَهُ زَوْجَنَاهُ ، وَأَنْتَ عِنْدَنَا مَرْضِي الدِّينِ
وَالْخُلُقِ ...

(١) نواسيك : نعاونك .

(٢) استحداث زوجة لك : تجديد زواجك . (٣) انعقد لساني : ارتبط لساني وعجزت عن الإفصاح .

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى مَنْ كَانَ قَرِيباً مِنَّا ، وَنَادَاهُمْ ...
فَلَمَّا أَقْبَلُوا عَلَيْهِ ، وَصَّارُوا عِنْدَهُ ؛ حَمِدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى
عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَعَقَدَ لِي عَلَى ابْنَتِهِ ...

وَجَعَلَ مَهْرَهَا دِرْهَمَيْنِ اثْنَيْنِ ...

فَقُمْتُ وَأَنَا لَا أَذْرِي مَا أَقُولُ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالْفَرَحِ ...

ثُمَّ قَصَدْتُ بَيْتِي ، وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ صَائِماً ؛ فَنَسِيتُ صَوْمِي وَجَعَلْتُ أَقُولُ :
وَيَحْكَ (١) يَا أَبَا وَدَاعَةَ ...

مَا الَّذِي صَنَعْتَ بِنَفْسِكَ ؟ ...

مِمَّنْ تَسْتَدِينُ ؟ ...

وَمِمَّنْ تَطْلُبُ الْمَالَ ؟ .

وَوَلَلْتُ عَلَى حَالِي هَذِهِ حَتَّى أُذِنَ لِلْمَغْرِبِ ...

فَأَذَيْتُ الْمَكْتُوبَةَ (٢) ، وَجَلَسْتُ إِلَى فُطُورِي ، وَكَانَ خُبْزاً ، وَزَيْتاً ...

فَمَا أَنْ تَنَاوَلْتُ مِنْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ حَتَّى سَمِعْتُ الْبَابَ يُفْرَغُ .

فَقُلْتُ : مَنْ الطَّارِقُ ؟ .

فَقَالَ : سَعِيدٌ ...

فَوَاللَّهِ لَقَدْ مَرَّ بِخَاطِرِي كُلِّ إِنْسَانٍ اسْمُهُ سَعِيدٌ أَعْرِفُهُ إِلَّا سَعِيدَ بْنِ

الْمُسَيَّبِ ...

(٢) المكتوبة : المفروضة .

(١) وَنَح : كلمة تَرْحُم وتوجع .

ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يُرْ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَّا بَيْنَ يَتِيمِهِ وَالْمَسْجِدِ .

فَفَتَحْتُ البابَ ، فَإِذَا بِي أَمَامَ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ...

فَطَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ لَهُ (١) فِي أَمْرِ زَوَاجِي مِنْ ابْنَتِهِ شَيْءٌ ...

وَقُلْتُ لَهُ : أَبَا مُحَمَّدٍ !؟ ... هَلَّا أُرْسِلْتَ إِلَيَّ فَاتَيْكَ .

فَقَالَ : بَلْ أَنْتَ أَحَقُّ بِأَنْ آتِيَ إِلَيْكَ الْيَوْمَ .

فَقُلْتُ : تَفْضُلُ عَلَيَّ ...

فَقَالَ : كَلَّا ، وَإِنَّمَا جِئْتُ لِأَمْرِ ...

فَقُلْتُ : وَمَا هُوَ يَرْحِمُكَ اللَّهُ ؟ ...

فَقَالَ : إِنَّ ابْنَتِي أَصْبَحَتْ زَوْجَةً لَكَ بِشَرَعِ اللَّهِ مُنْذُ الْعِدَّةِ (٢) ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مَعَكَ أَحَدٌ يُؤْنِسُ وَخَشَتَكَ ، فَكْرِهْتُ أَنْ تَبِيتَ أَنْتَ فِي مَكَانٍ وَزَوْجَتُكَ فِي مَكَانٍ آخَرَ ؛ فَجِئْتُكَ بِهَا .

فَقُلْتُ : وَيَحِي ... جِئْتَنِي بِهَا !؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ ...

فَنَظَرْتُ ، فَإِذَا هِيَ قَائِمَةٌ بِطُولِهَا .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهَا وَقَالَ : أَدْخُلِي إِلَى بَيْتِ زَوْجِكَ يَا بِنْتِي عَلَى اسْمِ اللَّهِ ، وَبَرَكَاتِهِ ...

فَلَمَّا أَرَادَتْ أَنْ تَخْطُو ؛ تَعَثَّرَتْ (٣) بِمَلَأَتِهَا (٤) مِنَ الْحَيَاءِ حَتَّى كَادَتْ تَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ .

(٣) تعثرت : كَبَتْ حَتَّى كَادَتْ تَقَعُ .

(٤) بملاءتها : بِثَوْبِهَا .

(١) بدا له شيء : ظهر له ما غير رأيهِ .

(٢) العدة : الضَّحَى .

أَمَّا أَنَا فَقَدْ وَقَفْتُ أَمَامَهَا مَشْدُوهَا^(١) لَا أَدْرِي مَا أَقُولُ ...
ثُمَّ إِنِّي بَادَرْتُ فَسَبَقْتُهَا إِلَى الْقَصْعَةِ^(٢) الَّتِي فِيهَا الْخُبْزُ وَالزَّيْتُ ؛ فَنَحَّيْتُهَا
مِنْ ضَوْءِ السَّرَاجِ حَتَّى لَا تَرَاهَا .

ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَى السَّطْحِ وَنَادَيْتُ الْجِيرَانَ ، فَأَقْبَلُوا عَلَيَّ وَقَالُوا :
مَا شَأْنُكَ ؟ .

فَقُلْتُ : عَقَدَ لِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَلَى ابْنَتِهِ الْيَوْمَ فِي الْمَسْجِدِ ...
وَقَدْ جَاعَنِي بِهَا الْآنَ عَلَى غَفْلَةٍ ...

فَتَعَالَوْا آتِسُوهَا^(٣) حَتَّى أَدْعُو أُمِّي ، فَهِيَ بَعِيدَةُ الدَّارِ .

فَقَالَتْ عَجُوزٌ مِنْهُنَّ : وَيَحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ ؟ ! ...

أَزْوَجَكَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ابْنَتَهُ ...

وَحَمَلَهَا لَكَ إِلَى الْبَيْتِ بِنَفْسِهِ ؟ ! ...

وَهُوَ الَّذِي ضَرَبَ بِهَا عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ !! .

فَقُلْتُ : نَعَمْ ...

وَهَا هِيَ ذِي عِنْدِي فِي يَتِي ، فَهَلُّسُوا^(٤) إِلَيْهَا ، وَانْظُرُوهَا .

فَتَوَجَّهَ الْجِيرَانُ إِلَى الْبَيْتِ ، وَهُمْ لَا يَكَادُونَ يُصَدِّقُونَنِي ، وَرَحَبُوا بِهَا ،
وَأَتَسُوا وَحَشَّتْهَا ...

* * *

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى جَاءَتْ أُمِّي ، فَلَمَّا رَأَتْهَا التَّمَتَتْ إِلَيَّ وَقَالَتْ :

(٣) آتسوها : سَلَوْهَا وَأَزِيلُوا وَحَشَّتْهَا .

(٤) هلموا : بادروا .

(١) مشدوهاً : ذاهلاً حائراً .
(٢) القصعة : الصُّفْخَةُ الَّتِي يَوْضَعُ فِيهَا الطَّعَامُ .

وَجِهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ^(١) إِنْ لَمْ تَتْرُكْهَا لِي حَتَّى أَصْلَحَ شَأْنَهَا ...

ثُمَّ أَرْفَعُهَا^(٢) إِلَيْكَ كَمَا تُرَفُّ كَرَائِمُ النِّسَاءِ .

فَقُلْتُ : أَنْتِ وَمَا تُرِيدِينَ ...

فَضَمَّتْهَا^(٣) إِلَيْهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ زَفَّتْهَا إِلَيَّ .

فَإِذَا هِيَ مِنْ أَبْهَى نِسَاءِ الْمَدِينَةِ جَمَالاً ...

وَأَخْفِظُ النَّاسَ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

وَأَزْوَائِهِمْ لِحَدِيثِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

وَأَعْرِفُ النِّسَاءَ بِحُقُوقِ الزَّوْجِ .

فَمَكَثْتُ مَعَهَا أَيَّاماً لَا يَزُورُنِي أَبُوهَا أَوْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا .

ثُمَّ إِنِّي أَتَيْتُ حَلْقَةَ الشَّيْخِ فِي الْمَسْجِدِ ؛ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ، وَلَمْ يُكَلِّمْنِي .

فَلَمَّا انْقَضَ^(٤) الْمَجْلِسُ ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرِي قَالَ :

مَا حَالُ زَوْجَتِكَ يَا أَبَا وَدَاعَةَ ؟ .

فَقُلْتُ : هِيَ عَلَى مَا يُحِبُّ الصَّدِيقُ وَيَكْرَهُ الْعَدُوُّ ...

فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ .

فَلَمَّا غَدْتُ إِلَى بَيْتِي ، وَجَدْتُهُ قَدْ وَجَّهَ إِلَيْنَا مَبْلَغاً وَفيراً مِنَ الْمَالِ لِنَسْتَعِينَ

بِهِ عَلَى حَيَاتِنَا .

* * *

(١) وجهي من وجهك حرام : أحاصمك ولا أنظر إليك .

(٢) أرففها إليك : أهديها لك . (٣) ضمتها إليها : استصحبها . (٤) انقض المجلس : غادر الحضور المجلس .

فَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : عَجِيبٌ أَمْرُ هَذَا الرَّجُلِ ...
فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ : وَمَا وَجْهُ الْعَجَبِ فِيهِ أَتَيْهَا الْأَمِيرُ ؟ ...
إِنَّهُ أَمَرُوهُ جَعَلَ دُنْيَاهُ مَطِيَّةً^(١) لِأُخْرَاهُ ...
وَأَشْتَرَى لِنَفْسِهِ وَلِأَهْلِهِ الْبَاقِيَةَ بِالْفَانِيَةِ^(٢) ...
فَوَاللَّهِ إِنَّهُ مَا ضَنَّ^(٣) عَلَى ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِابْنَتِهِ ...
وَلَا رَأَهُ غَيْرَ كُفٍّ لَهَا ، وَإِنَّمَا خَافَ عَلَيْهَا فِتْنَةَ الدُّنْيَا ...
وَلَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : أَتَرُدُّ حُطْبَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتُزَوِّجُ ابْنَتَكَ
مِنْ رَجُلٍ مِنَ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ ؟ ! .
فَقَالَ : إِنَّ ابْنَتِي أَمَانَةٌ فِي عُنُقِي ، وَقَدْ تَحَرَّيْتُ^(٤) فِيمَا صَنَعْتُه لَهَا صَلاَحَ
أَمْرِهَا .
فَقِيلَ لَهُ : وَكَيْفَ ؟ ! .
فَقَالَ : مَا ظَنُّكُمْ بِهَا إِذَا انْتَقَلَتْ إِلَى قُصُورِ بَنِي « أُمَيَّة » ...
وَتَقَلَّبَتْ بَيْنَ رِيَاسَتِهَا^(٥) وَأَثَائِهَا^(٦) ...
وَقَامَ الْخَدَمُ وَالْحَشَمُ وَالْجَوَارِي بَيْنَ يَدَيْهَا ، وَعَنْ يَمِينِهَا ، وَعَنْ
شِمَالِهَا ...
ثُمَّ وَجَدَتْ نَفْسَهَا بَعْدَ ذَلِكَ زَوْجَةً لِلْخَلِيفَةِ ؟ .
أَيْنَ يُصْبِحُ دِينُهَا يَوْمَئِذٍ ؟ .

(٤) تحريت : توخيت وبجحت .
(٥) الرياش : ما كان فائزاً من اللباس ونحوه .
(٦) الأثاث : متاع البيت .

(١) مطية : مركباً ووسيلة .
(٢) الباقية بالفانية : الآخرة بالدنيا .
(٣) ما ضَنَّ : ما بخل .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ : يَتَدَوُّ أَنَّ صَاحِبَكُمْ طَرَا زُ فَرِيدٌ ^(١) مِنْ النَّاسِ .
فَقَالَ الرَّجُلُ الْمَدَنِيُّ : وَاللَّهِ مَا عَدَوْتُ ^(٢) الْحَقَّ أَبَدًا ...

فَهُوَ صَوَّامٌ نَهَارٍ ...

قَوَّامٌ لَيْلٍ ...

حَجَّ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ حِجَّةً ...

وَمَا فَاتَتْهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنْذُ
أَرْبَعِينَ عَامًا ...

وَلَا عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى قَفَا رَجُلٍ فِي الصَّلَاةِ خِلَالَ ذَلِكَ أَبَدًا ؛
لِمُحَافَظَتِهِ عَلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ .

وَقَدْ كَانَ فِي وُسْعِهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِمَنْ يَشَاءُ مِنْ نِسَاءِ قُرَيْشٍ ، فَاتَّرَ ^(٣) بِنْتُ
أَبِي هُرَيْرَةَ ^(٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى سَائِرِ النِّسَاءِ .

وَذَلِكَ لِمَنْزِلَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَسَعَةً رِوَايَتِهِ لَحَدِيثِهِ ...

وَشِدَّةَ رَغْبَتِهِ فِي الْأَخْذِ عَنْهُ .

وَلَقَدْ نَذَرَ نَفْسَهُ لِلْعِلْمِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ ...

فَدَخَلَ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَتَأَثَّرَ ^(٥) بِهِنَّ ...

(١) طراز فريد : تَوْخُّجٌ نادر .

(٢) ما بعدت الحق : ما بعدت عن الحق ولا خرجت عليه .

(٣) آثر : اختار وفضَّل .

(٤) أبو هُرَيْرَةَ : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

(٥) تأثر بهن : انتفع منهن وسلك مسلكهن .

وَتَتَلَمَذَ عَلَى يَدَي زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عُمَرَ (١) ...

وَسَمِعَ مِنْ عُثْمَانَ ، وَعَلِيٍّ ، وَصُهَيْبٍ (٢) ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ
الْكَرِيمِ ﷺ .

وَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِمْ ...

وَتَحَلَّى بِشَمَائِلِهِمْ (٣) ...

وَلَقَدْ كَانَتْ لَهُ كَلِمَةٌ يُرَدِّدُهَا عَلَى الدَّوَامِ حَتَّى عَدَتْ وَكَانَهَا شِعَارًا لَهُ ،
وَهِيَ قَوْلُهُ :

مَا أَعَزَّتِ الْعِبَادُ نَفْسَهَا بِمِثْلِ طَاعَةِ اللَّهِ ...

وَلَا أَهَانَتْ نَفْسَهَا بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ (*) ...

-
- (١) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ : هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ ... انظره في كتاب « صور من
حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .
(٢) انظرهم في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .
(٣) تحلى بشمائلهم : استمسك بأخلاقهم وصفاتهم وازدان بها .

(*) للاستزادة من أخبار سعيد بن المسيب انظر :

- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ١١٩ / ٥ .
- ٢ - تاريخ البخاري .
- ٣ - المعارف : ٤٣٧ .
- ٤ - حلية الأولياء : ١٦١ / ٢ .
- ٥ - تهذيب الأسماء واللغات القسم الأول ، الجزء الأول : ٢١٩ .
- ٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان : ٣٧٥ / ٢ .
- ٧ - تذكرة الحفاظ : ٥١ / ١ .
- ٨ - العبر : ١١٠ / ١ .
- ٩ - التَّجْوِيزُ الزَّاهِرُ : ٢٢٨ / ١ .
- ١٠ - شَذَرَاتُ الذَّهَبِ : ١٠٢ / ١ .

سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ

«لَقَدْ قُتِلَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمَا عَلَى الْأَرْضِ أَحَدٌ
إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى عِلْمِهِ»

[أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ]

كَانَ فَتًى وَثِيقٌ ^(١) الْجِسْمِ، مُكْتَمِلَ الْخَلْقِ، مُتَدَفِّقاً حَيَوِيَّةً وَنَشَاطاً.
وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ ذِكِّيَ الْفُؤَادِ، حَادَّ الْفِطْنَةِ، نَزَّاعاً ^(٢) إِلَى الْمَكَارِمِ،
مُتَأَثِّماً ^(٣) مِنَ الْمَحَارِمِ...

وَلَمْ يَكُنْ سَوَادُ لَوْنِهِ، وَفَلْفَلَةٌ ^(٤) شَعْرِهِ، وَحَبَشِيَّةُ أَصْلِهِ؛ لِتَنَالَ مِنْ
شَخْصِيَّتِهِ الْمُتَمَيِّزَةِ الْفَذَّةِ، وَذَلِكَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ.

* * *

وَلَقَدْ أَدْرَكَ الْفَتَى الْحَبَشِيُّ أَصْلاً، الْعَرَبِيُّ وَلَاءً ^(٥)، أَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا هُوَ
طَرِيقُهُ الْقَوِيمُ الَّذِي يُوصِّلُهُ إِلَى اللَّهِ.

وَأَنَّ الثَّقْلَى إِنَّمَا هِيَ سَبِيلُ الْمُمَهَّدَةِ الَّتِي تَبْلُغُ بِهِ الْجَنَّةَ؛ فَجَعَلَ الثَّقْلَى فِي
يَمِينِهِ... وَالْعِلْمَ فِي شِمَالِهِ...

وَشَدَّ عَلَيْهِمَا يَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا...

وَانْطَلَقَ يَقْطَعُ بِهِمَا رِحْلَةَ الْحَيَاةِ غَيْرَ وَاِنٍ ^(٦)، وَلَا مُتَمَهِّلٍ.

فَمَنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ كَانَ النَّاسُ يَرَوْنَهُ إِذَا عَاكِفًا عَلَى كِتَابِهِ يَتَعَلَّمُ...

أَوْ صَافًاً فِي مِخْرَابِهِ يَتَعَبَّدُ...

(١) وثيق الجسم: قوي الجسم محكمه.
(٢) نزاعاً: شديد الرغبة قوي التعلق.
(٣) متأثماً من المحارم: مبتعداً عما حرمه الله.
(٤) فلفلة شعره: تجعد شعره.
(٥) العربي ولأه: العربي تبعاً لآ نسباً.
(٦) وآن: فاتر مهمل.

ذَلِكُمْ هُوَ رَائِعَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي عَصْرِهِ ...
سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَأَرْضَاهُ .

* * *

أَخَذَ الْفَتَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ الْعِلْمَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ ^(١) مِنْ أَمْثَالِ
أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ، وَعَدِيِّ بْنِ حَاتِمِ الطَّائِيِّ ...
وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ الدَّوْسِيِّ ...
وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَعَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .
يَبْدَأُ أَنْ أُسْتَاذَهُ الْأَكْبَرُ ، وَمُعَلِّمُهُ الْأَعْظَمَ كَانَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ، حَبْرُ ^(٢)
أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ، وَبَحْرُ عِلْمِهَا الزَّائِرِ ...

* * *

لَزِمَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ لُزُومَ الظِّلِّ لِصَاحِبِهِ ... فَأَخَذَ عَنْهُ
الْقُرْآنَ وَتَفْسِيرَهُ ، وَالْحَدِيثَ وَغَرِيبَهُ ...
وَنَفَقَتَهُ عَلَى يَدَيْهِ فِي الدِّينِ ، وَتَعَلَّمَ مِنْهُ التَّأْوِيلَ ^(٣) ...
وَدَرَسَ عَلَيْهِ اللُّغَةَ ، فَتَمَكَّنَ مِنْهَا أَعْظَمَ التَّمَكُّنِ ...
حَتَّى غَدَا وَمَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى
عِلْمِهِ .

ثُمَّ طَوَّفَ ^(٤) فِي دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ بَحْثًا عَنِ الْمَعْرِفَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُطَوَّفَ .
فَلَمَّا اكْتَمَلَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنَ الْعِلْمِ ، اتَّخَذَ « الْكُوفَةَ » دَارًا لَهُ وَمَقَامًا .

(٣) التأويل : التفسير .

(٤) طَوَّفَ : تنقل .

(١) جِلَّةُ الصَّحَابَةِ : كبار الصَّحَابَةِ .

(٢) الحبر : العالم الصالح .

وَعَدَا لِأَهْلِهَا مُعَلِّمًا وَإِمَامًا .

* * *

كَانَ يَوْمُ النَّاسِ فِي رَمَضَانَ ؛ فَيَقْرَأُ لَيْلَةً بِقِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ^(١) ...

وَأُخْرَى بِقِرَاءَةِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ^(٢) ...

وَتَالِثَةً بِقِرَاءَةِ غَيْرِهِمَا ، وَهَكَذَا ...

وَكَانَ إِذَا صَلَّى مُنْفَرِدًا قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي صَلَاةٍ وَاحِدَةٍ ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ... فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ * إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَغْنَاقِهِمْ

وَالسَّلَاسِلُ يُسْجَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ^(٣) ﴿^(٤)

أَوْ مَرَّ بِنَحْوِهَا مِنْ آيَاتِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، أَفْشَعَرَ جِلْدُهُ ...

وَتَصَدَّعَ فُؤَادُهُ ... وَهَمَّتْ^(٥) عَيْنَاهُ ...

ثُمَّ لَا يَزَالُ يَبْدَأُ فِيهَا وَيُعِيدُ حَتَّى يُوشِكَ أَنْ يَقْضِيَ نَحْبَهُ^(٦) .

* * *

وَقَدْ دَأَبَ عَلَى شَدِّ رِحَالِهِ^(٧) إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ كُلِّ عَامٍ مَرَّتَيْنِ ...

مَرَّةً فِي رَجَبٍ مُحَرَّمًا بِعُمْرَةٍ ، وَأُخْرَى فِي ذِي الْقِعْدَةِ مُحَرَّمًا بِحَجٍّ .

وَقَدْ كَانَ طَلَّابُ الْعِلْمِ وَشُدَاةُ^(٨) الْخَيْرِ وَالْبِرِّ وَالتَّصَحُّحِ ؛ يَتَوَافَدُونَ عَلَى

(١) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : صحابي خدَمَ الرُّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ ، انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ : صحابي من كُتَّابِ الْوَحْيِ كَانَ مُتَقَدِّمًا فِي الْقِرَاءَةِ وَالْقَضَاءِ وَالْفَتْوَى ، انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٣) يسجرون : يوقدون ويحرقون . (٦) يقضي نَحْبَهُ : يَتَوَفَّى .

(٤) سورة غافر : ٧٠ - ٧٢ . (٧) شَدُّ رِحَالِهِ : رَحَلَ .

(٥) همت عيناه : سالت دموعه . (٨) شُدَاةُ الْخَيْرِ : طُلَّابُ الصَّلَاحِ .

« الْكُوفَةُ » لِيَنْهَلُوا مِنْ مَنَاهِلِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرِ الثَّرَّةِ^(١) الْعَذْبَةِ ...

وَيَعْتَرِفُوا مِنْ هَذِهِ الْقَوِيمِ ...

فَهَذَا يَسْأَلُهُ عَنِ الْخَشْيَةِ^(٢) مَا هِيَ ؟ .

فَيَجِيبُهُ بِقَوْلِهِ : الْخَشْيَةُ أَنْ تَخْشَى اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ حَتَّى تَحُولَ خَشْيَتُهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ .

وَذَاكَ يَسْأَلُهُ عَنِ الذِّكْرِ مَا هُوَ ؟ .

فَيَقُولُ : الذِّكْرُ هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا ...

فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ وَأَطَاعَهُ فَقَدْ ذَكَرَهُ ...

وَمَنْ أَعْرَضَ^(٣) عَنْهُ وَلَمْ يُطِعه فَلَيْسَ بِذَاكِرٍ لَهُ وَلَوْ بَاتَ لَيْلَهُ يُسَبِّحُ وَيَتْلُو .

* * *

وَقَدْ كَانَتْ « الْكُوفَةُ » حِينَ اتَّخَذَهَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ دَارَ إِقَامَةٍ لَهُ ، خَاضِعَةً لِلْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسُفَ الثَّقَفِيِّ ...

إِذْ كَانَ الْحَجَّاجُ يَوْمَئِذٍ وَالِيًّا عَلَى « الْعِرَاقِ » ، وَالْمَشْرِقِ ، وَبِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، وَكَانَ يَتَرَبَّعُ^(٤) حِينَئِذٍ عَلَى ذُرْوَةِ^(٥) سَطْوَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ...

وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَتَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ^(٦) ، وَقَضَى عَلَى حَرَكَتِهِ ...

وَأَخْضَعَ « الْعِرَاقَ » لِسُلْطَانِ بَنِي « أُمَيَّة » ، وَأَخْصَمَ^(٧) نِيرَانَ الثُّورَاتِ الْقَائِمَةِ هُنَا وَهُنَاكَ ... وَأَعْمَلَ السَّيْفَ فِي رِقَابِ الْعِبَادِ ...

(١) الثَّرَّة : الغزيرة المتدفقة .

(٢) الخشية : الخوف .

(٣) أَعْرَضَ عَنْهُ : ابتعد عنه .

(٤) يتربع في جلوسه : يثني قدميه تحت فخذه مخالفاً لهما . (٥) ذروة سَطْوَتِهِ : قمة سلطانه .

(٦) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بن العَوَّامِ بُويع بالخلافة ،

ثم قُضِيَ الْحَجَّاجُ عَلَيْهِ .

(٧) أَخْصَمَ : أَطْفَأَ النِّيرانَ .

وَأَشَاعَ الرُّعْبَ فِي أَرْجَاءِ^(١) الْبِلَادِ ...

حَتَّى امْتَلَأَتِ الْقُلُوبُ رَهْبَةً مِنْهُ وَخَشْيَةً مِنْ بَطْشِهِ^(٢).

* * *

ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ صِدَامٌ بَيْنَ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ وَبَيْنَ عَبْدِ
الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ أَحَدِ كِبَارِ قُوَادِهِ .

وَأَنْ يَتَحَوَّلَ الصِّدَامُ إِلَى فِتْنَةٍ أَكَلَتِ الْأَخْضَرَ وَالْيَاسَ ...

وَتَرَكَتْ فِي جِسْمِ الْمُسْلِمِينَ جِرَاحَاتٍ غَائِرَةً^(٣).

وَكَانَ مِنْ خَبَرِ هَذِهِ الْفِتْنَةِ ، أَنَّ الْحَجَّاجَ سَيَّرَ ابْنَ الْأَشْعَثِ بِجَيْشٍ لِعَزْوِ
« رَتْبِيل » مَلِكِ « التُّرُكِ » عَلَى الْمَنَاطِقِ الْوَاقِعَةِ وَرَاءَ « سِجِسْتَانَ »^(٤).

فَعَزَا الْقَائِدُ الْبَاسِلُ الْمُظْفَرُ شَطْرًا كَبِيرًا مِنْ بِلَادِ « رَتْبِيل » ، وَاحْتَلَّ خُصُونًا
مَنْيَعَةً^(٥) مِنْ دِيَارِهِ ...

وَعَنِمَ مَغَانِمَ كَثِيرَةً مِنْ مُدْنِهِ وَقُرَاهُ ...

ثُمَّ بَعَثَ إِلَى الْحَجَّاجِ رُسُلًا زَفُّوا^(٦) لَهُ بِشَائِرِ النَّصْرِ الْكَبِيرِ ، وَحَمَلُوا مَعَهُمْ
خُمْسَ الْغَنَائِمِ لِتَسْتَقَرَّ فِي خَزَائِنِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ .

وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا اسْتَأْذَنَهُ فِيهِ بِالتَّوَقُّفِ عَنِ الْقِتَالِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ ؛ لِيَحْتَبِرَ
مَدَاخِلَ الْبِلَادِ وَمَخَارِجَهَا ، وَيَقِفَ عَلَى طَبِيعَتِهَا وَأَحْوَالِهَا .

وَذَلِكَ قَبْلَ التَّوَعُّلِ^(٧) فِي شِعَابِهَا^(٨) الْقَاصِيَةِ الْمَجْهُولَةِ ...

وَتَغْرِيبِ الْجَيْشِ الظَّافِرِ لِلْمَخَاطِرِ .

(١) أَرْجَاءُ الْبِلَادِ : أَنْحَاءُ الْبِلَادِ .

(٢) بَطْشُهُ : فَتْكُهُ .

(٣) غَائِرَةٌ : عَمِيقَةٌ .

(٤) سِجِسْتَانَ : بِلَادٌ وَاقِعَةٌ بَيْنَ إِيرَانَ وَأَفْغَانِسْتَانَ .

(٥) الشَّعَابُ : الطَّرِيقُ بَيْنَ الْجِبَالِ .

(٦) الْحَصُونُ الْمُنِيعةُ : الْحَصُونُ الَّتِي يَتَعَذَّرُ الْوُصُولُ إِلَيْهَا .

(٧) زَفُّوا الْبَشَائِرَ : نَقَلُوا الْأَفْرَاحَ .

(٨) التَّوَعُّلُ : الْبَعْدُ وَالتَّعَمُّقُ .

فَاغْتَاظَ الْحَجَّاجُ مِنْهُ ...

وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ كِتَاباً يَصِفُهُ فِيهِ بِالْجُبْنِ وَالْخُنُوعِ^(١) ...

وَيُنْذِرُهُ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ^(٢)، وَيُهَدِّدُهُ بِالتَّسْحِيَةِ عَنْ قِيَادَةِ الْجَيْشِ .

فَجَمَعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَجُوهَ الْجُنْدِ ، وَقَادَةَ الْكَتَائِبِ ... وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ الْحَجَّاجِ ، وَاسْتَشَارَهُمْ فِيهِ ...

فَدَعَاؤُهُ إِلَى الْخُرُوجِ عَلَيْهِ ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى نَبْذِ^(٣) طَاعَتِهِ .

فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ :

أَتَبَايَعُونَنِي عَلَى ذَلِكَ وَتُؤَاوِرُونَنِي^(٤) عَلَى جِهَادِهِ حَتَّى يُطَهِّرَ اللَّهُ أَرْضَ «الْعِرَاقِ» مِنْ رَجْسِهِ^(٥) ؟ .

فَبَايَعَهُ الْجُنْدُ عَلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ .

* * *

هَبَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْأَشْعَثِ بِجَيْشِهِ الْمُتَمَلِّئِ كَرَاهَةً لِلْحَجَّاجِ .

وَنَشِبَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَيْشِ ابْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ مَعَارِكٌ طَاحِنَةٌ انْتَصَرَ فِيهَا نَصْرًا مُؤَزَّرًا .

فَتَمَّ لَهُ الْاسْتِيلَاءُ عَلَى «سِجِسْتَانَ» ، وَجُلَّ بِلَادِ «فَارِسَ» ...

ثُمَّ أَقْبَلَ يُرِيدُ انْتِزَاعَ «الْكُوفَةِ» وَ«الْبَصْرَةِ» مِنْ يَدَيِ الْحَجَّاجِ .

* * *

وَفِيمَا كَانَتْ نِيرَانُ الْحَرْبِ مُشْتَغِلَةً بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ...

(١) الخنوع : الضعف والذل .

(٢) الويل والثُّبُورُ : الهلاك والدمار .

(٣) نبذ طاعته : خلع طاعته .

(٤) تؤاورونني : تتعاونون معي .

(٥) رجسه : قبحه وسوء فعله .

وَكَانَ ابْنُ الْأَشْعَثِ يَنْتَقِلُ مِنْ ظَفَرٍ إِلَى ظَفَرٍ ...
وَقَعَ لِلْحَجَّاجِ خُطْبٌ ^(١) زَادَ خَصْمَهُ قُوَّةً .
ذَلِكَ أَنَّ وُلاَةَ الْأَمْصَارِ كَتَبُوا إِلَى الْحَجَّاجِ كُتُبًا قَالُوا فِيهَا :
إِنَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ ^(٢) قَدْ طَفِقُوا يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ لِيَتَخَلَّصُوا مِنْ دَفْعِ
الْجِزْيَةِ ^(٣) ، وَقَدْ تَرَكُوا الْقُرَى الَّتِي يَعْمَلُونَ فِيهَا وَاسْتَقَرُّوا فِي الْمُدُنِ ...
وَإِنَّ الْخَرَاجَ ^(٤) قَدْ اُضْمَحَلَّ ^(٥) ...
وَإِنَّ الْجَبَايَا قَدْ أَفْلَسَتْ .
فَكَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى وُلاَتِهِ فِي « الْبَصْرَةِ » وَغَيْرِهَا كُتُبًا يَأْمُرُهُمْ فِيهَا بِأَنْ
يَجْمَعُوا كُلُّ مَنْ نَزَحَ ^(٦) إِلَى الْمُدُنِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ...
وَأَنْ يُعِيدُوهُمْ إِلَى الْقُرَى مَهْمَا طَالَ نُزُوحُهُمْ عَنْهَا .
فَصَدَعَ ^(٧) الْوُلاَةَ بِالْأَمْرِ ، وَأَجْلَوْا أَعْدَادًا كَبِيرَةً مِنْ هَؤُلَاءِ عَنْ دِيَارِهِمْ ...
وَأَبْعَدُوهُمْ عَنْ مَوَارِدِ أَرْزَاقِهِمْ ، وَحَشَدُوهُمْ ^(٨) فِي أَطْرَافِ الْمُدُنِ ...
وَأَخْرَجُوا مَعَهُمْ نِسَاءَهُمْ وَأَطْفَالَهُمْ ...
وَدَفَعُوهُمْ دَفْعًا إِلَى الرَّحِيلِ إِلَى الْقُرَى ...
بَعْدَ أَنْ مَضَى عَلَى فِرَاقِهِمْ لَهَا حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ .

(١) خطب : أمر مكروه .

(٢) أهل الذِّمَّة : هم اليهود والنصارى ، ممن يعيشون بين المسلمين في ذمة الله ورسوله .

(٣) الجزية : ما يدفعه أهل الذمة للمسلمين من ضريبة .

(٤) الخراج : المال الذي يؤخذ عن الأرض .

(٥) اضمحل : انحل .

(٦) نزح : انتقل .

(٨) حشدوهم : جمعوهم .

(٧) صدعوا بالأمر : جهروا بالأمر وأنفذوه .

فَأَخَذَ النِّسَاءَ وَالْوِلْدَانَ وَالشُّيُوخَ يَبْكُونَ ، وَيَسْتَصْرِخُونَ ، وَيَسْتَغِيثُونَ ،
وَيَنَادُونَ : وَأُمِّحَمَّدَاهُ ...

وَأُمِّحَمَّدَاهُ ...

وَحَارُوا فِيَمَا يَفْعَلُونَ ، وَإِلَى أَيْنَ يَذْهَبُونَ ؟ .

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فُقَهَاءُ « الْبَصْرَةِ » وَقَرَأُواهَا لِيَغِيثُوهُمْ ، وَيَشْفَعُوا لَهُمْ .
فَلَمْ يَتِمَّ كُنُوتُ مِنْ ذَلِكَ .

فَطَفِقُوا يَبْكُونَ لِبُكَائِهِمْ ، وَيَسْتَغِيثُونَ لِمُصَابِهِمْ .

* * *

اغْتَنَمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْأَشْعَثِ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ، وَدَعَا الْفُقَهَاءَ وَالْقُرَاءَ ^(١) إِلَى
مُؤَازَرَتِهِ .

فَاسْتَجَابَتْ لَهُ كَوَكِبَةٌ ^(٢) مِنْ جِلَّةِ ^(٣) التَّابِعِينَ وَأُئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَلَى
رَأْسِهِمْ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى ^(٤) ...
وَالشَّعْبِيُّ ^(٥) ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ ^(٦) ، وَغَيْرُهُمْ ، وَغَيْرُهُمْ .

وَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَكَانَ النَّصْرُ فِيهَا أَوَّلَ الْأَمْرِ لِابْنِ
الْأَشْعَثِ وَمَنْ مَعَهُ عَلَى الْحَجَّاجِ وَجُنُودِهِ .

ثُمَّ بَدَأَتْ كَفَّةُ الْحَجَّاجِ تَرْجُحُ شَيْئًا فَشَيْئًا ... حَتَّى هَزِمَ ابْنُ الْأَشْعَثِ
هَزِيمَةً مُنْكَرَةً ... وَفَرَّ نَاجِيًا بِنَفْسِهِ ...

(١) القراء : العبَّاد الزَّهاد حملة القُرْآن .

(٢) كوكبة : جماعة .

(٣) جِلَّةُ التَّابِعِينَ : فضلاء التابعين .

(٤) عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى : أحد فضلاء التابعين .

(٥) الشعبي : أحد فقهاء التابعين وشعرائهم وأذكيائهم النادرين ... انظره ص ١٧٢ .

(٦) أَبُو الْبَخْتَرِيِّ : تابعي عابد زاهد .

وَاسْتَسْلَمَ حَيْثُهِ لِلْحَجَّاجِ وَجُنُودِهِ .

* * *

أَمَرَ الْحَجَّاجُ مُنَادِيَهُ أَنْ يُنَادِيَ فِي الْمُقَاتِلِينَ الْمَهْزُومِينَ ، وَأَنْ يَدْعُوهُمْ
لِتَجْدِيدِ بَيْعَتِهِ^(١) .

فَاسْتَجَابَ أَكْثَرُهُمْ لَهُ ، وَتَوَارَى بَعْضُهُمْ عَنْهُ .

وَكَانَ بَيْنَ الْمُتَوَارِينَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

فَلَمَّا أَخَذَ الْمُسْتَسْلِمُونَ يَتَقَدَّمُونَ تِبَاعاً لِبَيْعَتِهِ ، فُوجِئُوا بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي
حُسْبَانِهِمْ ...

فَلَقَدْ جَعَلَ يَقُولُ لِلْوَاحِدِ مِنْهُمْ : أَتَشْهَدُ عَلَى نَفْسِكَ بِأَنَّكَ قَدْ كَفَرْتَ
بِنَقْضِ بَيْعَتِكَ لِيُؤَيِّدُكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟ ...

فَإِذَا قَالَ : نَعَمْ ... قَبِلَ مِنْهُ تَجْدِيدَ بَيْعَتِهِ ، وَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ .

وَإِذَا قَالَ : لَا ... قَتَلَهُ .

فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَخْضَعُ لَهُ وَيَقِرُّ عَلَى نَفْسِهِ بِالْكَفْرِ ؛ لِيُنْقَذَ نَفْسُهُ مِنَ الْقَتْلِ .

وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَسْتَكْبِرُ^(٢) ذَلِكَ وَيَسْتَنْكَرُهُ^(٣) ... فَيَذْفَعُ رَقَبَتَهُ ثَمَنًا لِإِبَائِهِ
وَاسْتِنْكَارِهِ .

وَلَقَدْ ذَاعَتْ أَخْبَارُ تِلْكَ الْمَجْزَرَةِ^(٤) الرَّهْيَبَةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا بِضْعَةُ آلَافٍ مِنَ

الرِّجَالِ ...

(١) بيعته : مبايعته بالولاية عليهم .

(٢) يستكبر ذلك : يجده أمراً كبيراً على نفسه .

(٣) يستنكره : يستغربه .

(٤) المجزرة : المذبحة .

وَنَجَا مِنْهَا بِضَعَةِ آلَافٍ بَعْدَ أَنْ دَمَعُوا^(١) أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ...

* * *

مِنْ ذَلِكَ ... أَنْ شَيْخاً مُعَمَّراً^(٢) مِنْ قَبِيلَةِ « حَثْعَم » كَانَ مُعْتَرِلاً^(٣)
لِلْفَرِيقَيْنِ ... مُقِيماً وَرَاءَ الْفُرَاتِ^(٤).

فَسِيقَ إِلَى الْحَجَّاجِ مَعَ مَنْ سِيقُوا إِلَيْهِ ...

فَلَمَّا أُدْخِلَ عَلَيْهِ سَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ ، فَقَالَ :

مَا زِلْتُ مُنْذُ شَبْتُ هَذِهِ النَّارُ مُعْتَرِلاً وَرَاءَ هَذَا النَّهْرِ ...

مُنْتَظِراً مَا يُسْفِرُ^(٥) عَنْهُ الْقِتَالُ ...

فَلَمَّا ظَهَرَتْ وَظَفِيرَاتُ أَتَيْتُكَ مُبَايَعاً .

فَقَالَ لَهُ : تَبّاً لَكَ^(٦) ... أَتَقْعُدُ مُتَرَبِّصاً^(٧) ...

وَلَا تُقَاتِلُ مَعَ أَمِيرِكَ !؟ .

ثُمَّ زَجَرَهُ قَائِلاً : أَتَشْهَدُ عَلَى نَفْسِكَ بِأَنَّكَ كَافِرٌ ؟ .

فَقَالَ : بَيْسَ الرَّجُلِ أَنَا إِنْ كُنْتُ عَبَدْتُ اللَّهَ ثَمَانِينَ عَاماً ، ثُمَّ أَشْهَدُ بَعْدَ

ذَلِكَ عَلَى نَفْسِي بِالْكَفْرِ .

فَقَالَ لَهُ : إِذَنْ أَقْتُلُكَ .

فَقَالَ : وَإِنْ قَتَلْتَنِي ... فَوَاللَّهِ مَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِي إِلَّا ظِمٌّ جِمَارٍ^(٨) ...

فَإِنَّهُ يَشْرَبُ غَدَوَةً ، وَيَمُوتُ عَشِيَّةً ...

(١) دمغوا أنفسهم : أفرأوا على أنفسهم .

(٢) معمراً : متقدماً في السن .

(٣) معتزلاً : مبتعداً عن الفريقين غير موالي لأي منهما .

(٤) الفرات : نهر يجتاز سورية والعراق .

(٥) يسفر : يكشف .

(٦) تبّاً لك : هلاكاً لك .

(٧) متربصاً : منتظراً .

(٨) ظمٌّ جمار : مدة صبر الحمار على العطش .

وَإِنِّي لَأَتَنظِرُ الْمَوْتَ صَبَاحَ مَسَاءٍ ، فَأَفْعَلُ مَا بَدَأَ لَكَ .

فَقَالَ الْحَجَّاجُ لَجَلَّادِهِ : إضْرِبْ عُقْفَهُ ...

فَضْرَبَ الْجَلَّادُ عُقْفَهُ ؛ فَلَمْ يَنْقُ أَحَدٌ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ شِيعَةِ ^(١) الْحَجَّاجِ
أَوْ مِنْ عَدُوِّهِ إِلَّا أَكْبَرَ الشَّيْخَ الْمُعَمَّرَ ، وَرَثَى لَهُ ... وَتَرَخَّمَ عَلَيْهِ ...

* * *

ثُمَّ إِنَّهُ دَعَا بِكَمِيلِ بْنِ زِيَادِ النَّحْعِيِّ ^(٢) وَقَالَ لَهُ :

أَتَشْهَدُ عَلَى نَفْسِكَ بِالْكَفْرِ ؟ !

فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أَشْهَدُ .

فَقَالَ : إِذَنْ أَقْتُلُكَ .

فَقَالَ : اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ^(٣) ...

وَإِنَّ الْمَوْعِدَ فِيمَا بَيْنَنَا عِنْدَ اللَّهِ ... وَبَعْدَ الْقَتْلِ الْحِسَابُ .

فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ : سَتَكُونُ الْحُجَّةُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْكَ لَا لَكَ .

فَقَالَ لَهُ :

ذَلِكَ إِذَا كُنْتُ أَنْتَ الْقَاضِي يَوْمَئِذٍ .

فَقَالَ الْحَجَّاجُ : اقْتُلُوهُ ...

فَقُدِّمَ وَقُتِلَ ...

* * *

(١) شِيعَةُ الْحَجَّاجِ : أَنْصَارُ الْحَجَّاجِ وَأَتْبَاعُهُ .

(٢) كَمِيلُ بْنُ زِيَادِ النَّحْعِيِّ : تَابِعِي ثَقَّةٌ ، مَطَاعٌ فِي قَوْمِهِ ، شَهِدَ صَفَيْنَ مَعَ عَلِيِّ .

(٣) اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ : افْعَلْ مَا تَرِيدُ .

ثُمَّ قُدِّمَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ كَانَ يَكْرَهُهُ وَيَسْتَهْيِي أَنْ يَظْفَرَ بِقَتْلِهِ ؛ لِمَا كَانَ يُنْقَلُ
إِلَيْهِ مِنْ سُخْرِيَّتِهِ بِهِ ... فَبَادَرَهُ قَائِلًا :

إِنِّي أَرَى أَمَامِي رَجُلًا مَا أَظُنُّهُ يَشْهَدُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْكَفْرِ .
فَقَالَ الرَّجُلُ : لَا تُورْطَنِي ^(١) وَتَخْدَعْنِي عَنْ نَفْسِي ، فَأَنَا أَكْفَرُ أَهْلِ
الْأَرْضِ ، وَأَكْفَرُ مِنْ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ .
فَحَلَّى سَبِيلَهُ ... وَهُوَ يَتَحَرَّقُ ظَمًا لِقَتْلِهِ .

* * *

ذَاعَتْ أَخْبَارُ تِلْكَ الْمَهْلَكَةِ ^(٢) الرَّهْبِيَّةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا بِضْعَةُ آلَافٍ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ الرَّاسِخِينَ ^(٣) ...

وَنَجَا مِنْهَا بِضْعَةُ آلَافٍ مِمَّنْ أَكْرَهُوا عَلَى دَمْعِ ^(٤) أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ ...
فَأَيْقَنَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَنَّهُ إِنْ وَقَعَ بَيْنَ يَدَيِ الْحَجَّاجِ ؛ عَدَا بَيْنَ اثْنَتَيْنِ لَا ثَالِثَةَ
لَهُمَا :

فَأَمَّا أَنْ تُدَقَّ ^(٥) عُنُقُهُ ...
وَأَمَّا أَنْ يُقَرَّ عَلَى نَفْسِهِ بِالْكَفْرِ ...
وَهُمَا أَمْرَانِ أَحْلَاهُمَا مَرٌّ ... فَأَثَرُ ^(٦) أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بِلَادِ « الْعِرَاقِ » ...
وَأَنْ يَتَوَارَى عَنِ الْأَنْظَارِ .

وَوَظَلَ يَضْرِبُ فِي أَرْضِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ مُسْتَحْفِيًا عَنِ الْحَجَّاجِ وَعُيُونِهِ ^(٧)
حَتَّى لَجَأَ إِلَى قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ فِي أَرْضِي مَكَّةَ .

(١) لَا تُورْطَنِي : لَا تَوَقِّعْنِي فِي الْهَلَاكِ . (٤) دَمَعُ أَنْفُسِهِمْ : وَشَمَ أَنْفُسِهِمْ .

(٢) الْمَهْلَكَةُ : مَكَانُ الْهَلَاكِ وَمَوْضِعُهُ . (٥) تُدَقُّ عُنُقُهُ : تَقْطَعُ رَقَبَتَهُ .

(٣) الرَّاسِخِينَ : الثَّابِتِينَ التَّعَمِّقِينَ . (٦) أَثَرُ : فَضْلٌ وَاخْتَارَ . (٧) عِيُونُهُ : جَوَاسِيْسُهُ .

وَبَقِيَ عَلَى حَالِهِ هَذِهِ عَشْرَ حِجَجٍ (١) كَامِلَاتٍ كَانَتْ كَافِيَةً لِأَنْ تُطْفِئَ
نِيرَانَ الْحَجَّاجِ الْمُتَّقِدَةِ فِي قَلْبِهِ ، وَأَنْ تُزِيلَ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ ضِغْنٍ (٢) عَلَيْهِ .

* * *

يَبْدَأُ أَنَّهُ حَدَّثَ مَا لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُهُ أَحَدٌ ... ذَلِكَ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى مَكَّةَ وَالِ
جَدِيدٌ مِنْ وُلَاةِ بَنِي « أُمَيَّة » ... هُوَ « خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ » .

فَتَوَجَّسَ (٣) أَصْحَابُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ خِيفَةً مِنْهُ ؛ لِمَا كَانُوا يَعْرِفُونَ مِنْ
سُوءِ سِيرَتِهِ ، وَتَوَقَّعُوا الشَّرَّ عَلَى يَدَيْهِ .

فَجَاءَ بَعْضُهُمْ إِلَى سَعِيدٍ وَقَالُوا لَهُ :

إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدِمَ مَكَّةَ ، وَإِنَّا - وَاللَّهِ - لَا نَأْمَنُهُ عَلَيْكَ ...

فَاسْتَجَبَ لِطَلَبِنَا ؛ وَاخْرُجْ مِنْ هَذَا الْبَلَدِ .

فَقَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ فَرَزْتُ حَتَّى صِرْتُ اسْتَحْيَ مِنَ اللَّهِ ...

وَلَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَبْقَى فِي مَكَانِي هَذَا ...

وَلْيَفْعَلِ اللَّهُ بِي مَا يَشَاءُ .

* * *

لَمْ يُكَذِّبْ خَالِدٌ ظَنَّ السُّوءِ الَّذِي ظَنَّهُ النَّاسُ بِهِ ، فَمَا أَنْ عَلِمَ بِمَكَانِ سَعِيدِ
ابْنِ جُبَيْرٍ حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيْهِ سَرِيَّةً (٤) مِنْ جُنُودِهِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسُوقُوهُ مُقَيَّدًا إِلَى
الْحَجَّاجِ فِي مَدِينَةِ « وَاسِطَ » (٥) .

فَأُطْبِقَ الْجُنْدُ عَلَى بَيْتِ الشَّيْخِ ...

(١) عشر حجج : عشر سنوات .

(٢) ضغن : حقد .

(٣) توجس خيفة : شعر بفزع وخوف .

(٤) السريّة : القطعة من الجيش .

(٥) واسط : مدينة واقعة بين البصرة والكوفة ، وقد

سميت بذلك لأنها تقع في وسطهما ، فتبعد عن

كل منهما خمسين ميلاً .

وَأَلْقُوا الْقَيْدَ فِي يَدَيْهِ عَلَى مَرَأَى مِنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ ...
وَأَذْنُوهُ^(١) بِالرَّحِيلِ إِلَى الْحَجَّاجِ ، فَتَلَقَّاهُمْ هَادِيَّ النَّفْسِ مُطْمَئِنِّ الْقَلْبِ .
ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ :
مَا أَرَانِي إِلَّا مَقْتُولًا عَلَى يَدَيْ ذَلِكَ الظَّالِمِ ...
وَلَقَدْ كُنْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي فِي لَيْلَةِ عِبَادَةٍ ، فَاسْتَشْعَرْنَا حَلَاوَةَ الدُّعَاءِ
فَدَعَوْنَا اللَّهَ بِمَا دَعَوْنَا ، وَتَضَرَّعْنَا^(٢) إِلَيْهِ بِمَا شَاءَ أَنْ نَتَضَرَّعَ ...
ثُمَّ سَأَلْنَا اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يَكْتُبَ لَنَا الشَّهَادَةَ ، وَقَدْ رَزَقَهَا اللَّهُ لِصَاحِبَيَّ
كِلَيْهِمَا ، وَبَقِيْتُ أَنَا أَنْتَظِرُهَا ...
ثُمَّ إِنَّهُ مَا كَادَ يَنْتَهِي مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى طَلَعَتْ عَلَيْهِ بُنْيَةٌ صَغِيرَةٌ لَهُ ، فَرَأَتْهُ
مُقَيَّدًا وَالْجُنْدُ يَسُوقُونَهُ ، فَتَشَبَّثَتْ^(٣) بِهِ ، وَجَعَلَتْ تَبْكِي وَتَنْشِجُ^(٤) ...
فَنَحَّاهَا عَنْهُ بِرَفْقٍ ، وَقَالَ لَهَا :
قُولِي لِأَمْرِكِ يَا بُنْيَتِي : إِنَّ مَوْعِدَنَا الْجَنَّةُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ...
ثُمَّ مَضَى ...

* * *

بَلَغَ الْجُنْدُ بِالْإِمَامِ الْحَبْرِ^(٥) الْعَابِدِ الزَّاهِدِ ؛ التَّقِيِّ النَّقِيِّ الْوَرَعَ مَدِينَةَ
« وَاسِطَ » ، وَأَدْخَلُوهُ عَلَى الْحَجَّاجِ .
فَلَمَّا صَارَ عِنْدَهُ نَظَرَ إِلَيْهِ فِي حَقْدٍ وَقَالَ : مَا اسْمُكَ ؟ .

(١) أَذْنُوهُ : دَعَوَهُ وَأَعْلَمُوهُ .

(٢) تَضَرَّعْنَا : ابْتَهِلْنَا .

(٣) تَشَبَّثَتْ : تَعَلَّقَتْ .

(٤) تَنْشِجُ : تَغْصُ بِالْبُكَاءِ .

(٥) الْحَبْرِ : الْعَالِمُ الْعَامِلُ .

فَقَالَ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ .

فَقَالَ : بَلْ شَقِيئُ بْنُ كُسَيْرٍ^(١) .

فَقَالَ : بَلْ كَانَتْ أُمِّي أَعْلَمَ بِاسْمِي مِنْكَ .

فَقَالَ : مَا تَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ ؟ .

قَالَ : تَعْنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؟ ! .

فَقَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى^(٢) ...

خَيْرٌ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْبَشَرِ ، وَخَيْرٌ مَنْ مَضَى ...

حَمَلَ الرِّسَالَةَ ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ ...

وَنَصَحَ لِلَّهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَخَاصَّتِهِمْ .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ ؟ .

قَالَ : هُوَ الصَّدِيقُ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ذَهَبَ حَمِيداً ، وَعَاشَ

سَعِيداً ...

وَمَضَى عَلَى مِنْهَاجِ^(٣) النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، لَمْ يُغَيِّرْ وَلَمْ

يُبَدِّلْ .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي عُمرَ ؟ ! .

قَالَ : هُوَ الْفَارُوقُ الَّذِي فَارَقَ^(٤) اللَّهَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ...

(١) كسیر : ضد جبر .

(٢) المصطفى : المختار .

(٣) المنهاج : الحطة والطريقة .

(٤) فرق : ميز .

وَخَيْرُهُ^(١) اللَّهُ وَخَيْرُهُ رَسُولُهُ ، وَلَقَدْ مَضَى عَلَى مِنْهَاجِ^(٢) صَاحِبِيهِ ...

فَعَاشَ حَمِيداً ، وَقُتِلَ شَهِيداً .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي عُثْمَانَ^(٣)

قَالَ : هُوَ الْمُجْهَّزُ لِجَيْشِ الْعُسْرَةِ^(٤) ...

الْحَافِزُ بِبُرْ^(٥) رُومَةَ ...

الْمُشْتَرِي يَتَنَّا لِنَفْسِهِ فِي الْجَنَّةِ ...

صَهْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى ابْنَتِيهِ .

وَلَقَدْ زَوَّجَهُ النَّبِيُّ بِوَحْيٍ مِنَ السَّمَاءِ ، وَهُوَ الْمَقْتُولُ ظُلماً .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي عَلِيٍّ ؟ !

قَالَ : ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْفِتْيَانِ ...

وَهُوَ زَوْجُ فَاطِمَةَ الْبَتُولِ^(٦) ...

وَأَبُو الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ سَيِّدَيِ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ .

قَالَ : فَأَيُّ خُلَفَاءِ بَنِي « أُمِّيَّة » أَعْجَبُ لَكَ ؟ .

قَالَ : أَرْضَاهُمْ لِخَالِقِهِمْ .

قَالَ : فَأَيُّهُمْ أَرْضَى لِلْخَالِقِ ؟ .

(١) خيرة الله ورَسُوله : الذي اختار الله ورَسُوله .

(٢) منهج صاحبه : خطة الرسول ﷺ وأبي بكر .

(٣) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٤) جيش العسرة : جيش غزوة تبوك .

(٥) بر رومة : بر في عقيق المدينة المنورة اشتراها عثمان بن عفان بمائة ناقة ، وتصدق بها على المسلمين .

(٦) البتول : النقية الطاهرة .

قَالَ : عِلْمَ ذَلِكَ عِنْدَ الَّذِي يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ .
 قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِيَّ ؟ .
 قَالَ : أَنْتَ أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ .
 قَالَ : بَلْ أُرِيدُ عِلْمَكَ أَنْتَ .
 قَالَ : إِذَنْ يَسْأَلُكَ ^(١) وَلَا يَسْأَلُكَ .
 قَالَ : لَا بُدَّ مِنْ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ .
 قَالَ : إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّكَ مُخَالِفٌ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ...
 تُقَدِّمُ عَلَى أُمُورٍ تُرِيدُ بِهَا الْهَيْبَةَ ، وَهِيَ تُقْحِمُكَ ^(٢) فِي الْهَلَكَةِ ...
 وَتَذْفَعُكَ إِلَى النَّارِ دَفْعًا .
 قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَا أَقْتُلَنَّكَ .
 قَالَ : إِذَنْ تُفْسِدَ عَلَيَّ دُنْيَايَ ، وَأُفْسِدَ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ .
 قَالَ : اخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ أَيَّ قِتْلَةٍ شِئْتَ .
 قَالَ : بَلِ اخْتَرْتُهَا أَنْتَ لِنَفْسِكَ يَا حَبَّاجُ ...
 فَوَاللَّهِ مَا تَقْتُلَنِي قِتْلَةً إِلَّا قَتَلَكَ اللَّهُ مِثْلَهَا فِي الْآخِرَةِ .
 قَالَ : أَفَتُرِيدُ أَنْ أَعْفُو عَنْكَ ؟ .
 قَالَ : إِنْ كَانَ عَفْوُ فَمِنْ اللَّهِ تَعَالَى ...
 أَمَا أَنْتَ فَلَا بَرَاءَةَ ^(٣) لَكَ وَلَا عُذْرَ .

(١) يسألك : يحزنك .

(٢) تُقْحِمُكَ : تدفعك وتدخلك .

(٣) لَا بَرَاءَةَ لَكَ : لَا عَفْوَ مِنْ عِنْدِكَ .

فَاغْتَاظَ الْحَجَّاجُ وَقَالَ: السَّيْفَ وَالنُّطْعَ^(١) يَا غُلَامُ.

فَتَبَسَّ سَعِيدٌ، فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ:

وَمَا تَبَسُّمُكَ!؟

قَالَ: عَجِبْتُ مِنْ جَرَأَتِكَ^(٢) عَلَى اللَّهِ وَحِلْمِ اللَّهِ عَلَيْكَ.

فَقَالَ: اقْتُلْهُ يَا غُلَامُ.

فَاسْتَقْبَلَ الْقَبِيلَةَ وَقَالَ:

﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ^(٣) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا^(٤) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٥).

فَقَالَ: احْرِفُوا^(٦) وَجْهَهُ عَنِ الْقَبِيلَةِ.

فَقَالَ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا^(٧) فَثَمَّ^(٨) وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٩).

فَقَالَ: كُتْبُوهُ^(١٠) عَلَى الْأَرْضِ.

فَقَالَ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾^(١١).

فَقَالَ: اذْبَحُوا عَدُوَّ اللَّهِ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَدْعَى^(١٢) مِنْهُ لآيَاتِ الْقُرْآنِ...

فَرَفَعَ سَعِيدٌ كَفَّيْهِ وَقَالَ:

(١) النُّطْعُ: بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالقتل.

(٢) جَرَأَتُكَ: إقدامك.

(٣) فطر: خلق وأنشأ.

(٤) خنيفاً: مائلاً إلى الدين القيم.

(٥) سورة الأنعام: ٧٩.

(٦) احرفوا وجهه: أميلوا وجهه.

(٧) تَوَلَّوْا: تنجَّهوا.

(٨) ثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ: هناك قبلة الله التي ترضاها.

(٩) سورة البقرة: ١١٥.

(١٠) كُتْبُوهُ عَلَى الْأَرْضِ: اقلبوه عَلَى الْأَرْضِ.

(١١) سورة طه: ٥٥.

(١٢) أَدْعَى مِنْهُ: أَعْوَى استحضاراً منه.

اللَّهُمَّ : لَا تُسَلِّطِ الْحَجَّاجَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدِي .

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَى مَضَرَعِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ غَيْرُ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْماً حَتَّى حُمَّ (١)
الْحَجَّاجُ ، وَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِ وَطْأَةُ الْمَرَضِ .

فَكَانَ يَغْفُو (٢) سَاعَةً وَيُفِيْقُ أُخْرَى ...

فَإِذَا عَفَا عَفْوَةً صَغِيرَةً ؛ اسْتَيْقَظَ مَذْعُوراً (٣) وَهُوَ يَصِيحُ :

هَذَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ آخِذٌ بِخَنَاقِي (٤) ...

هَذَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ يَقُولُ : فِيمَ قَتَلْتَنِي ؟ !

ثُمَّ يَبْكِي وَيَقُولُ :

مَالِي وَلِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ !!؟ رُدُّوا عَنِّي سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ ...

فَلَمَّا قَضَى نَحْبَهُ (٥) وَوُورِيَ تُرَابَهُ ، رَأَاهُ بَعْضُهُمْ فِي الْحُلَمِ فَقَالَ لَهُ :

مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ فِي مَنْ قَتَلْتَهُمْ يَا حَجَّاجُ ؟ .

فَقَالَ : قَتَلَنِي اللَّهُ بِكُلِّ امْرِئٍ قَتَلَهُ وَاحِدَةً ...

وَقَتَلَنِي بِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ سَبْعِينَ قَتْلَةً (*) .

(١) حُمَّ : أصابته الحمى . (٣) مَذْعُوراً : فرعاً خائفاً .

(٢) يَغْفُو : يرقد رقدة خفيفة . (٤) بِخَنَاقِي : بعنقي .

(*) للاستزادة من أخبار سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ انظر :

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢٥٦/٦ .

٢ - الزهد للإمام أحمد بن حنبل : ٣٧٠ .

٣ - طبقات الفقهاء للشيرازي : ٨٢ . ٧ - تاريخ الإسلام : ٢/٤ . ١١ - العقد الثمين : ٥٤٩/٤ .

٤ - البداية والنهاية : ٩٦/٩ - ٩٨ . ٨ - تذكرة الحفاظ : ٧١/١ . ١٢ - النجوم الزاهرة : ٢٢٨/١ .

٥ - تاريخ البخاري : ٤٦١/٣ . ٩ - العبر : ١١٢/١ . ١٣ - طبقات المفسرين : ١٨١/١ .

٦ - وفيات الأعيان : ٣٧١/٢ . ١٠ - أخبار القضاة : ٤١١/٢ . ١٤ - شذرات الذهب : ١٠٨/١ .

مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ شَيْخُ الرَّاهِدِينَ فِي عَصَرِهِ

«لِلْأَمْرَاءِ قُرَاءٌ وَلِلْأَغْنِيَاءِ قُرَاءٌ، وَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ وَاسِعٍ لَمِنْ قُرَاءِ الرَّحْمَنِ»
[مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ]

نَحْنُ الْآنَ فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ...
وَهَذَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ، أَحَدُ سُيُوفِ الْإِسْلَامِ الْمَسْلُوكَةِ ...
وَوَالِي «حُرَّاسَانَ» الْعَتِيدُ^(١) ...
يُنْهَدُ^(٢) بِجَيْشِهِ الْبَالِغِ مِائَةَ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، عَدَا الْمُتَطَوِّعِينَ مِنْ طُلَّابِ
الشَّهَادَةِ، وَرُغَابِ الْمَثُوبَةِ ...
وَقَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى فَتْحِ «جُزْجَانَ»، «وَطَبْرِسْتَانَ»^(٣) ... وَكَانَ فِي
طَلِيعَةِ الْمُتَطَوِّعِينَ مَعَهُ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ الْبَصْرِيُّ ...
الْمُلَقَّبُ بِزَيْنِ الْفُقَهَاءِ ...
الْمَعْرُوفُ بِعَايِدِ «الْبَصْرَةِ» ...
وَيَتَلَمَّذُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ^(٤)، خَادِمِ الرُّسُولِ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

* * *

(١) العتيد: القوي المستعد.

(٢) يُنْهَدُ: يسرع إلى العدو، ويرزله.

(٣) جُزْجَانُ وَطَبْرِسْتَانُ: فتحهما يزيد بن المهلب، وهما منطقتان من مناطق بلاد فارس.

(٤) أنس بن مالك الأنصاري: انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المشروعة.

نَزَلَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بِجَيْشِهِ عَلَى « دِهِسْتَانَ » .
 وَكَانَ يَقْطُنُهَا قَوْمٌ مِنَ « التُّرُكِ » ، شَدِيدٌ بِأَسْهُمٍ ...
 قَوِيٌّ مِرَاسُهُمْ ^(١) ...
 مَنِيْعَةٌ حُصُونُهُمْ ^(٢) ...
 فَكَانُوا يَخْرُجُونَ لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ كُلَّ يَوْمٍ ...
 فَإِذَا نَالَ مِنْهُمْ الْجُهْدُ أَوْ اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْبَأْسُ ، انْحَاذُوا ^(٣) إِلَى مَعَاقِلِهِمْ ^(٤)
 فِي شِعَابِ ^(٥) الْجِبَالِ ...
 وَتَحَصَّنُوا بِحُصُونِهَا الْمَنِيْعَةِ ، وَلَاذُوا بِذُرَاهَا ^(٦) الرَّفِيعَةِ ...
 * * *
 وَقَدْ كَانَ لِمُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ مَقَامٌ كَبِيرٌ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ ؛ عَلَى
 الرِّعْمِ مِنْ ضَعْفِ بَنِيَّتِهِ ، وَتَقَدَّمَ سِنُّهُ ...
 فَلَقَدْ كَانَ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ يَسْتَرْوِحُونَ ^(٧) بِثُورِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَتَهَلَّلُ مِنْ
 وَجْهِهِ السَّمْحُ ...
 وَيَنْشَطُونَ لِحَرَارَةِ الذِّكْرِ الَّتِي تَشِعُّ مِنْ لِسَانِهِ الْعَذْبِ ...
 وَيَطْمَعُونَ إِلَى دَعَوَاتِهِ الْمُسْتَجَابَةِ فِي لَحَظَاتِ الشَّدَّةِ وَالْكَرْبِ ...
 وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ ^(٨) إِذَا أَنْشَبَ قَائِدُ الْجَيْشِ الْقِتَالَ ، أَنْ يُنَادِيَ :
 يَا حَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي ...

(١) مراسهم : بأسهم وقوتهم .

(٢) الحصون : الأماكن المنيعَة المحميّة .

(٣) انحازوا : لجأوا .

(٧) يستروحون : يجدون الراحة ويطلبونها .

(٤) معاقلهم : جبالهم المرتفعة .

(٨) من شأنه : من خطته وطريقته .

يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي ...

فَلَا يَكَاذُ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ يَسْمَعُونَ نِدَاءَهُ ، حَتَّى يَهْبُتُوا إِلَى قِتَالِ عَدُوِّهِمْ
كَمَا تَهْبُتُ الْأَسُودُ الْمُسْتَنْفَرَةُ^(١) ...

وَيُقْبِلُوا عَلَى سَاحَةِ الْوَعْلِ إِقْبَالَ الظَّمَاءِ عَلَى الْمَاءِ الْبُرُودِ^(٢) فِي الْيَوْمِ
الْقَائِظِ ...

* * *

وَفِي ذَاتِ مَعْرَكَةٍ مِنْ تِلْكَ الْمَعَارِكِ الطَّاحِنَةِ الضَّرُوسِ^(٣) ، بَرَزَ مِنْ
صُفُوفِ الْأَعْدَاءِ فَارِسٌ لَمْ تَقَعِ الْعَيْنُ عَلَى أَجْسَمٍ مِنْهُ جَسَامَةٌ^(٤) ...
وَلَا أَشَدَّ مِنْهُ قُوَّةً ...

وَلَا أَوْفَى جُرْأَةً ...

وَلَا أَمْضَى^(٥) عَزْماً ...

وَطَفِقَ يَصُولُ^(٦) بَيْنَ الصُّفُوفِ وَيَجُولُ ، حَتَّى نَحَى الْمُسْلِمِينَ عَنْ
مَوَاقِعِهِمْ ...

وَبَعَثَ الْحَشِيَّةَ وَالْهَيْبَةَ فِي قُلُوبِهِمْ ...

ثُمَّ جَعَلَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْمُبَارَزَةِ مُتَحَدِّياً مُسْتَكْبِراً ، وَيُلِحُّ^(٧) فِي الدُّعَاءِ .
فَمَا كَانَ مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ وَاسِعٍ إِلَّا أَنْ هَمَّ بِأَنْ يَبْرَزَ لَهُ .
عِنْدَ ذَلِكَ دَبَّتِ الْحِمِيَّةُ^(٨) فِي نَفُوسِ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ ...

(١) المستنفرة: الهائجة المستتارة .

(٢) البرود: البارد الصافي .

(٣) الضروس: الشديدة المهلكة .

(٤) أجسم جسامة: أضخم ضخامة وأشدَّ عظمة .

(٥) أمضى: أقوى .

(٦) طفق يصول: أخذ يجول في ساحة الحرب .

(٧) يلح: يُلِحُّف ويكرُر .

(٨) الحمية: الألفة والإباء .

وَأَقْبَلَ عَلَى الشَّيْخِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، وَأَقْسَمَ عَلَيْهِ بِأَلَّا يَفْعَلَ ، وَسَأَلَهُ بِأَنْ يَتْرَكَ لَهُ ذَلِكَ ...

فَأَبْرَ (١) الشَّيْخُ قَسَمَهُ ، وَدَعَا لَهُ بِالنَّصْرِ والتَّأيِيدِ ...

* * *

أَقْبَلَ كُلُّ مِنَ الْفَارِسِينَ عَلَى عَدُوِّهِ إِقْبَالَ الْمُنُونِ ...

وَتَصَاوَلَا مُصَاوَلَةَ أَسَدَيْنِ خَادِرَيْنِ (٢) ...

فَتَعَلَّقَتْ بِهِمَا عُيُونُ الْجُنْدِ وَقُلُوبُهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ .

وَاسْتَمَرَّا سَاعَةً يَتَصَاوَلَانِ وَيَتَجَاوَلَانِ ، حَتَّى أَخَذَ الْجُهْدُ مِنْهُمَا كُلُّ مَأْخِذٍ .

ثُمَّ اخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ بِسَيْفَيْهِمَا عَلَى رَأْسَيْهِمَا فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ ...

فَثَبَّتْ سَيْفُ « التُّرْكِيِّ » فِي حَدِيدِ بَيْضَةِ (٣) الْفَارِسِ الْمُسْلِمِ ...

وَنَزَلَ سَيْفُ الْمُسْلِمِ عَلَى جَبِينِ الْفَارِسِ « التُّرْكِيِّ » ، فَشَطَرَ رَأْسَهُ شَطْرَيْنِ ...

وَفَلَقَ هَامَتَهُ (٤) فِلَقَتَيْنِ ...

ثُمَّ عَادَ الْفَارِسُ الْمُنتَصِرُ إِلَى صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فِي مَنْظَرٍ لَمْ تَشْهَدْ الْعَيْنُ مِثْلَهُ قَطُّ .

فَسَيْفٌ فِي يَدِهِ يَقْطُرُ دَمًا ...

وَسَيْفٌ مُثَبَّتٌ فِي حُودَّتِهِ (٥) يَلْتَمِعُ تَحْتَ أَشْعَةِ الشَّمْسِ .

(١) أبر قسمه : أمضى يمينه ونفذها .

(٢) خادرين : شديدين ، قويين . (٤) هامته : هامة الإنسان رأسه .

(٣) البيضة : الخوذة المصنوعة من الحديد . (٥) الخوذة : ما يضعه المحارب على رأسه ليقيه ضربات السيوف .

فَاسْتَقْبَلَهُ الْمُسْلِمُونَ بِالتَّهْلِيلِ ، وَالتَّكْبِيرِ ، وَالتَّحْمِيدِ .
وَنَظَرَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ إِلَى اثْنَلَاقٍ ^(١) السَّيْفَيْنِ ، وَالبَيْضَةِ ، وَالسَّلَاحِ عَلَى
الرَّجُلِ ... فَقَالَ : لِلَّهِ أَبُوهُ مِنْ فَارِسٍ !! ...
أَيُّ رَجُلٍ هَذَا ؟ ! .

فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهُ رَجُلٌ بَارَكْنَهُ دَعَوَاتُ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ ...

* * *

انْقَلَبَ مِيزَانُ الْقُوَى بَعْدَ مَضْرَعِ الْفَارِسِ « التُّرْكِيِّ » ... فَسَرَى الْجَزْعُ
وَالْهَلَعُ ^(٢) فِي نُفُوسِ الْمُشْرِكِينَ سَرَيَانَ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ ^(٣) ...
وَأَضْطَرَمَّتْ نِيرَانُ التَّخَوُّةِ وَالْعِزَّةِ فِي صُدُورِ الْمُسْلِمِينَ .
فَأَقْبَلُوا عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ إِقْبَالَ السَّيْلِ ...
وَأَحَاطُوا بِهِمْ إِحَاطَةَ الْعُلِّ ^(٤) بِالْعُنُقِ ...
وَقَطَعُوا عَنْهُمْ الْمَاءَ وَالْمِيرَةَ ^(٥) .
فَلَمْ يَجِدْ مَلِكُهُمْ بُدًّا مِنَ الْمُصَالِحَةِ ...
فَبَعَثَ إِلَى يَزِيدَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ الصُّلْحَ ، وَيُعْلِنُ اسْتِعْدَادَهُ لِتَسْلِيمِهِ مَا فِي يَدِهِ
مِنَ الْبِلَادِ بِكُلِّ مَا فِيهَا وَمَنْ فِيهَا ، عَلَى أَنْ يُؤَمِّنَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَالِهِ ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ .
فَقَبِلَ يَزِيدُ مُصَالِحَتَهُ ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يُقَدِّمَ لَهُ سَبْعِمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ
مُقَسَّطَةً ^(٦) ...

(١) الاثنَلَاق : اللمعان .

(٢) الهَلَع : الخوف .

(٣) الهشيم : الكَلأ اليابس .

(٤) العُل : طوق من جلد أو حديد يجعل في اليد أو العنق .

(٥) الميرة : الطعام الذي يدخره الإنسان . (٦) مقسطة : مجزأة أجزاء محدَّدة تُدْفَعُ فِي أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ .

وَأَنْ يَنْقُدَهُ أَرْبَعِمِائَةَ أَلْفٍ مُعَجَّلَةً ...
وَأَنْ يُقَدِّمَ لَهُ أَرْبَعِمِائَةَ دَابَّةٍ مُحْمَلَةً زَعْفَرَانًا^(١) ...
وَأَنْ يَشُوقَ لَهُ أَرْبَعِمِائَةَ رَجُلٍ ؛ فِي يَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جَانٌّ^(٢) مِنْ
الْفِصَّةِ ...
وَعَلَى رَأْسِهِ بُرْنُسٌ مِنَ الْخَزْ^(٣) ...
وَعَلَى الْبُرْنُسِ طَيْلَسَانٌ مِنَ الْقَطِيفَةِ^(٤) ، وَسَرَقَةٌ^(٥) مِنَ الْحَرِيرِ لِتَلْبَسَهَا
نِسَاءُ الْجُنْدِ ...

* * *

وَلَمَّا وَضَعَتِ الْمَعَارِكُ أَوْزَارَهَا^(٦) قَالَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ لِخَازِنِهِ^(٧) :
أَخْصِ لَنَا الْغَنَائِمَ حَتَّى نُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ...
فَحَاوَلَ الْخَازِنُ وَمَنْ مَعَهُ أَنْ يُخْصُوها ؛ فَعَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ ...
فَقَسَمَتِ الْغَنَائِمُ بَيْنَ الْجُنْدِ قِسْمَةً قَائِمَةً عَلَى التَّسَامُحِ ...

* * *

وَقَدْ وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ الْغَنَائِمِ تَاجًا مَصْنُوعًا مِنْ خَالِصِ الذَّهَبِ ...
مُحَلًى بِالذُّرِّ وَالْجَوْهَرِ ...
مُرْخَرَفًا بِرَوَائِعِ الثَّقُوشِ .
فَتَطَاوَلَتْ^(٨) نَحْوُهُ الرِّقَابُ ...

(١) الزعفران : نبات يستخدم لتطيب الطعام وتلوينه .

(٢) الجانم : الكأس .

(٣) البرنوس : ثوب يكون غطاء الرأس جزءاً منه ، والخز : الحرير .

(٤) القطيفة : دثارٌ مخمل يلقى الرجل على نفسه .

(٥) سرقة من الحرير : شقة من حرير تلبسها النساء . (٧) الخازن : الذي يتولى حفظ المال وإنفاقه .

(٦) أوزارها : أثقالها . (٨) تطاولت : امتدت .

وَتَسَمَّرْتُ^(١) عَلَى لَأَيْلِيهِ الْعُيُونُ .

فَأَخَذَهُ يَزِيدُ بِيَدِهِ ، وَرَفَعَهُ حَتَّى يَرَاهُ مَنْ لَمْ يَسْتَطِيعْ رُؤْيَتَهُ مِنَ الْجُنْدِ ، ثُمَّ قَالَ :

أَتُرَوْنَ أَنَّ أَحَدًا يَزْهَدُ^(٢) فِي هَذَا النَّجَاحِ ؟ !

فَقَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ...

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَزْهَدُ بِهِ ؟ !

فَقَالَ :

سَتَرَوْنَ أَنَّهُ مَا زَالَ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ يَزْهَدُ بِهِ ...

وَبِجِلِّ الْأَرْضِ مِنْ مِثْلِهِ .

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى حَاجِبِهِ وَقَالَ :

الْتِمِسْ^(٣) لَنَا مُحَمَّدَ بْنَ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ .

فَانْطَلَقَ الْحَاجِبُ يَبْحَثُ عَنْهُ فِي كُلِّ جِهَةٍ ...

فَالْقَاهُ قَدْ انْتَحَلَ مَكَانًا قَصِيًّا^(٤) عَنِ النَّاسِ ، وَانْتَصَبَ قَائِمًا يَتَنَقَّلُ^(٥)

وَيَدْعُو ، وَيَتَهَلَّلُ وَيَسْتَغْفِرُ ...

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ :

إِنَّ الْأَمِيرَ يَدْعُوكَ لِلِقَائِهِ ، وَيَسْأَلُكَ أَنْ تَمْضِيَ إِلَيْهِ السَّاعَةَ ...

(١) تسمرت : تعلقت .

(٢) يزهد : يتخلى ويستهن .

(٣) التمس فلاناً : ابحت عن فلان واطلبه .

(٤) قصيًّا : بعيداً .

(٥) يتنقل : يصلي النوافل ، والنوافل : ما لم يفرض على المسلم .

فَمَضَى مَعَ الْحَاجِبِ ، حَتَّى إِذَا صَارَ عِنْدَ الْأَمِيرِ حَيًّا وَجَلَسَ قَرِيباً مِنْهُ ،
فَرَدَّ الْأَمِيرُ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ...

ثُمَّ رَفَعَ التَّاجَ بِيَدِهِ وَقَالَ :

يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ ظَفَرُوا بِهَذَا التَّاجِ الثَّمِينِ ...
وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُورِكَ^(١) بِهِ ، وَأَنْ أَجْعَلَهُ مِنْ نَصِيكِ ؛ فَطَابَتْ نَفْسُ
الْجُنْدِ بِذَلِكَ ...

فَقَالَ : تَجْعَلُهُ مِنْ نَصِيبي أَنَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ !؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ مِنْ نَصِيكِ أَنْتَ .

فَقَالَ : لَا حَاجَةَ لِي بِهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...

وَجُزِيتَ وَإِبَاهُمْ عَنِّي خَيْرًا .

فَقَالَ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِاللَّهِ لَتَأْخُذَنَّهُ .

فَلَمَّا وَقَعَ قَسَمُ الْأَمِيرِ أَخَذَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ التَّاجَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَهُ وَانْصَرَفَ .

فَقَالَ بَعْضُ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ الشَّيْخَ :

هَذَا هُوَ ذَا قَدْ اسْتَأْثَرَ^(٢) بِالتَّاجِ ، وَمَضَى بِهِ .

فَأَمَرَ يَزِيدُ غُلَامًا مِنْ عِلْمَانِهِ أَنْ يَتَّبِعَهُ مُسْتَخْفِيًا^(٣) عَنْهُ ...

وَأَنْ يَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ بِالتَّاجِ ...

وَأَنْ يَأْتِيَهُ بِخَبْرِهِ ...

(١) أُورِكَ بِهِ : أُكْرِمَكَ بِهِ .

(٢) اسْتَأْثَرَ بِالتَّاجِ : أَثَرُ بِهِ نَفْسَهُ ، وَاخْتَصَّ بِهِ .

(٣) مُسْتَخْفِيًا : مُسْتَرًا عَنْهُ .

فَتَبِعَهُ الْغُلَامُ ، وَهُوَ لَا يَذَرِي بِهِ .

* * *

مَضَى مُحَمَّدٌ بْنُ وَاسِعٍ فِي طَرِيقِهِ ، وَالتَّاجُ فِي يَدِهِ ...
فَعَرَضَ لَهُ رَجُلٌ أَشْعَثُ أَغْبَرُ^(١) زَرِيَّ الْهَيْئَةِ فَسَأَلَهُ قَائِلًا :
مِنْ مَالِ اللَّهِ ...

فَنَظَرَ الشَّيْخُ عَنْ يَمِينِهِ ، وَعَنْ شِمَالِهِ ، وَمِنْ خَلْفِهِ ...
فَلَمَّا اسْتَيْقَنَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَرَاهُ ، دَفَعَ بِالتَّاجِ إِلَى السَّائِلِ ...
ثُمَّ انْطَلَقَ فَرِحًا جَدِيلًا^(٢) ...

كَأَنَّمَا أَلْقَى عَنْ كَاهِلِهِ عِمَّا كَانَ يُثْقِلُ ظَهْرَهُ ...
فَأَمْسَكَ الْغُلَامُ بِيَدِ السَّائِلِ ، وَأَتَى بِهِ الْأَمِيرَ ، وَقَصَّ عَلَيْهِ خَبْرَهُ ...
فَأَخَذَ الْأَمِيرُ التَّاجَ مِنَ السَّائِلِ ، وَعَوَّضَ عَلَيْهِ بِمَالٍ وَفِيرٍ حَتَّى أَرْضَاهُ .
ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الْجُنْدِ وَقَالَ :
أَمَا قُلْتُ لَكُمْ : إِنَّهُ مَا زَالَ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ يَزْهَدُ
بِهَذَا التَّاجِ ، وَأَمْثَالِ أَمْثَالِهِ .

* * *

ظَلَّ مُحَمَّدٌ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ يُجَاهِدُ الْمُشْرِكِينَ تَحْتَ رَايَةِ يَزِيدَ بْنِ
الْمُهَلَّبِ حَتَّى اقْتَرَبَ مَوْعِدُ الْحَجِّ .
فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ أَمَامُهُ غَيْرُ وَقْتٍ قَصِيرٍ ؛ دَخَلَ عَلَى يَزِيدَ ، وَاسْتَأْذَنَهُ فِي
الْإِنْصِرَافِ إِلَى الْقِيَامِ بِالشُّكِ^(٣) .

(١) أَشْعَثُ أَغْبَرُ : مُتَلَبِّدُ الشَّعْرِ مُغْبَرُهُ .

(٢) جَدِيلًا : فَرِحًا .

(٣) الشُّكُ : الْحَجُّ تَطَلُّعًا وَذَلِكَ بَعْدَ آدَاءِ الْفَرِيضَةِ .

فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ :

إِذْنُكَ يَبْدُكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، فَاْمُضْ مَتَى شِئْتَ ...
وَقَدْ أَمَرْنَا لَكَ بِمَبْلَغٍ مِنَ الْمَالِ يُعِينُكَ عَلَى حَاجَتِكَ .
فَقَالَ لَهُ :

وَهَلْ سَتَأْمُرُ بِمِثْلِ هَذَا الْمَالِ لِكُلِّ جُنْدِيٍّ مِنْ جُنُودِكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؟ !
فَقَالَ : لَا ...

فَقَالَ : لَا حَاجَةَ لِي بِشَيْءٍ أُخْصُ بِهِ ^(١) مِنْ دُونِ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ .
ثُمَّ وَدَّعَهُ وَانْصَرَفَ ...

* * *

شَقَّ ^(٢) سَفَرُ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ عَلَى يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ كَمَا شَقَّ
عَلَى جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ حَظُّوا بِضُحْبَتِهِ ^(٣) .

وَأَسْفُوا لِحَزْمَانِ جَيْشِهِمُ الظَّافِرِ مِنْ بَرَكَاتِهِ ، وَتَمَنَّوْا عَلَيْهِ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِمْ
حِينَ يَفْرُغَ مِنْ قَضَاءِ نُسْكِهِ .

وَلَا غَرَوْ ^(٤) فَقَدْ كَانَ قَوَادُ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَشَبِّهُونَ فِي أَرْجَاءِ الْمَعْمُورَةِ
يَحْرِصُونَ أَشَدَّ الْحَرِصِ عَلَى أَنْ يَكُونَ عَابِدُ « الْبَصْرَةِ » مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ
فِي عِدَادِ جَيْشِهِمْ ...

وَكَانُوا يَسْتَبَشِرُونَ بِوُجُودِهِ مَعَهُمْ خَيْرًا كَثِيرًا ...
وَيَزْجُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَهَبَهُمُ النَّصْرَ الْمُؤَزَّرَ بِصَالِحِ دَعَوَاتِهِ ...

(١) أُخْصُ بِهِ : أُمَيِّرُ بِهِ عَلَى الْآخَرِينَ .

(٢) شَقَّ : صَغُبَ .

(٣) بَضُحْبَتِهِ : بِمِرَافِقَتِهِ .

(٤) لَا غَرَوْ : لَا عَجَبَ .

وَجَزِيلٌ ^(١) بَرَكَاتِهِ ...

* * *

وَبَعْدُ ؛ فَمَا أَكْرَمَ هَذِهِ النُّفُوسَ الَّتِي كَانَتْ صَغِيرَةً فِي عُيُونِ أَنْفُسِهَا ...
كَبِيرَةً عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ .

وَمَا أَجَلٌ هَذَا التَّارِيخِ الَّذِي ظَفِرَ بِهِؤُلَاءِ الْأَفْدَاذِ ^(٢) مِنْ رَوَائِعِ الرِّجَالِ .
وَالِإِلَى لِقَاءِ آخَرٍ مَعَ عَابِدِ « الْبَصْرَةِ » مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ .

(١) جزيل بركاته : وافر تقاه وصلاحه .

(٢) الأفذاذ : النادرون الذين لَا نظير لهم .

مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ عَايِدُ الْبَصْرَةِ وَزِيرُ الْفَتَحَاءِ

« إِنَّ إِيصَبَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلْفِ سَيْفٍ شَهِيرٍ ...
يَحْمِلُهَا أَلْفُ شَابٍّ طَرِيرٍ ... »

[قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ]

نَحْنُ الْآنَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ لِلْهِجْرَةِ ...
وَهَذَا مَفْخَرَةُ الْمُسْلِمِينَ الْقَائِدُ الْفَاتِحُ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيُّ ، يَنْهَدُ^(١)
بِجَيْشِهِ اللَّجَبِ^(٢) مِنْ مَدِينَةِ « مَرْو »^(٣) مُتَوَجِّهاً إِلَى مِثْلَقَةِ « بُخَارَى »^(٤) .
فَقَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى أَنْ يَفْتَحَ مَا تَبَقَّى مِنْ بِلَادٍ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ^(٥) ...
وَأَنْ يَغْزُوا أَطْرَافَ « الصِّينِ » ...
وَأَنْ يَضْرِبَ عَلَى أَهْلِهَا الْجِزْيَةَ^(٦) .
لَكِنَّ قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ مَا كَادَ يَغْبِزُ نَهْرَ « سِيحُون »^(٧) حَتَّى نَذَرَ^(٨) بِهِ أَهْلُ
« بُخَارَى » ، فَهَبُوا يَدْفُقُونَ طُبُولَ الْحَرْبِ فِي كُلِّ مَكَانٍ .
وَطَفِقُوا يَسْتَصْرِخُونَ الْأَقْوَامَ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ مِنْ « الصُّغْدِ »^(٩) ...

(١) ينهد : يخرج .

(٢) اللجب : الجرار ذو الجَلْبَةِ .

(٣) مَرْو : هي « مَرْو الرُّود » إحدى حواضر الفرس ، مات فيها المهلب بن أبي صفرة .

(٤) بخارى : مدينة في أوزبكستان على ملتقى الطرق بين فارس وروسيا والهند والصين .

(٥) ما وراء النهر : ما وراء نهر « جيحون » في خراسان .

(٦) الجزية : ما يؤخذ من أهل الذَّمَّة .

(٧) نهر سيحون : نهر شهير كبير واقع بعد سمرقند .

(٨) نذر به : علم به واستعد له .

(٩) الصُّغْد : أمة دخلت في طاعة الفرس .

وَ« التُّزُكِ » ...

وَ« الصِّينِ » ...

وغيرهم ، وغيرهم ...

فَتَدَفَّقَتْ عَلَيْهِمْ جُمُوعُ الْمُقَاتِلِينَ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ وَعِزٍّ ، وَلَعْنَةُ وَدَيْنٍ ...
حَتَّى بَلَغُوا أَضْعَافَ أَضْعَافِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ عُدَّةً وَعَدَدًا .
ثُمَّ إِنَّهُمْ بَادَرُوا فَسَدُّوا فِي وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ أَفْوَاهَ الطُّرُقِ ...
وَأَغْلَقُوا دُونَهُمُ الثُّغُورَ وَالْمَسَالِكَ ...

حَتَّى إِنْ قُتِبَتْ بَنُ مُسْلِمٍ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُسَرِّبَ ^(١) إِلَيْهِمْ سَرِيَّةً صَغِيرَةً مِنْ
سَرَايَاهُ لِتَتَحَسَّسَ أَحْوَالَهُمْ ، وَتَأْتِيَهُ بِأَخْبَارِهِمْ ...
كَمَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْ عُيُونِهِ الْمُنبِثِينَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَنْفُذَ إِلَيْهِ .

* * *

عَسَكَرَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ بِجَيْشِهِ بِالْقُرْبِ مِنْ مَدِينَةِ « بِيكَنْد » ^(٢) ، وَتَسَمَّرَ فِي
مَكَانِهِ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ ...

فَأَخَذَ الْعَدُوُّ يَبْزُزُ لَهُ مَعَ إِشْرَاقَةِ كُلِّ صَبَاحٍ بِطَلِيعَةٍ مِنْ طَلَائِعِهِ ، فَتَنَافَسُوا
جَيْشُهُ سَحَابَةَ النَّهَارِ كُلِّهِ ...

فَإِذَا بَجْنَ ^(٣) عَلَيْهَا اللَّيْلُ عَادَتْ إِلَى قَوَاعِدِهَا الْحَصِينَةِ الْأَمِينَةِ .

وَقَدْ اسْتَمَرَّ الْأَمْرُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ...
وَقُتِبَتْ فِي حَيَرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ .

(١) يُسَرِّبُ : يُدْخِلُ خَفِيَةً .

(٢) بِيكَنْد : إِحْدَى مَدَنٍ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ .

(٣) بَجْنَ اللَّيْلِ : أَظْلَمَ .

فَهُوَ لَا يَدْرِي أَيُّحِجُّمُ^(١) أَمْ يُقْدِمُ ؟ .
ثُمَّ مَا لَبِثْتَ أَنْ بَلَغْتَ أَخْبَارَ قُتَيْبَةَ وَجُنْدِهِ أَسْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ .
فَجَزَعَ النَّاسُ أَشَدَّ الْجَزَعِ عَلَى الْجَيْشِ الْكَبِيرِ الَّذِي لَمْ يُقْهَرُ ...
وَالْقَائِدِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَمْ يُغْلَبْ .
وَصَدَرَتِ التَّوْجِيهَاتُ إِلَى الْوُلَاةِ فِي الْأَمْصَارِ بِأَنْ يُدْعَى لِجُنْدِ الْمُسْلِمِينَ
الْمُتَرَبِّصِينَ^(٢) فِي بِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ إِثْرَ كُلِّ صَلَاةٍ .
فَأَخَذَتْ مَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ تَضِجُ^(٣) مِنْ أَجْلِهِمْ بِالْدُّعَاءِ ...
وَطَفِقَتْ مَاذِنْهُمْ تَعِجُ^(٤) بِالضَّرَاعَةِ وَالْإِنْيَهَالِ ...
وَدَأَبَ الْأَيْمَةُ يَقْنُتُونَ^(٥) فِي كُلِّ صَلَاةٍ .
وَهَبَّ لِنَجْدَةِ الْجَيْشِ الْعَتِيدِ^(٦) خَلْقٌ كَثِيرٌ ...
وَكَانَ يَتَقَدَّمُهُمُ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ .

* * *

كَانَ لِقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيِّ عَيْنُ^(٧) مِنْ أَبْنَاءِ الْعَجَمِ ؛ مَشْهُودٌ لَهُ بِالْحُنْكَةِ
وَالْحِكْمَةِ وَالذَّهَاءِ يُقَالُ لَهُ « تِنْدَرُ » ...
فَاسْتَمَالَهُ الْأَعْدَاءُ إِلَيْهِمْ ، وَبَدَّلُوا لَهُ الْمَالَ بِسَخَائِهِ ...

(١) أحجم عن الأمر : رجع عنه وتأخر عن فعله .

(٢) المتربصين : المنتظرين حتى تتكشف الأمور .

(٣) تضحج بالدعاء : ترفع أصواتها بالدعاء ، وتملأ به الأرض .

(٤) تعج بالضراعة : تصيح تذللًا لله .

(٥) يقنتون : يدعون الله ويسألونه الثَّغْرَ .

(٦) العتيد : القوي .

(٧) عين : جاسوس .

وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ حِيلَتَهُ وَذَكَاءَهُ فِي تَوْهِينِ^(١) قُوَى الْمُسْلِمِينَ ،
وَحَمْلِهِمْ عَلَى مُعَادَرَةِ الْبِلَادِ مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ ...

* * *

دَخَلَ « تَيْذَرُ » عَلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيِّ .
وَكَانَ مَجْلِسُهُ حَافِلاً بِكِبَارِ الْقَوَادِ وَوُجُوهِ الْجُنْدِ ، فَأَخَذَ مَكَانَهُ إِلَى
جَانِبِهِ ، ثُمَّ مَالَ عَلَيْهِ وَهَمَسَ فِي أُذُنِهِ قَائِلاً :
أَحْلِ^(٢) مَجْلِسَكَ أَتَيْهَا الْأَمِيرُ إِذَا شِئْتَ .
فَأَشَارَ قُتَيْبَةُ إِلَى مَنْ فِي الْمَجْلِسِ ؛ فَأَنْصَرَفُوا جَمِيعاً إِلَّا ضِرَارَ بْنَ الْحُصَيْنِ
فَقَدِ اسْتَبَقَاهُ قُتَيْبَةُ .

عِنْدَ ذَلِكَ التَفَتَ « تَيْذَرُ » إِلَى قُتَيْبَةَ وَقَالَ :
لَكَ عِنْدِي أَخْبَارٌ أَتَيْهَا الْأَمِيرُ ...
فَقَالَ قُتَيْبَةُ - فِي لَهْفَةٍ - : هَاتِهَا .
فَقَالَ « تَيْذَرُ » : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - فِي دِمَشْقَ - قَدْ عَزَلَ الْحَجَّاجَ بْنَ
يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ ...

وَعَزَلَ الْقَوَادِ الَّذِينَ يَنْبُعُونَهُ ، وَأَنْتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ...
وَوَلَّى عَلَى الْجُيُوشِ قَوَاداً جُدُداً ، وَوَجَّهَهُمْ إِلَى أَعْمَالِهِمْ ...
وَإِنَّ خَلْفَكَ^(٣) قَادِمٌ عَلَيْكَ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا .
وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ تَنْصَرِفَ بِجَيْشِكَ عَنْ هَذِهِ الدِّيَارِ ...

(١) توهين القوى : إضعاف القوى وضعفها .

(٢) أحل مجلسك : فرغ مجلسك من الناس .

(٣) خلّفتك : الذي سيخلفك ويحل محلك .

وَأَنْ تَعُودَ إِلَى « مَرَوْ » لِتَتَذَكَّرَ أَمْرَكَ بَعِيداً عَنْ سَاحَاتِ الْمَعَارِكِ .

* * *

مَا كَادَ « تَيْذَرُ » يُتِمُّ كَلَامَهُ حَتَّى دَعَا قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ عَلَامَهُ « سِيَاءَ » ، فَلَمَّا صَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ :

اضْرِبْ عُقْنَ هَذَا الْخَائِنِ يَا « سِيَاءَ » ...

فَضْرَبَ « سِيَاءَ » عُقْمَهُ ، وَعَادَ مِنْ حَيْثُ أَتَى ...

وَهُنَا التَّفَتُّ قُتَيْبَةُ إِلَى ضِرَارِ بْنِ الْحُصَيْنِ وَقَالَ :

لَيْسَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ سَمِعَ هَذَا الْخَبَرَ غَيْرِي وَغَيْرِكَ ، وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ لَئِنْ ظَهَرَ هَذَا الْأَمْرُ مِنْ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ تَنْقُضِي حَرْبَنَا هَذِهِ لِأَلْحِقَنَّاكَ بِهِذَا الْغَادِرِ ...

فَإِذَا كَانَتْ لَكَ فِي نَفْسِكَ حَاجَةٌ ؛ فَاحْفَظْ^(١) عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ انْتِشَارَ هَذَا الْحَدِيثِ يُفْتُ^(٢) فِي عَضِدِ الْجُنْدِ ...

وَيُنْزِلُ بِنَا هَزِيمَةً مُنْكَرَةً .

ثُمَّ أَذِنَ لِلنَّاسِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ .

فَلَمَّا رَأَوْا « تَيْذَرَ » مُجْنَدَلاً^(٣) عَلَى الْأَرْضِ ، غَارِقاً فِي دِمَائِهِ ... وَقَفُوا وَاجِمِينَ^(٤) مُطْرِقِينَ^(٥) ...

فَقَالَ لَهُمْ قُتَيْبَةُ : مَا يَزُوعُكُمْ^(٦) مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ غَادِرٍ خَائِنٍ ؟ !

فَقَالُوا : كُنَّا نَظُنُّهُ نَاصِحاً لِلْمُسْلِمِينَ .

(١) احفظ لسانك : اكتم الأمر ولا تحدث به أحداً . (٤) واجمين : دهشين متحيرين .

(٢) يفت في عضد الجند : يوهن قوة الجند . (٥) مطرقين : ساكتين .

(٣) مجندلاً : صريعاً . (٦) ما يزوعكم : ما يفزعكم .

فَقَالَ : بَلْ كَانَ غَاشًّا لَهُمْ ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ بِذَنْبِهِ .

ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ وَقَالَ :

وَالآنَ انْصَرِفُوا إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ ... وَالْقَوَّةُ بِقُلُوبٍ غَيْرِ الْقُلُوبِ الَّتِي كُنْتُمْ تَلْقَوْنَهُ بِهَا مِنْ قَبْلُ .

* * *

صَدَعَ^(١) الْجُنْدُ بِأَمْرِ قَائِدِهِمْ قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ ، وَعَبَرُوا الثُّغُورَ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ ...

فَلَمَّا تَصَافَّ الْجَيْشَانِ^(٢) رَأَى الْمُسْلِمُونَ مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ ، وَوَهَرَةَ عُدَّتُهُ وَعَتَادُهُ مَا مَلَأَ نُفُوسَهُمْ خَشْيَةً مِنْهُ ... وَهَيْبَةً لَهُ ...

وَأَحْسَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ بِمَا يَعْتَمِلُ^(٣) فِي أَفْعَدَةِ جُنْدِهِ ، فَجَعَلَ يَطُوفُ بَيْنَ الْكَتَائِبِ وَيَشْحَذُ^(٤) الْهِمَمَ ، وَيَشْدُ الْعَزَائِمَ ...

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ وَقَالَ :

أَيْنَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ ؟ !

فَقَالُوا : إِنَّهُ هُنَاكَ فِي الْمَيْمَنَةِ أَيْهَا الْأَمِيرُ .

فَقَالَ : وَمَا يَفْعَلُ ؟ .

فَقَالُوا : إِنَّهُ مُتَكَيِّئٌ عَلَى رُمْحِهِ ، شَاخِصٌ بَبَصَرِهِ ، يُحَرِّكُ إِصْبَعَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ ... أَفَتُنَادِيهِ لَكَ أَيْهَا الْأَمِيرُ ؟ .

فَقَالَ : بَلْ دَعُوهُ ...

(١) صدع الجند بالأمر: مضرا فيه، وحققوه.

(٣) يعتمل: يضطرب وينفعل.

(٢) تصاف الجيوشان: اجتماعا صفين.

(٤) يشد الهمم: يقوي الهمم ويشيرها.

ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ : وَاللَّهِ إِنَّ تِلْكَ الْإِصْبَعَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلْفِ سَيْفٍ شَهِيرٍ ؛
يَحْمِلُهَا أَلْفُ شَابٍّ طَرِيرٍ (١) ...

اتْرُكُوهُ يَدْعُو ...

فَمَا عَرَفْنَاهُ إِلَّا مُسْتَجَابَ الدُّعَاءِ ...

* * *

تَرَاحَفَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ وَجَيْشِ عَدُوِّهِمْ كَمَا تَتَرَاحَفُ الْأُسُودُ
الضُّوَارِي (٢) ...

وَالْتَقَى الْجَمْعَانِ كَمَا تَلْتَقِي أَمْوَاجُ الْبَحْرِ الْمُتَلَاطِمَةُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ...

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ السَّكِينَةَ ... وَأَمَدَّهُمْ بِرُوحٍ مِنْ عِنْدِهِ .

فَمَا زَالُوا يُجَالِدُونَ (٣) عَدُوَّهُمْ نَهَارَهُمْ كُلَّهُ حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ زَلَزَل (٤)
اللَّهُ أَقْدَامَ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ...

فَمَنْحُوا (٥) ظُهُورَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ ...

فَرَكِبَهُمُ الْمُجَاهِدُونَ قَتْلًا ، وَأَسْرًا ، وَتَشْرِيدًا .

عِنْدَ ذَلِكَ سَأَلُوا قُتَيْبَةَ الصُّلَحَ وَالْفِدْيَةَ (٦) ... فَصَالَحَهُمْ .

* * *

كَانَ فِي جُمْلَةِ أَسْرَى الْأَعْدَاءِ رَجُلٌ خَبِثُ النَّفْسِ ، مُسْتَطِيرٌ (٧) الشَّرَّ ،
شَدِيدُ الْأَثَرِ فِي تَأْلِيلِ (٨) قَوْمِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ... فَقَالَ لِقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ :
أَنَا أَفْدِي نَفْسِي أَتَيْهَا الْأَمِيرُ .

(٥) منحوا ظهورهم : ولّوا هارين .

(٦) الفدية : استنقاذ أنفسهم بالمال .

(٧) مستطير الشر : شديد الشر قويه .

(٨) تأليب قومه : إثارة قومه .

(١) طرير : ذو شارب .

(٢) الضُّواري : التي تلهج بالصيد ، وتندفع إليه .

(٣) يجالدون : يضاربون بالسيف .

(٤) زلزل أقدامهم : أرجف أقدامهم .

فَقِيلَ لَهُ : وَكَمْ تَبْذُلُ ؟ !

فَقَالَ : خَمْسَةَ آلَافٍ حَرِيرَةٍ « صِينِيَّة » ^(١) ثَمَنُهَا أَلْفُ أَلْفٍ .

فَالْتَمَتَ قُتَيْبَةُ إِلَى وُجُوهِ الْجُنْدِ ، وَقَالَ : مَا تَرَوْنَ ؟ .

فَقَالُوا : نَرَى أَنَّ هَذَا الْمَالَ سَيَزِيدُ فِي غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ ...

ثُمَّ إِنَّنَا بَعْدَ أَنْ أَحْرَزْنَا هَذَا النَّصْرَ لَمْ نَعُدْ نَخْشَى بِأَسَ هَذَا الرَّجُلِ ،
وَأَمْثَالِهِ ...

فَالْتَمَتَ قُتَيْبَةُ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعِ الْأُرْدِيِّ وَقَالَ :

وَمَا تَقُولُ أَنْتَ يَا أَبَا عَبِيدِ اللَّهِ ؟ .

فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ لِيَجْمَعَ الْغَنَائِمُ ،
وَتَكْدِيسِ ^(٢) الْأَمْوَالِ ، وَإِنَّمَا خَرَجُوا مَرْضَاةً ^(٣) لِلَّهِ ...

وَنَشْرًا لِدِينِهِ فِي الْأَرْضِ ...

وَقَهْرًا لِأَعْدَائِهِ .

فَقَالَ قُتَيْبَةُ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ...

وَاللَّهِ لَا أَدْعُهُ يُرَوِّعُ امْرَأَةً مُسْلِمَةً بَعْدَ السَّاعَةِ ، وَلَوْ بَدَلَ مَالِ الدُّنْيَا فِدَاءً

لِنَفْسِهِ ...

ثُمَّ أَمَرَ بِقَتْلِهِ .

* * *

(١) صينية : من صنع الصين .

(٢) تكديس الأموال : الاستكثار من الأموال ، وجعلها أكداً .

(٣) مرضاة لله : لإرضاء الله ونيل ثوابه .

لَمْ تَقْتَصِرْ صَلَٰهُ مُحَمَّدٍ بْنِ وَاسِعٍ الْأُرْدِيِّ بِأَمْرَاءِ بَنِي « أُمَيَّة » عَلَى يَزِيدَ بْنِ
الْمُهَلَّبِ ، وَفُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمِ الْبَاهِلِيِّ ...

وَلِنَّمَا امْتَدَّتْ إِلَى غَيْرِهِمَا مِنَ الْوَلَاةِ وَالْأَمْرَاءِ .

وَكَانَ مِنْ أَتْرَازٍ مَنْ اتَّصَلَ بِهِمْ وَالِي « الْبَصْرَةِ » بِلَالُ بْنُ أَبِي بُرْدَةَ .

وَلَقَدْ كَانَ لَهُ مَعَ هَذَا الْوَالِي مَوَاقِفُ مُتَدَاوِلَةٍ^(١) مَشْهُورَةٌ ، وَأَخْبَارُ مَرْوِيَّةٍ
مَأْثُورَةٍ^(٢) ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَهُوَ لَا يَبْسُ مِدرَعَةً^(٣) خَشِيشَةً مِنْ
الصُّوفِ ، فَقَالَ لَهُ بِلَالُ :

مَا يَدْعُوكَ إِلَى لُبْسِ هَذَا الْكِسَاءِ الْحَشِينِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟ ! .

فَتَشَاغَلَ عَنْهُ الشَّيْخُ ، وَلَمْ يُجِبْهُ ...

فَنَظَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ : مَا لَكَ لَا تُجِيبُنِي يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟ ! .

فَقَالَ :

أَكْرَهُ أَنْ أَقُولَ زُهْدًا ؛ فَأَرْكَبِي^(٤) نَفْسِي ...

وَأَكْرَهُ أَنْ أَقُولَ فَقْرًا ؛ فَأَشْكُو رَبِّي ...

وَأَنَا لَا أُرِيدُ هَذَا وَلَا ذَاكَ .

فَقَالَ لَهُ : أَلَيْكَ مِنْ حَاجَةٍ فَتَقْضِيهَا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟ .

فَقَالَ : أَمَّا أَنَا فَمَا لِي مِنْ حَاجَةٍ أَسْأَلُهَا^(٥) أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ...

(١) متداولة : متناقلة .

(٢) مأثورة : محفوظة متداولة بين الناس .

(٤) أَرْكَبِي نفسي : أرفع من شأن نفسي .

(٣) المدرعة : جبة مشقوفة المقدم ، وجمعها مدارع .

(٥) أسألها أحداً : أطلبها من أحد .

وَأِنَّمَا أَتَيْتُكَ فِي حَاجَةٍ لِأَخٍ مُسْلِمٍ ...
فَإِنْ أَذِنَ اللَّهُ فِي قَضَائِهَا فَضَيَّتَهَا ، وَكُنْتُ مَحْمُوداً ...
وَإِنْ لَمْ يَأْذَنْ فِي قَضَائِهَا لَمْ تَقْضِهَا ، وَكُنْتُ مَعْذُوراً .
فَقَالَ : بَلْ نَقْضِيهَا بِإِذْنِ اللَّهِ .
ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِ الْوَالِي وَقَالَ :
مَا تَقُولُ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟ .
فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...
إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسْأَلُ عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ ...
وَإِنَّمَا يَسْأَلُهُمْ عَنْ أَعْمَالِهِمْ .
فَاسْتَحَى مِنْهُ الْوَالِي وَلَاذَ^(١) بِالصُّمْتِ .
وَفِيمَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَهُ حَانَ مَوْعِدُ غَدَائِهِ ، فدَعَاهُ الْوَالِي إِلَى طَعَامِهِ ، فَأَتَى
ذَلِكَ ... فَالَحَّ عَلَيْهِ ؛ فَجَعَلَ يَتَعَلَّلُ^(٢) بِشَتَّى الْعِلَلِ ...
فَغَضِبَ الْوَالِي وَقَالَ :
أَرَأَاكَ تَكْرَهُ أَنْ تُصِيبَ^(٣) شَيْئًا مِنْ طَعَامِنَا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ !!! .
فَقَالَ لَهُ : لَا تَقُلْ ذَلِكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...
فَوَاللَّهِ إِنَّ خِيَارَكُمْ - مَعْشَرَ الْأُمَرَاءِ - لَأَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَتْنَائِنَا وَخَاصَّةِ^(٤)
أَهْلِينَا .

* * *

(١) لَاذ بالصمت : التجأ إلى الصمت .

(٢) يتعلل : ييدي الماذير ويظهر الحجج .

(٣) تصيب من طعامنا : تتناول شيئاً من طعامنا .

(٤) خاصة أهلينا : أقرب ذوي قربانا .

وَلَقَدْ دُعِيَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأُرْدِيُّ لِتَوَلِّي مَنَصِبِ الْقَضَاءِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ
فَأَبَى^(١) ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبَاءِ ...

وَعَرَّضَ نَفْسَهُ بِسَبَبِ إِبَائِهِ لِلْإِيْدَاءِ ...
مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْدِرِ صَاحِبَ شُرْطَةِ « الْبَصْرَةِ » دَعَاهُ إِلَيْهِ ،
وَقَالَ :

إِنَّ أَمِيرَ « الْعِرَاقِ » طَلَبَ مِنِّي أَنْ أَدْعُوكَ لِتَوَلِّي الْقَضَاءِ ، فَقَالَ :
اغْفُونِي مِنْ ذَلِكَ عَافَاكُمْ اللَّهُ .
فَعَاوَدَهُ^(٢) مَثْنَى وَثُلَاثَ ، فَأَصْرَّ عَلَى إِبَائِهِ .
فَقَالَ لَهُ : وَاللَّهِ لَتَتَوَلَّيَنَّ الْقَضَاءَ ، أَوْ لِأَجْلِدَنَّكَ^(٣) ثَلَاثِمِائَةَ جَلْدَةٍ ،
وَلَأَعْدِرَنَّكَ^(٤) .

فَقَالَ لَهُ : إِنْ تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مُسَلِّطٌ^(٥) ...
وَإِنَّ مُعَذِّبَ الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ مُعَذِّبِ الْآخِرَةِ ...
فَحَجَلَ مِنْهُ ، وَصَرَفَهُ بِالْحُسْنَى

* * *

وَقَدْ كَانَ مَجْلِسُ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ فِي مَسْجِدِ « الْبَصْرَةِ » مَوْثِلًا^(٦)
لِطُلَّابِ الْعِلْمِ ... وَمِنْهَا^(٧) لَشِدَاةُ^(٨) الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ .
وَقَدْ حَفِلَتْ كُتُبُ التَّارِيخِ وَالسِّيَرِ بِأَخْبَارِ مَجَالِسِهِ هَذِهِ .

(١) أبى ذلك : امتنع عن ذلك ورفضه .
(٢) فعاوده : طلب منه مرة بعد مرة .
(٣) أجلدتك : أضربتك .
(٤) أعدرتك : أفضحتك وأشهرت بك .
(٥) مسلط : مطلق اليد .
(٦) مَوْثِلًا : ملاذًا ومرجعًا .
(٧) منها : موردًا .
(٨) شدة الحكمة : طُلُبُ الحكمة ورغابها .

مِنْ ذَلِكَ أَنْ أَحَدَهُمْ قَالَ لَهُ :

أَوْصِنِي يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ .

فَقَالَ : أَوْصِيكَ أَنْ تَكُونَ مَلِكاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

فَدَهِشَ السَّائِلُ وَقَالَ :

وَكَيْفَ لِي بِذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ !؟ .

فَقَالَ : ارْهَدْ بَعْرِضِ (١) الدُّنْيَا تَكُنْ مَلِكاً هُنَا بِالِاسْتِغْنَاءِ عَمَّا فِي أَيْدِي

النَّاسِ ...

وَمَلِكاً هُنَاكَ بِالْقَوْرِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ ...

وَقَالَ لَهُ آخَرُ :

إِنِّي لِأُحِبُّكَ فِي اللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ .

فَقَالَ : أَحَبُّكَ اللَّهُ الَّذِي أَحَبَّبْتَنِي مِنْ أَجْلِهِ ...

ثُمَّ وَلَّى وَهُوَ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُحِبَّ فِيكَ وَأَنْتَ لِي مَا قِيتُ (٢) .

وَكَانَ كُلَّمَا سَمِعَ ثَنَاءَ النَّاسِ عَلَيْهِ ، وَإِطْرَاءَهُمْ (٣) لِيَتَّقُواهُ وَعِبَادَتِهِ ، يَقُولُ

لَهُمْ :

لَوْ كَانَ لِلدُّنُوبِ رَائِحَةٌ تَفُوحُ مَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَدْنُو مِنِّي لِمَا يُصِيبُهُ مِنْ أَذَى رَائِحَتِي .

* * *

(٣) إطراءهم : مدحهم .

(١) عرض الدنيا : الزائل الذي لا بقاء له . (٢) ما قيت : كاره .

وَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ بْنُ وَاسِعٍ لَا يَفْتَأُ يَحْضُ^(١) طُلَّابُهُ عَلَى التِّزَامِ كِتَابِ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ وَالْعَيْشِ فِي أَكْنَافِهِ^(٢) وَيَقُولُ :

الْقُرْآنُ بُسْتَانُ الْمُؤْمِنِ ... فَأَيُّمَا حَلٍّ مِنْهُ ؛ نَزَلَ فِي رَوْضَةٍ ...

كَمَا كَانَ يُوصِيهِمْ بِقِلَّةِ الطَّعَامِ فَيَقُولُ :

مَنْ قَلَّ طَعَامُهُ فَهَمَّ ، وَأَفْهَمَ ...

وَصَفَا وَرَقٌ ...

وَإِنَّ كَثْرَةَ الطَّعَامِ لَتُثْقِلُ^(٣) الرَّجُلَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يُرِيدُ .

* * *

وَقَدْ بَلَغَ مُحَمَّدٌ بْنُ وَاسِعٍ مِنَ الثَّقَلِ وَالْوَرَعِ مَبْلَغًا عَظِيمًا ... وَرُوِيَ لَهُ فِي
ذَلِكَ أَحْبَابٌ كَثِيرَةٌ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ رُئِيَ فِي الشُّوقِ ، وَهُوَ يَعْزِضُ لِلْبَيْعِ حِمَارًا لَهُ ؛ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ :
أَتَرْضَاهُ لِي أَيْهَا الشَّيْخُ ؟ .

فَقَالَ : لَوْ رَضِيْتُهُ لِنَفْسِي مَا بَعْتُهُ .

* * *

وَقَدْ عَاشَ مُحَمَّدٌ بْنُ وَاسِعٍ حَيَاتَهُ كُلَّهَا فِي وَجَلٍ^(٤) مِنْ دُنُوبِهِ ...

وَإِشْفَاقٍ^(٥) مِنَ الْعَرَضِ عَلَى رَبِّهِ ...

فَكَانَ إِذَا قِيلَ لَهُ : كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؟ .

أَجَابَ قَائِلًا :

(١) يحض طُلابه : يحث تلاميذه .

(٢) أَكْنَافه : رحابه .

(٣) تُثْقِلُ الرَّجُلَ : تعوق الرجل .

(٤) الوجَل : الخوف والقلق .

(٥) الإشفاق : الحذر .

أَضْبَحْتُ قَرِيباً أَجْلِي ...

بَعِيداً أَمَلِي ...

سَيِّئاً عَمَلِي ...

فَإِذَا رَأَى شَيْئاً مِنَ الدَّهْشَةِ يَبْدُو عَلَى مَلَامِحِ^(١) سَائِلِيهِ قَالَ :

مَا ظَنُّكُمْ بِرَجُلٍ يَقْطَعُ إِلَى الْآخِرَةِ كُلَّ يَوْمٍ مَرْحَلَةً[؟] !

* * *

وَلَمَّا مَرَضَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ الْأَزْدِيُّ مَرَضَ الْمَوْتِ ؛ تَكَاثَرَ النَّاسُ عَلَى عِيَادَتِهِ حَتَّى غَصَّ مَنْزِلُهُ بِالْدَّاحِلِينَ عَلَيْهِ وَالْخَارِجِينَ ...

وَالْقَائِمِينَ فِي مَنْزِلِهِ وَالْقَاعِدِينَ ...

فَمَالَ بِشَقِّهِ^(٢) عَلَى أَحَدِ خَوَاصِّهِ وَقَالَ :

أَخْبِرْنِي مَا يُغْنِي عَنِّي هَؤُلَاءِ إِذَا أُخِذْنَا غَدًا بِالنَّوَاصِي^(٣) وَالْأَقْدَامِ[؟] ! ...

وَمَا يَنْفَعُونَنِي إِذَا أُلْقِيتُ فِي النَّارِ[؟] !

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى رَبِّهِ وَجَعَلَ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ مَقَامٍ^(٤) سُوءٍ قُمْتُهُ ...

وَمِنْ كُلِّ مَقْعَدٍ سُوءٍ قَعَدْتُهُ ...

وَمِنْ كُلِّ مَدْخَلٍ سُوءٍ دَخَلْتُهُ ...

(١) الملامح : مظاهر الوجه وما يبدو عليه .

(٢) بشقه : يَطْرُقُه .

(٣) أَخِذْنَا غَدًا بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ : بَجُرْزَانَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رُؤُوسِنَا وَأَرْجُلِنَا .

(٤) مَقَام سُوء قُمْتُه : مَوْقِف سُوء وَقَفْتُهُ .

وَمِنْ كُلِّ مَخْرَجٍ سُوءٍ خَرَجْتُهُ ...
وَمِنْ كُلِّ عَمَلٍ سُوءٍ عَمِلْتُهُ ...
وَمِنْ كُلِّ قَوْلٍ سُوءٍ قُلْتُهُ ...
اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ؛ فَاعْفِرْهُ لِي ...
وَأَتُوبُ لَكَ مِنْهُ ؛ فَتُبْ عَلَيَّ ...
وَأُلْقِي إِلَيْكَ بِالسَّلَامِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ لِي زَاماً^(١) ...
ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ (*) ...

(١) قبل أن يكون لزاماً: قبل أن أحاسب وأحتمل على ذلك حملاً.

(*) للاستزادة من أخبار مُحَمَّد بنِ وَاسِع الأُرْدِي انظر:

- ١ - تاريخ البخاري: ٢٥٥/١.
- ٢ - التاريخ الصغير: ٣١٨/١ - ٣١٩.
- ٣ - الجرح والتعديل: ١١٣/٨.
- ٤ - حلية الأولياء: ٣٤٥/٢ - ٣٥٧.
- ٥ - الوافي بالوفيات: ٢٧٢/٥.
- ٦ - تهذيب التهذيب: ٤٩٩/٩ - ٥٠٠.
- ٧ - شذرات الذهب: ١٦١/١.
- ٨ - طبقات خليفة: ٢١٥.
- ٩ - تهذيب الكمال: ١٢٨٣.
- ١٠ - صفة الصفوة «الطبعة الحلبية»: ٢٦٦/٣.
- ١١ - تاريخ الإسلام للذهبي: ١٩٥/٥.
- ١٢ - وفيات الأعيان: ٣٠٨/٦.

عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِمَحَاتِّ رَأَيْتُ مِنْ حَيَاتِهِ

«عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَعْدُودٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ
وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ»

[الذَّهَبِيُّ]

الْحَدِيثُ عَنِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَادِ الرَّهَادِ حَامِسِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ؛ حَدِيثٌ
أَطْيَبُ مِنْ نَشْرِ (١) الْمِسْكِ ، وَأَزْهَى (٢) مِنْ قِطْعِ الرُّوضِ ...
وَسِيرَتُهُ الْقُدَّةُ (٣) الْعَرَاءُ ؛ وَاحِدَةٌ (٤) مِعْطَارٌ ؛ أَيْتِمَا حَلَلَتْ مِنْهَا أَلْفَيْتَ نَبْتًا
طَرِيًّا ...

وَزَهْرًا بَهِيًّا ...

وَتَمَرًا جَنِيًّا (٥) ...

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِنَا أَنْ نَسْتَوْعِبَ الْآنَ تِلْكَ السَّيْرَةَ الَّتِي اِزْدَانَ بِهَا
هَامُ (٦) التَّارِيخِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُنَا مِنْ أَنْ نَقْطِفَ مِنْ رَوْضِهَا زَهْرَةً ...
وَأَنْ نَقْبِسَ (٧) مِنْ نُورِهَا وَمُضَّةً (٨) ...
ذَلِكَ لِأَنَّ مَا لَا يُدْرِكُ كُلُّهُ لَا يُتْرَكُ بَعْضُهُ .

فَالْيَلِكُ ثَلَاثَ صُورٍ مِنْ حَيَاةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، تَتْبَعُهَا صُورٌ أُخْرَى فِي
كِتَابِ تَالِ إِذَا أَدِنَ اللَّهُ وَيَسَّرَ .

* * *

(١) نشر المسك : ريح المسك . (٤) واحدة معطار : حديقة خصبة عطرة .

(٢) أزهى : أجمل . (٥) جنياً : جنيّ لإساعيه . (٧) نقبس : نأخذ .

(٣) القدّة : الفريدة الرائعة . (٦) هام التاريخ : قمة التاريخ . (٨) ومضة : لمعة .

أَمَّا أُولَى هَذِهِ الصُّوَرِ ؛ فَرَوَاهَا لَنَا سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ ^(١) عَالِمُ الْمَدِينَةِ وَقَاضِيهَا
وَشَيْخُهَا ، فَقَالَ :

قَدِمْتُ عَلَى خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ « بِخُنَاصِرَةٍ » مِنْ
أَعْمَالِ « حَلَب » ، وَكَانَتْ قَدْ تَقَدَّمَتْ بِي السُّنَّةُ ، وَبَعْدَ بَيْنِي وَبَيْنَ لِقَائِهِ الْعَهْدُ
فَوَجَدْتُهُ فِي صَدْرِ الْبَيْتِ ...

غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَعْرِفْهُ لِتَغْيِيرِ حَالِهِ عَمَّا عَاهَدْتُهُ عَلَيْهِ يَوْمَ كَانَ وَالِيًا عَلَى الْمَدِينَةِ ؛
فَرَحَّبَ بِي وَقَالَ :

أَذُنْ مِنِّي يَا أَبَا حَارِمْ .

فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ قُلْتُ : أَلَسْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؟ .

فَقَالَ : بَلَى ...

فَقُلْتُ : مَا الَّذِي حَلَّ بِكَ ؟!! ... أَلَمْ يَكُنْ وَجْهَكَ بِهِيًّا ...

وَإِهَابُكَ ^(٢) طَرِيًّا ... وَعَيْشُكَ رَحِيًّا ^(٣) ...

فَقَالَ : بَلَى ...

فَقُلْتُ : فَمَا الَّذِي غَيَّرَ مَا بِكَ بَعْدَ أَنْ غَدَوْتَ تَمْلِكُ الْأَصْفَرَ ^(٤)
وَالْأَبْيَضَ ، وَأَصْبَحْتَ أَمِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ؟ .

فَقَالَ : وَمَا الَّذِي تَغَيَّرَ بِي يَا أَبَا حَارِمْ ؟! .

فَقُلْتُ : جِسْمُكَ الَّذِي نَحَلْ ^(٥) ...

وَجِلْدُكَ الَّذِي اخْشَوْشَنْ ^(٦) ...

(٤) الأصفر والأبيض : الذهب والفضة .

(٥) نحل : هزل .

(٦) اخشَوْشَنْ : خَشْنٌ .

(١) سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ : انظره ص ١٨٥ .

(٢) إهابك : بشرتك وجلدك .

(٣) رَحِيًّا : نَاعِمًا .

وَوَجْهَكَ الَّذِي اصْفَرَّ ...

وَعَيْنَاكَ اللَّتَانِ خَبَا وَمَضَاهُمَا^(١).

فَبَكَى وَقَالَ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتَنِي فِي قَبْرِ بَعْدَ ثَلَاثِ !؟ ...

وَقَدْ سَأَلْتَ حَدَّثَتَايَ^(٢) عَلَى وَجْهَتِي ...

وَتَفَسَّخَ بَطْنِي وَتَشَقَّقَ ...

وَانْطَلَقَ الدُّودُ يَزْتَعُ^(٣) فِي بَدَنِي .

إِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَنِي آنَذَاكَ - يَا أَبَا حَازِمٍ - لَكُنْتُ أَشَدَّ إِنْكَاراً^(٤) لِي مِنْ يَوْمِكَ هَذَا ...

ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ إِلَيَّ وَقَالَ :

أَمَّا تَذْكُرُ حَدِيثاً كُنْتُ حَدَّثْتَنِي بِهِ فِي الْمَدِينَةِ يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ .

فَقُلْتُ : لَقَدْ حَدَّثْتُكَ بِأَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

فَأَيُّهَا تَقْصِدُ ؟ .

فَقَالَ : إِنَّهُ حَدِيثُ رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ .

فَقُلْتُ : نَعَمْ ... أَذْكُرُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : أَعِدْهُ عَلَيَّ ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْكَ .

فَقُلْتُ : سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

(١) خبا ومضاهما : خمد لماعهما .

(٢) حدقتاي : عيناى .

(٣) يزتع : يتقلب ويتمتع أكلًا وشرباً .

(٤) أشدَّ إنكاراً لي : أشدَّ جهلاً بي واستغراباً .

(إِنَّ يَبْنَ أَيْدِيكُمْ عَقَبَةً كَوْوداً^(١)، مُضْرَسَةً^(٢)، لَنْ يَجُوزَهَا^(٣) إِلَّا كُلُّ ضَامِرٍ^(٤) مَهْزُولٍ).

فَبَكَى عُمَرُ بُكَاءً شَدِيداً حَشِيثُ مَعَهُ أَنْ تَنْشَقَّ مَرَارَتُهُ^(٥).

ثُمَّ كَفَكَفَ^(٦) دُمُوعَهُ، وَالتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ:

فَهَلْ تَلُومُنِي يَا أَبَا حَازِمٍ إِذَا أَنَا أَهْرَلْتُ نَفْسِي لِنَلِكِ الْعَقَبَةِ؛ رَجَاءً أَنْ أَنْجُو مِنْهَا ... وَمَا أَظُنُّنِي بِنَاجٍ ...

* * *

أَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ صُورِ حَيَاةِ عُمَرَ؛ فَيَرْوِيهَا لَنَا الطَّبْرِيُّ عَنِ الطُّفَيْلِ بْنِ مِرْدَاسٍ، فَيَقُولُ:

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ حِينَ وَلِيَ الْخِلَافَةَ كَتَبَ إِلَى سُلَيْمَانَ ابْنِ أَبِي السَّرِيِّ وَالِيهِ عَلَى «الصُّغْدِ»^(٧) كِتَاباً قَالَ فِيهِ:

إِتَّخِذْ فِي بِلَادِكَ فَنَادِقَ لِاسْتِصْفَاةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِذَا مَرَّ بِهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ فَاسْتَضِيفُوهُ يَوْماً وَلَيْلَةً ... وَأَصْلِحُوا شَأْنَهُ^(٨)، وَتَعَاهَدُوا دَوَابَّهُ.
فَإِذَا كَانَ يَشْكُو نَصَباً^(٩) فَاسْتَضِيفُوهُ يَوْمَيْنِ وَلَيْلَتَيْنِ ...
وَوَاسُوهُ^(١٠).

فَإِذَا كَانَ مُنْقَطِعاً لَا مَوْوَنَةَ عِنْدَهُ وَلَا دَابَّةَ تَحْمِلُهُ؛ فَأَعْطُوهُ مَا يَشُدُّ حَاجَتَهُ، وَأَوْصِلُوهُ إِلَى بَلَدِهِ.

-
- (١) كَوْوداً: شاقة المصعد، صعبة المرتقى.
(٢) مُضْرَسَةً: شديدة مهلكة.
(٣) لَنْ يَجُوزَهَا: لَنْ يَتَخَطَّهَا.
(٤) الضامِر: الهزيل الجسم من العبادة والجهاد.
(٥) مَرَارَتُهُ: جوف كبده.
(٦) كَفَكَفَ دُمُوعَهُ: مسح دموعه مرة بعد مرة.
(٧) الصُّغْد: منطقة في أواسط آسيا.
(٨) شَأْنُهُ: حاله.
(٩) نَصَباً: عناء.
(١٠) وَاسُوهُ: أعينوه.

فَصَدَعَ الْوَالِي بِأَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَقَامَ الْفَنَادِقَ الَّتِي أَمَرَهُ بِإِعْدَادِهَا
فَسَرَتْ أَخْبَارُهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَطَفِقَ النَّاسُ فِي مَشَارِقِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ
وَمَغَارِبِهَا يَتَحَدَّثُونَ عَنْهَا ، وَيُشِيدُونَ بِعَدْلِ الْخَلِيفَةِ وَتَقْوَاهُ ...

فَمَا كَانَ مِنْ وُجُوهِ أَهْلِ « سَمَرْقَنْد » ^(١) إِلَّا أَنْ وَفَدُوا عَلَى وَالِيهَا سُلَيْمَانَ
ابْنِ أَبِي السَّرِيِّ وَقَالُوا :

إِنَّ سَلَفَكَ « قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيِّ » قَدْ دَهَمَ ^(٢) بِلَادَنَا مِنْ غَيْرِ إِذْنَارٍ ، وَلَمْ
يَسْلُكْ فِي حَزْبِنَا مَا تَسْلُكُونَهُ ، مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

فَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّكُمْ تَدْعُونَ أَعْدَاءَكُمْ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ...

فَإِنْ أَبَوْا ؛ دَعَوْتُمُوهُمْ إِلَى دَفْعِ الْجَزْيَةِ ^(٣) ...

فَإِنْ أَبَوْا ؛ أَغْلَنْتُمْ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ ...

وإِنَّا قَدْ رَأَيْنَا مِنْ عَدْلِ خَلِيفَتِكُمْ وَتَقَاهُ مَا أَغْرَانَا ^(٤) بِشُكُوبِ جَيْشِكُمْ
إِلَيْكُمْ ... وَالْإِسْتِنْصَارَ بِكُمْ عَلَى مَا أَنْزَلَهُ بِنَا قَائِدٌ مِنْ قُوَادِكُمْ .

فَإِذَنْ - أَيُّهَا الْأَمِيرُ - لِيُوفِدَ مِنَّا بَأْنَ يَفِدَ ^(٥) عَلَى خَلِيفَتِكُمْ ، وَأَنْ يَرْفَعَ
ظِلَامَتَنَا ^(٦) إِلَيْهِ ...

فَإِنْ كَانَ لَنَا حَقٌّ أُعْطِينَاهُ ... وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ؛ عُذْنَا مِنْ حَيْثُ ذَهَبْنَا .

فَإِذَنْ سُلَيْمَانُ لِيُوفِدَ مِنْهُمْ بِالْقُدُومِ عَلَى الْخَلِيفَةِ فِي « دِمَشْقَ » ، فَلَمَّا
صَارُوا فِي دَارِ الْخِلَافَةِ رَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

(١) سَمَرْقَنْد : أصبحت اليوم إحدى مدن الجمهورية السوفياتية وذلك بعد أن احتلها روسيا .

(٢) دَهَم : غشى واحتل .

(٣) الجزية : ما يؤخذ من أهل الدُّمَّة .

(٥) يَفِدَ : يذهب .

(٦) ظِلَامَتُنَا : ما لَحِقَ بِنَا مِنْ ظَلَم .

(٤) أَغْرَانَا : شجعنا .

فَكَتَبَ الْخَلِيفَةُ كِتَابًا إِلَى وَالِيهِ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي السَّرِيِّ يَقُولُ فِيهِ :
أَمَّا بَعْدُ ... فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَأَجْلِسْ إِلَى أَهْلِ « سَمَرْقَنْدَ » قَاضِيًا
يَنْظُرُ فِي شَكْوَاهُمْ ...

فَإِنْ قَضَى لَهُمْ ؛ فَمُرْ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يُعَادِرَ مَدِينَتَهُمْ ...
وَأَذِغِ الْمُسْلِمِينَ الْمُقِيمِينَ بَيْنَهُمْ إِلَى التُّزُوحِ ^(١) عَنْهُمْ ... وَاعُودُوا كَمَا
كُنْتُمْ وَكَانُوا ؛ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ دِيَارَهُمْ « قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيُّ » .
فَلَمَّا قَدِمَ الْوَفْدُ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي السَّرِيِّ ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ كِتَابَ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ ... بَادَرَ ^(٢) فَأَجْلَسَ لَهُمْ قَاضِيَ الْقَضَاةِ « جُمَيْعَ بْنَ حَاضِرِ النَّاجِي » .
فَنَظَرَ فِي شَكْوَاهُمْ ، وَاسْتَقْصَى ^(٣) خَبَرَهُمْ ...
وَاسْتَمَعَ إِلَى شَهَادَةِ طَائِفَةٍ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ وَقَادَتِهِمْ ...
فَاسْتَبَانَ لَهُ صِحَّةُ مُدَّعَاهُمْ ...
وَقَضَى لَهُمْ ...

عِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ الْوَالِي جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يُخْلُوا لَهُمْ دِيَارَهُمْ ، وَأَنْ يَعُودُوا
إِلَى مُعَسَكَرَاتِهِمْ ، وَأَنْ يُنَابِذُوهُمْ ^(٤) كَرَّةً أُخْرَى ...
فَإِمَّا أَنْ يَدْخُلُوا بِلَادَهُمْ صُلْحًا ...
وَإِمَّا أَنْ يَنْظَفَرُوا بِهَا حَرْبًا ...
وَإِمَّا أَلَّا يُكْتَبَ لَهُمْ الْفَتْحُ .

(١) التُّزُوح عنهم : مغادرة بلادهم .

(٢) بَادَرَ : أَسْرَعَ .

(٣) اسْتَقْصَى خَبَرَهُمْ : بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْبَحْثِ عَنْ خَبَرِهِمْ .

(٤) يُنَابِذُونَهُمْ : يُحَارِبُونَهُمْ .

فَلَمَّا سَمِعَ وَجْهَهُ^(١) الْقَوْمَ حُكْمَ قَاضِي قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ ، قَالَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

وَيَحْكُمُ^(٢) ... لَقَدْ خَالَطْتُمْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَأَقَمْتُمْ مَعَهُمْ ، وَرَأَيْتُمْ مِنْ
سِيرَتِهِمْ وَعَدْلِهِمْ وَصِدْقِهِمْ مَا رَأَيْتُمْ ...
فَاسْتَبَقُوهُمْ عِنْدَكُمْ ...

وَطَبَّيُوا^(٣) بِمُعَاشِرَتِهِمْ نَفْسًا ...

وَقَرُّوا^(٤) بِصُحْبَتِهِمْ عَيْنًا ...

* * *

وَأَمَّا الصُّورَةُ الثَّلَاثَةُ مِنْ صُورِ حَيَاةِ عُمَرَ رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَيَرَوِيهَا لَنَا ابْنُ
عَبْدِ الْحَكَمِ فِي كِتَابِهِ النَّفِيسِ الْمُسَمَّى « سِيرَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ » فَيَقُولُ :
لَمَّا حَضَرَتْ عُمَرَ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ مَسْلَمَةُ^(٥) بَنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَالَ :
إِنَّكَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - قَدْ فَطَمْتَ^(٦) أَفْوَاهَ أَوْلَادِكَ عَنْ هَذَا الْمَالِ .
فَحَبَّذَا لَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ أَوْ إِلَى مَنْ تُفَضِّلُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ...
فَلَمَّا انْتَهَى مِنْ كَلَامِهِ قَالَ عُمَرُ : أَجْلِسُونِي ...

فَأَجْلَسُوهُ فَقَالَ : قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ يَا مَسْلَمَةُ ، أَمَّا قَوْلُكَ :

إِنِّي قَدْ فَطَمْتُ أَفْوَاهَ أَوْلَادِي عَنْ هَذَا الْمَالِ ...

(١) وجوه القوم : سادة القوم .

(٢) ويحكم : ما أعجب أمركم ؟ .

(٣) طبوا أنفسهم : استريحوا .

(٤) قرأوا عيناً : اطمئنوا واسعدوا .

(٥) هو مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَحَدِ كِبَارِ أَمْرَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَعُقَلَانِهِمْ وَقَادَةُ جِيُوشِهِمْ .

(٦) فطمت أفواه أولادك : منعتهم من اغتنام الفرص ، وامتلاك الأموال .

فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا مَنَعْتُهُمْ حَقًّا هُوَ لَهُمْ ، وَلَمْ أَكُنْ لِأَعْطِيهِمْ شَيْئًا لَيْسَ لَهُمْ ...
وَأَمَّا قَوْلُكَ : لَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ أَوْ إِلَى مَنْ تَفَضَّلُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ...
فَإِنَّمَا وَصَّيْتُ وَوَلَّيْتُ فِيهِمْ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، وَهُوَ يَتَوَلَّى ^(١)
الصَّالِحِينَ .

وَأَعْلَمْ يَا مَسْلَمَةُ أَنَّ أَبْنَائِي أَحَدُ رَجُلَيْنِ :
إِمَّا رَجُلٌ صَالِحٌ مُتَّقٍ ، فَسَيُعِينِيهِ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَجْعَلُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ
مَخْرَجًا ^(٢) ...

وَأَمَّا رَجُلٌ طَالِحٌ ^(٣) مُكِبٌّ عَلَى الْمَعَاصِي ، فَلَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يُعِينُهُ
بِالْمَالِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

ثُمَّ قَالَ : ادْعُوا لِي بَنِيَّ ...

فَدَعَوْهُمْ ، وَهُمْ بِضْعَةَ ^(٤) عَشَرَ وَلَدًا .

فَلَمَّا رَأَوْهُمْ تَرَفَّرَتْ ^(٥) عَيْنَاهُ وَقَالَ :

بِنَفْسِي فَنِيَّةٌ تَرَكْتُهُمْ عَالَةً لَا شَيْءَ لَهُمْ ...

وَبَكَى بُكَاءً صَامِتًا ... ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيْهِمْ وَقَالَ : أَيُّ بَنِيَّ ^(٦) ...

إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ لَكُمْ خَيْرًا كَثِيرًا ...

فَإِنَّكُمْ لَا تَمُرُّونَ بِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَهْلِ ذِمَّتِهِمْ إِلَّا رَأَوْا أَنَّ لَكُمْ
عَلَيْهِمْ حَقًّا .

(١) يتولَّى الصَّالِحِينَ : يحفظ الصَّالِحِينَ ويعينهم .

(٢) مخرجًا : سبيلًا يسلكه .

(٣) طالِحٌ : الطالِحُ ضدُّ الصَّالِحِ ، تقول هَذَا خَيْرٌ صَالِحٍ وَذَاكَ شَرٌّ طَالِحٍ .

(٤) بضْعَةُ عَشَرَ : نحو من تسعة عشر . (٥) ترفرت عيناه : دمت عيناه . (٦) أي بَنِيَّ : يا أَبْنَائِي .

يَا بَنِيَّ ، إِنَّ أَمَامَكُمْ خِيَاراً بَيْنَ أَمْرَيْنِ :
فَإِمَّا أَنْ تَسْتَغْنُوا ، وَيَدْخُلَ أَبُوكُمُ النَّارَ ...
وَإِمَّا أَنْ تَفْتَقِرُوا ، وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ ...
وَلَا أَحْسَبُ إِلَّا أَنَّكُمْ تُؤْثِرُونَ^(١) إِنْقَادَ أَبِيكُمْ مِنَ النَّارِ عَلَى الْغِنَى .
ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِمْ فِي رَفْقٍ وَقَالَ : قُومُوا عَصَمَكُمُ اللَّهُ ...
قُومُوا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ...
فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ مَسْلَمَةُ وَقَالَ :
عِنْدِي مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .
فَقَالَ : وَمَا هُوَ ؟؟ .
قَالَ : لَدَيَّ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ ... وَإِنِّي أَهْبِئُهَا لَكَ فَفَرَّقَهَا فِيهِمْ ...
أَوْ تَصَدَّقَ بِهَا إِذَا شِئْتَ .
فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَوْ خَيْرٌ^(٢) مِنْ ذَلِكَ يَا مَسْلَمَةُ ؟ .
فَقَالَ : وَمَا هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .
فَقَالَ : تَرُدُّهَا إِلَيَّ مَنْ أَخَذْتُ مِنْهُ ؛ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَكَ بِحَقٍّ ...
فَتَرَقَّرَتْ عَيْنَا مَسْلَمَةَ وَقَالَ :
رَحِمَكَ اللَّهُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - حَيًّا وَمَيِّتًا ...
فَقَدْ أَلَنْتَ مِنَّا قُلُوبًا قَاسِيَةً ...

(١) تُؤْثِرُونَ : تفضلون .

(٢) أَوْ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ : بل عندي ما هو خير مما عندك .

وَذَكَرَتْهَا ، وَقَدْ كَانَتْ نَاسِيَةً ...

وَأَبْقَيْتَ لَنَا فِي الصَّالِحِينَ ذِكْرًا ...

* * *

ثُمَّ تَتَّبِعَ النَّاسُ أَخْبَارَ أَبْنَاءِ عُثْمَرَ مِنْ بَعْدِهِ ...

فَرَأَوْا أَنَّهُ مَا اخْتِاجَ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا افْتَقَرَ ...

وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُولُ :

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرْكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا

اللَّهُ ...

وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(١) ... (*) .

(١) سورة النساء : آية ٩ .

(*) للاستزادة من أخبار عُثْمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ انظر :

١ - سيرة عُثْمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لابن عَبْدِ الْحَكَمِ .

٢ - سيرة عُثْمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لابن الجوزي .

٣ - سيرة عُثْمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ للآجُزِي .

٤ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٣٣٠ / ٥ .

٥ - تاريخ خليفة : ٣٢١ - ٣٢٢ .

٦ - التاريخ الكبير : ١٧٤ / ٦ .

٧ - تاريخ الفسوي : ٥٦٨ / ١ ، ٦٢٠ .

٨ - الطبري : ٥٦٥ / ٦ - ٥٧٣ .

٩ - الجرح والتعديل : ١٢٢ / ٦ .

١٠ - الطبقات للشيرازي : ٦٤ .

مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ

« لَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَخَذَ عَنْ عَلِيٍّ وَأَفَادَ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ »

[ابنُ الجُنَيْدِ]

وَقَعَتْ بَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ وَأَخِيهِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ جَفْوَةٌ^(١)، فَأَرْسَلَ
ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ إِلَى الْحَسَنِ يَقُولُ :

إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَكَ عَلَيَّ ...

فَأُمُّكَ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَأُمِّي امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي « حَنِيفَةَ » .

وَجَدُّكَ لِأُمِّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَصَفْوَةُ خَلْقِهِ ...

وَجَدِّي لِأُمِّي جَعْفَرُ بْنُ قَيْسٍ .

فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا ؛ فَتَعَالَ إِلَيَّ وَصَالِحِي ، حَتَّى يَكُونَ لَكَ الْفَضْلُ
عَلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

فَمَا أَنْ بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ الْحَسَنَ ... حَتَّى بَادَرَ إِلَيَّ يَتِيئِهِ وَصَالِحَهُ ...

فَمَنْ هَذَا الْأَدِيبُ الْأَرِيبُ^(٢) اللَّبِيقُ^(٣) مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ ؟

تَعَالَ نَسْتَعْرِضْ قِصَّةَ حَيَاتِهِ مِنْ أَوَّلِهَا .

* * *

(١) الجفوة : الإعراض ، وجفا فلان فلاناً : أعرض عنه وثقل عليه .

(٢) الأريب : الذكي الماهر .

(٣) اللَّبِيقُ : ذو الأخلاق اللينة .

تَبْدَأُ هَذِهِ الْقِصَّةَ مِنْذُ أَوَاخِرِ حَيَاةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .
فَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي جُلُوسَةٍ مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ ؛ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

أَرَأَيْتَ إِنْ وُلِدَ لِي وَلَدٌ مِنْ بَعْدِكَ أَفَأُسَمِّيهِ بِاسْمِكَ ...
وَأَكْتُبِيهِ بِكُنْيَتِكَ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ .

ثُمَّ دَارَتِ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا ...

فَلَحِقَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِالرَّفِيقِ^(١) الْأَعْلَى ...
وَتَلَتْهُ بَعْدَ أَشْهُرٍ مَعْدُودَاتٍ ابْنَتُهُ وَرِيحَانَتُهُ فَاطِمَةُ الْبَتُولُ^(٢) أُمُّ الْحَسَنِ
وَالْحُسَيْنِ .

فَأَضْهَرَ^(٣) عَلِيٌّ إِلَى نَبِيِّ « حَنِيفَةٍ » .

وَتَزَوَّجَ حَوْلَةَ بِنْتِ جَعْفَرِ بْنِ قَيْسِ الْحَنْفِيَّةِ ، فَوَلَدَتْ لَهُ مَوْلُودًا ذَكَرًا .
فَدَعَاهُ مُحَمَّدًا .

وَكَتَبَهُ^(٤) بِأَبِي الْقَاسِمِ بِإِذْنِ مَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ طَفِقُوا يُنَادُونَهُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنْفِيَّةِ ؛ تَفْرِيقًا لَهُ عَنْ أَخَوَيْهِ
الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ^(٥) .

(١) يُقَالُ لِحَقِّ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى : أَيِ انْتَقَلَ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ .

(٢) الْبَتُولُ : التَّقِيَّةُ النَّقِيَّةُ .

(٣) أَضْهَرَ إِلَى الْقَوْمِ : تَقَرَّبَ إِلَيْهِمْ وَتَزَوَّجَ ابْنَتَهُمْ .

(٤) كَتَبَهُ : سَمَّاهُ بِأَبِي كَذَا .

(٥) فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءِ : انْظُرْهَا فِي كِتَابِ « صُورُ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابِيَّاتِ » لِلْمُؤَلِّفِ ، النَّاظِرُ دَارَ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ .

ثُمَّ عُرِفَ فِي التَّارِيخِ بِذَلِكَ .

* * *

وُلِدَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
وَنَشَأَ وَتَرَبَّى فِي كَنَفِ^(١) أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَتَخَرَّجَ عَلَى يَدَيْهِ .
فَأَخَذَ عَنْهُ عِبَادَتَهُ وَزَهَادَتَهُ ...
وَوَرِثَ مِنْهُ قُوَّتَهُ وَشَجَاعَتَهُ ...
وَتَلَقَّى مِنْهُ فَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ ...
فَإِذَا هُوَ مِسْعَرُ^(٢) حَرْبٍ فِي سَاحَاتِ الْقِتَالِ ...
وَفَارِسُ مُنْبَرٍ فِي مَحَافِلِ الرِّجَالِ ...
وَرَاهِبٌ مِنْ رُهْبَانِ اللَّيْلِ إِذَا أَسْدَلَ الظُّلَامُ سُدُولَهُ عَلَى الْكَوْنِ ، وَنَامَتِ
الْعُيُونُ .

* * *

وَلَقَدْ أَقْحَمَهُ^(٣) أَبُوهُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي حُرُوبِهِ الَّتِي خَاضَهَا .
وَحَمَلَهُ مِنْ أَعْبَائِهَا مَا لَمْ يُحْمَلْهُ لِأَخَوَيْهِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ .
فَمَا لَأَنْتَ لَهُ قَنَاقَةٌ^(٤) ، وَلَا وَهَنٌ^(٥) لَهُ عَزَمٌ .
وَلَقَدْ قِيلَ لَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ :
مَا لِأَبِيكَ يُقْحِمُكَ فِي الْمَهَالِكِ ، وَيُؤَلِّجُكَ^(٦) فِي الْمَضَايِقِ ؛ دُونَ
أَخَوَيْكَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ؟

(١) في كنف : في رعاية .

(٢) مِسْعَرُ الحرب : بطلها وموقد نارها .

(٣) أقحمه : رماه .

(٤) القنقة : الرمح ، وما لأنت له قنقة : ما غلب .

(٥) وَهْنٌ : ضَعْفٌ وَلَانٌ .

(٦) يؤلجك : يدخلك ويحملك ما لا يطاق .

فَقَالَ : ذَلِكَ لِأَنَّ أَحْوَى يَنْزِلَانِ مِنْ أَبِي مَنْزِلَةً عَيْنَيْهِ ...

وَأَنْزِلُ أَنَا مِنْهُ مَنْزِلَةً يَدَيْهِ ...

فَهُوَ يَقِي (١) عَيْنَيْهِ بِيَدَيْهِ .

* * *

وَفِي مَعْرَكَةِ « صِفِّينَ » الَّتِي دَارَتْ رَحَاهَا بَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَمُعَاوِيَةَ
ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ يَحْمِلُ رَايَةَ أَبِيهِ .

وَفِيمَا كَانَتْ رَحَى الْحَرْبِ (٢) دَائِرَةً تَطْحَنُ النَّاسَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ طَحْنًا
وَقَعَتْ لَهُ قِصَّةٌ رَوَاهَا بِنَفْسِهِ فَقَالَ :

لَقَدْ رَأَيْتُنَا فِي « صِفِّينَ » ، وَقَدْ التَقَيْنَا مَعَ أَصْحَابِ مُعَاوِيَةَ ، فَافْتَتَلْنَا حَتَّى
ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَنْ يَبْقَى مِنَّا وَمِنْهُمْ أَحَدٌ ، فَاسْتَفْظَعْتُ الْأَمْرَ وَاسْتَكْبَرْتُهُ .

ثُمَّ مَا لَبِثْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَائِحًا مِنْ خَلْفِي يَصِيحُ :

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهُ اللَّهُ ، يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

مَنْ لِلنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ؟

مَنْ لِلدِّينِ وَالْأَعْرَاضِ ؟

مَنْ لِلرُّومِ وَالْدِّيْلَمِ (٣) ؟

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

اللَّهُ ، اللَّهُ وَالْبُقْيَا (٤) ، يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ .

(١) يقى : يصون .

(٢) رحى الحرب : حزمة الحرب .

(٣) الدِّيْلَم : شعب كبير شمالي قزوين حاربه المسلمون ثُمَّ اعتنق الإسلام .

(٤) اللَّهُ اللَّهُ وَالْبُقْيَا : احذروا الله ، وأبقوا على المسلمين .

فَعَاهَدْتُ نَفْسِي أَلَّا يُرْفَعَ لِي سَيْفٌ فِي وَجْهِ مُسْلِمٍ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

* * *

ثُمَّ اسْتَشْهِدَ عَلِيٌّ رِضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِ بِيَدِ آثِمَةِ ظَالِمَةٍ^(١) ...

وَأَلَّ الْأَمْرُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، فَبَايَعَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ^(٢) وَالْمَكْرَهِ ، رَغْبَةً فِي رَأْبِ^(٣) الصَّدْعِ ...

وَجَمَعَ الشَّمْلِ ...

وَعَزَّةَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ...

وَلَقَدْ اسْتَشْعَرَ مُعَاوِيَةُ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ صِدْقَ هَذِهِ الْبَيْعَةِ وَصَفَاءَهَا ، وَاطْمَأَنَّ إِلَى صَاحِبِهَا أَشَدَّ الْإِطْمِئْنَانِ ؛ مِمَّا جَعَلَهُ يَسْتَزِيرُ^(٤) مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنْفِيَّةِ .

فَزَارَهُ فِي « دِمَشْقَ » أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ...

وَلَا أَكْثَرَ مِنْ سَبَبٍ ...

* * *

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَلِكَ « الرُّومِ » كَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ يَقُولُ :

إِنَّ الْمُلُوكَ عِنْدَنَا تُرَاسِلُ الْمُلُوكَ ، وَيُطْرِفُ^(٥) بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِغَرَائِبِ مَا عِنْدَهُمْ ...

وَيُنَافِسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِعَجَائِبِ مَا فِي مَمَالِكِهِمْ .

فَهَلْ تَأْذُنُ لِي بِأَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ ؟ .

فَأَجَابَهُ مُعَاوِيَةُ بِالْإِيجَابِ وَأَذِنَ لَهُ .

(١) هي يَدُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَلِجَمٍ .

(٢) المنشط والمكره : ما تحبه النفس وما تكرهه .

(٣) رَأْبِ الصَّدْعِ : إصلاح الأمر وجمع الكلمة .

(٤) يَسْتَزِيرُ فَلَانًا : يدعو لزيارته .

(٥) يطرف : يمتنع ويشر .

فَوَجَّهَ إِلَيْهِ مَلِكُ « الرُّومِ » رَجُلَيْنِ مِنْ عَجَائِبِ الرِّجَالِ :
أَحَدُهُمَا طَوِيلٌ مُفْرَطٌ فِي الطُّولِ ، جَسِيمٌ مَوْغِلٌ^(١) فِي الْجَسَامَةِ .
حَتَّى لَكَأَنَّهُ دَوْحَةٌ^(٢) بَاسِقَةٌ فِي غَايَةِ ، أَوْ بِنَاءٌ مَبْنِيٌّ .
وَالثَّانِي قَوِيٌّ غَايَةَ الْقُوَّةَ ، صُلْبٌ مَتِينٌ كَأَنَّهُ وَحْشٌ مُفْتَرَسٌ ...
وَبَعَثَ إِلَيْهِ مَعَهُمَا رِسَالَةً يَقُولُ فِيهَا :
أَفِي مَمْلَكَتِكَ مَنْ يُسَاوِي هَذَيْنِ الرِّجُلَيْنِ طَوْلًا وَقُوَّةً ؟ .
فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ^(٣) :
أَمَّا الطَّوِيلُ فَقَدْ وَجَدْتُ مَنْ يُكَافِئُهُ^(٤) وَيَزِيدُ عَلَيْهِ ...
وَهُوَ قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ .
وَأَمَّا الْقَوِيُّ فَقَدْ احْتَجْتُ إِلَى رَأْيِكَ فِيهِ .
فَقَالَ عَمْرُو : هُنَاكَ رَجُلَانِ لِهَذَا الْأَمْرِ غَيْرُ أَنْ كِلَيْهِمَا عَنْكَ بَعِيدٌ ...
هُمَا : مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ .
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّثِييرِ .
فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنْفِيَّةِ لَيْسَ عَنَّا بِبَعِيدٍ .
فَقَالَ عَمْرُو : وَلَكِنْ ، أَتَظُنُّ أَنَّهُ يَوْضَى عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِهِ ، وَسُمُو مَنْزِلَتِهِ أَنْ
يُقَاوِيَ^(٥) رَجُلًا مِنْ « الرُّومِ » عَلَى مَرَأَى مِنَ النَّاسِ ؟ .

(١) مَوْغِلٌ : مَمِيعٌ مُبْعِدٌ .

(٢) دَوْحَةٌ بَاسِقَةٌ : شَجَرَةٌ مَفْرُطَةٌ فِي الطُّولِ .

(٣) عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

(٤) يَكَاوِي : يَغَالِبُ رَجُلًا بِالْقُوَّةِ .

(٥) يَكَاوِي : يَمِثِّلُهُ .

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ :

إِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ؛ إِذَا وَجَدَ فِيهِ عِزًّا لِلْإِسْلَامِ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ مُعَاوِيَةَ دَعَا كُلًّا مِنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ .

فَلَمَّا انْعَقَدَ الْمَجْلِسُ قَامَ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ فَتَنَزَعَ سَرَاوِيلَهُ وَرَمَى بِهَا إِلَى الْعِلْجِ (١) الرُّومِيِّ وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْبِسَهَا ، فَلَبِسَهَا ... فَعَطَّتْ إِلَى مَا فَوْقَ تَدْيِيهِ فَضَحِكَ النَّاسُ مِنْهُ .

وَأَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ فَقَالَ لِلتَّرْجَمَانِ : قُلْ لِلرُّومِيِّ ...

إِنْ شَاءَ أَنْ يَجْلِسَ وَأَكُونَ أَنَا قَائِمًا ثُمَّ يُعْطِينِي يَدَهُ .

فَإِمَّا أَنْ أُقِيمَهُ وَإِمَّا أَنْ يُفْعِدَنِي ...

وَإِنْ شَاءَ فَلْيَكُنْ هُوَ الْقَائِمُ وَأَنَا الْقَاعِدُ ...

فَاخْتَارَ الرُّومِيُّ الْقُعُودَ .

فَأَخَذَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ بِيَدِهِ ، وَأَقَامَهُ ... وَعَجَزَ الرُّومِيُّ عَنْ إِقْعَادِهِ ...

فَدَبَبَتِ الْحَمِيَّةُ (٢) فِي صَدْرِ الرُّومِيِّ ، وَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْقَائِمُ وَمُحَمَّدُ

الْقَاعِدَ ، فَأَخَذَ مُحَمَّدُ بِيَدِهِ وَجَذَبَهُ (٣) جَذْبَةً كَادَتْ تَفْصِلُ سَاعِدَهُ عَنْ كَتِفِهِ ...

وَأَقْعَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ .

فَانْصَرَفَ الْعِلْجَانِ الرُّومِيَّانِ إِلَى مَلِكَيْهِمَا مَغْلُوبَيْنِ مَحْذُولَيْنِ .

* * *

(١) العِلْجُ : الرجل القوي الضخم من كفار العجم .

(٢) الحمية : الأنفة .

(٣) جذبه : ضِدُّ دفعه .

ثُمَّ دَارَتْ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا كَرَّةً أُخْرَى ...

وَلَحِقَ مُعَاوِيَةَ وَابْنُهُ يَزِيدُ ، وَمَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ بِجَوَارِ رَبِّهِمْ ... وَآلَتْ
رَعَامَةُ بَنِي « أُمَيَّة » إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَتَنَادَى بِنَفْسِهِ خَلِيفَةً لِلْمُسْلِمِينَ ،
فَبَايَعَهُ أَهْلُ الشَّامِ .

وَكَانَ أَهْلُ الْحِجَازِ وَالْعِرَاقِ قَدْ بَايَعُوا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ (١) .

وَطَفِقَ كُلُّ مِنْهُمَا يَدْعُو مَنْ لَمْ يُبَايِعْهُ لِيُبَيِّعْتَهُ ...

وَيَزْعُمُ لِلنَّاسِ أَنَّهُ أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ مِنْ صَاحِبِهِ ...

فَانْشَقَّ صَفُّ الْمُسْلِمِينَ كَرَّةً (٢) أُخْرَى ...

وَهُنَا طَلَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ أَنْ يُبَايِعَهُ كَمَا بَايَعَهُ
أَهْلُ الْحِجَازِ .

غَيْرَ أَنَّ ابْنَ الْحَنْفِيَّةِ لَمْ يَكُنْ يَخْفَى عَلَيْهِ أَنَّ الْبَيْعَةَ تَجْعَلُ فِي عُنُقِهِ لِمَنْ
يُبَايِعُهُ حُقُوقًا كَثِيرَةً ...

مِنْهَا سَلُّ سَيْفِهِ دُونَهُ (٣) ، وَقِتَالُ مُخَالِفِيهِ .

وَمَا مُخَالِفُوهُ إِلَّا مُسْلِمِينَ قَدْ اجْتَهَدُوا ؛ فَبَايَعُوا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَايَعِ ...

وَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ الْعَاقِلُ الْكَامِلُ قَدْ نَسِيَ يَوْمَ « صِفِّينَ » .

وَلَمْ تَكُنِ السُّنُونُ (٤) الطَّوِيلَةُ قَدْ مَحَتْ مِنْ مَسْمَعِيهِ ذَلِكَ الصَّوْتُ الْأَجَشُّ
الرَّصِينِ الْحَزِينِ وَهُوَ يُنَادِي مِنْ خَلْفِهِ :

(١) هو ابن أسماء بنت الصديق تَمَّ فتح إفريقيا على يديه ، اقرأ طرفاً من أخباره في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

(٢) كَرَّةً أُخْرَى : مَرَّةً ثَانِيَةً .

(٣) دُونَهُ : دَفَاعاً عَنْهُ وَتَأْيِيداً لَهُ .

(٤) السُّنُونُ : السَّنَوَاتُ .

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

اللَّهُ ... اللَّهُ ... يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ .

مَنْ لِلنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ؟ .

مَنْ لِلدِّينِ وَالْأَعْرَاضِ ؟ .

مَنْ لِلرُّومِ وَالْدِّيَلَمِ ؟ .

نَعَمْ لَمْ يَكُنْ قَدْ نَسِيَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ قَطُّ .

فَقَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ :

إِنَّكَ لَتَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهُ لَيْسَ لِي فِي هَذَا الْأَمْرِ أَرْبٌ ^(١) وَلَا مَطْلَبٌ ...

وَلِئِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

فَإِذَا اجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَيْكَ أَوْ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ، بَايَعْتُ مَنْ اجْتَمَعَتْ
كَلِمَتُهُمْ عَلَيْهِ .

أَمَّا الْآنَ فَلَا أَبَايُكَ ...

وَلَا أَبَايُعُهُ .

فَجَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ يُعَاشِرُهُ وَيُلَاقِيهِ ^(٢) تَارَةً ، وَيُعْرِضُ ^(٣) عَنْهُ وَيُجَافِيهِ ^(٤) تَارَةً
أُخْرَى .

* * *

غَيْرَ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنْفِيَّةِ مَا لَبِثَ أَنْ انْضَمَّ إِلَيْهِ رِجَالٌ كَثِيرُونَ رَأَوْا رَأْيَهُ ،
وَأَسْلَمُوا قِيَادَهُمْ ^(٥) إِلَيْهِ .

(١) أرب : غرض وغاية .

(٢) يلاقيه : يعامله باللين والحنو .

(٣) يُعرض عنه : يصدُّ عنه .

(٤) يجافيه : يغلطُ عليه في المعاشرة .

(٥) قيادتهم : قيادتهم وزعامتهم .

حَتَّى بَلَّغُوا سَبْعَةَ آلَافٍ رَجُلٍ مِمَّنْ آثَرُوا اغْتِرَالِ الْفِتْنَةِ .
 وَأَبَوْا أَنْ يَجْعَلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ حَطْبًا لِنَارِهَا الْمُتَّقِدَةِ .
 وَكَانَ كُلُّمَا ارْذَادَ أَتْبَاعُ ابْنِ الْحَنْفِيَّةِ عَدَدًا ؛ ارْذَادَ ابْنِ الزُّبَيْرِ مِنْهُ غَيْظًا وَأَلْحَ عَلَيْهِ فِي طَلَبِ الْبَيْعَةِ .
 فَلَمَّا يَبَسَّ مِنْ ذَلِكَ أَمْرُهُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي « هَاشِمٍ » وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَلْزُمُوا شِعْبَهُمْ ^(١) بِمَكَّةَ ، وَجَعَلَ عَلَيْهِمُ الرُّقَبَاءَ .
 ثُمَّ قَالَ لَهُمْ :
 وَاللَّهِ لَتُبَايَعُنَّ أَوْ لَأُحَرِّقَنَّكُمْ بِالنَّارِ ...
 ثُمَّ حَبَسَهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ ، وَجَمَعَ لَهُمُ الْحَطَبَ ، وَأَحَاطَ بِهِ الْمَنَازِلَ إِلَى أَنْ بَلَغَ رُؤُوسَ الْجُدْرَانِ .
 حَتَّى إِنَّهُ لَوْ أَشْعَلَ مِنْهُ حَطْبَةً وَاحِدَةً لَأُحَرِّقَهُمْ جَمِيعًا .
 عِنْدَ ذَلِكَ قَامَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ وَقَالُوا :
 دَعْنَا نَقْتُلَ ابْنَ الزُّبَيْرِ وَنُرِجَ النَّاسَ مِنْهُ .
 فَقَالَ : أَفَتَوَقَّدُ بِأَيْدِينَا نَارَ الْفِتْنَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا اعْتَرَلْنَا ^(٢) ...
 وَنَقْتُلُ رَجُلًا مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبْنَاءِ صَحَابَتِهِ ؟ ...
 لَا ، وَاللَّهِ لَا نَفْعَلُ شَيْئًا يُغْضِبُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ مَا يُعَانِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ

(١) الشعب : مكانٌ منفرج بين جبلين .

(٢) اعتَرَلْنَا : تنحينا .

بَأْسٍ^(١) عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الرَّبِيعِ ، رَأَى الْفُرْصَةَ سَانِحَةً^(٢) لَا سِتْمَالَتِهِمْ إِلَيْهِ .
فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ كِتَابًا مَعَ رَسُولٍ مِنْ عِنْدِهِ لَوْ كَتَبَهُ لِأَحَدِ أَبْنَائِهِ لَمَا كَانَ أَرْقَى
لَهْجَةً ، وَلَا أَلْطَفَ خِطَابًا .
وَكَانَ مِمَّا جَاءَ فِيهِ :

لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ ابْنَ الرَّبِيعِ قَدْ ضَيَّقَ عَلَيْكَ وَعَلَى مَنْ مَعَكَ الْخِثَاقَ^(٣) ...
وَقَطَعَ رَحِمَكَ ...
وَاسْتَخَفَّ بِحَقِّكَ ...

وَهَذِهِ بِلَادُ الشَّامِ مُفْتُوحةٌ أَمَامَكَ تَسْتَقْبِلُكَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الرَّحْبِ
وَالسَّعَةِ ... فَأَنْزِلْ فِيهَا حَيْثُ تَشَاءُ تَلْقَ بِالْأَهْلِ أَهْلًا ، وَبِالْجِيرَانِ أَحْبَابًا .
وَسَتَجِدُنَا عَارِفِينَ لِحَقِّكَ ...
مُقَدِّرِينَ لِفَضْلِكَ ...
وَاصِلِينَ لِرَحِمِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ...

* * *

سَارَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ وَمَنْ مَعَهُ مُيَمِّمِينَ^(٤) وَجُوهَهُمْ شَطْرَ^(٥) بِلَادِ
الشَّامِ ... فَلَمَّا بَلَّغُوا «أُبْلَةَ»^(٦) ، اسْتَقَرُّوا فِيهَا .
فَأَنْزَلَهُمْ أَهْلُهَا أَكْرَمَ مَنْزِلٍ ، وَجَاوَزُوهُمْ أَحْسَنَ جَوَارٍ .

(١) بَأْسٌ عَبْدُ اللَّهِ : قسوة عَبْدُ اللَّهِ .

(٢) سَانِحَةٌ : مواتية .

(٣) الخِثَاقُ : مَا يُخْنَقُ بِهِ كَالْحَبْلِ .

(٤) مِيَمِينَ : مُؤَجِّهِينَ وَقَاصِدِينَ .

(٥) شَطْرٌ : نَحْوٌ .

(٦) أُبْلَةٌ : بِلْدَةٌ شِمَالِيَّةُ الْعُقْبَةِ وَهَذَا هُوَ اسْمُهَا الرُّومَانِي ، وَهِيَ الْآنَ إِيلَات .

وَأَحْبُوا مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ وَعَظَّمُوهُ ؛ لِمَا رَأَوْا مِنْ عُمُقِ عِبَادَتِهِ ، وَصِدْقِ زَهَادَتِهِ (١) .

فَطَفِقَ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ .
وَيُقِيمُ فِيهِمُ الشَّعَائِرَ ، وَيُصْلِحُ لَهُمْ ذَاتَ الْبَيْنِ (٢) .
وَلَا يَدْعُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يَظْلِمُ أَحَدًا .
فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ شَقَّ عَلَيْهِ الْأَمْرُ ، وَاسْتَشَارَ خَاصَّتَهُ فَقَالُوا لَهُ :

مَا نَرَى أَنْ تَسْمَحَ لَهُ بِأَنْ يُقِيمَ فِي مُلْكِكَ ، وَسِيرَتُهُ كَمَا عَلِمْتَ ...
فَإِمَّا أَنْ يُبَايَعَ لَكَ ...
وَإِمَّا أَنْ يَعُودَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ .
فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ يَقُولُ :
إِنَّكَ قَدِمْتَ بِلَادِي فَتَزَلَّتْ فِي طَرَفٍ مِنْهَا ، وَهَذِهِ الْحَرْبُ قَائِمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ...
وَأَنْتَ رَجُلٌ لَكَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ذِكْرٌ وَمَكَانٌ (٣) ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَلَّا تُقِيمَ فِي أَرْضِي إِلَّا إِذَا بَايَعْتَنِي ...
فَإِنْ بَايَعْتَنِي ، فَلَكَ مِنِّي مِائَةُ سَفِينَةٍ قَدِمْتَ عَلَيَّ أَمْسٍ مِنَ « الْقَلْزَمِ » (٤)
فَخُذْهَا بِمَا فِيهَا وَمَنْ فِيهَا .

(١) زَهَادَتُهُ : زَهْدُهُ .

(٢) ذَاتُ الْبَيْنِ : الْفَرْقَةُ وَالْخُصُومَةُ .

(٣) مَكَانٌ : مَنَازِلَةٌ وَمَقَامٌ .

(٤) الْقَلْزَمُ : مَرْفَأٌ قَدِيمٌ عِنْدَ مَصْبِ النَّيْلِ رُئِمَهُ عُثْمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِنَقْلِ جِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَ الْفُسْطَاطِ وَمَكَّةَ .

وَلَكَ مَعَهَا أَلْفَا أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَعَ مَا تَفْرِضُهُ مِنْ فَرِيضَةٍ لِنَفْسِكَ ، وَلَا وَلَا دِيكَ ،
وَلِدَوِي قَرَابَتِكَ ، وَمَوَالِيكَ ، وَمَنْ مَعَكَ ...

وَإِنْ آتَيْتَ فَتَحَوَّلَ عَنِّي إِلَى مَكَانٍ لَا سُلْطَانَ لِي عَلَيْهِ .
فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ يَقُولُ :

مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ؛ سَلَامٌ عَلَيْكَ .
وَلِيُّنِي أَحْمَدُ اللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْكَ ، أَمَّا بَعْدُ ...
فَلَعَلَّكَ تَتَخَوَّفُ مِنِّي ، وَكُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّكَ عَارِفٌ بِحَقِيقَةِ مَوْقِفِي مِنْ
هَذَا الْأَمْرِ .

وَوَاللَّهِ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَيَّ هَذِهِ الْأُمَّةُ كُلُّهَا ، إِلَّا أَهْلَ قَرْيَةٍ وَاحِدَةٍ مَا قَبِلْتُه ،
وَلَا قَاتَلْتُهُمْ عَلَيْهِ .

وَلَقَدْ نَزَلْتُ بِمَكَّةَ فَأَرَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنْ أَبَايَعَهُ ، فَلَمَّا آتَيْتُ أَسَاءَ
جَوَارِي .

ثُمَّ كَتَبْتُ إِلَيْكَ تَدْعُونِي إِلَى الْإِقَامَةِ بِبِلَادِ الشَّامِ ، فَزَلْتُ بِبِلَادَةٍ فِي أَطْرَافِ
أَرْضِكَ لِرُخْصِ أَسْعَارِهَا وَبُعْدِهَا عَنْ مَرْكَزِ سُلْطَانِكَ .

فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ بِمَا كَتَبْتُ بِهِ ...

وَنَحْنُ مُنْصَرِفُونَ عَنْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

انْصَرَفَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ بِرِجَالِهِ وَأَهْلِيهِ عَنْ بِلَادِ الشَّامِ ، وَطَفِقَ ^(١) كَلَمًا
نَزَلَ بِمَنْزِلٍ يُزْعَجُ ^(٢) عَنْهُ ، وَيُدْعَى إِلَى الرَّحِيلِ مِنْهُ .

(١) طَفِقَ : يُخْرَجُ مِنْهُ .

(٢) يُزْعَجُ : جَعَلَ .

وَكَاثَهُ لَمْ تَكْفِهِ هُمُومُهُ كُلُّهَا ؛ فَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَحْتَبِرَهُ يَهُمُّومٍ أُخْرَى أَسَدَّ وَقَعًا
وَأَثْقَلَ وَطْأَةً ...

ذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ أَتْبَاعِهِ مِمَّنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ^(١) ، وَآخَرُونَ مِمَّنْ فِي
عُقُولِهِمْ غَفْلَةٌ جَعَلُوا يَقُولُونَ :

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْدَعَ صَدْرَ عَلِيٍّ وَإِلَيْهِ كَثِيرًا مِنْ أَسْرَارِ
الْعِلْمِ ، وَقَوَاعِدِ الدِّينِ ، وَكُنُوزِ الشَّرِيعَةِ .

وَأَنَّهُ خَصَّ آلَ الْبَيْتِ بِمَا لَمْ يُطْلِعْ غَيْرَهُمْ عَلَيْهِ ...

فَأَذْرَكَ الرَّجُلُ الْعَالِمُ الْأَرِيبُ مَا يَحْمِلُهُ هَذَا الْكَلَامُ فِي طَيَّاتِهِ مِنْ
انْحِرَافٍ ، وَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَجُرَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ مَخَاطِرٍ وَأَضْرَارٍ .

فَجَمَعَ النَّاسَ وَقَامَ فِيهِمْ خَطِيبًا ... فَحَمِدَ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ وَاثْنَى عَلَيْهِ ،
وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ... ثُمَّ قَالَ :

يَزْعُمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ عِنْدَنَا مَعْشَرَ آلِ الْبَيْتِ عِلْمًا خَصَّنَا بِهِ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ ، وَلَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ أَحَدًا غَيْرَنَا ...

وَأِنَّا - وَاللَّهِ - مَا وَرِثْنَا مِنْ رَسُولِ ﷺ إِلَّا مَا بَيْنَ هَذَيْنِ اللَّوْحَيْنِ ، وَأَشَارَ إِلَى
الْمُصْحَفِ .

وَإِنَّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ عِنْدَنَا شَيْئًا نَقَرُوهُ إِلَّا كِتَابَ اللَّهِ ؛ فَقَدْ كَذَبَ .

* * *

وَكَانَ بَعْضُ أَتْبَاعِهِ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مَهْدِيَّ .

(١) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : فِي دِينِهِمْ ضَعْفٌ وَنَقْصٌ .

فَيَقُولُ : نَعَمْ أَنَا مَهْدِيٌّ إِلَى الْخَيْرِ ...
وَأَنْتُمْ مَهْدِيُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ...
وَلَكِنْ إِذَا سَلَّمَ عَلَيَّ أَحَدُكُمْ ، فَلْيَسْمِنِي بِاسْمِي ، وَلْيَقُلْ :
السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ .

* * *

لَمْ تَطُلْ حَيْرَةُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَسْتَقِرُّ فِيهِ هُوَ وَمَنْ
مَعَهُ ... فَقَدْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَ الْحِجَاجَ^(١) بَنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
الرُّبَيْعِ ...

وَأَنْ يُبَايَعَ النَّاسُ جَمِيعاً لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ .
فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يَقُولُ :
إِلَى عَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .
مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ .

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ هَذَا الْأَمْرَ أَفْضَلُ^(٢) إِلَيْكَ ، وَبَايَعَكَ النَّاسُ ،
كُنْتُ كَرَجُلٍ مِنْهُمْ ؛ فَبَايَعْتُكَ لِوَالِكَ فِي الْحِجَازِ .
وَبَعَثْتُ إِلَيْكَ بِيَعْتِي هَذِهِ مَكْتُوبَةٌ .
وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ .

فَلَمَّا قَرَأَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْكِتَابَ عَلَى أَصْحَابِهِ قَالُوا :

(١) اقرأ خبر عبد الله بن الرُّبَيْعِ مع الحِجَاجِ في كتاب « صور من حياة الصحابيَّات » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي .

(٢) أَفْضَلُ إِلَيْكَ : آل إِلَيْكَ .

لَوْ أَرَادَ أَنْ يَشُقَّ عَصَا^(١) الطَّاعَةِ وَيُحْدِثَ فِي الْأَمْرِ فَتَقًا^(٢) لَقَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَمَا كَانَ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ ...

فَاكْتُبْ إِلَيْهِ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَالْأَمَانِ وَذِمَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَلَّا يُزْعَجَ ، أَوْ يُهَاجَ^(٣) هُوَ أَوْ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ . فَكَتَبَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ .

وَكَتَبَ إِلَى الْحَجَّاجِ يَأْمُرُهُ بِتَعْظِيمِهِ ، وَرِعَايَةِ حُرْمَتِهِ ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي إِكْرَامِهِ .

غَيْرَ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنْفِيَّةِ لَمْ يَعْشَ بَعْدَ ذَلِكَ طَوِيلًا ...
فَقَدِ اخْتَارَهُ اللَّهُ إِلَى جَوَارِهِ رَاضِيًا مَرْضِيًّا .

* * *

نَوَّرَ اللَّهُ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ فِي قَبْرِهِ ، وَنَضَّرَ فِي الْجَنَّةِ رُوحَهُ ...
فَقَدْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُرِيدُونَ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ ...
وَلَا غُلُوبًا بَيْنَ النَّاسِ (*) .

(١) يشق عصا الطاعة : يخرج علينا . (٢) فتقاً : انشقاقاً . (٣) يُهَاجَ : يعكُر .

(*) للاستزادة من أخبار مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ انظر :

- ١ - جَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ لِأَبِي نُعَيْمٍ : ١٧٤/٣ .
- ٢ - تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ : ٣٥٤/٩ .
- ٣ - صِفَةُ الصَّفْوَةِ لِأَبْنِ الْجَوْزِيِّ (طبعة حلب) : ٧٧/٢ - ٧٩ .
- ٤ - الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِأَبْنِ سَعْدٍ : ٩١/٥ .
- ٥ - الرَّافِعِيُّ بِالْوَفِيَّاتِ (الترجمة) : ١٥٨٣ .
- ٦ - وَفَيَّاتُ الْأَعْيَانِ لِأَبْنِ خُلِكَانٍ : ١٦٩/٤ .
- ٧ - الْكَامِلُ : ٣٩١/٣ و ٢٥٠/٤ ، وانظر حوادث سنة ٦٦ .
- ٨ - شَذَرَاتُ الذَّهَبِ : ٨٩/١ .
- ٩ - تَهْذِيبُ الْأَسْمَاءِ وَاللُّغَاتِ : ٨٨/١ - ٨٩ .
- ١٠ - الْبَدْعُ وَالتَّأْرِيخُ : ٧٥/٥ - ٧٦ .
- ١١ - الْمَعَارِفُ لِأَبْنِ قَتَيْبَةَ : ١٢٣ .
- ١٢ - الْعَقْدُ الْفَرِيدُ لِأَبْنِ عَبْدِ رَبِّهِ - (تحقيق العريان)
انظر الأجزاء : ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٧ .

طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ

حَكَايَةُ مَعَ الْوَلِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الشَّقِيقِيِّ

« مَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ مِثْلَ طَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ »

[عَمَرُو بْنُ دِينَارٍ]

يَحْمَسِينَ نَجْمًا مِنْ نُجُومِ الْهَدَايَةِ اسْتِضَاءً ، فَعَمَرُهُ الشَّنَا ^(١) وَتَدَفَّقَ عَلَيْهِ
النُّورُ ... فَنُورٌ فِي قَلْبِهِ ...
وَنُورٌ فِي لِسَانِهِ ...
وَنُورٌ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ ...

* * *

وَعَلَى خَمْسِينَ عََلَمًا مِنْ أَعْلَامِ مَدْرَسَةِ مُحَمَّدٍ تَخْرُجُ ؛ فَإِذَا هُوَ صُورَةٌ
لِصَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي رُسُوحِ الْإِيمَانِ ...
وَصِدْقِ اللَّهْجَةِ ...
وَالْتَعَالِي عَلَى عَرْضِ الدُّنْيَا ^(٢) ... وَالتَّقَانِي فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ ...
وَالْجَهْرِ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ مَهْمَا كَانَ ثَمَنُ كَلِمَةِ الْحَقِّ غَالِيًا .
فَلَقَدْ عَلَّمَتْهُ الْمَدْرَسَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ ... النَّصِيحَةُ لِلَّهِ ،
وَكِتَابِهِ ، وَرَسُولِهِ ، وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَامَتِهِمْ .
وَهَدَتْهُ التَّجَرُّبَةُ إِلَى أَنَّ الصَّلَاحَ كُلَّهُ يَبْدَأُ عِنْدَ وَلِيِّ الْأَمْرِ ^(٣) ...

(١) الشَّنَا : النُّور .

(٢) عَرْضِ الدُّنْيَا : فَانِيهَا .

(٣) وَلِي الْأَمْرِ : مَنْ يَلِي أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ خَلِيفَةٍ أَوْ وَاكِيلٍ أَوْ أَمِيرٍ .

وَيَنْتَهِي عِنْدَهُ .

فَإِذَا صَلَحَ الرَّاعِي (١) صَلَحَتِ الرَّعِيَّةُ ...

وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَتْ ...

ذَلِكُمْ هُوَ « ذُكْوَانُ بْنُ كَيْسَانَ » الْمُلقَّبُ بِطَاوُوسٍ (٢) .

وَهُوَ لَقِبٌ خُلِعَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ كَانَ طَاوُوسَ الْفُقَهَاءِ ...

وَالْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ فِي عَصْرِهِ .

* * *

كَانَ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ مِنْ أَهْلِ « الْيَمَنِ » ... وَكَانَتْ الْوَلَايَةُ فِي « الْيَمَنِ » إِذْ ذَاكَ لِمُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ أَخِي الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ .

فَقَدْ أَرْسَلَهُ الْحَجَّاجُ وَالِيًّا عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ عَظُمَ أَمْرُهُ ، وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُ ، وَاسْتَدَّتْ هَيْبَتُهُ ؛ إِثْرَ قَضَائِهِ عَلَى حَرَكَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ (٣) .

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ يَجْمَعُ فِي ذَاتِهِ كَثِيرًا مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ الْحَجَّاجِ ، وَلَكِنَّهُ مَا كَانَ يَتَحَلَّى بِشَيْءٍ مِنْ حَسَنَاتِهِ .

* * *

وَفِي غَدَاةِ يَوْمٍ بَارِدٍ مِنْ أَيَّامِ الشِّتَاءِ دَخَلَ عَلَيْهِ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ وَمَعَهُ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ (٤) .

فَلَمَّا أَخَذَا مَجْلِسَيْنِهِمَا عِنْدَهُ ؛ طَفِقَ طَاوُوسُ يَعْظُمُهُ وَيُرْعِبُهُ وَيُرْهِبُهُ ، وَالنَّاسُ مُجْلُوسٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ... فَقَالَ الْوَالِي لِأَحَدِ حُجَّابِيهِ :

(١) الراعي : من يَرْعَى أمور المسلمين ويتولأها ، والرعية : من يرعاها ويتولأ أمورهم .
(٢) الطاووس : طائر حسن الشكل طويل العنق جميل القنبرة ، وقد سمي به كثير من العلماء والصلحاء .
(٣) اقرأ خبر عبد الله بن الزبير رضي الله عنه مع الحججاج في كتاب « صور من حياة الصحابييات » للمؤلف .
(٤) وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ : تابعي يمني فارسي الأصل عارف بأخبار أهل الكتاب .

يَا غُلَامُ أَحْضِرْ طِيلَسَانًا^(١)، وَأَلْقِهِ عَلَى كَيْفِي أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ .
فَعَمَدَ الْحَاجِبُ إِلَى طِيلَسَانٍ ثَمِينٍ، وَأَلْقَاهُ عَلَى كَيْفِي طَاوُوسٍ .
فَظَلَّ طَاوُوسٌ مُتَدَفِّقًا فِي مَوْعِظَتِهِ، وَجَعَلَ يُحَرِّكُ كَيْفِيهِ فِي تُؤَدَةٍ^(٢) حَتَّى
أَلْقَى الطَّلَسَانَ عَنْ عَاتِقِهِ^(٣)، وَهَبَّ وَاقِفًا، وَأَنْصَرَفَ ...
فَغَضِبَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ غَضَبًا ظَهَرَ فِي احْمِرَارِ عَيْنَيْهِ، وَاحْتِقَانٍ^(٤)
وَجْهِهِ ... غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا ...
فَلَمَّا صَارَ طَاوُوسٌ وَصَاحِبُهُ خَارِجَ الْمَجْلِسِ، قَالَ وَهَبُ لَطَاوُوسٍ :
وَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا فِي غَنَى عَنْ إِثَارَةِ غَضَبِهِ عَلَيْنَا ...
فَمَاذَا كَانَ يُضِيرُكَ^(٥) لَوْ أَخَذْتَ الطَّلَسَانَ مِنْهُ، ثُمَّ بَعْتَهُ، وَتَصَدَّقْتَ
بِثَمَنِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ؟! .
فَقَالَ طَاوُوسٌ : هُوَ مَا تَقُولُ ...
لَوْلَا أَنَّنِي خَشِيتُ أَنْ يَقُولَ الْعُلَمَاءُ مِنْ بَعْدِي :
نَأْخُذُ كَمَا أَخَذَ طَاوُوسٌ ... ثُمَّ لَا يَصْنَعُونَ فِيمَا أَخَذُوهُ مَا تَقُولُ .

* * *

وَكَأَنَّمَا أَرَادَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنْ يَرُدَّ لَطَاوُوسَ الْحَجَرِ مِنْ حَيْثُ جَاءَ^(٦)،
فَنَصَّبَ لَهُ شَرَكًا مِنْ شِرَاكِهِ^(٧) ... حَيْثُ أَعَدَّ صُرَّةً فِيهَا سَبْعُمِائَةِ دِينَارٍ ذَهَبًا ...
وَاخْتَارَ رَجُلًا حَازِقًا مِنْ رِجَالِ حَاشِيَّتِهِ وَقَالَ لَهُ :

(١) الطيلسان : كساء أخضر اللون غالي الثمن تلبسه الخاضعة .

(٢) تؤدة : هُدوء .

(٣) العاتق : ما بين المنكب والعنق، والمراد به الكتف .

(٤) احتقان وجهه : احتباس الدَّم في وجهه .

(٥) يضيرك : يؤذيك ويحط من قدرك .

(٦) يرد الحجر من حيث جاء : يقابل الأمر بمثله، ويتنقم منه .

(٧) شَرَكًا مِنْ شِرَاكِه : حبلًا من حبال صَيِّدِهِ .

إِمضِ بِهِذِهِ الصُّرَّةَ إِلَى طَاوُوسٍ بْنِ كَيْسَانَ ، وَاخْتَلِ عَلَيْهِ فِي أَخْذِهَا ...
فَإِنْ أَخْذَهَا مِنْكَ أَجْزَلْتُ (١) عَطِيتُكَ ... وَكَسَوْتُكَ ، وَقَرَّبْتُكَ .
فَخَرَجَ الرَّجُلُ بِالصُّرَّةِ ؛ حَتَّى أَتَى طَاوُوساً فِي قَرْيَةٍ كَانَ يُقِيمُ بِهَا بِالْقُرْبِ
مِنْ « صَنْعَاءَ » يُقَالُ لَهَا « الْجَنْدُ » .

فَلَمَّا صَارَ عِنْدَهُ حَيَّاهُ ، وَأَنَسَهُ (٢) ، وَقَالَ لَهُ :

يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، هَذِهِ نَفَقَةٌ بَعَثَ بِهَا الْأَمِيرُ إِلَيْكَ .

فَقَالَ : مَالِي بِهَا مِنْ حَاجَةٍ .

فَاخْتَالَ عَلَيْهِ بِكُلِّ طَرِيقٍ لِيَقْبَلَهَا ؛ فَأَتَى ...

وَأَذَلَّى (٣) لَهُ بِكُلِّ حُجَّةٍ ؛ فَرَفَضَ .

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ اغْتَنَمَ (٤) غَفْلَةً مِنْ طَاوُوسٍ ... وَرَمَى بِالصُّرَّةِ فِي
كُوَّةٍ (٥) كَانَتْ بِجِدَارِ الْبَيْتِ ، وَعَادَ رَاجِعاً إِلَى الْأَمِيرِ وَقَالَ :

لَقَدْ أَخَذَ طَاوُوسٌ الصُّرَّةَ أَثِيهَا الْأَمِيرُ .

فَسَرَّ لِذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ ، وَسَكَتَ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا مَضَتْ عَلَى ذَلِكَ أَيَّامٌ عِدَّةٌ ، أَرْسَلَ اثْنَيْنِ مِنْ أَغْوَانِهِ (٦) ، وَمَعَهُمَا
الرَّجُلُ الَّذِي حَمَلَ إِلَيْهِ الصُّرَّةَ ، وَأَمَرَهُمَا أَنْ يَقُولَا لَهُ :

إِنَّ رَسُولَ الْأَمِيرِ قَدْ أَخْطَأَ فَدَفَعَ إِلَيْكَ الْمَالَ ، وَهُوَ مُرْسَلٌ لِعَيرِكَ ...

وَقَدْ أَتَيْنَا لِنَسْتَرِدَّهَ مِنْكَ ، وَنَحْمِلَهُ إِلَى صَاحِبِهِ .

(١) أجزلت عطيتك : أكرمتك وأكثرت هبتك .

(٤) اغتتم : انتهب .

(٢) آنسه : لاطفه .

(٥) الكوَّة : النافذة الصغيرة في الجدار .

(٣) أذلى بالحجة : أحضر الحجة وأقنع بها .

(٦) من أغوانه : من رجاله .

فَقَالَ طَاوُوسٌ : مَا أَخَذْتُ مِنْ مَالِ الْأَمِيرِ شَيْئًا حَتَّى أَرُدَّهُ إِلَيْهِ .
فَقَالَا : بَلْ أَخَذْتَهُ .

فَالْتَفَتَ إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي حَمَلَ إِلَيْهِ الصُّرَّةَ ، وَقَالَ لَهُ :
هَلْ أَخَذْتُ مِنْكَ شَيْئًا ؟^(١)

فَأَصَابَ الرَّجُلَ دُغْرٌ^(٢) وَقَالَ : كَلَّا ...

وَلِئِنَّمَا وَضَعْتُ الْمَالَ فِي هَذِهِ الْكُؤَةِ فِي غَفْلَةٍ مِنْكَ .

فَقَالَ طَاوُوسٌ : دُونُكُمَا^(٣) الْكُؤَةُ ، فَاَنْظُرَا فِيهَا .

فَنَظَرَا فِي الْكُؤَةِ ، فَوَجَدَا فِيهَا الصُّرَّةَ كَمَا هِيَ ، وَقَدْ ضَرَبَ عَلَيْهَا
الْعَنْكَبُوتُ بِنَسِجِهِ^(٤) ... فَأَخَذَاهَا ، وَعَادَا بِهَا إِلَى الْأَمِيرِ .

* * *

وَكَأَنَّمَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَقْتَصَّ مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ يُوسُفَ عَلَى فَعْلَتِهِ هَذِهِ ،
وَأَنْ يَجْعَلَ قِصَاصَهُ مِنْهُ عَلَى مَرَأَى مِنَ النَّاسِ وَمَشْهَدٍ ... فَكَيْفَ وَقَعَ ذَلِكَ ؟^(٥)

حَدَّثَ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ قَالَ :

بَيْنَمَا أَنَا فِي مَكَّةَ حَاجًّا بَعَثَ إِلَيَّ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ ، فَلَمَّا دَخَلْتُ
عَلَيْهِ رَحَّبَ بِي ... وَأَذْنَى^(٦) مَجْلِسِي مِنْهُ ...

وَطَرَحَ لِي وَسَادَةً^(٧) ، وَدَعَانِي لِأَنْ أَتَكَيَّ عَلَيْهَا ...

ثُمَّ رَاحَ يَسْأَلُنِي عَمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَنَاسِكِ^(٨) الْحَجِّ ، وَغَيْرِهَا .

(١) الدعر : الخوف والقلق .

(٢) دون : اسم فعل بمعنى خذ ، ودونكما الكؤة : انظرا فيها .

(٣) وسادة : مخدئة ومكأ .

(٤) بنسجه : بخيوطه .

(٥) أدنى مجلسي : قُرب مقامي منه .

(٦) مناسك الحج : عبادات الحج وأركانها .

وَفِيمَا نَحْنُ كَذَلِكَ ، سَمِعَ الْحَجَّاجُ مُلَبِّياً يُلَبِّي حَوْلَ الْبَيْتِ ، وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ
بِالتَّلْبِيَةِ ، وَلَهُ نَبْرَةٌ^(١) تَهْزُ الْقُلُوبَ هَزًّا ... فَقَالَ : عَلَيَّ بِهِذَا الْمُلَبِّي .

فَأْتِيَ لَهُ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ : مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ .

فَقَالَ : مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

فَقَالَ : لِمَ أَسَأَلُكَ عَنْ هَذَا ، وَإِنَّمَا سَأَلْتُكَ عَنِ الْبَلَدِ .

فَقَالَ : مِنْ أَهْلِ « الْيَمَنِ » .

فَقَالَ : كَيْفَ تَرَكْتَ أَمِيرَكُمْ [يَعْنِي أَخَاهُ] ؟ .

فَقَالَ : تَرَكْتُهُ عَظِيماً ، جَسِيماً^(٢) ...

لَبَّاساً ، رَكَّاباً ...

خَرَّاجاً ، وَلَاجاً^(٣) ...

فَقَالَ : لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلْتُكَ .

فَقَالَ : عَمَّ سَأَلْتَنِي إِذَنْ ؟ .

فَقَالَ : سَأَلْتُكَ عَنْ سِيرَتِهِ فِيكُمْ .

فَقَالَ : تَرَكْتُهُ ظَلُوماً غَشُوماً^(٤) ...

مُطِيعاً لِلْمَخْلُوقِ ، عَاصِياً لِلْخَالِقِ .

فَاحْمَرَّ وَجْهُ الْحَجَّاجِ خَجَلاً مِنْ جُلُسَائِهِ ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ :

مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَقُولَ فِيهِ مَا قُلْتَهُ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَكَانَهُ مِنِّي ؟ ! .

(١) النبوة : رفع الصوت بعد خفضه للتأثير في السامعين .

(٣) خَرَّاجاً وَلَاجاً : كَثِيرُ الْمَدَائِلِ وَالْخَارِجِ .

(٤) غَشُوماً : شَدِيدُ الظُّلْمِ .

(٢) جَسِيماً : بَدِيناً مَمْلُوءاً الْجِسْمِ .

فَقَالَ : أَتَرَاهُ بِمَكَانِهِ مِنْكَ أَعَزَّ مِنِّي بِمَكَانِي مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ !
وَأَنَا وَافِدُ بَيْتِهِ (١) ...

وَمُصَدِّقُ نَبِيِّهِ ...

وَقَاضِي دِينِهِ (٢) .

فَسَكَتَ الْحَجَّاجُ ، وَلَمْ يُجِرْ (٣) جَوَاباً .

قَالَ طَاوُوسٌ :

ثُمَّ مَا لَيْتَ الرَّجُلُ أَنْ قَامَ ، وَانْصَرَفَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَأْذِنَ أَوْ يُؤْذَنَ لَهُ .

فَقُمْتُ فِي إِثْرِهِ (٤) ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

إِنَّ الرَّجُلَ صَالِحٌ ، فَاتَّبَعُهُ وَأُظْفِرَ (٥) بِهِ قَبْلَ أَنْ تُغَيِّبُهُ عَنْ عَيْنَيْكَ جُمُوعُ
النَّاسِ ... فَتَبِعْتُهُ ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ أَتَى الْبَيْتَ وَتَعَلَّقَ بِأَسْتَارِهِ (٦) ، وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَى
جِدَارِهِ ، وَجَعَلَ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ بِكَ أَعُوذُ (٧) ... وَبِجَنَابِكَ أَلُودُ (٨) ...

اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي فِي الْإِطْمِئْنَانِ إِلَى جُودِكَ ، وَالرِّضَا بِضَمَانِكَ (٩)
مَنْدُوحَةً (١٠) عَنْ مَنَعِ الْبَاخِلِينَ (١١) ، وَغِنًى عَمَّا فِي أَيْدِي الْمُسْتَأَثِّرِينَ (١٢) ...

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فَرَجَكَ الْقَرِيبَ ... وَمَعْرُوفَكَ الْقَدِيمَ ...

وَعَادَتَكَ الْحَسَنَةَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ .

(١) وافد بيته : مقبل على بيت الله ، نازل في رحابه .

(٧) أعوذ : أعتصم .

(٨) ألود : ألتجى وأتحصن .

(٩) بضمانك : بكفالتك .

(١٠) مندوحة : سعة وخلاصاً .

(١١) الباخلين : البخلاء الأشحاء .

(١٢) المستأثرين : محبي أنفسهم .

(٢) قاضي دينه : مؤدٍ لدينه .

(٣) لم يجر جواباً : لم ينطق بجواب .

(٤) إثره : ورائه .

(٥) أظفر به : أجده وأحظي به .

(٦) بأستاره : بكساء الكعبة .

ثُمَّ ذَهَبَتْ بِهِ مَوْجَةٌ مِنَ النَّاسِ وَأَخْفَتْهُ عَنْ عَيْنِي ؛ فَأَيَقَنْتُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَيَّ
لِقَائِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ...

فَلَمَّا كَانَتْ عَشِيَّةُ « عَرَفَةِ » ، رَأَيْتُهُ وَقَدْ أَفَاضَ ^(١) مَعَ النَّاسِ ، فَذَنُوتُ مِنْهُ
فَإِذَا هُوَ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ لَمْ تَقْبَلْ حُجِّي ، وَتَعَبِي ، وَنَصْبِي ... فَلَا تَحْرِمْنِي الْأَجْرَ
عَلَى مُصِيبَتِي ؛ بِتَرْكِكَ الْقَبُولَ مِنِّي .

ثُمَّ ذَهَبَ فِي النَّاسِ ، وَسَتَرَهُ الظَّلَامُ عَنِّي ...

فَلَمَّا يَسَسْتُ مِنْ لِقَائِهِ قُلْتُ :

اللَّهُمَّ اقْبَلْ دُعَائِي وَدُعَاءَهُ ...

وَاسْتَجِبْ رَجَائِي وَرَجَاءَهُ ...

وَتَبَّتْ قَدَمِي وَقَدَمَيْهِ يَوْمَ تَزُلُّ الْأَقْدَامُ ^(٢) ...

وَاجْمَعْنِي مَعَهُ عَلَى حَوْضِ الْكَوْثَرِ ^(٣) يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ .

* * *

وَالِإِلَى لِقَاءِ آخَرَ مَعَ التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ « ذُكْوَانَ بْنِ كَيْسَانَ » .

الْمُلَقَّبُ بِطَاوُوسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ...

وَجَعَلَ جَنَاتِ الْخُلْدِ مَثْوَاهُ ^(٤) .

(١) أَفَاضَ النَّاسُ : انطلقوا وتفرقوا .

(٢) تَزُلُّ الْأَقْدَامُ : تزلق الأقدام ، وتسقط الأجسام .

(٣) الْكَوْثَرُ : نهر في الجنة .

(٤) مَثْوَاهُ : مقره ومقامه .

طاووس بن كيسان الواعظ المرشد

«رَأَيْتُكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي الْحُلَمِ، وَأَنْتَ تُصَلِّي فِي الْكَعْبَةِ وَالنَّبِيِّ
عَلَى بَابِهَا وَهُوَ يَقُولُ لَكَ: اكْشِفْ قِنَاعَكَ وَبَيِّنْ قِرَاءَتَكَ يَا طَاوُوسُ»
[مُجَاهِدٌ]

مَا كَادَ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يُلْقِي رِحَالَهُ^(١) فِي
أُكْنَافِ^(٢) الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ...

وَيُبَلِّ شَوْافَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ الْمُعْظَمَةِ حَتَّى التَّمَّتْ إِلَى حَاجِبِهِ وَقَالَ:
ابْتَغِ^(٣) لَنَا عَالِمًا يُفَقِّهُنَا فِي الدِّينِ، وَيَذَكِّرُنَا فِي هَذَا الْيَوْمِ الْأَعْرَّ مِنْ أَيَّامِ
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَمَضَى الْحَاجِبُ إِلَى وُجُوهِ أَهْلِ الْمَوْسِمِ^(٤)، وَطَفِقَ يَسْأَلُهُمْ عَنْ بُغْيَةِ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ ... فَقِيلَ لَهُ:

هَذَا طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ سَيِّدُ فُقَهَاءِ عَصْرِهِ ...
وَأَصْدَقُهُمْ لَهْجَةً فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ... فَعَلَيْكَ بِهِ .
فَأَقْبَلَ الْحَاجِبُ عَلَى طَاوُوسٍ وَقَالَ:
أَجِبْ دَعْوَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَيُّهَا الشَّيْخُ .
فَاسْتَجَابَ طَاوُوسٌ لَهُ مِنْ غَيْرِ إِنْطَاءٍ .

(١) الرُّحْلُ: ما يجعل عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ عِنْدَ السَّفَرِ، وَيُلْقِي رِحَالَهُ: يَصِلُ وَيَسْتَقِرُّ .

(٢) أُكْنَافُ الْبَيْتِ: أَطْرَافُهُ .

(٣) ابْتَغِ لَنَا: اطْلُبْ لَنَا .

(٤) الْمَوْسِمُ: مَجْتَمَعُ النَّاسِ لِلْحَجِّ أَوْ لِلْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ .

ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ عَلَى الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَلَّا تَعْرِضَ لَهُمْ فُرْصَةً
إِلَّا ائْتَنَّمُوهَا ...

وَأَلَّا تَسْنَحَ ^(١) لَهُمْ بَادِرَةً ^(٢) إِلَّا ابْتَدَرُوهَا ^(٣) ...
وَكَانَ يُوقِنُ أَنَّ أَفْضَلَ كَلِمَةٍ تُقَالُ هِيَ كَلِمَةُ حَقٍّ ؛ أُرِيدَ بِهَا تَقْوِيمُ اغْوِجَاجِ
ذَوِي السُّلْطَانِ ...

وَتَجَنُّبُهُمُ الْحَيْفَ ^(٤) وَالْجَوْرَ ...
وَتَقْرِيبُهُمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ...

* * *

مَضَى طَاوُوسٌ مَعَ الْحَاجِبِ ...
فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَيَّاهُ ، فَرَدَّ الْخَلِيفَةُ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنِ مِنْهَا ...
وَأَكْرَمَ اسْتِقْبَالَ زَائِرِهِ ، وَأَذْنَى مَجْلِسِهِ .
ثُمَّ أَخَذَ يُسَائِلُهُ عَمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ ، وَيُنْصِتُ إِلَيْهِ فِي تَوْقِيرٍ
وَإِجْلَالٍ .

قَالَ طَاوُوسٌ :
فَلَمَّا سَعَرْتُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ بَلَغَ بُعْيَتُهُ ^(٥) ، وَلَمْ يَبْقَ لَدَيْهِ مَا يَسْأَلُ
عَنْهُ ، قُلْتُ فِي نَفْسِي :

إِنَّ هَذَا الْمَجْلِسَ لَمَجْلِسٍ يَسْأَلُكَ اللَّهُ عَنْهُ يَا طَاوُوسُ ...
ثُمَّ تَوَجَّهْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ :

(١) تَسْنَحَ لَهُمْ : تُلَوِّحُ لَهُمْ .

(٢) بَادِرَةٌ : فُرْصَةٌ .

(٣) ابْتَدَرُوهَا : عَجَلُوا إِلَيْهَا وَأَفَادُوا مِنْهَا .

(٤) الْحَيْفُ : الظُّلْمُ .

(٥) بُعْيَتُهُ : غَايَتُهُ وَغَرَضُهُ .

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ صَخْرَةً كَانَتْ عَلَى شَفِيرٍ^(١) بِئْرٍ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ ...
وَقَدْ ظَلَّتْ تَهْوِي فِي هَذِهِ الْبِئْرِ سَبْعِينَ خَرِيفاً^(٢) حَتَّى بَلَغَتْ قَرَارَهَا ...
أَتَدْرِي لِمَنْ أَعَدَّ اللَّهُ هَذِهِ الْبِئْرَ مِنْ آثَارِ جَهَنَّمَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟
فَقَالَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ : لَا ... ثُمَّ عَادَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَقَالَ :
وَيْلَكَ ، لِمَنْ أَعَدَّهَا ؟ !

فَقُلْتُ : أَعَدَّهَا اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ لِمَنْ أَشْرَكَهُ^(٣) فِي حُكْمِهِ ، فَجَارَ ...
فَأَخَذْتُ سُلَيْمَانَ لِدَلِيلِكَ رَعْدَةً ، ظَنَنْتُ مَعَهَا أَنَّ رُوحَهُ سَتَضَعُدُ مِنْ يَبْنِ
جَنَّبِيهِ ... وَجَعَلَ يَبْكِي ؛ وَلِبَكَائِهِ نَشِيجٌ^(٤) يُقَطِّعُ نِيَابَ^(٥) الْقُلُوبِ ...
فَتَرَكْتُهُ وَانْصَرَفْتُ ...
وَهُوَ يُجْزِينِي^(٦) خَيْراً .

* * *

وَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(٧) الْخِلَافَةَ ؛ بَعَثَ إِلَى طَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ
يَقُولُ : أَوْصِنِي يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ .
فَكَتَبَ إِلَيْهِ طَاوُوسٌ رِسَالَةً فِي سَطْرِ وَاحِدٍ قَالَ فِيهَا :
« إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ عَمَلُكَ خَيْراً كُلُّهُ ، فَاسْتَعْمِلْ أَهْلَ الْخَيْرِ ،
وَالسَّلَامُ » .

(١) شفير بئر : فوق بئر .

(٢) خريفاً : عاماً .

(٣) أشركه في حكمه : ولأه أمور الناس .

(٤) النشيج : الغصة بالبكاء من غير صوت .

(٥) النياط : جمع مفردة نَوَاط ، وهو عرق غليظ معلق بالقلب إذا انقطع مات صاحبه .

(٦) يجزيني خيراً : يقول لي : جزيت خيراً ويكرر ذلك .

(٧) عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : انظره ص ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ .

فَلَمَّا قَرَأَ عُمَرُ الرِّسَالَةَ قَالَ :

كَفَى بِهَا مَوْعِظَةٌ ...

كَفَى بِهَا مَوْعِظَةٌ ...

* * *

وَلَمَّا آلَتْ (١) الْخِلَافَةَ إِلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ كَانَتْ لِبَطَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ مَعَهُ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ مَأْثُورَةٌ (٢).

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ هِشَامًا قَدِمَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ حَاجًّا ... فَلَمَّا صَارَ فِي الْحَرَمِ ، قَالَ لِخَاصَّتِهِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ :

الْتَمِسُوا (٣) لَنَا رَجُلًا مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَقَالُوا لَهُ : إِنَّ الصَّحَابَةَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - قَدْ تَلَاَحَقُوا بِرَبِّهِمْ وَاحِدًا إِثْرًا (٤) آخَرَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ .

فَقَالَ : إِذَنْ ؛ فَمِنْ التَّابِعِينَ ... فَأَتَانِي بِطَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ .

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ، خَلَعَ نَعْلَيْهِ بِحَاشِيَةٍ (٥) بِسَاطِهِ ...

وَسَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْعُوهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَحَاطَبَهُ بِاسْمِهِ دُونَ أَنْ يُكْنِيَهُ (٦) ...

وَجَلَسَ قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِالْجُلُوسِ ...

فَاسْتَشَاطَ (٧) هِشَامٌ غَضَبًا حَتَّى بَدَأَ الْغَيْظُ فِي عَيْنَيْهِ .

(١) آلت الخلافة : انتقلت الخلافة .

(٢) مأثورة : مروية معروفة .

(٣) التمسوا : ابحتوا .

(٤) إثر : بقدر .

(٥) حاشية بساطه : طرف بساطه .

(٦) يكنيه : الكنية ما صُدِّرت بأب أو أم كأبي القاسم وأم المؤمنين .

(٧) استشاط : اشتعل .

ذَلِكَ أَنَّهُ رَأَى فِي تَصَرُّفَاتِهِ تِلْكَ اجْتِرَاءَ عَلَيْهِ ، وَنَيْلًا مِنْ هَيْبَتِهِ أَمَامَ
مُجْلَسَائِهِ ، وَرِجَالِ حَاشِيَتِهِ ...

يَبْدَأُ أَنَّهُ مَا لَيْثَ أَنْ تَذَكَّرَ أَنَّهُ فِي حَرَمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

فَرَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَقَالَ لِطَاوُوسٍ :

مَا حَمَلَكَ يَا طَاوُوسُ عَلَى مَا صَنَعْتَ !؟ .

فَقَالَ : وَمَا الَّذِي صَنَعْتُهُ !؟ .

فَعَادَ إِلَى الْخَلِيفَةِ غَضْبُهُ وَغَيْظُهُ ، وَقَالَ :

خَلَعْتَ نَعْلَيْكَ بِحَاشِيَةِ بَسَاطِي ...

وَلَمْ تُسَلِّمْ عَلَيَّ بِإِمْرَةٍ ^(١) الْمُؤْمِنِينَ ...

وَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِي ، وَلَمْ تُكْنِنِي ...

ثُمَّ جَلَسْتَ مِنْ غَيْرِ إِذْنِي ...

فَقَالَ طَاوُوسٌ بِهِدُوءٍ :

أَمَّا خَلَعُ نَعْلَيَّ بِحَاشِيَةِ بَسَاطِكَ ، فَأَنَا أَخْلَعُهُمَا بَيْنَ يَدَي رِبِّ الْعِزَّةِ كُلِّ يَوْمٍ

خَمْسَ مَرَّاتٍ ... فَلَا يُعَاتِبُنِي ، وَلَا يَغْضَبُ عَلَيَّ ...

وَأَمَّا قَوْلُكَ أَنِّي لَمْ أُسَلِّمْ عَلَيْكَ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ ...

فَلِأَنَّ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسُوا رَاضِينَ بِإِمْرَتِكَ ...

وَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ كَاذِبًا إِذَا دَعَوْتُكَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَأَمَّا مَا أَخَذْتَهُ عَلَيَّ مِنْ أَنِّي نَادَيْتُكَ بِاسْمِكَ ، وَلَمْ أَكُنْكَ ...

فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَادَى أَنْبِيََاءَهُ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَقَالَ :

(١) إمرة المؤمنين : الخلافة .

يَا دَاوُودُ ... يَا يَحْيَى ... يَا عِيسَى ...

وَكُنِيَ أَعْدَاءُهُ فَقَالَ :

﴿ تَبَّتْ ^(١) يَدَا أَبِي لَهَبٍ ^(٢)، وَتَبَّ ^(٣) ...

وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنِّي جَلَسْتُ قَبْلَ أَنْ تَأْذَنَ لِي ... فَإِنِّي سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَقُولُ :

« إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَانْظُرْ إِلَى رَجُلٍ جَالِسٍ ،
وَحَوْلَهُ قَوْمٌ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيْهِ » .

فَكَرِهْتُ أَنْ تَكُونَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي عُذَّ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ...

فَأُطْرِقَ ^(٤) هِشَامٌ إِلَى الْأَرْضِ حَجَلًا ... ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ :

عِظْنِي يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ .

فَقَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ :

« إِنَّ فِي جَهَنَّمَ حَيَاتٍ كَالْقِلَالِ ^(٥) ... وَعَقَارِبَ كَالْبِغَالِ ...

تَلْدَغُ كُلَّ رَاعٍ لَا يَغْدِلُ فِي رِعِيَّتِهِ » .

ثُمَّ قَامَ وَانْصَرَفَ .

* * *

وَكَمَا كَانَ طَاوُوسٌ يُقْبَلُ عَلَى بَعْضِ أُولَى الْأَمْرِ تَذْكِيراً لَهُمْ وَتَوْجِيهاً ...

فَقَدْ كَانَ يُعْرِضُ ^(٦) عَنْ بَعْضِهِمُ الْآخِرَ تَبْكِيتاً ^(٧) وَتَأْنِيهاً ...

(١) تَبَّتْ : خَبِرَتْ .

(٢) أَبُو لَهَبٍ : عَمَ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَحَدُ غَتَاةِ الْمُشْرِكِينَ ، أَذَى النَّبِيِّ أَشَدَّ الْإِيْذَاءِ هُوَ وَزَوْجَتُهُ .

(٣) سُورَةُ الْمَسَدِ : ١ .

(٤) أُطْرِقَ : نَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ .

(٦) يُعْرِضُ : يَتَعَدَّى وَيَتَعَالَى .

(٧) تَبْكِيتاً : اسْتِهَانَةً بِهِمْ ، وَتَحْقِيراً لَهُمْ .

حَدَّثَ ابْنُهُ قَالَ :

خَرَجْنَا ذَاتَ سَنَةٍ مَعَ أَبِي حُجَّاجًا مِنَ «الْيَمَنِ» ، فَنَزَلْنَا فِي بَعْضِ الْمُدُنِ وَعَلَيْهَا غَامِلٌ يُقَالُ لَهُ «ابْنُ نَجِيحٍ» ... وَكَانَ مِنْ أَحَبِّثِ الْعُمَالِ ، وَأَكْثَرِهِمْ جُرْأَةً عَلَى الْحَقِّ ، وَأَشَدَّهُمْ إِغْيَالًا^(١) فِي الْبَاطِلِ ...

فَأَتَيْنَا مَسْجِدَ الْبَلَدِ نُرِيدُ أَدَاءَ الْمَكْتُوبَةِ^(٢) ، فَإِذَا «ابْنُ نَجِيحٍ» قَدْ عَلِمَ بِقُدُومِ أَبِي ، فَجَاءَ إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ...

فَلَمْ يُجِبْهُ أَبِي ، وَأَدَارَ لَهُ ظَهْرَهُ ...

فَأَتَاهُ عَنْ يَمِينِهِ وَكَلَّمَهُ ؛ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ...

فَعَدَلَ إِلَى يَسَارِهِ وَكَلَّمَهُ ؛ فَأَعْرَضَ عَنْهُ أَيْضًا ...

فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُمْتُ إِلَيْهِ ، وَمَدَدْتُ يَدِي نَحْوَهُ ، وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ أَبِي لَمْ يَعْرِفَكَ ...

فَقَالَ : بَلْ إِنَّ أَبَاكَ يَعْرِفُنِي ...

وَلِإِنَّ مَعْرِفَتَهُ بِي هِيَ الَّتِي جَعَلْتُهُ يَصْنَعُ مَا رَأَيْتُ ...

ثُمَّ مَضَى وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَقُولُ شَيْئًا .

فَلَمَّا عُودْنَا إِلَى الْمَنْزِلِ التَّفَّتْ إِلَيَّ أَبِي وَقَالَ :

يَا لُكْعُ^(٣) ... تَشْلِيقُ^(٤) هَؤُلَاءِ بِاللِّسَانَةِ حِدَادٍ فِي غَيْبَتِهِمْ ...

فَإِذَا حَضَرُوا خَضَعَتْ لَهُمْ بِالْقَوْلِ !! ...

(١) إِغْيَالًا : دَخُولًا وَتَعَمُّقًا .

(٢) الْمَكْتُوبَةُ : الْفَرِيضَةُ .

(٣) يَا لُكْعُ : يَا أَحْمَقُ .

(٤) تَشْلِيقُهُمْ : تَبَالُغُ فِي ذَمِّهِمْ .

وَهَلِ التَّفَاقُ غَيْرُ هَذَا ۱؟ .

* * *

هَذَا، وَإِنَّ طَاوُوسَ بْنِ كَيْسَانَ لَمْ يَخُصَّ الْخُلَفَاءَ وَالْوُلَاةَ بِمَوَاعِظِهِ،
وَلِئِنَّمَا بَذَلَهَا لِكُلِّ مَنْ آتَسَ (١) بِهِ حَاجَةً إِلَيْهَا أَوْ رَغْبَةً فِيهَا .

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ (٢) قَالَ :

رَأَيْتُ طَاوُوسَ بْنَ كَيْسَانَ فِي مَوْقِفٍ لَمْ يَزِدْخَ لَهُ ، فَقَالَ :

يَا عَطَاءُ، إِيَّاكَ أَنْ تَزِفَعَ حَوَائِجَكَ إِلَى مَنْ أَعْلَقَ فِي وَجْهِكَ بَابُهُ ...

وَأَقَامَ دُونَكَ حُجَابَهُ (٣) ...

وَلِئِنَّمَا اطْلُبَهَا مِمَّنْ أَسْرَعَ (٤) لَكَ أَثْوَابَهُ ...

وَطَالِبَكَ بِأَنْ تَدْعُوهُ ... وَوَعْدَكَ بِالْإِجَابَةِ ...

* * *

وَكَانَ يَقُولُ لِأَيُّهِ :

يَا بُنَيَّ ، صَاحِبِ الْعُقَلَاءَ تُنْسَبُ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ ...

وَلَا تُصَاحِبِ الْجُهَّالَ ، فَإِنَّكَ إِنْ صَحِبْتَهُمْ نُسِبْتَ إِلَيْهِمْ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ ...

وَأَعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ غَايَةً (٥) ...

وَأَنَّ غَايَةَ الْمَرْءِ تَمَامُ دِينِهِ ، وَكَمَالُ خُلُقِهِ .

وَقَدْ نَشَأَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى مَا رَبَّاهُ عَلَيْهِ آبُوهُ ، وَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ ، وَسَارَ

بِسِيرَتِهِ ... مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ الْعَبَّاسِيَّ أَبَا جَعْفَرٍ الْمَنْصُورَ اسْتَدْعَى وَلَدَهُ

(١) آتَسَ : شَغَرَ .

(٢) عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ : فَتَحَهَا عَلَى مَصَارِعِهَا .

(٣) حُجَابَتِهِ : الْوَاقِفِينَ عَلَى بَابِهِ مِنْ عُثْمَالِهِ وَجَنَدِهِ .

(٤) أَسْرَعَ : الْغَايَةَ : الْقَصْدَ وَالثَّمَرَةَ .

عَبْدَ اللَّهِ بْنِ طَاوُوسٍ ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ^(١) لِرِيَّازَتِهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَا مَجْلِسَيْهِمَا عِنْدَهُ ؛ التَفَّتِ الْخَلِيفَةُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاوُوسٍ وَقَالَ :
ارْزُ لِي شَيْئًا مِمَّا كَانَ يُحَدِّثُكَ بِهِ أَبُوكَ .

فَقَالَ : « حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَشْرَكَهُ ^(٢) اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُلْطَانِهِ ، فَأَدْخَلَ الْجَوْرَ فِي حُكْمِهِ » .
قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ :

فَلَمَّا سَمِعْتُ مَقَالَتهُ هَذِهِ ؛ ضَمَمْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي خَوْفًا مِنْ أَنْ يُصِيبَنِي شَيْءٌ مِنْ دَمِهِ ... بَيَّدَ أَنَّ أَبَا جَعْفَرٍ أَمْسَكَ ^(٣) سَاعَةً لَا يَتَكَلَّمُ .
ثُمَّ صَرَفَنَا بِسَلَامٍ .

* * *

وَقَدْ اِمْتَدَّتِ الْحَيَاةُ بِطَاوُوسِ بْنِ كَيْسَانَ حَتَّى بَلَغَ الْمِائَةَ ، أَوْ جَاوَزَهَا قَلِيلًا ... غَيْرَ أَنَّ الْكِبَرَ وَالشَّيْخُوخَةَ لَمْ يَنَالَا شَيْئًا مِنْ صَفَاءِ ذَهْنِهِ ، وَحِدَّةِ خَاطِرِهِ ^(٤) ، وَسُرْعَةِ بَدِيهِتِهِ ^(٥) .

حَدَّثَ عَبْدُ اللَّهِ الشَّامِيُّ قَالَ :
أَتَيْتُ طَاوُوسًا فِي بَيْتِهِ لِأَخْذِ عَنْهُ ، وَأَنَا لَا أَعْرِفُهُ ... فَلَمَّا طَرَقْتُ الْبَابَ خَرَجَ إِلَيَّ شَيْخٌ كَبِيرٌ ، فَحَيَّيْتُهُ وَقُلْتُ : أَأَنْتَ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ ؟ .
فَقَالَ : بَلْ أَنَا ابْنُهُ ...

(١) مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ : هُوَ أَحَدُ تَابِعِي الثَّابِعِينَ ، وَعَلِمَ مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ ، وَصَاحِبُ مَذْهَبِ مَالِكٍ .
(٢) أَشْرَكَهُ فِي سُلْطَانِهِ : وَلَّاهُ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ .
(٣) أَمْسَكَ : تَوَقَّفَ وَضَمَّتْ .
(٤) جِدَّةُ خَاطِرِهِ : دَقَّةُ فِكْرِهِ .
(٥) سُرْعَةُ الْبَدِيْهِةِ : الْإِجَابَةُ مِنْ غَيْرِ جَهْدٍ فِكْرٍ .

فَقُلْتُ : إِنْ كُنْتَ ابْنُهُ ؛ فَلَا آمَنْ أَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ قَدْ هَرِمَ وَخَرِفَ (١) ، وَإِنِّي
قَصَدْتُهُ مِنْ أَمَاكِنَ بَعِيدَةٍ لِأُفِيدَ مِنْ عِلْمِهِ ...

فَقَالَ : وَيَحَكَ ...

إِنَّ حَمَلَةَ كِتَابِ اللَّهِ لَا يَخْرَفُونَ ... ادْخُلْ عَلَيْهِ ...

فَدَخَلْتُ عَلَى طَاوُوسٍ وَسَلَّمْتُ ، وَقُلْتُ :

لَقَدْ أَتَيْتُكَ طَالِباً عِلْمَكَ رَاغِباً فِي نُصْحِكَ .

فَقَالَ : سَلْ وَأَوْجِزْ (٢) .

فَقُلْتُ : سَأَوْجِزُ مَا وَسَّعَنِي الْإِيجَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ...

فَقَالَ : أَتُرِيدُ أَنْ أَجْمَعَ لَكَ صَفْوَةً (٣) مَا فِي التَّوْرَةِ ، وَالزَّبُورِ (٤) ،
وَالْإِنْجِيلِ ، وَالْقُرْآنِ ؟

فَقُلْتُ : نَعَمْ ...

فَقَالَ : خَفِيَ اللَّهُ تَعَالَى خَوْفاً بِحَيْثُ لَا يَكُونُ شَيْءٌ أَخَوْفَ لَكَ مِنْهُ ...

وَأَرْجُهُ رَجَاءً أَشَدَّ مِنْ خَوْفِكَ إِلَيَّ ...

وَأَحِبُّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ...

* * *

وَفِي لَيْلَةِ الْعَاشِرِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ سِتٍّ وَمِائَةٍ ، أَفَاضَ (٥) الشَّيْخُ الْمُعَمَّرُ
طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ مَعَ الْحَجَّاجِ مِنْ « عَرَفَاتٍ » إِلَى « الْمُزْدَلِفَةِ » لِلْمَرَّةِ
الْأَرْبَعِينَ .

(١) خَرِفَ : فسد عقله من الكبر .

(٢) أَوْجِزَ : اختصر .

(٤) الزَّبُورُ : كتاب نبي الله داود عليه السلام .

(٥) أَفَاضَ : انطلق .

(٣) صَفْوَةُ الشَّيْءِ : خلاصته وأعمقه وأثمنه .

فَلَمَّا حَطَّ رِحَالُهُ فِي رِحَابِهَا الطَّاهِرَةِ ، وَأَدْنَى الْمَغْرِبِ مَعَ الْعِشَاءِ ...
وَأَسْلَمَ جَنْبُهُ إِلَى الْأَرْضِ ؛ يَلْتَمِسُ ^(١) شَيْئًا مِنَ الرَّاحَةِ ...
أَتَاهُ الْيَقِينُ ^(٢) ...

فَلَقِيَهُ بَعِيداً عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ ؛ تَقَرُّباً لِلَّهِ ...
مُلبِياً مُحْرِماً ؛ رَجَاءً لِنَوَابِ اللَّهِ ...
خَارِجاً مِنْ ذُنُوبِهِ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ؛ يَفْضِلُ اللَّهُ ...
فَلَمَّا طَلَعَ عَلَيْهِ الصُّبْحُ ، وَأَرَادُوا دَفْنَهُ ... لَمْ يَتِمَّ كُنُوتُهُ مِنْ إِخْرَاجِ جَنَازَتِهِ
لِكَثْرَةِ مَا أَرْدَحَمَ عَلَيْهَا مِنَ النَّاسِ .
فَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ أَمِيرُ مَكَّةَ حَرَساً لِيَذُودُوا ^(٣) النَّاسَ عَنِ الْجَنَازَةِ حَتَّى يُتَبَّحَ ^(٤)
لَهُمْ دَفْنُهَا ...

وَقَدْ صَلَّى عَلَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ ...
وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الْمُصَلِّينَ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ ...
هَشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ (*) .

(١) يَلْتَمِسُ : يَتَغَيَّرُ . (٢) الْيَقِينُ : الْمَوْتُ . (٣) لِيَذُودُوا : لِيُدْفَعُوا . (٤) يُتَبَّحُ لَهُمْ : يَسْهُلُ لَهُمْ .

- (*) للاستزادة من أخبار طائوس بن كَيْسَانَ انظر :
١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٥٣٧/٥ .
٢ - طبقات خليفة بن خياط : ٢٨٧ .
٣ - تاريخ خليفة بن خياط : ٢٣٦ .
٤ - التاريخ الكبير : ٣٦٥/٤ .
٥ - تاريخ الفسوي : ٧٠٥/١ .
٦ - الجرح والتعديل : ٥٠٠/٤ .
٧ - حلية الأولياء : ٢٣ ، ٣/٤ .
٨ - طبقات الفقهاء للشيرازي : ٧٣ .
٩ - اللباب : ٢٤١/١ .
١٠ - تهذيب التهذيب : ١٠١/٢ .
١١ - تاريخ الإسلام : ١٢٦/٤ .
١٢ - تذكرة الحفاظ : ٩٠/١ .
١٣ - المعجم : ١٣٠/١ .
١٤ - طبقات القراء : ٣٤١/١ .
١٥ - النجوم الزاهرة : ٢٦/١ .
١٦ - شذرات الذهب : ١٣٣/١ .

القَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ

«لَوْ كَانَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لَوَلَّيْتُ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْخِلَافَةَ» .

[عَمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ]

هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ هَذَا التَّائِبِي الْجَلِيلِ ؟ .

إِنَّهُ فَتَى جَمَعَ الْمَجْدَ مِنْ أَطْرَافِهِ كُلِّهَا ؛ حَتَّى لَمْ يَفُتَّهُ مِنْهُ شَيْءٌ ...

فَأَبُوهُ مُحَمَّدٌ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِّيقِ ...

وَأُمُّهُ بِنْتُ كِسْرَى «يَزْدَجُرْدَ» آخِرِ مُلُوكِ «الْفُرْسِ» ...

وَعَمَّتُهُ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَوَجَّ هَامَتُهُ^(١) بِتَاجِ الثَّقَلَى وَالْعِلْمِ .

أَفْتَحَسِبُ أَنَّ فَوْقَ هَذَا الْمَجْدِ مَجْدًا يَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُتَنَافِسُونَ^(٢) ؟ .

ذَلِكُمْ هُوَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِّيقِ .

أَحَدُ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ^(٣) ... وَأَفْضَلُ أَهْلِ زَمَانِهِ عِلْمًا ...

وَأَحَدُهُمْ^(٤) ذَهْنًا ... وَأَشَدُّهُمْ وَرَعًا ...

فَتَعَالَ نَبْدَأُ قِصَّةَ حَيَاتِهِ مِنْ أَوَّلِهَا ...

* * *

(١) هامته : رأسه .

(٢) يتنافس فيه المتنافسون : يتفاخر فيه المتفاخرون .

(٣) فقهاء المدينة السبعة هم : سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وأبو بكر بن عبد الرحمن المخزومي ، وخارجة

ابن زَيْد ، وِسْلَيْمَانُ بْنُ يَسَارٍ ، وَغُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثَيْبَةَ ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ .

(٤) أحدهم ذهناً : أنفذهم قريحة .

وُلِدَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ... لَكِنَّ الطُّفْلَ الصَّغِيرَ مَا كَادَ يَدْرُجُ^(١) فِي عُشِّهِ ، حَتَّى عَصَفَتْ^(٢) فِي دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ رِيحُ الْفِتْنَةِ الْهُوجَاءِ^(٣) ...

فَاسْتَشْهَدَ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّادُ الرَّهَّادُ ذُو الثَّوَرَيْنِ^(٤) وَهُوَ مُنَحْنٍ بِصُلْبِهِ^(٥) عَلَى أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ .

وَنَشِبَ^(٦) الْخِلَافُ الْكَبِيرُ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَمُعَاوِيَةَ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَمِيرِ بِلَادِ الشَّامِ ...

وَفِي سِلْسِلَةٍ مُفْرِعَةٍ مُذْهِلَةٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ الْمُتَلَاخِقَةِ ... وَجَدَ الطُّفْلُ الصَّغِيرُ نَفْسَهُ يُحْمَلُ مَعَ أُخْتِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى « مِصْرَ » ... فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُلْحَقَا بِأَيِّهِمَا ؛ بَعْدَ أَنْ غَدَا وَإِلَيَّا عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

ثُمَّ رَأَى أَطَاغِيرَ الْفِتْنَةِ الْحُمْرِ تَمْتَدُّ إِلَى أَبِيهِ ؛ فَتَقَتَّلَهُ شَرُّ قِتْلَةٍ .
ثُمَّ أَلْفَى^(٧) نَفْسَهُ يُنْقَلُ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ « مِصْرَ » إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ بَعْدَ أَنْ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا أَنْصَارُ مُعَاوِيَةَ ... وَقَدْ أَصْبَحَ يَتِيمًا لَطِيمًا^(٨) ...

* * *

حَدَّثَ الْقَاسِمُ نَفْسَهُ عَنْ رِحْلَةِ الْعَذَابِ هَذِهِ وَمَا تَلَّاهَا ، فَقَالَ :

(١) يدرج : يمشي .

(٢) عصفت : هبَّت واشتدت .

(٣) الرِّيحُ الْهُوجَاءُ : الريح الشديدة التي تقلع البيوت .

(٤) ذُو الثَّوَرَيْنِ : هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ... انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ،

الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٥) صُلْبُهُ : عَظْمُ ظَهْرِهِ .

(٦) نَشِبَ الْخِلَافُ : ثَارَ الْخِلَافُ .

(٧) أَلْفَى نَفْسَهُ : وَجَدَ نَفْسَهُ .

(٨) اللَّطِيمُ : الْغُلَامُ الَّذِي مَاتَ أَبَوَاهُ .

لَمَّا قُتِلَ أَبِي بِمَضَرَ جَاءَ عَمِّي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، فَاحْتَمَلَنِي
أَنَا وَأُخْتِي الصَّغِيرَةَ ... وَمَضَى بِنَا إِلَى الْمَدِينَةِ .

فَمَا أَنْ بَلَّغْنَاهَا حَتَّى بَعَثْتُ إِلَيْنَا عَمَّتِي عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَحَمَلْتُنَا مِنْ
مَنْزِلِ عَمِّي إِلَى بَيْتِهَا ... وَرَبَّتْنَا فِي حِجْرِهَا (١) .

فَمَا رَأَيْتُ وَالِدَةً قَطُّ وَلَا وَالِدًا أَكْثَرَ مِنْهَا بِرًا ...
وَلَا أَوْفَرَ (٢) شَفَقَةً ...

كَانَتْ تُطْعِمُنَا بِيَدَيْهَا، وَلَا تَأْكُلُ مَعَنَا ...
فَإِذَا بَقِيَ مِنْ طَعَامِنَا شَيْءٌ أَكَلَتْهُ .

وَكَانَتْ تَحْنُو عَلَيْنَا حُنُوَ الْمُرْضِعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ (٣)، فَتَغْسِلُ
أَجْسَادَنَا ... وَتُمْشِطُ شُعُورَنَا ...

وَتُلْبِسُنَا الْأَبْيَضَ النَّاصِعَ مِنَ الثِّيَابِ .

وَكَانَتْ لَا تَقْتَأُ تَحْضُنَا عَلَى الْحَيْرِ، وَتُمْرُسُنَا (٤) بِفِعْلِهِ ...

وَتَنْهَانَا عَنِ الشَّرِّ، وَتَحْمِلُنَا عَلَى تَرْكِهِ .

وَقَدْ دَأَبْتُ عَلَى تَلْقِينِنَا مَا نُطِيقُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ...

وَتَرْوِينِنَا (٥) مَا نَعْقِلُهُ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَكَانَتْ تَرْيِدُنَا بِرًا وَإِتْحَافًا (٦) فِي الْعِيدَيْنِ ...

فَإِذَا كَانَتْ عَشِيَّةُ « عَرَفَةَ » حَلَقْتُ لِي شَعْرِي ...

(١) الحِجْر: الحِضْن، وَفِي حِجْرِهَا: فِي كَنَفِهَا وَرَعَايَتِهَا . (٤) تُمْرَسُنَا: تَدْرِبُنَا .

(٢) أَوْفَرَ شَفَقَةً: أَكْثَرَ حَنَانًا . (٥) تَرْوِينُنَا: جَعَلْنَا نَزْوِي الْحَدِيثَ .

(٣) الْفَطِيم: الصَّغِيرُ الْمَقْطُومُ عَنِ الرُّضَاعِ . (٦) إِتْحَافًا: إِهْدَاءً .

وَعَسَلْتَنِي أَنَا وَأُخْتِي ...

فَإِذَا أَصْبَحْنَا أَلْبَسْتَنَا الْجَدِيدَ ...

وَبَعَثْتُ بِنَا إِلَى الْمَسْجِدِ لِنُؤَدِّي صَلَاةَ الْعِيدِ .

فَإِذَا عُدْنَا مِنْهُ جَمَعْتَنِي أَنَا وَأُخْتِي وَضَحَّتْ بَيْنَ أَيْدِينَا .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ أَلْبَسْتَنَا ثِيَابًا بَيْضًا ، ثُمَّ أَجْلَسْتَنِي عَلَى إِحْدَى رُكْبَتَيْهَا ...

وَأَجْلَسْتُ أُخْتِي عَلَى رُكْبَتِهَا الْأُخْرَى .

وَكَانَتْ قَدْ دَعَتْ عَمِّي عَبْدَ الرَّحْمَنِ ... فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا حَيْثُهُ ، ثُمَّ تَكَلَّمَتْ : فَحَمِدَتِ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ^(١) .

فَمَا رَأَيْتُ مُتَكَلِّمًا قَطُّ مِنْ رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا ؛ أَفْصَحَ مِنْهَا لِسَانًا ... وَلَا أَعْدَبَ^(٢) بَيَانًا ...

ثُمَّ قَالَتْ : أَيُّ أَخِي^(٣) ...

إِنِّي لَمْ أَزَلْ أَرَاكَ مُعْرِضًا^(٤) عَنِّي مُنْذُ أَخَذْتُ هَذَيْنِ الصَّبِيِّينِ مِنْكَ ، وَضَمَمْتُهُمَا إِلَيَّ ...

وَوَاللَّهِ مَا فَعَلْتُ ذَلِكَ تَطَاوُلًا^(٥) عَلَيْكَ ...

وَلَا سُوءَ ظَنٍّ بِكَ ...

وَلَا اتَّهَمًا لَكَ بِالتَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِمَا ...

(١) بما هو أَهْلُهُ : بما يليق بذاته .

(٢) أَعْدَبَ بَيَانًا : أَحْلَى كَلَامًا وَأَبْلَغَ قَوْلًا .

(٣) أَيُّ أَخِي : يَا أَخِي .

(٤) مُعْرِضًا عَنِّي : مَبَاعِدًا لِي .

(٥) تَطَاوُلًا عَلَيْكَ : اعْتِلَاءً عَلَيْكَ .

وَلَكِنَّكَ رَجُلٌ ذُو نِسَاءٍ^(١)...

وَهُمَا صَبِيَّانِ صَغِيرَانِ لَا يَقُومَانِ بِأَمْرِ^(٢) نَفْسَيْهِمَا .

فَخَشِيتُ أَنْ يَرَى نِسَاؤُكَ مِنْهُمَا مَا يَتَقَدَّرُ^(٣) لَهُ؛ فَلَا يَطْبَنَ بِهِمَا نَفْسًا .

وَوَجَدْتُ أَنِّي أَحَقُّ مِنْهُنَّ بِالْقِيَامِ عَلَى أَمْرِهِمَا فِي هَذِهِ الْحَالِ ...

وَهَاهُمَا الْآنَ قَدْ شَبَا ، وَأَصْبَحَا قَادِرَيْنِ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ نَفْسَيْهِمَا ...

فَخَذُوهمَا وَضُمَّهُمَا^(٤) إِلَيْكَ .

فَأَخَذَنَا عَمِّي عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَضَمَّنَا إِلَى بَيْتِهِ .

* * *

يَبْدَأُ الْعُلَامَ « الْبَكْرِيَّ » ظِلٌّ مُعَلَّقَ الْقَلْبِ بَبَيْتِ عَمَّتِهِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانُ
اللَّهِ عَلَيْهَا ... فَعَلَى أَرْضِ بَيْتِهَا الْمُضْمَحَّةِ^(٥) بِطُيُوبِ النُّبُوَّةِ دَرَجٍ^(٦) ...

وَفِي أَكْنَافِ^(٧) صَاحِبَتِهِ تَرْبَى وَتَرْعَرَغُ ...

وَمِنْ حَنَانِهَا الْمُتَدَفِّقِ نَهْلٍ^(٨) وَارْتَوَى .

فَصَارَ يُورِغُ وَقْتَهُ بَيْنَ بَيْتِهَا وَبَيْتِ عَمِّهِ .

* * *

وَقَدْ ظَلَّتْ ذِكْرِيَّاتُ مَنْزِلِ عَمَّتِهِ الشَّدِيدَةِ^(٩) النَّدِيَّةِ الرَّفَافَةِ^(١٠) تَحِيًّا فِي
خَاطِرِهِ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ ...

فَاسْتَمِعْ إِلَى بَعْضِ حَدِيثِهِ عَنْ تِلْكَ الذُّكْرِيَّاتِ حَيْثُ يَقُولُ :

(١) ذُو نِسَاءٍ : مُتَعَدِّدُ الزَّوْجَاتِ .

(٦) دَرَجٌ : نَشَأٌ وَتَرْبَى .

(٢) بِأَمْرِ نَفْسَيْهِمَا : بِخِدْمَةِ ذَاتَيْهِمَا .

(٧) أَكْنَافٌ : رَحَابٌ .

(٣) مَا يَتَقَدَّرُ لَهُ : مَا لَا يَتَحَكَّمُ مِنْ أَوْسَاحِهَا .

(٨) نَهْلٌ : اسْتَقَى .

(٤) ضَمَّهُمَا إِلَيْكَ : أَمْسَكَهُمَا عِنْدَكَ .

(٩) الشَّدِيدَةُ : الْعَقِيْقَةُ بِرِيحِ الْمَسْكِ .

(١٠) الرَّفَافَةُ : الْمُتَلَأَلَةُ .

(٥) الْمُضْمَحَّةُ : الْمُعْطَرَّةُ .

قُلْتُ ذَاتَ يَوْمٍ لِعَمَّتِي عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :
يَا أُمَّةُ (١) ، اكْشِفِي لِي عَنْ قَبْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَقَبْرِي
صَاحِبِيهِ ... فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَرَاهَا .

وَكَانَتْ الْقُبُورُ الثَّلَاثَةُ مَا زَالَتْ دَاخِلَ بَيْتِهَا ، وَقَدْ عَطَّنَهَا بِمَا يَسْتُرُهَا عَنِ
الْعَيْنِ ... فَكَشَفْتُ لِي عَنْ ثَلَاثَةِ قُبُورٍ لَا مُشْرِفَةَ (٢) وَلَا وَاطِئَةَ .

قَدْ مُهِدَتْ بِصَغَارِ الْحَصَى الْحُمْرِ مِمَّا كَانَ فِي بَاحَةِ الْمَسْجِدِ .
فَقُلْتُ : أَيْنَ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟
فَأَشَارَتْ بِيَدِهَا وَقَالَتْ : هَذَا .

ثُمَّ تَحَدَّرَتْ (٣) عَلَى حَدِيثِهَا دَمْعَتَانِ كَبِيرَتَانِ ...
فَبَادَرَتْ (٤) ، فَمَسَحَتْهُمَا حَتَّى لَا أَرَاهُمَا .

وَكَانَ قَبْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُقَدِّمًا عَلَى قَبْرِي صَاحِبِيهِ .
فَقُلْتُ : وَأَيْنَ قَبْرِ جَدِّي أَبِي بَكْرٍ ؟
فَقَالَتْ : هَا هُوَ ذَا .

وَكَانَ مَدْفُونًا عِنْدَ رَأْسِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .
فَقُلْتُ : وَهَذَا قَبْرِ عُمَرَ ؟
فَقَالَتْ : نَعَمْ .

(١) يَا أُمَّة : يَا أُمِّي .

(٢) لَا مُشْرِفَةَ : مَا هِيَ مُرْتَفَعَةٌ عَالِيَةٌ .

(٣) تَحَدَّرَتْ : انْسَكَبَتْ .

(٤) بَادَرَتْ : أَسْرَعَتْ ، وَعَاجَلَتْ .

وَكَانَ رَأْسُ عُمَرَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ عِنْدَ خَصْرِ جَدِّي ، قَرِيباً مِنْ رَجُلِ النَّبِيِّ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

* * *

وَلَمَّا سَبَّ الْفَتَى « الْبَكْرِيُّ » كَانَ قَدْ حَفِظَ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...
وَأَخَذَ عَنْ عَمَّتِهِ عَائِشَةَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَأْخُذَ .
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْحَرَمِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ، وَانْقَطَعَ إِلَى حَلَقَاتِ الْعِلْمِ الَّتِي
كَانَتْ تَنْتَشِرُ^(١) فِي كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهِ كَمَا تَنْتَشِرُ الثُّجُومُ الزُّهْرُ^(٢) عَلَى صَفْحَةِ
السَّمَاءِ ...

فَرَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ الزُّبَيْرِ^(٣) ...

وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُبَّابٍ ، وَرَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ ، وَأَسْلَمَ
مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ ...
حَتَّى عَدَا إِمَاماً مُجْتَهِداً ...

وَأَصْبَحَ مِنْ أَعْلَمِ أَهْلِ زَمَانِهِ بِالسُّنَّةِ^(٤) .

وَكَانَ الرَّجُلُ لَا يُعَدُّ رَجُلًا عِنْدَهُمْ حَتَّى يُثْقِنَ السُّنَّةَ ...

* * *

وَلَمَّا اكْتَمَلَتْ لِلشَّابِّ الْبَكْرِيِّ أَدَوَاتُ الْمَعْرِفَةِ ؛ أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ
يَلْتَمِسُونَ^(٥) عِنْدَهُ الْعِلْمَ بِشَغَفٍ^(٦) ...

(١) تنتشر : تتفرق .

(٢) الثُّجُومُ الزُّهْرُ : الثُّجُومُ الزَّاهِيَةُ الْمُضِيئَةُ .

(٣) انظرهم في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٤) السُّنَّةُ : ما صح من حديث رسول الله ﷺ .

(٥) يَلْتَمِسُونَ : يطلبون ويشدون .

(٦) بشغف : بشوق ورغبة .

وَأَقْبَلَ هُوَ عَلَيْهِمْ يَبْذُلُهُ لَهُمْ بِسَخَاءٍ ...
فَكَانَ يَأْتِي مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ غَدَاةَ كُلِّ يَوْمٍ فِي
مَوْعِدٍ لَا يُخْلِفُهُ ... فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ يُحْيِي بِهِمَا الْمَسْجِدَ ...
ثُمَّ يَأْخُذُ مَكَانَهُ أَمَامَ خَوْخَةِ^(١) عُمَرَ فِي الرُّوْضَةِ الْغَرَاءِ بَيْنَ قَبْرِ النَّبِيِّ
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَيَبْنِي مِنْبَرَهُ^(٢).
فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ طُلَّابُ الْعِلْمِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ...
وَيَنْهَلُونَ مِنْ مَوَارِدِهِ الْعَذْبَةِ الْمُصَفَّاءِ مَا يَمَلَأُ الثُّفُوسَ الْعَطْشَى رِيًّا .
وَلَمْ يَمُضِ طَوِيلُ وَقْتٍ حَتَّى أَصْبَحَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَابْنُ خَالَتِهِ سَالِمُ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ^(٣) إِمَامِي الْمَدِينَةِ الْمُؤْتَوِّقِينَ^(٤) ...
وَسَيِّدَيْهَا الْمُطَاعَيْنِ ، وَرَجُلَيْهَا النَّافِذِينَ^(٥) ...
عَلَى الرِّعْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِي أَيْدِيهِمَا وَلَايَةٌ وَلَا سُلْطَانٌ .
فَقَدْ سَوَّدَهُمَا^(٦) النَّاسُ لِمَا كَانَا يَتَحَلَّىانِ بِهِ مِنَ الثَّقَلَى وَالْوَرَعِ ...
وَمَا يَحْمِلَانِيهِ فِي صَدْرَيْهِمَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ ...
وَمَا يَزِدَانِي بِهِ مِنَ الزَّهَادَةِ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَالرَّغْبَةِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ ...

* * *

(١) الخوخة: نافذة صغيرة في البيت تؤدي إليه الضوء، وهي الباب الصغير في الباب الكبير.
(٢) بين قبر النبي ومنبره: وهو مكان مبارك حيث يقول النبي عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ « يَنْبِي وَمَنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ » وقد أصبح بيته هو قبره عليه الصلاة والسلام.
(٣) سالم بن عبد الله بن عمر: انظره ص ٣٦٨ ، ٣٧٨ .
(٤) المؤتوقين: اللذين يثق بهما الناس .
(٥) النافذين: المسموعين الكلمة .
(٦) سودهما الناس: أَمَرَهُمَا النَّاسُ عَلَيْهِمْ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ مَكَانَتَيْهِمَا فِي النُّفُوسِ أَنَّ خُلَفَاءَ بَنِي « أُمَيَّة » وَوَلَاتَهُمْ كَانُوا لَا يَقْطَعُونَ أَمْرًا ذَا بَالٍ ^(١) فِي شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ الْمَدِينَةِ إِلَّا بِرَأْيَيْهِمَا .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ قَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى تَوْسِيعَةِ الْحَرَمِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ .

وَأَمَّ يَكُنْ فِي وَسْعِهِ أَنْ يُحَقِّقَ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةَ ^(٢) الْعَالِيَةَ إِلَّا إِذَا هَدَمَ الْمَسْجِدَ الْقَدِيمَ مِنْ جِهَاتِهِ الْأَرْبَعِ ...

وَأَزَالَ بُيُوتَ زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَضَمَّهَا إِلَى الْمَسْجِدِ .

وَهِيَ أُمُورٌ تَشُقُّ ^(٣) عَلَى النَّاسِ ...

وَلَا تَطِيبُ ^(٤) نُفُوسَهُمْ بِهَا ...

فَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَآلِيهِ عَلَى الْمَدِينَةِ يَقُولُ :

لَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُوسَّعَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يُصْبِحَ مِائَتِي ذِرَاعٍ فِي مِائَتِي ذِرَاعٍ .

فَاهْدِمِ جُدْرَانَهُ الْأَرْبَعَةَ ، وَأَدْخِلْ فِيهِ حُجْرَ ^(٥) زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

وَاشْتَرِ مَا فِي نَوَاحِيهِ مِنَ الْبُيُوتِ ...

وَقَدِّمِ الْقِبْلَةَ إِنْ قَدَرْتَ .

(١) ذَا بَالٍ : ذَا شَأْنٍ .

(٢) الْأُمْنِيَّةُ : مَا يَتَغَيَّرُ الْإِنْسَانُ وَيَتَمَنَاهُ .

(٣) تَشُقُّ عَلَى النَّاسِ : تَصْعَبُ عَلَيْهِمْ .

(٤) لَا تَطِيبُ نَفُوسَهُمْ بِهَا : لَا يَسْرُونَ بِهَا ، وَلَا يَرْتَاحُونَ إِلَيْهَا . (٥) حُجْرٌ : عُزْفٌ .

وَأِنَّكَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ لِمَكَانٍ (١) أَخْوَالِكَ آلِ الْخَطَّابِ ، وَمَنْزِلَتِهِمْ فِي قُلُوبِ النَّاسِ .

فَإِذَا أَتَى عَلَيْكَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ ؛ فَاسْتَعِزْ بِالْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَسَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَأَشْرِكُهُمَا مَعَكَ فِي الْأَمْرِ ...
وَادْفَعْ إِلَى النَّاسِ أَثْمَانَ يُبَوِّتُهُمْ بِسَخَاءٍ ...
وَإِنَّ لَكَ فِي ذَلِكَ سَلَفِي صَدِّقٍ ...
هُمَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ .

* * *

فَدَعَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَسَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَطَائِفَةً مِنْ وَجُوهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ... فَشَرُّوا بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ الْخَلِيفَةُ ، وَهَبُّوا لِإِنْفَاذِهِ (٢) .

فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ عَالِمِي الْمَدِينَةِ وَإِمَامَيْهَا الْكَبِيرَيْنِ ؛ يُبَاشِرَانِ هَدْمَ الْمَسْجِدِ بِأَيْدِيهِمَا ، قَامُوا مَعَهُمَا قَوْمَةٌ رَجُلٍ وَاحِدٍ ...
وَأَنْفَذُوا مَا جَاءَ فِي كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَكَانَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ الْمُظْفَرَةُ تَدُقُّ أَبْوَابَ الْحُصُونِ الْمُفْضِيَةِ (٣) إِلَى مَدِينَةِ « الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ » ...

وَتَسْتَوْلِي عَلَيْهَا وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ بِقِيَادَةِ الْأَمِيرِ الْبَاسِلِ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ (٤) ... وَذَلِكَ تَمْهيداً لِفَتْحِ « الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ » نَفْسِهَا .

(١) لِمَكَانٍ أَخْوَالِكَ : لِمَقَامِهِمْ وَمَنْزِلَتِهِمْ .

(٢) هَبُّوا لِإِنْفَاذِهِ : انْطَلَقُوا لِلْقِيَامِ بِهِ .

(٣) الْمُفْضِيَةُ : الْمَوْصَلَةُ .

(٤) هُوَ أَحَدُ كِبَارِ قَادَةِ الْمُسْلِمِينَ ، غَزَا بِلَادَ أَرْمِينِيَا كَمَا

غَزَا بِلَادَ الرُّومِ حَتَّى بَلَغَ خَلِيجَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ .

فَلَمَّا عَلِمَ مَلِكُ « الرُّومِ » بِعِزِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَوْسِيعَةِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ
الشَّرِيفِ ، أَحَبَّ أَنْ يُصَانِعَهُ^(١) ، وَيَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِمَا يَشْرُهُ ...

فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِمِائَةِ أَلْفِ مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ ...

وَأَرْسَلَ مَعَهَا مِائَةَ عَامِلٍ مِنْ أَمْهَرِ الْبَنَائِينَ فِي بِلَادِ « الرُّومِ » ...

وَزَوَّدَ الْعُمَّالَ بِأَرْبَعِينَ حِمْلًا مِنَ الْفُسْفِسَاءِ^(٢) ...

فَأَرْسَلَ الْوَلِيدُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؛ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى بِنَاءِ
الْمَسْجِدِ ... فَأَنْفَقَهُ عُمَرُ بِمُشُورَةِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَصَاحِبِهِ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَشَدَّ النَّاسِ تَأْسِيًا^(٣) بِجَدِّهِ الصَّدِيقِ رِضْوَانُ
اللَّهِ عَلَيْهِ ، حَتَّى قَالَ النَّاسُ :

لَمْ يَلِدْ أَبُو بَكْرٍ وَلَدًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْ هَذَا الْفَتَى .

فَلَقَدْ أَشْبَهَهُ فِي كَرَمِ شَمَائِلِهِ^(٤) ، وَنُبْلِ خَصَائِلِهِ^(٥) ...

وَصَلَابَةِ إِيْمَانِهِ ، وَشِدَّةِ وَرَعِهِ ...

وَسَمَاحَةِ نَفْسِهِ^(٦) ، وَسَخَاءِ يَدِهِ ...

وَقَدْ أَثَّرَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ تَشْهَدُ لَهُ بِهَذَا .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَقَالَ :

أَيُّمَا أَعْلَمَ أَنْتَ أَمْ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ؟ .

(١) يصانعه : يداريه ويداهنه .

(٢) الْفُسْفِسَاءُ : قطع صغيرة من الرخام زاهية الألوان يؤلَّفُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ فِي أَشْكَالٍ رَاقِعَةٍ بَدِيعَةٍ ، وَتَزِينُ بِهَا جُدْرَانَ الْقُصُورِ .

(٣) تَأْسِيًّا بِفُلَانٍ : تَشَبُّهًا بِهِ ، وَجَرِيًّا عَلَى مَنْهَجِهِ . (٥) نَبْلُ خَصَائِلِهِ : رَفْعَةُ صِفَاتِهِ .

(٤) كَرَمُ شَمَائِلِهِ : سَمُوُّ أَخْلَاقِهِ . (٦) سَمَاحَةُ نَفْسِهِ : جُودُ نَفْسِهِ وَسَخَاءُ يَدِهِ .

فَتَشَاغَلَ عَنْهُ .

فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ ...

فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ .

فَأَعَادَهَا كَرَّةً ثَالِثَةً ، فَقَالَ لَهُ : ذَاكَ سَالِمٌ يَا بَنَ أَخِي يَجْلِسُ هُنَاكَ .

فَقَالَ مَنْ فِي الْمَجْلِسِ :

لِلَّهِ أَبُوهُ^(١) ... لَقَدْ كَرِهَ أَنْ يَقُولَ : أَنَا أَعْلَمُ مِنْهُ ؛ فَيَزَكِّي نَفْسَهُ^(٢) ...

وَكَرِهَ أَنْ يَقُولَ : هُوَ أَعْلَمُ مِنِّي ؛ فَيَكْذِبُ ...

وَكَانَ أَعْلَمَ مِنْ سَالِمٍ .

* * *

وَلَقَدْ رُئِيَ ذَاتَ مَرَّةٍ « بِمَنَى » ، وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ مِنْ حُجَّاجِ بَيْتِ اللَّهِ يُطَبِّقُونَ^(٣) عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ؛ وَهُمْ يَسْأَلُونَهُ .

فَكَانَ يُجِيبُهُمْ بِمَا يَعْلَمُ ، وَيَقُولُ لَهُمْ فِيمَا لَا يَعْلَمُهُ :

لَا أَذْرِي ... لَا أَعْلَمُ ... لَا أَذْرِي ... فَأَخَذَهُمْ مِنْهُ الْعَجَبُ .

فَقَالَ لَهُمْ : مَا نَعْلَمُ كُلُّ مَا تَسْأَلُونَ عَنْهُ ...

وَلَوْ عَلِمْنَاهُ مَا كَتَمْنَاهُ ...

وَلَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَكْتُمَهُ ...

وَلَأَنَّ يَعْيشَ الرَّجُلُ جَاهِلًا - بَعْدَ أَنْ يَعْرِفَ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ - خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ

يَقُولَ مَا لَا يَعْلَمُ .

* * *

(١) لله أبوه : كلمة تقال في مجال المدح والتعظيم .

(٢) يزكِّي نفسه : يمدح نفسه .

(٣) يطبقون عليه : يتكاثرون عليه ويلتقون حوله .

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ ، عُهِدَ^(١) إِلَيْهِ بِقِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ^(٢) بَيْنَ مُسْتَحِقِّيهَا ؛
فَاجْتَهَدَ فِي ذَلِكَ مَا وَسِعَهُ الاجْتِهَادُ ...

وَأَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ...

غَيْرَ أَنَّ أَحَدَهُمْ لَمْ يَرْضَ عَنْ نَصِيبِهِ الَّذِي أُعْطِيَ لَهُ .

فَأَتَاهُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي ، وَجَعَلَ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الصَّدَقَةِ .
فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ :

وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَتَكَلَّمُ فِي رَجُلٍ مَا نَالَ مِنْ صَدَقَتِكُمْ دِرْهَمًا وَلَا دَانِقًا^(٣) ...
وَلَا أَصَابَ مِنْهَا تَمْرَةً وَاحِدَةً .

فَأَوْجَرَ^(٤) الْقَاسِمُ صَلَاتَهُ ، وَالتَفَتَ إِلَى ابْنِهِ وَقَالَ :

يَا بُنَيَّ ، لَا تَتَكَلَّمُ بَعْدَ الْيَوْمِ فِيمَا لَا تَعْلَمُ .

فَقَالَ النَّاسُ : صَدَقَ ابْنُهُ ...

وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُرَبِّيَهُ ، وَأَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ مِنَ التَّوَشُّعِ^(٥) فِي الْكَلَامِ .

* * *

وَقَدْ عُمِّرَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَيْفَ^(٦) عَلَى الثَّانِيَةِ وَالسَّبْعِينَ ...

لَكِنَّهُ كَفَّ بَصْرَهُ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ .

وَفِي آخِرِ سَنَةِ مِنْ حَيَاتِهِ ، قَصَدَ مَكَّةَ يُرِيدُ الْحَجَّ ... وَفِيمَا هُوَ فِي بَعْضِ
طَرِيقِهِ أَتَاهُ الْيَقِينُ^(٧) ...

(١) عُهِدَ إِلَيْهِ : أُوْكِلَ إِلَيْهِ .

(٢) الصَّدَقَاتُ : أَمْوَالُ الزَّكَاةِ .

(٣) الدَانِقُ : سُدُسُ الدِّرْهَمِ .

(٤) أَوْجَرَ : قَصَرَ .

(٥) التَّوَشُّعُ فِي الْكَلَامِ : قَوْلُ مَا لَا فَائِدَةَ مِنْهُ .

(٦) نَيْفٌ : زَادٌ .

(٧) الْيَقِينُ : الْإِنْتِقَالُ إِلَى الْآخِرَةِ .

فَلَمَّا أَحَسَّ بِالْأَجْلِ (١) التفت إلى أبيه وقال :
 إِذَا أَنَا مِتُّ ؛ فَكَفِّنِّي بِبَيْتِي الَّتِي كُنْتُ أُصَلِّي فِيهَا :
 فَمِصْبِي ...
 وَإِزَارِي ...
 وَرِدَائِي ...
 فَذَلِكَ كَانَ كَفَنُ جَدِّكَ أَبِي بَكْرٍ .
 ثُمَّ سَوَّ عَلَيَّ لَحْدِي .
 وَالْحَقُّ بِأَهْلِكَ .
 وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَقْفُوا عَلَيَّ قَبْرِي ، وَتَقُولُوا :
 كَانَ ...
 وَكَانَ ...
 فَمَا كُنْتُ شَيْئًا (*) .

(١) الأجل : الوفاة .

- (*) للاستزادة من أخبار القاسم بن مُحَمَّد بن أَبِي بَكْرٍ انظر :
- ١ - جلية الأولياء : ١٨٣/٢ .
 - ٢ - صِفَةُ الصُّفْوَةِ (الطبعة الحلبية) : ٨٨/٢ .
 - ٣ - تهذيب التهذيب : ٣٣٣/٨ .
 - ٤ - وفيات الأعيان لابن خلكان : ٥٩/٤ - ٦٠ ، و(انظر الفهارس في الجزء الثامن) .
 - ٥ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ١٨٧/٥ .
 - ٦ - شذرات الذهب للعماد الحنبلي : ١٣٥/١ .
 - ٧ - نكت الهفيان للصفدي : ٢٣٠ .
 - ٨ - الكامل في التاريخ : ١١٤/٥ .
 - ٩ - تاريخ الطبري (طبعة دار المعارف) : ٤٢٢/٣ و(انظر الفهارس) .
 - ١٠ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (طبعة صادر) : ٢٧٩/٢٠ .

صَلَةُ بَنِ أَشِيمِ الْعَدَوِيِّ

« تَلَقَّى صَلَّةُ بَنِ أَشِيمٍ عَنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ ،
وَاقْتَبَسَ مِنْ خِلَالِهِمْ ، وَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِمْ »

[الْأَصْبَهَانِيُّ]

صَلَّةُ بَنِ أَشِيمِ الْعَدَوِيِّ عَابِدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّيْلِ ...

وَفَارِسٌ مِنْ فُوسَانِ النَّهَارِ ...

كَانَ إِذَا نَشَرَ الظَّلَامَ أَشْتَارَهُ عَلَى الْكَوْنِ ، وَأُسْلِمَتِ ^(١) الْجُنُوبُ إِلَى
الْمَضَاجِعِ ... قَامَ فَاسْبَغَ الْوُضُوءَ ^(٢) ، ثُمَّ صَفَّ فِي مِحْرَابِهِ ، وَدَخَلَ فِي صَلَاتِهِ ،
وَهَامَ وَجَدًا بِرَبِّهِ .

فَيُشْرِقُ فِي نَفْسِهِ سَنًا ^(٣) إِلَهِيَّ ؛ يُنِيرُ لِيَصِيرَتِهِ أَزْجَاءَ الْكَوْنِ ...
وَيُرِيهِ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْآفَاقِ .

وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ مُوَلَّعًا بِقُرْآنِ الْفَجْرِ ...

فَإِذَا أَقْبَلَ الْهَزْبُ ^(٤) الْأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ ؛ انْحَنَى بِصُلْبِهِ عَلَى أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ ...

وَانْطَلَقَ يُرْتِّلُ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ بِصَوْتٍ نَدِيٍّ ، وَجَرَسِ شَجِيٍّ ...

فَتَارَةً يَجِدُ لِلْقُرْآنِ حَلَاوَةً تَأْخُذُ بِمَجَامِعِ ^(٥) قَلْبِهِ ، وَتَسْتَأْثِرُ بِمَكَامِنِ لُبِّهِ ^(٦)

مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ...

(١) أُسْلِمَتِ الْجُنُوبُ إِلَى الْمَضَاجِعِ : غَرِقَ النَّاسُ فِي النُّومِ .

(٢) أَسْبَغَ الْوُضُوءَ : أَتَمَّ الْوُضُوءَ وَاتَّقَنَهُ .

(٣) السَّنَا : النُّورُ .

(٤) الْهَزْبُ الْأَخِيرُ : الثَّلَاثُ الْأَخِيرُ .

(٥) مَجَامِعُ قَلْبِهِ : جَوَانِبُ فَوَادِهِ كُلِّهَا .

(٦) اللَّبُّ : الْعَقْلُ الصَّافِي .

وَأُخْرَى يَسْتَشْعِرُ لِقُرْآنٍ خَشَعَةً تُصَدِّعُ فُؤَادَهُ ...

* * *

وَلَمْ يَكُنْ صِلَةً بَنُ أَشِيمَ يَقْتَرُ عَنْ عِبَادَتِهِ هَذِهِ قَطُّ ...

لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ حِلِّهِ وَتَرْحَالِهِ ، وَشُغْلِهِ وَفَرَاغِهِ .

حَكَى جَعْفَرُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ :

خَرَجْنَا مَعَ جَيْشٍ مِنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزَاةٍ^(١) إِلَى مَدِينَةٍ
« كَابُل »^(٢) رَجَاءً أَنْ يَفْتَحَهَا اللَّهُ لَنَا ؛ وَكَانَ فِي الْجَيْشِ صِلَةٌ بَنُ أَشِيمَ .

فَلَمَّا أَرَحَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ^(٣) - وَنَحْنُ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ - حَطَّ الْجُنْدُ
رِحَالَهُمْ ، وَأَصَابُوا شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ ، وَأَدَّوْا الْعِشَاءَ الْأَخِيرَةَ ...

ثُمَّ مَضَوْا إِلَى رِحَالِهِمْ يَلْتَمِسُونَ عِنْدَهَا حَطًّا مِنَ الرَّاحَةِ ...

فَرَأَيْتُ صِلَةً بَنُ أَشِيمَ يَمْضِي إِلَى رَحْلِهِ كَمَا مَضَوْا ...

وَيُسَلِّمُ جَنْبَهُ إِلَى الرَّقَادِ كَمَا فَعَلُوا .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : أَيْنَ الَّذِي يَزُودُونَهُ مِنْ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَعِبَادَتِهِ ، وَيُشِيعُونَهُ
مِنْ قِيَامِهِ حَتَّى تَتَوَرَّمَ قَدَمَاهُ ؟!

وَاللَّهِ لَا أَرْمُقَنَّهُ^(٤) اللَّيْلَةَ حَتَّى أَرَى مَا يَكُونُ مِنْهُ .

فَمَا أَنْ عَرِقَ الْجُنْدُ فِي نَوْمِهِمْ ... حَتَّى رَأَيْتُهُ يَسْتَيْقِظُ مِنْ رَقْدَتِهِ ،
وَيَنْحَازُ^(٥) عَنِ الْعَسْكَرِ مُسْتَبْرَأً بِالْعَتَمَةِ ، وَيَدْخُلُ فِي غَابَةِ لَفَاءٍ^(٦) ، بَاسِقَةً

(١) غَزَاةٌ : غَزْوَةٌ .

(٢) كَابُل : عاصمة أفغانستان ، وهي واقعة على نهر كابل .

(٣) أَرَحَى سُدُولَهُ : أَسْدَلَ ظَلامَهُ عَلَى الْكَوْنِ . (٥) يَنْحَازُ عَنِ الْعَسْكَرِ : يَمِيلُ إِلَى جِهَةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ الْعَسْكَرِ .

(٤) لَا أَرْمُقَنَّهُ : لَا أَنْظُرُنَّ إِلَيْهِ . (٦) لَفَاءٌ : مَلْتَفَةُ الْأَشْجَارِ ، مَتَعَانِقَةُ الْأَغْصَانِ .

الْأَشْجَارِ ، وَحَشِيَّةِ الْأَعْشَابِ ، كَأَنَّهَا لَمْ تَطَّأَهَا قَدَمَانِ مُنْذُ دَهْرٍ طَوِيلٍ .
فَمَضَيْتُ فِي إِثْرِهِ (١) ...

فَلَمَّا بَلَغَ مِنْهَا مَكَانًا قَصِيًّا ؛ التَّمَسَّ (٢) الْقِبْلَةَ وَاتَّجَهَ إِلَيْهَا ، وَكَبَّرَ لِلصَّلَاةِ ،
وَاسْتَعْرَقَ فِيهَا ... فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ بُعْدٍ ؛ فَرَأَيْتُهُ مُشْرِقَ الْوَجْهِ ...

سَاكِنِ الْأَعْصَاءِ ...

هَادِي النَّفْسِ ...

كَأَنَّمَا يَجِدُ فِي الْوَحْشَةِ أَنْسَاءً ...

وَفِي الْبُعْدِ قُرْبَاءً ...

وَفِي الظُّلْمَةِ ضِيَاءٌ مُنِيرًا ...

وَفِيمَا هُوَ كَذَلِكَ ... طَلَعَ عَلَيْنَا أَسَدٌ مِنَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ لِلْعَايَةِ ، فَمَا أَنْ
أَثْبَتُهُ (٣) حَتَّى انْخَلَعَ فُؤَادِي هَلَعًا (٤) مِنْهُ ، فَعَلَوْتُ شَجَرَةً بَاسِقَةً (٥) لِيُوَاذًا (٦) مِنْ
شَرِّهِ .

فَمَا زَالَ الْأَسَدُ يَدْنُو مِنْ صِلَةِ بَنِ أَشْيَمَ ، وَهُوَ غَارِقٌ فِي صَلَاتِهِ حَتَّى أَصْبَحَ
عَلَى قَيْدٍ (٧) خُطُوبَاتٍ مِنْهُ ... فَوَاللَّهِ مَا التَّفَّتَ إِلَيْهِ ...

وَلَا حَفَلَ (٨) بِهِ ...

فَلَمَّا سَجَدَ قُلْتُ : الْآنَ يَفْتَرِسُهُ .

فَلَمَّا نَهَضَ مِنْ سُجُودِهِ ، وَجَلَسَ ؛ وَقَفَ الْأَسَدُ بِإِزَائِهِ (٩) كَأَنَّهُ يَتَأَمَّلُهُ .

(١) فِي إِثْرِهِ : وَرَاءَهُ . (٢) التَّمَسَّ الْقِبْلَةَ : بَحَثَ عَنْهَا . (٣) أَثْبَتُهُ : تَأَكَّدْتُ مِنْهُ .
(٤) هَلَعًا : جَزَعًا وَخَوْفًا . (٥) بَاسِقَةً : مَرْتَفَعَةً الْأَعْصَانِ . (٦) لِيُوَاذًا : وَقَايَةً .
(٧) عَلَى قَيْدٍ : عَلَى بَعْدِ . (٨) مَا حَفَلَ بِهِ : مَا أَهْتَمَّ بِهِ . (٩) بِإِزَائِهِ : أَمَامَهُ .

فَلَمَّا سَلَّمَ نَظَرَ إِلَى الْأَسَدِ فِي سُكُونٍ ...

وَحَرَكَ شَفَتَيْهِ بِكَلَامٍ لَمْ أَسْمَعْهُ ...

فَإِذَا بِالْأَسَدِ يَنْصَرِفُ عَنْهُ فِي هُدُوءٍ، وَيَعُودُ مِنْ حَيْثُ جَاءَ ...

* * *

وَلَمَّا انْبَلَجَ^(١) الْفَجْرُ، نَهَضَ فَأَدَّى الْمَكْتُوبَةَ.

ثُمَّ طَفِقَ^(٢) يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِمَحَامِدٍ لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَهَا قَطُّ.

ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ ...

وَهَلْ يَجْتَرِي عَبْدٌ خَاطِئٌ مِثْلِي أَنْ يَسْأَلَكَ الْجَنَّةَ؟! .

وَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى بَكَى وَأَبْكَانِي .

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْجَيْشِ دُونَ أَنْ يَفْطَنَ لَهُ أَحَدٌ ...

وَبَدَأَ لِعُيُونِ الْقَوْمِ كَأَنَّهُ بَاتَ عَلَى الْحَشَايَا^(٣)، وَعُدْتُ أَنَا فِي إِثْرِهِ وَبِي مِنْ

سَهَرِ اللَّيْلِ ... وَفُتُورِ الْجِسْمِ ... وَخَوْفِ الْأَسَدِ ... مَا اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِم ...

* * *

وَلَقَدْ كَانَ صِلَةُ بَنٍ أَشْيَمَ إِلَى هَذَا كُلِّهِ لَا يَدْعُ سَانِحَةً^(٤) مِنْ سَوَانِحِ

الْمَوْعِظَةِ وَالتَّذْكِيرِ، إِلَّا اغْتَنَمَهَا ...

وَكَانَ أَسْلُوبُهُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ

الْحَسَنَةِ، فَيَسْتَمِيلُ النَّفُوسَ النَّافِرَةَ ...

وَيَسْتَلِينَ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ ...

* * *

(١) انبلج: أشرق وأضاء.

(٣) الحشايَا: الفرش.

(٤) لَا يَدْعُ سَانِحَةً: لَا يَتْرِكُ فُرْصَةً.

(٢) طفق: أخذ.

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَخْرُجُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ فِي ظَاهِرِ « الْبَصْرَةِ » لِلْخُلُوةِ وَالتَّعَبُّدِ ...

فَكَانَتْ تَمُرُّ بِهِ طَائِفَةٌ مِنَ الشَّبَابِ أَرْخَتْ لِلصَّبَا عِنَانَهُ^(١) ...

فَتَلَهُو وَتَلْعَبُ ... وَتَسْرُخُ وَتَمْرُخُ ...

فَكَانَ يُحْيِيهِمْ بِأُنْسٍ ...

وَيُخَاطِبُهُمْ فِي رَفْقٍ وَيَقُولُ لَهُمْ :

مَا تَقُولُونَ فِي قَوْمِ أَرْمَعُوا^(٢) سَفَرًا لِأَمْرِ عَظِيمٍ ؛ غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي النَّهَارِ
يَحِيدُونَ عَنِ الطَّرِيقِ لِيَلْهُوُوا وَيَلْعَبُوا ...

وَفِي اللَّيْلِ يَسْتَوْنَ لِيَسْتَرِيحُوا ...

فَمَتَى تَرَوْنَهُمْ يُنْجِزُونَ رِحْلَتَهُمْ ...

وَيَتَلَعَّوْنَ غَايَتَهُمْ !؟ .

وَدَّابَّ عَلَى قَوْلِ ذَلِكَ الْمَرَّةَ تِلْوَ الْمَرَّةِ ...

فَلَقِيَهُمْ ذَاتَ مَرَّةٍ وَقَالَ لَهُمْ مَقَالَتُهُ تِلْكَ ...

فَنَهَضَ شَابٌّ مِنْهُمْ وَقَالَ :

إِنَّهُ - وَاللَّهِ - مَا يَغْنِي بِذَلِكَ أَحَدًا غَيْرَنَا ؛ فَتَحْنُ بِالنَّهَارِ نَلْهُو ...

وَبِاللَّيْلِ نَنَامُ ...

ثُمَّ انْحَاذَ الشَّابُّ عَنْ رِفَاقِهِ .

وَاتَّبَعَ صِلَةَ بَنِ أَشْتِمَ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ...

(١) أَرْخَتْ لِلصَّبَا عِنَانَهُ : أَطْلَقَتْ للشَّيَابِ رَغَابَتَهُ .

(٢) أَرْمَعُوا : عَزَمُوا ، وَأَزْمَعَ عَلَى الْأَمْرِ : عَزَمَ عَلَيْهِ .

وَمَا زَالَ فِي صُحْبَتِهِ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ^(١).

* * *

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً أَنَّهُ كَانَ يَمْضِي ذَاتَ نَهَارٍ فِي ثُلَّةٍ^(٢) مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى غَايَةِ
لَهُمْ ، فَمَرَّ بِهِمْ شَابٌّ رَائِعُ الشَّبَابِ ... رَيَّانُ الصَّبَا .

فَقَدْ أَطَالَ إِزَارَهُ حَتَّى جَعَلَ يَجُرُّهُ عَلَى الْأَرْضِ جَرَّ الْخِيَلِ^(٣) ...
فَهُمْ أَصْحَابُهُ بِالشَّابِّ ...

وَأَرَادُوا أَنْ يَأْخُذُوهُ^(٤) بِالْيَسْتِيهِمْ وَأَيْدِيهِمْ أَخْذاً شَدِيداً .
فَقَالَ لَهُمْ صِلُّهُ : دَعُونِي أَكْفِكُمْ أَمْرَهُ .

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الشَّابِّ ، وَقَالَ فِي رَفْقِ الْأَبِ الشَّفِيقِ ...
وَنَبْرَةٍ^(٥) الصَّدِيقِ الْحَمِيمِ :

يَا بَنَ أَحْيِي ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً .

فَتَوَقَّفَ الْفَتَى ، وَقَالَ : وَمَا هِيَ يَا عَمُّ ؟ .

فَقَالَ : أَنْ تَرْفَعَ إِزَارَكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْقَى لِنُوبِكَ ...
وَأَنْقَى لِرَبِّكَ ...

وَأَذَنِي لِسُنَّةِ نَبِيِّكَ .

فَقَالَ الْفَتَى فِي خَجَلٍ : نَعَمْ ، وَنِعْمَةً عَيْنٍ^(٦) ...

ثُمَّ بَادَرَ وَرَفَعَ إِزَارَهُ .

(١) اليقين : الموت .

(٢) ثُلَّةٌ : جماعة .

(٤) أَنْ يَأْخُذُوهُ : أَنْ يَتَنَاولُوهُ وَيُؤْذُوهُ .

(٥) نَبْرَةُ الصَّدِيقِ الْحَمِيمِ : لَهْجَةُ الصَّدِيقِ الصَّدُوقِ .

(٦) نِعْمَةً عَيْنٍ : مَسْرُوعَيْنِ .

(٣) الْخِيَلَاءُ : الْإِعْجَابُ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّبَهُّتُ بِالشَّيْءِ .

فَقَالَ صَلِّهِ لِأَصْحَابِهِ : إِنَّ هَذَا أَمْثَلُ^(١) مِمَّا أَرَدْتُمْ ...
وَلَوْ أَنَّكُمْ صَارْتُمْ مَوْتًا وَشَأْنُكُمْ مَوْتًا لَصَارَ بَيْنَكُمْ وَشَأْنِكُمْ ...
وَأَبْقَى إِزَارَهُ مُسَدَّلاً^(٢) يَمْسَحُ بِهِ الْأَرْضَ .

* * *

وَلَقَدْ جَاءَهُ مَرَّةً فَتَى مِنْ فِتْيَانِ « الْبَصْرَةِ » فَقَالَ :
عَلِّمْنِي يَا أَبَا الصَّهْبَاءِ مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ ...
فَهَشَّ لَهُ صَلِّهِ وَبَشَّ^(٣) وَقَالَ :
لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي يَا بَنَ أَخِي مَا ضِيَاءٌ لَا أَنْسَاهُ ...
حَيْثُ كُنْتُ إِذْ ذَاكَ شَابًّا مِثْلَكَ ...
فَأَتَيْتُ مَنْ بَقِيَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقُلْتُ لَهُمْ : عَلِّمُونِي مِمَّا
عَلَّمَكُمْ اللَّهُ .

فَقَالُوا لِي : اجْعَلِ الْقُرْآنَ عِصْمَةً^(٤) نَفْسِكَ ، وَرَبِيعَ^(٥) قَلْبِكَ ...
وَأَنْتَصِخْ لَهُ ، وَأَنْصَحِ الْمُسْلِمِينَ بِهِ .
وَأَكْثِرْ مِنْ دُعَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا اسْتَطَعْتَ .
فَقَالَ لَهُ الْفَتَى : أَدْعُ لِي ، جُزِيتَ خَيْرًا .
فَقَالَ : رَغَبَكَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا يَتَّقَى ...
وَزَهَّدَكَ فِيمَا يَفْنَى ...

(١) أَمْثَلُ : أَحْسَنُ وَأَجْوَدُ .

(٢) مُسَدَّلاً : مُرْسَلًا وَمَرْخِيًا عَلَى الْأَرْضِ .

(٣) هَشَّ وَبَشَّ : تَبَسَّمَ وَأَطْلَقَ وَجْهَهُ .

(٤) عِصْمَةُ نَفْسِكَ : حِمَاةُ نَفْسِكَ .

(٥) رَبِيعُ قَلْبِكَ : مَتْعَةُ فُؤَادِكَ .

وَوَهَبَ لَكَ الْيَقِينَ^(١) الَّذِي تَسْكُنُ إِلَيْهِ النَّفُوسُ ، وَيَعُولُ عَلَيْهِ فِي
الدِّينِ ...

* * *

وَلَقَدْ كَانَتْ لِبَصَلَةَ بْنِ أَشِيمَ ابْنَةِ عَمِّ تُدْعَى « مُعَاذَةَ الْعَدَوِيَّةِ » ...
وَكَانَتْ هِيَ الْأُخْرَى تَابِعِيَّةٌ مِثْلُهُ ... حَيْثُ لَقِيتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ
رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَأَخَذْتُ عَنْهَا ...

ثُمَّ لَقِيتُهَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ^(٢) نَضَرَ اللَّهُ رُوحَهُ ، وَسَمِعَ مِنْهَا .
وَكَانَتْ تَقِيَّةً نَقِيَّةً ... عَابِدَةً زَاهِدَةً .

وَكَانَ مِنْ عَادَتِهَا إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهَا اللَّيْلُ أَنْ تَقُولَ :
قَدْ تَكُونُ هَذِهِ آخِرَ لَيْلَةٍ لِي ؛ فَلَا تَنَامُ حَتَّى تُصْبِحَ ...
وَإِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهَا النَّهَارُ أَنْ تَقُولَ :

قَدْ يَكُونُ هَذَا آخِرَ يَوْمٍ لِي ؛ فَلَا يَطْمَئِنُّ لَهَا جَنْبٌ حَتَّى تُنْسِي .
وَكَانَتْ تَلْبَسُ رَقِيقَ الثِّيَابِ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ حَتَّى يَمْنَعَهَا الْبَرْدُ مِنَ الرُّكُودِ
إِلَى النَّوْمِ ، وَالْإِنْقِطَاعِ عَنِ الْعِبَادَةِ .
وَكَانَتْ تُحْيِي اللَّيْلَ صَلَاةً وَاقْتِرَاءً^(٣) .

فَإِذَا غَلَبَتْهَا النَّعَاسُ قَامَتْ فَجَالَتْ فِي الدَّارِ وَهِيَ تَقُولُ :
أَمَامِكَ يَا نَفْسُ نَوْمٌ طَوِيلٌ ...
غَدًا تَطُولُ رَقْدُتُكَ فِي الْقَبْرِ ...

(١) اليقين : الاطمئنان .

(٢) الحسنُ البصريُّ : انظره ص ٩٥ .

(٣) الاقتراءُ : التبعيد بكثرة قراءة القرآن .

إِمَّا عَلَى حَسْرَةٍ، وَإِمَّا عَلَى سُرُورٍ.

فَاخْتَارِي يَا مُعَاذَةَ لِنَفْسِكَ الْيَوْمَ مَا تُحِبِّينَ أَنْ تَكُونِي عَلَيْهِ غَدًا.

* * *

وَلَمْ يَكُنْ صَلَٰةُ بِنِ أَشِيمَ عَلَى الرَّغَمِ مِنْ شِدَّةِ عِبَادَتِهِ، وَفَرَطِ زَهَادَتِهِ^(١)؛
لِيَزْغَبَ عَنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَٰوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَحَطَبَ ابْنَةُ عَمِّهِ «مُعَاذَةَ»
لِنَفْسِهِ.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ إِهْدَائِهَا إِلَيْهِ؛ قَامَ ابْنُ أَخٍ لَهُ بِشَانِهِ، فَمَضَى بِهِ إِلَى الْحَمَّامِ،
ثُمَّ أَدْخَلَهُ عَلَيْهَا فِي بَيْتِ مُطَيَّبٍ...
فَلَمَّا صَارَا مَعًا، قَامَ يُصَلِّي الرُّكْعَتَيْنِ الْمَسْنُونَتَيْنِ، فَقَامَتْ تُصَلِّي بِصَلَاتِهِ
وَتَقْتَدِي بِهِ.

ثُمَّ اجْتَذَبَهُمَا سِحْرُ الصَّلَاةِ؛ فَمَضَى يُصَلِّيَانِ مَعًا حَتَّى بَرَقَ^(٢) الْفَجْرُ.
فَلَمَّا كَانَتِ الْعَدَاةُ^(٣) جَاءَهُ ابْنُ أَخِيهِ وَقَالَ:
يَا عَمُّ، لَقَدْ أُهْدِيَتْ إِلَيْكَ ابْنَةُ عَمِّكَ؛ فَقُمْتُ تُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ وَتَرَكْتَهَا.
فَقَالَ: يَا بِنِ أَخِي... إِنَّكَ أَدْخَلْتَنِي أَمْسٍ بَيْتًا أَذْكُرْتَنِي بِهِ النَّارَ...
ثُمَّ أَدْخَلْتَنِي آخَرَ أَذْكُرْتَنِي بِهِ الْجَنَّةَ...
فَمَا زَالَتُ فِكْرَتِي فِيهِمَا حَتَّى أَصْبَحْتُ.
فَقَالَ الْفَتَى: وَمَا ذَاكَ يَا عَمُّ؟!.

فَقَالَ: لَقَدْ أَدْخَلْتَنِي الْحَمَّامَ؛ فَأَذْكُرْنِي حَرُّهُ حَرَّ جَهَنَّمَ...

(١) زَهَادَتِهِ: إِعْرَاضُهُ عَنِ الدُّنْيَا.

(٢) بَرَقَ الْفَجْرُ: لَمَعَ وَتَلَوَّلَ.

(٣) الْعَدَاةُ: أَوَّلُ النَّهَارِ.

ثُمَّ أَذْخَلْتَنِي بَيْتَ الْعُرْسِ ؛ فَأَذْكَرَنِي طِيبُهُ طِيبَ الْجَنَّةِ ...

* * *

وَلَمْ يَكُنْ صِلَةُ بْنُ أَشِيمٍ أَوْاهًا^(١) أَوْابًا^(٢)، عَابِدًا زَاهِدًا فَحَسِبُ ...

وَإِنَّمَا كَانَ إِلَى ذَلِكَ فَارِسًا مُجَالِدًا^(٣)، وَبَطَلًا مُجَاهِدًا ...

فَلَمَّا عَرَفَتْ سَاحَاتُ الْقِتَالِ كَمِيًّا^(٤) أَشَدَّ مِنْهُ بَأْسًا^(٥) ...

أَوْ أَقْوَى نَفْسًا ...

أَوْ أَمْضَى سَيْفًا ...

حَتَّى عَدَا قُوَادُ الْمُسْلِمِينَ يَتَنَافَسُونَ فِي اجْتِدَادِهِ إِلَيْهِمْ ...

كُلُّ مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَظْفَرَ بِهِ فِي عَسْكَرِهِ ؛ لِيَقْطِفَ بِفَضْلِ شَجَاعَتِهِ النَّصْرَ
الْكَبِيرَ الَّذِي يَطْمَحُ إِلَيْهِ .

* * *

رَوَى جَعْفَرُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ :

خَرَجْنَا فِي غَزْوَةٍ ، وَمَعَنَا صِلَةُ بْنُ أَشِيمٍ ، وَهَشَامُ بْنُ عَامِرٍ ... فَلَمَّا لَقِينَا
الْعَدُوَّ ؛ انْبَرَى صِلَةُ وَصَاحِبُهُ مِنْ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَوْغَلَا^(٦) فِي جُمُوعِ
الْأَعْدَاءِ طَعْنًا بِالرِّمَاحِ وَضَرْبًا بِالسُّيُوفِ ، حَتَّى أَثَرَا فِي مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ أُبْلَغَ
الْأَثَرِ ... فَقَالَ بَعْضُ قَادَةِ الْعَدُوِّ لِبَعْضٍ :

رَجُلَانِ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ أَنْزَلَا بِنَا هَذَا كُلَّهُ ، فَكَيْفَ لَوْ قَاتَلُونَا
جَمِيعًا ؟!

(٤) كَمِيًّا : شَجَاعًا .

(٥) بَأْسًا : قُوَّةً .

(٦) أَوْغَلَا : دَخَلَا وَأُبْعَدَا .

(١) أَوْاهًا : كَثِيرَ التَّأَوُّهِ مِنَ خَشْيَةِ اللَّهِ .

(٢) أَوْابًا : صَادِقَ التَّوْبَةِ وَالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ .

(٣) مُجَالِدًا : قَوِيًّا صَلْبًا .

انزلوا على حكم المسلمين، ودينوا^(١) لهم بالطاعة.

* * *

وفي سنة ست وسبعين للهجرة خرج صلة بن أشيم في غزاة له مع جيوش المسلمين المتوجهة إلى بلاد^(٢) ما وراء النهر، وكان بصحبته ابن له... فلما التقى الجمعان، وحمي وطيس^(٣) المعركة، قال صلة لابنه: أي بني... تقدم واجاهد أعداء الله حتى أحسبك^(٤) عند الذي لا تضيع عنده الودائع.

فانطلق الفتى إلى قتال العدو كما ينطلق السهم عن القوس، وما زال يُقاتل حتى خر صريعاً شهيداً. فما كان من أبيه إلا أن مضى على إثره، وظلَّ يُجاهد حتى ثوى^(٥) شهيداً إلى جنبه...

* * *

فلما بلغ نغيهما «البصرة» اتجهت النساء إلى «معاذة العدو» ليواسينها^(٦)... فقالت لهن: إن كنن جئن لتهنئي، فمرحبا بكن... أما إذا كنن قد جئن لغير ذلك؛ فارجعن وجزين خيراً...

* * *

(١) دينوا لهم: اخضعوا لهم.

(٢) بلاد ما وراء النهر: البلاد الواقعة اليوم في تركستان التي تحتلها روسيا، وتعدّها قطعة من بلادها.

(٣) حمي الوطيس: اشتدت الحرب.

(٤) أحسبك: أضحي بك مرضاة الله.

(٥) ثوى: مات ودفن.

(٦) يواسينها: يفرينها ويصبرنها.

نَضَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْوُجُوهَ النَّبِيلَةَ الْكَرِيمَةَ ...
وَجَزَاهَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ...
فَمَا عَرَفَ تَارِيخُ الْإِنْسَانِيَّةِ أَنْتَقَى مِنْهَا وَلَا أَنْتَقَى (*) ...

-
- (*) للاستزادة من أخبار صِلَةِ بْنِ أَشْتَمِ انظر:
- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٣٤/٧.
 - ٢ - التاريخ الكبير: ٣٢١/٤.
 - ٣ - الكنى: ١٣/٢.
 - ٤ - الجرح والتعديل: ٤٤٧/٤.
 - ٥ - حلية الأولياء: ٢٣٧/٢.
 - ٦ - أشد الغابة: ٣٤/٤.
 - ٧ - تاريخ الإسلام: ١٩/٣.
 - ٨ - البداية والنهاية: ١٥/٩.
 - ٩ - الإصابة: ٢٠٠/٢.
 - ١٠ - وانظر في طبقات خليفة، وصفة الصفوة لابن الجوزي.

عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَقَفَاتِ ثَلَاثٌ مَعَهُ

« كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَسَنَ الْخُلُقِ وَالْخُلُقِ ،
وَافِرَ الْعِلْمِ ، فَفِيهِ النَّفْسُ أَوَاهَا مُنِيْبًا »

[الدَّهْبِيُّ]

الْحَدِيثُ عَنِ الْخَلِيفَةِ التَّابِعِيِّ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَدِيثٌ ذُو شُجُونٍ ^(١) .
فَأَنْتَ لَا تَكَادُ تُلَمُّ بِصُورَةٍ مِنْ صُورِ حَيَاتِهِ الْفَدَّةِ حَتَّى تُسَلِّمَكَ ^(٢) إِلَى
أُخْرَى أَكْثَرَ بِهَاءً ...

وَأَعْنَى رُؤَا ^(٣) ...

وَأَبْعَدَ تَأْثِيرًا .

وَلَقَدْ كُنَّا رَأَيْنَا فِي الْكِتَابِ السَّابِقِ ثَلَاثًا مِنْ صُورِ حَيَاةِ خَامِسِ
الرَّاشِدِينَ ...

فَتَعَالَ نَنَعِمِ الْآنَ بِثَلَاثٍ أُخَرَ لَا تَقِلُّ عَنْ سَابِقَاتِهَا تَأْلَفًا ^(٤) وَوَضَاءً .

* * *

أَمَّا الصُّورَةُ الْأُولَى ؛ فَيَزَوِيهَا لَكَ « ذَكَيْنُ بْنُ سَعِيدِ الدَّارِمِيِّ » أَحَدُ الشُّعْرَاءِ
الرُّجَّازِ الْبُدَاةِ فَيَقُولُ :

امْتَدَحْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَوْمَ كَانَ وَالِيَا عَلَى الْمَدِينَةِ ، فَأَمَرَ لِي بِخُمْسِ
عَشْرَةِ نَاقَةٍ مِنْ كَرَائِمِ الْإِبِلِ .

(٣) رُؤَا : بهاء .

(٤) تَأْلَفًا : نورًا وتأثيرًا .

(١) ذو شجون : ذو ألوان وفنون .

(٢) تُسَلِّمَكَ : تنقلك .

فَلَمَّا صَرَنَ فِي يَدَي تَأَمَّلْتُهُنَّ ؛ فَرَاعَنِي ^(١) مَنَظَرُهُنَّ ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَمْضِيَ
 بِهِنَّ وَخَدِي فِي فِجَاجٍ ^(٢) الْأَرْضِ خَوْفًا عَلَيْهِنَّ ، وَلَمْ تَطِبْ ^(٣) نَفْسِي بِيَبِعِهِنَّ .
 وَفِيمَا أَنَا كَذَلِكَ ، قَدِمْتُ عَلَيْنَا رُفْقَةٌ تَبْتَغِي السَّفَرَ نَحْوَ دِيَارِنَا فِي
 « نَجْدٍ » .

فَسَأَلْتُهُمُ الصُّحْبَةَ ، فَقَالُوا :

مَرْحَبًا بِكَ ، وَنَحْنُ نَخْرُجُ اللَّيْلَةَ ، فَأَعِدَّ نَفْسَكَ لِلْخُرُوجِ مَعَنَا .
 فَمَضَيْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ مُودِّعًا ، فَأَلْفَيْتُ ^(٤) فِي مَجْلِسِهِ شَيْخَيْنِ
 لَا أَعْرِفُهُمَا ... فَلَمَّا هَمَمْتُ بِالْإِنْصِرَافِ ؛ التَفَتَ إِلَيَّ عُمَرُ وَقَالَ :
 يَا دُكَيْنُ ، إِنَّ لِي نَفْسًا تَوَاقَّةً ^(٥) ...

فَإِنْ عَرَفْتَ أَنَّنِي بَلَغْتُ أَكْثَرَ مِمَّا أَنَا فِيهِ الْآنَ ؛ فَأَتِنِي ، وَلَكَ مِنِّي الْبِرُّ
 وَالْإِحْسَانُ .

فَقُلْتُ : أَشْهَدُ لِي بِذَلِكَ أَتَيْهَا الْأَمِيرُ .

فَقَالَ : أَشْهَدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ .

فَقُلْتُ : وَمِنْ خَلْقِهِ .

فَقَالَ : هَذَيْنِ الشَّيْخَيْنِ .

فَأَقْبَلْتُ عَلَى أَحَدِهِمَا وَقُلْتُ :

يَا بَيَّ أَنْتَ وَأُمِّي ، قُلْ لِي مَا اسْمُكَ حَتَّى أَعْرِفَكَ ؟ .

(١) راعني : أدهشني .

(٢) فجاج الأرض : الفجاج جمع مفردة فج ، وهو الطريق الضيق بين جبلين .

(٣) لم تطب نفسي : لم تسمح نفسي ببيعهن ولم ترخ لذللك .

(٤) ألفت : وجدت . (٥) تواقفة : رغبة عالية المطامح .

فَقَالَ : سَأَلْتُ بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (١) .

فَالْتَقَيْتُ إِلَى الْأَمِيرِ وَقُلْتُ : لَقَدْ اسْتَسَمَنْتُ الشَّاهِدَ (٢) ...

ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى الشَّيْخِ الْآخِرِ ، وَقُلْتُ :

وَمَنْ أَنْتَ جُعِلْتُ فِدَاكَ ؟ .

فَقَالَ : أَبُو يَحْيَى مَوْلَى الْأَمِيرِ .

فَقُلْتُ : وَهَذَا شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهِ .

ثُمَّ حَيَّيْتُ وَانْصَرَفْتُ بِالثُّبُوقِ إِلَى دِيَارِ قَوْمِي فِي « نَجْدٍ » ...

فَرَمَى اللَّهُ فِيهِنَّ الْبَرَكَاتَةَ حَتَّى اقْتَنَيْتُ مِنْ نِتَاجِهِنَّ (٣) الْإِبِلَ وَالْعَبِيدَ .

* * *

ثُمَّ دَارَتْ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا ...

فَبَيْنَمَا أَنَا بِصَحْرَاءٍ فَلَجَ مِنْ أَرْضِ الْيَمَامَةِ فِي « نَجْدٍ » إِذَا نَاعٍ يَنْعِي أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقُلْتُ لِلنَّاعِي :

وَمَنْ الْخَلِيفَةُ الَّذِي قَامَ بَعْدَهُ ؟ .

فَقَالَ : عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

فَمَا أَنْ سَمِعْتُ مَقَالَتَهُ حَتَّى شَدَدْتُ رِحَالِي نَحْوَ بِلَادِ الشَّامِ .

فَلَمَّا بَلَغْتُ « دِمَشْقَ » لَقَيْتُ جَرِيرًا (٤) مُنْصَرِفًا مِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ ...

فَحَيَّيْتُهُ وَقُلْتُ :

(١) انظره : ص ٣٦٨ ، ٣٧٨ .

(٢) اسْتَسَمَنْتُ الشَّاهِدَ : ظفرت بشاهد مسموع الكلمة .

(٣) من نتاجهن : مما توالد منهن .

(٤) جرير : أحد الشعراء الثلاثة الكبار في العصر الأموي ، وهم جرير ، والفرزدق ، والأخطل .

مِنْ أَيْنَ يَا أَبَا حَزْرَةَ ؟ .

فَقَالَ : مِنْ عِنْدِ خَلِيفَةِ يُعْطِي الْفُقَرَاءَ ، وَيَمْنَعُ الشُّعْرَاءَ ...

إِزْجِعْ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ ؛ فَذَلِكَ خَيْرٌ لَكَ .

فَقُلْتُ : إِنَّ لِي شَأناً^(١) غَيْرَ شَأْنِكُمْ .

فَقَالَ : أَنْتَ وَمَا تُرِيدُ .

فَانْطَلَقْتُ حَتَّى بَلَغْتُ دَارَ الْخَلِيفَةِ ... فَإِذَا هُوَ فِي بَاحَةِ الدَّارِ ، وَقَدْ أَحَاطَ

بِهِ الْيَتَامَى ، وَالْأَرَامِلُ ، وَأَصْحَابُ الظُّلُمَاتِ^(٢) ...

فَلَمْ أَجِدْ سَبِيلاً إِلَيْهِ مِنْ تَرَاحِمِهِمْ^(٣) عَلَيْهِ .

فَرَفَعْتُ صَوْتِي قَائِلاً :

يَا عُمَرَ الْخَيْرَاتِ وَالْمَكَارِمِ وَعُمَرَ الدَّسَائِعِ^(٤) الْعِظَائِمِ

إِنِّي امْرَأَةٌ مِنْ قَطْنِ^(٥) مِنْ دَارِمِ^(٦) طَلَبْتُ دِينِي مِنْ أَخِي الْمَكَارِمِ

فَنَظَرَ إِلَيَّ مَوْلَاهُ أَبُو يَحْيَى نَظْرَةً طَوِيلَةً ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ عِنْدِي لِهَذَا الْبَدَوِيِّ شَهَادَةً عَلَيْكَ .

فَقَالَ عُمَرُ : أَعْرِفُهَا ...

ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ : أَدُنْ مِنِّي يَا دُكَيْنُ .

فَلَمَّا صِرْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَالَ عَلَيَّ وَقَالَ :

(١) شَأناً : منزلة ومقاماً .

(٢) أَصْحَابُ الظُّلُمَاتِ : الذين أخذت أموالهم ظلماً بغير حق .

(٣) تَرَاحِمِهِمْ : تدافعهم .

(٤) الدَّسَائِعُ : جمعٌ مفردة دَسْعَةٌ ، وهي الحفنة العظيمة التي يستعملها الأجواد .

(٥) قَطْنٌ : مدينة ذات شأن في وادي حضرموت . (٦) من دارم : بنو دارم من عرب الحجاز .

أَتَذْكُرُ مَا قُلْتُهُ لَكَ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ أَنَّ نَفْسِي مَا نَأَلْتُ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا تَأَقَّتْ (١)
إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ .

فَقُلْتُ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : وَهَا أَنَا ذَا قَدْ نِلْتُ غَايَةَ مَا فِي الدُّنْيَا ...
وَهُوَ الْمُلْكُ .

فَنَفْسِي تَتَوَقَّعُ إِلَى غَايَةِ مَا فِي الْآخِرَةِ ...
وَهُوَ الْجَنَّةُ ...

وَتَسْعَى إِلَى الْفَوْزِ بِرِضْوَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .
وَلَيْنَ كَانَ الْمُلُوكُ يَجْعَلُونَ الْمُلْكَ سَبِيلًا لِلْبُلُوغِ عِزِّ الدُّنْيَا ...
فَلَأَجْعَلَنَّهُ سَبِيلًا إِلَى بُلُوغِ عِزِّ الْآخِرَةِ ...

ثُمَّ قَالَ : يَا ذَكِينَ ، إِنِّي - وَاللَّهِ - مَا رَزَأْتُ (٢) الْمُسْلِمِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ دِرْهَمًا
وَلَا دِينَارًا مُنْذُ وَلِيْتُ هَذَا الْأَمْرَ ...

وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا أَلْفَ دِرْهَمٍ ، فَخُذْ نِصْفَهَا ... وَاتْرُكْ لِي نِصْفَهَا ...
فَأَخَذْتُ الْمَالَ الَّذِي أُعْطَانِيهِ .
فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَعْظَمَ مِنْهُ بَرَكََةً .

* * *

أَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ ؛ فَيَرْوِيهَا قَاضِي الْمَوْصِلِ « يَحْيَى بْنُ يَحْيَى الْغَسَّانِيُّ »
فَيَقُولُ :

(٢) رَزَأْتُ الْمُسْلِمِينَ : أَخَذْتُ شَيْئًا مِنْ مَالِهِمْ .

(١) تَأَقَّتْ : اشْتَاقَتْ وَرَغِبَتْ .

يَتِمَّا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَطُوفُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي أَسْوَاقِ « حِمَصَ » ^(١) لِيَتَفَقَّدَ
الْبَاعَةَ وَيَتَعَرَّفَ عَلَى الْأَسْعَارِ ، إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ عَلَيْهِ بُزْدَانٍ ^(٢) أَحْمَرَانِ قَطْرِيَّانِ
وَقَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّكَ أَمَرْتَ مَنْ كَانَ مَظْلُومًا أَنْ يَأْتِيَكَ .

فَقَالَ : نَعَمْ ...

فَقَالَ : وَهَذَا قَدْ أَتَاكَ رَجُلٌ مَظْلُومٌ بَعِيدُ الدَّارِ .

فَقَالَ عُمَرُ : وَآيْنَ أَهْلُكَ ؟ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : فِي « عَدَنَ » .

فَقَالَ عُمَرُ : وَاللَّهِ ، إِنَّ مَكَانَكَ مِنْ مَكَانِ عُمَرَ لَبَعِيدٌ .

ثُمَّ نَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ ، وَوَقَفَ أَمَامَهُ وَقَالَ : مَا ظِلَامَتُكَ ^(٣) ؟ .

فَقَالَ : ضَيْعَةٌ لِي وَتَبَّ ^(٤) عَلَيْهَا رَجُلٌ مِمَّنْ يُلُودُونَ ^(٥) بِكَ ، وَانْتَزَعَهَا

مِنِّْي .

فَكَتَبَ عُمَرُ كِتَابًا إِلَى « عُزْوَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ » وَآلِيهِ عَلَى « عَدَنَ » يَقُولُ فِيهِ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَاسْمَعْ بَيِّنَةً ^(٦) حَامِلِهِ ، فَإِنْ ثَبَتَ لَهُ

حَقٌّ ، فَادْفَعْ إِلَيْهِ حَقَّهُ .

ثُمَّ خَتَمَ الْكِتَابَ وَتَوَلَّاهُ لِلرَّجُلِ .

(١) حمص : مدينة من كبرى مدن سورية وأوسطها مكاناً ، فيها ضريح خالد بن الوليد رضي الله عنه .

(٢) بُزْدَان : مثني برد ، وهو ثوب مخطط .

(٣) ما ظلامتك : ما الظلم الذي وقع عليك ؟ . (٥) يلودون بك : ينتسبون إليك .

(٤) وتبَّ عليها : عدا عليها وامتلكها . (٦) البينة : الدليل والحجة .

فَلَمَّا هَمَّ الرَّجُلُ بِالْإِنْصِرَافِ قَالَ لَهُ عُمَرُ :

عَلَى رِسْلِكَ ^(١) ...

إِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَنَا مِنْ بَلَدٍ بَعِيدٍ ...

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّكَ اسْتَنْفَدْتَ ^(٢) فِي رِحْلَتِكَ هَذِهِ زَادًا كَثِيرًا ...

وَأَخْلَقْتَ ^(٣) ثِيَابًا جَدِيدَةً ...

وَلَعَلَّهُ نَفَقَتْ ^(٤) لَكَ دَابَّةٌ .

ثُمَّ حَسَبَ ذَلِكَ كُلَّهُ ؛ فَبَلَغَ أَحَدَ عَشَرَ دِينَارًا ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ وَقَالَ :
أَشِيعَ ذَلِكَ فِي النَّاسِ حَتَّى لَا يَتَنَاقَلَ ^(٥) مَظْلُومٌ عَنْ رَفْعِ ظُلَامَتِهِ بَعْدَ الْيَوْمِ
مَهْمَا كَانَ بَعِيدَ الدَّارِ .

* * *

وَأَمَّا الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ ؛ فَيَزُوِيهَا لَنَا الْعَابِدُ الزَّاهِدُ « زِيَادُ بْنُ مَيْسَرَةَ
الْمَحْزُومِيُّ » بِالْوَلَاءِ فَيَقُولُ :

أَرْسَلَنِي مَوْلَايَ « عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عِيَّاشٍ » مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى « دِمَشْقَ » لِلِقَاءِ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي حَوَائِجَ لَهُ .

وَكَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ عُمَرَ صِلَةٌ قَدِيمَةٌ تَرْجِعُ إِلَى عَهْدٍ وَلَايَتِهِ عَلَى الْمَدِينَةِ ،
فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا عِنْدَهُ كَاتِبٌ يَكْتُبُ لَهُ .

فَلَمَّا صِرْتُ فِي عَتَبَةِ الْحُجْرَةِ قُلْتُ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، فَقَالَ :

وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ يَا زِيَادُ .

(١) عَلَى رِسْلِكَ : عَلَى مَهْلِك ، أَيْ لَا تَفْعَلْ .

(٢) اسْتَنْفَدْتُ : أَنْفَقْتُ وَاسْتَهْلَكْتُ .

(٤) نَفَقَتِ الدَّابَّةُ : هَلَكَتْ وَمَاتَتْ .

(٥) يَتَنَاقَلُ : يَتَبَايَأُ وَيَهْمِلُ .

(٣) أَخْلَقْتُ : أَثْبَيْتُ .

ثُمَّ مَضَيْتُ نَحْوَهُ خَجَلًا لِأَنِّي لَمْ أُسَلِّمْ عَلَيْهِ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ .
فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَيْهِ قُلْتُ :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبَرَكَاتُهُ .
فَقَالَ : يَا زِيَادُ ...

إِنَّنَا لَمْ نُنْكِرْ^(١) عَلَيْكَ السَّلَامَ الْأَوَّلَ ؛ فَمَا الْحَاجَةُ إِلَيَّ الثَّانِي ؟ .
وَكَانَ كَاتِبُهُ إِذْ ذَاكَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ مِظَالِمَ^(٢) جَاءَتْهُ مِنْ « الْبَصْرَةِ » مَعَ الْبَرِيدِ
فَقَالَ لِي :

اجْلِسْ يَا زِيَادُ حَتَّى نَفْرَغَ لَكَ .
فَجَلَسْتُ عَلَى خَشَبَةِ الْبَابِ ، وَالْكَاتِبُ يَقْرَأُ عَلَيْهِ ، وَعُمَرُ يَتَنَفَّسُ
الصُّبُعَاءَ^(٣) مِنَ الْهَمِّ .

فَلَمَّا فَرَّغَ كَاتِبُهُ مِنْ قِرَاءَةِ الرِّقَاعِ^(٤) الَّتِي مَعَهُ ، وَأَنْطَلَقَ إِلَى شَأْنِهِ ، قَامَ عُمَرُ
مِنْ مَجْلِسِهِ ، وَمَشَى إِلَيَّ حَتَّى جَلَسَ بَيْنَ يَدَيَّ عِنْدَ الْبَابِ ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى
رُكْبَتَيَّ ثُمَّ قَالَ :

هَنِيئًا لَكَ يَا زِيَادُ ...
لَقَدْ اسْتَدْفَأْتَ بِمَدْرَعَتِكَ^(٥) ، وَاسْتَرَحْتَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ .
وَكَانَتْ عَلَيَّ مَدْرَعَةُ صُوفٍ .

ثُمَّ طَفِقَ يَسْأَلُنِي عَنْ صَلَحَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ : رِجَالِهِمْ ، وَنِسَائِهِمْ وَاحِدًا
وَاحِدًا ... فَمَا تَرَكَ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا سَأَلَنِي عَنْهُ ...

(١) لم نُنكر عليك : لم نأخذ عليك .

(٢) المِظَالِم : ما وقع على النَّاسِ مِنْ ظُلْمٍ .

(٤) الرِّقَاع : الرسائل .

(٣) الصُّبُعَاء : النفس الطويل من الْهَمِّ وَالْكَرْبِ .

(٥) المدرعة : جَبَّةٌ مَفْتُوحَةٌ مِنْ مَقْدَمِهَا .

ثُمَّ سَأَلَنِي عَنْ أَشْيَاءَ كَانَ أَمَرَ بِهَا بِالْمَدِينَةِ حِينَ كَانَ وَالِيًا عَلَيْنَا .
فَأَخْبَرْتُهُ عَنْ كُلِّ مَا سَأَلَ .

ثُمَّ تَنَهَّدَ ^(١) وَقَالَ :

يَا زِيَادُ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا وَقَعَ فِيهِ عُمَرُ ؟ .

فَقُلْتُ : إِنِّي لَأَرْجُو لَكَ فِي ذَلِكَ خَيْرًا وَأَجْرًا .

فَقَالَ : هَيْهَاتَ ^(٢) ...

ثُمَّ بَكَى حَتَّى رَثِيتُ لَهُ وَقُلْتُ :

إِزْفِقْ بِنَفْسِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَإِنِّي لَأَرْجُو لَكَ خَيْرًا .

فَقَالَ : مَا أَبْعَدَ مَا تَرْجُوهُ يَا زِيَادُ ...

لَقَدْ أَصْبَحَ فِي وَشْعِي أَنْ أَشْتِمَ وَلَا أُشْتَمَ ...

وَأَنْ أَضْرِبَ وَلَا أُضْرَبَ ...

وَأَنْ أُؤْذِيَ النَّاسَ وَلَا يُؤْذِنِي أَحَدٌ .

ثُمَّ بَكَى كَرَّةً ^(٣) أُخْرَى حَتَّى جَعَلْتُ أَرْضِي ^(٤) لَهُ .

وَلَقَدْ أَقَمْتُ عِنْدَهُ أَيَّامًا ثَلَاثَةً حَتَّى قَضَى مَا أَرْسَلَنِي بِهِ مَوْلَايَ .

فَلَمَّا هَمَمْتُ بِالْإِنْصِرَافِ ، زَوَّدَنِي ^(٥) بِكِتَابٍ إِلَى سَيِّدِي يَسْأَلُهُ فِيهِ : أَنْ

يَبْعَثَنِي مِنْهُ ...

ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ تَحْتِ فِرَاشِهِ عِشْرِينَ دِينَارًا ، وَقَالَ :

(١) تَنَهَّدَ : مَدَّ نَفْسَهُ حَزَنًا .

(٢) هَيْهَاتَ : اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى بَعْدَ .

(٣) كَرَّةً أُخْرَى : مَرَّةً ثَانِيَةً .

(٤) أَرْضِي لَهُ : أَرَقَ لَهُ وَأَحْزَنَ عَلَيْهِ .

(٥) زَوَّدَنِي بِكِتَابٍ : حَمَلَنِي كِتَابًا .

اسْتَعِينْ بِهَذَا الْمَالِ عَلَى دُنْيَاكَ ...
 وَلَوْ كَانَ لَكَ حَقٌّ فِي الْفَيْءِ^(١) لِأَعْطَيْنَاكَ حَقَّكَ .
 فَأَيُّتُ أَنْ آخُذَ الْمَالَ مِنْهُ .
 فَقَالَ : خُذْهُ ؛ فَمَا هُوَ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ نَفَقَتِي .
 فَاُمْتَنَعْتُ عَنْ أَخْذِهِ ...
 وَلَكِنَّهُ مَا زَالَ يَبِي حَتَّى أَخَذْتُهُ مِنْهُ ، وَمَضَيْتُ .
 فَلَمَّا بَلَغْتُ الْمَدِينَةَ ؛ دَفَعْتُ بِكِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَوْلَايَ ، فَفَضَّه^(٢)
 وَقَالَ :
 إِنَّمَا سَأَلَنِي أَنْ أُبِيعَكَ لَهُ لِيُعْتِقَكَ ...
 فَلِمَ لَا أَكُونُ أَنَا الْمُعْتَقَ لَكَ ؟!
 ثُمَّ أَعْتَقَنِي ... (*) .

(١) الفَيْءُ : الخراج .

(٢) فَضَّه : فتحه .

- (*) للاستزادة من أخبار عُثْمَرَ بْنِ عُبَيْدِ الْعَزِيزِ انظر :
- ١ - سيرة عُثْمَرَ بْنِ عُبَيْدِ الْعَزِيزِ لابن عُبَيْدِ الْحَكِيمِ .
 - ٢ - سيرة عُثْمَرَ بْنِ عُبَيْدِ الْعَزِيزِ لابن الجوزي .
 - ٣ - سيرة عُثْمَرَ بْنِ عُبَيْدِ الْعَزِيزِ للآجُزِي .
 - ٤ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٣٣٠ / ٥ .
 - ٥ - صفة الصفوة لابن الجوزي : ١١٣ / ٢ - ١٢٦ .
 - ٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان : المجلدات ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، وانظر الفهارس الملحقه بالجزء العاشر .
 - ٧ - العقد الفريد لابن عبد ربه : الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، وانظر الفهارس .
 - ٨ - البيان والتبيين للجاحظ : انظر فهارس الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ .
 - ٩ - تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر : ١١٥ / ٢ - ١٢٧ .

زَيْنُ الْعَابِدِينَ

عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ

« مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا أَفْضَلَ مِنْ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ »

[الرُّهْرِيُّ]

لَقَدْ طُوِيَتْ فِي ذَلِكَ الْعَامِ الْأَعْرُ^(١) آخِرُ صَفْحَةٍ مِنْ صَفْحَاتِ الْأَكَاْسِرَةِ .
فَلَقَدْ مَاتَ « يَزْدَجُرْدُ » آخِرُ مُلُوكِ الْفُرْسِ شَرِيذًا طَرِيدًا ...
وَسَقَطَ أَسَاوِرَتُهُ^(٢) ، وَحَرَسَهُ ، وَأَهْلُ بَيْتِهِ أَسَارَى فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ...
وَسِيقَتِ الْغَنَائِمُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ...
وَقَدْ كَانَ سَنِي^(٣) ذَلِكَ النَّصْرِ الْكَبِيرِ كَثِيرًا ، وَفِيرًا ، ثَمِينًا ، لَمْ تَشْهَدْ
الْمَدِينَةُ أَكْثَرَ مِنْهُ عَدَدًا ، وَلَا أَعْظَمَ خَطَرًا^(٤) .
وَكَانَ بَيْنَ السَّبَايَا بَنَاتُ « يَزْدَجُرْدَ » الثَّلَاثُ ...

* * *

أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى السَّبْيِ ؛ فَشَرَوْهُ فِي سَاعَاتٍ مَعْدُودَاتٍ ، وَرَدُّوا ثَمَنَهُ إِلَى
بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا بَنَاتُ كِسْرَى « يَزْدَجُرْدَ » .
وَكُنَّ مِنْ أَجْمَلِ النِّسَاءِ جَمَالًا ...
وَأَبْنَاهُنَّ طَلْعَةٌ ...
وَأَنْصَرِهِنَّ^(٥) سَبَابًا ...

(١) الْأَعْرُ : المشرق الطلعة .

(٢) أَسَاوِرَتُهُ : قاداته .

(٣) السَّيِّ : ما يستولي عليه المحاربون من النِّسَاءِ ، والرجال ، والولدان .

(٤) خَطَرٌ : رَفْعَةٌ مقام ، وعلو منزلة .

(٥) أَنْصَرِهِنَّ : أَزْهَاهُنَّ .

وَلَمَّا غَرِضَ لِلْبَيْعِ أَطْرَقَ^(١) إِلَى الْأَرْضِ ذَلَّةً ، وَمَهَانَةً ...
وَفَاضَتْ غُيُونُهُنَّ حَسْرَةً ، وَانْكَسَرَأ ...
فَرَّقَ لَهُنَّ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَتَمَنَّى لَوْ شَرَاهُنَّ مَنْ
يُحْسِنُ الْقِيَامَ عَلَيْهِنَّ .
وَلَا غَزَوْ^(٢) ، فَالرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَقُولُ :
(اَرْحَمُوا عَزِيزَ قَوْمٍ ذَلٍّ) ...
فَمَالَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَقَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...
إِنَّ بَنَاتِ الْمُلُوكِ لَا يُعَامَلْنَ مُعَامَلَةَ غَيْرِهِنَّ ...
فَقَالَ عُمَرُ : صَدَقْتَ ... وَلَكِنْ كَيْفَ ؟
فَقَالَ عَلِيٌّ : يُقَوِّمُنَ^(٣) وَيُعَالِي بِأَتْمَانِهِنَّ^(٤) ، ثُمَّ تُتْرَكُ لَهُنَّ الْحُرِّيَّةُ فِي
اخْتِيَارٍ مَنْ يَشَاءَنَّ مِنْ يَدْفَعُ الثَّمَنَ .
فَارْتَاخَ عُمَرُ لِذَلِكَ ، وَرَضِيَ بِهِ ، وَأَنْفَذَهُ ...
فَاخْتَارَتْ إِحْدَاهُنَّ « عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ » .
وَاخْتَارَتِ الثَّانِيَةُ « مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ » .
أَمَّا الثَّلَاثَةُ وَكَانَتْ تُدْعَى « شَاهِ زَنَان » ، فَاخْتَارَتْ « الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ »
سَبِطَ^(٥) الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

* * *

(١) أَطْرَقَ : خَفَضَ غُيُونَهُنَّ وَنَظَرْنَ إِلَى الْأَرْضِ .

(٢) لَا غَزَوْ : لَا عَجَبَ .

(٤) يُعَالِي بِأَتْمَانِهِنَّ : تُرْفَعُ أَشْعَارُهُنَّ .

(٥) سَبِطَ الرَّجُلُ : ابْنُ بَنْتِهِ .

(٣) يُقَوِّمُنَ : تَجْعَلُ لَهُنَّ قِيَمَةً مُحَدَّدَةً .

أَسْلَمْتُ « شَاهُ زَنَانُ » وَحَسُنَ إِسْلَامُهَا ...
فَفَازَتْ بِدِينِ الْقِيَمَةِ (١) ... وَأُعْتِقَتْ مِنَ الرِّقِّ ؛ فَصَارَتْ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ
كَانَتْ أَمَةً ، وَظَفِرَتْ بِالْحُرِّيَّةِ .
ثُمَّ إِنَّهَا رَأَتْ أَنْ تَقْطَعَ كُلَّ صِلَةٍ لَهَا بِمَاضِيهَا الْوَثْنِيِّ ، فَتَحَلَّتْ عَنْ اسْمِهَا
« شَاهُ زَنَانُ » وَمَعْنَاهُ مِلْكَةُ النِّسَاءِ ، وَأَصْبَحَتْ تُدْعَى « غَزَالَةٌ » ...
وَقَدْ سَعِدَتْ « غَزَالَةٌ » بِخَيْرِ الْأَزْوَاجِ ، وَلَاقِيَهُمْ (٢) بَيْنَاتِ الْمُلُوكِ .
وَلَمْ يَنْقُ مِنْ أَمَانِيَّتِهَا إِلَّا أَنْ تَنْعَمَ بِالْوَلَدِ .
فَأَكْرَمَهَا اللَّهُ ، فَوَلَدَتْ لِلْحُسَيْنِ غُلَامًا وَسَيِّمَ الْمُحَيَّا ، بِهَيِّ الطَّلَعَةِ ؛
فَسَمَّيْتُهُ عَلِيًّا تَيْمَنًا بِاسْمِ جَدِّهِ « عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ » رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .
لَكِنَّ فَرَحَةَ « غَزَالَةٍ » لَمْ تَدُمْ سِوَى لَحْظَاتٍ ...
ذَلِكَ لِأَنَّهَا لَبَثَتْ نِدَاءَ رَبِّهَا إِثْرَ حُمْلَى نِفَاسٍ (٣) عَاجَلَتْهَا ؛ فَلَمْ تَتْرُكْ لَهَا
فُرْصَةً لِلتَّمَتُّعِ بِمَوْلُودِهَا .

* * *

تَوَلَّتْ رِعَايَةَ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ مَوْلَاةً (٤) لَهُ ، فَأَحَبَّتْهُ فَوْقَ مَا تُحِبُّ أُمُّ
وَلَدَهَا ...

وَرَعَتْهُ أَكْثَرَ مِمَّا تَرَعَى وَالِدَةٌ وَحِيدَهَا ...
فَنَشَأَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ لَهُ أُمًّا غَيْرَهَا ...

* * *

(١) دِينِ الْقِيَمَةِ : دِينُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ .

(٢) أَلْيَقَهُمْ : أَجْدَرَهُمْ وَأَوْلَاهُمْ .

(٣) حُمْلَى النِّفَاسِ : حُمْلَى الْوِلَادَةِ الَّتِي تُصِيبُ بَعْضَ النِّسَاءِ .

(٤) مَوْلَاةٌ لَهُ : أَمَةٌ لَهُ ، وَالْمَوْلَاةُ تُطْلَقُ عَلَى السَّيِّدَةِ وَالْأَمَةِ .

مَا كَادَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ يَبْلُغُ سِنَّ التَّمْيِيزِ^(١)، حَتَّى أَقْبَلَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ
بِشَغْفٍ^(٢) وَشَوْقٍ ...

وَكَانَتْ مَدْرَسَتُهُ الْأُولَى يَتِيْتُهُ ، أَكْرَمَ بِهِ مِنْ يَتٍ ...
وَكَانَ مُعَلِّمُهُ الْأَوَّلُ وَالِدُهُ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ ، أَعْظَمَ بِهِ مِنْ مُعَلِّمٍ .
أَمَّا مَدْرَسَتُهُ الثَّانِيَةُ ، فَمَسْجِدُ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
وَكَانَ الْمَسْجِدُ النَّبَوِيُّ الشَّرِيفُ - يَوْمئِذٍ - يُمُوجُ^(٣) بِالْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنْ
صَحَابَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ، وَيَزْخَرُ^(٤) بِالطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ .
وَكَانَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ؛ يَفْتَحُونَ قُلُوبَهُمْ لِهَذِهِ الْأَكْمَامِ^(٥) الْمُزْدَهَرَةِ مِنْ
أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ ، فَيُقَرِّئُونَهُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...
وَيُفَقِّهُونَهُمْ فِيهِ ...

وَيَزُوُّونَ لَهُمْ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
وَيَقْفُونَهُمْ عَلَى مَرَامِيهِ^(٦) ...
وَيَقْصُصُونَ عَلَيْهِمْ سِيرَةَ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ وَمَغَازِيهِ^(٧) ...
وَيُنْشِدُونَهُمْ شِعْرَ الْعَرَبِ ، وَيُبْصِرُونَهُمْ بِمَوَاطِنِ جَمَالِهِ ...
وَيَمْلَأُونَ قُلُوبَهُمْ الْغَضَّةَ بِحُبِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَخَشْيَتِهِ ، وَتَقْوَاهُ ...

(١) سن التمييز : سن الوعي والقدرة على طلب العلم .

(٢) بشغف : برغبة وتعلق .

(٣) يموج : يقال ماج المكان بالناس أي تداخل بعضهم في بعض لشدة الزحام .

(٤) يزخر : يجيش .

(٥) الأكمام : جمع مفردة كم بكسر الكاف ، وهو الغلاف الذي يحيط بالزهر والورد .

(٦) مراميه : مقاصده وأهدافه .

(٧) مغازيه : غزواته .

فَإِذَا هُمْ عُلَمَاءُ عَامِلُونَ ، وَهَدَاةٌ مَهْدِيُونَ .

* * *

لَكِنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ لَمْ يَتَعَلَّقْ قَلْبُهُ بِشَيْءٍ كَمَا تَعَلَّقَ بِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ ...

وَلَمْ تَهْتَزَّ مَشَاعِرُهُ لِأَمْرِ كَمَا كَانَتْ تَهْتَزُّ لَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ^(١) ...

فَإِذَا قَرَأَ آيَةَ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ ؛ طَارَ فُؤَادُهُ شَوْقًا إِلَيْهَا ...

وَإِذَا سَمِعَ آيَةَ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ ؛ زَفَرَ ^(٢) زَفْرَةً كَأَنَّ لِهَيْبِ جَهَنَّمَ فِي أَحْسَائِهِ .

* * *

وَمَا إِنْ اكْتَمَلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ شَبَابًا وَعِلْمًا ، حَتَّى ظَفَرَ الْمُجْتَمَعُ
الْمَدَنِيُّ الْأُمْتَلُ بِفَتَى مِنْ أَعَمَقِ فِتْيَانِ بَنِي « هَاشِمٍ » عِبَادَةً وَتَقَى ...

وَأَعْظَمِهِمْ فَضْلًا وَخُلُقًا ...

وَأَكْثَرِهِمْ إِحْسَانًا وَبِرًّا ...

وَأَوْسَعِهِمْ مَعْرِفَةً وَعِلْمًا ...

فَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ عِبَادَتِهِ وَتَقْوَاهُ ؛ أَنَّهُ كَانَتْ تَأْخُذُهُ رِغْدَةٌ ^(٣) بَيْنَ وَضُوءِهِ
وَصَلَاتِهِ ، فَتَنْفُضُ جَسَدَهُ نَفْضًا .

فَلَمَّا كَلَّمَ فِي ذَلِكَ قَالَ : وَيَحْكُمُ !! ...

كَأَنَّكُمْ لَا تَذَرُونَ إِلَيَّ مَنْ أَقُومُ ...

وَلَا تَعْلَمُونَ مَنْ أُرِيدُ أَنْ أُتَاجِيَ ^(٤) ...

* * *

(١) وَغْدِهِ وَوَعِيدِهِ : الوعد بما يَشُرُّ ، والوعيد بما يخيف . (٣) رِغْدَةٌ : هزة تحصل من الانفعال .

(٢) زفر : أخرج نفسه طويلاً حاراً [متصعداً] . (٤) أُتَاجِيَ : أفضي بما في فؤادي .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ إِحْسَانِ الْفَتَى الْهَاشِمِيِّ لِعِبَادَتِهِ وَإِتْقَانِهِ لِسَعَائِرِهِ ؛ أَنْ دَعَاهُ النَّاسُ : « زَيْنُ الْعَابِدِينَ » ... حَتَّى نَسِيَ قَوْمُهُ اسْمَهُ أَوْ كَادُوا ، وَآثَرُوا^(١) لَقَبَهُ هَذَا عَلَى اسْمِهِ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ إِطَالَتِهِ لِسُجُودِهِ ، وَاسْتِغْرَاقِهِ^(٢) فِيهِ أَنْ نَادَاهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ بِالسَّجَادِ^(٣) ...

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ صَفَاءِ نَفْسِهِ وَنَقَاءِ قَلْبِهِ أَنْ نَعْتُوهُ بِالزُّكِيِّ^(٤) .

* * *

وَكَانَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُوقِنُ أَنْ مُخَّ^(٥) الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ ... وَكَانَ يَطِيبُ لَهُ الدُّعَاءُ أَكْثَرَ مَا يَطِيبُ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِاسْتَارِ الْكَعْبَةِ .

فَلَكُمْ التَّرَمُّ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ ، وَجَعَلَ يَقُولُ :

رَبِّ لَقَدْ أَذَقْتَنِي مِنْ رَحْمَتِكَ مَا أَذَقْتَنِي ...

وَأَوْلَيْتَنِي^(٦) مِنْ إِنْعَامِكَ مَا أَوْلَيْتَنِي ...

فَصِرْتُ أَذْعُوكَ آمِنًا مِنْ غَيْرِ وَجَلٍ^(٧) ...

وَأَسْأَلُكَ مُسْتَأْنِسًا مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ ...

رَبِّ إِنِّي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ تَوَسَّلَ مَنْ اشْتَدَّتْ فَاقَتُهُ^(٨) إِلَى رَحْمَتِكَ ...

وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ عَنْ أَدَاءِ حُقُوقِكَ ...

(٥) مُخَّ الْعِبَادَةِ : رُوحَهَا ، وَأَعْظَمَ مَا فِيهَا .

(٦) أَوْلَيْتَنِي : أَسْبَغْتَ عَلَيَّ وَأَقْضَيْتَ .

(٧) وَجَلٍ : خَوْفٍ .

(٨) فَاقَتُهُ : فَقْرُهُ وَاحْتِيَاجُهُ .

(١) آثَرُوا : فَضَّلُوا .

(٢) اسْتِغْرَاقُهُ : غِيْبَتُهُ عَنِ الدُّنْيَا .

(٣) السَّجَادُ : الْمَغْرَقُ فِي السُّجُودِ ، الْمَطِيلُ لَهُ .

(٤) الزُّكِيُّ : النُّفْيُ الْخَالِصُ مِنَ الذُّنُوبِ .

فَاقْبَلْ مِنِّي دُعَاءَ الْغَرِيبِ الَّذِي لَا يَجِدُ لِإِنْقَادِهِ إِلَّا أَنْتَ يَا أَكْرَمَ
الْأَكْرَمِينَ .

* * *

وَلَقَدْ رَأَاهُ « طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ » ^(١) ذَاتَ مَرَّةٍ يَقِفُ فِي ظِلَالِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ
وَهُوَ يَتَمَلَّمُ تَمَلَّمُ السَّلِيمِ ^(٢) ...

وَيَبْكِي بُكَاءَ السَّقِيمِ ... وَيَدْعُو دُعَاءَ الْمُضْطَرِّ ^(٣) .

فَوَقَفَ يَنْتَظِرُهُ حَتَّى إِذَا كَفَّ عَنْ بُكَائِهِ ، وَفَرَغَ مِنْ دُعَائِهِ ، تَقَدَّمَ نَحْوَهُ
وَقَالَ لَهُ :

يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ ^(٤) رَأَيْتُكَ عَلَى حَالِكَ هَذِهِ ، وَلَكَ فَضَائِلُ ثَلَاثِ أَرْجُو
أَنْ تُؤْمِنَكَ ^(٥) مِنَ الْخَوْفِ .

فَقَالَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ : وَمَا هُنَّ يَا طَاوُوسُ ؟ .

فَقَالَ : إِحْدَاهُنَّ أَنَّكَ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَالثَّانِيَةُ : شَفَاعَةُ جَدِّكَ لَكَ ...

وَالثَّالِثَةُ : رَحْمَةُ اللَّهِ ...

فَقَالَ لَهُ : يَا طَاوُوسُ إِنَّ انْتِسَابِي إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
لَا يُؤْمِنُنِي بَعْدَ أَنْ سَمِعْتُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

(١) طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ : انظره ص ٢٨١ ، ٢٨٩ .

(٢) السَّلِيمُ : المشرف على الهلاك ، وقد سُئِيَ بذلك تَفَاوُلًا .

(٣) المضطر : اللاجئ المحتاج .

(٤) يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ : هو ابن الحسين ، والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ .

(٥) تُؤْمِنَكَ : تحميك .

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ^(١) فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾^(٢).

وَأَمَّا شَفَاعَةُ جَدِّي لِي فَإِنَّ اللَّهَ عَلَتْ كَلِمَتُهُ يَقُولُ :

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى^(٣)﴾^(٤).

وَأَمَّا رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ يَقُولُ :

﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٥).

* * *

وَلَقَدْ أَفَاضْتُ^(٦) التَّقْوَى عَلَى زَيْنِ الْعَابِدِينَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تُفِيضَ مِنْ
شَمَائِلِ^(٧) الْفَضْلِ ، وَالتُّبْلِ ، وَالْحِلْمِ ...

حَتَّى أَزْدَانَتْ^(٨) كُتُبَ السَّيْرِ بِرَوَائِعِ أَخْبَارِهِ ، وَزَهَتْ^(٩) صَفَحَاتُهَا بِبَيِّنِ
مَوَاقِفِهِ ...

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْحَسَنُ بْنُ الْحَسَنِ قَالَ :

وَقَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ عَمِّي زَيْنِ الْعَابِدِينَ جَفْوَةً^(١٠) ؛ فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ
وَأَنَا أَتَمَيِّزُ غَيْظًا مِنْهُ - وَكَانَ مَعَ أَصْحَابِهِ فِي الْمَسْجِدِ - فَمَا تَرَكْتُ شَيْعًا إِلَّا قُلْتُهُ
لَهُ ، وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَتَكَلَّمُ ...

ثُمَّ انصَرَفْتُ ...

فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ إِذَا طَارِقٌ^(١١) عَلَى الْبَابِ يَقْرَعُهُ ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ لِأَرَى مَنْ

هُوَ ...

-
- (١) نُفِخَ فِي الصُّورِ : قامت القيامة ، والصُّور : أداة ينفخ فيها فتخرج صوتاً عالياً .
(٢) سورة المؤمنون : آية ١٠١ .
(٣) لِمَنِ ارْتَضَى : للذي قبله الله وحظي عنده .
(٤) سورة الأنبياء : آية ٢٨ .
(٥) سورة الأعراف : آية ٥٦ .
(٦) أَفَاضْتُ : أسبغت عليه .
(٧) الشَّمَائِلُ : الخلال والخصال والصفات .
(٨) أَزْدَانَتْ : تزينت .
(٩) زَهَتْ : أشرقت .
(١٠) الْجَفْوَةُ : الخصومة وسوء المعاشرة .
(١١) الطَّارِقُ : الآتي ليلاً .

فَإِذَا زَيْنُ الْعَابِدِينَ ...

فَمَا شَكَكَتْ أَنَّهُ جَاءَ يَرُدُّ إِلَيَّ الْأَذَى ... وَلَكِنَّهُ قَالَ :

يَا أَحْيِي إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا قُلْتَ لِي ؛ فَعَفَرَ اللَّهُ لِي ...

وَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ صَادِقٍ ؛ فَعَفَرَ اللَّهُ لَكَ .

ثُمَّ أَلْقَى عَلَيَّ السَّلَامَ وَمَضَى ...

فَلَحِيقْتُ بِهِ وَقُلْتُ لَهُ : لَا جَرَمَ^(١) ، لَا عُذْتُ إِلَيَّ أَمْرٍ تَكْرَهُهُ .

فَرَّقَ لِي وَقَالَ : وَأَنْتَ فِي حِلٍّ مِمَّا قُلْتَ لِي .

* * *

وَرَوَى أَحَدُ أَبْنَاءِ الْمَدِينَةِ قَالَ :

كَانَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ خَارِجًا مِنَ الْمَسْجِدِ فَبَعَثْنَاهُ ، وَجَعَلْتُ أُلُوحَ^(٢) لَهُ

بِالشَّتَمِ ، وَلَسْتُ أَذْرِي سَبَبًا لِذَلِكَ ، فَهَجَمَ عَلَيَّ النَّاسُ يُرِيدُونَ أَخْذِي^(٣) ...

وَلَوْ أَخَذُونِي لَمْ يُفْلِتُونِي حَتَّى أُحْطَمَ .

فَالْتَفَتَ إِلَيَّ النَّاسُ وَقَالَ : كُفُّوا عَنِ الرَّجُلِ ...

فَكَفُّوا عَنِّي ...

وَلَمَّا رَأَى مَا أَصَابَنِي مِنَ الدُّعْرِ^(٤) أَقْبَلَ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ الطَّلِقِ ؛ وَجَعَلَ يُؤْمِنُنِي

وَيَهْدِي مِنْ رَوْعِي^(٥) ثُمَّ قَالَ لِي :

لَقَدْ سَبَبْتَنِي بِمَا عَلِمْتَ ، وَمَا سَتَرَ عَنْكَ مِنْ أَمْرِنَا أَكْبَرُ .

ثُمَّ قَالَ لِي : أَلَاكَ حَاجَةٌ نُعِينُكَ عَلَيْهَا ؟ .

(١) لا جرم : أقسم .

(٢) ألوح له بالشتم : أشتمه وأقول له سيئ الكلام .

(٣) أخذني : التلّيت بي .

(٤) الدعر : الخوف والهلع .

(٥) روعي : فرعي .

فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ ، وَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا ...

فَلَمَّا رَأَى حَيَائِي أَلْقَى عَلَيَّ كِسَاءً^(١) كَانَ عَلَيْهِ ...

وَأَمَرَ لِي بِأَلْفِ دِرْهَمٍ .

فَجَعَلْتُ أَقُولُ كُلَّمَا رَأَيْتُهُ - بَعْدَ ذَلِكَ - أَشْهَدُ أَنَّكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَرَوَى أَحَدُ مَوَالِيهِ قَالَ :

كُنْتُ غُلَامًا لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ ، فَأَرْسَلَنِي فِي حَاجَةٍ فَأَبْطَأْتُ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا
جِئْتُهُ خَفَقَنِي^(٢) بِالسَّوِطِ ... فَبَكَيْتُ وَاسْتَدَّ غِيْظِي مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ مَا خَفَقَ أَحَدًا قَبْلِي
قَطُّ ، وَقُلْتُ لَهُ :

اللَّهُ ، اللَّهُ^(٣) ، يَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ...

أَتَسْتَحْدِثُنِي فِي حَاجَةٍ فَأَقْضِيهَا لَكَ ، ثُمَّ تَضْرِبُنِي ؟ !

فَبَكَى وَقَالَ : إِذْهَبْ إِلَى مَسْجِدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَصَلِّ
رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ قُلْ :

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ ...

فَإِذَا ذَهَبَتْ وَفَعَلْتَ ، فَأَنْتَ حُرٌّ لِرُوحِهِ اللَّهُ تَعَالَى .

فَذَهَبْتُ وَصَلَّيْتُ وَدَعَوْتُ ...

وَلَمْ أَعُدْ إِلَى دَارِهِ إِلَّا وَأَنَا حُرٌّ .

* * *

(١) كِسَاءٌ : ثَوْبًا .

(٢) خَفَقَنِي : ضَرَبَنِي ، وَالسَّوِطُ : جِلْدٌ مَضْفُورٌ .

(٣) اللَّهُ ، اللَّهُ : اتَّقِ اللَّهَ .

وَلَقَدْ وَسَّعَ^(١) اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى زَيْنِ الْعَابِدِينَ ، وَأَفَاضَ^(٢) عَلَيْهِ الرِّزْقَ
فَيْضاً ...

فَكَانَتْ لَهُ تِجَارَةٌ رَابِحَةً ...

وَزِرَاعَةٌ نَامِيَةٌ ...

وَكَانَ يَنْهَضُ بِهِمَا غِلْمَانُهُ .

وَكَانَتْ زِرَاعَتُهُ وَتِجَارَتُهُ تُدِيرَانِ^(٣) عَلَيْهِ الْخَيْرَ الْوَفِيرَ^(٤) ، وَالْمَالَ
الكَثِيرَ ...

لَكِنَّ زَيْنَ الْعَابِدِينَ لَمْ يَزُهِهُ^(٥) الْغِنَى ...

وَلَمْ يُبْطِرْهُ النُّعْمَةُ ...

وَلِئَلَّمَا جَعَلَ مَالَ الدُّنْيَا مَطِيَّةً^(٦) لِلْفُوزِ فِي الْآخِرَةِ .

فَكَانَ ثَرَاؤُهُ^(٧) نِعَمَ الثَّرَاءِ الصَّالِحِ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ .

وَكَانَ أَكْثَرَ مَا حُبِّبَ إِلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ صَدَقَةُ السَّرِّ^(٨) .

فَكَانَ إِذَا جَنَّ^(٩) اللَّيْلُ يَحْمِلُ أَكْيَاسَ الدَّقِيقِ عَلَى ظَهْرِ النَّاحِلِ^(١٠) ،
وَيَخْرُجُ بِهَا فِي عَتَمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ...

وَكَانَ يَجُوبُ^(١١) بِهَا أَحْيَاءَ الْمَدِينَةِ لِيَتَصَدَّقَ عَلَى ذَوِي الْحَاجَاتِ مِمَّنْ
لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلَّا خَافاً^(١٢) .

(١) وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ : أَعَدَّ عَلَيْهِ الْمَالَ .

(٢) أَفَاضَ : أَكْثَرَ .

(٣) تُدِيرَانِ : تَغْدِقَانِ وَتَكْتَرَانِ .

(٤) الْوَفِيرُ : الْكَثِيرُ .

(٥) لَمْ يَزُهِهُ الْغِنَى : لَمْ يَدْفَعْهُ الْمَالُ إِلَى التَّكِبَرِ

عَلَى النَّاسِ .

(٦) مَطِيَّةٌ : وَسِيلَةٌ وَمَرْكَبٌ .

(٧) ثَرَاؤُهُ : غِنَاهُ .

(٨) صَدَقَةُ السَّرِّ : الصَّدَقَةُ الَّتِي لَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ

إِلَّا اللَّهُ .

(٩) جَنَّ اللَّيْلُ : أَظْلَمَ اللَّيْلُ .

(١٠) النَّاحِلُ : الضَّعِيفُ الْهَزِيلُ .

(١١) يَجُوبُ : يَطُوفُ .

(١٢) إِلَّا خَافاً : إِلَّا خَافاً .

فَكَانَتْ جَمَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ تَعِيشُ وَهِيَ لَا تَدْرِي مِنْ أَيْنَ
يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا^(١).

فَلَمَّا مَاتَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ؛ فَقَدْ هُوَ لَا مَآ كَانَ يَأْتِيهِمْ مِنْ رِزْقٍ ، فَعَرَفُوا
مَصْدَرَهُ .

وَلَمَّا وُضِعَ رِزْنُ الْعَابِدِينَ عَلَى الْمُغْتَسِلِ ؛ نَظَرَ غَاسِلُوهُ ... فَوَجَدُوا فِي
ظَهْرِهِ آثَارَ سَوَادٍ ، فَقَالُوا : مَا هَذَا ؟ .

فَقِيلَ لَهُمْ : إِنَّهُ مِنْ آثَارِ حَمَلِ أَكْيَاسِ الدَّقِيقِ^(٢) إِلَى مَائَةِ يَتِيَتْ فِي الْمَدِينَةِ
فَقَدَّتْ عَائِلَهَا^(٣) بِفَقْدِهِ .

* * *

أَمَّا أَخْبَارُ عَتَقِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ لِلْأَرْقَاءِ فَقَدْ شَرَقَتْ بِهَا الرُّكْبَانُ^(٤)
وَعَرَبَتْ ...

لَأَنَّ صَنِيعَهُ هَذَا فَاقَ خَيَالَ الْمُتَحَيِّلِينَ ...

وَجَاوَزَ تَطَلُّعَ الْمُتَطَلِّعِينَ^(٥) .

فَكَانَ يُعْتَقُ الْعَبْدُ إِذَا أَحْسَنَ ؛ مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ ...

وَكَانَ يُعْتَقُ الْعَبْدُ إِذَا أَسَاءَ وَتَابَ ؛ جَزَاءً لَهُ عَلَى تَوْبَتِهِ ...

حَتَّى رَوَى الرَّأُوْنَ أَنَّهُ أَعْتَقَ أَلْفَ عَبْدٍ ...

وَأَنَّهُ لَمْ يَسْتَخْدِمْ أَحَدًا مِنْ غِلْمَانِهِ وَإِمَائِهِ^(٦) أَكْثَرَ مِنْ عَامٍ وَاحِدٍ .

وَكَانَ عَتَقُهُ لِعَبِيدِهِ يَقَعُ أَكْثَرَ مَا يَقَعُ لَيْلَةَ عِيدِ الْفِطْرِ ... حَيْثُ كَانَ يُحَرَّرُ

(٤) الرُّكْبَانُ : المسافرون المتنقلون في البلاد .

(٥) المتطلعين : العارفين .

(٦) الإماء : جمع أمة ، وهي المستركة من النساء .

(١) رَغَدًا : طيباً واسعاً .

(٢) الدقيق : الطحين .

(٣) عائلها : من ينفق عليها ويعولها .

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ مَا يُقَدِّرُهُ اللَّهُ عَلَى تَخْرِيرِهِ مِنْ رِقَابِ الْأَرْقَاءِ .

وَيَسْأَلُهُمْ أَنْ يَتَوَجَّهُوا إِلَى الْقَبِيلَةِ ، وَأَنْ يَقُولُوا :

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ .

ثُمَّ يُزَوِّدُهُمْ ^(١) بِمَا يَجْعَلُ عِيدَهُمْ عِيدَيْنِ ، وَفَرَحَتَهُمْ فَرَحَتَيْنِ .

* * *

وَلَقَدْ حَلَّ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ مَنْزِلَةً لَمْ يَزِدْ عَلَيْهَا إِنْسَانٌ فِي عَصْرِهِ ...

فَلَقَدْ أَحْبَبَهُ النَّاسُ أَصْدَقَ مَا يَكُونُ الْحُبُّ ...

وَأَجْلَوْهُ ^(٢) أَعْظَمَ مَا يَكُونُ الْإِجْلَالُ ...

وَتَعَلَّقُوا ^(٣) بِهِ أَشَدَّ مَا يَكُونُ التَّعَلُّقُ ...

وَاشْتَأَفُوا إِلَى رُؤْيَيْهِ أَعْمَقَ مَا يَكُونُ الشُّوقُ ...

فَكَانُوا يَتَرَقَّبُونَهُ لِيَنْعَمُوا ^(٤) بِرُؤْيَاهُ خَارِجاً مِنَ الْبَيْتِ أَوْ دَاخِلاً إِلَيْهِ ...

أَوْ غَادِياً ^(٥) إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَائِحاً مِنْهُ .

* * *

رُويَ أَنَّ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَدَّ عَلَى مَكَّةَ حَاجًّا ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ وَلِيًّا لِلْعَهْدِ ... فَأَقْبَلَ يُرِيدُ الطَّوَافَ ، وَيَتَتَبَعِي اسْتِلامَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ...

وَأَخَذَ الْجُنْدُ الْحَافُونَ ^(٦) بِهِ يُنَبِّهُونَ النَّاسَ إِلَيْهِ ، وَيُوسِّعُونَ الطَّرِيقَ لَهُ ...

لِكِنْ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ ، وَلَمْ يُوسِّعْ لَهُمْ .

(١) يُزَوِّدُهُمْ : يعطيهم ويكرمهم . (٣) تعلقوا به : أحبره ، وارتبطوا به . (٥) غادياً : عائداً .

(٢) أجلوه : عظموه . (٤) لينعموا : ليسعدوا . (٦) الحافون به : المحيطون به .

فَالْبَيْتُ يَبْتَثُ اللَّهَ ...
وَالنَّاسُ جَمِيعاً عَيْبُهُ ...
وَفِيمَا هُمْ كَذَلِكَ سُمِعَتْ أَصْوَاتُ التَّهْلِيلِ (١) وَالتَّكْبِيرِ آتِيَةً مِنْ بَعِيدٍ ...
فَأَشْرَأَبَتْ (٢) نَحْوَهَا الْأَعْنَاقُ ...
فَإِذَا رَجُلٌ فِي كَوْكَبَةٍ (٣) مِنَ النَّاسِ ، قَسِيمٌ (٤) وَسِيمٌ ، ضَامِرٌ (٥) الْجِسْمِ ،
وَضِيءُ الْوَجْهِ عَلَيْهِ سَكِينَةٌ وَوَقَارٌ ...
قَدْ مَشَى فِي إِزَارٍ وَرِدَاءٍ (٦) ...
وَبَدَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ الشُّجُودِ ...
فَجَعَلَتْ كُتْلُ النَّاسِ تَنْفَرِجُ (٧) لَهُ ، وَتَغْدُو ضُفُوفاً ضُفُوفاً ، وَهِيَ تَسْتَقْبِلُهُ
بِنَظَرَاتِ الشَّوْقِ وَالْحُبِّ حَتَّى بَلَغَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ ، وَاسْتَلَمَهُ .
وَهُنَا التَّفَتُّ أَحَدُ رِجَالِ الْحَاشِيَةِ إِلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَالَ لَهُ :
مَنْ هَذَا الَّذِي أَكْرَمَهُ النَّاسُ كُلُّ هَذَا الْإِكْرَامِ ، وَأَجْلَوْهُ كُلُّ هَذَا
الْإِجْلَالِ ؟ !

فَقَالَ هِشَامٌ : لَا أَعْرِفُهُ .

وَكَانَ « الْفَرَزْدَقُ » (٨) حَاضِراً ؛ فَقَالَ :

إِنْ كَانَ هِشَامٌ لَا يَعْرِفُهُ فَأَنَا أَعْرِفُهُ ...

(١) التهليل : قول لا إله إلا الله .
(٢) اشْرَأَبَتْ الْأَعْنَاقُ : تَطَاوَلَتِ الرِّقَابُ وَامْتَدَّتْ .
(٣) كَوْكَبَةٌ مِنَ النَّاسِ : جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ مُلْتَفَّةٌ حَوْلَهُ . (٧) تَنْفَرِجُ لَهُ : تَفْسَحُ لَهُ الطَّرِيقَ .
(٤) قَسِيمٌ وَسِيمٌ : بَهْمِي الطَّلَعَةُ حُلُو الْمَنْظَرِ .
(٥) ضَامِرُ الْجِسْمِ : رَقِيقُ الْجِسْمِ هَزِيلُهُ .
(٦) الْإِزَارُ : مَا يَسْتُرُ أَسْفَلَ الْجِسْمِ ، وَالرِدَاءُ : مَا يَسْتُرُ
الْجِزَاءَ الْأَعْلَى مِنَ الْجِسْمِ .
(٨) الْفَرَزْدَقُ : أَحَدُ شُعْرَاءِ الطَّبَقَةِ الْأُولَى فِي الْعَصْرِ
الْأُمَوِيِّ .

وَالدُّنْيَا كُلُّهَا تَعْرِفُهُ ...

هَذَا عَلَيَّ بْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ وَعَنْ جَدِّهِ .
ثُمَّ أَتَشَدَّ :

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ^(١) وَطَأْتُهُ
وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِجْلُ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ
هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ^(٢) - إِنْ كُنْتَ جَاهِلُهُ -
بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خُتِمُوا
فَلَيْسَ قَوْلُكَ « مَنْ هَذَا » بِضَائِرِهِ^(٣)
الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرَتْ وَالْعَجَمُ
كَلَّمَا يَدِيهِ غِيَاثُ^(٤) عَمَّ نَفْعُهُمَا
يَسْتَوْكِفَانِ^(٥) ، وَلَا يَعْرِوهُمَا^(٦) عَدَمُ
سَهْلُ الْخَلِيقَةِ^(٧) ، لَا تُخْشَى بَوَادِرُهُ^(٨)
يَزِينُهُ اثْنَانِ : حُسْنُ الْخُلُقِ وَالشَّيْمُ

(١) البطحاء : مكان سيل الماء ، بالقرب من البيت الحرام .

(٢) فاطمة : هي السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ . انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

(٣) بضائره : بمنقص منه .

(٤) غياث : مغدة كثيرة العطاء .

(٥) يستوكفان : يطلب الناس غيتهما .

(٦) لا يعروهما : لا يصيبهما .

(٧) الخليقة : الطبيعة .

(٨) البوادر : جمع مفردة بادرة ، وهي الحدة والقسوة .

مَا قَالَ «لَا» قَطُّ إِلَّا فِي تَشْهِيدِهِ^(١)
لَوْلَا التَّشْهِيدُ كَانَتْ لَاءُهُ نَعَمٌ
عَمَّ الْبَرِيَّةَ بِالْإِحْسَانِ فَأَنْقَشَعَتْ^(٢)
عَنْهَا الْغِيَاهِبُ^(٣) وَالْإِمْلَاقُ^(٤) وَالْعَدَمُ
إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا
إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ
يُغْضِي^(٥) حَيَاءٌ وَيُغْضِي^(٦) مِنْ مَهَابَتِهِ
فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَئِسُ
بِكُفِّهِ خَيْرُ زَانٍ رِيحُهُ عَبِقُ^(٧)
مِنْ كَفِّ أَرْوَعٍ^(٨)، فِي عِرْنِينِهِ^(٩) شَمَمٌ^(١٠)
مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ^(١١)
طَابَتْ مَعَارِسُهُ^(١٢) وَالْخَيْمُ^(١٣) وَالشَّيْمُ

* * *

-
- (١) في تشهده: في كلمة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» .
(٢) انقشعت: زالت .
(٣) الغياهب: الظلمات .
(٤) الإملاق: الفقر .
(٥) يغضي: يغض طرفه حياء .
(٦) يُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ: يغض الناس أعينهم فلا ينظرون إليه إجلالاً له .
(٧) العبق: الذي تفوح منه رائحة الطيب .
(٨) الأروع: الشهم الذكي .
(٩) الرنين: الأنف .
(١٠) الشمم: ارتفاع قصبه الأنف وحسنها، وفي عرنيه شمم: فيه عزة وأنفة .
(١١) النُّبَّة: الأصل الكريم .
(١٢) مَعَارِسُهُ: منابته وأصوله .
(١٣) الخيم: السجية والطبيعة .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ سَبْطِ رَسُولِ اللَّهِ وَأَرْضَاهُ ...
فَقَدْ كَانَ صُورَةً فَذَّةً لِلَّذِي يَخْشَى اللَّهَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ ...
وَيُضْنِي النَّفْسَ خَوْفًا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ .
وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ (*) ...

-
- (*) للاستزادة من أخبار زَيْن العابدين انظر:
- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢١١ / ٥ .
 - ٢ - تاريخ البخاري : ٢٦٦ / ٦ .
 - ٣ - الأسماء واللغات : القسم الأول من الجزء الأول : ٣٤٣ .
 - ٤ - الجرح والتعديل : القسم الأول من المجلد الثالث : ١٧٨ .
 - ٥ - المعرفة والتاريخ : ١ / ٣٦٠ ، ٥٤٤ .
 - ٦ - طبقات الفقهاء للشيرازي : ٦٣ .
 - ٧ - تاريخ ابن عساكر : ١٢ / ٥١٥ .
 - ٨ - المعارف : ٢١٤ .
 - ٩ - وفيات الأعيان : ٣ / ٢٦٦ .
 - ١٠ - تاريخ الإسلام : ٤ / ٣٤ .
 - ١١ - المعبر : ١ / ١١١ .
 - ١٢ - البداية والنهاية : ٩ / ١٠٣ .
 - ١٣ - النجوم الزاهرة : ١ / ٢٢٩ .

أَبُو مُسْلِمٍ الْحَمَوَلَانِيُّ

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثُوبٍ

« لَقَدْ تَفَانَى أَبُو مُسْلِمٍ فِي الْعِبَادَةِ حَتَّى صَارَ يَقُولُ :
لَوْ رَأَيْتُ الْجَنَّةَ عَيْنَانِ أَوْ النَّارَ عَيْنَانِ مَا كَانَ عِنْدِي مُسْتَزَادٌ »
[عُثْمَانُ بْنُ أَبِي عَاتِكَةَ]

طَارَتْ الْأَخْبَارُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ ثَقُلَ عَلَيْهِ الْمَرَضُ
بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ .
فَسَوَّلَ الشَّيْطَانُ « لِلْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ » أَنْ يَعُودَ لِلْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ ...
وَأَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، فَبَزِعُوا لِقَوْمِهِ فِي « الْيَمَنِ » أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

* * *

كَانَ « الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ » رَجُلًا شَدِيدَ الْمِرَّةِ^(١) ، قَوِيَّ الْبُنْيَةِ ، أَسْوَدَ
النَّفْسِ ، مُسْتَطِيرَ^(٢) الشَّرِّ .
قَدْ أَتَقَنَ الْكَهَانَةَ^(٣) فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَحَذَقَ الشَّعْبَةَ^(٤) عَلَى النَّاسِ ...
وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ فَصِيحَ اللِّسَانِ ، رَائِعَ الْبَيَانِ ، ذَكِيَّ الْفُؤَادِ ، قَادِرًا عَلَى
اللَّعِبِ بِعُقُولِ الْعَامَّةِ بِأَبَاطِيلِهِ ، وَكَسْبِ وَلَائِ الْخَاصَّةِ بِبَهَائِهِ وَعَطَايَاهُ .
وَكَانَ لَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ إِلَّا مُقْنَعًا^(٥) بِقِنَاعِ أَسْوَدَ ؛ لِيَحِيطَ نَفْسُهُ بِهَالَةٍ مِنَ
الْعُمُوضِ وَالْهَيْبَةِ .

* * *

(١) المِرَّةُ : الطاقة والقوة .
(٢) مستطير الشر : سريع الشر كثير السوء .
(٣) الكهانة : ادعاء معرفة الغيب .
(٤) الشَّعْبَةُ والشعوذة : خفة اليد ، وأعمال كالسحر لا حقيقة لها .
(٥) مقنعا : متغشياً بثوب يضعه على وجهه .

وَقَدْ اِنتَشَرَتْ دَعْوَةُ «الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ» فِي «الْيَمَنِ» اِنتِشَارَ النَّارِ فِي
 الْهَشِيمِ^(١) وَقَدْ سَاعَدَهُ عَلَى ذَلِكَ اِتِّبَاعُ قَبِيلَتِهِ مِنْ بَنِي «مَذْحِجٍ» لَهُ .
 وَكَانَتْ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَكْثَرِ قَبَائِلِ «الْيَمَنِ» عَدَدًا ، وَأَوْسَعَهَا نُفُوذًا ، وَأَشَدَّهَا
 بَأْسًا^(٢) .

كَمَا سَاعَدَتْهُ عَلَى ذَلِكَ قُدْرَتُهُ عَلَى اخْتِرَاعِ الْكَذِبِ وَتَلْفِيقِهِ ، وَاسْتِعَانَتُهُ
 بِالْأَذْكِيَاءِ مِنْ أَتْبَاعِهِ عَلَى ذَلِكَ .
 فَقَدْ زَعَمَ لِلنَّاسِ أَنَّ مَلَكًا مِنَ السَّمَاءِ يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ ، وَيُخْبِرُهُ
 بِالْمُعْجِزَاتِ .

وَسَلَكَ لِإِقْتِنَاعِ النَّاسِ بِصِحَّةِ زَعْمِهِ هَذَا ؛ مَسَالِكَ شَتَّى .
 فَكَانَ يَبْثُ غُيُوثَهُ^(٣) فِي كُلِّ مَكَانٍ ؛ لِيَقْفُوا لَهُ عَلَى شُئُونِ النَّاسِ
 وَشُجُونِهِمْ^(٤) ... وَيَكْشِفُوا عَنْ أَسْرَارِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ .
 وَيَنْفُذُوا إِلَى مَا يَغْتَلِجُ^(٥) فِي خَبَايَا نُفُوسِهِمْ^(٦) مِنَ الْآمَالِ وَالْآلَامِ .
 وَكَانُوا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يُغْزُونَ هَؤُلَاءِ النَّاسَ بِاللُّجُوءِ إِلَيْهِ ، وَطَلَبِ الْعَوْنِ
 مِنْهُ .

فَكَانُوا إِذَا جَاءُوهُ ، وَاجَهَ كُلَّ ذِي حَاجَةٍ بِحَاجَتِهِ ، وَبَدَأَ كُلَّ صَاحِبِ
 مُشْكِلَةٍ بِمُشْكِلَتِهِ .
 وَأَرَاهُمْ أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى مَا خَفِيَ مِنْ أَسْرَارِهِمْ ، وَاقِفٌ عَلَى مَا اسْتَتَرَ مِنْ
 خَبَايَا نُفُوسِهِمْ .

(١) الهَشِيم : النبات اليابس السريع الاشتعال .
 (٢) أشدها بأساً : أعظمها قوة .
 (٣) يَبْثُ عيونه : ينشر رقباءه .
 (٤) شُجُونُهُمْ : أحداثهم ومشكلاتهم .
 (٥) يَغْتَلِجُ : يتلطم .
 (٦) خبايا نفوسهم : خفايا نفوسهم .

وَأَتَى أَمَامَهُمْ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْغَرَائِبِ مَا يُذْهِلُ عُقُولَهُمْ، وَيُحَيِّرُ
الْبَائِبِينَ^(١).

فَمَا لَبِثَ أَنْ عَظُمَ أَمْرُهُ ...

وَاسْتَطَارَتْ^(٢) شُهْرَتُهُ ...

وَكَثُرَ أَتْبَاعُهُ ...

فَوَثَّبَ بِهِمْ عَلَى «صَنْعَاءَ»، ثُمَّ وَثَّبَ مِنْ «صَنْعَاءَ» عَلَى الْمَنَاطِقِ
الْأُخْرَى ...

حَتَّى دَانَتْ^(٣) لَهُ الْبِلَادُ الْوَاقِعَةُ مَا بَيْنَ «حَضْرَمَوْتَ» وَ«الطَّائِفِ» .

وَمَا بَيْنَ «الْبَحْرَيْنِ» وَ«عَدَنَ» ...

* * *

وَلَمَّا اسْتَبَّ^(٤) الْأَمْرُ «لِلْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ»، وَدَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ وَالْعِبَادُ .

نَشِطَ^(٥) فِي تَتَبُعِ مُعَارِضِيهِ، وَمِمَّنْ آتَاهُمُ اللَّهُ إِيْمَانًا رَاسِخًا بِدِينِهِ
الْقَوِيمِ ...

وَيَقِينًا ثَابِتًا بِنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ ﷺ ...

وَوَلَاءَ^(٦) صَادِقًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ...

وَجَهْرًا بِالْحَقِّ، وَتَصَدِّيًا^(٧) لِلْبَاطِلِ ...

فَجَعَلَ يَنْطِشُ بِهِمْ فِي قَسْوَةِ قَاسِيَةٍ، وَيُنْزِلُ بِهِمْ أَشَدَّ النِّكَالِ^(٨) .

(١) أَلْبَابُهُمْ : أَفْكَارُهُمْ .

(٢) اسْتَطَارَتْ : انْتَشَرَتْ .

(٣) دَانَتْ لَهُ : خَضَعَتْ لَهُ .

(٤) اسْتَبَّ : اسْتَقَرَّ وَاسْتَقَامَ .

(٥) نَشِطَ : خَفَّ وَأَسْرَعَ .

(٦) وَلَاءَ : انْقِيَادًا وَطَاعَةً .

(٧) تَصَدِّيًا : مُقَاوَمَةً .

(٨) النِّكَالُ : الْبَطْشُ الشَّدِيدُ .

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ هَؤُلَاءِ «عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثَوْبٍ» الْمُكَنَّى «بِأَبِي مُسْلِمٍ
الْحَوْلَانِيِّ».

* * *

كَانَ أَبُو مُسْلِمٍ الْحَوْلَانِيُّ رَجُلًا ضَلْبًا فِي دِينِهِ ...
قَوِيًّا فِي إِيْمَانِهِ ...

عَنِيْدًا فِي الْجَهْرِ بِالْحَقِّ ...
قَدْ أَخْلَصَ نَفْسَهُ لِلَّهِ ، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ...
وَرَهَدَ فِي زُخْرِفِ الْعَيْشِ وَمَتَاعِهِ ...

وَنَذَرَ حَيَاتَهُ لِبَطَاعَةِ اللَّهِ ، وَالدَّعْوَةَ إِلَيْهِ ...
وَبَاعَ الْفَانِيَةَ بِالْبَاقِيَةِ^(١) يَتَعَ السَّمَاحِ ...
فَأَحْلَهُ النَّاسُ مِنْ نُفُوسِهِمْ مَنَزَلَةً رَفِيعَةً ، وَرَأَوْا فِيهِ رَجُلًا طَاهِرَ النَّفْسِ
وَالنَّفْسِ^(٢) ، مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ عِنْدَ اللَّهِ .

* * *

وَقَدْ أَرَادَ «الْأَسْوَدُ الْعَنَسِيُّ» أَنْ يَنْطِشَ بِأَبِي مُسْلِمٍ بَطْشَةً جَبَّارَةً ...
تَبُثُّ الْهَلَعَ^(٣) وَالْجَزَعَ فِي نُفُوسٍ مُعَارِضِي دَعْوَتِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ ،
وَتَقْمَعُهُمْ^(٤) قَمْعًا .
فَأَمَرَ بِالْحَطَبِ بِأَنْ يُكَدَّسَ فِي سَاحَةِ مِنْ سَاحَاتِ «صَنْعَاءَ» ، وَأَنْ
تُضْرَمَ^(٥) فِيهِ النَّارُ ...

(١) باع الفانية بالباقية : باع الدنيا الفانية بالآخرة الباقية .

(٢) طاهر النفس والنفس : نقي الروح ، وثيق الصلة بالله .

(٣) ثُبْتُ الْهَلَعَ : تشتر العرب . (٤) تَقْمَعُهُمْ : تقهرهم وترددهم . (٥) تضرم : توقد وتشعل .

وَدَعَا النَّاسَ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا اسْتِثَابَةً^(١) فَقِيهِ «الْيَمَنِ» وَعَابِدَهَا أَبِي مُسْلِمٍ
الْخَوْلَانِيَّ ، وَإِقْرَارِهِ بِبُيُوتِهِ .

وَفِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ أَقْبَلَ «الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ» عَلَى السَّاحَةِ الَّتِي
اِكْتَضَتْ^(٢) بِالنَّاسِ اكْتِظَاطًا .

وَكَانَ يَحْفُفُ بِهِ طَوَاغِيَتُهُ^(٣) ، وَكِبَارُ أَتْبَاعِهِ .

وَيَحُوطُهُ حَرَسُهُ وَقَادَةُ جُنْدِهِ .

فَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ الْعَظِيمِ الَّذِي نُصِبَ لَهُ قُبَالَةَ^(٤) النَّارِ .

وَقِيدَ إِلَيْهِ «أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيَّ» عَلَى مَرَأَى مِنَ النَّاسِ وَمَسْمَعٍ ...

فَلَمَّا صَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِ الطَّاعِيَةُ^(٥) الْكَذَّابُ فِي خُيَلَاءٍ^(٦) ...

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى النَّارِ الَّتِي تَتَأَجَّجُ أَمَامَهُ فِي ضَرَاوَةٍ^(٧) ...

ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ : أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؟ .

قَالَ : نَعَمْ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ...

وَأَنَّهُ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ ، وَأَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ أَيْضًا .

فَقَطَّبَ^(٨) «الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ» وَجْهَهُ ، وَزَمَّ^(٩) حَاجِبَيْهِ وَقَالَ :

وَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟ .

فَقَالَ : إِنَّ فِي أُذُنَيَّ صَمَمًا ، فَلَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ ...

(١) الاستثابة : الدعوة إلى التوبة .

(٢) اِكْتَضَتْ بِالنَّاسِ : امتلأت بهم حتى ضاقت .

(٦) فِي خُيَلَاءَ : فِي عَجَبٍ وَتَكْبِيرٍ .

(٧) فِي ضَرَاوَةٍ : فِي قَسْوَةٍ وَشِدَّةٍ .

(٣) يَحْفُفُ بِهِ طَوَاغِيَتُهُ : يَحِيطُ بِهِ شَيَاطِينُهُ .

(٨) قَطَّبَ وَجْهَهُ : زَوَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ .

(٤) قُبَالَةَ النَّارِ : تَجَاهَ النَّارِ .

(٩) زَمَّ : شَدَّ .

(٥) الطَّاعِيَةُ : الْحَبَارِ الْمُتَكَبِّرِينَ مِنَ النَّاسِ .

فَقَالَ « الْأَسْوَدُ » : إِذَنْ أَقْذِفُكَ فِي هَذِهِ النَّارِ .

فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ : إِنْ فَعَلْتَ اتَّقَيْتُ بِهِذِهِ النَّارِ الَّتِي وَقُودُهَا الْحَطَبُ ؛ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

فَقَالَ « الْأَسْوَدُ » : لَنْ أَعْجَلَ عَلَيْكَ ، وَسَأُتِيحُ لَكَ الْفُرْصَةَ لِتُرَاجِعَ عَقْلَكَ .
ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ السُّؤَالَ فَقَالَ : أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؟
فَقَالَ : نَعَمْ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَهُ بِدِينِ الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَخَتَمَ بِرِسَالَتِهِ الرِّسَالَاتِ .

فَارْذَادَ « الْأَسْوَدُ » حَقًّا^(١) وَقَالَ : وَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ .
فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ : أَمَا أَخْبَرْتُكَ أَنَّ فِي أُذُنِي صَمًّا ، فَلَا أَسْمَعُ مَقَالَاتِكَ هَذِهِ ؟ !

فَاسْتَشَاطَ^(٢) « الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ » غَيْظًا مِنْ صَرَامَةِ إِجَابَتِهِ ، وَهُدِوِ نَفْسِهِ ، وَسَكِينَةِ جَوَارِحِهِ ...

وَهُمْ بِأَنْ يَأْمُرَ بِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ .
عِنْدَ ذَلِكَ تَقَدَّمَ مِنْهُ كَبِيرُ طَوَاعِيَتِهِ^(٣) وَهَمَسَ فِي أُذُنِهِ قَائِلًا :
إِنَّ الرَّجُلَ - كَمَا عَرَفْتَ - طَاهِرُ النَّفْسِ ، مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ ...
وَإِنَّ اللَّهَ لَنْ يَخْذُلَ^(٤) مُؤْمِنًا لَمْ يَخْذُلْهُ فِي سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الشَّدَةِ ...

(١) الحق : شدة الاغتياب .

(٢) استشباط غيظاً : التهب غيظاً .

(٣) طواغيته : رؤوس الضلال عنده .

(٤) لن يخذل مؤمناً : لن يترك نصرة مؤمن .

وَإِنَّكَ إِنِ أَلْقَيْتَهُ فِي النَّارِ وَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنْهَا ؛ هَدَمْتَ كُلَّ مَا بَنَيْتَهُ فِي لَحْظَةٍ
وَاحِدَةٍ .

وَدَفَعْتَ النَّاسَ إِلَى الْكُفْرِ بِبُيُوتِكَ دَفْعاً ...
وَإِنْ أَحْرَقْتَهُ النَّارُ أَزْدَادَ النَّاسُ بِهِ إِعْجَاباً ، وَلَهُ إِكْبَاراً ...
وَرَفَعُوهُ إِلَى مَصَافِّ الشُّهَدَاءِ ...

فَمَنْ عَلَيْهِ ^(١) بِإِطْلَاقِ سَرَّاجِهِ ، وَانْفِهِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَأَرِخْ مِنْهُ ، وَاسْتَرِخْ .
فَأَخَذَ « الْأَسْوَدُ » بِمَشُورَةِ طَاغُوتِهِ ، وَأَمَرَهُ بِمُعَادَرَةِ الْبِلَادِ لِسَاعَتِهِ ^(٢) .

* * *

يَمَّمُ ^(٣) أَبُو مُسْلِمٍ الْحَوْلَانِيَّ وَجْهَهُ شَطْرَ ^(٤) الْمَدِينَةِ .
وَكَانَ يُحِبُّ نَفْسَهُ بِلِقَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .
فَهُوَ قَدْ آمَنَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَكْتَحِلَ عَيْنَاهُ ^(٥) بِرُؤْيَيْهِ ، وَتَفْرَحَ نَفْسُهُ بِصُحْبَتِهِ .
لَكِنَّهُ مَا كَادَ يَنْلُغُ حَوَاشِي ^(٦) « يَثْرِبَ » حَتَّى بَلَغَهُ نَعْيُ ^(٧) النَّبِيِّ صَلَوَاتُ
اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَقِيَامُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ عَلَى خِلَافَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ .
فَحَزَنَ عَلَى وَفَاةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ حُزْناً خَالِطَ سُوءِئَاءَ قَلْبِهِ ^(٨) .

* * *

(١) فَمَنْ عَلَيْهِ : فَأَنْعَمَ عَلَيْهِ .
(٢) تشير مجل المصادر التي بين أيدينا إلى أَنَّهُ قَذَفَهُ فِي النَّارِ فَكَانَتْ بَرْداً وَسَلَاماً عَلَيْهِ كَمَا كَانَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَاللَّهُ
أَعْلَمُ .
(٣) يَمُّ وَجْهَهُ : تَوَجَّهَ .
(٤) شَطْرُ : جِهَةٌ .
(٥) تَكْتَحِلُ عَيْنَاهُ بِرُؤْيَيْهِ : يَنْعَمُ بِلِقَائِهِ وَالنَّظَرَ إِلَيْهِ .
(٦) حَوَاشِي يَثْرِبَ : أَطْرَافُ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .
(٧) نَعْيُ النَّبِيِّ ﷺ : خَبَرُ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ .
(٨) سُوءِئَاءَ قَلْبِهِ : أَعْمَاقُ فَوَادِهِ وَحُبَّةُ قَلْبِهِ .

بَلَغَ أَبُو مُسْلِمٍ « الْمَدِينَةَ » ، وَقَصَدَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .
 فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَى الْمَسْجِدِ عَقَلَ^(١) نَافَقَتُهُ قَرِيباً مِنْ بَابِهِ ، وَدَخَلَ إِلَى الْحَرَمِ
 النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ، وَسَلَّمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
 ثُمَّ وَقَفَ إِلَى سَارِيَةٍ^(٢) مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ وَجَعَلَ يُصَلِّي ...
 فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ ، تَوَجَّهَ نَحْوَهُ « عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ » حَتَّى صَارَ أَمَامَهُ
 وَقَالَ لَهُ :

مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ .

فَقَالَ : مِنْ « الْيَمَنِ » .

فَقَالَ : مَا فَعَلَ اللَّهُ بِصَاحِبِنَا الَّذِي سَجَرَ^(٣) لَهُ عَدُوُّ اللَّهِ النَّارَ ؛ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ
 مِنْهَا ؟ .

فَقَالَ : هُوَ بِخَيْرٍ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةٍ ...

فَقَالَ عُمَرُ : نَشِدْتِكَ^(٤) اللَّهُ أَلَسْتَ هُوَ ؟ ! .

فَقَالَ : بَلَى .

فَقَبَّلَ عُمَرُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ :

أَتَدْرِي مَا فَعَلَ اللَّهُ بِعَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّكَ ؟ .

فَقَالَ : كَلَّا ، فَقَدْ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ عَنِّي مُنْذُ غَادَرْتُ « الْيَمَنَ » .

فَقَالَ : قَتَلَهُ اللَّهُ عَلَى أَيْدِي الْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، وَأَدَالَ^(٥)

دَوْلَتَهُ ...

(١) عقل نافقته : ربط نافقته . (٢) السارية : الأسطرابة . (٣) سجر النار : أوقد النار . (٤) نشدتك الله : أستحلفك بالله . (٥) أدال دَوْلَتَهُ : أزال ملكه .

وَرَدَّ أَتْبَاعُهُ إِلَى دِينِ اللَّهِ ...

فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُخْرِجْنِي مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى قَرَّرْتُ^(١) عَيْنِي بِمَصْرِعِهِ ، وَعَوْدَةِ الْمُخْدُوعِينَ^(٢) مِنْ أَهْلِ « الْيَمَنِ » إِلَى أَكْنَافِ^(٣) الْإِسْلَامِ .
فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : وَأَنَا أَحْمَدُ اللَّهِ الَّذِي أَرَانِي فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ مَنْ فَعَلَ بِهِ كَمَا فَعَلَ بِخَلِيلِ الرَّحْمَنِ أَبِيْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
ثُمَّ أَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ ، وَمَضَى بِهِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ سَلَّمَ عَلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ وَبَايَعَهُ .

فَأَجْلَسَهُ الصَّدِيقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُمَرَ ...

وَطَفِقَ الشَّيْخَانِ^(٤) يَسْتَعِيدَانِ مَعَ أَبِي مُسْلِمٍ خَبْرَهُ مَعَ « الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ » .

* * *

أَقَامَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ زَمَنًا فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ؛ لَزِمَ خِلَالَهُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَصَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّيَ فِي رَوْضَتِهِ الْمُطَهَّرَةِ ، وَأَخَذَ مَا وَسِعَهُ الْأَخْذُ عَنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ مِنْ أَمْثَالِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ، وَأَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ ، وَعُבَادَةَ ابْنِ الصَّامِتِ ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، وَعَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ .
ثُمَّ بَدَأَ لِأَبِي مُسْلِمٍ أَنْ يَزْحَلَ إِلَى بِلَادِ « الشَّامِ » ، وَأَنْ يَتَّخِذَهَا لَهُ مَقَامًا .
وَكَانَتْ غَايَتُهُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا مِنَ الثُّغُورِ^(٥) الشَّامِيَّةِ ؛ لِيُشَارِكَ

(١) قَرَّتْ عَيْنِي : شَرِزْتُ .

(٢) الْمُخْدُوعِينَ : الَّذِينَ كُذِبَ عَلَيْهِمْ وَأُوهِمُوا بِأَنْ الْبَاطِلَ حَقٌّ .

(٣) أَكْنَافُ الْإِسْلَامِ : جُزُرُ الْإِسْلَامِ .

(٤) الشَّيْخَانِ : أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ .

(٥) الثُّغُورُ : الْمَنَاطِقُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَبِلَادِ أَعْدَائِهِمْ .

جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوِ «الرُّومِ» ، وَيَفُوزَ بِأَجْرِ الْمُرَابَّطَةِ^(١) فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
وَلَمَّا آتَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ «مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ» رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ ، أَكْثَرَ أَبُو مُسْلِمٍ مِنَ التَّرَدُّدِ عَلَيْهِ وَشُهُودِ مَجَالِسِهِ ... فَكَانَتْ لَهُ مَعَهُ مَوَاقِفُ
مَذْكُورَةٌ مَشْهُورَةٌ ؛ تَشْهَدُ لِلرَّجُلَيْنِ بِسُمُو الْمَنْزِلَةِ ...

وَتُنْبِئُ عَمَّا يَتَحَلَّيَانِ بِهِ مِنْ جَلِيلِ الشَّمَائِلِ^(٢) ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَبَا مُسْلِمٍ دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ فَرَأَهُ يَتَصَدَّرُ^(٣)
مَجْلِسًا مِنْ مَجَالِسِهِ الْعَامِرَةِ .

وَقَدْ حَفَّ^(٤) بِهِ رِجَالُ دَوْلَتِهِ ، وَقَادَةُ جَيْشِهِ ، وَوُجُوهُ قَوْمِهِ ...

وَرَأَى النَّاسَ يُبَالِغُونَ فِي إِعْظَامِهِ وَإِجْلَالِهِ ، فَخَشِيَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ
الْخَشْيَةِ ، وَبَادَرَهُ^(٥) قَائِلًا :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَجِيرَ^(٦) الْمُؤْمِنِينَ .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّاسُ وَقَالُوا : أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ... يَا أَبَا مُسْلِمٍ ...

فَلَمْ يَأْبَهُ^(٧) لَهُمْ وَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَجِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ النَّاسُ : أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَبَا مُسْلِمٍ .

فَلَمْ يُعْرِضْهُمْ^(٨) سَمْعَهُ ، وَلَمْ يَزِمِ نَحْوَهُمْ بِطَرَفِهِ^(٩) وَقَالَ :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَجِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

(١) المِرابطة : الملازمة لثغور الأعداء .

(٢) جليل الشمائل : سامي الصفات .

(٣) يتصدر : يجلس في الصدر .

(٤) حَفَّ به : أحاط به .

(٥) بادره : عاجله .

(٦) الأجير : الذي يخدم بأجره .

(٧) لم يأبه : لم يهتم .

(٨) لم يعرضهم سمعه : لم يستمع لكلامهم .

(٩) لم يرم نحوهم بطرفه : لم يلتفت إليهم .

فَلَمَّا هَمَّ النَّاسُ بِمُرَاجَعَتِهِ ؛ التَفَّتْ إِلَيْهِمْ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ :

دَعُوا أَبَا مُسْلِمٍ ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ .

فَمَالَ أَبُو مُسْلِمٍ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَقَالَ لَهُ :

إِنَّمَا مَثْلُكَ - بَعْدَ أَنْ وَلَّاكَ اللَّهُ أَمْرَ النَّاسِ - كَمَثَلِ مَنْ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا وَأَوْكَلَ
إِلَيْهِ أَمْرَ غَنَمِهِ ، وَجَعَلَ لَهُ الْأَجْرَ عَلَى أَنْ يُحْسِنَ رَعِيَّتَهَا ، وَيَحْفَظَ أَبْدَانَهَا ، وَيُوفِّرَ
أَصْوَابَهَا وَالْبَانَهَا ...

فَإِنْ هُوَ قَامَ بِمَا عَاهَدَ إِلَيْهِ حَتَّى تَكْبُرَ الصَّغِيرَةُ وَتَسْمَنَ الْعَجَفَاءُ^(١) وَتَصِحَّ
السَّقِيمَةُ ... أَعْطَاهُ أَجْرَهُ ، وَزَادَهُ .

وَإِنْ هُوَ لَمْ يُحْسِنِ رَعِيَّتَهَا وَغَفَلَ عَنْهَا حَتَّى هَلَكَتْ عِجَافُهَا ، وَهَزَلَتْ
سِمَانُهَا ، وَضَاعَتْ أَصْوَابُهَا وَالْبَانُهَا ... مَنَعَ الْأَجْرَ عَنْهُ ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَعَاقَبَهُ .
فَاخْتَرَوْا لِنَفْسِكَ مَا فِيهِ خَيْرُكَ وَأَجْرُكَ .

فَرَفَعَ مُعَاوِيَةُ رَأْسَهُ وَكَانَ مُطْرِقًا إِلَى الْأَرْضِ ، وَقَالَ :

جَزَاكَ اللَّهُ عَنَّا وَعَنِ الرَّعِيَّةِ خَيْرًا يَا أَبَا مُسْلِمٍ ، فَمَا عَلِمْنَاكَ إِلَّا نَاصِحًا لِلَّهِ
وَلِرَسُولِهِ ، وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

وَشَهِدَ أَبُو مُسْلِمٍ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ فِي جَامِعِ « دِمَشْق » ، وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
مُعَاوِيَةُ يَخْطُبُ النَّاسَ ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ كَرِي^(٢) نَهْرٍ « بَرْدَى » حَتَّى
تَصْفُو لَهُمْ مَشَارِبُهُ^(٣) .

فَنَادَاهُ أَبُو مُسْلِمٍ مِنْ بَيْنِ الْجُمُوعِ وَقَالَ :

(١) العجفاء : الهزيلة .

(٢) كَرَى النهر يكرهه كرىً : حفر فيه حفرة جديدة . (٣) تَصْفُو مَشَارِبُهُ : تنقي مياهه .

تَذَكَّرُوا يَا مُعَاوِيَةُ أَنَّكَ هَامَةٌ الْيَوْمِ ^(١) أَوْ غَدٍ ، وَأَنَّ دَارَكَ قَبْرٌ مِنَ الْقُبُورِ ...
فَإِنْ جِئْتَهَا بِشَيْءٍ كَانَ لَكَ فِيهَا شَيْءٌ ... وَإِنْ جِئْتَهَا صِفْرَ الْيَدَيْنِ ^(٢)
وَجَدْتَهَا قَاعاً صَفْصَفاً ^(٣) .

وَإِنِّي أُعِيدُكَ بِاللَّهِ يَا مُعَاوِيَةُ أَنْ تَظُنَّ أَنَّ الْخِلَافَةَ كَرُوِي الْأَنْهَارِ ...
وَجَمْعُ الْأَمْوَالِ ...

وَإِنَّمَا الْخِلَافَةُ عَمَلٌ بِالْحَقِّ ...
وَقَوْلٌ بِالْمَعْدَلَةِ ^(٤) ...

وَأَخَذُ لِلنَّاسِ بِمَا يُرْضِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ...
يَا مُعَاوِيَةُ ، إِنَّا لَا نُبَالِي بِكَدَرِ الْأَنْهَارِ إِذَا صَفَتْ رَأْسُ عَيْنِنَا ، وَإِنَّكَ رَأْسُ
عَيْنِنَا ...

فَاجْتَهِدْ فِي أَنْ تَظُلَّ صَافِياً ...
يَا مُعَاوِيَةُ ، إِنَّكَ إِنْ تَحِيفَ ^(٥) عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ ؛ يَذْهَبَ حَيْفُكَ عَلَيْهِ
بَعْدَ ذَلِكَ .

فَإِيَّاكَ وَالظُّلْمَ ...
فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .
فَلَمَّا انْتَهَى أَبُو مُسْلِمٍ مِنْ كَلَامِهِ ؛ نَزَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ عَنِ الْمِنْبَرِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ

(١) هامة اليوم أو غد : تموت اليوم أو غداً .

(٢) صفر اليدين : خالي اليدين من المال وغيره .

(٣) قاعاً صَفْصَفاً : خاليةً من كل شيء ، والصَّفْصَف : المستوي من الأرض .

(٤) الْمَعْدَلَةُ : الإنصاف والصدق .

(٥) حاف على فلان : ظلمه وجار عليه .

وَقَالَ : يَرْحُمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا مُسْلِمٍ ، وَيَجْزِيكَ عَنَّا خَيْرَ الْجَزَاءِ .

* * *

وَفِي مَرَّةٍ أُخْرَى صَعِدَ مُعَاوِيَةُ الْمِنْبَرَ وَشَرَعَ فِي خُطْبَتِهِ ؛ وَكَانَ قَدْ حَبَسَ
عَنِ النَّاسِ عَطَايَاهُمْ^(١) شَهْرَيْنِ .

فَنَادَاهُ أَبُو مُسْلِمٍ وَقَالَ :

يَا مُعَاوِيَةُ ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ بِمَالِكَ وَلَا مَالِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ ...
فِيَايَ حَقٌّ تَحْبِسُهُ عَنِ النَّاسِ !؟ .

فَبَدَأَ الْغَضَبُ عَلَى وَجْهِ مُعَاوِيَةَ ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَتَرَقَّبُونَ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ
مِنْهُ .

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ أَشَارَ إِلَى النَّاسِ أَنْ امْكُثُوا فِي أَمَاكِنِكُمْ
وَلَا تَبْرَحُوهَا^(٢) .

ثُمَّ نَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ وَتَوَضَّأَ ، وَأَرَأَقَ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا مِنَ الْمَاءِ .

ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ ؛ فَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَقَالَ :
إِنَّ أَبَا مُسْلِمٍ قَدْ ذَكَرَ أَنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ بِمَالِي وَلَا مَالِ أَبِي وَأُمِّي ...
وَقَدْ صَدَقَ أَبُو مُسْلِمٍ فِيمَا قَالَ ...

وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

(الْغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَانِ ...

وَالشَّيْطَانُ مِنَ النَّارِ ...

(١) حبس عطاياهم : منعه عنهم حقوقهم .

(٢) لا تبرحوها : لا تغادروها .

وَالْمَاءُ يُطْفِئُ النَّارَ ؛ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِلْ) ...
أَيُّهَا النَّاسُ : اْعُدُّوا عَلَى أُعْطِيَاتِكُمْ ^(١) عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

* * *

جَزَى اللَّهُ أَبَا مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيَّ خَيْرَ الْجَزَاءِ ؛ فَقَدْ كَانَ مَثَلًا فَدًّا فِي
الصَّدْعِ ^(٢) بِكَلِمَةِ الْحَقِّ .

وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزَلَ الرِّضَى ؛ فَقَدْ كَانَ نَمُودَجًا
رَائِعًا فِي الانْصِياعِ ^(٣) لِكَلِمَةِ الْحَقِّ .

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْقَائِلِ :

أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَبِيكُمْ ^(٤)

مِنَ اللَّؤْمِ ، أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا ^(٥) (*) .

(١) اْعُدُّوا عَلَى أُعْطِيَاتِكُمْ : انطلقوا لأخذ حقوقكم .

(٢) الصَّدْعُ بكلمة الحق : الجهر بكلمة الحق .

(٣) الانصِياع : الرجوع .

(٤) لَا أَبَا لِأَبِيكُمْ : كلمة تستعمل للذم والمدح ، وهنا استعملت للذم .

(٥) سَدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا : قوموا مقامهم وافعلوا فعلهم .

(*) للاستزادة من أخبار أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيَّ انظر :

١ - طبقات ابن سعد : ٤٤٨/٧ .

٢ - تاريخ البخاري : ٥٨/٥ .

٣ - المعرفة والتاريخ : ٣٠٨/٢ ، ٣٨٢ .

٤ - الاستيعاب : ت/ ١٤٧٩ .

٥ - تاريخ ابن عساكر : ١٢/٩ .

٦ - أشد الغابة : ١٢٩/٣ .

٧ - اللباب : ٣٩٥/١ .

٨ - تذكرة الحفاظ : ٤٩/١ .

٩ - البداية والنهاية : ١٤٦/٨ .

١٠ - الإصابة : ت/ ٦٣٠٢ .

١١ - شذرات الذهب : ٧٠/١ .

سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ حَفِيفُ الْفَارُوقِ

« كَانَ سَالِمٌ ثَقَّةً ، كَثِيرَ الْحَدِيثِ ، عَالِيًا فِي الرِّجَالِ ، وَرِعًا »

[ابنُ سَعْدٍ]

هَذَا نَحْنُ أَوْلَاءُ فِي خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ...
وَهَا هِيَ ذِي مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَعِجُ (١) بِغَنَائِمِ الْحَرْبِ الَّتِي أَحْرَزَهَا
الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَسْلَابِ « يَزْدَجُزْدَ » آخِرِ مُلُوكِ « الْفُرْسِ » ...
فَلَقَدْ كَانَ فِيهَا مِنْ تَيْجَانِ « الْأَكَايِرَةِ » الْمُرْصَعَةِ بِالْجَوْهَرِ ...
وَمَنَاطِيفِهِمُ الْمَرْصُوفَةِ بِاللُّؤْلُؤِ ...
وَسُيُوفِهِمُ الْمُحَلَّلَةِ بِالْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ ؛ مَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ عَيْنٌ مِنْ قَبْلُ ...
وَقَدْ كَانَ مَعَ هَذِهِ الْكُنُوزِ الطَّائِلَةِ الْهَائِلَةِ حَشْدٌ كَبِيرٌ مِنْ سَبَايَا (٢)
« الْفُرْسِ » ...
وَكَانَ بَيْنَهُنَّ بَنَاتُ « يَزْدَجُزْدَ » الثَّلَاثُ ...
فَشَرَاهُنَّ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِثَمَنِ جَزَلٍ (٣) ، وَعَرَضَ عَلَيْهِنَّ طَائِفَةً مِنْ
أَلَمَعَ شَبَابِ الْمُسْلِمِينَ .
فَاخْتَارَتْ إِحْدَاهُنَّ « الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ » سَبْطَ (٤) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
وَأَنْجَبَتْ لَهُ « زَيْنَ الْعَابِدِينَ » (٥) ...

(١) تعج : تقوم وتقع .

(٢) السبايا : النساء الأسيرات .

(٣) جزل : وافر كثير .

(٤) سبط الرجل : ابن بنته ، وحفيده : ابن ابنه .

(٥) زين العابدين : انظره ص .

وَاخْتَارَتِ الثَّانِيَةَ « مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ » رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ...

وَأَنْجَبَتْ لَهُ « الْقَاسِمَ » ^(١) أَحَدَ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ .

وَاخْتَارَتِ الثَّالِثَةَ « عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ » خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ ...

وَأَنْجَبَتْ لَهُ سَالِمًا حَفِيدَ الْفَارُوقِ ، وَأَشْبَهَ النَّاسَ سَمْتًا ^(٢) بِهِ ...

فَتَعَالَوْا نَقِفْ عَلَى صُورِ وَضْأَةِ مِنْ حَيَاةِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ
الْحَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَعَنْ أَبِيهِ وَعَنْ جَدِّهِ .

* * *

وُلِدَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي رِحَابِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مَثْوًى ^(٣) رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ وَدَارِ هِجْرَتِهِ .

وَفِي أَجْوَاهِهَا الْعَبَقَةُ بِطُيُوبِ الثُّبُورَةِ ، الْمُتَأَلِّقَةُ بِسَنَا الْوَحْيِ ، دَرَجَ ^(٤)
وَشَبَّ ...

وَفِي كَنَفِ أَبِيهِ الْعِبَادِ الزَّهَّادِ صَوَامِ الْهَوَاجِرِ قَوَامِ الْأَسْحَارِ تَرَبُّى ...
وَبِأَخْلَاقِهِ الْعُمَرِيَّةِ تَحَلَّقَ ...

وَلَقَدْ رَأَى فِيهِ أَبُوهُ مِنْ مَخَايِلِ ^(٥) الثَّقَلَى ، وَعَلَائِمِ الْهُدَى ... وَأَبْصَرَ فِي
سُلُوكِهِ مِنْ شَمَائِلِ الْإِسْلَامِ ، وَأَخْلَاقِ الْقُرْآنِ فَوْقَ مَا كَانَ يَرَاهُ فِي إِخْوَتِهِ ...
فَأَحْبَبَهُ حُبًّا مَلَكَ عَلَيْهِ شِغَافَ ^(٦) قَلْبِهِ ، وَخَالَطَ مِنْهُ حَبَّاتِ ^(٧) فُؤَادِهِ ، حَتَّى
لَامَهُ اللَّائِمُونَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ :

(١) القاسم بن محمد بن أبي بكر : انظره ص ٣٠٠ .

(٢) سَمْتًا : هَيْئَةً .

(٣) مَثْوًى الرَّسُولِ ﷺ : مَقَامُهُ وَمَدْفَنُهُ .

(٤) دَرَجَ : نَشَأَ وَتَرَعَرَ .

(٥) مَخَايِلِ الثَّقَلَى : مَظَاهِرُ الصَّلَاحِ .

(٦) شِغَافَ قَلْبِهِ : غَلَافَ قَلْبِهِ .

(٧) حَبَّاتِ فُؤَادِهِ : أَعْمَاقُ لُبِّهِ .

يَلُومُونَنِي فِي سَالِمٍ وَاللُّومَةُ لَهُمْ
وَجِلْدَةُ بَيْنِ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٌ
وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَبْتُئُهُ مَا وَعَاهُ صَدْرُهُ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
وَيُفَقِّهُهُ فِي دِينِ اللَّهِ ...
وَيُمَلِّئُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ...
ثُمَّ دَفَعَ بِهِ إِلَى الْحَرَمِ الشَّرِيفِ .

* * *

وَكَانَ مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا زَالَ مَعْمُورًا بِطَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ جِلَّةِ
الصَّحَابَةِ .

فَاحْتِثَمَا أَلَمَ الْفَتَى بِرُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهِ ؛ أَلْفَى أَمَامَهُ نَجْمًا فِيهِ أَلَقٌ ^(١) مِنْ
سَنَا ^(٢) النَّبُوءَةِ ، وَعَبَقَ مِنْ طُيُوبِ الرِّسَالَةِ الْغَرَاءِ .

وَأَيْتَمَا رَمَى بِطَرْفِهِ أَوْ أَلْفَى بِسَمْعِهِ ؛ أَبْصَرَ خَيْرًا وَسَمِعَ بَرًّا .
وَبِذَلِكَ أُتِيحَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ عَلَى رَأْسِهِمْ
أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ ^(٣) ...

وَأَبُو رَافِعٍ ، وَأَبُو لُبَابَةَ ، وَزَيْدُ بْنُ الْخَطَّابِ .
وَذَلِكَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى وَالِدِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ .
فَمَا لَبِثَ أَنْ غَدَا عِلْمًا مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ ...

(١) أَلَقٌ : نور وضياء .

(٢) من سَنَا النبوة : من نور النبوة .

(٣) أبو أيوب ، وأبو هريرة : انظرهما في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

وَسَيِّدًا جَلِيلًا مِنْ سَادَةِ التَّابِعِينَ ...
وَأَحَدَ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ يَفْرَعُ^(١) إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فِي دِينِهِمْ ...
وَيَأْخُذُونَ عَنْهُمْ شَرِيعَةً رَبِّهِمْ ...
وَيَزْجِعُونَ إِلَيْهِمْ فِي مُعْضَلَاتٍ^(٢) الدِّينِ وَالْدُّنْيَا .
وَكَانَ الْوَلَاةُ يَأْمُرُونَ قُضَاتَهُمْ إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِمُ الْقَضَايَا أَنْ يَدْفَعُوا بِهَا
إِلَيْهِمْ .
فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْمَسْأَلَةُ اجْتَمَعُوا جَمِيعًا وَنَظَرُوا فِيهَا ، ثُمَّ لَا يَقْضِي الْقَضَاءُ
إِلَّا بِرَأْيِهِمْ .

* * *

وَكَانَ أَسْعَدَ الْوَلَاةِ حَظًّا ، وَأَطْيَبَهُمْ أُحْذُوثَةً ، وَأَقْرَبَهُمْ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ ،
وَأَوْثَقَهُمْ عِنْدَ الْخُلَفَاءِ ؛ مَنْ يَأْخُذُ بِمَشُورَةِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَيَلْتَزِمُ بِتَوْجِيهِهِ .
أَمَّا الَّذِينَ يُخَالِفُونَ أَمْرَهُ ، فَقَدْ كَانَتِ الْمَدِينَةُ تَنْبُو^(٣) بِهِمْ ، وَلَا تَحْمَلُ
وَلَا يَتَّبِعُهُمْ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ « عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الصَّحَّاحِ » وَلِيَّ الْمَدِينَةِ فِي خِلَافَةِ يَزِيدَ بْنِ
عَبْدِ الْمَلِكِ .

وَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَنَضَرَ فِي الْجَنَّةِ رُوحَهُ ؛ قَدْ
تَرَمَّلَتْ ، وَانْقَطَعَتْ إِلَى أَوْلَادِهَا .
فَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا ابْنُ الصَّحَّاحِ وَخَطَبَهَا لِنَفْسِهِ .

(١) يُفْرَعُ إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ : يلجأ إليهم المسلمون .

(٢) المعضلات : المشكلات .

(٣) تنبو بهم : تضيق بهم ولا يجدون فيها قراراً .

فَقَالَتْ : وَاللَّهِ مَا أَبْغَيْي الزَّوْاجَ ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ عَلَى بَنِيَّ ، وَوَقَفْتُ نَفْسِي عَلَيْهِمْ .

فَجَعَلَ يُلِخُ عَلَيْهَا وَهِيَ تَحْتَالُ فِي الْإِعْتِدَارِ إِلَيْهِ ؛ مِنْ غَيْرِ مُحَاشَنَةٍ خَوْفًا مِنْ شَرِّهِ .

فَلَمَّا وَجَدَهَا تَأْبَاهُ ، قَالَ لَهَا :

وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ تَرْضَيْنِي لَكَ زَوْجًا لَا أَخُذَنَّ أَكْبَرَ بَيْتِكَ ، وَلَا أَجْلِدَنَّه بِتُهْمَةٍ شُرِبِ الْحَمْرِ .

فَاسْتَشَارَتْ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فِي أَمْرِهَا ؛ فَأَشَارَ عَلَيْهَا بِأَنْ تَكْتُبَ لِلْخَلِيفَةِ كِتَابًا تَشْكُو فِيهِ الْوَالِيَّ ، وَتَذْكُرُ قَرَابَتَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَرَحِمَتَهَا ^(١) فِي آلِ الْبَيْتِ .

فَكَتَبَتْ الْكِتَابَ ، وَأَنْفَذَتْهُ ^(٢) مَعَ رَسُولٍ لَهَا إِلَى « دِمَشَق » .

* * *

مَا كَادَ الرَّسُولُ يَمْضِي بِالْكِتَابِ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ الْخَلِيفَةِ إِلَى « ابْنِ هُرْمُز » عَامِلِهِ عَلَى دِيْوَانِ الْمَالِ فِي الْمَدِينَةِ بِأَنْ يَقْدِمَ عَلَيْهِ لِيُوفَعَ إِلَيْهِ حِسَابَهُ .

فَقَامَ « ابْنُ هُرْمُز » يُودِّعُ أَصْحَابَ الْحُقُوقِ عَلَيْهِ ؛ فَاسْتَأْذَنَ عَلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ مُودِّعًا وَقَالَ :

إِنِّي مَاضٍ إِلَى « دِمَشَق » فَهَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ ؟ .

فَقَالَتْ : نَعَمْ ...

تُخْبِرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَلْقَى مِنْ ابْنِ الضَّحَّاكِ وَمَا يَتَعَرَّضُ بِهِ إِلَيَّ ...

(٢) أَنْفَذَتْهُ : أَوْصَلَتْهُ .

(١) رَحِمَتُهَا : صِلَتُهَا .

وَأَنَّهُ لَا يَزْعَى حُرْمَةً لِّلْعَمَاءِ الْمَدِينَةِ ، وَخَاصَّةً سَالِمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ .
فَلَامَ « ابْنُ هُرْمُزٍ » نَفْسَهُ عَلَى زِيَارَتِهَا ؛ إِذْ مَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَحْمِلَ شَكْوَاهَا
مِنْ ابْنِ الضَّحَّاكِ إِلَى الْخَلِيفَةِ .

* * *

وَصَلَ « ابْنُ هُرْمُزٍ » إِلَى « دِمَشَقَ » فِي نَفْسِ الْيَوْمِ الَّذِي وَصَلَ فِيهِ الرَّسُولُ
الَّذِي يَحْمِلُ كِتَابَ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ .
فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى الْخَلِيفَةِ ، اسْتَخْبَرَهُ عَنْ أَحْوَالِ الْمَدِينَةِ ، وَسَأَلَهُ عَنْ سَالِمِ
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَصَحْبِهِ مِنَ الْفُقَهَاءِ ، وَقَالَ لَهُ :
هَلْ هُنَاكَ أَمْرٌ ذُو شَأْنٍ ^(١) جَدِيرٌ بِأَنْ يُعْلَمَ ، أَوْ خَبَرٌ ذُو خَطَرٍ ^(٢) حَرِيٌّ بِأَنْ
يُذْكَرَ ؟ .

فَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ شَيْئًا مِنْ قِصَّةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ .
وَلَمْ يُشِرْ بِشَيْءٍ إِلَى مَوْقِفِ الْوَالِي مِنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ .
وَفِيمَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَهُ يَرْفَعُ لَهُ حِسَابَهُ ، إِذْ دَخَلَ الْحَاجِبُ وَقَالَ :
أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ...

إِنَّ بِالْبَابِ رَسُولَ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ .
فَتَغَيَّرَ وَجْهُ « ابْنِ هُرْمُزٍ » وَقَالَ : أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْأَمِيرِ إِنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ
الْحُسَيْنِ حَمَلْتَنِي رِسَالَةً إِلَيْكَ ، وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ ...
فَمَا أَنْ سَمِعَ الْخَلِيفَةُ مَقَالَتَهُ حَتَّى نَزَلَ عَنْ سَرِيرِهِ وَقَالَ :
لَا أُمُّ لَكَ ...

(٢) ذو خطرٍ: ذو شأنٍ وقيمة .

(١) ذو شأنٍ: ذو أهمية .

أَلَمْ أَسْأَلْكَ عَنْ شُئُونِ الْمَدِينَةِ وَأَخْبَارِهَا ؟! ...
أَيُّكُونُ لَدَيْكَ مِثْلُ هَذَا الْخَبَرِ وَتَكْتُمُهُ عَنِّي ؟!! ...
فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ بِالنِّسْيَانِ .

ثُمَّ أُذِنَ لِلرَّسُولِ فَأُذِخِلَ عَلَيْهِ ، فَأَخَذَ الْكِتَابَ مِنْهُ وَفَضَّهْهُ ، وَجَعَلَ يَقْرُؤُهُ
وَالشَّرَرُ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَأَخَذَ يَضْرِبُ الْأَرْضَ بِخَيْزُرَانٍ كَانَ فِي يَدِهِ وَهُوَ
يَقُولُ :

لَقَدْ اجْتَرَأَ ابْنُ الضُّحَّاكِ عَلَى آلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
وَلَمْ يُصْخْ^(١) لِنُصْحِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِيهِمْ !!! ...
هَلْ مِنْ رَجُلٍ يُسْمِعُنِي صَوْتَهُ وَهُوَ يُعَذِّبُ فِي الْمَدِينَةِ ، وَأَنَا عَلَى فِرَاشِي
هَذَا فِي « دِمَشَق » ؟ [يَعْنِي صَوْتَ ابْنِ الضُّحَّاكِ] .
فَقِيلَ لَهُ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...
لَيْسَ لِلْمَدِينَةِ إِلَّا « عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ بَشِيرِ النَّضْرِيِّ » ...
فَوَلَّاهُ إِيَّاهَا ... وَهُوَ مُقِيمٌ الْآنَ فِي « الطَّائِفِ » .
فَقَالَ : نَعَمْ ... وَاللَّهِ نَعَمْ ... إِنَّهُ لَهَا ...
ثُمَّ دَعَا بِقُرْطَاسٍ وَكَتَبَ بِيَدِهِ :

مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ بَشِيرِ النَّضْرِيِّ .
السَّلَامُ عَلَيْكَ ...

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ الْمَدِينَةَ ، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَتَوَجَّهْ إِلَيْهَا ،
وَاعْزِلْ عَنْهَا ابْنَ الضُّحَّاكِ ...

(١) لَمْ يُصْخْ : لَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يَسْتَجِبْ .

وَأَفْرِضْ عَلَيْهِ غَرَامَةً مِّقْدَارُهَا أَرْبَعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ ...
وَعَذِّبْهُ حَتَّى أَسْمَعَ صَوْتَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ .

* * *

أَخَذَ صَاحِبُ الْبَرِيدِ الْكِتَابَ ، وَمَضَى يَحْتَ^(١) الْخُطَا نَحْوَ الطَّائِفِ عَنْ
طَرِيقِ الْمَدِينَةِ .

فَلَمَّا بَلَغَ الْمَدِينَةَ لَمْ يَدْخُلْ عَلَى وَالِيهَا ابْنِ الضَّحَّاكِ وَلَمْ يُسَلِّمْ عَلَيْهِ ؛
فَأَوْجَسَ^(٢) الْوَالِي خِيفَةً فِي نَفْسِهِ .

وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ وَدَّعَاهُ إِلَى بَيْتِهِ ، وَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ قُدُومِهِ فَلَمْ يَبْحَثْ لَهُ بِشَيْءٍ ؛
فَرَفَعَ ابْنُ الضَّحَّاكِ طَرَفَ فِرَاشِهِ وَقَالَ :
انْظُرْ ... فَنَظَرَ فَإِذَا كَيْسٌ قَدْ مُلِئَ دَنَانِيرَ .

فَقَالَ : هَذِهِ أَلْفُ دِينَارٍ ...

وَلَكَ عَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ إِنْ أَنْتَ أَخْبَرْتَنِي عَنْ وَجْهِتِكَ^(٣) وَمَا فِي يَدِكَ
لَأَذْفَعَنَّهَا إِلَيْكَ ، وَلَا أَكْتُمَنَّ ذَلِكَ ...

فَأَخْبَرَهُ ... فَدَفَعَ إِلَيْهِ الْمَالَ ، وَقَالَ لَهُ :

تَرَيْتَ هُنَا ثَلَاثَ لَيَالٍ حَتَّى أَصِلَ إِلَى « دِمَشْقَ » ، ثُمَّ امْضِ إِلَى مَا أُمِرْتَ

بِهِ ...

* * *

زَمَّ^(٤) ابْنُ الضَّحَّاكِ رِكَابَهُ ، وَغَادَرَ الْمَدِينَةَ لِتَوَّهِ ، وَمَضَى يَحْتَ الْمَطَايَا
نَحْوَ « دِمَشْقَ » .

(٣) وجهتك : اتجاهك ومقصداك .

(٤) زَمَّ رِكَابَهُ : سَدَّ عَلَى راحلته .

(١) يحث الخطا : يمضي مسرعاً .

(٢) أَوْجَسَ خِيفَةً : دَبَّ فِيهِ الْفَزَعُ .

فَلَمَّا بَلَغَهَا دَخَلَ عَلَى أَخِي الْخَلِيفَةِ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَكَانَ سَيِّدًا
أُرِيحِيًّا^(١) صَاحِبَ نَجْدَةٍ ...

فَلَمَّا صَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ :

أَنَا فِي جِوَارِكَ أَثِيهَا الْأَمِيرُ .

فَقَالَ : أَبَشِّرْ بِخَيْرٍ ... وَمَا شَأْنُكَ ؟!

فَقَالَ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَاقِمٌ عَلَيَّ لِهَيْئَةٍ^(٢) بَدَرْتُ مِنْي .

فَعَدَا مَسْلَمَةُ عَلَى يَزِيدَ وَقَالَ : إِنَّ لِي لَدَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَاجَةً .

فَقَالَ يَزِيدُ : كُلُّ حَاجَةٍ لَكَ مَقْضِيَّةٌ مَا لَمْ تَكُنْ فِي ابْنِ الضَّحَّاكِ .

فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا جِئْتُكَ إِلَّا مِنْ أَجْلِهِ .

فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أُغْفِيهِ أَبَدًا ...

فَقَالَ : وَمَا ذَنْبُهُ ؟!

فَقَالَ : لَقَدْ تَعَرَّضَ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ وَهَدَّذَهَا وَتَوَعَّدَهَا وَأَزْهَقَهَا ...

وَلَمْ يُصْبَحْ لِنُصْحِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي أَمْرِهَا ؛ فَهَبَّ شُعْرَاءُ الْمَدِينَةِ جَمِيعًا
يَهْجُونَهُ ... وَطَفِقَ ضُلْحَاؤُهَا وَعُلْمَاؤُهَا طُرًّا^(٣) يَعِيبُونَهُ ...

فَقَالَ مَسْلَمَةُ :

أَنْتَ وَشَأْنُكَ مَعَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ يَزِيدُ :

(١) أُرِيحِيًّا : سامي الخلق وافر المعروف .

(٢) لِهَيْئَةٍ : لَزَلَةٍ .

(٣) طُرًّا : جميعاً .

مُرُهُ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُنْفِذَ وَالِيهَا الْجَدِيدُ أَمْرِي فِيهِ ...
وَيَجْعَلُهُ عِبْرَةً^(١) لِبَعِيرِهِ مِنَ الْوَلَاةِ ...

* * *

فَرِحَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَكْثَرَ الْفَرَحِ بِوَالِيهِمُ الْجَدِيدِ .
وَسَرَّهُمْ حَزْمُهُ فِي تَنْفِيزِ أَمْرِ الْخَلِيفَةِ بِابْنِ الضَّحَّاكِ .
وَأَزْدَادُوا تَعَلُّقًا بِهِ حِينَ وَجَدُوهُ يَذْهَبُ مَذَاهِبَ الْخَيْرِ ، وَلَا يَقْطَعُ أَمْرًا مِنْ
أُمُورِهِمْ إِلَّا إِذَا اسْتَشَارَ فِيهِ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنَ أَبِي بَكْرٍ ، وَسَلَامَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عُمَرَ .

فَمَرَّحَى لِخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ...
وَتَجَلَّ لِلْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَبْدَعَ هَذِهِ الْمُثُلَ ، وَصَنَعَ أَوْلِيكَ الرِّجَالِ ...
وَالِإِلَى لِقَاءِ آخَرٍ مَعَ التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ .

(١) عِبْرَةٌ : عِظَةٌ .

سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ الْعَامِلُ

« لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي زَمَانِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَشْبَهَ مِنْهُ بِمَنْ مَضَى مِنْ
الصَّالِحِينَ فِي الزُّهْدِ ، وَالْفَضْلِ ، وَالْعَيْشِ »

[الإمام مالك]

كَانَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَبْنَاءِ ، لَكِنَّ ابْنَتَهُ
عَبْدَ اللَّهِ كَانَتْ أَشَدَّهُمْ شَبَهًا بِهِ ...

وَكَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عِدَّةٌ مِنَ الْأَبْنَاءِ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَ لِأَبِيهِ ... لَكِنَّ ابْنَتَهُ
سَالِمًا كَانَتْ أَشَدَّهُمْ شَبَهًا بِهِ .

فَتَعَالَوْا نَتَابِعْ قِصَّةَ حَيَاةِ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، حَفِيدِ الْفَارُوقِ ، وَأَشْبَهِ النَّاسِ
بِهِ خُلُقًا ، وَخِلَقَةً ، وَدِينًا ، وَسَمْتًا^(١) .

* * *

عَاشَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي رِحَابِ « طَيِّبَةِ »^(٢) الْمُطَيِّبَةِ ...

وَكَانَتْ « طَيِّبَةُ » إِذْ ذَاكَ تَرْفُلُ فِي أَثْوَابٍ مِنَ الْغِنَى وَالنُّعْمَةِ لَمْ تَشْهَدْ لَهَا
مَثِيلًا مِنْ قَبْلُ .

فَقَدْ كَانَ رِزْقُهَا يَأْتِيهَا رَغَدًا^(٣) مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَكَانَ خُلَفَاءُ بَنِي « أُمَيَّةَ »
يُتِيحُونَ لَهَا مِنْ أَسْبَابِ الثَّرَاءِ مَا لَمْ يَخْطُرُ بِبَالٍ .

لَكِنَّ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَمْ يُقْبَلْ عَلَى الدُّنْيَا كَمَا أَقْبَلَ عَلَيْهَا غَيْرُهُ ، وَلَمْ

(١) سمتاً : هيفة وسلوكاً .

(٣) رغداً : كثيراً وفيراً .

(٢) طيبة : المدينة المنورة .

يَحْفَلُ بِعَرَضِهَا الْفَانِي كَمَا حَفَلَ بِهِ سِوَاهُ ؛ وَإِنَّمَا زَهَدَ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ رَغْبَةً
بِمَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْعَاجِلَةِ رَجَاءَ الْفَوْزِ بِالْآجِلَةِ^(١) .

وَلَقَدْ جَرَّبَ خُلَفَاءُ بَنِي « أُمَيَّة » أَنْ يُغْدِقُوا^(٢) عَلَيْهِ الْخَيْرَ كَمَا أَغْدَقُوهُ عَلَى
غَيْرِهِ ؛ فَوَجَدُوهُ زَاهِداً بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ ... مُسْتَصْغِراً لِلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ...

* * *

فَفِي ذَاتِ سَنَةٍ قَدِمَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَكَّةَ حَاجًّا ... فَلَمَّا أَخَذَ
يَطُوفُ طَوَافَ الْقُدُومِ ؛ أَبْصَرَ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَجْلِسُ قُبَالَةَ الْكَعْبَةِ فِي
خُضُوعٍ ...

وَيُحَرِّكُ لِسَانَهُ بِالْقُرْآنِ فِي تَبَثُّلٍ^(٣) وَخُشُوعٍ ...

وَعَبْرَاتُهُ تَسْخُ^(٤) عَلَى خَدَّيْهِ سَخًا ، حَتَّى لَكَأَنَّ وَرَاءَ عَيْنَيْهِ بَحْراً مِنْ
الدُّمُوعِ .

فَلَمَّا فَرَغَ الْخَلِيفَةُ مِنْ طَوَافِهِ ، وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ سُنَّةَ الطَّوَافِ ؛ تَوَجَّهَ إِلَى
حَيْثُ يَجْلِسُ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ .

فَأَفْسَحَ النَّاسُ لَهُ الطَّرِيقَ حَتَّى أَخَذَ مَكَانَهُ بِجَانِبِهِ ، وَكَادَ يَمَسُّ بِرُكْبَتِهِ
رُكْبَتَهُ .

فَلَمْ يَتَنَبَّهْ لَهُ سَالِمٌ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ كَانَ مُسْتَعْرِقاً بِمَا هُوَ فِيهِ ، مُشْغُولاً
بِذِكْرِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ...

وَطَفِقَ^(٥) الْخَلِيفَةُ يَرْقُبُ سَالِمًا بِطَرْفِ خَفِيِّ ...

(١) الآجلة : الآخرة ، والعاجلة : الدنيا .

(٢) أَنْ يُغْدِقُوا عَلَيْهِ الْخَيْرَ : أَنْ يَفْرِقُوهُ بِالْمَالِ .

(٣) التَّبَثُّلُ : الانقطاع عن الدنيا .

(٤) تَسَخَّ سَخًا : تَنَصَّبَ انْتِصَاباً .

(٥) طَفِقَ : أَخَذَ .

وَيُلْتَمِسُ فُرْصَةً يَتَوَقَّفُ فِيهَا عَنِ التَّلَاوَةِ وَيَكْفُ عَنِ النَّحِيبِ (١) حَتَّى يُكَلِّمَهُ .

فَلَمَّا وَاتَتْهُ الْفُرْصَةُ مَالَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا عُمَرَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

فَقَالَ : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ :

سَلِّني حَاجَةً أَقْضِيهَا لَكَ يَا أَبَا عُمَرَ .

فَلَمْ يُجِبْهُ سَالِمٌ بِشَيْءٍ .

فَظَنَّ الْخَلِيفَةُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ ، فَمَالَ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلِ وَقَالَ :

رَغِبْتُ بِأَنْ تَسْأَلَنِي حَاجَةً لِأَقْضِيهَا لَكَ .

فَقَالَ سَالِمٌ :

وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَنْ أَكُونَ فِي بَيْتِ اللَّهِ جَلًّا وَعَزًّا ؛ ثُمَّ أَسْأَلُ أَحَدًا غَيْرَهُ .

فَحَجَلَ الْخَلِيفَةُ وَسَكَتَ ، لَكِنَّهُ ظَلَّ جَالِسًا فِي مَكَانِهِ .

فَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ، نَهَضَ سَالِمٌ يُرِيدُ الْمَضِيَّ إِلَى رَحْلِهِ .

فَلَحِقَتْ بِهِ جُمُوعُ النَّاسِ ...

هَذَا يَسْأَلُهُ عَنْ حَدِيثٍ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ .

وَذَلِكَ يَسْتَفْتِيهِ فِي أَمْرِ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ ...

وَتَالِثٌ يَسْتَنْصِحُهُ فِي شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ الدُّنْيَا ...

(١) النحيب : شدة البكاء .

وَرَابِعٌ يَطْلُبُ مِنْهُ الدُّعَاءَ ...

وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مِنْ لِحَقِّ بِهِ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ،
فَلَمَّا رَأَاهُ النَّاسُ ؛ وَسَّعُوا لَهُ حَتَّى حَاذَى مِنْكِبُهُ مَنَكِبَ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ... فَمَالَ
عَلَيْهِ وَهَمَسَ فِي أُذُنِهِ قَائِلًا :

هَا نَحْنُ أَوْلَاءُ قَدْ عَدَدْنَا خَارِجَ الْمَسْجِدِ ، فَسَلِّنِي حَاجَةً أَقْضِيهَا لَكَ .
فَقَالَ سَالِمٌ :

مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا أَمْ مِنْ حَوَائِجِ الْآخِرَةِ ؟ .
فَارْتَبَكَ الْخَلِيفَةُ وَقَالَ : بَلْ مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا ...
فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ :

إِنِّي لَمْ أَطْلُبْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا مِمَّنْ يَمْلِكُهَا ؛ فَكَيْفَ أَطْلُبُهَا مِمَّنْ
لَا يَمْلِكُهَا ؟ .

فَحَجَلَ الْخَلِيفَةُ مِنْهُ وَحَيَّاهُ ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ :
مَا أَعَزَّكُمْ آلَ الْخَطَّابِ بِالزَّهَادَةِ وَالثَّقَلَى ؟ ...
وَمَا أَغْنَاكُمْ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ !! ...
بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ آلِ يَتِ .

* * *

وَفِي السَّنَةِ الَّتِي قَبْلَهَا حَجَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ .

فَلَمَّا أَفَاضَ ^(١) النَّاسُ مِنْ « عَرَفَاتٍ » ، لَقِيَ الْخَلِيفَةُ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فِي
« الْمُرْدَلِفَةِ » وَهُوَ مُحَرِّمٌ ؛ فَحَيَّاهُ وَبَيَّاهُ ^(٢) ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى جَسَدِهِ الْمَكْشُوفِ

(١) أَفَاضَ النَّاسُ : انْطَلَقَ النَّاسُ .

(٢) بَيَّاهُ : دَعَا لَهُ قَائِلًا : رَفَعَ اللَّهُ مَقَامَكَ .

فَوَجَدَهُ تَامَّ الْبُنْيَةِ ، بَادِي الْقُوَّة ، كَأَنَّهُ بِنَاءٌ مَبْنِيٌّ ؛ فَقَالَ لَهُ :

إِنَّكَ لَحَسَنُ الْجِسْمِ يَا أَبَا عُمَرَ ...

فَمَا أَكْثَرَ طَعَامِكَ ؟!

فَقَالَ :

الْحُبْزُ وَالزَّيْتُ ...

وَإِذَا وَجَدْتُ اللَّحْمَ - أحياناً - أَكَلْتُهُ .

فَقَالَ :

الْحُبْزُ وَالزَّيْتُ ؟!

فَقَالَ : نَعَمْ .

فَقَالَ : أَوْ تَشْتَهِيهِ ؟!

فَقَالَ :

إِذَا لَمْ أَشْتَهِهِ أَتْرَكُهُ حَتَّى أَجُوعَ فَأَشْتَهِيهِ .

* * *

وَكَمَا أَشْبَهَ سَالِمٌ جَدَّهُ الْفَارُوقَ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ الدُّنْيَا وَالزَّهَادَةِ^(١)
بِعَرَضِهَا الْفَاقِي ، فَقَدْ أَشْبَهَهُ أَيْضاً فِي الْجَهْرِ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ مَهْمَا كَانَتْ ثَقِيلَةً
الْوُطْأَةِ شَدِيدَةً التَّبَعَاتِ ...

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ ذَاتَ مَرَّةٍ فِي حَاجَةٍ مِنْ حَوَائِجِ
الْمُسْلِمِينَ .

فَرَحَّبَ بِهِ الْحَجَّاجُ وَأَذْنَى^(٢) مَجْلِسَهُ وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِ ...

(٢) أذْنَى مجلسه : قَرَّبَ مجلسه منه توقيراً له وإكراماً .

(١) الزَّهَادَةُ : الزَّهْدُ .

وَفِيمَا هُمَا كَذَلِكَ ؛ إِذْ أَتَى الْحَجَّاجُ بِطَائِفَةٍ مِنَ الرِّجَالِ ؛ شُعْثُ^(١)
الشُّعُورِ ، غُبِرِ الْأَجْسَامِ ، صُفِرِ الْوُجُوهِ ، مُقَرَّنِينَ^(٢) فِي الْأَصْفَادِ .

فَالْتَفَتَ الْحَجَّاجُ إِلَى سَالِمٍ وَقَالَ :

هَؤُلَاءِ بَعَاةٌ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ؛ مُسْتَبِيحُونَ لِمَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ الدَّمَاءِ .

ثُمَّ أَعْطَاهُ سَيْفَهُ ، وَأَشَارَ إِلَى أَوْلِهِمْ وَقَالَ :

عَلَيْكَ بِهِ ...

فَقُمَ إِلَيْهِ وَاضْرِبْ عُنُقَهُ ...

فَأَخَذَ سَالِمٌ السَّيْفَ مِنْ يَدِ الْحَجَّاجِ ، وَمَضَى نَحْوَ الرَّجُلِ ... وَقَدْ
شَخَصَتْ^(٣) أَبْصَارُ الْقَوْمِ نَحْوَهُ تَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ !؟ .

فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى الرَّجُلِ قَالَ لَهُ :

أُمْسِلِمُ أَنْتَ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ ...

وَلَكِنْ مَا أَنْتَ وَهَذَا السُّؤَالُ ؟ ... اِمْضِ لِإِنْفَادِ مَا أُمِرْتُ بِهِ .

فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ : وَهَلْ صَلَّيْتَ الصُّبْحَ ؟ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : قُلْتُ لَكَ إِنِّي مُسْلِمٌ ، ثُمَّ تَسْأَلُنِي : إِنْ كُنْتُ صَلَّيْتُ

الصُّبْحَ !! ...

وَهَلْ تَنْظُرُ أَنَّ هُنَاكَ مُسْلِمًا لَا يُصَلِّي ؟ .

فَقَالَ سَالِمٌ : أَسْأَلُكَ أَصَلَّيْتَ صُبْحَ هَذَا الْيَوْمِ ؟ .

(١) شُعْثُ الشُّعُورِ : متليدي الشعر .

(٢) مقررَّين في الأصْفَادِ : مقيدَين بالحديد .

فَقَالَ الرَّجُلُ : هَذَاكَ اللَّهُ ، قُلْتُ لَكَ نَعَمْ ...
وَسَأَلْتُكَ أَنْ تُنْقِذَ مَا أَمَرَكَ بِهِ هَذَا الظَّالِمُ ، وَإِلَّا عَرَّضْتُ نَفْسَكَ لِسَخِطِهِ .
فَرَجَعَ سَالِمٌ إِلَى الْحَجَّاجِ ، وَرَمَى السَّيْفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ :
إِنَّ الرَّجُلَ يَقْرَأُ بِأَنَّهُ مُسْلِمٌ ، وَيَقُولُ : إِنَّهُ صَلَّى صُبْحَ هَذَا الْيَوْمِ ، وَقَدْ بَلَغَنِي
أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

(مَنْ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ^(١) اللَّهِ) .
وإِنِّي لَا أَقْتُلُ رَجُلًا دَخَلَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .
فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ مُغَضَّبًا :

إِنَّنَا لَا نَقْتُلُهُ عَلَى تَرْكِ صَلَاةِ الصُّبْحِ ...
وإِنَّمَا نَقْتُلُهُ لِأَنَّهُ مِمَّنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ الْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ^(٢) .
فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ :

إِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَوْلَى مِنِّي وَمِنْكَ بِدَمِ عُثْمَانَ .
فَسَكَتَ الْحَجَّاجُ ، وَلَمْ يُجِرْ^(٣) جَوَابًا .
ثُمَّ إِنَّ أَحَدَ شُهَدَاءِ الْمَجْلِسِ قَدِمَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَأَخْبَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ
بِمَا طَلَبَهُ الْحَجَّاجُ مِنْ ابْنِهِ سَالِمٍ .
فَلَمْ يَتَرَيَّثْ^(٤) حَتَّى يَسْمَعَ بَقِيَّةَ الْخَبَرِ ...

(١) ذِمَّةُ اللَّهِ : حفظ الله .

(٢) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

(٣) لم يُجِرْ جواباً : لم يرد جواباً .

(٤) لم يَتَرَيَّثْ : لم ينتظر .

وَلِئَمَّا بَادَرَ^(١) مُحَدِّثُهُ قَائِلًا : وَمَا صَنَعَ سَالِمٌ بِأَمْرِ الْحَجَّاجِ ؟ .

فَقَالَ لَهُ : صَنَعَ كَذَا وَكَذَا .

فَسُرِّي^(٢) عَنْهُ ، وَقَالَ :

كَيْسٌ كَيْسٌ ...^(٣)

عَاقِلٌ عَاقِلٌ ...

* * *

وَلَمَّا آلَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(٤) كَتَبَ إِلَى سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ابْتَلَانِي بِمَا ابْتَلَانِي بِهِ مِنْ وَلَايَةِ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنِّي وَلَا طَلَبٍ .

فَأَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي ابْتَلَانِي بِهَذَا الْأَمْرِ أَنْ يُعِينَنِي عَلَيْهِ .

فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا ؛ فَابْعَثْ لِي بِكُتُبِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَأَقْضِيَّتِهِ ، وَسِيرَتِهِ ...

فَإِنِّي عَازِمٌ عَلَى أَنْ أَتَّبِعَ سِيرَتَهُ ...

وَأَسِيرَ عَلَى نَهْجِهِ إِنْ أَعَانَنِي اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ... وَالسَّلَامُ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَالِمٌ يَقُولُ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَقَدْ جَاءَنِي كِتَابُكَ الَّذِي تَذَكُرُ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ابْتَلَاكَ

(١) بَادَرَ : عاجل .

(٢) سُرِّي عَنْهُ : زال عنه الهم والقلق .

(٣) كَيْسٌ كَيْسٌ : حسن حسن .

(٤) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ .

بِإِمْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ مِنْكَ وَلَا مَشُورَةٍ ... وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَسِيرَ بِسِيرَةِ
عُمَرَ ...

فَلَا يَفْتُكَ أَنْتَ فِي زَمَانٍ غَيْرِ زَمَانِ عُمَرَ ...
وَأَنْتَ لَيْسَ فِي رِجَالِكَ مَنْ يُمَاتِلُ رِجَالَ عُمَرَ ...
وَلَكِنْ اعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ نَوَيْتَ الْحَقَّ وَأَرَدْتَهُ ؛ أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَتَاكَ (١) لَكَ
عُمَالًا يَقُومُونَ لَكَ بِهِ ...
وَأَتَاكَ بِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ (٢) ...

فَإِنَّ عَوْنَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ عَلَى قَدَرِ نِيَّتِهِ ...
فَمَنْ تَمَّتْ نِيَّتُهُ فِي الْخَيْرِ تَمَّ عَوْنُ اللَّهِ لَهُ ، وَمَنْ قَصُرَتْ نِيَّتُهُ نَقَصَ مِنْ
عَوْنِ اللَّهِ لَهُ بِقَدَرِ نَقْصِ نِيَّتِهِ ...

وَإِذَا نَازَعْتَكَ (٣) نَفْسُكَ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا لَا يُوضِي اللَّهَ جَلًّا وَعِزًّا ؛ فَادْكُزْ مَنْ
كَانَ قَبْلَكَ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الَّذِينَ سَبَقُوكَ إِلَى الرَّحِيلِ عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا ...
وَسَلْ نَفْسَكَ كَيْفَ تَفْقَّاتُ (٤) عُيُونُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَشْهَدُونَ بِهَا اللَّذَاتِ ،
وَكَيْفَ تَمَزَّقَتْ بُطُونُهُمُ الَّتِي كَانُوا لَا يَشْبَعُونَ بِهَا مِنَ الشَّهَوَاتِ ...
وَكَيْفَ صَارُوا جِيفًا لَوْ تُرِكَتْ إِلَى جَانِبِ مَسَاكِينِنَا وَلَمْ تُوَارِهَا آكَامُ (٥)
الْأَرْضِ ؛ لَضَجَجْنَا مِنْ رِيحِهَا .
وَلَمَسْنَا الضُّرَّ مِنْ نَتْنِهَا .

وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ .

* * *

(١) أتاح : هَيَأَ . (٣) نازعتك : مالت بك .
(٢) لا تحتسب : لا تظن ولا تتربص . (٤) تفقأت : قُلِعت . (٥) الآكام : المرتفعات .

وَبَعْدُ ...

فَقَدْ عَاشَ سَالِمٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عُمُرًا مَدِيدًا حَافِلًا^(١)
بِالتَّقَى ...

عَامِرًا بِالْهُدَى ...

أَعْرَضَ فِيهِ عَنْ زِينَةِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا ...

وَأَقْبَلَ خِلَالَهُ عَلَى مَا يُرِضِي اللَّهَ ...

فَأَكَلَ مِنَ الطَّعَامِ مَا غُلِظَ ...

وَلَيْسَ مِنَ الثِّيَابِ مَا خَشُنَ ...

وَعَزَا «الرُّومَ» مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ جُنْدِيًّا ...

وَقَضَى حَوَائِجَ الْمُسْلِمِينَ، وَحَنَا^(٢) عَلَيْهِمْ حُنُوءَ الْأُمّهَاتِ ...

فَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ^(٣) سَنَةً سِتٍّ وَمِائَةً لِلْهِجْرَةِ؛ اِزْتَجَبَ الْمَدِينَةَ حُزْنًا
عَلَيْهِ ...

وَتَرَكَ نَعْيُهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ لَوْعَةً ...

وَعَلَى كُلِّ حَدٍّ دَمْعَةٌ ...

وَهَبَّ النَّاسُ، كُلُّ النَّاسِ يُشَيِّعُونَ جَنَازَتَهُ، وَيَشْهَدُونَ دَفْنَهُ ...

وَكَانَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَوْمَئِذٍ مَوْجُودًا فِي الْمَدِينَةِ؛ فَخَرَجَ لِلصَّلَاةِ
عَلَيْهِ وَتَشْيِيعِهِ .

(١) حَافِلًا: مَمْتَلًا .

(٢) حَنَا عَلَيْهِمْ: مَالَ إِلَيْهِمْ وَعَظَفَ عَلَيْهِمْ .

(٣) الْيَقِينُ: الْمَوْتُ .

فَلَمَّا رَأَى تَزَاحَمَ النَّاسِ وَتَدَفَّقَهُمْ ؛ هَالَتْهُ كَثْرَتُهُمْ ، وَأَثَارَتْ فِي صَدْرِهِ شَيْئًا
مِنَ الْحَسَدِ ، فَسَاءَلَ نَفْسَهُ قَائِلًا :

تُرَى كَمْ يَخْرُجُ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّاسِ لَوْ أَنَّ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ مَاتَ فِي بَلَدِهِمْ
هَذَا ؟ .

ثُمَّ قَالَ « لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ هِشَامٍ الْمَخْزُومِيِّ » وَاليه عَلَى الْمَدِينَةِ :
إِفْرِضْ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْ يَبْعَثُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ رَجُلٍ إِلَى الثُّغُورِ .
فَمُسِمِّي ذَلِكَ الْعَامَ عَامَ أَرْبَعَةِ آلَافٍ (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ انظر :

- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ١٩٥ / ٥ .
- ٢ - تهذيب الأسماء واللغات ، القسم الأول من الجزء الأول : ٢٠٧ .
- ٣ - الجرح والتعديل ، القسم الأول من المجلد الثاني : ١٨٤ .
- ٤ - المعرفة والتاريخ : ٥٥٤ / ١ .
- ٥ - حلية الأولياء : ١٩٢ / ٢ .
- ٦ - طبقات الفقهاء للشيرازي : ٦٢ .
- ٧ - تاريخ البخاري : ١١٥ / ٤ .
- ٨ - وفيات الأعيان : ٣٤٩ / ٢ .
- ٩ - تاريخ الإسلام : ١١٥ / ٤ .
- ١٠ - طبقات الحفاظ للسيوطي : ٣٣ .
- ١١ - شذرات الذهب : ١٣٣ / ١ .

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ أَمِيرُ الْأَنْدَلُسِ

« الْغَافِقِيُّ صُورَةٌ صَادِقَةٌ لِمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ ، وَطَارِقِ بْنِ زِيَادٍ ،
فِي غُلُوِّ الْهَمَّةِ وَسُمُوِّ الْمَقْصِدِ »

[الْمُؤَرِّخُونَ]

مَا كَادَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَامِسُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ^(١) عُمَرُ بْنُ
عَبْدِ الْعَزِيزِ ^(٢) يَنْقُضُ يَدَيْهِ مِنْ تُرَابِ سَلَفِهِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، حَتَّى بَادَرَ
يُعِيدُ النَّظَرَ فِي أُمَرَاءِ الْأَمْصَارِ ^(٣) ، وَيَغْزِلُ وَيُوَلِّي .

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ مَنْ اسْتَعْمَلَهُ « السَّمُحُ بْنُ مَالِكِ الْخَوْلَانِيُّ » .
فَلَقَدْ أَسْنَدَ إِلَيْهِ وِلَايَةَ « الْأَنْدَلُسِ » وَمَا جَاوَرَهَا مِنَ الْمُدُنِ الْمَفْتُوحَةِ مِنْ
بِلَادِ « فَرَنْسَا » .

* * *

أَلْقَى الْأَمِيرُ الْجَدِيدُ رِحَالَهُ فِي بِلَادِ « الْأَنْدَلُسِ » ، وَانْطَلَقَ يُفْتَشُّ عَنْ
أَعْوَانِ الصَّدِّقِ وَالْخَيْرِ ؛ فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ :

أَبْقِي فِي هَذِهِ الدِّيَارِ أَحَدًا مِنَ التَّابِعِينَ ؟

فَقَالُوا : نَعَمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ .

إِنَّهُ مَا يَزَالُ فِينَا التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْغَافِقِيُّ .

ثُمَّ ذَكَرُوا لَهُ مِنْ عِلْمِهِ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَفَهْمِهِ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ،

(١) الخلفاء الراشدون أربعة ، وقد أضيف إليهم عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليهم وعليه .

(٢) عمر بن عبد العزيز : انظره ص ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ . (٣) الأمصار : الأصباع والولايات .

وَبَلَاءِهِ ^(١) فِي مَيَادِينِ الْجِهَادِ ، وَتَشَوُّقِهِ إِلَى الْإِسْتِشْهَادِ ، وَرُحْدِهِ بِعَرَضِ ^(٢) الدُّنْيَا
الشَّيْءِ الْكَثِيرِ .

ثُمَّ قَالُوا لَهُ :

إِنَّهُ لَقِيَ الصَّحَابِيَّ الْجَلِيلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ^(٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
وَعَنْ أَبِيهِ ، وَأَنَّهُ أَخَذَ عَنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَأْخُذَ .
وَتَأَسَّى بِهِ ^(٤) أَعْظَمَ النَّاسِي .

* * *

دَعَا السَّمُحُ بْنُ مَالِكٍ الْخَوْلَانِيَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيَّ إِلَى لِقَائِهِ ، فَلَمَّا
جَاءَهُ رَحَّبَ بِهِ أَكْرَمَ التَّرْحِيبِ وَأَذْنَى ^(٥) مَجْلِسُهُ مِنْهُ ، ثُمَّ قَعَدَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ
يَسْأَلُهُ عَنْ كُلِّ مَا عَنَّ لَهُ ^(٦) ...

وَيَسْتَشِيرُهُ فِي كَثِيرٍ مِمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِ ...

وَيُرْوِزُهُ ^(٧) لِيَتَفَقَّ عَلَى طَاقَاتِهِ ...

فَإِذَا هُوَ فَوْقَ مَا أُخْبِرَ عَنْهُ ، وَأَعْظَمُ مِمَّا ذُكِرَ لَهُ ؛ فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَلِّيَهُ
عَمَلًا مِنْ كَبِيرِ أَعْمَالِهِ فِي « الْأَنْدَلُسِ » .

فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ ...

وَلَقَدْ وَفَدْتُ إِلَى هَذِهِ الدِّيَارِ لِأَقِفَ عَلَى ثَغْرِ مِنْ ثُغُورِ ^(٨) الْمُسْلِمِينَ ...

وَنَذَرْتُ نَفْسِي لَمَرْضَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

(١) بلائه : خبرته .

(٢) عَرَضُ الدُّنْيَا : مَا لَا دَوَامَ لَهُ وَلَا بَقَاءَ .

(٣) انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٤) تَأَسَّى بِهِ : اقْتَدَى بِهِ وَسَلَكَ مَسْلَكَهُ .

(٥) أَذْنَى مَجْلِسُهُ : قُرْبَ مَجْلِسِهِ مِنْهُ تَقْدِيرًا لَهُ . (٧) يُرْوِزُهُ : يَقْدُرُهُ وَيَقْوِمُهُ .

(٦) عَنَّ لَهُ : خَطَرَ عَلَى بَالِهِ . (٨) ثُغُورُ الْمُسْلِمِينَ : الْمَنَافِذُ بَيْنَ حُدُودِ الْمُسْلِمِينَ وَحُدُودِ أَعْدَائِهِمْ .

وَحَمَلْتُ سَيْفِي لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ فِي الْأَرْضِ ...
 وَسَتَجِدُنِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - أَلَزَمَ لَكَ مِنْ ظِلِّكَ مَا لَزِمْتَ الْحَقَّ ...
 وَأَطُوعَ لَكَ مِنْ بَنَانِكَ ^(١) مَا أَطَعَتِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ...
 مِنْ غَيْرِ وَلَايَةٍ وَلَا إِمَارَةٍ .

* * *

لَمْ يَمُضْ غَيْرُ قَلِيلٍ حَتَّى عَزَمَ السَّمُوحُ بْنُ مَالِكِ الْخَوْلَانِيُّ عَلَى غَزْوِ
 « فَرَنْسَا » كُلِّهَا ، وَضَمَّهَا إِلَى عِقْدِ ^(٢) دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ الْعُظْمَى .
 وَأَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دِيَارِهَا الرَّحْبَةَ طَرِيقاً إِلَى دَوْلِ « الْبَلْقَانِ » ^(٣) ...
 وَأَنْ يُفْضِيَ مِنْ دَوْلِ « الْبَلْقَانِ » إِلَى « الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ » ، تَحْقِيقاً لِبِشَارَةِ
 الرَّسُولِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ ^(٤) .
 وَكَانَتِ الْخُطْوَةُ الْأُولَى لِتَحْقِيقِ هَذَا الْهَدَفِ الْكَبِيرِ ، إِنَّمَا تَتَوَقَّفُ عَلَى
 اخْتِلَالِ مَدِينَةِ « أَرْبُونَةِ » ^(٥) .
 ذَلِكَ أَنَّ « أَرْبُونَةَ » كَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الْمُدُنِ « الْفَرَنْسِيَّةِ » الَّتِي تُجَاوِرُ بِلَادَ
 « الْأَنْدَلُسِ » .
 وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ كُلَّمَا انْحَدَرُوا ^(٦) مِنْ جِبَالِ « الْبِيرْنِيَّةِ » ^(٧) ؛ وَجَدُوهَا

(١) بنانك : إصبعك ، يُقَالُ : فلان أطوع من بناني : [أي إنه يفعل كل ما أمره به] .

(٢) العِقدُ : القلادة الثمينة .

(٣) دَوْلُ الْبَلْقَانِ : شبه جزيرة واقعة جنوب شرق أوربا ، تقسمها اليوم رومانيا ، وألبانيا ، ويوغوسلافيا ، وبلغاريا ، وتركيا ، واليونان .

(٤) قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (لتفتحن عليكم القسطنطينية ، فنعم الجيش جيشها ، ونعم الأمير أميرها) .

(٥) NARBONNE : مدينة في جنوب فرنسا قرب المتوسط بسهل لنغودوك .

(٦) انحدروا : نزلوا .

(٧) PYRENEES : سلسلة جبال بين فرنسا وإسبانيا تمتد من خليج غاسكونيا في الأطلسي حتى خليج ليون في المتوسط ٤٣٠ كم عرفها المسلمون باسم برانس .

تَنْتَصِبُ أَمَامَهُمْ كَمَا يَنْتَصِبُ الْمَارِدُ^(١) الْجَبَّارُ .
وَهِيَ فَوْقَ ذَلِكَ مِفْتَاحُ « فَرَنْسَا » الْكُبْرَى ...
وَمَطْمَحُ الطَّامِحِينَ^(٢) إِلَيْهَا ...

* * *

حَاصِرَ السَّمْحِ بْنِ مَالِكٍ الْخَوْلَانِيَّ مَدِينَةَ « أَرْبُونَةَ » ، ثُمَّ عَرَضَ عَلَى أَهْلِهَا
الْإِسْلَامَ أَوْ الْجِزْيَةَ ... فَعَزَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَأَبَوْهُ .
فَهَبَّ يُهَاجِمُهُمُ الْهَجْمَةَ تِلَوُ الْأُخْرَى ، وَيَقْذِفُهُمُ بِالْمَنْجَنِيْقَاتِ^(٣) حَتَّى
سَقَطَتِ الْمَدِينَةُ الْعَرِيقَةُ الْحَصِينَةُ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَسَابِيعٍ مِنَ
الْجِهَادِ الْبُطُولِيِّ الَّذِي لَمْ تَشْهَدْ « أَوْرَبَّا » نَظِيرًا لَهُ مِنْ قَبْلُ .
ثُمَّ بَادَرَ الْقَائِدُ الْمُظَفَّرُ الْمُنتَصِرُ ؛ فَتَوَجَّهَ بِجَيْشِهِ الْجَرَّارِ^(٤) إِلَى مَدِينَةِ
« تُولُوزَ » عَاصِمَةِ مَقَاطَعَةِ « أَوْكْتَانِيَّةَ » .

فَنَصَبَ حَوْلَهَا الْمَنْجَنِيْقَاتِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .
وَقَذَفَهَا بِآلَاتِ الْحَرْبِ الَّتِي لَمْ تَعْرِفْ لَهَا « أَوْرَبَّا » نَظِيرًا مِنْ قَبْلُ .
حَتَّى أَوْشَكَتِ الْمَدِينَةُ الْمَنِيعَةُ الْحَصِينَةُ أَنْ تَخْرُجَ بَيْنَ يَدَيْهِ .
عِنْدَ ذَلِكَ وَقَعَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِ أَحَدٍ .
فَلَنَشْرِكَ الْحَدِيثَ لِلْمُسْتَشْرِقِ الْفَرَنْسِيِّ « رَيْنُو » لَيْسُوقَ لَنَا خَبَرَ تِلْكَ
الْمَعْرَكَةِ .

قَالَ « رَيْنُو » :

(٣) المنجنقات : آلات حربية تُرمى بها القذائف .

(٤) الجرار : الكثير الذي يجر وراءه الغبار لكثرتِهِ .

(١) المارد : القوي الجبار الذي لا يقهر .

(٢) مطمح الطامحين : سبيل الراغبين .

لَمَّا أَصْبَحَ النَّصْرُ قَابَ قَوْسَيْنِ^(١) مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَدْنَى ، هَبَّ « دُوقُ
أُوكْتَانِيَّة » يَسْتَنْفِرُ^(٢) لِيَحْرِبَهُمُ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ .

وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ فَطَافُوا « أُورُبَّا » مِنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا .
وَأَنْذَرُوا مُلُوكَهَا وَأَمْرَاءَهَا بِاخْتِلَالِ دِيَارِهِمْ ، وَسَبَّي نِسَائِهِمْ وَوَلَدَانِهِمْ .
فَلَمْ يَتَّقَ شَعْبٌ فِي « أُورُبَّا » إِلَّا أَسْهَمَ مَعَهُ بِأَشَدِّ مُقَاتِلِيهِ بَأْسًا ، وَأَكْثَرِهِمْ
عَدَدًا ...

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ وَفْرَةِ^(٣) الْجَيْشِ ، وَعُغْنِفِ حَرَكَتِهِ ، وَثَقُلَ وَطْأَتِهِ ، مَا لَمْ تَعْرِفْ
لَهُ الدُّنْيَا نَظِيرًا مِنْ قَبْلُ ... حَتَّى إِنَّ الْغُبَارَ الْمُتَطَايِرَ تَحْتَ أَقْدَامِهِ قَدْ حَجَبَ عَنْ
مِنْطَقَةِ « الرُّوْنِ »^(٤) عَيْنَ الشَّمْسِ ...

وَلَمَّا تَدَانَى^(٥) الْجَمْعَانِ خُيِّلَ لِلنَّاسِ أَنَّ الْجِبَالَ تُلَاقِي الْجِبَالَ ، ثُمَّ دَارَتْ
بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ رَحَى مَعْرَكَةٍ ضَرُوسٍ^(٦) لَمْ يَعْرِفِ التَّارِيخُ لَهَا مِثِيلًا مِنْ قَبْلُ .
وَكَانَ السَّمُخُ أَوْ « ذَامَا » كَمَا كُنَّا نُسَمِّيهِ ؛ يَظْهَرُ أَمَامَ جُنُودِنَا فِي كُلِّ
مَكَانٍ .

وَيَتَوَاتَبُ أَمَامَ عَسْكَرِهِ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ .

وَفِيمَا هُوَ كَذَلِكَ أَصَابَتْهُ رَمِيَّةٌ مِنْ سَهْمٍ ، فَخَرَّ صَرِيحًا عَنْ جَوَادِهِ .

(١) قَابَ قَوْسَيْنِ : شديد القرب .

(٢) يستنفر : يستعين .

(٣) وفرة الجيش : كثرة الجيش وكثافته .

(٤) RHONE : نهر في سويسرا وفرنسا ٨١٢ كم من أغزر أنهار فرنسا ، يروي جينيف ، وليون LYON ،
وفالانس ، واينبون ، وأرل ARLES ويصب في المتوسط غرب مرسيليا .

(٥) تَدَانَى الجمعان : اقترب الجيشان .

(٦) معركة ضروس : معركة شديدة مهلكة .

فَلَمَّا رَأَاهُ الْمُسْلِمُونَ مُجْنَدِلًا^(١) فَوْقَ الثَّرَى، فَتَّ الْمَوْقِفُ فِي
عَضْدِهِمْ^(٢) ...

وَبَدَأَتْ صُفُوفُهُمْ تَتَدَاعَى^(٣) ...

وَأَصْبَحَ فِي وَسْعِ جَيْشِنَا الْجَرَارِ أَنْ يُبِيدَهُمْ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ^(٤) ...
لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُمْ الْعِنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ بِقَائِدِ عِبْقَرِيٍّ عَرَفْتُهُ «أُورُبَّا» فِيمَا بَعْدُ،
هُوَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ .

فَتَوَلَّى أَمْرَ أَنْسِحَابِهِمْ بِأَقْلٍ قَدِيرٍ مِنَ الْحَسَائِرِ، وَعَادَ بِهِمْ إِلَى «إِسْبَانِيَا» .
لَكِنَّهُ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ يُعِيدَ الْكَرَّةَ عَلَيْنَا مِنْ جَدِيدٍ ...

* * *

وَبَعْدُ ...

فَهَلْ رَأَيْتَ الْغُيُومَ كَيْفَ تَتَقَشَّعُ^(٥) عَنِ الْبَدْرِ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ .

فَيَسْتَضِيءُ بِنُورِهِ التَّائِهُونَ ...

وَيَهْتَدِي بِسَنَاهُ الْحَيَارَى^(٦) ؟

هَكَذَا انْقَشَعَتْ مَعْرَكَةُ «تُولُوز» عَنْ بَطْلِ الْإِسْلَامِ الْقَدِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ الْعَافِقِيِّ ...

وَهَلْ أَبْصَرْتَ الْعِطَاشَ الْمُوفِينَ^(٧) عَلَى الْهَلَاكِ فِي جَوْفِ الصَّحَرَاءِ كَيْفَ
يَلُوحُ لَهُمُ الْمَاءُ .

(١) مجندلاً : صريعاً .

(٢) فتَّ في عضدهم : مزَّق قواهم وأضعف مشاعرهم . (٥) تنقشع : تنكشف .

(٦) الحيارى : التائهون ، والذين لا يعرفون الطريق .

(٣) تتداعى : تتصدع .

(٧) الموفين على الهلاك : المقبلين على الموت .

(٤) بكرة أبيهم : جميعاً .

فَيُحْمَدُونَ أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهِ ؛ لِيَعْتَرِفُوا مِنْهُ غَرَفَةً تَرُدُّ إِلَيْهِمُ الْحَيَاةَ ؟ .
هَكَذَا مَدَّ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ أَيْدِيَهُمْ إِلَى الْقَائِدِ الْعَظِيمِ يَنْشُدُونَ عِنْدَهُ
النَّجَاةَ ... وَيُبَايِعُونَهُ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ...
وَلَا غَزَوْ فَقَدْ كَانَتْ مَعْرَكَةُ « تُولُوز » أَوَّلَ جُرحِ غَائِرٍ ^(١) أَصِيبَ بِهِ
الْمُسْلِمُونَ مِنْذُ وَطِئَتْ أَقْدَامُهُمْ « أُرُوبًا » .

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ بَلَسَمَ ^(٢) هَذَا الْجُرحِ ...
وَالْيَدَ الْحَانِيَّةَ الَّتِي أَحَاطَتْهُ بِالْعَنَانَةِ وَالرَّعَايَةِ ...
وَالْقَلْبَ الْكَبِيرَ الَّذِي أَفَاضَ عَلَيْهِ الْحَنَانَ ...

* * *

أَزْمَضْتُ ^(٣) أَنْبَاءَ التُّكْسَةِ الْكُبْرَى الَّتِي مُنِيَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ فِي « فَرَنْسَا »
فُؤَادَ الْخِلَافَةِ فِي « دِمَشَقَ » .
وَأَجَجَ ^(٤) مَضْرُوعُ الْبَطْلِ الْكَمِيِّ ^(٥) السَّمْحِ بْنِ مَالِكِ الْخَوْلَانِيِّ فِي
صَدْرِهَا نَارَ الْحَمِيَّةِ لِلْأَخْذِ بِالنَّارِ .

فَأَصْدَرْتُ أَوَامِرَهَا بِإِقْرَارِ الْجُنْدِ عَلَى مُبَايَعَتِهِمْ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيِّ .
وَعَهَدْتُ إِلَيْهِ بِإِمَارَةِ « الْأَنْدَلُسِ » مِنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا .
وَضَمَمْتُ إِلَيْهِ مَا جَاوَرَهَا مِنَ الْأَرَاضِي « الْفَرَنْسِيَّةِ » الْمَفْتُوحَةِ .
وَأَطْلَقْتُ يَدَهُ فِي الْعَمَلِ كَيْفَمَا يَشَاءُ .

لَا غَزَوْ فَقَدْ كَانَ الْغَافِقِيُّ حَازِمًا صَارِمًا ، تَقِيًّا نَقِيًّا ، حَكِيمًا مِقْدَامًا ...

* * *

(١) غَائِر : عميق .
(٢) بلسم الجرح : دواء النكبة .
(٣) أزمضت : أوجعت .
(٤) أجج : أوقد .
(٥) الكمي : الشجاع .

بَادَرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ مُنْذُ أُسْنِدَتْ إِلَيْهِ إِمَارَةُ « الْأَنْدَلُسِ » ؛ يَعْمَلُ عَلَى
اسْتِعَادَةِ ثِقَةِ الْجُنْدِ بِأَنْفُسِهِمْ ...

وَاسْتِزْدَادِ شُعُورِهِمْ بِالْعِزَّةِ ، وَالْقُوَّةِ ، وَالْغَلَبِ .
وَتَحْقِيقِ الْهَدَفِ الْكَبِيرِ الَّذِي طَمَحَ ^(١) إِلَيْهِ قَادَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي
« الْأَنْدَلُسِ » .

ابْتِدَاءً مِنْ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ ^(٢) ...
وَانْتِهَاءً بِالسَّمْحِ بْنِ مَالِكِ الْخَوْلَانِيِّ .
فَلَقَدْ انْعَقَدَتْ هِمَمٌ هَؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ عَلَى الْإِنْطِلَاقِ مِنْ « فَرَنْسَا » إِلَى
« إِيْطَالِيَا » وَ« أَلْمَانِيَا » .

وَالْإِفْضَاءِ ^(٣) مِنْهُمَا إِلَى « الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ » .
وَجَعَلَ الْبَحْرَ الْأَبْيَضَ الْمُتَوَسِّطَ بُحَيْرَةً إِسْلَامِيَّةً ، وَتَسَمِيَّتِهِ بِبَحْرِ الشَّامِ ...
بَدَلًا مِنْ بَحْرِ « الرُّومِ » ...

* * *

لَكِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيَّ كَانَ يُوقِنُ بِأَنَّ الْإِعْدَادَ لِلْمَعَارِكِ الْكُبْرَى إِنَّمَا
يَبْدَأُ بِإِصْلَاحِ الثُّقُوسِ ، وَتَرْكِيبَتِهَا ...
وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحَقِّقَ غَايَاتِهَا فِي النَّصْرِ إِذَا كَانَتْ
حُصُونُهَا مُصَدَّعَةً ^(٤) ، مُهَدَّذَةً مِنَ الدَّاحِلِ ...

(١) طَمَحَ إِلَيْهِ : تَطَلَعَ إِلَيْهِ وَعَمَلَ عَلَى نَيْلِهِ .

(٢) مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ : فَاتِحُ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَلَى وَالْأَنْدَلُسِ .

(٣) الْإِفْضَاءُ مِنْهَا : الْإِنْتِقَالُ مِنْهَا .

(٤) مُصَدَّعَةٌ : مُشَقَّقَةٌ .

لِذَلِكَ هَبَّ يَطُوفُ بِلَادَ «الْأَنْدَلُسِ» بَلَدًا إِثْرَ بَلَدٍ ، وَيَأْمُرُ الْمُتَنَادِينَ أَنْ
يُنَادُوا فِي النَّاسِ :

مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ^(١) عِنْدَ وَالٍ مِنَ الْوَلَاةِ ، أَوْ قَاضٍ مِنَ الْقَضَاةِ ، أَوْ أَحَدٍ
مِنَ النَّاسِ ؛ فَلْيَرْفَعْهَا إِلَى الْأَمِيرِ .

وَأَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُعَاهِدِينَ^(٢) .

ثُمَّ طَفِقَ يُنْظِرُ فِي الْمَظَالِمِ^(٣) مَظْلَمَةً مَظْلَمَةً .

فَيَقْتَصُّ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ ... وَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ .

ثُمَّ جَعَلَ يُحَقِّقُ فِي أَمْرِ الْكِنَائِسِ الْمُعْتَصِبَةِ ، وَالْمُسْتَحْدَثَةِ .

فَيَرُدُّ مَا قَضَتْ بِهِ الْعُهُودُ إِلَى أَصْحَابِهِ ...

وَيَهْدِيهِمْ مَا بُنِيَ مِنْهَا بِالرَّشْوَةِ ...

ثُمَّ نَظَرَ فِي أَمْرِ عُمَالِهِ وَاحِدًا وَاحِدًا ...

فَعَزَلَ مَنْ ثَبَّتَ لَهُ خِيَانَتُهُ وَانْحِرَافُهُ .

وَوَلَّى مَكَانَهُ مَنْ اسْتَوْثَقَ مِنْ حِكْمَتِهِ ، وَحُكْمَتِهِ ، وَصَلَاحِهِ .

وَكَانَ كُلَّمَا أَمَّ^(٤) بَلَدًا مِنَ الْبُلْدَانِ دَعَا النَّاسَ إِلَى صَلَاةٍ جَامِعَةٍ ، ثُمَّ وَقَفَ

فِيهِمْ حَظِييًّا ، وَأَنْطَلَقَ يَحُضُّهُمْ عَلَى الْجِهَادِ ...

وَيُرَغِّبُهُمْ فِي الْأَسْتِشْهَادِ ...

وَيُمْنِيهِمْ بِرِضْوَانِ اللَّهِ ، وَالْفَوْزِ بِثَوَابِهِ .

* * *

(٣) المظالم : الشكاوى .

(١) مظلمة : أمر فيه ظلم .

(٤) أمّ بَلَدًا : دَخَلَ بَلَدًا وَزَارَهُ .

(٢) المعاهدون : الذين بَيَّنَّهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَهْدَ .

وَقَدْ قَرَنَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْقَوْلَ بِالْفِعْلِ ، وَدَعَّمَ الْأَمَالَ بِالْأَعْمَالِ .
فَطَفِقَ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى لِيَوْلَايَتِهِ ؛ يُعِدُّ الْعِتَادَ ، وَيَسْتَكْمِلُ السَّلَاحَ .
وَيُرْمِئُ^(١) الْمَعَاقِلَ ، وَيَبْنِي الْحُصُونَ .
وَيُشَيِّدُ الْجُسُورَ ، وَيُقِيمُ الْقَنَاطِرَ^(٢) ...
وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ مَا بَنَاهُ قَنْطَرَةٌ « قَرْطَبَةٌ » عَاصِمَةٌ « الْأَنْدَلُسِ » .
وَقَدْ شَادَهَا عَلَى نَهْرِ « قَرْطَبَةٍ » الْعَظِيمِ ؛ لِيَعْبُرَ عَلَيْهَا النَّاسُ وَالْجُنْدُ ...
وَتَقِي الْبِلَادَ ، وَتَصُونَ الْعِبَادَ مِنْ شَرِّ الْفَيْضَانِ^(٣) .
وَتُعَدُّ هَذِهِ الْقَنْطَرَةُ مِنْ أَعَاجِبِ الدُّنْيَا .
فَقَدْ بَلَغَ طُولُهَا ثَمَانِمِائَةَ بَاعٍ^(٤) ...
وَارْتَفَاعُهَا سِتِينَ بَاعاً ...
وَعَرُوضُهَا عِشْرِينَ ...
وَبَلَغَ عَدْدُ حَنَائِيهَا^(٥) ثَمَانِي عَشْرَةَ حَنِيَّةً ...
وَعَدَدُ أَبْرَاجِهَا^(٦) تِسْعَةَ عَشَرَ بُرْجاً ...
وَهِيَ مَا تَرَالُ قَائِمَةٌ تَنْعُمُ بِهَا « إِسْبَانِيَا » حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا ...

* * *

وَقَدْ دَأَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ عَلَى الْاجْتِمَاعِ بِقَادَةِ الْجُنْدِ وَوُجُوهِ الْقَوْمِ
فِي كُلِّ بَلَدٍ يَحُلُّهُ .

(١) يرمئ المعاقل : يصلح مرائب الجند في الجبال المشرفة على العدو .

(٢) القناطر : ما يبني فوق الماء للعبور عليه .

(٣) الفَيضَان : أقباسها .

(٤) الباع : مقدار مَدَّ اليدين .

(٥) حناياها : أقواسها .

(٦) أبراجها : الحصون التي تحصنها .

وَكَانَ يُنْصِتُ بِجَوَارِحِهِ إِلَى كُلِّ مَا يَقُولُونَ ...

وَيُدَوِّنُ جَمِيعَ مَا يَقْتَرِحُونَ ...

وَيَتَمَلَّى^(١) مِنْ سَائِرِ مَا يُنْصَحُونَ .

وَقَدْ أَخَذَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الْمَجَالِسِ بِأَنْ يَسْمَعَ كَثِيراً ، وَأَنْ يَتَكَلَّمَ قَلِيلاً .

وَكَمَا كَانَ يَلْتَقِي الْغَافِقِي بِأَعْيَانِ الْمُسْلِمِينَ ...

فَقَدْ كَانَ يَجْتَمِعُ مَعَ كِبَارِ أَهْلِ الذِّمَّةِ مِنَ الْمُعَاهِدِينَ .

وَكَثِيراً مَا كَانَ يُسْأَلُهُمْ عَمَّا خَفِيَ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ بِلَادِهِمْ ، وَمَا يَشْغُلُ بَالَهُ مِنْ أَحْوَالِ مُلُوكِهِمْ ، وَقَوَادِيهِمْ .

* * *

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ اسْتَدْعَى أَحَدَ كِبَارِ الْمُعَاهِدِينَ مِنْ أَبْنَاءِ « فَرَنْسَا » ، وَأَدَارَ مَعَهُ حَدِيثاً مُتَشَعِّباً^(٢) ثُمَّ قَالَ لَهُ :

مَا بَالُ مَلِكِكُمْ الْأَكْبَرِ « شَارْل » لَا يَتَصَدَّقُ لِحَرْبِنَا ...

وَلَا يَنْصُرُ مُلُوكَ الْمُقَاتِلَاتِ عَلَيْنَا ؟ !

فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ...

إِنَّكُمْ وَفَيْتُمْ لَنَا بِمَا عَاهَدْتُمُونَا عَلَيْهِ ، فَمِنْ حَقِّكُمْ عَلَيْنَا أَنْ نَصْدُقَكُمْ الْقَوْلَ فِيمَا تَسْأَلُونَنَا عَنْهُ ...

إِنَّ قَائِدَكُمْ الْكَبِيرَ مُوسَى بْنَ نُصَيْرٍ قَدْ أَحْكَمَ قَبْضَتَهُ^(٣) عَلَى « إِسْبَانِيَا »

(١) يَتَمَلَّى : يَتَفَعَّلُ .

(٢) مُتَشَعِّباً : مُتَبَعاً مُتَعَدِّدَ الْمَوْضِعَاتِ .

(٣) أَحْكَمَ قَبْضَتَهُ : شَدَّ يَدَيْهِ .

كُلُّهَا ، ثُمَّ طَمَحَتْ^(١) هِمَّتُهُ لِأَنْ يَجْتَازَ جِبَالَ « الْبَرْنِيَه » الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ دِيَارِ
« الْأَنْدَلُسِ » وَبِلَادِنَا الْجَمِيلَةِ .

فَجَفَلَ^(٢) مُلُوكُ الْمُقَاطَعَاتِ وَفُتِسُّهَا إِلَى مَلِكِنَا الْأَعْظَمِ ، وَقَالُوا لَهُ :
مَا هَذَا الْخِزْيُ الَّذِي لَصِقَ بِنَا وَبَحَفَدَنَّا أَبَدَ الدَّهْرِ أَتَيْهَا الْمَلِكُ ؟ ! ...
فَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ بِالْمُسْلِمِينَ سَمَاعاً ...
وَنَخَافُ وَتُبَّتْهُمْ عَلَيْنَا مِنْ جِهَةِ مَشْرِقِ الشَّمْسِ ، وَهَآ هُمْ أَوْلَآءِ قَدْ جَاءُونَا
الْآنَ مِنْ مَغْرِبِهَا ...

فَاسْتَوَلُوا عَلَى « إِسْبَانِيَا » كُلِّهَا ، وَامْتَلَكُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعُدَّةِ وَالْعِتَادِ ،
وَاعْتَلَوْا قِمَمَ الْجِبَالِ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ .
مَعَ أَنَّ عَدَدَهُمْ قَلِيلٌ ...
وَسِلَاحَهُمْ هَزِيلٌ ...

وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَمْلِكُ دِرْعاً تَقِيهِ ضَرْبَاتِ السُّيُوفِ ، أَوْ جَوَاداً يَمْتَنِّطِيهِ إِلَى
سَاحَاتِ الْقِتَالِ .

فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ :
لَقَدْ فَكَّرْتُ فِيمَا عَنِ^(٣) عَلَى بَالِكُمْ كَثِيراً ...
وَأَنْعَمْتُ^(٤) النَّظَرَ فِيهِ طَوِيلاً .

فَرَأَيْتُ أَلَّا نَتَعَرَّضَ لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي وَتُبَّتِهِمْ هَذِهِ ، فَإِنَّهُمْ الْآنَ كَالسَّيْلِ
الْجَارِفِ يَفْتُلِعُ كُلَّ مَا يَغْتَرِضُ طَرِيقَهُ ، وَيَحْتَمِلُهُ مَعَهُ ، وَيُلْقِي بِهِ حَيْثُ يَشَاءُ .

(١) طمحت : امتدت ، وشمخت .

(٣) عَنِ عَلَى بالهم : خطر لهم .

(٢) جَفَلَ : لجأ ، وأُجِه .

(٤) أَنْعَمْتُ النَّظَرَ : أطلت النظر وتعمقت في التفكير .

وَوَجَدْتُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَهُمْ عَقِيدَةٌ وَنِيَّةٌ ؛ تُغْنِيَانِ عَنْ كَثْرَةِ الْعَدَدِ ، وَوَفْرَةِ
الْعُدَدِ ...

وَلَهُمْ إِيمَانٌ ، وَصِدْقٌ ؛ يَقُومَانِ مَقَامَ الدُّرُوعِ ، وَالْخِيُولِ ...
وَلَكِنْ أَمْهَلُوهُمْ حَتَّى تَمْتَلِئَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْغَنَائِمِ ...
وَيَتَّخِذُوا لِأَنْفُسِهِمُ الدُّورَ وَالْقُصُورَ ...
وَيَسْتَكْثِرُوا مِنَ الْإِمَاءِ وَالْخَدَمِ ...
وَيَتَنَافَسُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى الرِّئَاسَةِ ...
فَعِنْدَ ذَلِكَ تَتِمَّكَثُونَ مِنْهُمْ بِأَيْسَرِ السَّبِيلِ ، وَأَقْلَ الْجُهْدِ .
فَاطْرُقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ إِطْرَاقَةً حَرِيئَةً ، وَتَنَهَّدَ تَنَهُّدًا عَمِيقًا ، وَفَضَّ
الْمَجْلِسَ وَقَالَ :

حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ ، فَقَدْ اقْتَرَبَ وَقْتُهَا .

* * *

لَبِثَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ عَامَيْنِ كَامِلَيْنِ يُعَدُّ الْعُدَّةَ لِلْغَزْوِ الْكَبِيرِ ...
فَكَتَبَ ^(١) الْكُتَائِبَ ، وَعَبَأَ الْجُنُودَ ...
وَشَحَذَ ^(٢) الْهِمَمَ ، وَعَمَّرَ الْقُلُوبَ ...
وَاسْتَنْجَدَ بِأَمِيرِ « إِفْرِيقِيَّة » فَأَمَدَهُ بِنُخْبَةٍ مِنَ الْجُنْدِ ؛ يَتَلَطَّوْنَ ^(٣) شَوْقًا إِلَى
الْجِهَادِ ...

وَيَتَحَرَّقُونَ لَهْفَةً عَلَى الْاسْتِشْهَادِ ...

(١) كَتَبَ الْكُتَائِبَ : أَعَدَ الْجِيُوشَ .
(٢) شَحَذَ الْهِمَمَ : قَوَّى الْهِمَمَ ، وَأَخَذَهَا كَمَا تَحْدُ السَّكَاكِينُ .
(٣) يَتَلَطَّوْنَ : يَتَقَدُّونَ وَيَتَحَرَّقُونَ .

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى «عُثْمَانَ بْنِ أَبِي نُسْعَةَ» أَمِيرِ الثُّغُورِ بِأَنْ يُشَاغِلَ الْعَدُوَّ بِغَارَاتِهِ إِلَى أَنْ يَفْقَدَ عَلَيْهِ هُوَ بِجَمَهْرَةِ الْجَيْشِ .

لَكِنَّ عُثْمَانَ هَذَا كَانَ يُنْضَوِي عَلَى (١) ضَغِينَةٍ لِكُلِّ أَمِيرٍ بَعِيدٍ (٢) الْهِمَّةِ عَظِيمِ الطُّمُوحِ ؛ يُقَدِّمُ عَلَى عَمَلٍ كَبِيرٍ يَرْفَعُ ذِكْرَهُ فِي الْأَنَامِ ، وَيُخْمِلُ (٣) غَيْرُهُ مِنَ الْوَلَاةِ وَالْعَمَالِ .

أَضْفَ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ فِي إِحْدَى غَارَاتِهِ السَّابِقَةِ عَلَى «فَرْنَسَا» بِابْنَةِ «دُوقِ أُكْتَانِيَّة» ، وَتُدْعَى : «مِينِن» .

وَكَانَتْ «مِينِنُ» هَذِهِ فَتَاةَ رِيَانَةِ (٤) الشَّبَابِ ، بَارِعَةَ الْجَمَالِ .

قَدْ جَمَعَتْ إِلَى فِتْنَةِ الْحُسْنِ عِزَّةَ الْمُلْكِ ...

وَمَزَجَتْ بَيْنَ رَوْنَقِ (٥) الصُّبَا ، وَذَلَالِ بَنَاتِ الْقُصُورِ .

فَشَغَفَتْ (٦) فُؤَادَهُ حُبًّا ، وَهَامَ بِهَا وَجَدًا ، وَحَظِيَّتْ (٧) عِنْدَهُ كَمَا لَمْ تَحْظُ زَوْجَةً .

وَقَدْ زَيَّنَتْ لَهُ أَنْ يُهَادِنَ أَبَاهَا ، فَعَقَدَ مَعَهُ مُعَاهَدَةً ؛ أَمَّتُهُ فِيهَا مِنْ غَارَاتِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مُقَاطَعَتِهِ الَّتِي كَانَتْ تُتَاخَمُ الثُّغُورَ «الْأَنْدَلُسِيَّة» .

فَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيِّ بِالزَّحْفِ عَلَى بِلَادِ حَمِيهِ (٨) «دُوقِ أُكْتَانِيَّة» سَقَطَ فِي يَدِهِ (٩) ...

وَبَاتَ حَيْرَانَ لَا يَدْرِي مَاذَا يَفْعَلُ ؟ .

(١) ينضوي عَلَى ضَغِينَةٍ : يمتلىء حقدًا .

(٢) بعيد الهِمَّة : عالي الهمة سامي المقاصد .

(٣) يخمل : يخفي ويُسقط .

(٤) رِيَانَةُ الشَّبَاب : غضة الشباب .

(٥) رَوْنَقُ الصُّبَا : بهاء الفتوة .

(٦) شغفت فؤاده : استولت عَلَى قلبه .

(٧) حظيت عنده : أصبحت ذات مكانة مرموقة عنده .

(٨) حَمِيهِ : أBO زوجته .

(٩) سقط في يده : تحير فما عاد يدري ما يفعل .

لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ بَادَرَ فَكَتَبَ إِلَى الْأَمِيرِ الْغَافِقِيِّ يُرَاجِعُهُ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ ،
وَيَقُولُ لَهُ :

إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْفِرَ^(١) عَهْدَ « دُوقِ أُكْتَانِيَّةَ » قَبْلَ انْقِضَاءِ أَجَلِهِ ...
فَاسْتَشَاطَ^(٢) عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ مِنْهُ غَضَباً ...
وَبَعَثَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

إِنَّ الْعَهْدَ الَّذِي قَطَعْتَهُ لِلْفِرَنْجَةِ دُونَ عِلْمِ أَمِيرِكَ لَا يُلْزِمُهُ ، وَلَا يُلْزِمُ جُيُوشَ
الْمُسْلِمِينَ بِشَيْءٍ .

وإِنَّ عَلَيْكَ أَنْ تُبَادِرَ إِلَى إِنْفَازِ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ دُونَ تَرَدُّدٍ وَلَا تَلَكُّوٍ^(٣) ...
فَلَمَّا يَمَسَّ ابْنُ أَبِي نُسْعَةَ مِنْ حَمْلِ الْأَمِيرِ عَلَى الْإِقْلَاعِ عَنْ عَزْمِهِ ؛ بَعَثَ
إِلَى حَمِيهِ رَسُولاً يُخْبِرُهُ بِمَا جَرَى .
وَيَدْعُوهُ لِأَنْ يَأْخُذَ حِذْرَهُ^(٤) ...

* * *

لَكِنَّ عُيُونَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيِّ كَانَتْ تَرُصُّدُ حَرَكَاتِ ابْنِ أَبِي نُسْعَةَ
وَسَكَنَاتِهِ ... فَتَقَلَّتْ إِلَى الْأَمِيرِ أَخْبَارُ اتِّصَالِهِ مَعَ الْعَدُوِّ .
فَبَادَرَ الْغَافِقِيُّ وَجَّهَازَ كَتِيبَةً اخْتَارَ رِجَالَهَا مِنْ ذَوِي الشَّدَّةِ وَالْبَأْسِ^(٥) ...
وَعَقَدَ لِيَوَاءِهَا لِمُجَاهِدٍ مِنَ الْكُفَاةِ الْمُجَرَّبِينَ .
وَأَمَرَهُ بِأَنْ يَأْتِيَ بِعُثْمَانَ بْنِ أَبِي نُسْعَةَ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا .

* * *

(١) يخفر : ينقض العهد .

(٢) اسْتَشَاطَ : اتفقد واشتعل .

(٣) تَلَكُّوٌ : توقف .

(٤) يأخذ حذره : يعد نفسه ويحذر من عدوه .

(٥) البأس : القوة والقدرة .

بَاغَتْ كَتِيبَةُ مُعْسَكَرِ ابْنِ أَبِي نُسْعَةَ ، وَأَوْشَكَتْ أَنْ تَظْفَرَ بِهِ لَوْلَا أَنَّهُ
نَذِرٌ^(١) بِهَا فِي آخِرِ لَحْظَةٍ ...

فَفَرَّ إِلَى الْجِبَالِ يَضْحَبُهُ عَدَدٌ مِنْ رِجَالِهِ ...
وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ الْحَسَنَاءُ « مِينُنُ » الَّتِي كَانَتْ لَا يُفَارِقُهَا أَبَدًا ، وَلَا يَرَى الدُّنْيَا
إِلَّا بِهَا .

فَمَضَتْ كَتِيبَةُ فِي إِثْرِهِ^(٢) ، وَأَحَاطَتْ بِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ .
فَدَافَعَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ زَوْجَتِهِ دِفَاعَ الْأَسَدِ عَنْ شِبْلِهِ^(٣) ...
وَوَظَلَ يُنَاضِلُ دُونَهَا حَتَّى سَقَطَ قَتِيلًا ..
وَفِي جِسْمِهِ مَا لَا يُحْصَى مِنْ ضَرْبَاتِ السُّيُوفِ ، وَطَعَنَاتِ الرِّمَاحِ ...
فَاحْتَزَّ الْجُنُودُ رَأْسَهُ ، وَحَمَلُوهُ مَعَ الْأَمِيرَةِ الْحَسَنَاءِ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ
الْغَافِقِيِّ .

فَلَمَّا صَارَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَرَأَى جَمَالَهَا الْبَاهِرَ ؛ غَضَّ مِنْ طَرَفِهِ ...
وَأَشَاحَ عَنْهَا بِوَجْهِهِ ...
ثُمَّ أَرْسَلَهَا هَدِيَّةً إِلَى دَارِ الْخِلَافَةِ ...
فَأَنْتَهَتْ حَيَاةُ الْأَمِيرَةِ « الْفَرَنْسِيَّةِ » الْحَسَنَاءِ فِي حَرَمِ الْخَلِيفَةِ الْأُمَوِيِّ فِي
« دِمَشْقَ » .

(١) نَذِرُ بِهَا : وَقَفَ عَلَى أَمْرِهَا وَعَلِمَهُ .

(٢) فِي إِثْرِهِ : وِرَآءَهُ .

(٣) شِبْلُهُ : وَلَدُهُ .

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ

بَطْلُ مَعْرَكَةِ بِلَاطِ الشُّهَادِ

«لَوْلَا انتِصَارُ شَاوَلَ مَارْتِلَ الْهَمَجِيِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَقَائِدِهِمُ الْغَافِقِيِّ؛ لَطَلَّتْ
إِسْبَانِيَا تَنَعَّمُ بِسَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ، وَلَمَّا تَأَخَّرَ سَيَرُ الْمَدِينَةِ فِي أَوْرُبَا ثَمَانِيَةَ قُرُونٍ»
[أَحَدُ مُؤَرِّجِي الْفِرَنْجَةِ]

قَالَ الشَّاعِرُ الْإِنْكِلِيزِيُّ «سُوذِي» يَصِفُ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي عَزَتْ
«أَوْرُبَا» بَعْدَ فَتْحِ «الْأَنْدَلُسِ» (*) :
«جُمُوعٌ لَا تُحْصَى ...

«مِنْ عَرَبٍ، وَبَرْبَرٍ، وَزُومٍ خَوَارِجٍ ...
«وَفُزْسٍ، وَقَبِيطٍ، وَتَتَرٍ، قَدْ انْضَوَوْا»^(١) جَمِيعاً تَحْتَ لِيَايِ وَاحِدٍ ...
«يَجْمَعُهُمْ إِيْمَانٌ نَائِزٌ، رَاسِخُ الْفُتُوَّةِ ...
«وَحِمِيَّةٌ مُتَلَطِّئَةٌ»^(٢) كَالشَّرَرِ، وَأُخُوَّةٌ مُدْهِلَةٌ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْبَشَرِ ...

* * *

«وَلَمْ يَكُنْ قَادَتُهُمْ أَقَلٌّ مِنْهُمْ ثِقَةً بِالنَّصْرِ بَعْدَ أَنْ ثَمَلُوا بِحُمَيَّا»^(٣) الظَّفَرِ ...
«وَاحْتَالُوا بِتِلْكَ الْقُوَّةِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي لَا يَقِفُ أَمَامَهَا شَيْءٌ ...
«وَأَنفَقُوا أَنَّ جُيُوشَهُمْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُلَمَّ بِهَا الْكَلَالُ»^(٤) ...

(*) من منظومة «سوذِي» Southy: Roderic the Last 08 Gorths الخاصة «برذريك»
أو «لودوريق» آخر ملوك القوط في «إسبانيا» .

(١) انْضَوَوْا: انضموا .

(٣) ثَمَلُوا بِحُمَيَّا الظفر: سَكروا بخمر الغلبة .

(٤) الْكَلَال: العناء والتعب .

(٢) مُتَلَطِّئَةٌ: متقدمة .

« فَهِيَ دَائِمًا فَيِّئَةٌ مَشْبُوبَةٌ^(١) كَمَا انْطَلَقَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...
 « وَأَمَّنُوا بِأَنَّهَا حَيْثُمَا تَحَرَّكَتْ مَشَى فِي رِكَابِهَا النَّصْرُ وَالْغَلَبُ ...
 « وَأَنَّهَا سَتَنْدَفِعُ دَائِمًا إِلَى الْأَمَامِ ...
 « حَتَّى يُضْبِحَ الْغَرْبُ الْمَغْلُوبُ كَالشَّرْقِ ...
 « يُطَأُّطِئُ الرَّأْسَ إِجْلَالًا لِاسْمِ مُحَمَّدٍ ...
 « وَحَتَّى يَنْهَضَ الْحَاجُّ مِنْ أَقَاصِي الْمُتَجَمِّدِ^(٢) ...
 « إِلَى أَنْ يَطَأَ بِأَقْدَامِ الْإِيمَانِ الرَّمَالَ الْمُحْرِقَةَ ...
 « الْمُنتَشِرَةَ^(٣) عَلَى صَحَرَاءِ الْعَرَبِ ...
 « وَيَقِفَ فَوْقَ صُحُورِ مَكَّةَ الصَّلْدَةِ ... » .

* * *

لَمْ تَكُنْ أَثَرُهَا الشَّاعِرُ بَعِيداً عَنِ الْحَقِيقَةِ .
 أَوْ هَائِمًا فِي أَوْدِيَةِ الْخَيَالِ فِي كَثِيرٍ مِمَّا قُلْتَ .
 فَقَدْ كَانَتْ الْجُيُوشُ الَّتِي قَادَهَا الْمُجَاهِدُونَ لِإِخْرَاجِ آبَائِكَ مِنْ جَاهِلِيَّتِهِمْ
 الْجَهْلَاءِ^(٤) كَمَا وَصَفْتَ ...

فَفِيهَا عَرَبٌ أَقْوِيَاءُ بِاللَّهِ هَبُّوا إِلَيْكُمْ .
 مِنَ الشَّامِ ...
 مِنَ الْحِجَازِ ...
 مِنْ نَجْدٍ ...

(٣) المنتشرة : المتساقطة .
 (٤) الجهلاء : المغرقة في الجهل .

(١) مشبوبة : متقلدة .
 (٢) المتجمد : القطب الشمالي .

مِنَ الْيَمَنِ ...

مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ...

كَمَا تَهْبُ الرِّيحُ الْمُرْسَلَةُ .

وَفِيهَا « بَرْبَرٌ » أَعِزَّةٌ بِالْإِسْلَامِ ؛ تَدْفُقُوا عَلَيْكُمْ مِنْ فَوْقِ جِبَالِ الْأَطْلَسِ (١)
كَمَا يَتَدَفَّقُ السَّيْلُ الْعَرَمُ (٢) ...

وَفِيهَا « فُرْسٌ » عَافَتْ (٣) عُقُولُهُمْ وَثَنِيَّةَ الْأَكَاسِرَةِ (٤) ، وَفَاءَتْ إِلَى دِينِ
التَّوْحِيدِ ...

وَصِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .

وَفِيهَا « رُومٌ » خَوَارِجٌ ، كَمَا قُلْتُ ...

وَلَكِنَّهُمْ خَرَجُوا عَلَى الظُّلْمِ ، وَالظُّلُمَاتِ ...

وَانْحَازُوا إِلَى نُورِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...

وَهَدُّوا إِلَى دِينِ الْقِيَمَةِ (٥) .

وَفِيهَا « قَبْطٌ » رَفَعُوا عَنْ رِقَابِهِمْ نِيرَ الْعُبُودِيَّةِ لِلْقِيَاصِرَةِ (٦) .

لِيَعِيشُوا كَمَا وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَاراً فِي أَكْنَافِ (٧) الْإِسْلَامِ ...

نَعَمْ لَقَدْ كَانَ الْجَيْشُ الَّذِي قَادَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ وَأَسْلَافُهُ لِإِنْقَازِ
أَجْدَادِكَ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ ... فِيهِ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ ، وَالْعَرَبِيُّ وَالْأَعْجَمِيُّ .

(١) جبال الأطلس : الجبال الواقعة بين المغرب العربي وإسبانيا .

(٢) السيل العرم : السيل المتدفق الجارف .

(٣) عَافَتْ : كرهت واشمأزت .

(٤) الأكاسرة : ملوك الفرس .

(٥) دين القيمة : الدين المستقيم الذي لا يأتيه الباطل .

(٦) القياصرة : ملوك الروم .

(٧) أكناف الإسلام : حمى الإسلام وجزره .

لَكِنَّهُمْ انصَهَرُوا جَمِيعاً فِي بَوْتَقَةِ (١) الْإِسْلَامِ ...
فَأَصْبَحُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ إِخْوَاناً .

وَقَدْ كَانَ هُمُومُهُمْ - كَمَا ذَكَرْتَ - أَنْ يُدْخِلُوا الْعَرَبَ فِي دِينِ اللَّهِ كَمَا
أَدْخَلُوا الشَّرْقَ مِنْ قَبْلُ .

وَأَنْ يَجْعَلُوا الْبَشَرِيَّةَ كُلَّهَا تُطَاطِئُ (٢) الرَّأْسَ لِلَّهِ النَّاسِ .

وَأَنْ يَعْمَ نُورُ الْإِسْلَامِ بِطَاحِكُمْ (٣) وَأَوْدِيَّتِكُمْ .

وَأَنْ تُشْرِقَ شَمْسُهُ فِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِكُمْ .

وَأَنْ يُسَوِّيَ عَدْلُهُ بَيْنَ مُلُوكِكُمْ وَسُوقَتِكُمْ (٤) .

وَكَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يَدْفَعُوا أَرْوَاحَهُمْ ثَمَنًا لِهِدَايَتِكُمْ إِلَى اللَّهِ ...

وَلِإِنْفَادِكُمْ مِنَ النَّارِ ...

* * *

وَبَعْدُ ... فَالْيَكُمُ الْقِصَّةُ الْأَخِيرَةُ لِهَذَا الْجَيْشِ .

وَحَبَرَ بَطْلِهِ الْفَدَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْغَافِقِيُّ .

تَنَاهَتْ إِلَى « دُوقِ أُكْتَانِيَّةِ » الْأَخْبَارُ الْمُفْرِغَةُ عَنْ مَضَرِعِ صَهْرِهِ عُثْمَانَ بْنِ
أَبِي نُسْعَةَ (٥) .

وَبَلَغَتْهُ أَنْبَاءُ النَّهَائَةِ الْحَزِينَةِ الَّتِي صَارَتْ إِلَيْهَا ابْنَتُهُ الْحَسَنَاءُ « مِينِيْنُ » (٦) ...

(١) البوتقة : الوعاء الذي يذيب فيه الصائغ الذهب والفضة .

(٢) تطاطئ : تخفض .

(٣) بطاحكم : سهولكم .

(٤) سوقتكم : عامتكم .

(٥) انظر خبره في : « عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس » .

(٦) انظر خبرها في : « عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس » .

فَأَذْرَكَ أَنَّ طُبُولَ الْحَرْبِ قَدْ دَقَّتْ ...
وَأَيَقَنَ أَنَّ أَسَدَ الْإِسْلَامِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيَّ مُمَسِّ فِي دِيَارِهِ ،
أَوْ مُصْبِحُ ...

فَتَأَهَّبَ لِلدَّفَاعِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَرْضِهِ ؛ دِفَاعَ الْمُسْتَمِيتِ .
وَاسْتَعَدَّ لِلنِّصَالِ دُونَ نَفْسِهِ وَمَمْلَكَتِهِ ؛ اسْتِعْدَادَ الْمُسْتَبْسِلِ ...
فَقَدْ كَانَ يَخْشَى أَنْ يُسَاقَ هُوَ الْآخَرُ أُسِيرًا إِلَى دَارِ الْخِلَافَةِ فِي الشَّامِ كَمَا
سَيَقْتِ ابْنَتُهُ .

أَوْ أَنْ يُحْمَلَ رَأْسُهُ عَلَى طَبَقٍ ، وَيُطَافَ بِهِ فِي أَسْوَاقِ « دِمَشْقَ » كَمَا طِيفَ
بِرَأْسِ « لُذْرِيْقَ » مَلِكِ إِسْبَانِيَا مِنْ قَبْلُ .

* * *

لَمْ يُكَذِّبْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيَّ ظَنُّ الدُّوقِ ...
فَانْطَلَقَ بِجَيْشِهِ اللَّجَبِ (١) مِنْ شِمَالِ « الْأَنْدَلُسِ » كَمَا يَنْطَلِقُ
الْإِعْصَارُ (٢) .

وَانْصَبَّ عَلَى جَنُوبِ « فَرَنْسَا » مِنْ فَوْقِ جِبَالِ « الْبِرْنِيَّةِ » كَمَا يَنْصَبُّ
السَّيْلُ .

وَكَانَتْ عِدَّةُ جَيْشِهِ مِائَةً أَلْفٍ مُجَاهِدٍ .
بَيْنَ جَوَانِحِ كُلِّ مِنْهُمْ قَلْبُ أَسَدٍ ...
وَفِي عُزُوقِهِ عَزْمَةٌ مَارِدٍ (٣) ...

* * *

(١) اللَّجَبُ : الكثيف الجرار .

(٢) الإِعْصَارُ : ريح تقذف مياه البحار والتراب .

(٣) المارد : القوي الذي لَا يُغْلَبُ .

يَمَّمُ^(١) الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيَّ وَجْهَهُ شَطْرَ مَدِينَةِ «آرِل»^(٢) الْوَاقِعَةِ عَلَى
ضِفَافِ نَهْرِ «الرُّون» .

فَلَقَدْ كَانَ لَهُ مَعَهَا حِسَابٌ ...

ذَلِكَ أَنَّ «آرِل» هَذِهِ كَانَتْ قَدْ صَالَحَتِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنْ تَدْفَعَ لَهُمْ
الْجِزْيَةَ .

فَلَمَّا اسْتَشْهِدَ «السَّمُحُ بْنُ مَالِكِ الْخَوْلَانِيُّ» فِي مَعْرَكَةِ «تُولُوز»^(٣) ،
وَتَضَعَضَعَ الْمُسْلِمُونَ لِمَضْرَعِهِ ؛ نَبَذَ^(٤) أَهْلُ «آرِل» الطَّاعَةَ ، وَنَكَثُوا الْعَهْدَ ،
وَأَمْتَنَعُوا عَنْ دَفْعِ الْجِزْيَةِ .

وَلَمَّا بَلَغَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ صَوَاحِي الْمَدِينَةِ ، وَجَدَ أَنَّ «أُودَ» «دُوقِ
أُكْتَانِيَّة» قَدْ عَبَأَ قُوَاتِهِ الْكَثِيفَةَ عِنْدَهَا .

وَحَشَدَهَا حَوْلَ ثُخُومِهَا ...

وَتَصَدَّى^(٥) لِرِدِّ الرَّحْفِ الْإِسْلَامِيِّ عَلَيْهَا ...

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ التَّمَّى الْجَيْشَانِ وَجْهًا لَوْجِهِ .

وَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَعْرَكَةٌ طُحُونُ^(٦) ...

قَذَفَ خِلَالَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ بِكَتَائِبٍ مِنْ جَيْشِهِ تُحِبُّ الْمَوْتَ
أَكْثَرَ مِمَّا يُحِبُّ أَعْدَاؤُهَا الْحَيَاةَ ، فَزَلَزَ أَقْدَامَ الْعَدُوِّ ... وَمَزَقَ صُفُوفَهُ ...

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ حَرْبًا .

(١) يَمَّمُ وَجْهَهُ : وَلَّى وَجْهَهُ ، وَاتَّجَهَ .

(٢) ARLES : مدينة في جنوب فرنسا على نهر الرّون شمالي مرسيليا .

(٣) TOULOUSE : مدينة في جنوب فرنسا على نهر الغارون وهي قاعدة محافظة غارون العليا .

(٤) نَبَذُوا الطَّاعَةَ : غَضُّوا وَخَرَجُوا عَلَى الطَّاعَةِ . (٥) تَصَدَّى : اتَّجَهَ وَتَعَرَّضَ . (٦) طُحُون : طاحنة ، قاسية .

فَأَعْمَلَ السَّيْفَ فِي رِقَابِ أَهْلِهَا .

وَأُتِّخَنَ ^(١) فِيهِمْ إِنْخَانًا .

وَعَنِمَ مِنْهُمْ غَنَائِمَ عَزَّتْ عَلَى الْحَصْرِ .

أَمَّا الدُّوقُ « أَوْدُ » فَقَدْ فَرَّ بِمَنْ بَقِيَ حَيًّا مِنْ جُنُودِهِ ...

وَطَفِقَ يُعِدُّ الْعُدَّةَ لِلِقَاءِ آخَرَ مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ .

فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ مَعْرَكَةَ « آرِل » كَانَتْ بِدَايَةِ الطَّرِيقِ ، وَلَيْسَتْ نِهَائِيَّةً .

* * *

عَبَّرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ بِجَيْشِهِ الْجَرَّارِ نَهْرَ « الْجَارُون » ^(٢) ، وَطَفِقَتْ كِتَابَتُهُ الظَّافِرَةُ تَجُوسُ ^(٣) مُقَاطَعَةً « أُكْتَانِيَّة » ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَذَاتَ الشَّمَالِ .

وَأَخَذَتِ الْمُدُنُ وَالْقُرَى تَتَسَاقُطُ تَحْتَ سَنَابِكِ ^(٤) خَيْلِهِ كَمَا تَتَسَاقُطُ أَوْزَاقُ الشَّجَرِ فِي فَضْلِ الْخَرِيفِ إِذَا هَبَّتْ عَلَيْهَا الرِّيحُ الْهُوجُ ^(٥) .

وَأَضَافَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى غَنَائِمِهِمُ السَّابِقَةِ غَنَائِمَ لَاحِقَةً لَمْ تَرَهَا عَيْنٌ مِنْ قَبْلُ ...

وَلَمْ تَسْمَعْ بِهَا أُذُنٌ ...

وَقَدْ حَاوَلَ دُوقُ « أُكْتَانِيَّة » أَنْ يَتَصَدَّى لِهَذَا الزَّخْفِ الْكَبِيرِ مَرَّةً أُخْرَى فَاسْتَبَكَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعْرَكَةِ ضُرُوسِ .

(١) أُتِّخَنَ : اشْتَدَّ فِي قَتْلِهِمْ وَبَالَغَ فِيهِ أَشَدَّ الْمَبَالِغَةِ .

(٢) GARONNE : نَهْرٌ فِي جَنُوبِ غَرْبِي فَرَنْسَا ٦٥٠ كَمَ يَنْبَعُ مِنْ إِسْبَانِيَا وَيُرْوِي تُولُوزَ ، وَاجْنُ وَبُورْدُو ، وَيَصُبُّ فِي الْأَطْلَسِيِّ .

(٣) تَجُوسُ : تَجُولُ وَتَسْتَقْصِي .

(٤) سَنَابِكُ خَيْلِهِ : حَوَافِرُ جِيَادِهِ .

(٥) الْهُوجُ : الَّتِي تَقْلَعُ الْبُيُوتَ .

لَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ مَا لَبِثُوا أَنْ هَزَمُوهُ هَزِيمَةً طَاحِنَةً^(١)...

وَأَنْزَلُوا بِهِ نَكْبَةً سَاحِقَةً مُدْمِرَةً...

وَمَزَقُوا جَيْشَهُ شَرَّ مُمَزَّقٍ...

وَتَرَكُوا جُنْدَهُ بَيْنَ قَتِيلٍ، وَأَسِيرٍ، وَهَزِيمٍ^(٢).

* * *

ثُمَّ اتَّجَهَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَدِينَةِ «بُورْدُو»^(٣) كُتِبَ الْمُدْنِ «الإِفْرَنْسِيَّة»
آنَ ذَاكَ، وَعَاصِمَتِ مُقَاطَعَةِ «أُكْتَانِيَّة».

وَحَاضُوا مَعَ أَمِيرِهَا مَعْرَكَةً لَا تَقِلُّ هَوْلًا عَنِ الْمَعَارِكِ السَّابِقَةِ...

اسْتَبَسَلَ فِيهَا الْمُهَاجِمُونَ وَالْمُدَافِعُونَ اسْتَبَسَالًا يُثِيرُ الْعَجَبَ
وَالْإِعْجَابَ^(٤)...

لَكِنَّ الْمَدِينَةَ الْكَبِيرَةَ الْخَطِيرَةَ مَا لَبِثَتْ أَنْ سَقَطَتْ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ
كَمَا سَقَطَتْ أَخَوَاتُهَا مِنْ قَبْلُ.

وَمَا لَبِثَتْ أَمِيرُهَا أَنْ قُتِلَ فِي جُمْلَةِ الْقَتْلَى.

وَأُخْزِرَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ غَنَائِمِ «بُورْدُو» مَا هَوَّنَ^(٥) فِي أَعْيُنِهِمْ كُلَّ
مَا أُخْزِرُوهُ مِنْ غَنَائِمٍ.

وَقَدْ كَانَ سُقُوطُ «بُورْدُو» فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ فَاتِحَةً لِسُقُوطِ مُدْنٍ
أُخْرَى كَثِيرَةٍ خَطِيرَةٍ.

(١) الطاحنة : التي تطحن ما تقع عليه طحناً.

(٢) هزيم : مهزوم .

(٣) BORDEAUX : مرفأ في فرنسا على نهر الغارون وهي الآن قاعدة محافظة جironde .

(٤) الإعجاب : الإكبار والدهشة . (٥) ما هَوَّنَ في أعينهم : ما جعلهم يستخفون به ويعتبرونه قليلاً .

أَهْمَهَا « لِيُونُ » ^(١) وَ « بِيْرَانْسُونُ » ^(٢) وَ « سَانْسُ SENS » .
وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَخِيرَةُ لَا تَبْعُدُ عَنْ « بَارِيسَ » أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مِيلٍ .

* * *

اهْتَزَّتْ « أُورُبَّا » مِنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا لِسُقُوطِ نِصْفِ « فَرَنْسَا »
الْجَنُوبِيِّ كُلِّهِ فِي يَدَيِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيِّ خِلَالَ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ ...
وَفَتَحَ الْفَرَنْجَةُ أَعْيُنَهُمْ عَلَى الْخَطَرِ الدَّاهِمِ ^(٣) .

وَدَبَّ الصَّرِيخُ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَدْعُو الْعَجْزَةَ وَالْقَادِرِينَ إِلَى الْوُقُوفِ فِي وَجْهِ
هَذَا الْهَوْلِ ^(٤) الْقَادِمِ مِنَ الشَّرْقِ .

وَيَحْضُهُمْ عَلَى التَّصَدِّي لَهُ بِالْصُّدُورِ إِذَا عَزَّتِ الشُّيُوفُ .
وَيَدْعُوهُمْ إِلَى سَدِّ الطَّرِيقِ أَمَامَهُ بِالْأَجْسَادِ إِذَا انْعَدَمَ الْعَتَادُ ^(٥) .
فَاسْتَجَابَتْ « أُورُبَّا » لِدَعْوَةِ الدَّاعِي .

وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى الْإِنْضِوَاءِ تَحْتَ لُؤَاءِ « شَارْلَ مَارْتِلَ » وَمَعَهُمُ الشَّجَرُ ،
وَالْحَجَرُ ، وَالشُّوكُ ، وَالسَّلَاحُ .

* * *

كَانَ الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ آنَ ذَاكَ قَدْ بَلَغَ مَدِينَةَ « تُورُ TOURS » طَلِيعَةَ مُدُنِ
« فَرَنْسَا » وَفَرَّةً فِي الشُّكَّانِ ، وَقُوَّةً فِي الْبُنْيَانِ ، وَعِرَاقَةً ^(٦) فِي التَّارِيخِ ...
وَكَانَتْ الْمَدِينَةُ - فَوْقَ ذَلِكَ - تَخْتَالُ ^(٧) عَلَى أَكْثَرِ مُدُنِ « أُورُبَّا »
بِكُنَيْسَتَيْهَا الْفَحْمَةِ ، الصُّخْمَةِ ، الْعَامِرَةِ بِجَلِيلِ الْأَعْلَاقِ ^(٨) ، وَكَرِيمِ النَّفَائِسِ .

(١) LYON : مدينة في جنوب شرقي فرنسا على ملتقى الرون والسون وهي قاعدة محافظة الرون .

(٢) BESANCON : مدينة في شرق فرنسا على نهر دو قاعدة محافظة دو .

(٣) الدَّاهِمُ : المفاجئ . (٦) عِرَاقَةٌ : قَدَمًا وَمَكَانَةً وَسَمَوًّا .

(٤) الْهَوْلُ : الخطر المرعب . (٧) تَخْتَالُ : تعتر وتباهل .

(٥) العتاد : كل ما أعد من سلاح ودواب وآلة حرب . (٨) الأعلاق : الآثار القديمة ، النفيسة الثمينة .

فَأَحَاطَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ إِحَاطَةً الْغُلِّ^(١) بِالْعُنُقِ ...
وَأَنْصَبُوا عَلَيْهَا أَنْصَابَ الْمُنُونِ إِذَا جَاءَ الْأَجَلُ ...
وَأَسْتَرْخَصُوا فِي سَبِيلِ افْتِتَاحِهَا الْأَزْوَاحَ وَالْمُهَاجِرَ ...
فَمَا لَبِثْتُ أَنْ سَقَطْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ عَلَى مَرَأَى « شَارِلَ مَارْتِل » وَمَسْمَعِهِ ...

* * *

وَفِي الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ مِنْ شَهْرِ شَعْبَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ ؛ زَحَفَ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ بِجَيْشِهِ اللَّجْبِ عَلَى مَدِينَةِ « بُوَاتِيَّه » (POITIERS) .
وَهُنَاكَ التَّقَى مَعَ مَجِيُوشٍ أَوْرُبَّا الْجَرَّارَةِ بِقِيَادَةِ « شَارِلَ مَارْتِل » .
وَوَقَعَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ إِحْدَى الْمَعَارِكِ الْفَاصِلَةِ لَا فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ
وَالْفَرِجَةِ فَحَسِبُ ...

وَلِنَّمَا فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا .
وَقَدْ عُرِفَتْ هَذِهِ الْمَعْرَكَةُ بِمَعْرَكَةِ « بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ » .

* * *

كَانَ الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ يَوْمَئِذٍ فِي ذُرُوءِ انْتِصَارَاتِهِ الْبَاهِرَةِ .
لَكِنَّ كَاهِلَهُ^(٢) كَانَ مُثْقَلًا بِتِلْكَ الْعَنَائِمِ الَّتِي أَنْصَبَتْ عَلَيْهِ أَنْصَابُ
الْعَيْثِ ...

وَتَكَدَّسَتْ فِي أَيْدِي جُنُودِهِ تَكَدُّسُ الشُّحْبِ ...
وَقَدْ نَظَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ إِلَى هَذِهِ الثَّرْوَةِ الطَّائِلَةِ الْهَائِلَةِ نَظْرَةً فَلَقِيَ
وِإِشْفَاقٍ^(٣) .

(٣) إشفاق : خوف وخذر .

(٢) كاهله : ظهره .

(١) الغل : القيد .

وَتَوَجَّسَ (١) مِنْهَا خِيفَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ .
فَقَدْ كَانَ لَا يَأْمُرُ أَنْ تَشْغَلَ هَذِهِ النَّفَائِسُ قُلُوبَهُمْ عِنْدَ اللَّقَاءِ ...
وَأَنْ تُوزَّعَ نُفُوسُهُمْ فِي لَحْظَاتِ الْبَأْسِ (٢) ...
وَأَنْ تَجْعَلَ إِحْدَى عَيْنِي الْوَاحِدِ مِنْهُمْ عَلَى الْعَدُوِّ الْمُقْبِلِ عَلَيْهِ ...
وَعَيْنُهُ الْأُخْرَى عَلَى الْغَنَائِمِ الَّتِي فِي يَدَيْهِ ...
وَلَقَدْ هَمَّ بِأَنْ يَأْمُرَ جُنُودَهُ بِالتَّخْلُصِ مِنْ هَذِهِ الثَّرَوَاتِ الطَّائِلَةِ الْهَائِلَةِ ...
وَلَكِنَّهُ خَشِيَ أَلَّا تَطِيبَ قُلُوبُهُمْ (٣) بِذَلِكَ الْقَرَارِ الْخَطِيرِ ...
وَأَلَّا تَسْمَحَ نُفُوسُهُمْ بِالتَّخْلِي عَنْ ذَلِكَ الْكَثْرِ الثَّمِينِ .
فَلَمْ يَجِدْ وَسِيلَةً خَيْرًا مِنْ أَنْ يَجْمَعَ هَذِهِ الْمَغَانِمَ فِي مُخَيَّمَاتٍ خَاصَّةٍ ...
وَأَنْ يَجْعَلَهَا وَرَاءَ الْمُعَسْكَرِ قَبْلَ إِنْشَابِ (٤) الْقِتَالِ .

* * *

وَقَفَ الْجَيْشَانِ الْكَبِيرَانِ بِضِعَةِ أَيَّامٍ كُلُّ مِنْهُمَا قُبَالَةَ (٥) الْآخَرِ فِي سُكُونٍ ،
وَتَرَقُّبٍ وَصَمْتٍ ، كَمَا تَقِفُ سِلْسِلَتَانِ مِنَ الْجِبَالِ إِحْدَاهُمَا فِي وَجْهِ الْأُخْرَى .
فَقَدْ كَانَ كُلُّ مِنَ الْجَيْشَيْنِ يَخْشَى بَأْسَ عَدُوِّهِ ، وَيَخْسِبُ لِلِقَائِهِ أَلْفَ
حِسَابٍ .

فَلَمَّا طَالَ الْوَقْتُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ، وَوَجَدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ

(١) توجَّسَ خيفة: أحسَّ بالفرع .

(٢) البأس: الشدة .

(٣) تطيب قلوبهم: تراح نفوسهم وتجود أيديهم .

(٤) إنشَاب القتال: إثارة الحرب .

(٥) قُبَالَةَ الآخر: في مواجهة الآخر .

مَرَّاجِلَ^(١) الْحَمِيَّةِ وَالْإِقْدَامِ تَغْلِي فِي صُدُورِ رِجَالِهِ ، آثَرُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْبَادِي
بِالْهُجُومِ مُعْتَمِداً عَلَى مَنَاقِبِ^(٢) جُنْدِهِ ...
مُتَقَاتِلًا بِمُحْسِنِ طَالِعِهِ^(٣) فِي النَّصْرِ .

* * *

انْقَضَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِيُّ بِفُرْسَانِهِ عَلَى صُفُوفِ الْفِرَنْجَةِ انْقِصَاصُ
الْأَسُودِ الْكَاسِرَةِ .

وَصَمَدَ لَهُمُ الْفِرَنْجَةُ صُمُودَ الْأَطْوَادِ^(٤) الرَّاسِخَةِ .
وَانْقَضَى الْيَوْمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَيَّامِ الْمَعْرَكَةِ دُونَ أَنْ تَرْجَحَ فِيهِ كَفَّةٌ عَلَى
كَفَّةٍ ...

وَلَمْ يَحْجُزْ بَيْنَ الْمُتَقَاتِلِينَ غَيْرُ هُبُوطِ الظَّلَامِ عَلَى مَيْدَانِ الْقِتَالِ ...
ثُمَّ تَجَدَّدَ النَّزَالُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِي ، وَحَمَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْفِرَنْجَةِ
حِمَالَتٍ بَاسِلَةً ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا مِنْهُمْ وَطَرًا^(٥) .
وَوَظَلَّتِ الْمَعْرَكَةُ تَدَوُّرَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ طَوِيلَةً ثَقِيلَةً .
فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ كَرَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَدُوِّهِمْ كَرَّةً وَاحِدَةً .
فَفَتَحُوا فِي صُفُوفِهِ ثُغْرَةً كَبِيرَةً لَاحَ لَهُمْ مِنْ خِلَالِهَا النَّصْرُ كَمَا يُلُوخُ ضَوْءُ
الصُّبْحِ مِنْ خِلَالِ الظَّلَامِ .

عِنْدَ ذَلِكَ أَغَارَتْ فِرْقَةٌ مِنْ كَتَائِبِ الْفِرَنْجَةِ عَلَى مُعَسِكَرَاتِ الْغَنَائِمِ .
فَلَمَّا رَأَى الْمُسْلِمُونَ أَنَّ غَنَائِمَهُمْ قَدْ أَوْشَكَتْ أَنْ تَقَعَ فِي أَيْدِي أَعْدَائِهِمْ .

(١) المَرَّاجِلُ : المَوَاقِدُ ، وَالْمِرْجَلُ : الْقِدْرُ أَيْضاً .

(٤) الْأَطْوَادُ : الْجِبَالُ .

(٢) الْمَنَاقِبُ : الْمَزَايَا وَالْخِصَالُ .

(٥) وَطَرًا : بُغْيَةً .

(٣) طَالِعُهُ : حِطَّةُ .

انْكَفَأَ^(١) كَثِيرٌ مِنْهُمْ لِاسْتِخْلَاصِهَا مِنْهُ .

فَتَصَدَّعَتْ لِذَلِكَ صُفُوفُهُمْ ...

وَتَضَعَضَعَتْ جُمُوعُهُمْ ...

وَذَهَبَتْ رِيحُهُمْ^(٢) ...

فَهَبَ الْقَائِدُ الْعَظِيمُ يَعْمَلُ عَلَى رَدِّ الْمُتَكَبِّرِينَ ...

وَمُدَافَعَةِ الْمُهَاجِمِينَ ...

وَسَدِّ الثُّغُورِ^(٣) ...

وَفِيمَا كَانَ بَطَلُ الْإِسْلَامِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَاقِبِيُّ يَذَرُغُ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ عَلَى صَهْوَةٍ^(٤) جَوَادِهِ الْأَشْهَبِ^(٥) جَيْئَةً وَذَهَاباً ...

وَكُرّاً وَفَرّاً ...

أَصَابَهُ سَهْمٌ نَافِذٌ فَهَوَى عَنْ مَتْنِ فَرَسِهِ كَمَا يَهْوِي الْعُقَابُ^(٦) مِنْ فَوْقِ قِمَمِ الْجِبَالِ .

وَتَوَلَّى صَرِيحاً شَهِيداً عَلَى أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ .

فَلَمَّا رَأَى الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ عَمَّهُمُ الدُّعْرُ وَسَادَهُمُ الْإِضْطِرَابُ .

وَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِمْ وَطْأَةُ الْعَدُوِّ ، وَلَمْ يُوقِفْ بَأْسُهُ عَنْهُمْ إِلَّا حُلُولُ الظَّلَامِ .

* * *

(١) انْكَفَأَ : تراجع .

(٢) رِيحُهُمْ : قوتهم وغلبيتهم .

(٣) الثُّغُورُ : الأماكن التي ينفذ منها العدو .

(٤) الصَّهْوَةُ : مقعد الفارس من الفرس .

(٥) الْأَشْهَبُ : الذي خالط بياضه سواده .

(٦) الْعُقَابُ : طائر من الجوارح قوي الخالب ذو منقار أعقف انظر كتاب « الصيد عند العرب » للمؤلف .

فَلَمَّا أَصْبَحَ الصُّبْحُ وَجَدَ « شَارُلُ مَارْتِلُ » أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ انْسَحَبُوا مِنْ « بُوَانِيَّةِ » .

فَلَمْ يَجْرُؤْ عَلَى مُطَارَدَتِهِمْ ...
وَلَوْ طَارَدَهُمْ لَأَفْنَاهُمْ .

ذَلِكَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَكُونَ انْسِحَابُهُمْ مَكِيدَةً مِنْ مَكَائِدِ الْحَرْبِ دُبِّرَتْ (١)
فِي لَيْلٍ ...

فَأَثَرَ الْبَقَاءِ فِي مَوَاقِعِهِ مُكْتَفِيًا بِذَلِكَ النَّصْرِ الْكَبِيرِ .
لَقَدْ كَانَ يَوْمُ بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ يَوْمًا حَاسِمًا فِي التَّارِيخِ .
أَضَاعَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ أَمَلًا مِنْ أَعَزِّ الْأَمَالِ ...
وَفَقَدُوا خِلَالَهُ بَطَلًا مِنْ أَعْظَمِ الْأَبْطَالِ ...
وَتَكَرَّرَتْ فِيهِ مَأْسَاةُ يَوْمِ « أُحُدٍ » (٢) ...
سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ...
وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ...

* * *

هَزَّتْ أَنْبَاءُ فَاجِعَةِ يَوْمِ بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ نُفُوسَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ هَزًّا
عَنيفًا ...

وَزُلْزِلَتْ (٣) لِهَوْلِهَا أَفْعَدُّهُمْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ...
وَعَمَّ الْحُزْنَ بِسَبَبِهَا كُلَّ مَدِينَةٍ ، وَكُلِّ قَرْيَةٍ ، وَكُلِّ بَيْتٍ .

(١) دُبِّرَتْ فِي لَيْلٍ : حِيلَةٌ احْتِيلَ بِهَا سِرًّا .

(٢) لَقَدْ كَانَ الْحَرْصُ عَلَى الْغَنَائِمِ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَفِي يَوْمِ « أُحُدٍ » سَبَبًا فِي هَزِيمَةِ الْمُسْلِمِينَ .

(٣) زُلْزِلَتْ : أُرْجِفَتْ .

وَمَا زَالَ جُرْحُهَا الْمُمِضُ (١) يَنْزِفُ (٢) مِنْ قُلُوبِهِمْ دَمًا حَتَّى الْيَوْمِ .
وَسَيَظَلُّ يَنْزِفُ مَا بَقِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مُسْلِمًا .

* * *

وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ هَذَا الْجُرْحَ الْعَمِيقَ الْغَائِرَ قَدْ أَمَضَّ أَفِيدَةُ الْمُسْلِمِينَ
وَحَدَّهُمْ .

وَلِنَّمَا شَارَكَهُمْ فِي ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْ عُقَلَاءِ الْفِرَنْجَةِ .
رَأَوْا فِي انْتِصَارِ أَجْدَادِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي « بُوَاتِيَّةِ » مُصِيبَةٍ كُبْرَى
رُزِئَتْ (٣) بِهَا الْإِنْسَانِيَّةُ .

وَحَسَارَةٌ عَظُمَى أَصَابَتْ « أَوْرُبَّا » فِي صَمِيمِهَا ...
وَنَكْبَةٌ جُلَّى نُكِبَتْ بِهَا الْحَضَارَةُ .

وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَقِفَ عَلَى رَأْيِ بَعْضِ هَؤُلَاءِ فِي فَجِيعَةِ بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ
فَاسْتَمِعْ إِلَى « هِنْرِي دِي شَامْبُون » مُدِيرِ مَجَلَّةِ « رِيْفِي بَارْلَمَنْتِير » الْفَرَنْسِيَّةِ
حَيْثُ قَالَ :

« لَوْلَا انْتِصَارُ جَيْشِ « شَارْلَ مَارْتِل » الْهَمَجِيِّ عَلَى الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ فِي
« فَرَنْسَا » لَمَا وَقَعَتْ بِلَادُنَا فِي ظُلُمَاتِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى (٤) ...
وَلَمَا أُصِيبَتْ بِفَظَائِعِهَا .

وَلَا كَابَدَتِ الْمَذَابِحَ الْأَهْلِيَّةَ الَّتِي دَفَعَ إِلَيْهَا التَّعَصُّبُ الدِّينِيُّ الْمَذْهَبِي ...

(١) المُمِضُ : الموجع .

(٢) يَنْزِفُ : يَقْطُرُ دَمًا .

(٣) رُزِئَتْ : فَجِعَتْ .

(٤) الْقُرُونِ الْوُسْطَى : وَهِيَ الْقُرُونُ الْمَظْلَمَةُ الَّتِي تَمْتَدُّ مِنْ سَنَةِ ٤٧٦ إِلَى سَنَةِ ١٥٠٠ م .

نَعَمْ، لَوْلَا ذَلِكَ الْإِنْتِصَارُ الْوَحْشِيُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي «بُؤَاتِيَّة» لَظَلَّتْ
«إِسْبَانِيَا» تَتَنَعَّم بِسَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ.

وَلَنَجَتْ مِنْ وَصْمَةِ مَحَاكِمِ التَّفْتِيشِ^(١).

وَلَمَّا تَأَخَّرَ سَيْرُ الْمَدِينَةِ ثَمَانِيَةَ قُرُونٍ.

وَمَهْمَا اخْتَلَفَتِ الْمَشَاعِيرُ وَالْآرَاءُ حَوْلَ انْتِصَارِنَا ذَاكَ.

فَنَحْنُ مَدِينُونَ لِلْمُسْلِمِينَ بِكُلِّ مَحَامِدٍ حَضَارَتَنَا فِي الْعِلْمِ، وَالْفَنِّ،
وَالصَّنَاعَةِ.

مَدْعُوُونَ لِأَنْ نَعْتَرِفَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مِثَالَ الْكَمَالِ الْبَشَرِيِّ.

فِي الْوَقْتِ الَّذِي كُنَّا فِيهِ مِثَالِ الْهَمَجِيَّةِ.

وَأَفْتِرَاءِ مَا نَدَّعِيهِ الْيَوْمَ مِنْ أَنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ^(٢).

وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَصَلُوا فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ فِي الْعُصُورِ
الْوُسْطَى «(*)».

(١) محاكم التفتيش: هي المحاكم التي عقدها فرديناند والملكة إيزابيلا للمسلمين في الأندلس وارتكبا فيها من
الجرائم الإنسانية ما يندى له جبين التاريخ.

(٢) استدار: قد عاد إلى ما كان عليه.

(*) للاستزادة من أخبار غنبد الرحمن العافقي ووقعة بُؤَاتِيَّة انظر:

١ - ابن الأثير: ٦٤/٥.

٢ - غزوات العرب: ٨٧ - ١٠٢.

٣ - البيان المغرب: ٢٦/٢ - ٢٨.

٤ - نفح الطيب: ٤٨٠/١.

٥ - جمهرة الانساب: ٣٠٩.

٦ - علماء الأندلس لابن الفَرُضِيِّ: ٢١٤.

٧ - جذوة المقتبس: ٢٥٣ - ٢٥٥.

النَّجَاشِي

أَصْحَمَةُ بْنُ أَبَجَرَ

«لَمَّا مَاتَ النَّجَاشِي كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يُرَى عَلَى قَبْرِهِ نُورٌ...»

[عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ]

عَلَّمْنَا هَذَا تَابِعِي إِذَا ذُكِرَ التَّابِعُونَ...

صَحَابِي إِذَا عُذَّ الصَّحَابَةُ...

رَاسَلَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَرَاسَلَهُ النَّبِيُّ ...

وَلَمَّا لَحِقَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى (١) صَلَّى عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ صَلَاةَ الْغَائِبِ ؛ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يُصَلِّ عَلَى غَائِبٍ سِوَاهُ .

إِنَّهُ «أَصْحَمَةُ بْنُ أَبَجَرَ» الْمَعْرُوفُ بِالنَّجَاشِيِّ (٢) ، فَتَعَالَوْا نَقْضِ هَذِهِ اللَّحْظَاتِ الْمُبَارَكَاتِ مَعَ هَذَا الْعَلَمِ (٣) الْفَذِّ مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

كَانَ وَالِدُ «أَصْحَمَةَ» مَلِكًا «لِلْأَحْبَاشِ» وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ سِوَاهُ .

فَقَالَ بَعْضُ زُعَمَاءِ «الْحَبَشَةِ» لِبَعْضِ :

إِنَّ مَلِكَنَا لَا وَلَدَ لَهُ غَيْرَ هَذَا الْغُلَامِ ...

وَأَنَّ ذَلِكَ سَيَنْفُتُ فِي عَضْدِهِ (٤) وَهُوَ حَيٌّ ، وَيَقْضِي عَلَى مُلْكِهِ إِذَا مَاتَ ، وَيَسُوقُنَا إِلَى مَا لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ (٥) .

(١) لحق بالرفيق الأعلى : تُوُفِّي .

(٢) أصحمة : اسمه ، والنجاشي : لقب له وللملوك الحبشة ، مثل كسرى : الملك الفرس ، وقیصر : ملك الروم .

(٣) العلم : سيد القوم ، والفذ : الفرد .

(٤) سَيَنْفُتُ فِي عَضْدِهِ : يضعفه .

(٥) لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ : لَا يَسُرُّ .

فَحَبَدَا لَوْ قَتَلْتَاهُ ، وَمَلَكْنَا أَخَاهُ ؛ فَإِنَّ لَهُ اثْنَيْ عَشَرَ وَلَدًا يُؤَاوِرُونَهُ فِي حَيَاتِهِ ،
وَيَرْتُونَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ .

وَمَا زَالَ يُوسُوسُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، وَيَبِثُّ فِي رُوعِهِمْ مِنْ رُوعِهِ ^(١) ، حَتَّى
قَتَلُوا مَلَكَهُمْ ، وَبَايَعُوا أَخَاهُ مِنْ بَعْدِهِ .

* * *

نَشَأَ « أَصْحَمَةُ » فِي كَنْفِ ^(٢) عَمِّهِ ، وَأَخَذَتْ بِرَاعِمُهُ تَتَفَتَّحُ عَنْ ذَكَاءِ
لَامِعٍ ، وَخَزَمِ رَائِعٍ ، وَبَيَانِ مُشْرِقٍ ، وَشَخْصِيَّةِ فِدَّةٍ .

حَتَّى مَلَأَ قُودَ عَمِّهِ إِعْجَابًا بِهِ ، وَتَقْدِيرًا لِمَزَايَاهُ ، وَتَفْضِيلًا لَهُ عَلَى أَهْبَائِهِ .
ثُمَّ وَسَّوسَ ^(٣) الشَّيْطَانُ مَرَّةً أُخْرَى لِسَادَةِ « الْأَحْبَاشِ » فَقَالَ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ :

وَاللَّهِ إِنَّا لَنَخْشَى أَنْ يُفْضِيَ ^(٤) الْمَلِكُ إِلَى هَذَا الشَّابِّ .

وَلَعِنَ تَمَّ لَهُ ذَلِكَ ؛ لِيَنْتَقِمَ مِنَّا شَرَّ انْتِقَامٍ ...

وَلِيَقْتُلَنَا أَجْمَعِينَ جَزَاءَ مَا قَتَلْنَا أَبَاهُ .

ثُمَّ مَضَوْا إِلَى الْمَلِكِ وَقَالُوا :

أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّا لَا نَطِيبُ نَفُوسَنَا وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا ، إِلَّا إِذَا قَتَلْتَ
« أَصْحَمَةَ » ، أَوْ أَخْرَجْتَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا ...

فَهَا هُوَ ذَا قَدْ سَبَّ ، وَإِنَّا لَنَخْشَى أَنْ يَنْتَقِمَ مِنَّا جَزَاءَ مَا قَتَلْنَا أَبَاهُ .

فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ : بِئْسَ الْقَوْمُ أَنْتُمْ ...

(١) يَبِثُّ فِي رُوعِهِمْ مِنْ رُوعِهِ : يثير مخاوفهم .

(٢) فِي كَنْفِ عَمِّهِ : فِي رِعَايَةِ عَمِّهِ وَحِرْزِهِ .

(٣) وَسَّوسَ لَهُ : حَدَّثَهُ الشَّيْطَانُ بِالشَّرِّ وَأَغْرَاهُ بِهِ .

(٤) يُفْضِي : يَنْتَهِي .

لَقَدْ قَتَلْتُمْ آبَاهُ بِالْأَمْسِ ، وَتَطْلُبُونَ مِنِّي أَنْ أَقْتُلَهُ الْيَوْمَ !! ...
وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ .

فَقَالُوا : إِذَنْ نَأْخُذْهُ ، وَنَرْمِي بِهِ خَارِجَ بِلَادِنَا ...
فَأَذْعَنَ ^(١) لَهُمْ عَلَى كُرْهِ مِنْهُ وَعَجْزٍ .

* * *

لَمْ يَمُضِ عَلَى إِبْعَادِ « أَصْحَمَةَ » غَيْرُ يَوْمٍ وَبَعْضِ يَوْمٍ حَتَّى وَقَعَ مَا لَمْ يَكُنْ
فِي الْحُسْبَانِ .

فَلَقَدْ تَلَبَّدَ ^(٢) الْأَفْقُ بِالْغُيُومِ الدُّكَنِ ...

وَهَاجَتِ السَّمَاءُ بِالصَّوَاعِقِ وَمَاجَتْ ^(٣) ...

ثُمَّ سَقَطَتْ إِحْدَاهَا عَلَى عَمِّهِ الْحَزِينِ عَلَى فِرَاقِهِ ، فَأَرْدَتْهُ قَتِيلًا ...

فَهَبَ « الْأَحْبَاشُ » إِلَى أَوْلَادِ الْمَلِكِ ؛ لِيَعْهَدُوا إِلَيْهِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِالْمُلْكِ ،
فَلَمْ يَجِدُوا فِيهِمْ خَيْرًا .

فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْكَرْبُ ^(٤) ، وَضَاقَ فِي وُجُوهِهِمُ الْأَمْرُ .

وَقَدْ زَادَهُمْ ضِيقًا وَكَرْبًا أَنَّ بَعْضَ الشُّعُوبِ الْمُجَاوِرَةِ « لِلْحَبَشَةِ » ؛ هَمَّتْ
بِأَنْ تَغْصِمَ الْفُرْصَةَ ، وَأَنْ تَغْزُو دِيَارَهُمْ ...

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : وَاللَّهِ إِنَّهُ لَا يُقِيمُ أَمْرَكُمْ ^(٥) ، وَيَحْفَظُ مُلْكَكُمْ أَحَدٌ
غَيْرُ ذَلِكَ الْفَتَى الَّذِي رَمَيْتُمْ بِهِ فِي الْأَمْسِ .

فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِي أَمْرِ « الْحَبَشَةِ » حَاجَةٌ ^(٦) فَأَذْرِ كُرْهُهُ ، وَأَعِيدُوهُ ...

(١) أذعن : انقاد .

(٢) تلبد بالغيوم الدكن : تكاثفت عليه الغيوم .

(٣) هاجت وماجت : ثارت ، واضطربت .

(٤) الكرب : الحزن .

(٥) لا يقيم أمركم : لا يحقق غرضكم .

(٦) حاجة : أرب .

ثُمَّ خَرَجُوا فِي طَلَبِهِ ، وَأَعَادُوهُ إِلَى وَطَنِهِ ...
وَوَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ التَّاجَ ، وَبَايَعُوهُ بِالْمُلْكِ ، وَدَعَوْهُ بِالنَّجَاشِيِّ .
فَسَاسَ (١) الْبِلَادَ بِالْحُنُكَةِ (٢) وَالْحِكْمَةِ ...
وَأَرَاحَ الْعِبَادَ مِنَ الْأَضْطِرَابِ وَالْفَوْضَلِ ...
وَمَلَأَ « الْحَبَشَةَ » عَدْلًا وَخَيْرًا ؛ بَعْدَ أَنْ امْتَلَأَتْ ظُلْمًا وَشَرًّا ...

* * *

لَمْ يَكِدِ النَّجَاشِيُّ يَسْتَقِرُّ عَلَى كُرْسِيِّ مُلْكِهِ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِدِينِ الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَأَخَذَ الْمَهْدِيُّونَ السَّابِقُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ
يَسْتَجِيبُونَ لَهُ وَاحِدًا إِثْرَ (٣) آخَرَ ...

فَهَبَّتْ فُرَيْشٌ تُلْحِقُ بِهِمُ الْأَذَى ، وَتُنْزِلُ بِهِمُ الضَّرَّ (٤) .
فَلَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ مَكَّةُ بِمَا رَحِبَتْ (٥) ، وَأُنْزِلَ بِهِمُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ
الْأَذَى مَا يُزْلِلُ (٦) الصُّمَّ الصَّلَابَ (٧) ، قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
عَلَيْهِ :

(إِنَّ فِي أَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ ...
فَالْحَقُّوا بِبِلَادِهِ ، وَلَوْذُوا بِحِمَاهُ (٨) ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ
فَرَجًا ، وَيُهَيِّئَ لَكُمْ مِنْ ضَيْقِكُمْ مَخْرَجًا (٩)) .

* * *

(١) ساس البلاد : دبر أمور البلاد .

(٢) الحنكة : الخبرة .

(٣) إثره : بعده .

(٤) الضَّرُّ : ضد النفع .

(٧) الصُّمُّ الصَّلَابُ : الجبال الراسية .

(٨) لودوا بحماه : الجأوا إليه .

(٩) مخرجاً : منفذاً وسبيلاً إلى الخروج .

(٦) يززل : يرجف ويهز .

مَضَى رَكْبُ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى أَرْضِ « الْحَبَشَةِ » .

وَكَانُوا ثَمَانِينَ بَيْنَ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ .

فَتَذَوُّقُوا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ طَعْمَ الْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ ...

وَتَمَتَّعُوا بِحَلَاوَةِ الثَّقَلَى وَالْعِبَادَةِ ؛ دُونَ أَنْ يُعَكِّرَ صَفْوُ عِبَادَتِهِمْ مُعَكِّرٌ ،
أَوْ يُكَدِّرَ حَلَاوَةَ إِيْمَانِهِمْ مُكَدِّرٌ .

لَكِنْ قُرَيْشًا مَا كَادَتْ تَعْلَمُ بِرَحِيلِ هَذَا النَّفَرِ ^(١) الثَّمَانِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى
أَرْضِ « الْحَبَشَةِ » ، وَاسْتِقْرَارِهِمْ فِيهَا ... حَتَّى هَبَّتْ تَأْتِمُرُ ^(٢) بِهِمْ لِتَقْضِي
عَلَيْهِمْ ، أَوْ تَسْتَرِدَّهُمْ إِلَى مَكَّةَ .

* * *

أَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّجَاشِيِّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَفْذَازِ ^(٣) رِجَالِهَا ذَكَاءٌ وَحُنُكَةٌ ^(٤) .

هُمَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ^(٥) ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَيْعَةَ .

وَبَعَثَتْ مَعَهُمَا يَهْدَايَا وَفِيرَةَ لِلنَّجَاشِيِّ وَبَطَارِقَتِهِ ^(٦) مِمَّا كَانُوا
يَسْتَطْرِفُونَهُ ^(٧) مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ .

فَلَمَّا قَدِمَا « الْحَبَشَةَ » بَادَرَا إِلَى لِقَاءِ الْبَطَارِقَةِ قَبْلَ أَنْ يَلْقُوا النَّجَاشِيَّ .

وَدَفَعَا إِلَى كُلِّ بَطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ ، وَقَالَا لَهُ :

(١) النفَر : الجماعة .

(٢) تأتمر بهم : يأمر بعضها بعضاً بقتلهم .

(٣) الأفذاذ : سادة القوم ودهاتهم .

(٤) الحُنُكَةُ : الحكمة والدهاء .

(٥) عمرو بن العاص : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

(٦) البطارقة : جمع بطريق وهو القائد وذو الرتبة .

(٧) يستطرفونه : يرغبون فيه ويجدون حديثاً .

إِنَّهُ قَدْ حَلَّ فِي أَرْضِكُمْ غُلَمَانٌ مِنْ سُفَهَائِنَا ؛ صَبَّئُوا^(١) عَنْ دِينِ آبَائِهِمْ
وَأَجْدَادِهِمْ ، وَمَزَّقُوا كَلِمَةَ قَوْمِهِمْ ...

فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِي أَمْرِهِمْ ؛ فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا دُونَ أَنْ
يَسْأَلَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، فَإِنْ أَشْرَفَ قَوْمِهِمْ أَبْصَرُ بِهِمْ ...
وَأَعْلَمَ بِمَا يَدِينُونَ .

* * *

دَخَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ عَلَى النَّجَاشِيِّ ، وَسَجَدَا
لَهُ كَمَا كَانَ يَسْجُدُ لَهُ قَوْمُهُ .

فَرَحَّبَ بِهِمَا النَّجَاشِيُّ أَجْمَلَ تَرْحِيبٍ لِمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ
مِنْ وُدِّ سَابِقٍ .

ثُمَّ قَدَّمَا لَهُ الْهَدَايَا مَشْفُوعَةً^(٢) بِتَحِيَّاتِ كِبَارِ رِجَالِ مَكَّةَ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ
« أَبُو سُفْيَان »^(٣) زَعِيمُ قُرَيْشٍ .

فَاسْتَطَرَفَ^(٤) هَدَايَاهُمْ وَأَعْجَبَ بِهَا .

ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّهُ قَدْ أَوَى إِلَى مَمْلَكَتِكَ نَفَرٌ مِنْ أَشْرَارِ
غُلَمَانِنَا^(٥) قَدْ فَارَقُوا دِينَنَا ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ ...

وَجَاءُوا بِدِينٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ ، وَلَا نَعْرِفُونَهُ أَنْتُمْ ...

وَقَدْ بَعَثْنَا أَشْرَافَ قَوْمِنَا يَسْأَلُونَكَ أَنْ تَرْدَهُمْ إِلَيْهِمْ ...

فَهُمْ أَعْلَمُ بِمَا ابْتَدَعُوهُ^(٦) مِنْ دِينٍ ، وَمَا أَحَدَثُوهُ مِنْ فِتْنَةٍ .

(١) صَبَّئُوا : خرجوا .

(٢) مشفوعة : مقرونة .

(٣) أبو سُفْيَان : زعيم من زعماء قُرَيْشٍ في الجاهلية ، وسيد من ساداتهم في الإسلام .

(٤) استطرف هداياهم : استحسناها . (٥) الغلمان : الصبيان . (٦) ابتدعوه : اخترعوه .

فَنَظَرَ النَّجَاشِيُّ إِلَى بَطَارِقَتِهِ ؛ فَقَالُوا :
صَدَقَا أَيُّهَا الْمَلِكُ ، فَإِنَّا لَمْ نَقِفْ عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي اسْتَحْدَثُوهُ ...
وَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَذْرَى بِهِمْ مِنَّا ، وَأَعْلَمُ بِمَا ابْتَدَعُوهُ .
فَقَالَ النَّجَاشِيُّ :

لَا وَاللَّهِ لَا أَسْلِمُهُمْ لِأَحَدٍ حَتَّى أَسْمَعَ كَلَامَهُمْ ، وَأَقِفَ عَلَى عَقِيدَتِهِمْ .
فَإِنْ كَانُوا عَلَى شَرٍّ أَسْلَمْتُهُمْ لِقَوْمِهِمْ ...
وَإِنْ كَانُوا عَلَى خَيْرٍ حَمَيْتُهُمْ وَأَحْسَنْتُ جَوَارَهُمْ مَا دَامُوا فِي بِلَادِي ...
ثُمَّ أَرَدَفَ (١) يَقُولُ :

إِنِّي - وَاللَّهِ - لَا أَنْسَى فَضْلَ اللَّهِ عَلَيَّ ...
فَلَقَدْ رَدَّنِي إِلَى أَرْضِي ، وَحَمَانِي مِنْ كَيْدِ الْكَائِدِينَ لِي ...
وَصَانَنِي مِنْ بَغْيِ الْبَاغِينَ عَلَيَّ .

* * *

دَعَا النَّجَاشِيُّ الصَّحَابَةَ إِلَى لِقَاءِ بَنِي قَوْمِهِمْ عِنْدَهُ ...
فَأَوْجَسُوا (٢) خِيفَةً مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :
مَا تَقُولُونَ لَهُ إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ؟ .
فَقَالَ مُقَدَّمُوهُمْ : نَقُولُ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ ...
وَنُغْلِلُ مَا جَاءَنَا بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ رَبِّهِ .
ثُمَّ مَضَوْا إِلَيْهِ ؛ فَوَجَدُوا عِنْدَهُ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَيْعَةَ ...

(١) أردف : أتبع .

(٢) أوجسوا خيفة : شعروا بالخوف .

وَالْفَوْا بِطَارِقَتُهُ جَالِسِينَ عَنْ يَمِينِهِ ، وَعَنْ شِمَالِهِ .

وَقَدْ اعْتَجَزُوا^(١) قَلَانِسَهُمْ ...

وَنَشَرُوا كُتُبَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .

فَحَيَّوْهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَجَلَسُوا حَيْثُ انْتَهَى بِهِمُ الْمَجْلِسُ .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ وَقَالَ :

مَا لَكُمْ لَا تَسْجُدُونَ لِلْمَلِكِ ؟ .

فَقَالُوا : إِنَّا لَا نَسْجُدُ إِلَّا لِلَّهِ .

فَهَزَّ النَّجَاشِيُّ رَأْسَهُ إِعْجَابًا بِمَا قَالُوا ، وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ فِي رَفْقٍ وَقَالَ :

مَا هَذَا الَّذِي اسْتَحْدَثْتُمُوهُ^(٢) لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ دِينٍ ، وَفَارَقْتُمْ بِسَبَبِهِ دِينَ قَوْمِكُمْ ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي ؟ !

فَاسْتَأْذَنَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ^(٣) وَقَالَ :

أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّا لَمْ نَسْتَحْدِثْ لِأَنْفُسِنَا دِينًا ، وَإِنَّمَا جَاءَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ بِدِينِ الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَأَخْرَجَنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...

فَلَقَدْ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ^(٤) ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ^(٥) ، وَنُسِيءُ الْجَوَارَ ، وَيَنْطِشُ الْقَوِيُّ مِنَّا بِالضَّعِيفِ .
وَلَقَدْ بَقِينَا عَلَى حَالِنَا تِلْكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ ،

(١) اعتجزوا قلائسهم : تعفموا بما يضعونه على رؤوسهم .

(٢) استحدثتموه : ابتدعتموه .

(٣) انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٤) نقطع الأرحام : نهجر أهلنا ، ونعق آباءنا وأمهاتنا .

(٥) الفواحش : جمع فاحشة ، وهي الكبيرة من الذنوب .

وَنَثِيقُ بَصِيدِهِ وَأَمَانَتِهِ وَعِفَّتِهِ ؛ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ ، وَأَمَرَنَا بِعِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ ...
وَحَضَّنَا عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَأَنْ نَخْلَعَ^(١)
مَا كُنَّا نَعْبُدُهُ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ .
كَمَا أَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ
الْجَوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ ، وَصَوْنِ الدِّمَاءِ ...
وَنَهَانَا عَنْ إِيْتَانِ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ^(٢) ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ...
فَصَدَّقْنَاهُ ، وَأَمَّنَّا بِرِسَالَتِهِ ، وَاتَّبَعْنَا مَا جَاءَ بِهِ ...
وَجَعَلْنَا نَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا ، وَأَحْلَلْنَا
مَا أَحَلَّ لَنَا .
فَمَا كَانَ مِنْ قَوْمِنَا إِلَّا أَنْ عَدَوْا^(٣) عَلَيْنَا ، وَأَنْزَلُوا بِنَا أَشَدَّ الْعَذَابِ ؛
لِيَقْتِنُونَا^(٤) عَنْ دِينِنَا ، وَيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ بَعْدَ أَنْ عَبْدْنَا الْوَاحِدَ الدَّيَّانَ^(٥) .
فَلَمَّا قَهَرُونَا ، وَظَلَمُونَا ، وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا ، وَحَالُوا^(٦) بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا .
رَغِبْنَا فِي اللُّجُوءِ إِلَى جَوَارِكِ ، وَالْإِقَامَةِ فِي دِيَارِكِ .
وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ ، وَرَجَوْنَا^(٧) أَلَّا نُظْلَمَ عِنْدَكَ .
فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : هَلْ مَعَكَ شَيْءٌ مِمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ عَنْ رَبِّهِ ؟
قَالَ : نَعَمْ .

(١) نخلع : نتبرأ .
(٢) الزور : الباطل والكذب .
(٣) عَدَوْا علينا : ظلمونا واضطهدونا .
(٤) قَتَنَهُ عَنْ دِينِهِ : أَضْلَهُ .
(٥) الدَّيَّانُ : اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهُوَ الْحَاسِبُ وَالْمُحَازِي .
(٦) حَالُوا بَيْنَنَا : مَنَعُونَا .
(٧) رَجَوْنَا : أُمَلْنَا .

قَالَ : فَأَقْرَأُهُ عَلَيَّ .

فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ سُورَةِ مَرْيَمَ ، وَكَانَ مِمَّا قَرَأَهُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :
﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ ^(١) مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ^(٢) ﴾ *
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ^(٣) ...

فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ^(٤) فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ^(٥) *

قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ ^(٦) مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا *

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ^(٧) *

قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ^(٨) وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ^(٩) *

قَالَ كَذَلِكَ ^(١٠) قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا
وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا *

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا *

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ ^(١١) إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا
وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا *

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ^(١٢) ﴿١٣﴾ .

(١) انتبذت : اغترلت وانفردت .

(٢) شَرْقِيًّا : من جهة مشرق الشمس .

(٣) من دونهم حجاباً : من دون أهلها سترًا يَنْتَرُها عنهم .

(٤) من روحنا : أي جبريل عليه السلام .

(٥) فتَمَثَّلَ لها بشراً سَوِيًّا : فبدأ لها في صورة رجل مُتَعَدِّلِ الخَلْقَةِ .

(٦) أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ : أَسْتَجِيرُ بِاللَّهِ .

(٧) زَكِيًّا : طاهراً مُطَهَّراً بريئاً من الذنوب .

(٨) لَمْ يَمَسَّنِي بَشَرٌ : لم يقترب مني إنسان .

(٩) وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا : لم أكن مقارفةً لِلْعَيْبِ .

(١٠) قال كذلك : قَالَ لها جبريل إن الأمر كما تقولين .

(١١) سورة مريم : من الآية ١٦ - ٢٤ .

فَبَكَى النَّجَاشِيُّ حَتَّى اخْضَلَّتْ ^(١) لِحْيَتُهُ ...
وَبَكَى أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى بَلَّلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تُلِّي عَلَيْهِمْ ...
وَهُنَا التَّفَتَ النَّجَاشِيُّ إِلَى عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ وَصَاحِبِهِ وَقَالَ :
إِنَّ هَذَا الَّذِي تُلِّي عَلَيْنَا ، وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عَيْسَى ؛ لَيُخْرِجَانِ مِنْ مَشْكَاةٍ ^(٢)
وَاحِدَةٍ .

ثُمَّ قَالَ لَهُمَا :
وَاللَّهِ لَا أَسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمَا أَبَدًا ، وَلَا أُحْمِلُ ^(٣) عَلَى ذَلِكَ مَا حَيْثُ ...
ثُمَّ نَهَضَ قَائِمًا فَتَهَضَّ مَنْ كَانَ مَعَهُ ، وَانْفَضَّ الْمَجْلِسُ .

* * *

خَرَجَ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ وَهُوَ يَتَمَيَّزُ ^(٤) مِنَ الْغَيْظِ ...
ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبِهِ : وَاللَّهِ لَا لَأَقِيَنَّ النَّجَاشِيَّ غَدًا ، وَلَا حَدَّثَنُهُ عَنْهُمْ حَدِيثًا
يَجْتِثُ ^(٥) شَجَرَتَهُمْ ، وَيَقْضِي عَلَيْهِمْ .
فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ - وَكَانَ أَرْقَ مِنْهُ قَلْبًا - : لَا تَفْعَلْ يَا عَمْرُو ...
فَإِنَّ لَهُمْ فِينَا أَرْحَامًا ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا .
فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ شَيْئًا ...
وَكَتَمُوا شَيْئًا ... وَأَنَّهُمْ يَنَالُونَ ^(٦) مِنْهُ ، وَيَقُولُونَ عَنْهُ أَنَّهُ عَبْدٌ .
فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ دَخَلَ عَمْرُو عَلَى النَّجَاشِيِّ ، وَقَالَ :

(١) اخضلت : نديت وابتلت .
(٢) المشكاة : كوة غير نافذة ، أي من مصدر واحد .
(٣) لَا أُحْمِلُ : لَا أُغْرِى بِذَلِكَ .
(٤) يتميز : يتقطع .
(٥) يجتث شجرتهم : يقتلع شجرتهم من أصولها .
(٦) ينالون منه : يتهمون به .

أَيُّهَا الْمَلِكُ ، لَقَدْ أَسْمَعُوكَ بِالْأَمْسِ شَيْئًا وَأَخْفَوُا عَنْكَ شَيْئًا ...

فَهُمْ يَقُولُونَ عَنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ أَنَّهُ عَبْدٌ ...

فَدَعَاهُمُ النَّجَاشِيُّ وَقَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ؟!

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ :

نَقُولُ فِيهِ مَا جَاءَنَا بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَقَالَ : وَمَا الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ ؟ .

فَقَالَ جَعْفَرُ :

إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ ، وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ^(١) .

فَقَالَ النَّجَاشِيُّ : وَاللَّهِ مَا خَرَجَ عِيسَى عَمَّا قُلْتَ قِيدَ^(٢) أَنْمَلَةٍ .

فَتَنَاحَرَ^(٣) الْبَطَارِقَةُ مِنْ حَوْلِهِ مُسْتَنَكِرِينَ قَوْلَهُ .

فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ شَرْرًا^(٤) وَقَالَ : وَإِنْ تَنَاحَرْتُمْ .

ثُمَّ قَالَ لِيَجْعَفِرَ وَمَنْ مَعَهُ :

اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ آمِنُونَ فِي أَرْضِي ...

مَنْ نَالَ مِنْكُمْ غَرِمَ^(٥) ...

مَنْ نَالَ مِنْكُمْ غَرِمَ ...

وَإِنِّي مَا أَحْبُّ أَنْ أُعْطَى جَبَلًا مِنْ ذَهَبٍ ، وَأُوذِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ .

(١) البتول : الطاهرة النقية ، وهو يطلق على مريم العذراء .

(٢) قيد أنملة : مقدار رأس الإصبع .

(٣) تناحر البطارقة : كلم بعضهم بعضاً وأخرجوا من أفواههم أصواتاً كريهة .

(٤) شَرَّرًا : النظر بمؤخرة العين حال الغضب أو السخرية . (٥) غَرِمَ : خسر .

ثُمَّ قَالَ لِحُجَّابِهِ :

رُدُّوا عَلَى عَمْرٍو وَصَاحِبِهِ هَدَايَاهُمَا ، فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا ، وَإِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ مِنِّي رِشْوَةً حِينَ رَدَّنِي إِلَى مُلْكِي حَتَّى أَخَذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ ...
وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِي أَمْرِي حَتَّى أَطِيعَهُمْ فِي أَمْرِهِ .

* * *

هَبَّ الْبَطَارِقَةُ يُعْلِنُونَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ النَّجَاشِيَّ قَدْ فَارَقَ دِينَهُ ، وَاسْتَبَدَلَ بِهِ دِينًا آخَرَ ...

وَطَفِقُوا يَدْعُونَهُمْ إِلَى خَلْعِهِ ...

فَتَأَلَّبَ (١) « الْأَحْبَاشُ » عَلَيْهِ ، وَعَزَمُوا عَلَى نَقْضِ بَيْعَتِهِ .
فَأَرْسَلَ إِلَى جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابِهِ يُخْبِرُهُمْ بِالْأَمْرِ .
وَأَعَدَّ لَهُمْ سَفُنًا .

وَقَالَ لَهُمْ :

ارْكَبُوهَا وَاسْتَعِدُّوا لِمَا سَيَحْدُثُ ...

فَإِنْ هَرِمْتُ ؛ فَاْمَضُوا حَيْثُ شِئْتُمْ ...

وَإِنْ ظَفِرْتُ ؛ فَاسْتَقِرُّوا كَمَا كُنْتُمْ .

ثُمَّ أَخْضَرَ رَقًّا (٢) مِنْ جِلْدِ الْغَزَالِ وَكَتَبَ فِيهِ :

« أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَرُوحُهُ ، وَكَلِمَتُهُ الَّتِي أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ » .

(١) تَأَلَّبُوا عَلَيْهِ : تَجَمَّعُوا عَلَيْهِ ، وَحَشَدُوا لَهُ .

(٢) الرَّقُّ : جِلْدٌ رَقِيقٌ يُكْتَبُ فِيهِ .

ثُمَّ حَزَمَ الرَّقَّ عَلَى صَدْرِهِ ، وَلَبِسَ فَوْقَهُ قِبَاءَهُ^(١) ، وَمَضَى إِلَى لِقَاءِ
الْخَارِجِينَ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا غَدَا أَمَامَهُمْ نَادَاهُمْ قَائِلًا :

يَا مَعْشَرَ « الْحَبَشَةِ » كَيْفَ رَأَيْتُمْ سِيرَتِي فِيكُمْ ؟ .

فَقَالُوا : خَيْرَ سِيرَةٍ .

قَالَ : فَمَا الَّذِي أَثَارَكُمْ عَلَيَّ ؟ .

فَقَالُوا : لَقَدْ فَارَقْتَ دِينَنَا ، وَزَعَمْتَ أَنَّ عِيسَى عَبْدٌ .

قَالَ : مَا تَقُولُونَ أَنْتُمْ فِي عِيسَى ؟ .

فَقَالُوا : هُوَ ابْنُ اللَّهِ .

فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى قِبَائِهِ ، وَجَعَلَهَا فَوْقَ الرَّقِّ وَقَالَ :

وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا شَيْئًا [وَهُوَ يَعْنِي مَا كَتَبَهُ فِي الرَّقِّ] .

فَسُرُّوا بِمَا قَالَ ، وَانْفَضُّوا^(٢) رَاضِينَ مُطْمَئِنِّينَ .

* * *

وَقَفَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَا كَانَ بَيْنَ النَّجَاشِيِّ وَقَوْمِهِ .

وَأَكْبَرَ رِعَايَتَهُ لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى دِيَارِهِ ، وَأَطْمَأْنَوْا فِي جَوَارِهِ .

وَلَقَدْ سُرَّ بِمَا نُقِلَ إِلَيْهِ مِنْ انْحِيَاظِهِ لِلْإِسْلَامِ ، وَاعْتِقَادِهِ بِصِحَّةِ مَا جَاءَ فِي

الْقُرْآنِ .

ثُمَّ أَخَذَتِ الصَّلَاتُ تَتَعَمَّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتَتَوَقَّعُ .

وَفِي الشَّهْرِ الْأَوَّلِ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ لِلْهِجْرَةِ ، عَزَمَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَلَى

(١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب كالمعطف . (٢) انفضوا : تفرقوا .

دَعْوَةُ سِتَّةٍ مِنْ عُظَمَاءِ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَأَمْرَائِهَا ؛ لِلدُّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ .

فَكَتَبَ لِكُلِّ مِنْهُمْ رِسَالَةً يَحُضُّهُ فِيهَا عَلَى الْإِسْلَامِ .

وَيُزَيِّنُ لَهُ الْإِيمَانَ ، وَيُحَذِّرُهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ .

وَكَانَ قَدْ أَعَدَّ لِهَذَا الْغَرَضِ سِتَّةً مِنْ خَيْرَةِ الصَّحَابَةِ .

فَتَعَلَّمَ كُلُّ مِنْهُمْ لُغَةَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيَمُضِي إِلَيْهِمْ ...

ثُمَّ خَرَجُوا لِأَدَاءِ هَذِهِ الْمُهِيمةِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ .

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضُّمَرِيُّ هُوَ الَّذِي أُوفِدَ إِلَى مَلِكِ « الْحَبَشَةِ » .

* * *

دَخَلَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ عَلَى النَّجَاشِيِّ ، وَحَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ ، فَرَدَّ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، وَرَحَّبَ بِهِ أَجْمَلَ تَرْحِيبٍ .

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَجْلِسُ قَدَّمَ لِلنَّجَاشِيِّ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَهُ بِهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَبَادَرَ إِلَى فَضِّهِ (١) ... فَوَجَدَ أَنَّ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَيَتْلُو عَلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ .

فَوَضَعَ النَّجَاشِيُّ الْكِتَابَ عَلَى عَيْنَيْهِ إِجْلَالاً لَهُ ...

وَنَزَلَ عَنْ سَرِيرِهِ تَوَاضِعاً لِمَا جَاءَ فِيهِ ...

ثُمَّ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ عَلَى مَلَأٍ (٢) مِنْ جُلَاسِهِ ...

وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ ، وَقَالَ :

(٢) عَلَى مَلَأٍ: عَلَى مشهد جماعة .

(١) فضّه: فتحه .

لَوْ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَذَهَبْتُ إِلَيْهِ ...
 وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ...
 وَتَمَرَّغْتُ^(١) عَلَى قَدَمَيْهِ ...
 ثُمَّ كَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ رِسَالَةً رَقِيقَةً ؛ يُجِيبُهُ فِيهَا إِلَى
 دَعْوَتِهِ ...

وَيُعَرِّبُ عَنْ إِيْمَانِهِ السَّابِقِ بِنُبُوتِهِ ...
 عِنْدَ ذَلِكَ أَخْرَجَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ كِتَابًا آخَرَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى النَّجَاشِيِّ
 يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى أَنْ يُزَوِّجَهُ مِنْ رَمْلَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ .
 وَلِأَمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَمْلَةَ الْمُكَنَّىةِ « بِأُمِّ حَبِيبَةَ » قِصَّةٌ حَزِينَةٌ فِي بَدَايَتِهَا ...
 فَرِحَتْ مُسْتَبْشِرَةً فِي نَهَايَتِهَا .
 فَتَعَالَوْا نُلِمْ بِهَا إِلِمَاماً سَرِيعاً^(٢) ...

* * *

كَفَرَتْ رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ بِإِلَهَةِ أَبِيهَا سَيِّدِ قُرَيْشٍ ...
 وَآمَنْتْ هِيَ وَزَوْجُهَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ...
 وَصَدَّقَتْ رِسَالَةَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .
 فَأَرْهَقَتْهُمَا قُرَيْشٌ مِنْ أَمْرِهِمَا عُسْراً ...
 وَأَنْزَلَتْ بِهِمَا أَشَدَّ الْعَذَابِ حَتَّى بَاتَا لَا يُطِيقَانِ الْبَقَاءَ فِي مَكَّةَ .
 فَكَانَا فِي عِدَادِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى اللَّهِ بِدِينِهِمْ ، اللَّاحِظِينَ إِلَى النَّجَاشِيِّ
 بِإِيْمَانِهِمْ .

(١) تمرغت : وضعت رأسي على قدميه .

(٢) للاستزادة من أخبار رَمْلَةَ وَزَوْجِهَا : انظر كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف .

فَلَقِيَا عِنْدَهُ مَا لَقِيَهُ إِخْوَانُهُمُ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ كَرَمِ الْوِفَادَةِ ، وَحُسْنِ
الْجَوَارِ .

حَتَّى خُيِّلَ لِأُمِّ حَبِيبَةَ أَنَّ الْأَيَّامَ قَدْ صَفَتْ لَهَا بَعْدَ عُبُوسٍ (١) .

إِذْ لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مَا خَبَّائَتْ لَهَا الْمَقَادِيرُ .

فَلَقَدْ سَاءَ اللَّهُ تَبَارَكَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَمْتَحِنَ أُمُّ حَبِيبَةَ امْتِحَانًا قَاسِيًا
تَطْيِشُ (٢) فِيهِ الْعُقُولُ .

ذَلِكَ أَنَّ زَوْجَهَا عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ قَدْ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ وَتَنَصَّرَ ، وَجَعَلَ
يَهْزَأُ بِالْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ .

ثُمَّ أَكَبَ (٣) عَلَى حَانَاتِ الْخَمَّارِينَ ، يُعَاقِرُ أُمَّ الْخَبَائِثِ (٤) ؛ فَلَا يَزْتَوِي
مِنْهَا وَلَا يَشْبَعُ .

وَقَدْ خَيْرَهَا بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحْلَاهُمَا مُرًّا ...

فَإِمَّا أَنْ تُطَلَّقَ ...

وَإِمَّا أَنْ تَتَنَصَّرَ ...

* * *

وَجَدَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ نَفْسَهَا بَيْنَ ثَلَاثٍ ...

فَإِمَّا أَنْ تَسْتَجِيبَ لِرِزْوَجِهَا فَتَتَنَصَّرَ ؛ وَبِذَلِكَ تَبُوُّهُ بِخِزْيِ الدُّنْيَا ، وَعَذَابِ
الْآخِرَةِ ...

(١) العُبُوسُ : التقطيب والبشاعة .

(٢) تطيش : تذهب .

(٣) أكب على الشيء : أقبل عليه ولزمه .

(٤) يعاقر أم الخبائث : يشرب الخمر ، وقد دعيت بأم الخبائث لأنها تقود شاربها إلى ضروب من الشر .

وَأَمَّا أَنْ تَعُودَ إِلَى يَنْبِ أَبِيهَا فِي مَكَّةَ ، وَهُوَ مَا زَالَ قَلْعَةَ الشُّرُكِ ...
وَأَمَّا أَنْ تَبْقَى فِي بِلَادِ « الْحَبَشَةِ » وَحِيدَةً شَرِيدَةً ، وَمَعَهَا ابْنَتُهَا الصَّغِيرَةُ
حَبِيبَةٌ .

فَأَثَرْتُ رِضَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ ...
وَأَزْمَعْتُ^(١) الْبَقَاءَ فِي « الْحَبَشَةِ » حَتَّى يَأْتِي اللَّهَ بِفَرَجٍ مِنْ عِنْدِهِ .

* * *

لَمْ تَطُلْ مَأْسَاةُ أُمِّ حَبِيبَةٍ كَثِيرًا
فَلَقَدْ قَضَى زَوْجُهَا نَحْبَهُ وَهُوَ سَكْرَانٌ مَخْمُورٌ ...
ثُمَّ إِنَّهَا مَا إِنْ أَتَمَّتْ عِدَّتَهَا مِنْهُ حَتَّى أَتَاهَا الْفَرَجُ .
فَفِي ذَاتِ ضُحَى فَضِي السَّنَا بِهِي الْقَسَمَاتِ ... طُرِقَ عَلَيْهَا الْبَابُ ، فَلَمَّا
فَتَحَتْهُ ، فُوجِئَتْ بِأَبْرَهَةَ وَصِيفَةٍ^(٢) النَّجَاشِيِّ وَهِيَ تُحِييَهَا وَتَقُولُ لَهَا :
إِنَّ الْمَلِكَ يُهْدِيكَ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ لَكَ :
إِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ خَطَبَكَ لِنَفْسِهِ ...
وَوَكَّلَهُ أَنْ يَعْقِدَ لَهُ عَلَيْكَ ...

فَوَكَّلِي عَنْكَ مَنْ تُرِيدِينَ إِذَا شِئْتَ .
فَاسْتَطَارَتْ أُمُّ حَبِيبَةٍ فَرَحًا ... وَهَتَفَتْ :

بَشْرِكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ ...

بَشْرِكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ ...

(١) أزمعت : عزمت .
(٢) الوصيفة : المرأة التي تتقن الخدمة .

ثُمَّ قَالَتْ : لَقَدْ وَكَّلْتُ عَنِّي خَالِدَ بْنِ سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ (١).

فَهُوَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيَّ فِي هَذِهِ الدِّيَارِ .

* * *

وَفِي قَصْرِ النَّجَاشِيِّ ، اجْتَمَعَ الصَّحَابَةُ الْمُقِيمُونَ فِي « الْحَبَشَةِ » لِيَشْهَدُوا
عَقْدَ أُمِّ حَبِيبَةَ عَلَى الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا اكْتَمَلَ الْجَمْعُ حَمِدَ النَّجَاشِيُّ اللَّهَ وَاتَّئِنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ طَلَبَ مِنِّي أَنْ أُزَوِّجَهُ رَمْلَةً
بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ ، فَأَجَبْتُهُ إِلَى مَا طَلَبَ .

وَأَمَهَرْتُهَا (٢) نِيَابَةً عَنْهُ أَرْبَعِمِائَةِ دِينَارٍ ذَهَبًا عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

ثُمَّ قَامَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَاسْتَعَانَ بِهِ ، وَصَلَّى وَسَلَّم
عَلَى نَبِيِّهِ ثُمَّ قَالَ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَقَدْ أَجَبْتُ طَلَبَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

وَزَوَّجْتُهُ مُوَكَّلَتِي رَمْلَةً بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ ...

فَبَارَكَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ فِي زَوْجَتِهِ ...

وَهَنِيئًا لِرَمْلَةٍ بِمَا أَحْظَاَهَا (٣) اللَّهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ .

* * *

أَعَدَّ النَّجَاشِيُّ سَفِينَتَيْنِ مِنْ سُفْنِهِ ...

(١) انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) أمهرتها : أعطيتها صداقها ، والصداق : ما يعطى للمرأة من المال مهرًا لها .

(٣) أحظاها : منحها وأكرمها وخصها .

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَمْلَةٌ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ وَابْنَتُهَا حَبِيبَةٌ ، وَمَنْ بَقِيَ
عِنْدَهُ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

كَمَا أَرْسَلَ مَعَهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ « الْأَحْبَاشِ » الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...

وَتَشَوَّقُوا لِلِقَاءِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ ، وَأَزَكَّى السَّلَامِ ...

وَالْتَمَلَى ^(١) مِنْهُ ...

وَالصَّلَاةِ خَلْفَهُ ...

وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ جَمِيعاً جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

ثُمَّ أَهْدَى إِلَى رَمْلَةٍ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعَ مَا عِنْدَ نِسَائِهِ مِنْ نَفِيسِ الطَّيِّبِ ،
وَالْوَرَسِ ، وَالْعُودِ ، وَالْعَنْبَرِ ^(٢) .

كَمَا حَمَلَهُمْ بَعْضَ الْهَدَايَا إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مَا أَهْدَاهُ إِلَيْهِ ثَلَاثُ عِصِيٍّ مِنْ رَوَائِعِ عِصِيٍّ « الْحَبَشَةِ » .

فَأَمْسَكَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا .

أَمَّا الثَّانِيَةُ وَالثَّالِثَةُ ؛ فَأَهْدَاهُمَا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا .

وَقَدْ كَانَ بِلَالٌ ^(٣) رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ بِالْعَصَا الَّتِي
اسْتَبَقَهَا لِنَفْسِهِ ... وَيَرْكُزُهَا أَمَامَهُ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ ...

وَذَلِكَ فِي الْأَمَاكِينِ الَّتِي لَا يَكُونُ فِيهَا مَسْجِدٌ وَلَا بِنَاءٌ يُحَدِّدَانِ الْقِبْلَةَ .

(١) التَّمَلَّى مِنْهُ : التمتع به أمدأ طويلاً .

(٢) الورس ، والعود ، والعنبر : أنواع من الطيب .

(٣) بلال بن رباح : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

وَفِي أَسْفَارِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .
 وَفِي الْعِيدَيْنِ ، وَفِي صَلَاةِ الْاسْتِسْقَاءِ .
 وَقَدْ ظَلَّ بِلَالٌ يَمْشِي بِهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .
 فَلَمَّا آلَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَإِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ مِنْ
 بَعْدِهِ ؛ مَشَى بِهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمَا « سَعْدُ الْقَرْظِيُّ » .
 ثُمَّ تَتَابَعَ الْخُلَفَاءُ عَلَى ذَلِكَ زَمَنًا طَوِيلًا .
 كَمَا أَهْدَى النَّجَاشِيُّ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَلِيَّةً فِيهَا خَاتَمٌ مِنْ
 ذَهَبٍ ...

فَأَخَذَهُ ، وَإِنَّهُ لَمُعْرِضٌ عَنْهُ .
 ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَى « أَمَامَةِ » ابْنَةِ بَنْتِهِ زَيْنَبَ ، وَقَالَ لَهَا :
 (تَحْلِي بِهَذَا يَا بَنِيَّةُ) .

* * *

وَقُبِيلَ فَتَحَ مَكَّةَ بِقَلِيلٍ انْتَقَلَ النَّجَاشِيُّ إِلَى جَوَارِ رَبِّهِ .
 فَدَعَا الرَّسُولُ ﷺ الصَّحَابَةَ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، وَقَالَ :
 (إِنَّ أَنْحَاكُمْ « أَصْحَمَةَ » النَّجَاشِيُّ قَدْ تُوفِّي فَصَلُّوا عَلَيْهِ) .
 ثُمَّ أَمَّهُمْ ؛ فَصَلُّوا عَلَيْهِ صَلَاةَ الْغَائِبِ .
 مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يُصَلِّ عَلَى غَائِبٍ قَبْلَ النَّجَاشِيِّ ،
 وَلَا بَعْدَهُ .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ « أَصْحَمَةَ » النَّجَاشِيِّ ، وَأَرْضَاهُ ...

وَجَعَلَ جَنَّاتٍ الْخُلْدِ مَثْوَاهُ .
فَلَقَدْ قَوَّى الْمُسْلِمِينَ السَّابِقِينَ مِنْ ضَعْفٍ ...
وَأَمَّنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ...
وَابْتَغَى فِي ذَلِكَ مَرْضَاةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (*).

-
- (*) للاستزادة من أخبار النَّجَاشِيِّ انظر:
- ١ - السيرة النبوية لابن هشام: ٣٥٦/١، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٩ و ٣٣/٢
 - ٢ - ٣/٤ - ١٠، ٢٩٥.
 - ٣ - أعلام النبلاء للذهبي: ٨١، ١٢٣، ٢٥١.
 - ٤ - تاريخ خليفة: ٩٩١.
 - ٥ - أسد الغابة: ١/١١٩.
 - ٦ - تهذيب الأسماء واللغات: ٩/٢٨٧.
 - ٧ - مجمع الروائد: ٩/٤١٩.
 - ٨ - الإصابة: ١٠٩/١ أو الترجمة (٤٧٣).

رُفَيْعُ بْنُ مُهْرَانَ

أَبُو الْعَالِيَةِ

« لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَحَدٌ أَعْلَمُ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ الصَّحَابَةِ مِنْ أَبِي الْعَالِيَةِ ،

ثُمَّ يَلِيهِ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ »

[أَبُو بَكْرٍ بْنُ دَاوُدَ]

رُفَيْعُ بْنُ مُهْرَانَ الْمُكَنَّى بِأَبِي الْعَالِيَةِ عَلَّمَ مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ ...

وَرَأَيْتُهُ مِنْ رَوَائِعِ الْقُرَّاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ .

كَانَ مِنْ أَعْلَمِ التَّابِعِينَ بِكِتَابِ اللَّهِ ...

وَأَذَرَهُمْ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى فَهْمِ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ ، وَالتَّفْوُذِ إِلَى أَغْوَارِهِ (١) ...

وَأَعَمَّقَهُمْ فِي إِدْرَاكِ مَرَامِيهِ (٢) وَأَسْرَارِهِ .

فَتَعَالَوْا نَبْدَأْ حَيَاتَهُ مِنْ أَوَّلِهَا .

فَحَيَاتُهُ غَنِيَّةٌ بِرَوَائِعِ الْمَوَاقِفِ وَالصُّوَرِ ...

حَافِلَةٌ بِشَمِينَ الْعِظَاتِ وَالْعَبَرِ ...

* * *

وُلِدَ رُفَيْعُ بْنُ مُهْرَانَ فِي بِلَادِ « فَارِسَ » ، وَعَلَى أَرْضِهَا نَشَأَ وَتَرَعَرَغَ ، وَلَمَّا

شَرَعَ الْمُسْلِمُونَ بِغَزْوِ بِلَادِ « الْفُرْسِ » لِيُخْرِجُوا أَهْلَهَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...

كَانَ رُفَيْعٌ هَذَا أَحَدَ الشُّبَّانِ الْأَرْقَاءِ الَّذِينَ وَقَعُوا فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ

الْحَانِيَةِ (٣) ، وَآلُوا إِلَى رَحَابِهِمْ الْخَيْرَةَ الْبَانِيَةِ .

(٣) الحانية : الرحيمة الشفوقة .

(٢) مراميه : مقاصده .

(١) أغواره : أعماقه .

ثُمَّ مَا لَيْتَ أَنْ وَقَفَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ عَلَى سُمُو الْإِسْلَامِ ...
وَوَارِثُوا بَيْنَهُ وَيَيْنَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ...
فَطَفِقُوا يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ...
ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ...
وَجَعَلُوا يَتَمَلَّوْنَ^(١) مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ...

* * *

حَدَّثَ رُفَيْعٌ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ وَمَا آلَ إِلَيْهِ ، قَالَ :
وَقَعْتُ أَنَا وَنَفَرٌ مِنْ بَنِي قَوْمِي أَسَارَى فِي أَيْدِي الْمُجَاهِدِينَ ، ثُمَّ مَا لَيْتُنَا أَنْ
غَدَوْنَا مَمْلُوكِينَ لِطَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي « الْبَصْرَةِ » .
فَلَمْ يَمُضْ عَلَيْنَا طَوِيلٌ وَقَتٍ حَتَّى آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَتَعَلَّقْنَا بِحِفْظِ كِتَابِ اللَّهِ ...
وَكَانَ مِنَّا مَنْ يُؤَدِّي الضَّرَائِبَ^(٢) لِمَالِكِيهِ ، وَمِنَّا مَنْ يَقُومُ عَلَى
خِدْمَتِهِمْ ...

وَكَُنْتُ وَاحِداً مِنْ هَؤُلَاءِ .
فَكُنَّا نَخْتِمُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كُلَّ لَيْلَةٍ مَرَّةً ، فَشَقَّ^(٣) عَلَيْنَا ذَلِكَ ...
فَجَعَلْنَا نَخْتِمُهُ مَرَّةً كُلَّ لَيْلَتَيْنِ ، فَشَقَّ عَلَيْنَا أَيْضاً ...
فَجَعَلْنَا نَخْتِمُهُ كُلَّ ثَلَاثٍ ، فَشَقَّ عَلَيْنَا لِمَا كُنَّا نُعَانِيهِ مِنْ جُهْدٍ فِي
النَّهَارِ ...

(١) يَتَمَلَّوْنَ : يَتَشَبَّعُونَ .

(٢) الضَّرَائِبُ : جَمْعُ ضَرْبَةٍ وَهِيَ مَبْلَغٌ مِنَ الْمَالِ يَدْفَعُهُ الْإِنْسَانُ نَظِيرَ خِدْمَةِ تَوَدَّى لَهُ ، أَوْ إِعْفَاءِهِ مِنْ مَهْمَةٍ وَاجِبَةٍ عَلَيْهِ .

(٣) شَقَّ : صَعَبَ .

وَسَهَّرَ فِي اللَّيْلِ ...

فَلَقَيْنَا بَعْضَ أَصْحَابِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَشَكَّوْنَا لَهُمْ مِمَّا
نُكَابِدُهُ مِنَ السَّهَرِ فِي قِرَاءَةِ كِتَابِ اللَّهِ .

فَقَالُوا : اخْتِمُوهُ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً ؛ فَأَخَذْنَا بِمَا أُرْسِدُونَا إِلَيْهِ ...
وَجَعَلْنَا نَقْرَأُ الْقُرْآنَ طَرَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، وَنَنَامُ طَرَفًا آخَرَ مِنْهُ .
فَلَمْ يَشُقَّ عَلَيْنَا بَعْدَ ذَلِكَ .

* * *

وَلَقَدْ آلَ^(١) رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي « تَمِيمٍ » .
وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ سَيِّدَةً رَصَانًا رَزَانًا^(٢) ...
مُفْعَمَةً^(٣) تُقَى وَإِيمَانًا ...

فَكَانَ يَخْدِمُهَا بَعْضَ النَّهَارِ ، وَيَزْنَاهُ فِي بَعْضِهِ الْآخِرِ .
فَأَتَتْهُ الْقِرَاءَةُ وَالكِتَابَةُ فِي أَوْقَاتِ فَرَاحِهِ ، وَتَلَقَّى خِلَالَهَا طَرَفًا مِنْ عُلُومِ
الدِّينِ ، دُونَ أَنْ يَتَالَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ حُقُوقِهَا عَلَيْهِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْجُمُعِ^(٤) تَوَضَّأَ رُفَيْعٌ ؛ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ .
ثُمَّ اسْتَأْذَنَ سَيِّدَتَهُ بِالْإِنْصِرَافِ .
فَقَالَتْ : إِلَى أَيْنَ يَا رُفَيْعُ ؟ .
فَقَالَ : ابْتَغِي الْمَسْجِدَ .

(١) آل : انتهَى أمره .

(٢) رصاناً رزاناً : رصينة عاقلة وقوراً .

(٣) مفعمة : ممتلئة .

(٤) أيام الجمع : جمع مفردة الجمعة .

فَقَالَتْ : أَيَّ الْمَسَاجِدِ تُرِيدُ ؟ .

فَقَالَ : الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ ^(١) .

فَقَالَتْ : هَيَّا بِنَا .

ثُمَّ مَضَيْنَا مَعًا ، وَدَخَلَا الْمَسْجِدَ مَعَ الدَّاحِلِينَ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا تُرِيدُ .
فَمَا إِنِ امْتَلَأَ الْجَامِعُ ، وَازْتَقَى الْإِمَامُ الْمِنْبَرَ حَتَّى أَمْسَكَتْ يَدَ رُفَيْعٍ ،
وَقَالَتْ :

اشْهَدُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنِّي أَعْتَقْتُ غُلَامِي هَذَا رَغْبَةً فِي ثَوَابِ اللَّهِ ...
وَطَمَعًا بِعَفْوِهِ وَرِضَاهُ ...

وَأَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ إِلَّا سَبِيلَ الْمَعْرُوفِ .

ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَقَالَتْ :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْخِرُهُ عِنْدَكَ لِيَوْمٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ...
وَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ؛ انْطَلَقَ رُفَيْعٌ إِلَى سَبِيلِهِ ، وَانْطَلَقَتْ هِيَ الْأُخْرَى إِلَى
سَبِيلِهَا أَيْضًا .

* * *

دَابَّ رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى التَّرَدُّدِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .
فَحَظِيَ بِإِلْقَاءِ الصَّدِيقِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ قُبَيْلَ وَفَاتِهِ بِقَلِيلٍ .
كَمَا سَعِدَ بِالاجْتِمَاعِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ
الْقُرْآنَ ، وَصَلَّى خَلْفَهُ .

* * *

(١) الجامع : المسجد الذي تقام فيه صلاة الجمعة .

وَكَمَا أَكَبَ رُفِيعُ الْمُكَنَّى بِأَبِي الْعَالِيَةِ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ؛ فَقَدْ تَعَلَّقَ بِحَدِيثِ
رَسُولِ اللَّهِ ...

فَجَعَلَ يَسْمَعُ رِوَايَتَهُ مِنَ التَّابِعِينَ الَّذِينَ كَانَ يَلْقَاهُمْ فِي « الْبَصْرَةِ » .

لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ طَمَحَتْ (١) نَفْسُهُ لِمَا هُوَ أَثْبَتُ (٢) مِنْ ذَلِكَ .

فَأَخَذَ يَمْضِي إِلَى الْمَدِينَةِ حِيناً بَعْدَ حِينٍ ؛ لِيَسْمَعَهُ مِنْ أَفْوَاهِ صَحَابَةِ
الرَّسُولِ ﷺ أَنْفُسِهِمْ ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
إِلَّا شَخْصٌ وَاحِدٌ هُوَ الصَّحَابِيُّ .

فَأَخَذَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، وَأَبِي بَنْ كَعْبٍ ، وَأَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ،
وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ (٣) ، وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ ...

* * *

وَلَمْ يَفْتَصِرْ أَبُو الْعَالِيَةِ عَلَى رِوَاةِ الْحَدِيثِ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .

وَلِنَّمَا كَانَ يَنْشُدُ حَدِيثَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

فَإِذَا وُصِفَ لَهُ رَجُلٌ بِالْعِلْمِ ؛ ضَرَبَ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْإِبِلِ (٤) مَهْمَا كَانَ بَعِيدَ
الدَّارِ ، نَائِي الْمَزَارِ .

فَإِذَا وَصَلَ إِلَيْهِ بَادَرَ فَصَلَّى خَلْفَهُ .

فَإِذَا وَجَدَهُ لَا يَتَّقِي صَلَاتَهُ أَحْسَنَ الْإِتْقَانِ ...

وَلَا يُؤَفِّقُهَا حَقَّهَا أَكْمَلَ التَّؤْفِيقِ ؛ أَعْرَضَ عَنْهُ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

(١) طمحت نفسه : ارتقت نفسه وشمخت .

(٢) أثبت : أشدُّ ثبوتاً وأقوى صحَّةً .

(٣) انظرهم في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٤) ضرب إليه أكباد الإبل : قطع إليه المسافات البعيدة .

إِنَّ الَّذِي يَتَهَاوَنُ فِي صَلَاتِهِ يَكُونُ أَشَدَّ تَهَاوُنًا فِي غَيْرِهَا ...
ثُمَّ يَحْمِلُ عَصَاهُ ، وَيَعُودُ مِنْ حَيْثُ جَاءَ ...

* * *

وَلَقَدْ بَلَغَ أَبُو الْعَالِيَةِ مَنْزِلَةً فِي الْعِلْمِ فَاقَ بِهَا جَمِيعَ أَقْرَانِهِ ...
مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ أَصْحَابِهِ قَالَ :
رَأَيْتُ أَبَا الْعَالِيَةِ يَتَوَضَّأُ ، وَالْمَاءُ يَقْطُرُ مِنْ وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ .
وَالطَّهَارَةُ تَتَأَلَّقُ^(١) عَلَى كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ ...
فَحَيَّيْتُهُ وَقُلْتُ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .
فَقَالَ يَا أَخِي :

لَيْسَ الْمُتَطَهِّرُونَ الَّذِينَ يَتَطَهَّرُونَ بِالْمَاءِ مِنَ الدَّرَنِ^(٢) ...
وإِنَّمَا هُمْ الَّذِينَ يَتَطَهَّرُونَ بِالتَّقْوَى مِنَ الذُّنُوبِ .
فَتَأَمَّلْتُ مَا قَالَهُ ، وَأَذْرَكْتُ أَنَّهُ أَصَابَ وَأَخْطَأْتُ ، وَقُلْتُ :
جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، وَزَادَكَ عِلْمًا وَفَهْمًا .

* * *

وَلَقَدْ دَابَّ أَبُو الْعَالِيَةِ عَلَى حَضِّ النَّاسِ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ، وَجَعَلَ يَرْسُمُ
لَهُمْ سُبُلَ الْوُضُوءِ إِلَيْهِ ، فَيَقُولُ :
رَوْضُوا^(٣) أَنْفُسَكُمْ عَلَى تَلْقَى الْعِلْمِ ، وَأَكْثِرُوا مِنَ السُّؤَالِ عَنْهُ .
وَاعْلَمُوا أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَخْفِضُ جَنَاحِيهِ لِمُسْتَحٍ ، أَوْ مُتَكَبِّرٍ .
فَالْمُسْتَحِي لَا يَسْأَلُ لِحَيَّائِهِ ...

(٣) رَوْضُوا: ذَلَّلُوا وَطَوَّعُوا.

(٢) الدَّرَنُ: الوسخ.

(١) تَأَلَّقَ: تَلَمَّعَ، وَتَبَرَّقَ.

وَالْمُتَكَبِّرُ لَا يَسْأَلُ لِكِبْرِيَّائِهِ .

وَكَانَ يَحُضُّ طُلَّابُهُ عَلَى تَعْلَمِ الْقُرْآنِ ، وَرِعَايَتِهِ ، وَالاسْتِمْسَاكِ بِمَا جَاءَ فِيهِ ، وَالْإِعْرَاضِ عَمَّا يَتَقَوْلُهُ الْمُتَقَوِّلُونَ^(١) ...

فَيَقُولُ : تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ ...

فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ ، فَلَا تَزَعِبُوا عَنْهُ ...

وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الْإِسْلَامُ ...

وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الْأَهْوَاءُ^(٢) ؛ فَإِنَّهَا تُوقِعُ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ .

وَلَا تَحِيدُوا عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقُوا ...

فَنَقُلُوا ذَلِكَ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ^(٣) فَقَالَ :

لَقَدْ نَصَحَكُمْ أَبُو الْعَالِيَةِ - وَاللَّهِ - وَصَدَقَكُمْ .

* * *

كَمَا كَانَ يَوْسُفُ لِطُلَّابِ الْعِلْمِ الطَّرِيقَ الْأَمْتَلَ لِحِفْظِ الْقُرْآنِ ، فَيَقُولُ :

تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ خَمْسَ آيَاتٍ خَمْسَ آيَاتٍ ؛ فَإِنَّهُ أَيْسَرُ عَلَى أَذْهَانِكُمْ ...

وَأَقْوَى عَلَى أَفْهَامِكُمْ ...

فَإِنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَنْزِلُ بِهِ عَلَى النَّبِيِّ خَمْسَ آيَاتٍ ، خَمْسَ آيَاتٍ .

* * *

(١) يتقوله المتقولون : يتدعه المبتدعون .

(٢) الأهواء : البدع وما تميل إليه الأفكار مما لا يوافق ما جاء في كتاب الله ، وحديث رسول الله ﷺ .

(٣) الحسن البصري : انظره ص ٩٥ .

وَلَمْ يَكُنْ أَبُو الْعَالِيَةِ مُعَلِّماً فَحَسِبُ ، وَإِنَّمَا كَانَ مُوَجِّهاً أَيْضاً ...

ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَمْلَأُ عُقُولَ تُلَّابِهِ بِالْمَعْرِفَةِ النَّافِعَةِ ...

وَيُعْذِّي أَفْئِدَتَهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ...

وَيَجْمَعُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ .

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ لَهُمْ :

إِنَّ اللَّهَ قَضَى عَلَى نَفْسِهِ : أَنْ مَنْ آمَنَ بِهِ هَدَاهُ ...

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ ^(١) .

وَأَنَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ ...

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ^(٢) . ^(٣)

وَأَنَّ مَنْ أَقْرَضَهُ ^(٤) جَارَاهُ ...

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً

كَثِيرَةً﴾ ^(٥) .

وَأَنَّ مَنْ دَعَاهُ أَجَابَهُ ...

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَتْ كَلِمَتُهُ :

(١) سورة التَّغَايُنِ : آيَةُ ١١ .

(٢) حَسْبُهُ : مَعْطِيهِ وَكَافِيهِ .

(٣) سورة الطَّلَاقِ : آيَةُ ٣ .

(٤) أَقْرَضَهُ : تَصَدَّقَ عَلَى النَّاسِ طَمَعاً بِرِضَاهِ .

(٥) سورة الْبَقَرَةِ : آيَةُ ٢٤٥ .

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ
إِذَا دَعَانِ﴾ (١).

* * *

وَكَانَ يَقُولُ لِنَتْلَامِيذِهِ :

اعْمَلُوا بِالطَّاعَةِ ، وَأَقْبِلُوا عَلَى الْمُطِيعِينَ لِطَاعَتِهِمْ ...

وَاجْتَنِبُوا الْمَعْصِيَةَ ، وَعَادُوا الْعَصَاةَ لِمَعْصِيَتِهِمْ ...

ثُمَّ يَكْلُوا أَمْرَ الْعَصَاةِ إِلَى اللَّهِ ؛ فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ .

وَإِذَا سَمِعْتُمْ الرَّجُلَ يَزِفُّ مِنْ شَأْنٍ نَفْسِهِ فَيَقُولُ :

إِنِّي أَحِبُّ فِي اللَّهِ ، وَأَكْرَهُ فِي اللَّهِ ...

وَأَفْضَلُ كَذَا مَرْضَاةَ لِلَّهِ ، وَأُغْرِضُ عَنْ كَذَا خَوْفًا مِنَ اللَّهِ ...

فَلَا تَعْتَدُوا (٢) بِهِ .

* * *

وَلَمْ يَكُنْ أَبُو الْعَالِيَةِ عَالِمًا عَامِلًا فَحَسِبُ ، وَلَا وَاِعْظًا مُرْشِدًا فَقَطْ .

وَإِنَّمَا كَانَ مُجَاهِدًا أَيْضًا ...

فَكَانَ يَقْضِي قَدْرًا مِنْ وَقْتِهِ فِي مِتَادِينَ الْجِهَادِ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ ...

أَوْ مُرَابِطًا عَلَى تُغُورِ الْأَعْدَاءِ مَعَ الْمُرَابِطِينَ ...

وَأَقْدَأُ آثَرُ (٣) أَنْ يُشْرِقَ فِي جِهَادِهِ وَأَنْ يُغْرِبَ ... فَحَارَبَ « الرُّومَ » فِي بِلَادِ

الشَّامِ ، كَمَا حَارَبَ « الْفُرْسَ » فِي بِلَادِ مَا « وَرَاءَ النَّهْرِ » (٤) ...

(١) سورة البقرة : آية ١٨٦ .

(٤) بلاد ما وراء النهر : هي البلاد الواقعة وراء نهر

(٢) فلا تعتدوا به : فلا تلتفتوا إلى ما يقول .

جيحون ، وهي من أخصب بلاد الدنيا .

(٣) آثر : فضل ورغب .

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ رَفَعَ الْأَذَانَ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ .

* * *

وَلَمَّا نَشِبَ الْقِتَالُ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ... كَانَ لِأَبِي الْعَالِيَةِ مِنْهُ مَوْقِفٌ حَدَّثَنَا عَنْهُ فَقَالَ :

لَمَّا وَقَعَ مَا وَقَعَ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ كُنْتُ مُمْتَلِكًا حَيَوِيَّةً وَنَشَاطًا ...

وَكَانَ الْقِتَالُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ فِي الْيَوْمِ الْقَائِظِ .

فَتَجَهَّزْتُ بِجِهَازٍ ثُمَّ أَتَيْتُهُمْ ؛ فَإِذَا بِي أَمَامَ صَفَيْنِ مَا يُدْرَى طَرَفَاهُمَا ^(١) ...

إِذَا كَبَرَهُ هُوْلَاءِ كَبَرَهُ هُوْلَاءِ ...

وَإِذَا هَلَلَ ^(٢) هُوْلَاءِ هَلَلَ هُوْلَاءِ .

فَرَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي وَقُلْتُ :

أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَعَدُّهُ كَافِرًا وَأَخْمِلُ عَلَيْهِ ؟ ...

وَأَيُّهُمَا أَعَدُّهُ مُؤْمِنًا وَأُجَاهِدُ مَعَهُ ؟ .

ثُمَّ تَرَكْتُهُمَا وَانْصَرَفْتُ ...

* * *

وَلَقَدْ ظَلَّ أَبُو الْعَالِيَةِ طَوَالَ حَيَاتِهِ أَشْوَانَ ^(٣) أَسِفًا لِأَنَّهُ لَمْ يَحْظَ بِإِلْقَاءِ

الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَكَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يُمَوِّضَ عَنْ ذَلِكَ بِالتَّقَرُّبِ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ

تَوَثَّقَتْ صَلَاتُهُمْ بِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَكَانَ يُؤَثِّرُهُمْ ^(٤) وَيُحِبُّهُمْ ، وَكَانُوا يُؤَثِّرُونَهُ وَيُفَضِّلُونَهُ .

(١) مَا يُدْرَى طَرَفَاهُمَا : كِتَابَةٌ عَنْ بَعْدِهِمَا ، وَشِدَّةُ طَوْلِهِمَا . (٣) أَشْوَانَ : حَزِينًا .

(٢) هَلَلَّ : قَالَ « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » . (٤) يُؤَثِّرُهُمْ : يُفَضِّلُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ .

وَمِنْ آيَاتِ ذَلِكَ أَنَّ أَنَسًا^(١) - خَادِمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - أَهْدَى لَهُ تُفَاحَةً
كَانَتْ فِي يَدِهِ .

فَأَخَذَهَا مِنْهُ ، وَجَعَلَ يَقْبُلُهَا وَيَقُولُ :
تُفَاحَةُ مَسْتَهَا يَدُ مَسَّتْ يَدَ رَسُولِ اللَّهِ ...
تُفَاحَةُ مَسْتَهَا يَدُ حَظِيثٍ بِمَسِّ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ...

* * *

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّهُ دَخَلَ ذَاتَ مَرَّةٍ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ
يَتَوَلَّى إِمَارَةَ « البَصْرَةِ » مِنْ قِبَلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .
فَرَحَّبَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ أَجْمَلَ التَّزْحِيْبِ ، وَرَفَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ ،
وَأَجْلَسَهُ عَنْ يَمِينِهِ .

وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ طَائِفَةٌ مِنْ سَادَةِ قُرَيْشٍ ، فَتَغَامَزُوا^(٢) بِهِ ، وَتَهَاَمَسُوا
بَيْنَهُمْ ...

وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ رَفَعَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَذَا الْعَبْدَ عَلَى سَرِيرِهِ ؟!
وَقَدْ أَدْرَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَا يَتَغَامَزُونَ بِهِ ؛ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ :
إِنَّ الْعِلْمَ يَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا ، وَيَزِفُّ قَدْرَ أَهْلِهِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَيُجْلِسُ
الْمَمَالِيكَ عَلَى الْأَسِرَّةِ .

* * *

(١) أنس بن مالك : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

(٢) تغامزوا : جعل بعضهم يغمز لبعض بعينه .

وَفِي ذَاتِ سَنَةٍ عَزَمَ أَبُو الْعَالِيَةِ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ فَأَعَدَّ لِلْأَمْرِ
عُدَّتَهُ ، وَحَزَمَ أَمْرَهُ عَلَى الْمُضِيِّ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ .

فَلَمَّا طَلَعَ عَلَيْهِ الصُّبْحُ ، فُوجِيَ بِآلَامٍ مُبْرِحَةٍ ^(١) فِي إِحْدَى قَدَمَيْهِ .

ثُمَّ مَا زَالَ الْأَلَمُ يَشْتَدُّ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ .

فَلَمَّا عَادَهُ الطَّبِيبُ قَالَ لَهُ : إِنَّهُ مُصَابٌ بِالْأَكَلَةِ .

قَالَ : وَمَا الْأَكَلَةُ ؟

قَالَ : ذَاءٌ يَأْكُلُ الْعُضْوَ الَّذِي يَحِلُّ بِهِ ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى مَا فَوْقَهُ حَتَّى يَأْتِيَ
عَلَى الْجَسَدِ كُلِّهِ .

ثُمَّ اسْتَأْذَنَهُ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى بَيْتِ سَاقِهِ ...

فَأَذِنَ لَهُ عَلَى كُرْوِهِ مِنْهُ .

* * *

أَحْضَرَ الطَّبِيبُ مَبَاضِعَهُ ^(٢) لِيَشُقَّ اللَّحْمَ ...

وَمَنَاشِيرَهُ لِيَنْشِرَ الْعَظْمَ ...

ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَتُرِيدُ أَنْ نَسْقِيكَ جُرْعَةً مِنْ مُخَدِّرٍ ^(٣) لِكَيْ لَا تَشْعُرَ بِآلَامِ الشَّقِّ
وَالْبَيْتْرِ ؟

فَقَالَ : بَلْ هُنَاكَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ .

فَقَالَ الطَّبِيبُ : وَمَا هُوَ ؟

فَقَالَ : أَحْضِرُوا لِي قَارِئًا يُتَقَنُّ كِتَابَ اللَّهِ ، وَاجْعَلُوهُ يَقْرَأُ عَلَيَّ مَا تَيَسَّرَ مِنْ
آيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ .

(١) مبرحة : شديدة الوجع .

(٢) المباحض : جمع مبضع ، وهو الآلة التي يشق بها الجلد .

(٣) المخدر : ما يجعل العضو يتخدر .

فَإِذَا رَأَيْتُمُونِي قَدْ احْمَرَّ وَجْهِي ، وَاتَّسَعَتْ حَدَفَتَايَ ، وَثَبَّتَ نَظْرِي فِي
السَّمَاءِ ...

فَأَفْعَلُوا بِي مَا شِئْتُمْ ...

فَتَقَدُّوا أَمْرَهُ ، وَبَتُّرُوا عَظْمَهُ ...

فَلَمَّا أَفَاقَ ، قَالَ لَهُ الطَّبِيبُ : كَأَنَّكَ لَمْ تَشْعُرْ بِأَلَامِ الشَّقِّ وَالْبَثْرِ .

فَقَالَ : لَقَدْ شَغَلَنِي بَرْدُ^(١) حُبِّ اللَّهِ ...

وَحَلَاوَةُ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَنْ حَرَارَةِ الْمَنَاشِيرِ .

ثُمَّ أَخَذَ رِجْلَهُ بِيَدِهِ ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا وَقَالَ :

إِذَا لَقِيتُ رَبِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَسَأَلَنِي : هَلْ مَسَّيْتُ بِكَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَى
مُحَرَّمٍ ؟ ...

أَوْ مَسَّيْتُ بِكَ غَيْرِ مُبَاحٍ ؟ ... لَا أَقُولُ : لَا .

وَأَنَا صَادِقٌ فِيمَا أَقُولُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

وَبَعْدُ ...

فَقَدْ بَلَغَ مِنْ ثَقُلَى أَبِي الْعَالِيَةِ ، وَتَرْقُبِهِ لِلْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَاسْتِعْدَادِهِ لِلِقَاءِ رَبِّهِ ؛
أَنَّهُ أَعَدَّ لِنَفْسِهِ كَفْنًا .

وَأَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ كَفَنَهُ كُلَّ شَهْرٍ مَرَّةً ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَى مَكَانِهِ ...

وَلَقَدْ أَوْصَى سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً ؛ وَهُوَ صَحِيحٌ سَلِيمٌ ...

(١) برد حب الله : هناية حب الله عز وجل .

وَكَانَ يُحَدِّدُ لِكُلِّ وَصِيَّةٍ أَجْلاً ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهَا نَظَرَ فِيهَا .

فَإِمَّا أَنْ يُعَدِّلَهَا ...

وَإِمَّا أَنْ يُبَدِّلَهَا ...

وَإِمَّا أَنْ يُمَضِّيَهَا ...

وَفِي شَهْرِ شَوَّالِ سَنَةِ ثَلَاثِ وَتَسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ ...

مَضَى أَبُو الْعَالِيَةِ إِلَى لِقَاءِ رَبِّهِ ؛ طَاهِرَ الذَّلِيلِ ...

نَقِيَّ النَّفْسِ ...

وَإِثْقَاءَ بِرَحْمَةِ رَبِّهِ ...

مُتَشَوِّقاً إِلَى لِقَاءِ نَبِيِّهِ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار رُفِيعِ بْنِ مِهْرَانَ المكنى بأبي العالِيَةِ انظر :

- ١ - سير أعلام النبلاء للذهبي : ٢٠٧/٤ وما بعدها .
- ٢ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ١١٢/٧ .
- ٣ - حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني : ٢١٧/٢ - ٢٢٤ .
- ٤ - تهذيب التهذيب لابن حجر : ٢٨٤/٣ .
- ٥ - المعارف لابن قتيبة : ٤٥٤ .
- ٦ - الإصابة في تمييز الصحابة : ٥٢٨/١ الترجمة ٢٧٤٠ .
- ٧ - التهذيب لابن عساكر .
- ٨ - تذكرة الحفاظ للذهبي : ٥٨/١ .

الأحنف بن قيس

يسور بن مسيم

« إِنَّ الْأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ بَلَغَ مِنَ الشَّرَفِ وَالشُّوْذِ مَا لَا تَنْفَعُهُ الْوَلَايَةُ وَلَا يَضُرُّهُ الْعَزْلُ »

[زِيَادُ ابْنِ أَبِيهِ]

كَانَتْ « دِمَشْقُ » تَضْحَكُ لِلرَّبِيعِ الطَّلِقِ مُحْتَالَةً بِخَمَائِلِهَا ^(١) النَّضِرَةِ ،
مَرْهُوَّةٌ بِرِيَاضِهَا الْعَطِرَةِ .

وَكَانَ قَصْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ « مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ » قَدْ أَخَذَ أَهْبَتَهُ
لِاسْتِقْبَالِ الْوَافِدِينَ عَلَيْهِ .

وَمَا إِنْ أُذِنَ لِأَوَّلِ قَادِمٍ عَلَى الْخَلِيفَةِ ؛ حَتَّى بَادَرَتْ أُخْتُهُ « أُمُّ الْحَكَمِ بِنْتُ
أَبِي سُفْيَانَ » فَأَخَذَتْ مَكَانَهَا وَرَاءَ السُّرِّ ؛ لِتَسْتَمِعَ إِلَى مَا يُرْوَى فِي مَجْلِسِ
الْخِلَافَةِ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَلِتَتِمَّلَى مِمَّا يَنْشُرُهُ ^(٢) جُلَسَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَوَادِرِ الْأَخْبَارِ ، وَرَوَائِعِ
الْأَشْعَارِ ، وَبَالِغِ الْحِكْمَةِ .

فَقَدْ كَانَتْ سَيِّدَةً رَاجِحَةَ الْعَقْلِ ، عَالِيَةً الْهِمَّةِ ، تَصُبُّو ^(٣) إِلَى شَرِيفِ
الْمَطَالِبِ .

وَكَانَتْ تَعْرِفُ أَنَّ أَخَاهَا يَأْذُنُ لِلنَّاسِ بِالْدُّخُولِ عَلَيْهِ حَسَبَ مَرَاتِبِهِمْ .

(١) الخماثل : جمع خميلة ، وهي الحديقة الملتفة الأشجار .

(٢) ينشره : يلقيه .

(٣) تصبو : تتطلع .

فَيَقْدُمُ صَحَابَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ ، ثُمَّ يَلِيهِمْ
كِبَارُ النَّابِعِينَ ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ ، وَذَوُو الْأَحْسَابِ (١) .

* * *

لَكِنَّ أُمَّ الْحَكَمِ وَجَدَتْ أَخَاهَا يَسْتَقْبِلُ زَائِرَهُ الْأَوَّلَ اسْتِقْبَالاً يَشُوْبُهُ شَيْءٌ
مِنَ الْفُتُورِ (٢) ، وَسَمِعَتْهُ يَقُولُ لَهُ :

وَاللَّهِ يَا أَخْنَفُ مَا تَمَثَّلْتُ (٣) يَوْمَ « صِفِّينَ » (٤) مَرَّةً ، وَتَذَكَّرْتُ انْحِيَا زَكَ
عَنَّا ، وَوُقُوفَكَ إِلَى جَانِبِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ إِلَّا كَانَتْ حَزَارَةً فِي قَلْبِي إِلَى أَنْ
أَمُوتَ .

فَبَادَرَهُ الرَّجُلُ قَائِلًا :

وَاللَّهِ يَا مُعَاوِيَةُ إِنَّ الْقُلُوبَ الَّتِي أَبْغَضْنَاكَ بِهَا مَا تَزَالُ بَيْنَ جَوَانِحِنَا ...

وَأَنَّ السُّيُوفَ الَّتِي قَاتَلْنَاكَ بِهَا مَا فَتَحَتْ (٥) فِي أَيْدِينَا ...

وَأِنْ تَذُنْ مِنَ الْحَرْبِ فِتْرًا ؛ نَذُنْ مِنْهَا شِبْرًا ...

وَأِنْ تَمْشِ إِلَيْهَا مَشْيًا ؛ نَمْضِ إِلَيْهَا هَرْوَلَةً .

وَوَاللَّهِ مَا حَمَلْنَا إِلَيْكَ رَغْبَةً فِي عَطَائِكَ ، أَوْ رَهْبَةً مِنْ جَفَائِكَ (٦) ...

وَأِنَّمَا جِئْنَاكَ لِرَأْبِ (٧) الصَّدْعِ ، وَلَمْ الشَّمْلِ ، وَجَمْعِ كَلِمَةٍ

الْمُسْلِمِينَ ...

ثُمَّ اسْتَدَارَ وَخَرَجَ مِنْ حَيْثُ أَتَى .

(١) الْأَحْسَابُ : جَمْعُ حَسَبٍ ، وَهُوَ شَرَفُ الْأَصْلِ .

(٢) الْفُتُورُ : قِلَّةُ الْإِهْتِمَامِ .

(٣) تَمَثَّلْتُ : تَصَوَّرْتُ

(٤) يَوْمَ صِفِّينَ : هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي انْتَصَرَ فِيهِ عَلِيٌّ عَلَى مُعَاوِيَةَ ، وَصِفِّينَ : مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنْ شَاطِئِ الْفَرَاتِ الْأَيْمَنِ .

(٥) مَا فَتَحَتْ : مَا زَالَتْ . (٦) جَفَائِكَ : خَصُومَتِكَ . (٧) لِرَأْبِ الصَّدْعِ : لِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ .

فَلَمْ تَمْلِكْ أُمَّ الْحَكَمِ إِلَّا أَنْ تُزِيحَ طَرْفَ السُّرِّ ؛ لِتَرَى هَذَا الَّذِي يُرَدُّ إِلَى
الْخَلِيفَةِ الْحَجَرِ مِنْ حَيْثُ جَاءَ^(١)، وَيَكِيلُ لَهُ الصَّاعَ صَاعِينَ^(٢)...

فَرَأَتْ رَجُلًا قَصِيرَ الْقَامَةِ، ضَعِيلَ الْجِسْمِ، أَصْلَعَ الرَّأْسِ، مُتْرَاكِبَ
الْأَسْنَانِ، مَائِلَ الذَّقَنِ، مُنْخَسِفَ الْعَيْنَيْنِ^(٣)، أَحْنَفَ الرَّجْلَيْنِ^(٤)، لَيْسَ فِي إِنْسَانٍ
عَيْبٌ إِلَّا وَلَهُ مِنْهُ نَصِيبٌ .

فَالْتَفَتَتْ إِلَى أُخِيهَا وَقَالَتْ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ هَذَا الَّذِي يَتَهَدَّدُ الْخَلِيفَةَ وَيَتَوَعَّدُهُ فِي عَقْرِ^(٥)
بَيْتِهِ !؟ .

فَتَنَهَّدَ مُعَاوِيَةَ وَقَالَ :

هَذَا الَّذِي إِذَا غَضِبَ ، غَضِبَ لَهُ مِائَةُ أَلْفٍ مِنْ بَنِي « تَمِيمٍ » لَا يَدْرُونَ فِيمَ
غَضِبَ ...

إِنَّهُ « الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ » سَيِّدُ بَنِي « تَمِيمٍ » ، وَأَحَدُ أَفْدَاذِ الْعَرَبِ وَأَبْطَالِهِمْ
الْفَاتِحِينَ ...

فَتَعَالَوْا نَسْتَعْرِضْ قِصَّةَ حَيَاةِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ أَوَّلِهَا .

* * *

فِي السَّنَةِ الثَّلَاثَةِ قَبْلَ الْهَجْرَةِ ، وُلِدَ « لَقَيْسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ السَّعْدِيُّ » مَوْلُودٌ
دَعَاهُ « الضُّحَّاكُ » .

غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ مَا لَبِثُوا أَنْ لَقَّبُوهُ بِالْأَحْنَفِ لِاعْوِجَاجٍ فِي رِجْلَيْهِ ، ثُمَّ غَلَبَ
الْلَقَبُ عَلَى الْإِسْمِ .

(١) يرد الحجر من حيث جاء: يقابل الشر بالشر .

(٢) يكيل له الصاع صاعين: يربي عليه ويزيد .

(٤) أحنف الرجلين: معوج الرجلين إلى الداخل .

(٥) في عقر بيته: في وسط داره .

(٣) منخسف العينين: غائر العينين .

وَلَمْ يَكُنْ قَيْسٌ وَالِدُ الْأَخْنَفِ فِي الذُّوَابَةِ^(١) مِنْ قَوْمِهِ ، وَلَا مِنْ حَوَاشِيهِمْ^(٢) ؛ وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ .

وَكَانَتْ لِأَدَّةِ الْأَخْنَفِ فِي مَنَازِلِ قَوْمِهِ غَزَبِيَّ « الْيَمَامَةِ » مِنْ أَرَاظِي « نَجْدٍ » .

وَقَدْ نَشَأَ الْفَتَى يَتِيمًا ، حَيْثُ قُتِلَ أَبُوهُ وَهُوَ طِفْلٌ لَمْ يَدْرَجْ^(٣) بَعْدُ .

ثُمَّ غَمَرَتْ أَنْوَارُ الْإِسْلَامِ قَلْبَهُ وَهُوَ غُلَامٌ لَمْ يَطُرْ^(٤) شَارِبُهُ .

فَقَدْ بَعَثَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قُبَيْلَ وَفَاتِهِ بِسَنَوَاتٍ مَعْدُودَاتٍ ؛ دَاعِيَةً مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى رَهْطِ^(٥) الْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ .

فَاجْتَمَعَ الدَّاعِيَةُ إِلَى وَجْهِهِ الْقَوْمِ وَأَخَذَ يَحْضُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ ... فَسَكَتَ الْقَوْمُ ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ ، فَبَادَرَهُمُ الْأَخْنَفُ - وَكَانَ حَاضِرًا - وَقَالَ :

يَا قَوْمُ مَا لِي أَرَاكُمْ مُتَرَدِّدِينَ تُقَدِّمُونَ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُونَ رِجْلًا ؟ ! ...

وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الْوَافِدَ عَلَيْكُمْ لَوَافِدٌ خَيْرٌ ...

وَإِنَّهُ يَدْعُوكُمْ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَيَنْهَأُكُمْ عَنْ مَلَأِيمِهَا^(٦) ...

وَوَاللَّهِ مَا سَمِعْنَا مِنْهُ إِلَّا حُسْنًا ...

فَاجِيبُوا دَاعِيَ الْهُدَى ، تَفُوزُوا بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

فَمَا لَبِثُوا أَنْ أَسْلَمُوا ، وَأَسْلَمَ مَعَهُمُ الْفَتَى .

(١) فِي الذُّوَابَةِ مِنْ قَوْمِهِ : فِي الْمَرْتَبَةِ الْعَالِيَا مِنْ عَشِيرَتِهِ .

(٢) مِنْ حَوَاشِيهِمْ : مِنْ صِغَارِهِمْ .

(٣) لَمْ يَدْرَجْ : لَمْ يَمِشْ .

(٤) لَمْ يَطُرْ شَارِبُهُ : لَمْ يَطْلُعْ شَارِبُهُ .

(٥) رَهْطُ الرَّجُلِ : قَوْمُهُ وَجَمَاعَتُهُ .

(٦) مَلَأِيمِهَا : مَا لَا يَجُوزُ مِنْهَا .

ثُمَّ وَفَدَ كِبَارُ الْقَوْمِ عَلَى الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

غَيْرَ أَنَّ الْأُخْنَفَ لَمْ يَفِدْ مَعَهُمْ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ ...

فَحَرِمَ مِنْ شَرَفِ الصُّحْبَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُحْرَمَ مِنْ رِضَى الرَّسُولِ
الْكَرِيمِ ﷺ عَنْهُ ... وَدُعَائِهِ لَهُ ...

* * *

حَدَّثَ الْأُخْنَفُ قَالَ :

بَيْنَمَا أَنَا أَطُوفُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ فِي زَمَنِ « عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ » رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
إِذْ لَقِيتُنِي رَجُلٌ أَعْرِفُهُ ، فَأَخَذَ يَبْدِي وَقَالَ :
أَلَا أُبَشِّرُكَ ؟ .

قُلْتُ : بَلَى ...

قَالَ : أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى قَوْمِكَ
لِأَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَجَعَلْتُ أَدْعُوهُمْ ، وَأَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الدُّخُولَ فِي دِينِ
اللَّهِ ، فَقُلْتَ أَنْتَ يَوْمَئِذٍ مَا قُلْتَ ؟ .

قُلْتُ : بَلَى .

قَالَ : فَإِنِّي رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمَقَالَتِكَ ،
فَقَالَ : (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأُخْنَفِ) .

فَكَانَ الْأُخْنَفُ يَقُولُ : مَا مِنْ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِي أَرْجَى ^(١) لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ
دَعْوَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

* * *

(١) أَرْجَى : أعظم رجاء وأكثر أملاً .

وَلَمَّا لَحِقَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، وَطَلَعَ « مُسَيِّلِمَةُ الْكَذَّابُ » عَلَى النَّاسِ بِإِفْكِهِ ^(١) ، وَارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ بِسَبَبِهِ مَنْ ارْتَدَّ ؛ مَضَى إِلَيْهِ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَعَ عَمِّهِ « الْمُتَشَمِّسُ » لِيَلْقِيَاهُ ، وَيَسْمَعَا مِنْهُ .
وَكَانَ الْأَخْنَفُ يَوْمَئِذٍ فِي بَوَاكِرِ ^(٢) شَبَابِهِ ، فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ ، قَالَ « الْمُتَشَمِّسُ » لِابْنِ أَخِيهِ :

كَيْفَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَا أَخْنَفُ ؟ .

فَقَالَ : رَأَيْتُهُ مُبْطِلًا يَفْتَرِي ^(٣) الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسِ .
فَقَالَ لَهُ عَمُّهُ مُمَارِحًا :

أَلَا تَحْشَى عَلَى نَفْسِكَ إِنْ أَخْبَرْتُهُ بِتَكْذِيبِكَ إِيَّاهُ ؟ !
فَقَالَ الْأَخْنَفُ :

عِنْدَ ذَلِكَ أُحَالِفُكُ ^(٤) عِنْدَهُ ، فَهَلْ تَخْلِفُ أَنَّكَ لَمْ تُكَذِّبْهُ كَمَا كَذَّبْتُهُ ؟ .
وَتَضَاحَكَ الْفَتَى وَعَمُّهُ وَتَبَيَّنَا عَلَى إِسْلَامِهِمَا .

* * *

وَلَا غَرَابَةَ إِذَا أَخَذَكَ الْعَجَبُ ، وَاسْتَبَدَّتْ بِكَ الدَّهْشَةُ مِنْ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ الْحَازِمَةِ الْحَاسِمَةِ الَّتِي يَقِفُهَا الْأَخْنَفُ فِي عَظَائِمِ الْأُمُورِ ؛ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ .

لَكِنَّ عَجَبَكَ سَيَنْقَضِي ، وَدَهْشَتَكَ سَتَزُولُ ؛ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ فَتَى بَنِي « تَمِيمٍ » كَانَ نَادِرَةً مِنْ نَوَادِرِ الدَّهْرِ فِي حِدَّةِ ^(٥) الْخَاطِرِ ، وَتَوْقُيدِ الذِّكَايِ ، وَصِدْقِ النُّظَرَةِ ، وَصَفَاءِ الْفِطْرَةِ .

(١) بإفكه : بكذبه .

(٢) بواكير شبابه : أوائل شبابه .

(٣) يفتري : يختلق الكذب .

(٤) أُحَالِفُكَ : أطلب منك أن تحلف .

(٥) حِدَّةُ الْخَاطِرِ : نفاذ الذهن وحِدَّتُهُ .

وَأَنَّهُ كَانَ مُنْذُ نُعُومَةٍ^(١) أَظْفَارِهِ يُجَالِسُ مَشِيخَةَ قَوْمِهِ ، وَيَغْشَى^(٢)
أُنْدِيَّتَهُمْ ، وَيَشْهَدُ مُؤْتَمَرَاتِهِمْ ، وَيَتَلَمَّذُ عَلَى أَيْدِي حُكَمَائِهِمْ ، وَحُلَمَائِهِمْ .
حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

كُنَّا نَخْتَلِفُ^(٣) إِلَى مَجَالِسِ « قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ الْمِنْقَرِيِّ »^(٤) لِنَتَعَلَّمَ مِنْهُ
الْحِلْمَ كَمَا نَخْتَلِفُ إِلَى مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ لِنَتَلَقَّى مِنْهُمْ الْعِلْمَ .
فَقِيلَ لَهُ : وَمَا الَّذِي بَلَغَ مِنْ حِلْمِهِ ؟ .

فَقَالَ : جِئْتُهِ مَرَّةً فَرَأَيْتُهُ قَاعِدًا بِفَنَاءٍ^(٥) بَيْتِهِ ، مُحْتَبِياً^(٦) بِحَمَائِلِ سَيْفِهِ ،
يُحَدِّثُ قَوْمَهُ ... فَسَلَّمْتُ وَجَلَسْتُ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى سَمِعْنَا ضَجَّةً ، فَنَظَرْنَا ... فَإِذَا بِهِ قَدْ أَتَى لَهُ بِشَابٌ
مَكْتُوفٍ ، وَآخَرَ مَقْتُولٍ ، وَقِيلَ لَهُ :

هَذَا ابْنُ أَخِيكَ قَدْ قَتَلَ ابْنَكَ فَلَانًا ...

فَوَاللَّهِ مَا حَلَّ حُبُّوهُ ، وَلَا قَطَعَ كَلَامُهُ .

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ وَقَالَ :

يَا ابْنَ أَخِي قَتَلْتَ ابْنَ عَمِّكَ ؛ فَقَطَعْتَ رَحِمَكَ بِيَدِكَ ...

وَرَمَيْتَ نَفْسَكَ بِسَهْمِكَ ...

(١) نُعُومَةٌ أَظْفَارُهُ : طفولته وصغر سنه .

(٢) يَغْشَى أُنْدِيَّتَهُمْ : يحضر مجتمعاتهم .

(٣) نَخْتَلِفُ : نتردد .

(٤) قَيْسُ بْنُ عَاصِمِ الْمِنْقَرِيِّ : أحد أمراء العرب وعقلائهم ، ساد قومه في الجاهلية وحرَّم على نفسه الخمر ، وفد

عَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ .

(٥) بِفَنَاءٍ بَيْتِهِ : بساحة منزله .

(٦) مُحْتَبِياً : جامعاً بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها كما كان يجلس السادة من العرب .

ثُمَّ قَالَ لِابْنِ لَهُ آخَرَ :

فُمْ يَا بُنَيَّ فَحُلَّ كِتَافَ (١) ابْنِ عَمِّكَ ... وَوَارِ أَخَاكَ .

ثُمَّ سَقَ (٢) إِلَى أُمِّهِ مِائَةَ نَاقَةٍ دِيَّةَ ابْنِهَا ؛ فَإِنَّهَا غَرِيبَةٌ .

* * *

وَلَقَدْ أُتِيحَ لِلْأَخْفِ بْنِ قَيْسٍ أَنْ يَتَلَمَّذَ عَلَى أَيْدِي جِلَّةِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ،
وَفِي قَمِّيَّتِهِمُ الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

فَشَهِدَ مَجَالِسَهُ ، وَسَمِعَ مَوَاعِظَهُ ، وَوَعَى أَقْصِيَّتَهُ (٣) وَأَحْكَامَهُ ؛ فَكَانَ مِنْ
أَلَمَعِ التَّلَامِيذِ الَّذِينَ أَنْجَبَتْهُمْ الْمَدْرَسَةُ الْعُمَرِيَّةُ ، وَأَعَمَّقَتْهُمْ تَأَثُّراً بِمُعَلِّمِهَا
الْعَبْقَرِيِّ الْقَدْ .

وَلَقَدْ قِيلَ لَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ : بِمِ أُوْتِيَتْ مَا أُوْتِيَتْ مِنَ الْوَقَارِ (٤) وَالْحِكْمَةِ ؟ .

فَقَالَ : بِكَلِمَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ حَيْثُ قَالَ :

مَنْ مَرَّحَ اسْتُخِفَّ بِهِ (٥) ...

وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ ...

وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ (٦) ...

وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ ...

وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ ...

وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ ...

* * *

(١) الكتاف : حبل تشد به اليدان إلى خلف الكتفين . (٤) الوقار : الحلم والرياسة .

(٢) سَقَ : أعط . (٥) اسْتُخِفَّ بِهِ : استهان الناس به .

(٣) الأقضية : جمع قضاء ، وهو الحكم . (٦) سَقَطُهُ : خطؤه .

وَقَدْ تَسَنَّمَ^(١) الْأُخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ قَوْمَهُ ؛ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ
أَعْلَاهُمْ حَسَباً ...

وَلَا أَجْلَهُمْ أُمًّا وَأَباً ...

وَلَكُمْ سَأَلُهُ السَّائِلُونَ عَنْ سِرِّ ذَلِكَ ؛ فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ :

مَنْ الَّذِي يُسَوِّدُهُ^(٢) قَوْمُهُ يَا أَبَا بَحْرٍ ؟

فَقَالَ : مَنْ كَانَ فِيهِ أَرْبَعُ خِصَالٍ سَادَ قَوْمُهُ غَيْرَ مُدَافِعٍ^(٣) .

فَقِيلَ لَهُ : وَمَا هَذِهِ الْخِصَالُ ؟

فَقَالَ : مَنْ كَانَ لَهُ دَيْنٌ يَحْجُزُهُ^(٤) ...

وَحَسَبٌ^(٥) يَصُونُهُ ...

وَعَقْلٌ يُرْشِدُهُ ...

وَحَيَاءٌ يَمْنَعُهُ ...

* * *

وَالْأُخْنَفُ بَعْدَ ذَلِكَ أَحَدُ حُلَمَاءِ الْعَرَبِ الَّذِينَ ضُرِبَ بِحِلْمِهِمُ الْمَثَلُ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ حِلْمِهِ أَنَّ « عَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ » أَغْرَى^(٦) رَجُلًا بِسَبِّهِ سَبًّا
مُقْدَعًا^(٧) يُثِيرُ الْحَفَائِظَ .

لَكِنَّ الْأُخْنَفَ ظَلَّ صَامِتًا مُطَرِّقًا ... فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ أَنَّهُ لَا يُجِيبُهُ ،
وَلَا يَأْتِيهِ لَهُ ؛ أَخَذَ إِبْهَامَهُ فِي فَمِهِ ، وَجَعَلَ يَعْضُهُ وَهُوَ يَقُولُ :

(١) تَسَنَّمَ : عَلَا وَرَئَسَ .

(٢) يُسَوِّدُهُ قَوْمُهُ : يَجْعَلُونَهُ سَيِّدًا عَلَيْهِمْ .

(٥) الْحَسَبُ : الشَّرَفُ .

(٦) أَغْرَى : حَضَّ .

(٣) غَيْرَ مُدَافِعٍ : لَا يَدَافِعُهُ أَحَدٌ عَنِ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي بَلَغَهَا .

(٧) مُقْدَعًا : مَفْحَشًا .

(٤) يَحْجُزُهُ : يَمْنَعُهُ .

وَاسْؤَأَتَاهُ^(١)، وَاللَّهِ مَا مَنَعُهُ مِنْ جَوَابِي إِلَّا هَوَانِي^(٢) عَلَيْهِ .

* * *

وَاتَّفَقَ أَنْ كَانَ الْأُخْنَفُ يَمْشِي فِي حَوَاشِي^(٣) « الْبَصْرَةِ » خَالِياً بِنَفْسِهِ ،
فَتَعَرَّضَ لَهُ رَجُلٌ ، جَعَلَ يَشْتُمُهُ ، وَيَعِيْبُهُ ، وَيُسْمِعُهُ قَوَارِصَ^(٤) الْكَلَامِ ، وَهُوَ
سَاكِتٌ مَاضٍ فِي طَرِيقِهِ .

فَلَمَّا افْتَرَبَا مِنَ النَّاسِ ؛ التَفَتَ إِلَى الرَّجُلِ وَقَالَ :
يَا بَنَ أَخِي إِنْ كَانَ قَدْ بَقِيَ مِنْ كَلَامِكَ فَضْلَةٌ^(٥) فَقُلْهَا الْآنَ ...
فَإِنَّ قَوْمِي إِذَا سَمِعُوا مَا تَقُولُ أَصَابَكَ مِنْهُمْ أَذَى .

* * *

وَكَانَ الْأُخْنَفُ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَبْدًا ، صَوَّامًا ، قَوَّامًا ، زَاهِدًا بِمَا فِي أَيْدِي
النَّاسِ .

وَكَانَ إِذَا جَنَّ^(٦) عَلَيْهِ اللَّيْلُ أُسْرَجَ^(٧) مِصْبَاحُهُ ، وَوَضَعَهُ قَرِيبًا مِنْهُ ،
وَوَقَفَ فِي مِحْرَابِهِ يُصَلِّي .

وَهُوَ يَتَمَلَّمُ تَمَلُّمَ السَّقِيمِ^(٨) ، وَيَنكِى بُكَاءَ الثَّائِلِ^(٩) ؛ إِشْفَاقًا مِنْ
عَذَابِ اللَّهِ ...

وَخَشْيَةً مِنْ غَضَبِهِ ...

وَكَانَ كُلَّمَا اسْتَشْعَرَ ذَنْبًا مِنْ ذُنُوبِهِ ، أَوْ لَاحَ^(١٠) لَهُ غَيْبٌ مِنْ عُيُوبِهِ ، قَرَّبَ
إِصْبَعَهُ مِنَ الْمِصْبَاحِ وَقَالَ :

-
- | | |
|---------------------------------------------|---------------------------------|
| (١) واسؤأته : واحزنه . | (٦) جَنَّ : أَطْبَقَ . |
| (٢) هواني عليه : ذلي وحقارتي عنده . | (٧) أُسْرَجَ : أوقد . |
| (٣) حواشي البصرة : أطراف البصرة وما حولها . | (٨) السَّقِيم : المريض العليل . |
| (٤) قوارص الكلام : الكلام المؤلم . | (٩) الثَّائِل : الفاعد ابنه . |
| (٥) فَضْلَةٌ : بقية وزيادة . | (١٠) لَاحَ : ظَهَرَ وبدا . |

حَسَّ (١) يَا أَحْنَفُ ...

مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ فَعَلْتَ كَذَا يَوْمَ كَذَا؟ .

وَيْحَكَ يَا أَحْنَفُ إِذَا كُنْتَ لَا تُطِيقُ الْيَوْمَ لَهَبَ الْمِصْبَاحِ ، وَلَا تَصْبِرُ عَلَى
حَرِّهِ ؛ فَكَيْفَ تُطِيقُ عَدَاً لَهَبَ جَهَنَّمَ ، وَتَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ؟! ...

اللَّهُمَّ إِنْ تَغْفِرْ لِي فَأَنْتَ أَهْلٌ لِدَاكَ ...

وَإِنْ تُعَذِّبْنِي فَأَنَا أَهْلٌ لِدَاكَ ...

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ وَأَرْضَاهُ .

فَقَدْ كَانَ رَائِعَةً مِنْ رَوَائِعِ الزَّمَانِ ...

وَضَرْباً فَرِيداً مِنَ النَّاسِ ...

(١) حَسَّ : تَوَجَّعَ وَتَأَلَّمَ .

الأحنفُ بن قيسٍ يتلمذ على يدي الفاروق

« إِنَّ هَذَا الْغَلَامَ وَاللَّهِ هُوَ السَّيِّدُ وَإِنَّهُ سَيِّدُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ »

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

نَحْنُ الْآنَ فِي أَوَائِلِ خِلَافَةِ الْفَارُوقِ نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَهُ .
وَهَا هُمْ أَوْلَاءِ الْأَنْجَادِ ^(١) الْأَمْجَادُ رَهْطُ ^(٢) « الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ » مِنْ بَنِي
« تَمِيمٍ » ، يَمْتَنُّونَ صَهَوَاتِ الْخُيُولِ الصَّافِنَاتِ ^(٣) ...
وَيَتَقَلَّدُونَ السُّيُوفَ الرَّقَاقَ الْمُزَهَّفَاتِ ^(٤) ...
وَيَرْحَلُونَ عَنْ مَنَازِلِهِمْ فِي « الْأَحْسَاءِ » وَ« نَجْدٍ » ، مُيَمِّينَ ^(٥) وَجُوهَهُمْ
شَطْرَ « الْبَصْرَةِ » .

يُرِيدُونَ الْإِنْضِمَامَ إِلَى جُمُوعِ الْمُسْلِمِينَ الْمُحْتَشِدِينَ هُنَاكَ تَحْتَ قِيَادَةِ
« عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ » ^(٦) لِقِتَالِ الْفُرْسِ جِهَاداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...
وَطَلَباً لِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ .
وَكَانَ مَعَهُمْ فَتَاهُهُمُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ .

* * *

(١) الْأَنْجَادُ : جمع نجد ، وهو الشجاع الذي يفعل ما يعجز عنه غيره .

(٢) رَهْطُ الرَّجُلِ : قومه .

(٣) الصَّافِنَاتُ : جمع مفردة صافن ، وهو الذي يقف على أقدام ثلاث ويرفع القدم الرابعة .

(٤) الْمُزَهَّفَاتُ : السيوف المرققة المحددة .

(٥) مُيَمِّينَ : قاصدين .

(٦) عتبة بن غزوان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ تَلَقَّى عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ كِتَابًا مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ
الْخَطَّابِ يَأْمُرُهُ فِيهِ بِأَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ عَشْرَةَ مِنْ صُلَحَاءِ عَسْكَرِهِ ، وَأَحْسَنِهِمْ بَلَاءً فِي
الْقِتَالِ لِيَتَفَقَّحَ مِنْهُمْ عَلَى أَحْوَالِ الْجَيْشِ ، وَلِيَتِمَلَّى ^(١) مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنْ رَأْيٍ
وَمَشُورَةٍ .

فَصَدَعَ عُتْبَةُ بِالْأَمْرِ ^(٢) ، وَجَهَّزَ عَشْرَةَ مِنْ صَفْوَةِ رِجَالِهِ .
وَجَعَلَ بَيْنَهُمُ الْأُخْنَفَ بْنَ قَيْسٍ .
وَوَجَّهَهُمْ إِلَى « الْمَدِينَةِ » .

* * *

مَثَلُ رِجَالِ الْوَفْدِ بَيْنَ يَدَيْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَرَحَّبَ بِهِمْ وَأَذْنَى مَجَالِسَهُمْ ،
ثُمَّ سَأَلَهُمْ عَنْ حَوَائِجِهِمْ وَحَوَائِجِ عَامَّةِ النَّاسِ .
فَنَهَضُوا إِلَيْهِ تِبَاعًا وَقَالُوا :
أَمَّا عَامَّةُ النَّاسِ فَأَنْتَ وَلِيُّهُمْ ، وَصَاحِبُ شُؤْنِهِمْ ، وَأَمَّا نَحْنُ فَتَتَكَلَّمُ عَنْ
خَاصَّةِ أَنْفُسِنَا .

ثُمَّ طَلَبَ كُلُّ مِنْهُمْ حَاجَتَهُ الَّتِي تَغْنِيهِ .
وَكَانَ الْأُخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ آخِرَ رِجَالِ الْوَفْدِ كَلَامًا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَصْغَرَهُمْ
سِنًا .

فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ حَلُّوا فِي « مِصْرَ » قَدْ نَزَلُوا فِي
الْخُضْرَةِ وَالنُّضْرَةِ ^(٣) وَالْخِضْبِ مِنْ مَنَازِلِ « الْفَرَاعِنَةِ » .

(١) يتملى : يتشبع ويمتلئ . (٢) صدع بالأمر : بيّنه ، واستجاب له . (٣) النضرة : الخضرة المورقة .

وَإِنَّ الَّذِينَ حُلُوا فِي دِيَارِ « الشَّامِ » قَدْ نَزَلُوا فِي الرَّغْدِ^(١)، وَالثَّمَارِ،
وَالرِّيَاضِ مِنْ مَنَازِلِ « الْقِيَاصِرَةِ » .

وَإِنَّ الَّذِينَ حُلُوا فِي دِيَارِ « الْفُرْسِ » قَدْ نَزَلُوا عَلَى ضِفَافِ الْأَنْهَارِ الْعَذْبَةِ،
وَالجَنَّاتِ الْوَارِفَةِ مِنْ مَنَازِلِ « الْأَكَاسِرَةِ » .

لَكِنَّ قَوْمَنَا الَّذِينَ حُلُوا فِي « الْبَصْرَةِ » قَدْ نَزَلُوا فِي أَرْضِ هَشَاشَةٍ نَشَاشَةٍ^(٢)
لَا يَجِفُّ ثَرَابُهَا، وَلَا يَنْبُثُ مَرْعَاهَا ...

أَحَدُ طَرَفَيْهَا بَحْرٌ أُجَاجٌ^(٣)، وَطَرَفُهَا الْآخِرُ فَلَاةٌ قَفْرٌ .

فَازِلْ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - ضُرَّهُمْ، وَأَنْعِشْ حَيَاتَهُمْ، وَمُرْ وَالْيَكَ عَلَى
« الْبَصْرَةِ » أَنْ يَخْفِرَ لَهُمْ نَهْرًا يَسْتَعْدِبُونَ مِنْهُ الْمَاءَ وَيَسْقُونَ الْأَنْعَامَ وَالزَّرْعَ ...

فَتَحْسُنْ حَالَهُمْ، وَيَصْلُحْ عِيَالَهُمْ، وَتَرْخُصْ أَسْعَارَهُمْ ...

وَيَسْتَعِينُوا بِذَلِكَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

فَنَظَرَ إِلَيْهِ عُمَرُ فِي إِعْجَابٍ، وَقَالَ لِرِجَالِ الْوَفْدِ :

هَلَّا فَعَلْتُمْ فَعْلَ هَذَا ...

إِنَّهُ - وَاللَّهِ - لَسَيِّدٌ ...

ثُمَّ قَدَّمَ لَهُمْ جَوَائِزَهُمْ، وَقَدَّمَ لِلْأَخْنَفِ جَائِزَتَهُ فَقَالَ :

وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَطَعْنَا إِلَيْكَ الْفُلُوتَ، وَلَا ضَرَبْنَا لِلْقَائِكَ أَكْبَادَ^(٤)

الْإِبِلِ فِي الْبُكُورِ وَالْعَشِيَّاتِ لِنَيْلِ الْجَوَائِزِ ...

وَمَا لِي مِنْ حَاجَةٍ لَدَيْكَ إِلَّا حَاجَةُ قَوْمِي الَّتِي ذَكَرْتُ ...

(١) الرغد : طيب العيش ووفرة الخصب .

(٢) هَشَاشَةٌ نَشَاشَةٌ : اللينة المسترخية، والنشاشة : المألحة التي لا تنبت .

(٣) الأجاج : المرء من شدة ملوحته .

(٤) أكباد الإبل : أجواف النوق .

فَإِنْ تَقْضِيهَا لَهُمْ تَكُنْ قَدْ كَفَيْتَ وَوَفَّيْتَ ...

فَارْزَادَ عُمَرُ إِعْجَابًا بِهِ وَقَالَ : « هَذَا الْغُلَامُ سَيِّدُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ » .

وَلَمَّا انْقَضَ الْمَجْلِسُ ، وَهَمَّ رِجَالُ الْوَفْدِ بِالْانْصِرَافِ إِلَى رَوَاحِلِهِمْ^(١)
لِيَبِيتُوا عِنْدَهَا ، أَجَالَ عُمَرُ بَصْرَهُ عَلَى حَقَائِبِهِمْ ؛ فَرَأَى طَرْفَ ثَوْبٍ خَارِجاً مِنْ
إِحْدَاهَا ، فَقَامَ فَلَمَسَهُ بِيَدِهِ وَقَالَ :

لِمَنْ هَذَا ؟ .

فَقَالَ الْأَخْنَفُ : لِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَدْ أَذْرَكَ أَنَّهُ اسْتَعْلَاهُ^(٢) .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : بِكُمْ اشْتَرَيْتُهُ ؟ .

فَقَالَ الْأَخْنَفُ بِثَمَانِيَةِ دَرَاهِمٍ .

وَلَمْ يَعْرِفْ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ كَذَبَ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا غَيْرَ تِلْكَ الْكَذِبَةِ .

ذَلِكَ لِأَنَّهُ اشْتَرَاهُ بِاثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا .

فَنَظَرَ إِلَيْهِ عُمَرُ فِي رَفَقٍ وَقَالَ :

هَلَّا اكْتَفَيْتَ بِوَاحِدٍ ، وَوَضَعْتَ فَضْلَهُ^(٣) مَالِكَ فِي مَوْضِعٍ تُعِينُ بِهِ
مُسْلِمًا ؟ .

ثُمَّ قَالَ :

خُذُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يُصْلِحُ شَأْنَكُمْ^(٤) ...

(١) رواحلهم : الرواحل جمع راحلة ، وهي التي يُرْجَلُ عليها .

(٢) اسْتَعْلَاهُ : اعتقد أنه غالي الثمن .

(٣) فَضْلُهُ مَالِك : بقية مَالِك .

(٤) يَصْلِحُ شَأْنَكُمْ : ينفي بحاجتكم ويقيم حياتكم .

وَضَعُوا الْفُضُولَ^(١) فِي مَوَاضِعِهَا ؛ تُرِيحُوا أَنْفُسَكُمْ وَتَزْبَحُوا ...
فَاطْرُقَ الْأَخْنَفُ حَيَاءً مِنْهُ ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا .

* * *

أَذِنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِرِجَالِ الْوَفْدِ بِالْعُودَةِ إِلَى « الْبَصْرَةِ » غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَحْ
لِلْأَخْنَفِ بِالْبَرَّاحِ^(٢) مَعَهُمْ ، وَاسْتَبَقَاهُ عِنْدَهُ حَوْلًا كَامِلًا .
فَلَقَدْ أَدْرَكَ عُمَرُ بِثَاقِبِ نَظَرِهِ مَا تَوَافَرَ لِلْفَتَى التَّمِيمِيِّ مِنْ حِدَّةِ الذِّكَايَةِ ...
وَنَصَاعَةِ الْبَيَانِ ...

وَسُمُّوْ النَّفْسِ ...

وَعُلُوْ الْهَمَّةِ ...

وَعِنَى الْمَوَاهِبِ ...

فَأَرَادَ أَنْ يُبْقِيَهُ قَرِيبًا مِنْهُ لِيَصْنَعَهُ^(٣) عَلَى عَيْنِهِ .

وَلِيَلْقَى كِبَارَ الصَّحَابَةِ ؛ فَيَهْتَدِيَ بِهِدْيِهِمْ ...

وَيَتَفَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ عَلَى أَيْدِيهِمْ ...

ثُمَّ إِنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَحْتَبِرَهُ عَنْ كَتَبِ^(٤) ، وَأَنْ يَنْفَذَ إِلَى دَخِيلَةِ نَفْسِهِ قَبْلَ
أَنْ يُؤَلِّقَهُ بَعْضَ شُؤُونِ الْمُسْلِمِينَ .

ذَلِكَ لِأَنَّ عُمَرَ كَانَ يَخْشَى مِنَ الْأَذْكِيَاءِ الْمَقَاوِلِ^(٥) الْفُصَحَاءِ أَشَدَّ
الْخَشْيَةِ .

(١) الفضول : الزوائد .

(٢) البراح : المغادرة والذهاب .

(٣) يصنعه على عينه : يتعهده ويوجهه ويريه .

(٤) عن كتب : عن قرب .

(٥) المقاول : البلغاء الفصحاء الذين يتقنون الكلام .

فَهُمْ إِذَا صَلَحُوا مَلَأُوا الدُّنْيَا خَيْرًا ...
 وَإِذَا فَسَدُوا كَانَ ذَكَوُهُمْ وَبَالًا عَلَى النَّاسِ .
 وَلَمَّا انْتَهَى الْحَوْلُ ، قَالَ عُمَرُ لِالأَخْنَفِ :
 يَا أَخْنَفُ ، إِنِّي قَدْ بَلَوْتُكَ ^(١) وَاخْتَبَرْتُكَ فَلَمْ أَرِ إِلَّا خَيْرًا .
 وَقَدْ رَأَيْتُ عَلَانِيَتَكَ حَسَنَةً ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ سِرِيرْتُكَ مِثْلَ
 عَلَانِيَتِكَ .

ثُمَّ وَجَّهَهُ لِحَرْبِ « الْفُرْسِ » ، وَكَتَبَ لِقَائِدِهِ ، « أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ » :
 أَمَّا بَعْدُ ، فَأَذِنَ ^(٢) الأَخْنَفَ بَنَ قَيْسٍ مِنْكَ ، وَشَاوَرَهُ ، وَاسْمَعِ مِنْهُ .

* * *

انْضَوَى ^(٣) الأَخْنَفُ تَحْتَ أَلْوِيَةِ ^(٤) الْمُسْلِمِينَ الْمُشْرِقَةِ الْمُعَرَّبَةِ فِي بِلَادِ
 « فَارِسَ » .

وَأَبْدَى مِنْ ضُرُوبِ الْبُطُولَاتِ مَا جَعَلَ سَهْمَهُ يَغْلُو ، وَنَجْمَهُ يَتَأَلَّقُ .
 وَأَبْلَى ^(٥) هُوَ وَقَوْمُهُ بَنُو « تَعِيمٍ » فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ أَكْرَمَ الْبَلَاءِ ، وَبَدَّلُوا
 أَسْحَى الْبَدْلِ .

حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مَدِينَةَ « تُسْتَرَ » دُرَّةَ النَّجَاحِ الْكِسْرَوِيَّ ، وَأَوْقَعَ فِي
 أَسْرِهِمْ « الْهَرْمَزَانَ » .

* * *

كَانَ « الْهَرْمَزَانُ » مِنْ أَشَدِّ قُوَادِ « الْفُرْسِ » بَأْسًا ، وَأَقْوَى أَمْرَائِهِمْ
 شَكِيمَةً ^(٦) ، وَأَمْضَاهُمْ عَزِيمَةً ، وَأَوْسَعِهِمْ مَكِيدَةً فِي الْحُرُوبِ .

(١) بلوتك : جرّبتك . (٣) انضوى : انضم . (٥) أبلى : أظهر قوته وكشف عن بأسه .
 (٢) أذن : قرب . (٤) ألوية المسلمين : رايات المسلمين . (٦) الشكيمة : الأنفة .

وَلَقَدْ أَلْحَيْنَاهُ أَنْتَصَارَاتُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مُصَالَحَتِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، غَيْرَ أَنَّهُ
كَانَ يَغْدِرُ بِهِمْ كُلَّمَا سَنَحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى النَّصْرِ.
فَلَمَّا أَطْبَقُوا^(١) عَلَيْهِ فِي «تُسْتَر» تَحَصَّنَ مِنْهُمْ فِي بُرْجٍ مِنْ أَبْرَاجِهَا
الْمُمَنَّعَةِ وَقَالَ لَهُمْ:

إِنَّ مَعِيَ مِائَةَ سَهْمٍ.
وَوَاللَّهِ مَا تَصِلُونَ إِلَيَّ مَا دَامَ فِي يَدَيَّ شَيْءٌ مِنْهَا، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَامٍ
لَا تُخْطِي لَهُ رَمِيَّةٌ...

فَمَا جَدَوِي^(٢) أَسْرِكُمْ إِثَّايَ بَعْدَ أَنْ أُصِيبَ مِائَةً مِنْكُمْ بَيْنَ قَتِيلٍ وَجَرِيحٍ.
فَقَالُوا: وَمَاذَا تُرِيدُ؟

فَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَنْزِلَ عَلَى حُكْمٍ خَلِيفَتِكُمْ عُمَرَ، وَلِيَفْعَلَ بِي مَا يَشَاءُ.
فَقَالُوا: لَكَ ذَلِكَ.

فَرَمَى بِقَرْصِهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ مُسْتَسْلِمًا، فَشَدُّوا وَثَاقَهُ^(٣)،
وَأُرْسِلَ إِلَى «الْمَدِينَةِ» مَعَ وَفْدٍ مِنْ أَبْطَالِ الْفَتْحِ.

وَكَانَ عَلَى رَأْسِهِمْ «أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ»^(٤) خَادِمُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ، وَالْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ تَلْمِيزُ الْمَدْرَسَةِ الْعُمَرِيَّةِ.

* * *

مَضَى الْوَفْدُ يَحْتِ الْخُطَى «بِالْهُزْمَانِ» نَحْوَ الْمَدِينَةِ؛ لِيُبَشِّرَ أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ بِالْفَتْحِ.

(١) أطبقوا عليه: أحاطوا به.

(٢) ما جدوى: ما نفع.

(٣) الوثائق: القيد والحبس.

(٤) انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المشروعة.

وَيَحْمِلَ إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ خُمُسَ الْعَنَائِمِ ، وَلَيْسَلَمْ نَاكِثٌ (١)
الْعُهُودِ خَوَانَ الدِّمَمِ إِلَى الْخَلِيفَةِ ؛ لِيَحْكُمَ عَلَيْهِ بِحُكْمِهِ .

فَلَمَّا بَلَغُوا حَوَاشِي (٢) الْمَدِينَةِ ، أَعَدُّوا « الْهُزْمَانَ » لِيَعْرِضُوهُ أَمَامَ
الْمُسْلِمِينَ عَلَى هَيْئَتِهِ .

فَأَلْبَسُوهُ ثِيَابَهُ الْمَنْسُوجَةَ مِنْ ثَمِينِ الدِّيَنَاجِ (٣) الْمَوْشَاةَ بِخُيُوطِ الذَّهَبِ .
وَوَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ تَاجَهُ الْمُرْصَعَ بِالذُّرِّ وَالْجَوْهَرِ ، وَقَلَّدُوهُ صَوْلَجَانَهُ (٤)
الْمَصْنُوعَ مِنَ الْإِبْرِيزِ ، الْمُكَلَّلَ بِالْيَوَاقِيتِ وَاللَّائِي .

فَمَا إِنْ وَطِئَتْ أَقْدَامُهُمْ أَرْضَ « يَثْرِبَ » حَتَّى تَجَمَّعَ النَّاسُ عَلَيْهِمْ شِيبًا
وَشُبَّانًا ...

وَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَى أَسِيرِهِمْ ، وَيَعْجَبُونَ مِنْ هَيْئَتِهِ وَزِيَّهِ أَشَدَّ الْعَجَبِ .

* * *

تَوَجَّهَ الْوَفْدُ « بِالْهُزْمَانَ » إِلَى دَارِ عُمَرَ فَلَمْ يَجِدُوهُ ، فَسَأَلُوا عَنْهُ ...

فَقِيلَ لَهُمْ : إِنَّهُ مَضَى إِلَى الْمَسْجِدِ لِيَسْتَقِيلَ وَقَدْ أَقْدَمَ عَلَيْهِ .

فَانْطَلَقُوا إِلَى الْمَسْجِدِ فَلَمْ يَرَوْهُ هُنَاكَ .

وَكَانُوا كُلَّمَا طَالَ بِهِمُ الْبَحْثُ عَنِ الْخَلِيفَةِ تَكَاثَّرَ النَّاسُ عَلَيْهِمْ ، وَاشْتَدَّ
زِحَامُهُمْ .

وَفِيمَا هُمْ فِي حَيْرَتِهِمْ هَذِهِ ؛ رَأَهُمْ صَبِيَّةٌ صِغَارٌ يَلْعَبُونَ ، فَقَالُوا لَهُمْ :

مَا شَأْنُكُمْ ؟ ! ...

(١) الناكث : الراجع عمّا عاهد عليه .

(٢) حواشي المدينة : أطراف المدينة ومداخلها .

(٣) الصَوْلَجَان : العصا المعقوفة الرأس ، ومنها

صَوْلَجَانُ الْمَلِكِ .

(٤) الدِّيَنَاج : الثوب الذي سدها ولحمته من الحرير .

نَرَاكُمْ ذَاهِبِينَ آيِبِينَ ، لَعَلَّكُمْ تُرِيدُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .
فَقَالُوا :

نَعَمْ نُرِيدُهُ .

فَقَالُوا : إِنَّهُ نَائِمٌ فِي مَيْمَنَةِ الْمَسْجِدِ ، مُتَوَسِّدٌ بُرْنُسَهُ^(١) .

وَكَانَ عُمَرُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَدْ خَرَجَ لِلِقَاءِ وَفْدٍ مِنْ أَهْلِ « الْكُوفَةِ » فِي
بُرْنُسٍ لَهُ ؛ فَلَمَّا انْصَرَفَ الْوَفْدُ خَلَعَ الْبُرْنُسَ ، وَوَضَعَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ ، وَأَسْلَمَ جَفْنَيْهِ
إِلَى الْكَرَى^(٢) .

فَانْطَلَقَ الْوَفْدُ « بِالْهُزْمَزَانِ » إِلَى مَيْمَنَةِ الْمَسْجِدِ ، فَلَمَّا رَأَوْا الْخَلِيفَةَ نَائِمًا
جَلَسُوا دُونَهُ^(٣) ...

وَأَجْلَسُوا أَسِيرَهُمْ مَعَهُمْ ...

* * *

لَمْ يَكُنْ « الْهُزْمَزَانُ » يَفْقَهُ شَيْئًا مِنَ الْعَرَبِيَّةِ .

وَمَا كَانَ يَخْطُرُ بِنَالِهِ أَنَّ هَذَا النَّائِمَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ هُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ .

حَقًّا إِنَّهُ كَانَ قَدْ سَمِعَ عَنْ تَقَشُّفِ^(٤) عُمَرَ وَزُهْدِهِ فِي زُخْرُفِ الدُّنْيَا
وَزِينَتِهَا .

لَكِنَّهُ مَا كَانَ يَتَخَيَّلُ - مُجَرَّدَ تَخَيُّلٍ - أَنَّ يَنَامَ قَاهِرُ « الرُّومِ » ، وَكَاسِرُ
« الْأَكَاسِرَةِ » فِي طَرَفِ الْمَسْجِدِ مِنْ غَيْرِ غَطَاءٍ ...

(٣) دُونَهُ : قَرِيبًا مِنْهُ .

(١) الْبُرْنُسُ : رِداءٌ يَكُونُ غِطَاءَ الرَّأْسِ جِزْءًا مِنْهُ .

(٤) التَّقَشُّفُ : ضَيْقُ الْعَيْشِ ، وَهُوَ ضِدُّ التَّنَعُّمِ .

(٢) الْكَرَى : النِّعَاسُ .

وَلَا وِكَاءٍ^(١)...

وَلَا حَرْسٍ...

وَلَا حُجَّابٍ...

وَلَمَّا رَأَى الْقَوْمَ يَجْلِسُونَ صَامِتِينَ؛ ظَنَّهُمْ يَتَأَهَّبُونَ لِلصَّلَاةِ.

وَيَتَرَقَّبُونَ قُدُومَ الْخَلِيفَةِ.

لَكِنَّ الْأَخْنَفَ بْنَ قَيْسٍ جَعَلَ يُشِيرُ إِلَى النَّاسِ أَنْ يُمَسِّكُوا عَنِ الْكَلَامِ،
وَيَكُفُّوا عَنِ الْجَلْبَةِ لِكَيْ لَا يُوقِظُوا الْخَلِيفَةَ.

فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ مِنْ صُحْبَتِهِ لَهُ أَنَّهُ قَلَّمَا يَغْتَمِضُ لَهُ جَفْنٌ فِي لَيْلٍ.

فَهُوَ إِمَّا قَائِمٌ فِي مَحْرَابِهِ يَعْْبُدُ اللَّهَ...

أَوْ مُتَخَفٌ فِي ثِيَابِهِ يَجُوبُ^(٢) أَحْيَاءَ الْمَدِينَةِ لِيَعْرِفَ أَحْوَالَ الرِّعِيَّةِ...

أَوْ عَاسٍ^(٣) يَحْرُسُ بُيُوتَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الطُّرَاقِ.

فَأَثَارَتْ إِشَارَاتُ الْأَخْنَفِ لِلنَّاسِ انْتِبَاهَ «الْهُزْمِزَانِ»، فَالْتَفَتَ إِلَى «الْمُغِيرَةِ
ابْنِ شُعْبَةَ»^(٤) - وَكَانَ يَعْرِفُ الْفَارِسِيَّةَ - وَقَالَ:

مَنْ هَذَا النَّائِمُ !!؟

فَقَالَ لَهُ الْمُغِيرَةُ:

إِنَّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ...

(١) الْوِكَاءُ: مَا يُنْكَأُ عَلَيْهِ وَيُسْتَنْدُ عَلَيْهِ.

(٢) يَجُوبُ: يَقْطَعُ وَيَتَجَوَّلُ.

(٣) الْعَاسُ: الْحَارِسُ فِي اللَّيْلِ.

(٤) الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: تُوُفِيَ سَنَةَ ٥٠ هـ - ٦٧٠ م. صَحَابِي ثَقَفِي مِنْ دَهَاةِ الْعَرَبِ وَوَلَانَهُمْ، وَلاَهُ عَمْرٌ مِنَ الْخَطَابِ
الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَعَزَلَهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ، ثُمَّ وَلاَهُ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ الْبَصْرَةَ، وَمَاتَ بِهَا.

فَفَغَرَ^(١) « الْهُزْمَزَانُ » فَمَهُ دَهْشَةً وَقَالَ : عُمَرُ !!؟ .

أَيْنَ حَرَسُهُ وَحِجَابُهُ !!؟ .

فَقَالَ لَهُ الْمُغِيرَةُ : لَيْسَ لَهُ حَارِسٌ وَلَا حَاجِبٌ .

فَقَالَ « الْهُزْمَزَانُ » : يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا .

فَقَالَ الْمُغِيرَةُ : بَلْ يَفْعَلُ فِعْلَ الْأَنْبِيَاءِ ؛ إِذْ لَا نَبِيٍّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ ...

ثُمَّ كَثُرَ النَّاسُ ، وَارْتَفَعَتِ الْجَلْبَةُ .

فَاسْتَيْقَظَ عُمَرُ ، وَاسْتَوَى جَالِسًا ، وَنَظَرَ إِلَى النَّاسِ فِي دَهْشَةٍ ... فَرَأَى
الْأَمِيرَ الْفَارِسِيَّ ، وَعَلَى رَأْسِهِ تَاجُهُ الْمُتَوَهَّجُ تَحْتَ أَشْعَةِ الشَّمْسِ ...

وَفِي يَدِهِ صَوْلَجَانُهُ الَّذِي يَخْطِفُ بَرِيقُهُ الْأَبْصَارَ .

فَحَدَّقَ فِيهِ وَقَالَ : « الْهُزْمَزَانُ » ؟ .

فَقَالَ لَهُ الْأَخْنَفُ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَتَأَمَّلَ عُمَرُ مَا عَلَيْهِ مِنَ الذَّهَبِ ، وَاللَّائِي ، وَالْيَوَاقِيتِ ، وَالْحَرِيرِ .

ثُمَّ أَشَاحَ^(٢) بَوَجهِهِ عَنْهُ وَقَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ ...

وَأَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الدُّنْيَا ...

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذَلَّ هَذَا وَأَشْيَاعُهُ لِلْإِسْلَامِ .

ثُمَّ قَالَ :

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ تَمَسَّكُوا بِهَذَا الدِّينِ ...

وَاهْتَدُوا بِهَذَا نَبِيِّكُمْ الْكَرِيمِ ...

(١) فَغَرَ فاه بدھشۃ .

(٢) أَشَاح بوجهه : أَمَالَ وجهه وأعرض عنه .

وَلَا تُبْطِرُنَّكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَرَارَةٌ^(١)...

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ بَشَّرَهُ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ بِالْفَتْحِ...

وَأَخْبَرَهُ بِمَا أَفَاءَ^(٢) اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعَنَائِمِ وَقَالَ لَهُ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ « الْهُزْمُرَّانَ » قَدْ اسْتَأْسَرَ^(٣) لَنَا ، وَطَلَبَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَى حُكْمِكَ فِيهِ ، فَكَلَّمَهُ إِذَا شِئْتَ .

فَقَالَ : لَا أَكَلِّمُهُ حَتَّى تَخْلَعُوا مَا عَلَيْهِ مِنْ مَظَاهِيرِ الْبَطْرِ وَالْأَشْرِ^(٤) .

فَخَلَعُوا عَنْهُ حِلْيَتَهُ وَتَاجَهُ ، وَأَخَذُوا مِنْهُ صَوْلَجَانَهُ ، وَالْبِشُوهُ ثَوْباً صَفِيْقاً^(٥) يَشْتُرُ جَسَدَهُ .

عِنْدَ ذَلِكَ التَّقَتَ إِلَيْهِ عُمَرُ وَقَالَ :

هَيْه يَا « هُزْمُرَّانُ » ، كَيْفَ وَجَدْتَ وَبَالَ^(٦) الْعَدْرِ ، وَعَاقِبَةَ أَمْرِ اللَّهِ !؟ .

فَأَطْرَقَ « الْهُزْمُرَّانُ » فِي ذِلَّةٍ ثُمَّ قَالَ :

يَا عُمَرُ ، لَقَدْ كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ نَحْنُ وَإِيَّاكُمْ ؛ وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ مَعَنَا وَلَا مَعَكُمْ ، فَغَلَبْنَاكُمْ ...

فَلَمَّا أَسْلَمْتُمْ وَصَارَ اللَّهُ مَعَكُمْ غَلَبْتُمُونَا ...

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : لَقَدْ غَلَبْتُمُونَا لِهَذَا الَّذِي ذَكَرْتَ ، وَلَأَمْرٍ آخَرَ هُوَ اجْتِمَاعُكُمْ وَتَفَرُّقُنَا ...

ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ بِشِدَّةٍ وَقَالَ :

(١) غَرَارَةٌ : خَدَاعَةٌ .

(٢) أَفَاءَ : أَعْطَى وَمَنْحَ .

(٣) اسْتَأْسَرَ : كَثِيفَ النَّسْجِ .

(٤) الْأَشْرُ وَالْبَطْرُ : بِمَعْنَى وَاحِدٍ .

(٥) صَفِيْقاً : كَثِيفَ النَّسْجِ .

(٦) الْوَبَالَ : الْعَاقِبَةُ .

(١) غَرَارَةٌ : خَدَاعَةٌ .

(٢) أَفَاءَ : أَعْطَى وَمَنْحَ .

(٣) اسْتَأْسَرَ لَنَا : اسْتَسْلَمَ لَنَا .

مَا عُدُّكَ فِي انْتِقَاضِكَ^(١) الْمَرَّةَ تَلَوَ الْمَرَّةَ يَا «هُزْمَزَانُ» !؟ .

فَقَالَ «الهُزْمَزَانُ» : أَخَافُ أَنْ تَقْتُلَنِي .

فَقَالَ عُمَرُ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّى تُخْبِرَنِي .

فَلَمَّا سَمِعَ «الهُزْمَزَانُ» ذَلِكَ مِنْ عُمَرَ هَذَا رَوْعُهُ^(٢) بَعْضَ الشَّيْءِ .

وَقَالَ : إِنِّي عَطْشَانٌ ؛ فَأَمَرَ عُمَرُ أَنْ يَشْقُوهُ ...

فَأَتَيْ لَه بِمَاءٍ فِي قَدَحٍ غَلِيظٍ ، فَتَأَمَّلَهُ وَقَالَ :

لَوْ مِثَّ عَطْشًا لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَشْرَبَ فِي مِثْلِ هَذَا الْإِنَاءِ ...

فَأَمَرَ عُمَرُ فَأَتَيْ لَه بِمَاءٍ فِي إِنَاءٍ يَرِضَاهُ ...

فَلَمَّا أَخَذَهُ فِي يَدِهِ جَعَلَتْ يَدُهُ تَرْتَجِفُ .

فَقَالَ : لَهُ عُمَرُ : مَا بِكَ ؟ .

فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أُقْتَلَ وَأَنَا أَشْرَبُ هَذِهِ الْجُرْعَةَ مِنَ الْمَاءِ .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : « لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّى تَشْرَبَهَا » .

فَمَا كَانَ مِنْ «الهُزْمَزَانِ» إِلَّا أَنْ كَفَّ^(٣) الْإِنَاءَ ، وَسَفَحَ^(٤) الْمَاءَ .

فَقَالَ عُمَرُ : أَحْضِرُوا لَهُ مَاءً غَيْرَهُ ، وَلَا تَجْمَعُوا عَلَيْهِ الْقَتْلَ وَالْعَطْشَ .

فَقَالَ «الهُزْمَزَانُ» : لَا حَاجَةَ لِي بِالْمَاءِ ...

وَلِئِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَأْمِنَ^(٥) بِهِ عَلَى نَفْسِي مِنَ الْقَتْلِ .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : إِنِّي قَاتِلُكَ .

(١) انتقاضك : خيانتك لعهدك .

(٢) رَوْعُهُ : خوفه .

(٣) كَفَّ : أَوَّع .

(٤) سَفَحَ الْمَاءَ : أَرَاقَهُ .

(٥) أَسْتَأْمِنُ بِهِ : أُنَالِ الْأَمَانَ بِوَسْاطَتِهِ .

فَقَالَ «الْهُزْمَزَانُ» : لَقَدْ أَمَنْتَنِي .

فَقَالَ عُمَرُ : كَذَبْتَ .

فَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : صَدَقَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - فَقَدْ أَمَنْتَهُ .

فَقَالَ عُمَرُ : وَيَحَكَ (١) يَا أَنَسُ ؛ أَأَوَّمُّنُ قَاتِلَ أَخِيكَ «الْبِرَاءِ بْنِ مَالِكٍ» ،
وَ«مَجْزَأَةَ بْنِ ثَوْرٍ» (٢) ؟ ! ...

هَيْهَاتَ ...

فَقَالَ أَنَسُ : لَقَدْ قُلْتَ لَهُ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّى تُخْبِرَنِي ، وَقُلْتَ لَهُ :
لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّى تَشْرَبَ الْمَاءَ .

وَأَيَّدَ الْأَحْنَفُ قَوْلَ أَنَسٍ ، وَأَقَرَّ الْحَاضِرُونَ بِأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَمَّنَ
«الْهُزْمَزَانُ» .

فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَى «الْهُزْمَزَانِ» مُغْضَبًا وَقَالَ :

لَقَدْ خَدَعْتَنِي (٣) ، وَإِنِّي - وَاللَّهِ - لَا أَنْخَدِعُ إِلَّا لِمُسْلِمٍ .

فَأَسْلَمَ «الْهُزْمَزَانُ» ، وَفَرَضَ لَهُ عُمَرُ الْفَيْنَ .

* * *

لَقَدْ كَانَ يُقَالُ بِأَلِ عُمَرَ كَثْرَةُ نَفْضِ «الْفَرَسِ» لِغُهُودِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ،
وَانْقِلَابُهُمْ عَلَيْهِمْ .

فَجَمَعَ رِجَالَ الْوَفْدِ الَّذِي قَدِمَ مَعَ «الْهُزْمَزَانِ» وَقَالَ لَهُمْ :

(١) ويح : كلمة تستعمل للتعجب .
(٢) البراء بن مالك ، ومَجْزَأَةُ بْنُ ثَوْرٍ : من كبار مجاهدي الصحابة ، انظرهما في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .
(٣) خدعتني : أظهرت لي خلاف ما تخفيه .

أَيُّؤِذِي الْمُسْلِمُونَ أَهْلَ الذِّمَّةِ ، وَيُسَيِّئُونَ مُعَامَلَتَهُمْ ؛ فَيَسْتَفْضُوا عَلَيْهِمْ ؟ .
فَقَالَ رِجَالُ الْوَفْدِ : وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَسَاءَ لَهُمْ
مُعَامَلَةً .

أَوْ حَفَرَ^(١) لَهُمْ ذِمَّةً ...

أَوْ عَشَّهُمْ فِي عَقْدٍ ...

فَقَالَ عُمَرُ : فَمَا لَهُمْ يَنْقَلِبُونَ عَلَيْكُمْ كُلَّمَا سَنَحَتْ لَهُمُ الْفُرْصَةُ عَلَى الرَّغْمِ
مِمَّا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِنْ عُقُودٍ ؟ .

فَأَجَابَ الْوَفْدُ بِكَلَامٍ لَمْ يُقْنِعْ عُمَرَ ، وَلَمْ يَسْتَرْخِ لَهُ .

عِنْدَ ذَلِكَ قَامَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَقَالَ :

أَنَا أُخْبِرُكَ بِمَا سَأَلْتَ عَنْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : هَاتِ مَا عِنْدَكَ .

فَقَالَ : إِنَّكَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - قَدْ نَهَيْتَنَا عَنِ الْإِنْسِيَاكِ فِي بِلَادِ
« الْفُرْسِ » .

وَأَمَرْتَنَا بِالْإِقْتِصَارِ عَلَى مَا فِي أَيْدِينَا مِنْ أَرْضِيهِمْ وَمُدْنِهِمْ .

وَإِنَّ « الْفُرْسَ » مَا دَامَ لَهُمْ مَلِكٌ حَيٌّ ، وَمُلْكٌ قَائِمٌ ... فَسَيَقَاتِلُونَنَا الْكَرَّةَ
تِلْوَ الْكَرَّةِ ؛ لِاسْتِرْجَاعِ مَا فِي أَيْدِينَا مِنْ قَوْمِهِمْ وَدِيَارِهِمْ .

وَسَيَنْضَمُّ إِلَيْهِمْ مَنْ عَاهَدَنَا كُلَّمَا دَعَاهُ الدَّاعِي ، وَلَا حَتَّ لَهُ فُرْصَةُ النَّصْرِ .

وَإِنَّهُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - لَا يَجْتَمِعُ مَلِكَانِ فِي أَرْضٍ وَاحِدَةٍ .

(١) حفر ذمتهم : نقض عهدهم .

فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ .

فَلَوْ أَدْنَيْتَ لَنَا بِالْإِنْسِيَا حِ (١) فِي بِلَادِهِمْ حَتَّى نَقْضِيَ عَلَى مَلِكِهِمْ ، وَنُزِيلَ مُلْكِهِمْ ؛ لَأَنْقَطَعَ رِجَاؤُهُمْ ، وَسَكَنَ جَأْشُهُمْ (٢) ، وَاسْتَتَبَّ لَنَا الْأَمْرُ .
فَأَطْرَقَ عُمْرُ لَحْظَةٍ ثُمَّ قَالَ :

لَقَدْ صَدَقَنِي الْأُخْنَفُ ، وَكَشَفَ لِي مَا غَابَ عَنِّي مِنْ شَأْنِ الْقَوْمِ .

* * *

وَبَعْدُ ، فَقَدْ كَانَ لِمَوْقِفِ الْأُخْنَفِ هَذَا مَا بَعْدَهُ ...

وَكَانَ مِنْ أَثَرِ هَذَا الرَّأْيِ أَنْ غَيَّرَ مَجْرَى التَّارِيخِ (*) ...

(١) الانْسِيَا حِ : الانطلاق .

(٢) سَكَنَ جَأْشُهُمْ : هدأت حركتهم .

(*) للاستزادة من أخبار الأُخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ انظر :

- ١ - طبقات ابن سعد : ٩٣ / ٧ .
- ٢ - طبقات خليفة بن خياط : ٩٣ / ٧ .
- ٣ - المعارف لابن قتيبة : ٤٢٣ .
- ٤ - أخبار أصبهان : ٢٢٤ / ١ .
- ٥ - تهذيب ابن عساكر : ١٠ / ٧ .
- ٦ - البداية والنهاية : ٣٢٦ / ٨ .
- ٧ - تاريخ الإسلام للذهبي : ١٢٩ / ٣ .
- ٨ - أُنشدُ الغابة : ٥٥ / ١ .
- ٩ - شذرات الذهب : ٧٨ / ١ .
- ١٠ - النجوم الزاهرة : ١٨٤ / ١ .
- ١١ - العبر : ٨٠ / ١ .
- ١٢ - الإصابة : ١٠٠ / ١ أو الترجمة (٤٢٩) .

أَبُو حَنِيفَةَ النَّعْمَانُ لَمَحَاتُ رَائِعَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ

« لَمْ أَرِ أَغْفَلَ وَلَا أَفْضَلَ وَلَا أَوْزَعَ مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ »

[يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ]

كَانَ حَسَنَ الْوَجْهِ ، وَسِيمَ^(١) الطَّلَعَةِ ، عَذْبَ الْمَنْطِقِ ، حُلُوَ الْحَدِيثِ .
لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ^(٢) ، وَلَا بِالْقَصِيرِ الَّذِي تَنْبُو عَنْهُ الْعُيُونُ^(٣) .
وَهُوَ إِلَى ذَلِكَ لَبَّاسٌ أَيْقُ الثِّيَابِ ، بِهِي الطَّلَعَةُ ، كَثِيرُ التَّعَطُّرِ ؛ إِذَا طَلَعَ عَلَى
النَّاسِ عَرَفُوهُ مِنْ طَبِيبِهِ قَبْلَ أَنْ يَرَوْهُ .

ذَلِكُمْ هُوَ « النَّعْمَانُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ الْمَرْزُبَانِ » الْمُكَنَّى بِأَبِي حَنِيفَةَ .
أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ أَكْمَامَ^(٤) الْفَقْهِ ، وَاسْتَخْرَجَ أَرْوَغَ مَا فِيهَا مِنْ طَيِّبٍ .

* * *

أَذْرَكَ أَبُو حَنِيفَةَ طَرَفًا مِنْ آخِرِ عَصْرِ بَنِي « أُمَيَّة » ، وَآخَرَ مِنْ أَوَّلِ عَصْرِ بَنِي
« الْعَبَّاسِ » .

وَعَاشَ فِي زَمَنِ أَغْدَقَ فِيهِ الْخُلَفَاءُ وَالْوُلَاةُ عَلَى أَصْحَابِ الْمَوَاهِبِ إِغْدَاقًا
حَتَّى صَارَ رِزْقُهُمْ يَأْتِيهِمْ رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .
يَبْدَأُ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ أَكْرَمَ عِلْمَهُ وَنَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَحَزَمَ أَمْرَهُ عَلَى أَنْ يَأْكُلَ
مِنْ كَسْبِ يَمِينِهِ ...

(١) وسيم الطلعة : بهي المنظر .

(٢) الطويل البائن : الشديد الطول .

(٣) تَنْبُو عَنْهُ الْعُيُونُ : تُعْرِضُ عَنْهُ الْأَنْظَارُ ، وَلَا تَرْتَاحُ لِرُؤْيَتِهِ .

(٤) فَتَقَ أَكْمَامَ الْفَقْهِ : أَخْصَبَ الْفَقْهَ وَكَشَفَ عَنْ رَوَائِعِهِ .

وَأَنْ تَكُونَ يَدُهُ هِيَ الْعُلْيَا دَائِمًا ...

* * *

دَعَاهُ « الْمَنْصُورُ » ذَاتَ مَرَّةٍ إِلَى زِيَارَتِهِ ، فَلَمَّا صَارَ عِنْدَهُ بَالِغٌ فِي إِعْظَامِهِ
وَإِكْرَامِهِ وَالتَّرَحُّبِ بِهِ ، وَأَذْنَى^(١) مَجْلِسُهُ مِنْهُ ، وَجَعَلَ يُسَائِلُهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ
شُؤْنِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا .

فَلَمَّا أَرَادَ الْإِنْصِرَافَ ؛ دَفَعَ إِلَيْهِ بِكَيْسٍ فِيهِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ - عَلَى
مَا كَانَ مَعْرُوفًا مِنْ إِمْسَاكِ^(٢) الْمَنْصُورِ - فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنِّي غَرِيبٌ فِي « بَغْدَادَ » ...

وَلَيْسَ لِهَذَا الْمَالِ مَوْضِعٌ عِنْدِي ، وَإِنِّي لِأَخْشَى عَلَيْهِ ...

فَأَخْفَظُهُ لِي فِي بَيْتِ الْمَالِ حَتَّى إِذَا احْتَجَجْتُهُ طَلَبْتُهُ مِنْكَ .

فَأَجَابَهُ الْمَنْصُورُ إِلَى رَغْبَتِهِ .

غَيْرَ أَنَّ الْحَيَاةَ لَمْ تَطُلْ بَعْدَئِذٍ بِأَبِي حَنِيفَةَ .

فَلَمَّا وُفِّاهُ الْأَجَلَ ؛ وَجَدَتْ فِي بَيْتِهِ وَدَائِعُ النَّاسِ تَرْبِدٌ عَلَى أَضْعَافِ هَذَا
الْمَبْلَغِ ، فَلَمَّا سَمِعَ « الْمَنْصُورُ » بِذَلِكَ قَالَ :

يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا حَنِيفَةَ ، فَقَدْ خَدَعَنَا ، وَأَبَى أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مِنَّا ، وَتَلَطَّفَ فِي
رَدِّنَا .

وَلَا عَزْوُ^(٣) فَقَدْ كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ يُوقِنُ أَنَّهُ مَا أَكَلَ امْرُؤٌ لُقْمَةً أَرْكَى وَلَا أَعَزَّ
مِنْ لُقْمَةٍ يَنَالُهَا مِنْ كَسْبِ يَدِهِ .

(١) أدنى : قُوب .

(٢) الإمساك : ضِدُّ الْجُودِ .

(٣) لا غرو : لا عجب .

لِذَلِكَ نَجِدُهُ يُخَصِّصُ شَطْرًا مِنْ وَقْتِهِ لِلتَّجَارَةِ .
فَقَدْ جَعَلَ يَتَجَرُّ بِالْخَزْرِ^(١) وَأَثْوَابِهِ ، وَكَانَتْ تِجَارَتُهُ ذَاهِبَةً آيَةً بَيْنَ مُدُنِ
« الْعِرَاقِ » .

وَكَانَ لَهُ مَتَجَرٌّ مَعْرُوفٌ يَقْصِدُهُ النَّاسُ ؛ فَيَجِدُونَ فِيهِ الصَّدَقَ فِي
الْمُعَامَلَةِ ، وَالْأَمَانَةَ فِي الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ ...
وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَجِدُونَ فِيهِ الذُّوقَ الرَّفِيعَ أَيْضًا .
وَلَقَدْ كَانَتْ تِجَارَتُهُ تُدِيرُ عَلَيْهِ خَيْرًا وَفِيرًا ، وَتَحْبُوهُ^(٢) - مِنْ فَضْلِ اللَّهِ -
مَالًا كَثِيرًا .

فَكَانَ يَأْخُذُ الْمَالَ مِنْ جِلِّهِ ، وَيَضَعُهُ فِي مَحَلِّهِ .
فَلَقَدْ عَرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ كُلَّمَا حَالَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ ؛ أَحْصَى أَرْبَاحَهُ مِنْ تِجَارَتِهِ ،
وَاسْتَبَقَى مِنْهَا مَا يَكْفِيهِ لِنَفَقَتِهِ ، ثُمَّ يَشْتَرِي بِالْبَاقِي حَوَائِجَ الْقُرَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ ،
وَالْفُقَهَاءِ وَطُلَّابِ الْعِلْمِ ، وَأَقْوَاتَهُمْ وَكِسْوَتَهُمْ ...
وَيُخَصِّصُ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَبْلَغًا مِنَ التَّقْدِ الْعَيْنِ ، وَيَدْفَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَيْهِمْ
وَيَقُولُ :

هَذِهِ أَرْبَاحُ بَضَائِعِكُمْ أَجْرَاهَا^(٣) اللَّهُ لَكُمْ عَلَى يَدَيَّ ...
وَاللَّهِ مَا أَعْطَيْتُكُمْ مِنْ مَالِي شَيْئًا .
وَلِنَّمَا هُوَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيَّ فِيكُمْ ...
فَمَا فِي رِزْقِ اللَّهِ حَوْلٌ لِأَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ .

* * *

(١) الْخَزْرُ : مَا تُسَجَّ مِنْ صُوفٍ وَحَرِيرٍ . (٢) تَحْبُوهُ : تَعْطِيهِ وَتَهْبِيهِ . (٣) أَجْرَاهَا : حَقَّقَهَا وَأَفَاضَهَا .

وَلَقَدْ شَرَقَتْ أَحْبَابُ جُودِ أَبِي حَنِيفَةَ وَسَمَاحَتِهِ وَغَرَبَتْ ، وَخَاصَّةً مَعَ
مُجْلَسَائِهِ وَأَصْحَابِهِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ مُجْلَسَائِهِ جَاءَ إِلَى مَنْتَجِرِهِ يَوْمًا وَقَالَ :

إِنِّي بِحَاجَةٍ إِلَى ثَوْبٍ خَرٍّ يَا أَبَا حَنِيفَةَ .

فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ : مَا لَوْهُ ؟ .

فَقَالَ : كَذَا وَكَذَا .

فَقَالَ : اصْبِرْ حَتَّى يَقَعَ لِي فَأُخِذَهُ لَكَ .

فَمَا إِنَّ دَارَتِ الْجُمُعَةُ^(١) حَتَّى وَقَعَ لَهُ الثَّوْبُ الْمَطْلُوبُ .

فَمَرَّ بِهِ صَاحِبُهُ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ :

قَدْ وَقَعَتْ لِي حَاجَتُكَ ... وَأَخْرَجَ إِلَيْهِ الثَّوْبَ ، فَأَعْجَبَهُ وَقَالَ :

كَمْ أَذْفَعُ لِعُلاَمِكَ ثَمَنُهُ ؟ .

فَقَالَ : دِرْهَمًا^(٢) .

فَقَالَ الرَّجُلُ فِي اسْتِعْرَابٍ : دِرْهَمًا وَاحِدًا؟! .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : نَعَمْ .

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : مَا كُنْتُ أَظُنُّكَ تَهْزَأُ^(٣) بِي يَا أَبَا حَنِيفَةَ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : مَا هَزَيْتُ بِكَ ...

وَلَئِنَّمَا اشْتَرَيْتُ هَذَا الثَّوْبَ وَآخَرَ مَعَهُ بَعِشْرِينَ دِينَارًا ذَهَبًا ، وَدِرْهَمٍ مِنْ

الْفِضَّةِ ...

(١) دارت الجمعة : انقضى الأسبوع .

(٢) درهماً : الدرهم من الفضة ، والدينار من الذهب .

(٣) تهزأ بي : تشخر مني .

وَقَدْ بَعْتُ أَحَدَ التَّوَيَيْنِ بَعْشَرِينَ دِينَاراً ذَهَباً ، وَبَقِيَ عَلَيَّ هَذَا بِدَرَاهِمٍ
وَاحِدٍ .

وَمَا كُنْتُ لِأَرْبَحَ عَلَى جَلِيسِي .

* * *

وَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ تَطْلُبُ ثَوْبَ خَزٍّ ...

فَأَخْرَجَ لَهَا الثَّوْبَ الْمَطْلُوبَ ، فَقَالَتْ لَهُ :

إِنِّي امْرَأَةٌ عَجُوزٌ ...

وَلَا عِلْمَ لِي بِالْأَثْمَانِ ...

وَأَنَّهَا الْأَمَانَةُ ...

فَبَغْنِي الثَّوْبَ بِمَا قَامَ عَلَيْكَ ^(١) ، وَأَضِفْ إِلَيْهِ قَلِيلاً مِنَ الرِّيحِ ؛ فَإِنِّي
ضَعِيفَةٌ .

فَقَالَ لَهَا : إِنِّي اشْتَرَيْتُ ثَوْبَيْنِ اثْنَيْنِ فِي صَفْقَةٍ ^(٢) وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ إِنِّي بَعْتُ
أَحَدَهُمَا بِرَأْسِ الْمَالِ إِلَّا أَرْبَعَةَ دَرَاهِمٍ ؛ فَخُذِيهِ بِهَا ، وَلَا أُرِيدُ مِنْكَ رِبْحاً .

* * *

وَقَدْ رَأَى ذَاتَ يَوْمٍ ثِيَاباً رَثَّةً عَلَى أَحَدِ جُلَسَائِهِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّاسُ ، وَلَمْ
يَبْقَ فِي الْمَجْلِسِ إِلَّا هُوَ وَالرَّجُلُ قَالَ لَهُ :

ارْفَعْ هَذَا الْمُصَلَّى وَخُذْ مَا تَحْتَهُ .

فَرَفَعَ الرَّجُلُ الْمُصَلَّى ؛ فَإِذَا تَحْتَهُ أَلْفُ دِرْهَمٍ .

فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ : خُذْهَا وَأَصْلِحْ بِهَا مِنْ شَأْنِكَ ^(٣) .

(١) بما قام عليك : بالثمن الذي اشتريته به .

(٢) صَفْقَةٌ وَاحِدَةٌ : عَقْدٌ وَاحِدٌ .

(٣) شَأْنُكَ : حَالُكَ وَمَظْهَرُكَ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنِّي مُوسِرٌ^(١) ، وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ ، وَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا .
فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ :

إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ فَأَيْنَ آثَارُ نِعْمَتِهِ !؟ ...
أَمَّا بَلَعَكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَقُولُ :
(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ) ...
فَيَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تُصْلِحَ مِنْ شَأْنِكَ حَتَّى لَا تَعُومَ^(٢) صَدِيقَكَ .

* * *

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ جُودِ « أَبِي حَنِيفَةَ » وَبِرِّهِ بِالنَّاسِ ؛ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى عِيَالِهِ
نَفَقَةً تَصَدَّقَ بِمِثْلِهَا عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُحْتَاجِينَ .
وَإِذَا اكْتَسَى ثَوْبًا جَدِيدًا كَسَى الْمَسَاكِينَ بِقَدْرِ ثَمَنِهِ .
وَكَانَ إِذَا وُضِعَ الطَّعَامُ بَيْنَ يَدَيْهِ غَرَفَ مِنْهُ ضِعْفَ مَا يَأْكُلُهُ عَادَةً ، وَدَفَعَ بِهِ
إِلَى الْفُقَرَاءِ .

* * *

وَمِمَّا يُزَوَّى عَنْهُ أَنَّهُ قَطَعَ عَهْدًا عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يَحْلِفَ بِاللَّهِ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ
إِلَّا تَصَدَّقَ بِدِرْهَمٍ فَضَّةً .
ثُمَّ تَدَرَّجَ فِي الْأَمْرِ ، فَجَعَلَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْدًا إِنْ حَلَفَ بِاللَّهِ لَيَتَصَدَّقَ
بِدِينَارٍ مِنْ ذَهَبٍ ...

فَكَانَ إِذَا حَلَفَ صَادِقًا تَصَدَّقَ بِدِينَارٍ .

* * *

(٢) تعوم : تحزن .

(١) موسر : غني .

وَلَقَدْ كَانَ « حَفْصُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ » شَرِيكاً لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي بَعْضِ تِجَارَتِهِ
فَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ يُجَهِّزُ لَهُ أُمْتِعَةَ الْخَزِّ وَيَبْعَثُ بِهَا مَعَهُ إِلَى بَعْضِ مُدُنِ « الْعِرَاقِ » .
فَجَهَّزَ لَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ مَتَاعاً كَثِيراً ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي ثَوْبٍ كَذَا وَكَذَا عُيُوباً ،
وَقَالَ لَهُ :

إِذَا هَمَمْتَ بِبَيْعِهَا فَبَيِّنْ لِلْمُشْتَرِي مَا فِيهَا مِنْ عَيْبٍ ...
فَبَاعَ « حَفْصُ » الْمَتَاعَ كُلَّهُ ، وَنَسِيَ أَنْ يُعْلِمَ الْمُشْتَرِينَ بِمَا فِي الْأَثْوَابِ
الْمَعْيِبَةِ مِنْ عُيُوبٍ .

وَلَقَدْ أَجْهَدَ ^(١) نَفْسَهُ فِي تَذْكِرِ الرِّجَالِ الَّذِينَ بَاعَهُمُ الثِّيَابَ الْمَعْيِبَةَ ؛ فَلَمْ
يُفْلِحْ ^(٢) ...

فَلَمَّا عَلِمَ أَبُو حَنِيفَةَ بِالْأَمْرِ ، وَلَمْ يَتِمَّكُنْ مِنْ مَعْرِفَةِ الَّذِينَ وَقَعَ عَلَيْهِمُ
الْعَيْبُ ^(٣) لَمْ يَسْتَقِرَّ قَرَارُهُ ، وَلَمْ تَطِبْ نَفْسُهُ حَتَّى تَصَدَّقَ بِأَثْمَانِ الْمَتَاعِ كُلِّهَا .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ طَيِّبَ الْمَعَاشَرَةِ ، حُلُوَ الْمُؤَانَسَةِ
يَسْعَدُ بِهِ جَلِيسُهُ ... وَلَا يَشْقَى ^(٤) بِهِ مَنْ غَابَ عَنْهُ ، وَلَوْ كَانَ عَدُوًّا لَهُ .
حَدَّثَ أَحَدُ أَصْحَابِهِ قَالَ :

سَمِعْتُ « عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ » ^(٥) يَقُولُ لِشُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ^(٦) :
يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، مَا أَبْعَدَ أَبَا حَنِيفَةَ عَنِ الْغِيْبَةِ !! ...

(١) أجهد نفسه : عثى نفسه وأتعبها .

(٢) لم يفلح : لم ينجح ولم يصل إلى شيء .

(٣) الغبن : الخديعة في البيع والشراء .

(٤) يشقى به : ضد يسعد به ، أي يتعبه ويتعسه .

(٥) عبد الله بن المبارك : أحد أعلام المسلمين ، وواحد من تابعي التابعين تاجر فذ ، ومجاهد معروف .

(٦) شُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : أحد أئمة المحدثين ، لم يكن في زمنه من هو أعلم منه بالحلال والحرام .

فَإِنِّي مَا سَمِعْتُهُ يَذْكُرُ عَدُوًّا لَهُ بِسُوءٍ قَطُّ .

فَقَالَ لَهُ سُفْيَانُ :

إِنَّ أَبَا حَنِيفَةَ أَعْقَلُ مِنْ أَنْ يُسَلِّطَ عَلَى حَسَنَاتِهِ مَا يَذْهَبُ بِهَا .

* * *

وَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ كَلِيفاً^(١) بِاِقْتِنَاصِ^(٢) وَدِّ النَّاسِ ، حَرِيصاً عَلَى اسْتِدَامَةِ

صِدَاقَتِهِمْ ...

فَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ رُبَّمَا مَرَّ بِهِ الرَّجُلُ مِنَ النَّاسِ ؛ فَقَعَدَ فِي مَجْلِسِهِ مِنْ غَيْرِ

قَصْدٍ وَلَا مُجَالَسَةٍ^(٣) ...

فَإِذَا قَامَ سَأَلَ عَنْهُ ، فَإِنْ كَانَتْ بِهِ فَاقَةٌ^(٤) وَصَلَهُ ...

وَإِنْ كَانَ بِهِ مَرَضٌ عَادَهُ ...

وَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ فَصَاها ...

حَتَّى يَجُرَّهُ إِلَى مُوَاصَلَتِهِ جَرًّا ...

* * *

وَلَقَدْ كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ صَوَامَ نَهَارٍ ...

قَوَامَ لَيْلٍ ...

خَدِيناً^(٥) لِلْقُرْآنِ ...

مُسْتَعْفِراً فِي الْأَسْحَارِ ...

وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ تَوَغُّلِهِ^(٦) فِي الْعِبَادَةِ ، وَانْدِفَاعِهِ فِيهَا ... أَنَّهُ أَقْبَلَ ذَاتَ

يَوْمٍ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ فَسَمِعَهُمْ يَقُولُونَ :

(١) كَلِيفاً : مولعاً . (٢) اِقْتِنَاصُ : الرغبة في القعود . (٣) الْمُجَالَسَةُ : الرغبة في القعود . (٤) الْفَاقَةُ : الحاجة والفقر . (٥) الْخَدِينُ : الصديق المولع بصديقه . (٦) تَوَغُّلُهُ : تعمقه واستكثاره .

إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي تَرَوْنَهُ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ .
 فَمَا إِنْ لَمْ تَسْتَكْلِمْتَهُمْ هَذِهِ مَسْمَعُهُ حَتَّى قَالَ :
 إِنِّي عِنْدَ النَّاسِ عَلَى خِلَافٍ مَا أَنَا عَلَيْهِ عِنْدَ اللَّهِ ...
 وَاللَّهُ لَا يَتَخَدَّثُ النَّاسُ عَنِّي مِنْذُ السَّاعَةِ بِمَا لَا أَفْعَلُ ...
 وَلَنْ أَتَوَسَّدَ (١) فِرَاشاً بَعْدَ الْيَوْمِ فِي لَيْلٍ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ .
 ثُمَّ دَأَبَ مِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ كُلِّهِ ، فَكَانَ إِذَا أَرْخَى الظَّلَامُ
 سُدُولَهُ (٢) عَلَى الْكَوْنِ ، وَأُسْلِمَتِ (٣) الْجُنُوبُ إِلَى الْمَضَاجِعِ ...
 قَامَ فَلَيْسَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ ، وَسَرَّحَ لِحْيَتَهُ ، وَتَطَيَّبَ ، وَتَزَيَّنَ ...
 ثُمَّ يَصِفُّ فِي مَحْرَابِهِ ، وَيَقْطَعُ لَيْلَهُ قَانِتاً (٤) ، أَوْ مُنْحَنِياً (٥) بِصُلْبِهِ عَلَى
 أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ ، أَوْ رَافِعاً يَدَيْهِ بِالضَّرَاعَةِ .
 فَلَرُبَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ ...
 وَلَرُبَّمَا قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ ...
 فَلَقَدْ رُويَ أَنَّهُ قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ وَهُوَ يُرَدِّدُ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ :
 ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ، وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴾ (٦) .
 ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ، وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴾ (٦) .
 وَهُوَ يَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ بُكَاءً يُقَطِّعُ نِيَابَ (٧) الْقُلُوبِ .

(١) أتوسد : أضع وسادة تحت رأسي .

(٢) سُدُولُهُ : أستار ظلمته .

(٣) أُسْلِمَتِ الْجُنُوبُ إِلَى الْمَضَاجِعِ : غرقت في نومها .

(٤) قَانِتاً : قائماً بطاعة الله .

(٥) مُنْحَنِياً بِصُلْبِهِ : مكباً .

(٦) سورة القمر : آية ٤٦ .

(٧) نيباط القلوب : عروق الأفدة .

وَيَنْشُجُ^(١) نَشِيجاً مَبْحُوحاً يُفْطَرُ^(٢) الْأَفَيْدَةَ .

* * *

وَلَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ صَلَّى الْفَجَرَ بِوُضُوءِ الْعِشَاءِ ؛ نَحْواً مِنْ أَرْبَعِينَ عَاماً ...
مَا تَرَكَ ذَلِكَ خِلَالَهَا مَرَّةً وَاحِدَةً .

وَأَنَّهُ خَتَمَ الْقُرْآنَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي تُؤْفِي فِيهِ سَبْعَةُ آلَافِ مَرَّةٍ .
وَكَانَ إِذَا قَرَأَ سُورَةَ الزَّلْزَلَةِ أَشْعَرَ جِلْدُهُ ...
وَوَجَلَ^(٣) فُؤَادُهُ ...

وَأَخَذَ لِحْيَتَهُ بِيَدِهِ وَطَفِقَ يَقُولُ :
يَا مَنْ يَجْزِي بِمِثْقَالِ^(٤) ذَرَّةٍ خَيْرٍ خَيْراً ...
وَيَا مَنْ يَجْزِي بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ شَرٍّ شَرّاً ...
أَجِرْ عَبْدَكَ التُّعْمَانَ مِنَ النَّارِ ...
وَبَاعِدْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُقَرِّبُهُ مِنْهَا ...
وَأَذْخِلْهُ فِي وَاسِعِ رَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

(١) ينشج : يغص بالبكاء .

(٢) يُفْطَرُ : يمزق .

(٣) وَجَلَ فُؤَادُهُ : استشعر الخوف .

(٤) مِثْقَالُ ذَرَّةٍ : وَزَنُ ذَرَّةٍ ، وَالذَّرَّةُ : جزء متناهٍ في الصغر .

أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ وَمَضَاهُ قُدْرَةٌ مِنْ عَمْرِئِهِ وَزَكَاةٍ

« كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ شَدِيدَ الذَّبِّ عَنْ حُرْمَاتِ اللَّهِ ...
طَوِيلَ الصَّمْتِ ، دَائِمَ الْفِكْرِ »

[الإمام أبو يوسف]

دَخَلَ « أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ » عَلَى الْإِمَامِ مَالِكٍ وَعِنْدَهُ ثَلَاثَةٌ (١) مِنْ أَصْحَابِهِ ؛
فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ التَفَتَ مَالِكٌ إِلَى جُلَسَائِهِ ، وَقَالَ :
أَتَدْرُونَ مَنْ هَذَا ؟ .
فَقَالُوا : لَا .

فَقَالَ : هَذَا « النُّعْمَانُ بْنُ ثَابِتٍ » .
هَذَا الَّذِي لَوْ قَالَ عَنْ هَذِهِ السَّارِيَةِ (٢) : « إِنَّهَا ذَهَبٌ » لَاحْتَجَّ لِمَا قَالَ ،
وَلَخَرَجَتْ كَذَلِكَ .

* * *

لَمْ يَكُنِ الْإِمَامُ مَالِكٌ مُبَالِغاً فِيمَا وَصَفَ بِهِ أَبَا حَنِيفَةَ مِنْ قُوَّةِ الْحُجَّةِ ،
وَسُرْعَةِ الْبَدِيهَةِ ، وَتَوَقُّدِ الذَّهْنِ ، وَحِدَّةِ الْخَاطِرِ .
فَقَدْ طَفَحَتْ كُتُبُ التَّارِيخِ وَالسِّيَرِ بِأَخْبَارِ مَوَاقِفِهِ مَعَ خُصُومِهِ فِي الرَّأْيِ ،
وَمُنَاوِيئِهِ فِي الْعَقِيدَةِ ...

وَكُلُّهَا شَوَاهِدٌ عَلَى صِحَّةِ مَا نَعْتَهُ بِهِ الْإِمَامُ مَالِكٌ مِنْ أَنَّهُ لَوْ زَعَمَ لَكَ أَنَّ

(١) الثَّلَاةُ : الْجَمَاعَةُ الْكَثِيرَةُ .

(٢) السَّارِيَةُ : الْأَسْطُوَانَةُ ، وَسَارِيَةُ الْمَسْجِدِ عَمُودٌ يَنْصَبُ فِيهِ .

التُّرَابَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ ذَهَبٌ لَمَّا وَسِعَكَ إِلَّا أَنْ تُدْعِنَ لِحُجَّتِهِ ، وَأَنْ تُسَلِّمَ
لِدَعْوَاهُ .

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ يُنَاضِلُ عَنِ الْحَقِّ ، وَيُجَادِلُ مِنْ أَجْلِهِ .

* * *

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ « الْكُوفَةِ » أَضَلَّهُ اللَّهُ .

وَكَانَ ذَا قَدْرِ فِي عُيُونِ بَعْضِ النَّاسِ ، وَصَاحِبَ كَلِمَةٍ مَسْمُوعَةٍ لَدَيْهِمْ .

وَكَانَ الرَّجُلُ يَزْعُمُ لِلنَّاسِ فِيمَا يَزْعُمُهُ لَهُمْ أَنَّ « عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ » ^(١) كَانَ
يَهُودِيًّا فِي أَصْلِهِ ...

وَأَنَّهُ ظَلَّ عَلَى يَهُودِيَّتِهِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَيْضًا ...

فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو حَنِيفَةَ مَقَالَتَهُ هَذِهِ مَضَى إِلَيْهِ وَقَالَ :

لَقَدْ جِئْتُكَ خَاطِبًا ابْنَتَكَ فُلَانَةَ لِأَحَدِ أَصْحَابِي .

فَقَالَ : أَهْلًا بِكَ وَمَرْحَبًا ...

إِنَّ مِثْلَكَ لَا تُرَدُّ لَهُ حَاجَةٌ يَا أَبَا حَنِيفَةَ ...

وَلَكِنْ مَنِ الْخَاطِبُ ؟

فَقَالَ : رَجُلٌ مَوْسُومٌ ^(٢) بَيْنَ قَوْمِهِ بِالشَّرَفِ وَالْغِنَى ...

سَخِييُ الْيَدِ ، مَبْسُوطُ ^(٣) الْكَفِّ ...

حَافِظٌ لِكِتَابِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ...

(١) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة
المشروعة .

(٢) موسوم : موصوف .

(٣) مبسوط الكف : كريم شديد الكرم .

يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ فِي رَكْعَةٍ ...
 كَثِيرُ الْبَكَاءِ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ تَعَالَى ...
 فَقَالَ الرَّجُلُ : بَخٍ بَخٍ ^(١) ... حَسْبُكَ يَا أَبَا حَنِيفَةَ ...
 إِنَّ بَعْضَ مَا ذَكَرْتَهُ مِنْ صِفَاتِ الْخَاطِبِ يَجْعَلُهُ ، كُفْتًا لِبْنَتِ أَمِيرِ
 الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : غَيْرَ أَنَّ فِيهِ خَصْلَةً لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَقِفَ عَلَيْهَا .
 قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ !
 قَالَ : إِنَّهُ يَهُودِيٌّ .
 فَانْتَفَضَ الرَّجُلُ وَقَالَ : يَهُودِيٌّ ؟ ! ...
 أَتَرِيدُ مِنِّي أَنْ أَزُوجَ ابْنَتِي مِنْ يَهُودِيٍّ يَا أَبَا حَنِيفَةَ ؟ ! ...
 وَاللَّهِ لَا أَزُوجُهَا مِنْهُ ، وَلَوْ جَمَعَ خِصَالِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ...
 فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ :
 تَأْتِي أَنْ تُزُوجَ ابْنَتَكَ مِنْ يَهُودِيٍّ ، وَتُنْكِرُ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ ...
 ثُمَّ تَزْعُمُ لِلنَّاسِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ زَوْجَ ابْنَتَيْهِمَا كِلْتَيْهِمَا مِنْ يَهُودِيٍّ !! .
 فَعَزَّتِ الرَّجُلَ رِعْدَةٌ ^(٢) وَقَالَ :
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلِ سُوءٍ قُلْتُهُ ...
 وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ فِرْيَةٍ افْتَرَيْتُهَا ^(٣) .

* * *

(١) بَخٍ بَخٍ : كلمة تستعمل للرضى والإعجاب .

(٢) عرته رعدة : ارتعد جَسَدُهُ .

(٣) فرية افتريتها : كلمة باطل قلتها .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً أَنَّ أَحَدَ الْخَوَارِجِ ^(١) وَهُوَ «الضَّحَّاكُ الشَّارِي» جَاءَ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَالَ :
تُبُّ يَا أَبَا حَنِيفَةَ .
فَقَالَ : مِمَّ أَتُوبُ ؟!

فَقَالَ الْخَارِجِيُّ : مِنْ قَوْلِكَ بِجَوَازِ التَّحْكِيمِ الَّذِي جَرَى بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ .

فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ : أَلَا تَقْبَلُ أَنْ تُنَاطِرَنِي فِي هَذَا الْأَمْرِ ؟ .

فَقَالَ الْخَارِجِيُّ : بَلَى .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : فَإِنْ اخْتَلَفْنَا فِي شَيْءٍ مِمَّا نَتَنَاطَرُ فِيهِ ؛ فَمَنْ يَحْكُمُ بَيْنَنَا ؟ .

فَقَالَ الْخَارِجِيُّ : حَكْمُ مَنْ تَشَاءُ .

فَالْتَفَتَ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ الْخَارِجِيِّ كَانَ مَعَهُ وَقَالَ :

احْكُمْ بَيْنَنَا فِيمَا نَخْتَلِفُ فِيهِ ...

ثُمَّ قَالَ لِلْخَارِجِيِّ : أَنَا رَضِيتُ بِصَاحِبِكَ فَهَلْ تَرْضَى بِهِ أَنْتَ ؟ .

فَسَرَّ الْخَارِجِيُّ وَقَالَ : نَعَمْ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : وَيَحَكَ أَتَجَوِّزُ التَّحْكِيمَ فِيمَا يَشْجُرُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ^(٢) ،
وَتُتَكْرَهُ عَلَى اثْنَيْنِ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟!

فَبُهِتَ الْخَارِجِيُّ ، وَلَمْ يُجِزْ جَوَاباً ^(٣) ...

* * *

(١) الخوارج : هم الذين خرجوا على عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما .

(٢) يشجر بيني وبينك : يقع بيننا من خلاف . (٣) لم يجز جواباً : سكت ، ولم يجب بشيء .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً أَنَّ « جَهْمَ بْنِ صَفْوَانَ » رَأْسَ الْفِرْقَةِ « الْجَهْمِيَّةِ » الصَّالِّةِ
الْمُبْتَدِعَةِ ، وَزَارِعَ الشَّرِّ فِي أَرْضِ الْإِسْلَامِ جَاءَ مَرَّةً أَبَا حَنِيفَةَ وَقَالَ :

لَقَدْ أَتَيْتُكَ لِأُكَلِّمَكَ فِي أَشْيَاءَ هَيَّأْتُهَا لَكَ ...

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : الْكَلَامُ مَعَكَ عَارٍ ...

وَالْحَوْضُ فِيمَا تَذْهَبُ إِلَيْهِ نَارٌ تَلْظِي^(١).

فَقَالَ جَهْمٌ : كَيْفَ حَكَمْتَ عَلَيَّ بِمَا حَكَمْتَ ، وَأَنْتَ لَمْ تَلْقَنِي مِنْ قَبْلُ ،
وَلَمْ تَسْمَعْ كَلَامِي ؟!

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَقَدْ بَلَعْتَنِي عَنْكَ أَقَاوِيلُ لَا تَصُدُّ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ
الْقِبْلَةِ^(٢).

فَقَالَ « جَهْمٌ » : أَتَحْكُمُ عَلَيَّ بِالْغَيْبِ ؟ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَقَدْ شُهِرَ ذَلِكَ عَنْكَ وَاسْتَفَاضَ^(٣) ...

وَعَرَفَتْهُ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ ؛ فَجَازَ لِي أَنْ أُثْبِتَهُ عَلَيْكَ بِمَا تَوَاتَرَ عَنْكَ .

فَقَالَ « جَهْمٌ » : أَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ إِلَّا عَنِ الْإِيمَانِ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : أَوْ لَمْ تَعْرِفِ الْإِيمَانَ إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ حَتَّى تَسْأَلَنِي

عَنْهُ ؟!

فَقَالَ « جَهْمٌ » : بَلَى ، وَلَكِنِّي شَكَكْتُ فِي نَوْعِ مِنْهُ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : الشُّكُّ فِي الْإِيمَانِ كُفْرٌ .

(١) تَلْظَى : تَلْتَهِبُ وَتَقْدِفُ بِالشَّرِّ .

(٢) أَهْلُ الْقِبْلَةِ : الْمُسْلِمُونَ ، وَقَدْ سَمَوْا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَسْتَقْبِلُونَ الْقِبْلَةَ فِي صَلَوَاتِهِمْ .

(٣) اسْتَفَاضَ : شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ وَذَاعَ .

فَقَالَ « جَهَنَّم » : لَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَصِمَنِي بِالْكُفْرِ إِلَّا إِذَا سَمِعْتَ مِنِّي مَا يُكْفِّرُ .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ .

فَقَالَ « جَهَنَّم » : أَخْبِرْنِي عَنْ رَجُلٍ عَرَفَ اللَّهَ بِقَلْبِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا نِدَّ^(١) ...

وَعَرَفَهُ بِصِفَاتِهِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ...

ثُمَّ مَاتَ وَلَمْ يُغْلِنِ الْإِيمَانَ بِلِسَانِهِ .

أَفَيَمُوتُ مُؤْمِنًا أَمْ كَافِرًا ؟

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : يَمُوتُ كَافِرًا ، وَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ؛ إِذَا لَمْ يُصَرِّحْ بِلِسَانِهِ عَمَّا عَرَفَهُ بِجَنَانِهِ^(٢) مَا لَمْ يَمْنَعَهُ مِنَ التَّضَرُّيحِ بِاللِّسَانِ مَانِعٌ .

فَقَالَ « جَهَنَّم » : كَيْفَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا وَقَدْ عَرَفَ اللَّهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ؟ !

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ وَتَجْعَلُهُ حُجَّةً كَلَّمْتُكَ بِهِ ...

وَإِنْ كُنْتَ لَا تُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ وَلَا تَرَاهُ حُجَّةً كَلَّمْتُكَ بِمَا نُكَلِّمُ بِهِ مَنْ خَالَفَ الْإِسْلَامَ .

قَالَ « جَهَنَّم » : بَلْ أَوْمِنُ بِالْقُرْآنِ وَأَجْعَلُهُ حُجَّةً .

فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ الْإِيمَانَ بِجَارِحَتَيْنِ^(٣) اثْنَتَيْنِ : بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ لَا بِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا ...

وَكِتَابُ اللَّهِ وَحَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَافِحَانِ بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ :

(١) النَّدُّ : المنيب والشبيه .

(٢) بجارحتين : بعضوين .

(٣) بجنانه : بقلبه .

قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ *

فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ،
وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ .

فَهُمْ عَرَفُوا الْحَقَّ بِجَنَاتِهِمْ ، وَنَطَقُوا بِهِ بِلِسَانِهِمْ ؛ فَأَدْخَلَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ
النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ ﴿٢﴾ .

فَأَمَرَهُمْ بِالْقَوْلِ ، وَلَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلَحُوا) (٣) ...

فَلَمْ يَجْعَلِ الْفَلَاحَ بِالْمَعْرِفَةِ وَحْدَهَا ، وَإِنَّمَا ضَمَّ إِلَيْهَا الْقَوْلَ .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ...

فَلَمْ يَقُلْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ .

وَلَوْ كَانَ الْقَوْلُ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَيُكْتَفَى بِالْمَعْرِفَةِ مِنْ دُونِهِ لَكَانَ إِبْلِيسُ
مُؤْمِنًا ...

(١) سورة المائدة : من الآية ٨٣ - ٨٥ .

(٣) تفلحوا : تظفروا برضى الله عز وجل ، وتفوزوا بالجنة .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٣٦ .

لِأَنَّهُ عَارِفٌ بِرَبِّهِ ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ ، وَهُوَ الَّذِي يُمِيتُهُ ، وَهُوَ
الَّذِي يَبْعَثُهُ ، وَهُوَ الَّذِي أَغْوَاهُ^(١).

قَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِهِ :

﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾^(٢).

وَقَالَ : ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي ^(٣) إِلَى يَوْمٍ يُعْثَرُونَ ﴾^(٤).

وَقَالَ : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ^(٥) ﴾^(٦).

وَلَوْ كَانَ مَا تَزَعُمُهُ صَحِيحًا لَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْكُفَّارِ مُؤْمِنِينَ بِمَعْرِفَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ
مَعَ انْكَارِهِمْ لَهُ يَلْسَانِيهِمْ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجْهَدُوا ^(٧) بِهَا وَاسْتَيْقَنْتَهَا ^(٨) أَنْفُسُهُمْ ﴾^(٩).

فَلَمْ يَجْعَلْهُمْ مُؤْمِنِينَ بِاسْتَيْقَانِهِمْ وَإِنَّمَا عَدَّهُمْ كَافِرِينَ لِجُحُودِ أَلْسِنَتِهِمْ .

وَمَضَى أَبُو حَنِيفَةَ يَتَدَفَّقُ عَلَى هَذَا النَّسْقِ تَارَةً بِالْقُرْآنِ وَأُخْرَى بِالْحَدِيثِ
حَتَّى بَدَأَ الْإِبْهَارَ وَالْخِذْلَانَ^(١٠) عَلَى وَجْهِ « جَهْمٍ » ...

وَأَنْسَلَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ أَبِي حَنِيفَةَ وَهُوَ يَقُولُ :

لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي شَيْئًا كُنْتُ نَاسِيَهُ ، وَسَأَرْجِعُ إِلَيْكَ .

ثُمَّ مَضَى إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ .

* * *

-
- | | |
|----------------------------------------|--------------------------------------|
| (١) أغواه : أضله . | (٦) سورة الأعراف : آية ١٦ . |
| (٢) الأعراف : آية ١٢ . | (٧) جحدوا : كذبوا وكفروا . |
| (٣) أنظرنني : أمهلني وأخرني . | (٨) استيقنتها : علمتها وتحققت منها . |
| (٤) سورة الحجر : آية ٣٦ . | (٩) سورة النمل : آية ١٤ . |
| (٥) المستقيم : السوي الذي لا عوج فيه . | (١٠) الخذلان : الضعف وفقدان النصير . |

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ لَقِيَ طَائِفَةً مِنَ الْمُلْحِدِينَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ
وُجُودَ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَزَّ، فَقَالَ لَهُمْ :

مَا تَقُولُونَ فِي سَفِينَةِ مَشْحُونَةٍ^(١) بِالْأَثْقَالِ ، مَمْلُوءَةٍ بِالْأُمْتِعَةِ
وَالْأَحْمَالِ ...

قَدْ أَحَاطَتْ بِهَا فِي لُجَّةِ^(٢) الْبَحْرِ أَمْوَاجٌ مُتَلَاطِمَةٌ ، وَعَصَفَتْ بِهَا رِيَاخُ
عَاتِيَةٍ ؛ غَيْرَ أَنَّهَا ظَلَّتْ تَجْرِي هَادِيَةً فِي طَرِيقِهَا الْمَرْسُومَةِ ، وَتَمْضِي مُطْمَئِنَّةً إِلَى
غَايَتِهَا الْمَعْلُومَةِ ؛ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَابٍ وَلَا خَلَلٍ وَلَا انْجِرَافٍ ، وَلَيْسَ عَلَى ظَهْرِهَا
مَلَّاخٌ يُحْكِمُ^(٣) سَيْرَهَا ، أَوْ مُوجَّةٌ يُنْظِمُ خَطْوَهَا ...

أَفَيَصِحُّ ذَلِكَ فِي الْفِكْرِ ؟ ! .

فَقَالُوا : لَا ، إِنَّ هَذَا شَيْءٌ لَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ وَلَا يُجِزُهُ الْوَهْمُ ، أَيُّهَا الشَّيْخُ ...
فَقَالَ : يَا سُبْحَانَ اللَّهِ !! .

تُنْكِرُونَ أَنَّ تَجْرِي سَفِينَةٍ فِي الْبَحْرِ جَزْياً مُحْكَمًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهَا
رُبَّانٌ يَنْعَهْدُهَا ...

وَتُفَرِّقُونَ قِيَامَ هَذَا الْكَوْنِ بِبَحَارِهِ الزَّاحِرَةِ ، وَأَفْلَاكِهِ السَّائِرَةِ ، وَطَوِيرِهِ
السَّابِحِ ، وَحَيَوَانِهِ السَّارِحِ مِنْ غَيْرِ صَانِعٍ يُحْكِمُ صَنْعَتَهُ ، وَمُدَبِّرٍ يُحْسِنُ
تَدْبِيرَهُ ؟ ! .

تَبَّأ^(٤) لَكُمْ وَلِمَا تَأْفِكُونَ^(٥) ...

* * *

(١) مشحونة : مملوءة .

(٢) اللُّجَّةُ : أعظم مكان في البحر وأوسع .

(٤) تَبَّأ : هلكاً وخُشْراناً .

(٥) تَأْفِكُونَ : تكذبون .

(٣) يُحْكِمُ : ينظم ويحدّد .

وَبَعْدَ ، فَقَدْ قَطَعَ أَبُو حَنِيفَةَ رِحْلَةَ الْحَيَاةِ كُلَّهَا ؛ يُنَافِحُ عَنْ دِينِ اللَّهِ بِمَا
وَهَبَهُ الْخَالِقُ مِنْ حُجَّةٍ بِالِغَةِ ...

وَيُجَادِلُ عَنْ شَرْعِهِ بِمَا حَبَاهُ اللَّهُ مِنْ مُنْطِقٍ فَذِّ .

فَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ ؛ وَجَدُوا فِي وَصِيَّتِهِ أَنَّهُ عَزَمَ عَلَى أَهْلِهِ أَنْ يَدْفِنُوهُ فِي أَرْضِ
طَيِّبَةٍ ، وَأَنْ يُجَبِّئُوهُ كُلَّ مَكَانٍ فِيهِ شُبْهَةٌ غَضَبٍ^(١) .

فَلَمَّا بَلَغَتْ وَصِيَّتُهُ « الْمَنْصُورَ » قَالَ :

مَنْ يَعْذِرُنَا^(٢) مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ حَيًّا وَمَيِّتًا ؟ .

* * *

وَلَقَدْ أَوْصَى أَبُو حَنِيفَةَ بِأَنْ يَتَوَلَّى غَسْلَهُ « الْحَسَنُ بْنُ عَمَّارَةَ » ، فَلَمَّا غَسَلَهُ
قَالَ :

رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا حَنِيفَةَ ، وَغَفَرَ لَكَ جِرَاءَ مَا قَدَّمْتَ .

فَإِنَّكَ لَمْ تُفْطِرْ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً ...

وَلَمْ تَتَوَسَّدْ بِاللَّيْلِ يَمِينَكَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ...

وَلَقَدْ أَتَعَبْتَ الْفُقَهَاءَ مِنْ بَعْدِكَ ... (*) .

(١) شبهة غضب : شك في أنه أخذ غضباً .

(٢) من يعذرنا : من يرفع عنا اللوم والعتاب .

(*) للاستزادة من أخبار أبي حنيفة الثُّمَّانِ انظر .

٦ - العبر : ٣١٤ / ١ .

١ - البداية والنهاية : ١٠٧ / ١٠ .

٧ - تاريخ بغداد : ٣٢٣ / ١٣ - ٣٢٤ .

٢ - وفيات الأعيان : ٤١٥ / ٥ - ٤٢٣ .

٨ - تاريخ البخاري : ٨١ / ٨ .

٣ - النجوم الزاهرة : ١٢ / ٢ .

٩ - الجرح والتعديل : ٤٤٩ / ٨ - ٤٥٠ .

٤ - شذرات الذهب : ٢٢٧ / ١ - ٢٢٩ .

١٠ - ميزان الاعتدال : ٢٦٥ / ٤ .

٥ - مرآة الجنان : ٣٠٩ / ١ .

فهرس أَلْفَبَائِي لِلتَّابِعِينَ

(أ)

- أَبُو حَارِثٍ الْأَعْرَجُ = سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ ٣٧٨ ، ٣٦٨
 أَبُو حَنِيفَةَ الثُّعْمَانُ ٤٩٤ ، ٤٨٤
 أَبُو الْعَالِيَةِ = رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ ١٩٧
 أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ ٣٥٤
 الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ٤٦٨ ، ٤٥٧
 أَصْحَمَةُ بْنُ أَبَجَرَ = النَّجَاشِيُّ ٦٥
 إِسَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْمَزَنِيُّ ١١١

(ش)

- شُرَيْحُ بْنُ الْحَارِثِ الْكِنْدِيُّ = شُرَيْحُ الْقَاضِي ١١١
 شُرَيْحُ الْقَاضِي ١١١
 الشُّعْبِيُّ = عَامِرُ بْنُ شُرَاحِبِيلَ

(ح)

- الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ ٩٥
 حَسَنُ بْنُ يَسَارٍ = الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ

(ص)

- صِلَةُ بْنُ أَشِيمِ الْعَدَوِيِّ ٣١٤

(ذ)

- ذَكْوَانُ بْنُ كَيْسَانَ = طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ

(ض)

- الضُّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ السَّعْدِيُّ = الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ

(ر)

(ط)

- الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ ٥٢
 رَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ = رَبِيعَةُ الرَّأْيِي ١٤٤ ، ١٣٥
 رَبِيعَةُ الرَّأْيِي ١٥٥
 رَجَاءُ بْنُ حَبِوَةَ ٤٤٣
 رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ ٤٤٣

(ع)

- عَامِرُ بْنُ شُرَاحِبِيلَ ١٧٢
 عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ ٢٢
 عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ ٤٠٥ ، ٣٨٩
 عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثَوْبٍ = أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ

(ز)

- زَيْنُ الْعَابِدِينَ ٣٣٧

مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ ١٢٤
 مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ = مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ
 مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ ٢٤٠ ، ٢٢٩

(ن)

النَّجَاشِيُّ ٤٢١
 الثُّعْمَانُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ الْمَرْزُبَانِ = أَبُو حَنِيْفَةَ الثُّعْمَانُ

عُرْوَةُ بْنُ الزُّرَيْرِ ٣٨
 عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ٩
 عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ = زَيْنُ الْعَابِدِينَ
 عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦

(ق)

الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ٣٠٠

(م)

مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ ٢٦٥

محتوى الكتاب

| <u>الموضوع</u> | <u>الصفحة</u> |
|--------------------------------------------------------------------------------------------|---------------|
| ١ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ | ٩ |
| ٢ غَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ | ٢٢ |
| ٣ عُروَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ | ٣٨ |
| ٤ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ | ٥٢ |
| ٥ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْمُرْنِيُّ | ٦٥ |
| ٦ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ « وَابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ » | ٨٠ |
| ٧ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ | ٩٥ |
| ٨ شُرَيْحُ الْقَاضِي | ١١١ |
| ٩ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ | ١٢٤ |
| ١٠ رَبِيعَةُ الرَّأْيِ (أ) | ١٣٥ |
| ١١ رَبِيعَةُ الرَّأْيِ (ب) | ١٤٤ |
| ١٢ رَجَاءُ بْنُ حَبِوَةَ | ١٥٥ |
| ١٣ غَامِرُ بْنُ شُرَاحِبِيلَ | ١٧٢ |
| ١٤ سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ | ١٨٥ |
| ١٥ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ | ١٩٧ |
| ١٦ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ | ٢١٠ |
| ١٧ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ « شَيْخُ الرَّاهِدِينَ فِي عَصْرِهِ » | ٢٢٩ |
| ١٨ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعِ الْأَزْدِيِّ « عَابِدُ الْبَصْرَةِ وَزَيْنُ الْفُقَهَاءِ » | ٢٤٠ |

- ١٩ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ «لَمَحَاتُ رَائِعَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ» ٢٥٥
- ٢٠ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ ٢٦٥
- ٢١ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ «حِكَايَتُهُ مَعَ الْوَالِيِّ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ» .. ٢٨١
- ٢٢ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ «الْوَاعِظُ الْمُرْشِدُ» ٢٨٩
- ٢٣ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ٣٠٠
- ٢٤ صِلَّةُ بْنُ أَشِيمِ الْعَدَوِيِّ ٣١٤
- ٢٥ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ «وَقَفَاتُ ثَلَاثَ مَعَهُ» ٣٢٦
- ٢٦ زَيْنُ الْعَابِدِينَ ٣٣٧
- ٢٧ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ ٣٥٤
- ٢٨ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ «حَفِيدُ الْفَارُوقِ» ٣٦٨
- ٢٩ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ «الْعَالِمُ الْعَامِلُ» ٣٧٨
- ٣٠ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ «أَمِيرُ الْأَنْدَلُسِ» ٣٨٩
- ٣١ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَافِقِيُّ «بَطْلُ مَعْرَكَةِ بَلَاطِ الشُّهَدَاءِ» ٤٠٥
- ٣٢ النَّجَاشِيُّ ٤٢١
- ٣٣ رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ ٤٤٣
- ٣٤ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ «يَسُودُ بَنِي تَمِيمٍ» ٤٥٧
- ٣٥ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ «يَتَتَلَمَذُ عَلَى يَدَيِ الْفَارُوقِ» ٤٦٨
- ٣٦ أَبُو حَنِيفَةَ الثُّعْمَانُ «لَمَحَاتُ رَائِعَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ» ٤٨٤
- ٣٧ أَبُو حَنِيفَةَ الثُّعْمَانُ «وَمَضَاتُ فِزَّةٍ مِنْ عِبْقَرِيَّتِهِ وَذَكَائِهِ» ٤٩٤
- ٥٠٥ فهرس ألفبائي للتابعين

كتب للمؤلف

تنشر للمرة الأولى

• الدين القيم .

أثار قضية من أهم القضايا المؤثرة في حياة البشرية ألا وهي المنهاج الذي يرسم الطريق لجوانب حياتها، ويوائم متطلبات جسدها ونوازع روحها... وأن الإنسان بأهوائه وعقله عاجز كل العجز عَنِ أن يضع هذا المنهاج الشامل الذي يصلح للبشرية كلها في سائر أجيالها... وقد حسم المؤلف - رحمه الله - هذه القضية بأن هذا المنهاج هو الدين بمنطق لا يحتمل الجدل . وقد تطرق هذا الكتاب إلى أهم العلاقات الإنسانية المؤثرة في أي مجتمع كان ، والتي نظمها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً... ويُنَّ الفارق العظيم بين مدينة الإسلام التي فاضت بالخير والبر حتى بلغت ترفاً ويُنَّ مبادئ الحضارة الغربية التي لا ينعم بها الملونون الغربيون أنفسهم...

* * *

• البطولة .

إن للبطولة مقومات قد لا توجد عند كل شجاع... وللشجاعة سمات قد يتحلى بها قُطاع الطرق... فهل البطولة هي الشجاعة !!؟ وهل كل شجاع بطل !!؟ إن هذا الكتاب محاولة واعية جادة لإبراز جلال معنى البطولة وسمو قيمتها، تبدأ بالنظرة اللغوية لتنتقل إلى النظرة الموسوعية . لقد حدد المؤلف - رحمه الله - للبطولة إطاراً أبرز من خلاله أهم معالمها، والبواعث التي تبعث عليها، وضرب لكل باعث منها قصة حقيقية واقعية من تاريخنا الثري الغني . إن هذا الكتاب قدوة في سلامة الفكر، واستقامة القصد، ونبل الغاية، وصفاء اللغة، وإيجاز العبارة، ووضوح التعبير .

* * *

• صور من حياة الصحابيات .

هذا الكتاب يجوب بنا في رحاب حياة المرأة المسلمة التي عاشت في كنف الرسول الكريم ﷺ من خلال صور متعددة تعبر عن المنهج الإسلامي القويم الذي وضع الأسس لحقوق المرأة وواجباتها... فَتَحَتْ ظِلُّهُ بايعة عَنِ ما بايع عليه الرجال ، ورسمت أسمى معاني البذل والعطاء في سبيل ذلك . ولم تقتصر خصائص المرأة المسلمة عَنِ أنها مؤمنة راسخة الإيمان ، وزوجاً وأماً من الطراز الأول ، ربت فأحكمت وأصبحت فاحتسبت... بل كانت فوق ذلك كله مجاهدة في سبيل الله فخاضت المعارك وضممت الجراح ، وحملت الزاد وأصلحت السهام ، وسكبت الماء في حلوق العطاش وهم يجردون بنفوسهم في سبيل الله... إنها حياة المرأة المسلمة بكل ما فيها من سمو وفخار .

* * *

• حدث في رمضان .

وقفات تاريخية بأسلوب قصصي ممتع ، رصدت بعض الأحداث التي وقعت في شهر رمضان المبارك... ذلك الشهر الكريم الذي سعد فيه هذا الكوكب الأرضي بأعظم حادث وقع على ظهره ؛ فكان هذا الحادث فرقاناً

في تاريخ البشرية كلها، وإذناً بمولد عالم جديد ... وشهد فيه العالم الإسلامي أياماً متنوعة ... منها الحزينة التي لا تذهب الأيام بمرارتها ... وأياماً أعز الله فيها المسلمين من هوان، وقواهم من ضعف، وأعلى في هذا الشهر الكريم رايات الإسلام، ورفع في أيامه أعلام القرآن ... فحبذا رمضان، وحبذا أيامه الغر الميامين .

* * *

• فن الامتحانات بين الطالب والمُعَلِّم

للامتحانات أهمية كبرى في مختلف المراحل التعليمية، فما من أسرة إلا وفيها فرد أو أكثر يواجهون مشكلة الامتحانات كل عام ... وهذا الكتاب يضع يدنا على المشكلة وحلولها، فقد أوضح المؤلف - رحمه الله - للمُعَلِّم مهمة الامتحانات وأنواعها، ومكامن ضعفها، ومواضع صلاحها ... كما وجه الطالب إلى الطريقة المثلى التي يعد بها العدة للامتحانات، بمختلف مراحلها الدراسية ... بدءاً بالاستعداد للامتحانات، والذي يعتمد على كيفية جني ثمار ما قد بذله الطالب من جهد خلال عامه الدراسي، ومراجعته لما دونه من ملاحظات في قاعة الدرس، وما كتبه من ملخصات خلال العام ... ومن ثم الاستعداد النفسي والترتيبات اللازم اتخاذها داخل قاعة الامتحان، مروراً بأهمية استيعاب وفهم مصطلحات الأسئلة التي يستعملها المدرسون في وضع أسئلتهم ... وانتهاءً بورقة الإجابة والعوامل المؤثرة في تقدير الدرجة، مما يمهّد الطريق للنجاح .

* * *

• العدوان على العربية عدوان على الإسلام .

نبه إلى أن لُغتنا العربية ليست ملكاً لشعبٍ يقينه ... وإنما هي تراث العرب والمسلمين جميعاً على اختلاف ديارهم وأقطارهم ... وَبَيَّنَ تَفَرُّدَ هذه اللُّغة وتَمَيُّزُها عن غيرها من لُغات الأرض، وقدرتها على الوفاء بمطالب الحياة، والنهوض بأعباء الحضارة ... كما ألقى الأضواء على الحرب التي شنها الأعداء على لُغة القرآن؛ تارةً في الشرِّ وأخرى في العَلَنِ ... وناقش الحُجَج التي أطلقها الخصوم تحت ستار التجديد والإصلاح ... وكشف المقاصد التي تُكْمِن وراء هذه الحرب ... كما وضع المؤلف - رحمه الله - حق أبنائنا علينا في توضيح السبل إلى حماية لُغتهم، وصيانة فُصحائها من أن تمتدَّ إليها يدُ التحريف والتبديل ... وأن نجاهد من أجلهم كما جاهد آباؤنا من أجلنا ... لأن العدوان على هذه اللُّغة إنما هو عدوان على الإسلام .

* * *

• الطَّرِيق إلى الأندلس « لمحات وقطوف » .

لم يكتمل قرن واحد من الزمان بعد هجرة النبي عليه الصلاة والسلام حتى أظلت رايات الإسلام أضواءً شاسعة من هذه الدنيا، وكان منها الأندلس . ولم يكن الطريق إلى الأندلس ممهداً ولا سهلاً ... فقد سلكه المسلمون بتخطيط واع، وإعداد جاد، وعمل دؤوب ... وبذلوا في سبيله النفس والنفس . لقد عرض المؤلف - رحمه الله - بأسلوبه القصصي الشيق أهم معالم هذا الطريق بداية من حصار حصن بابليون في مصر، إلى أن عبروا مضيق جبل طارق، وما بين هذين المكانين من أحداث . لقد كان الطريق إلى الأندلس طريقاً إلى الله، ولله ... وفاء السابقون الأولون حقه، وتركوا للأجيال من بعدهم الأسوة والقُدوة لعلمهم يقتدون .

* * *

كتب للمؤلف

سبق نشرها

● نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد .

هذا الكتاب سلاح لمقاومة ما نتعرض له من غزو فكري ووجداني وحضاري ... ودرع واقٍ يقف في وجه التيار الجارف للمذاهب الأدبية المنبثقة عن نظرة أصحابها إلى الإنسان وما حوله ... لقد عرض المؤلف - رحمه الله - أهم المذاهب الأدبية وموقف الإسلام منها ، وموقف الإسلام من الأدب بعامه ومن الشعر بخاصة ، والخصائص العامة لهذا المذهب الأدبي الذي نسعى له . بتحليله العلمي الدقيق ، ومعلوماته الموسوعية الشاملة النابعة من الكتاب والسنة ، وبأسلوبه الأدبي المميز . وقد خلص المؤلف - رحمه الله - إلى رسم منهج لمذهب إسلامي في الأدب والنقد يُبَيِّن لنا وضع المعايير والمقاييس ؛ لمعرفة الغث من الطيب .

* * *

● صور من حياة الصحابة .

يعرض صوراً من حياة مجموعة من نجوم الهداية التي نشأت في أحضان المدرسة المحمدية ؛ بأسلوب جمع بين البلاغة الأدبية ، والحقيقة التاريخية ... فيجد طالب الأسلوب الإنشائي في هذا الكتاب بغيته ، وناشد الفن القصصي طُلبته ، والساعي إلى التأسي بالكرام ما يرضيه ويغنيه ، والباحث عن الحقيقة التاريخية ما يفي بغرضه .

* * *

● صور من حياة التابعين .

يعرض صوراً واقعية مشرقة من حياة مجموعة من أعلام التابعين الذين عاشوا قريباً من عصر النبوة ، وتلمذوا على أيدي رجال المدرسة المحمدية الأولى ... فإذا هم صورة لصحابة رسول الله ﷺ في رسوخ الإيمان ، والتعالي عن غرض الدنيا ، والتفاني في مرضاة الله ... وكانوا حلقة مُحَكِّمة مؤثرة بين جيل الصحابة رضوان الله عليهم وجيل أئمة المذاهب ومن جاء بعدهم . وقد قسمهم علماء الحديث إلى طبقات ، أولهم من لحق العشرة المبشرين بالجنة ، وآخرهم من لقي صغار الصحابة أو من تأخرت وفاتهم .

* * *

● أرض البطولات .

رواية تاريخية تعرض قصة من قصص كفاح أمتنا كتبها شعبنا المؤمن بشفقات السيوف ، وخجرتها بزكي الدماء ضد المستعمر الفرنسي ... ليس فيها من خيال القاص إلا ما يربط بين الوقائع ، ولا من خلق الكاتب إلا ما تستدعيه طبيعة العمل القصصي لتصوير الأحداث ... فزمنها هو ربع القرن الذي أعقب الحرب العالمية الأولى ، ومكانها هو تلك الربوع الشامية ، وأشخاصها مواطنون معروفون . وقد كُتِبَتْ هذه القصة بلغة فصلى ليكون في ذلك بلاغ لأولئك الذين يشيعون بين الناس أن هذا الفن من القول لا يسلس إلا للعامة ، ولا يؤدَّى إلا بها .

* * *

• علي بن الجهم .

« حياته وشعره » .

* * *

• شِعْر الطُّرْد .

« إلى نهاية القرن الثالث الهجري » .

* * *

• الصَّيْد عند العرب .

« أدواته وطرقه - حيوانه الصائِد والمَصِيد » .

* * *

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية

العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٧ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانئ الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣

